رَوْضَةُ المُحِبِّين

وَنزهة المشتَاقين

تأليف

الإمام شمس الدّين محمّد بن أبي بكر بن أيّوب الدمشقي الحنبلي
المعروف بابن قيّم الجوزيّة
المتوفى سنة ٧٥١هـ

خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه
أحمد شمس الدّين

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السّنّة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الثالثة

٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-0890-5
90000>
9 782745 108906

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر يا كريم

الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلا، ونصب طاعته والخضوعَ له على صدق المحبة دليلا، وحرّك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثاراً لطلبها وتحصيلا، وأودعها العالم العلوي والسفلي لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجاداً وإمداداً وقبولا، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلا، فسبحان من صرَّف عليها القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته، واستخرج بها ما خلق له كل حي بحكمته، وصرّفها أنوعاً وأقساماً بين بريته، وفصَّلها تفصيلا، فجعل كل محبوبٍ لمحبه نصيباً، مخطئاً كان في محبته أو مصيباً، وجعله بحبه منعَّماً أو قتيلا. فقسمها بين محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب النيران، ومحب الصُّلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب النِّسوان، ومحب الصبيان، ومحب الأثمان[1]، ومحب الإيمان، ومحب الألحان، ومحب القرآن. وفضّل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلا، فبالمحبة وللمحبة وُجدت الأرض والسموات، وعليها فُطرت المخلوقات، ولها تحرَّكت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتّصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها[2]، واتخذت إلى ربها سبيلا، وكان لها دون غيره مأمولاً وسُولا، وبها نالت الحياة الطيبة وذاقت طعم الإيمان لما رضيت بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولا. وأشهد أن لا إله إلا اللهُ، وحده لا شريك له شهادة مقرٍّ بربوبيته، شاهدٍ بوحدانيته، منقادٍ إليه لمحبته، مذعنٍ له بطاعته، معترفٍ بنعمته، فارٍّ إليه من ذنبه وخطيئته، مؤَملٍ لعفوه ورحمته، طامعٍ في مغفرته، بريءٍ إليه من حوله وقوَّته، لا يبتغي سواه رباً ولا يتخذ من دونه وليًّا ولاً وكيلا، عائذٍ به، ملتجٍ إليه، لا يروم عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلا، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته

(١) الأثمان: الأموال.

(٢) المعاطب: المهالك.

من خلقه، وأمينه عَلَى وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم لديه شفاعة، وأحبهم إليه، وأكرمهم عليه، أرسله للإيمان منادياً، وإلى الجنة داعياً، وإلى صراطه المستقيم هادياً، وفي مرضاته وَمحَابِّه ساعياً، وبكل معروفٍ آمراً، وعن كل منكرٍ ناهياً، رفع له ذكره، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصَّغار عَلَى من خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبين(١)، وقرن اسمه باسمه، فإذا ذُكِر اللّهُ ذُكِر معه، كما في الخطب والتشهّد والتأذين، فلا يصح لأحدٍ خطبةٌ ولا تشهدٌ ولا أذان حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين:

أغـــرٌّ عليـــه للنبـــوة خـــاتـــمٌ مـــن الله ميمـــونٌ يلـــوح ويُشْهَـــدُ
وضـــمَّ الإلٰـــه اسْـــمَ النبـــيِّ إلـــى اسمـــه إذ قـــال فـــي الخمـــس المـــؤَذن أشهـــد
وشـــق لـــه مـــن اسمـــه ليجلَّـــه فـــذو العـــرش محمـــودٌ وهـــذا محمـــد

أرسله على حين فترةٍ من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد محبته وطاعته، وتوقيرَهُ والقيامَ بحقوقه، وسدَّ إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه. فلا مطمع في الفوز بجزيل الثواب، والنجاةِ من وبيل العقاب، إلاَّ لمن كان خلفه من السالكين، ولا يؤمنُ عبدٌ حتى يكون أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، فصلَّى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع عباده المؤمنين عليه، كما وحّد اللّهَ وعرَّف أمته به ودعا إليه، صلاةً لا تروم عنه انتقالاً ولا تحويلاً، وعَلَى آله الطيبين، وصحبه الطاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، جعل هذه القلوب أوعيةً، فخيرُها أوعاها للخير والرشاد، وشرُّها أوعاها للغَيِّ والفساد، وسلّط عليها الهوى، وامتحنها بمخالفته لتنال بمخالفته جنة المأوى، ويستحقَّ من لا يَصْلُحُ للجنة بمتابعته ناراً تلظى، وجعله مركب النفس الأمارة بالسوء وقوتَهَا وغذاها، وداءَ النفس المطمئنة ومخالفَته دواها، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدة القصيرة التي هي بالإضافة إلى الآخرة كساعة من نهار، أو كبللٍ ينال الإصبع حين يدخلها في بحرٍ من البحار، عصيانَ النفس الأمارة ومجانبة هواها، وردعَها عن شهواتها التي في نيلها رداها، ومنعَها من الركون إلى لذاتها، ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها، لتنال نصيبها من كرامته وثوابه موفَّراً كاملاً، وتلتذَّ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب، وأن عيد

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾.

اللقاء قد اقترب، فلا يطول عليها الأمد باستبطائه. كما قيل:

فما هي إلا ساعةٌ ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

هيأها لأمرٍ عظيم، وأعدَّها لخطبٍ جسيم، وادَّخر لها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر عَلَى قلب بشرٍ من النعيم المقيم، واقتضت حكمته البالغةُ أنها لا تصل إليه إلا من طريق المكاره والنصَب، ولا تعبرُ إليه إلا عَلَى جسر المشقة والتعب، فحجبه بالمكروهات صيانةً له عن الأنفس الدنيّات، المؤثِرَة للرذائل والسفليات، وشمّرت إليه النفوس العلويات، والهمم العليّات، امتطت في السير إليه ظهور العزمات، فسارت في ظهورها إلى أشرف الغايات:

وركب سرَوْا والليل مُرْخٍ رِوَاقَه عَلَى كل مغبرٍّ الموارد قاتمِ
حدَوْا[1] عزماتٍ ضاعت الأرض بينها فصار سُراهم في ظهور العزائم
أرتهم نجومُ الليل ما يطلبونه عَلَى عاتق الشِّعرى وهام النعائم[2]
فأَمُّوا حمَى لا ينبغي لسواهم وما أخذتهم فيه لومةُ لائم

أجابوا منادِي الحبيب لما أذَّن لهم حيَّ على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في مرضاته بذل المحبّ بالرضا والسماح، وواصلوا السير إليه بالغدوّ والرَّواح. فحمدوا عند الوصول مسراهم وإنما يَحْمَدُ القوم السُّرى[3] عند الصباح، تعبوا قليلا، فاستراحوا طويلا، وتركوا حقيراً، واعتاضوا عظيماً. وضعوا اللذة العاجلة والعاقبة الحميدة في ميزان العقل فظهر لهم التفاوُت، فرأوا من أعظم السَّفه بيعَ الحياة الطيبة الدائمة في النعيم المقيم بلذة ساعةٍ تذهب شهوتها، وتبقى شقوتها. هذا وإنّ مِن أيام اللذات لو صفت للعبد من أوّل عمره إلى آخره لكانت كسحابة صيفٍ تتقشّع عن قليل، وخيال طيفٍ ما استتم الزيارة حتى آذن بالرحيل. قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧] ومن ظفر بمأموله من ثواب الله، فكأنه لم يُوتَر[4] من دهره بما كان يحاذره ويخشاه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا من الشعر:

كأنك لم تُوتَرْ من الدهر مرةً إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

---

(١) حدا الإبل وبها: ساقها وحثها على السير بالحداء. (٢) الشعرى: كوكب نير يطلع عند شدة الحر.

(٣) السرى: سير عامة الليل. يؤنث ويذكر. وهذا المثل يضرب لمن يحتمل المشقة رجاء الراحة، وفي الحث على مزاولة الأمر، والصبر، وتوطين النفس حتى يحمد عاقبته.

(٤) وتر الرجل: أفزعه وأدركه بمكروه، ووتره أيضاً إذا أصابه بوتر وهو الذحل، أي الثأر عامة أو الظلم فيه.

فصل: وهذا ثمرة العقل الذي به عُرف الله سبحانه وتعالى وأسماؤُه وصفات كماله ونعوتُ جلاله، وبه آمن المُؤمِنُون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عُرفت آيات ربوبيته وأدلةُ وحدانيته ومعجزات رسله، وبه امْتُثِلَتْ أوامره واجْتُنِبَتْ نواهيه، وهو الذي تَلَمَّح العواقب فراقبها، وعمل بمقتضى مصالحها، وقاوم الهوى فردَّ جيشه مفلولا، وساعد الصبر حتى ظفر به بعد أن كان بسهامه مقتولا، وحثَّ عَلَى الفضائل، ونهى عن الرذائل، وفتق المعاني وأدرك الغوامض، وشدّ أَزْرَ العزم فاستوى عَلى سُوقه، وقوّى أَزْرَ الحزم حتى حظي من الله بتوفيقه، فاستجلب ما يَزين، ونفى ما يَشِين، فإذا نزَل وسلطانه أسر جنود الهوى فحصرها في حبس من ترك لله شيئاً عوَّضه الله خيراً منه، ونهض بصاحبه إلى منازل الملوك، إذا صيَّر الهوى الملكَ بمنزلة العبد المملوك، فهي شجرةٌ عِرْقُها الفكر في العواقب، وساقُها الصبر، وأغصانُهَا العلم، وورقها حسن الخُلُق، وثمرها الحكمة، ومادَّتها توفيق مَنْ أزِمَّة الأمور بيديه، وابتداؤها منه وانتهاؤها إليه. وإذا كان هذا وصفَه، فقبيح أن يُدال[1] عليه عدوُّه فيعزله عن مملكته، ويحطه عن رتبته، ويستنزله عن درجته، فيصبح أسيراً بعد أن كان أميراً، ومحكوماً بعد أن كان حاكماً، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومن صبر عَلى حكمه أرتعه[2] في رياض الأماني والمنى، ومن خرج عن حكمه أورده حياض الهلاك والردى، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لقد سبق إلى جنات عدنٍ أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجًّا ولا اعتماراً، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منه قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم، وخشعت له جوارحهم، ففاقوا الناس بطيب المنزلة وعلوِّ الدرجة عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين. وقالت عائشة رضي الله عنها: قد أفلح من جعل الله له عقلا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولد لكسرى مولودٌ فأَحضر بعض المؤَدِّبين ووضع الصَّبي بين يديه وقال: ما خير ما أوتي هذا المولود؟ قال: عقلٌ يولد معه. قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدبٌ حسنٌ يعيش به في الناس. قال: فإن لم يكن؟ قال: فصاعقةٌ تحرقه. وقال بعض أهل العلم: لما أهبط الله تبارك وتعالى آدم إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بثلاثة أشياء: الدين، والخلق، والعقل، فقال: إن الله يخيِّرك بين هذه الثلاثة، فقال: يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاءِ إلا في الجنة، ومد يده إلى العقل فضمّه إلى نفسه فقال للآخرَين: اصعدا. فقالا: أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان. فصارت الثلاثة إلى آدم

---

(١) يدال عليه: يغلبه وينتصر عليه.

(٢) أرتعه: نعمه، والرتع: التنعم، ورتع: أكل وشرب ما شاء في خصب وسعة.

عليه السلام. وهذه الثلاثة أعظم كرامةٍ أكرم الله بها عبده، وأجلُّ عطيّةٍ أعطاه إياها. وجعل لها ثلاثة أعداء: الهوى، والشيطان، والنفس الأمّارة. والحرب بينهما دُوَلٌ وسِجال[1]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ العَزِيزِ الحكِيم﴾ [آل عمران: ١٦] وقال وهب ابن مُنَبِّه: قرأت في بعض ما أنزل الله تعالى: إن الشيطان لم يكابد شيئاً أشدَّ عليه من مُؤْمنٍ عاقل، وإنه ليسوق مائة جاهلٍ فيستجرّهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤْمن العاقل فيُصْعِب عليه حتى ينال منه شيئاً من حاجته، قال: وإزالة الجبل صخرةً صخرةً أهون على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، فإذا لم يقدر عليه تحوّل إلى الجاهل فيستأسره، ويتمكن من قيادة حتى يُسْلِمه إلى الفضائح التي يتعجل بها في الدنيا الجَلْدَ والرجم والقطعَ والصلب والفضيحة، وفي الآخرة العار والنار والشَّنَار[2]. وإن الرجلين ليستويان في البِرِّ ويكون بينهما في الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل، وما عُبِدَ اللّهُ بشيءٍ أفضل من العقل. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لو أن العاقل أصبح وأمسى وله ذنوب بعدد الرمل كان وشيكاً بالنجاة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أصبح وأمسى له من الحسنات وأَعمال البرّ عدد الرمل لكان وشيكاً أن لا يسلم له منها مثقال ذرَّة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: إن العاقل إذا زلَّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي رُزقه، والجاهل بمنزلة الذي يبني ويهدم، فيأْتيه من جهله ما يفسد صالح عمله، وقال الحسن: لا يَتِمّ دين الرجل حتى يتمّ عقله. وما أودع الله امرءاً عقلاً إلا استنقذه به يوماً. وقال بعض الحكماء: من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حتفه[3] وهلاكه في أحب الأشياء إليه. وقال يوسف بن أسباط: العقل سراج ما بطن، وزينة ما ظهر، وسائس الجسد، ومِلاَك أمر العبد، ولا تصلحُ الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه. وقيل لعبد الله بن المبارك: ما أفضل ما أُعطي الرجل بعد الإسلام؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موتٌ عاجل. وفي ذلك قيل:

ما وهب الله لامرىءٍ هبةً ... أَحسنَ من عقله ومن أَدَبِهْ
هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففَقْدُهُ للحياة أجملُ بِهْ

فصل: وإذا كانت الدولة للعقل سالمهُ الهوى ، وكان من خدمه وأَتباعه، كما أن

---

(١) الحرب بينهم سجال: يعني أنها مرة لهم ومرة عليهم.
(٢) الشنار: أقبح العيب، العار، الأمر المشهور بالشنعة.
(٣) الحتف: الموت.

الدولة إذا كانت للهوى، صار العقل أَسيراً في يديه، محكوماً عليه. ولما كان العبد لا ينفكّ عن الهوى ما دام حيًّا ـ فإن هواه لازمٌ له ـ كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكلِّية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهَلَكَةِ إلى مواطن الأمن والسلامة، مثاله: أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة، بل أمره بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ما طاب له منهنَّ من واحدةٍ إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرى الهوى من محلٍّ إلى محل، وكانت الريح دَبوراً[(١)] فاستحالت صَباً، وكذلك هو الظفر والغلبة والقهر، لم يأمر بالخروج عنه، بل أمر بصرفه إلى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره مما يُمَرِّنه ويَعُدُّه للظفر، وكذلك هوى الكبر والفخر والخُيَلاء مأذونٌ فيه، بل مستحبٌّ في محاربة أعداء الله. وقد رأى النبي ﷺ أبا دُجانة سِمَاك بن خَرَشَة الأنصاري يتبختر بين الصفين فقال: «**إنها لَمِشْيَةٌ يبغضها اللّهُ إلا في مثل هذا الموطن**». وقال: «**إن من الخُيَلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغض الله، فالتي يحبها اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة**» وذكر الحديث[(٢)]. فما حرّم الله على عباده شيئاً إلا عوَّضهم خيراً منه؛ كما حَرَّم عليه الاستقسام بالأزلام[(٣)] وعوَّضهم منه دعاءَ الاستخارة، وحرَّم عليهم الربا وعوَّضهم منه التجارة الرابحة، وحرَّم عليهم القمار وأعاضهم منه أَكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام، وحرَّم علهيم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن، وحرَّم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح والتسري بصنوف النساء الحسان، وحرَّم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرَّم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثاني، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني، وحرَّم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات. ومن تلمَّحَ هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المردي، واعتاض عنه بالنافع المجدي، وعرف حكمة الله ورحمته وتمامَ نعمته عَلى عباده فيما أَمرهم به ونهاهم عنه وفيما أَباحه لهم، وأنه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، ولا نهاهم

(١) الدبور: ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهي الصبا.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦): عن جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، وإن من الخيلاء ما يحب الله ومنها ما يبغض الله. فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريبة. وأما الغيرة التي يبغض الله فالغيرة في غير ريبة. وأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة، والخيلاء التي يبغض الله فاختيال الرجل في الفخر والبغي».

(٣) جمع زلم: وهو السهم الذي لا ريش له.

عنه بخلاً منه تعالى عليهم، بل أَمرهم بما أَمرهم إحساناً منه ورحمة، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحِمْيَة[1]. فلذلك وضعنا هذا الكتاب وضع عَقد الصلح بين الهوى والعقل، وإذا تمّ عقد الصلح بينهما سهل على العبد محاربة النفس والشيطان، والله سبحانه المستعان، وعليه التكلان، فما كان فيه من صوابٍ فمن الله فهو الموفق له والمعين عليه، وما كان فيه من خطإٍ فمني ومن الشيطان، واللّٰهُ ورسولُه من ذٰلك بريئان.

وقد جعلته تسعةً وعشرين باباً:

الباب الأوّل: في أسماء المحبة.

الباب الثاني: في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها.

الباب الثالث: في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض.

الباب الرابع: في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجدا بالمحبة ولأجلها.

الباب الخامس: في دواعي المحبة ومتعلَّقها.

الباب السادس: في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه.

الباب السابع: في ذكر مناظرة بين القلب والعين.

الباب الثامن: في ذكر الشُّبَهِ التي احتج بها من أَباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه.

الباب التاسع: في الجواب عما احتجّت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج.

الباب العاشر: في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه.

الباب الحادي عشر: في العشق وهل هوا اضطراريٌّ خارجٌ عن الاختيار، أو أمرٌ اختياريٌّ، واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه.

الباب الثاني عشر: في سكرة العشاق.

الباب الثالث عشر: في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان.

الباب الرابع عشر: فيمن مدح العشق وتمناه، وغَبَط صاحبه على ما أُوتيه من مناه.

الباب الخامس عشر: فيمن ذمَّ العشق وتبرَّم به، وما احتجَّ به كل فريق عَلَى صحة مذهبه.

---

(١) الحمية: الامتناع عما يضر والوقاية منه.

الباب السادس عشر: في الحكم بين الفريقين، وفصل النزاع بين الطائفتين.

الباب السابع عشر: في استحباب تخيُّر الصوَر الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله.

الباب الثامن عشر: في أن دواءَ المحبين، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين.

الباب التاسع عشر: في ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه عَلَى كل حال.

الباب العشرون: في علامات المحبة وشواهدها.

الباب الحادي والعشرون: في اقتضاء المحبة إفرادَ الحبيب بالمحب، وعدمَ التشريك بينه وبين غيره فيه.

الباب الثاني والعشرون: في غيرة المحبين عَلَى أحبابهم.

الباب الثالث والعشرون: في عفاف المحبين مع أحبابهم.

الباب الرابع والعشرون: في ارتكاب سبل الحرام، وما يفضي إليه من المفاسد والآلام.

الباب الخامس والعشرون: في رحمة المحبين، والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يُبيحه الدين.

الباب السادس والعشرون: في ترك المحبين أدنى المحبوبَيْن رغبةً في أعلاهما.

الباب السابع والعشرون: فيمن ترك محبوبه حراماً فبُذل له حلالاً، أو أعاضه الله خيراً منه.

الباب الثامن والعشرون: فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، عَلى لذّة الوصال الحرام.

الباب التاسع والعشرون: في ذمّ الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى. وسميته:

(روضة المحبين، ونزهة المشتاقين)

والمرغوب إلى من يقف عَلَى هذا الكتاب أن يعذر صاحبه، فإنه علّقه في حال بعده عن وطنه، وغيبته عن كتبه، فما عسى أن يبلغ خاطرُه المكدود، وسعيه المجهود، مع بضاعته المزجاة[1]، التي حقيقٌ بحاملها أن يقال فيه «تسمع بالمعيديِّ خيرٌ من أن تراه»

(١) مزجاة: رديئة ومردودة. والمزجى: الشيء القليل.

وها هو قد نصب نفسه هدَفاً لسهام الراشقين، وغَرَضاً لأسنَّة الطاعنين، فلقاريه غُنْمه، وعَلَى مؤَلفه غُرْمه، وهذه بضاعته تعرض عليك، ومَوليَّته[1] تهدى إليك، فإن صادفت كفؤاً كريماً لها لن تعدم منه إمساكاً بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان، وإن صادفت غيره فالله تعالى المستعان، وعليه التكلان. وقد رضي من مهرها بدعوةٍ خالصةٍ إن وافقت قبولاً واستحساناً، وبَرَدٍّ جميلٍ إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً. والمنصف يهب خطأ المخطىء لإصابته، وسيئاته لحسناته. فهذه سنة الله في عبادة جزاءَ وثواباً. ومَن ذا الذي يكون قوله كله سديداً وعمله كله صواباً؟ وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ونطقه وحيٌ يوحى، فما صح عنه فهو نقلٌ مصدَّق عن قائلٍ معصوم، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين فيه معدوم، فإن صحّ النقل لم يكن القائل معصوماً، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلوماً.

فصل: وهذا الكتاب يَصلُح لسائر طبقات الناس. فإنه يصلُح عوناً عَلَى الدين وعَلَى الدنيا، ومرقاةً للذة العاجلة ولذة العُقْبي، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها[2]، وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نُكَتٍ تفسيرية، وأَحاديثَ نبوية، ومسائلَ فقهية، وآثارٍ سَلَفية، وشواهدَ شعرية، ووقائعَ كونية، ما يكون مُمتِعاً لقاريه، مُرَوِّحاً للناظرِ فيه، فإن شاء أَوسعه جداً وأَعطاه ترغيباً وترهيباً، وإن شاء أَخذ من هزله ومُلَحه نصيباً، فتارةً يضحكه وتارة يبكيه، وطوراً يبعده من أَسباب اللذة الفانية، وطوراً يرغّبه فيها ويدنيه. فإن شئتَ وجدته واعظاً ناصحاً، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً. وهذا حين الشروع في الأبواب، والله سبحانه الفاتح من الخير كل باب، وهو المسؤول سبحانه أَن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مدنياً من رضاه والفوز بجنات النعيم، والله متولي سريرة العبد وكسبه، وهو سبحانه عند لسان كل قائلٍ وقلبه، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٦].

---

(١) موليته: من له ولاية عليها.

(٢) جمع غائلة: الفساد، والشر، والداهية.

في أسماء المحبة

لما كان الفهم لهذا المسمى أشدَّ، وهو بقلوبهم أَعلق، كانت أَسماؤه لديهم أكثر. وهذا عادتهم في كل ما اشتدّ الفهم له، أو كَثُر خُطُورُه على قلوبهم، تعظيماً له، أو اهتماماً به، أو محبةً له. فالأوّل كالأسد والسيف، والثاني كالداهية، والثالث كالخمر. وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثةُ في الحب، فوضعوا له قريباً من ستين[1] اسماً وهي: الْمَحَبَّة، وَالعَلاقة، وَالهَوى، وَالصَّبْوة، وَالصَّبابة، وَالشَّغَف، وَالمِقَة، وَالْوَجْد، وَالكلَف، وَالتَتيُّم، والعِشق، والجَوى، والدَّنَف، والشَّجْو، وَالشَّوق، والخِلابة، والبلابل، وَالتَّباريح، والسَّدَمُ، وَالغَمَرَات، وَالوَهَل، وَالشَّجَن، واللاعِج، والاكتئاب، وَالوَصَب، والحُزْن، والكَمَد، واللَّذْع، والحُرَق، والسُّهْد، والأَرَق، واللَّهْف، والحنين، والاستكانة، والتَّبالة، واللَّوْعة، والفُتون، والجُنون، واللَّمَم، والخَبْلُ، والرَّسِيس، والداء المُخامِر، والودّ، والخُلَّة، وَالخِلْم، والغَرَام، والهُيام، والتَّدْلِيهُ، والْوَلَهُ، والتعَبُّد. وقد ذُكِر له أسماء غير هذه وليست من أسمائه، وإنما هي من مُوجباته وأحكامه فتركنا ذكرها.

---

(١) لم يذكر المؤلف منها غير خمسين.

في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها

فأما المحبة فقيل: أصلها الصفاء لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونَضارتها حَبَب الأسنان، وقيل: مأخوذة من الحَباب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذا المحبة غَليان القلب وثورانُه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: مشتقة من اللزوم والثبات، ومنه أَحب البعير إذا برك فلم يَقُم، قال الشاعر[1]:

حُلْــت عليــه بــالفــلاة ضــربــا ضــربَ بعيــر السَّــوْءِ إذ أَحبّــا

فكأنّ المحبَّ قد لزم قلبُه محبوبَه فلم يُرِم انتقالاً، وقيل: بل هي مأخوذة من القَلَق والاضطراب، ومنه سُمِّي القُرْط حِبًّا لقَلَقه في الأذُن واضطرابه، قال الشاعر[2]:

تبيــت الحيَّــة النضنــاض[3] منــه مكــان الحِــبّ تستمــع السِّــرارا

وقيل: بل هي مأخوذة من الحَبّ جمع حَبّة، وهو لباب الشيء وخالصه وأصله، فإن الحَبّ أصل النبات والشجر، وقيل: بل هي مأخوذةٌ من الحُبّ الذي هو إناءٌ واسعٌ يوضع فيه الشيء فيمتلىء به بحيث لا يَسَع غيرَه، وكذلك قلب المحب ليس فيه سَعَةٌ لغير محبوبه، وقيل: مأخوذة من الحُبّ وهو الخشبات الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جَرَّةٍ أو غيرها فسمي الحب بذلك لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه الأثقال، كما تتحمل الخَشَبات ثِقَل ما يوضع عليها، وقيل: بل هي مأخوذةٌ من حَبّة القلب وهي سُوَيْدَاؤه، ويقال: ثمرته، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حَبّة القلب، وذلك قريبٌ من قولهم: ظَهَره إذا أصاب ظَهْره، وَرَأسَه إذا أصاب رأسه، ورآه إذا أصاب رئته، وبَطَنه إذا أصاب بَطْنَه، ولكن في هذه الأفعال وصل أثرُ الفاعل إلى المفعول، وأما في المحبة فالأثر إنما وصل إلى المُحِبّ. وبعدُ ففيه لغتان حَبَّ وَأَحَبَّ قال الشاعر[4]:

(١) هو أبو محمد الفقعسي.
(٢) هو الراعي النميري.
(٣) النضناض من الحيات: الذي لا يثبت في مكانه لشرته ونشاطه أو الذي يخرج لسانه ويحركه.
(٤) هو غيلان بن شجاع النهشلي.

أحِبُّ أبَا مروان من أجل تمره[1] وأعلم أن الرفق بالمرء أرْفَقُ
ووالله لولا تمره ما حببتهُ ولا كان أدنى من عُبَيْدٍ وَمُشْرِقِ

كذلك أنشده الجوهري بالإقواء[2] فجمع بين اللغتين، ولكن في جانب الفعل واسم الفاعل غلّبوا الرباعي فقالوا: أحبّه يحبّه فهو مُحِب، وفي المفعول غلّبوا فَعَل فقالوا في الأكثر محبوبٌ ولم يقولوا: مُحَبٌّ إلّا نادراً؛ قال الشاعر[3]:

ولقد نزلتِ فلا تَظُنّي غيرَه مني بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ

فهذا من أفعل، وأما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنى المحبوب؛ قال الشاعر:

وما زرت ليلى أن تكون حبيبة إليّ ولا دَيْنٌ أنَا طالبه

وقد استعملوه بمعنى المحب، قال الشاعر:

وما هجرَتكِ النفسُ أنكِ عندها قليلٌ ولا أنْ قلَّ منكِ نصيبُها
ولكنهم يا أحسن الناس أُولعوا بقول إذا ما جئت هذا حَبيبُها

فهذا يحتمل أن يكون بمعنى المحبوب وأن يكون بمعنى المُحِبّ، وأما الحِبُّ بكسر الحاء فلغة في الحُبّ وغالب استعماله بمعنى المحبوب قال في الصحاح: الحُبّ المحبة وكذلك الحِب بالكسر. والحِبّ أيضاً الحبيب مثل خِدْنٍ وَخَدِين. قلت: وهذا نظير ذِبْح بمعنى مذبوح، ونِهْب بمعنى منهوب، ورِشْق بمعنى مرشوق، ومنه السب ويشترك فيه الفاعل والمفعول، قال أبو عبيد: السِّبُّ بالكسر الكثير السِّباب، قال الجوهريّ: وسِبُّك الذي يُسَابُّك، قال حسان:

لا تَسُبَّنَّني فلست بِسِبِّي إن سِبِّي من الرجال الكريمُ

والصواب أنه عبد الرحمن بن حسان. وقد يشترك فيه المصدر والمفعول نحو رِزْق. وفي إعطائهم ضمة الحاء للمصدر سرٌّ لطيف، فإن الكسرة أخفُّ من الضمة، والمحبوب أخف عَلى قلوبهم من نفس الحُبّ، فأعطَوُا الحركة الخفيفة للأخفّ، والثقيلةَ للأثقل، ويقال: أحَبَّهُ حُباً ومحبةً والمحبة أمُّ باب هذه الأسماء.

فصل: وأما كلام الناس في حدّها فكثير، فقيل: هي الميل الدائم، بالقلب الهائم. وقيل: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب. وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب. وقيل: اتِّحَاد مُراد المحب ومراد المحبوب. وقيل: إيثار مراد المحبوب على

(١) في الصحاح: «ثمره».
(٢) الإقواء: اختلاف حركة الروي.
(٣) هو عنترة بن شداد.

مُراد المحب. وقيل: إقامة الخدمة مع القيام بالحُرْمة. وقيل: استقلال الكثير منك لمحبوبك، واستكثار القليل منه إليك. وقيل: استيلاء ذكر المحبوب على قلب المحب. وقيل: حقيقتها أن تَهَب كلَّكَ لمن أحببته، فلا يبقى لك منك شيء. وقيل: هي أن تمحو من قلبك ما سوى المحبوب، وقيل: هي الغَيرة للمحبوب أن تُنْتَقَصَ حُرْمته، والغيرة على القلب أن يكون فيه سواه. وقيل: هي الإرادة التي لا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبِرِّ. وقيل: هي حفظ الحدود، فليس بصادق من ادَّعى محبة من لم يحفظ حدودَه. وقيل: هي قيامك لمحبوبك بكل ما يحبه منك. وقيل: هي مُجَانَبَةُ السُّلُوّ عَلى كل حال كما قيل:

ومن كان من طول الهوى ذاق سَلْوَةً ... فـإنـيَ مـن ليلـى لهـا غيـرُ ذائـق
وَأكْثَـرُ شـيءٍ نِلْتُـهُ مـن وصـالهـا ... أمـانـيُّ لـم تَصْـدُق كَلَمْعَـةِ بـارق

وقيل: نارٌ تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب. وقيل: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس كما قيل:

يُـرَادُ مـن القلـب نسيـانكـم ... وَتَـأبَـى الطِّبَـاعُ عَلَـى النَّـاقِـل[1]

وقيل: عمى القلب عن رؤية غير المحبوب، وصَمَمُهُ عن سَمَاع العذل فيه، وفي الحديث: «**حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيصمّ**»[2] رواه الإمام أحمد. وقيل: ميلكَ إلى المحبوب بكلِّيَّتِك، ثم إيثارك له عَلَى نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتُك له سرًّا وجهراً، ثم علمُك بتقصيرك في حبه، وقيل: هي بَذْلُكَ المجهود فيما يرضي الحبيب. وقيل: هي سكونٌ بلا اضطراب، واضطرابٌ بلا سكون، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه، فيضطرب شوقاً إليه ويسكن عنده. وهذا معنى قول بعضهم: هي حركةُ القلب على الدوام إلى المحبوب وسكونُهُ عنده، وقيل: هي مصاحبة المحبوب على الدوام كما قيل:

ومـن عَجَـب أنـي أحِـنّ إليهـمُ ... وأسـأل عنهـم مـن لَقِيـتُ وهـم معـي
وتطلبهُـم عينـي وهـم فـي سـوادهـا ... ويشتـاقُهـم قلبـي وهـم بيـن أضلُعـي

وقيل: هي أن يكون المحبوب أقربَ إلى المحب من رُوحه كما قيل:

يـا مقيمـاً فـي خـاطـر وجَنَـانـي ... وبعيـداً عـن نـاظـري وعِيـانـي
أنـتَ روحـي إن كُنـتُ لسـتُ أراهـا ... فهـي أدنـى إلـيَّ مـن كـلّ دانـي

---

(١) البيت للمتنبي.

(٢) أخرجه من حديث أبي الدرداء: أحمد في المسند (٥/ ٩٤) و (٦/ ٤٥٠) وأبو داود في الأدب باب ١١٦.

وقيل: هي حضور المحبوب عند المحب دائماً كما قيل:

خيالُكَ في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

وقيل: هي أن يستويَ قرب دار المحبوب وبعدها عند المحب كما قيل:

يا ثاوياً بين الجوانح والحَشَى ... مني وإنْ بَعُدَتْ عَليَّ دِيَارُهُ
عَطفاً على صبٍّ بحُبِّك هائم ... إنْ لم تَصِلْهُ تَصَدَّعَتْ أعْشَارُهُ[1]
لا يستفيق من الغرام وكلما ... حجبوكَ عنه تهتَّكتْ أستارُه

وقيل: هي ثبات القلب على أحكام الغرام واستلذاذُ العذل فيه والملام كما قيل[2]:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... مُتَأخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ
وأهنتِني فأهنتُ نفسي جاهداً ... ما من يهون عليكِ ممن يُكْرَم
أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذة ... حُبّاً لذكركِ فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ

فصل: وأما العَلاقة وتسمَّى العَلَقَ بوزن الفَلَق فهي من أسمائها قال الجوهري: والعَلَق أيضاً الهوى يقال: نظرةٌ من ذي عَلَق، قال الشاعر[3]:

ولقد أردتُ الصبرَ عنكِ فعاقني ... عَلَقٌ بقلبي من هواكِ قديمُ

وقد عَلِقَهَا بالكسر وعَلِقَ حبُّها بقلبه، أي هَوِيَهَا وعَلِق بها عُلوقاً، وسميت عَلاقةً لتعلُّق القلب بالمحبوب، قال الشاعر[4]:

أعلاقةً أمَّ الوُلَيْدِ بعدما ... أفنانُ رأسِكِ كالثَّغَام المُخْلِسِ[5]

فصل: وأما الهوى فهو ميلُ النفس إلى الشيء، وفعله هَوِيَ يَهْوَى هَوًى، مثل عَمِيَ يَعْمَى عمى. وأما هَوَى يَهْوِي بالفتح فهو السقوط، ومصدرهُ الهُوِيُّ بالضم، ويقال الهوى أيضاً على نفس المحبوب، قال الشاعر:

إن التي زعمت فؤادَكَ مَلَّها ... خُلِقَتْ هواك كما خُلِقْتَ هَوًى لها

ويقال: هذا هوى فلان[6] وفلانةٌ هواه، أي مَهْوِيَّتُه ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل في

---

(١) الأعشار: جمع عشر، القطعة من كل شيء.
(٢) الأبيات لأبي الشيص.
(٣) هو ابن الدمينة.
(٤) هو المرار الفقعسي.
(٥) الثغام بالفتح: نبت يكون في الجبل يبيض إذا يبس ويشبه به الشيب، والمخلس: الذي خالط سواده البياض.
(٦) كذا.. ولعل الصواب: هوى فلانة.

الحبّ المذموم كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ويقال: إنما سمي هوًى لأنه يهوي بصاحبه. وقد يستعمل في الحب الممدُوح استعمالاً مقيّداً. ومنه قول النبي ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»[١] وفي الصحيحين عن عُروة قال: كانت خَوْلَةُ بنت حكيم من اللائي وهَبْنَ أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: أما تستحي المرأة أنْ تَهَبَ نفسها للرجل؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١] قلت يا رسول الله ما أرى ربّك إلا يسارع في هواك. وفي قصة أسارى بدر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فهوِي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ولم يَهْوَ ما قلت، وذكر الحديث[٢]. وفي السنن أنَّ أعرابيًا قال للنبي ﷺ: جئت أسألك عن الهوى فقال: «المَرْءُ مع من أحب»[٣].

فصل: وأما الصَّبوة والصِّبا فمن أسمائها أيضاً قال في الصحاح: والصِّبا من الشوق يقال منه: تصابى وصبا يَصْبُو صَبْوَةً وَصُبُوًّا، أي مال إلى الجهل، وَأَصْبَتْه الجارية وصَبِيَ صَبَاء مثل سَمِعَ سَماعاً، أي لعب مع الصبيان. قلت: أصل الكلمة من الميل يقال: صبا إلى كذا، أي مال إليه، وسُمِّيَت الصبْوة بذلك لميل صاحبها إلى المرأة الصبيَّة والجمع صبايا مثل مَطِيَّةٍ وَمَطَايا، والتصابي هو تعاطي الصَّبْوة مثل التمايُل وبابِهِ. والفرق بين الصِّبا وَالصَّبوة والتصابي أن التصابي هي تعاطي الصِّبا وأن تفعل فعل ذي الصَّبْوة. وأما الصِّبا فهو نفس الميل. وأما الصبْوة فالمرَّة من ذلك مثل الغَشْوَة والكَبْوة، وقد يقال على الصفة اللازمة مثل القَسْوَة. وقد قال يوسف الصِّدّيق عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فصل: وأما الصَّبابة فقال في الصحاح: هي رقة الشوق وحرارته، يقال: رجل صَبٌّ عاشقٌ مشتاق، وقد صَبِبْتَ يَا رجلُ بالكسر، قال الشاعر[٤]:

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٣) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٦٧) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠٨٤) وابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٢٨٩). والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٥٨، وأحمد في المسند (١/ ٣١، ٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦. ومسلم في البرّ حديث ١٦٥. والترمذي في الزهد باب ٥٠، والدعوات باب ٩٨. والدارمي في الرقاق باب ٧١. وأحمد في المسند (١/ ٣٩٢ و ٣/ ١٠٤، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤، و ٤/ ١٠٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥).

(٤) هو الكميت.

ولســـتَ تَصَــبُّ إلـــى الظَّـــاعنيـــن   إذا مـــا صـــديقُـــك لـــم يَصْبَـــب

قلت: والصَّبابة من المضاعف من صبّ يَصَبّ، وَالصِّبا وَالصَّبْوَة من المعتلّ، وهم كثيراً ما يعاقبون بينهما، فبينهما تناسبٌ لفظي ومعنوي، قال الشاعر:

تَشَكَّـــى المحبُّـــونَ الصَّبـــابَـــةَ لَيْتَنـــي   تحمّلـت مـا يلقَـوْنَ مـن بينهـم وحـدي

ويقال: رجلٌ صَبٌّ وامْرَأةٌ صَبٌّ كما يقال: رجلٌ عَدْلٌ وَامْرَأةٌ عَدْلٌ.

فصل: وأما الشَّغَف فمن أسمائها أيضاً: قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] قال الجوهري وغيره: والشَّغاف غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب يقال: شَغَفه الحب، أي بلغ شَغَافَه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] ثم قال: دخل حُبُّهُ تحت الشَّغَاف.

فصل: وأما الشَّعَفُ بالعين المهملة ففي الصحاح شَعَفَه الْحُبُّ، أي أحرق قلبه، وقال أبو زيدٍ: أمرضه، وقد شُعِف بكذا فهو مشعوفٌ، وقرأ الحسن ﴿قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا﴾ قال: بطنها حُباً.

فصل: وأما المِقَةُ فهي فعلة من وَمِق يَمِقُ، وَالمِقَة المحبة والهاء عوضٌ من الواو كالْعِظَة والعِدَة والزِّنَة، فإن أصلها فعل فحذفوا الفاء فعوضوا منها تاء التأنيث جبراً للكلمة وتعويضاً لما سقط منها، والفعل وَمِقَه يَمِقه بالكسر فيهما، أي أحبَّه فهو وامق.

فصل: وأما الْوَجْد فهو الحب الذي يتبعه الحزن، وأكثر ما يُسْتعمل الوَجْدُ في الحزن، يقال منه: وَجَدَ وَجْداً بالفتح، ونحن نذكر هذه المادة وتصاريفها، يقال: وجَدَ مطلوبَه يَجِده وُجوداً، فإن تعلّق ذلك بالضالّةِ سمَّوْهُ وِجْدَاناً، وَوَجَدَ عليه في الغضب مَوْجِدَةً، ووجَد في الحزن وَجْداً بالفتح، ووجد في المال، أي صار واجداً وَجْداً وَوُجْداً ووِجْداً بالفتح والضم والكسر وَجِدَةً إذا استغنى، وأما إطلاق اسم الوَجْد عَلَى مجرد مطلق المحبة فغير معروف، وإنما يطلق على محبةٍ معها فقدٌ يوجب الحزن.

فصل: وأما الكَلَف فهو من أسماء الحب أيضاً، يقال: كَلِفْتُ بهذا الأمر أي أُولعت به فأنا كَلِفٌ به، قال الشاعر:

فتعلَّمـــي أنْ قـــد كَلِفـــتُ بكُـــم   ثـــم اصنعـــي مـــا شئـــتِ عـــن عِلـــم

وأصل اللفظة من الكُلْفة والمشقَّة، يقال: كَلَّفَهُ تكليفاً إذا أمره بما يشُقّ. قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ومنه تكلّفت الأمر تجشَّمته، والكُلْفَةُ ما يُتَكَلَّف من نائبةٍ أو حقّ. والمتكلِّف المتعرِّض لِمَا لا يَعنيه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [صَ: ٨٦] وقيل: هو مأخوذٌ من

الأثر وهو شيءٌ يعلو الوجه كالسِّمْسِم. والكَلَف أيضاً: لونٌ بين السواد والْحُمرة وهي حُمْرةٌ كدِرَة تعلو الوجه، والاسم الكُلْفَة.

فصل: وأما التتيُّم فهو التعبُّد، قال في الصحاح: تَيْمُ الله أي عبد الله، وأصله من قولهم: تيّمه الحب إذا عبَّده وذلّله فهو متيم، ويقال: تامته المرأة، قال لَقيطُ بن زُرارة:

تـامَـتْ فـؤادَكَ لـو يَحْـزُنْـك مـا صنعـت ... إحـدى نسـاءِ بَنِـي ذُهْـلِ بـنِ شَيْبَـانَـا

فصل: وأما العشق فهو أمرّ هذه الأسماء وأخبثها، وقلّ ما ولِعَت به العرب، وكأنهم ستروا اسمه وكنّوا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يُفصحوا به، ولا تكاد تجده في شعرهم القديم، وإنما أُولع به المتأخرون، ولم يقع هذا اللفظ في القرآن ولا في السنة إلا في حديث سُوَيد بن سعيد[1] وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالى. وبعد فقد استعملوه في كلامهم، قال الشاعر:

ومـاذا عسـى الـواشـون أن يتحـدثـوا ... سـوى أن يقـولـوا إننـي لـكِ عـاشـق
نعـم صـدق الـواشـون أنـتِ حبيبـةٌ ... إلـيَّ وإن لـم تَصْـفُ منـكِ الخـلائـق

قال في الصحاح: العِشْق فَرْط الحب، وقد عَشِقها عِشْقاً مثل علم عِلماً وَعَشَقاً أيضاً عن الفراء، قال رؤبة:

ولم يُضِعْها بين فِرْكٍ[2] وَعَشَقْ

قال ابن السرّاج: إنما حرّكه ضرورةً وإنما لم يحرّكه بالكسر إتباعاً للعين كأنه كره الجمع بين كسرتين فإن هذا عزيزٌ في الأسماء، ورجلٌ عِشِّيقٌ مثل فِسِّيق، أي كثير العشق، والتَّعشُّق تكلّف العشق قال الفرّاء: يقولون امرأةٌ محبٌّ لزوجها وعاشق. وقال ابن سيده: العشق عجب المحب بالمحبوب يكون في عفاف الحب ودَعارته، يعني في العفة والفجور. وقيلَ: العِشْقُ الاسم والعَشَق المصدر، وقيل: هو مأخوذ من شجرة يقال لها: عاشقة[3] تخضرّ ثم تَدِقّ وتصفرّ، قال الزَّجّاج واشتقاق العاشق من ذلك، وقال الفرّاء: عَشِقَ عِشْقاً وعَشَقاً إذا أفرط في الحب، والعاشق الفاعل، والمعشوق المفعول، والعَشِيقُ يقال لهذا ولهذا، وامرأةٌ عاشقٌ وعاشقةٌ قال[4]:

وَلَـذّ كَطَعْـمِ الصَّـرْخَـدِيِّ طَـرَحْتُـهُ ... عَشِيَّـةَ خِمْـسِ القـوم والْعَيـنُ عـاشِقَـهْ[5]

---

(١) هو حديث: «من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد».

(٢) فرك: بغض وكره.

(٣) كذا.. والذي في كتب اللغة عشقة بفتحتين وستأتي قريباً.

(٤) هو الراعي النميري.

(٥) في اللسان: صرخد: موضع نسب إليه الشراب في قول الراعي. والخمس: من أظماء الإبل أن ترد=

وقال الفرّاء: العشق نبتٌ لَزِجٌ، وسُمِّيَ العشق الذي يكون من الإنسان لِلُصوقِه بالقلب. وقال ابن الأعرابي: العَشَقَةُ اللبلابة تخضرّ وتصفرّ وتعلق بالذي يليها من الأشجار، فاشتقّ من ذلك العاشق. وقد اختلف الناس هل يُطْلَق هذا الاسم في حقّ الله تعالى؟ فقالت طائفةٌ من الصوفية: لا بأس بإطلاقه، وذكروا فيه أثراً لا يثبتُ، وفيه: فإذا فعل ذلك عشقني وعشقته، وقال جمهور الناس: لا يُطْلَق ذلك في حقه سبحانه وتعالى، فلا يقال إنه يعشق، ولا يقال عشقه عبده، ثم اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوال، أحدها: عدم التوقيف بخلاف المحبة. الثاني: أن العشق إفراط المحبة، ولا يمكن ذلك في حق الرب تعالى، فإن الله تعالى لا يوصف بالإفراط في الشيء، ولا يبلغ عبدُه ما يستحقه من حبه فضلاً أن يقال أفرط في حبه. الثالث: أنه مأخوذ من التغيُّر كما يقال للشجرة المذكورة عاشقة(١)، ولا يطلق ذلك على الله سبحانه وتعالى.

فصل: وأما الْجَوَى ففي الصحاح: الجوى: الْحُرْقة وشدّة الوجد من عشق أو حُزْن، تقول منه: جَوِي الرجل بالكسر فهو جَوٍ مثل دَوٍ، ومنه قيل للماء المتغير المُنتن: جَوٍ، قال الشاعر(٢):

ثـم كـان المـزاجُ مـاءَ سحـابٍ لا جَـوٍ آجـنٌ(٣) ولا مطـروقُ

فصل: وأما الدَّنَفُ فلا تكاد تستعمله العرب في الحب، وإنما وَلع به المتأخرون، وإنما استعملته العرب في المرض. قال في الصحاح: الدَّنَف بالتحريك المرض الملازم، رَجل دنَفٌ أيضاً يعني بفتح النون وامرأةٌ دنف وقومٌ دنَف، يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع، فإن قلت: رجل دَنِفٌ بكسر النون قلت: امرأةٌ دَنِفَةٌ أنثت وثنّيت وجمعت، وقد دَنِفَ المريضُ بالكسر ثقل وأدْنَفَ بالألف مثلُه، وأدنفه المرضُ يتعدّى ولا يتعدّى فهو مُدْنِفٌ وَمُدْنَف. قلت: وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له والله أعلم.

فصل: وأما الشَّجْوُ فهو حبٌّ يتبعه همٌّ وحزن. قال في الصحاح: الشَّجْوُ: الهمّ والْحُزن، يقال: شَجَاهُ يَشْجُوهُ شَجْواً: إذا أحزنه، وأشْجاه يُشْجيه إشجاءً: إذا أغَصَّه. تقول منهما جميعاً: شَجِيَ بالكسر يَشْجَى شجى قال الشاعر(٤):

= الإبل الماء في اليوم الخامس من ورودها السابق. وقوله: ولذ، يريد نوم لذيذ، والهاء في عاشقة تعود على النوم وذكر العين على معنى الطرف.

(١) الصواب عَشَقَة.

(٢) هو عدي بن زيد.

(٣) أجن الماء: تغير طعمه ولونه ورائحته.

(٤) هو المسيب بن زيد مناة.

لا تنكـــــروا القتــــل وقـــد سُبِينـــا   فـــي حلقكـــم عظـــمٌ وقـــد شَجِينـــا

أراد حلوقكم، والشَّجْى ما يَنْشَبُ في الحلق من عظمٍ أو غيره، ورجلٌ شَجٍ، أي حزينٌ وامرأةٌ شَجِيةٌ على فَعِلة. فأُطلق هذا الاسم على الحبِّ للزومه كالشّجَى الذي يعلق بالحلق ويَنْشَبُ فيه.

فصل: وأما الشوق فهو سفر القلب إلى المحبوب، وقد وقع هذا الاسم في السنة، ففي المسند من حديث عمّار بن ياسر أنه صلى صلاةً فأوجز فيها، فقيل له: أوجزت يا أبا اليقظان، فقال: لقد دعوت فيها بدَعواتٍ سمعتهّن من رسول الله ﷺ يدعو بهنّ: اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحْيِني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفَد، وأسألك قرّة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذّة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضّراءَ مضّرة، ولا فتنةٍ مضلّة، اللهم زينّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين. وجاء في أثرٍ إسرائيلي: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوق. وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإنَّ أَجَلَ الله لآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]. قال بعض العارفين: لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم موعداً للقاء تسكن به قلوبهم. وبعد فهذه اللفظة من أسماء الحب، قال في الصحاح: الشوق والاشتياق: نِزاع النفس إلى الشيء، يقال: شاقني الشيء يَشُوقُني فهو شائق وأنا مَشُوق وشوَّقني فتشوَّقتُ: إذا هيّج شوقك، قال الراجز:

يـــا دارَ ميّـــة بـــالـــدكـــاديـــك الْبُـــرَقْ[1]   سَقْيـــاً لقـــد هيَّجـــتِ شـــوق المُشْتَـــأَقْ

يريد المشتاق قال سيبويه: هَمَز ما ليس بمهموزٍ ضرورةً.

فصل: واختُلِفَ في الفرق بين الشوق والاشتياق أيُّهما أقوى، فقالت طائفة: الشوق أقوى فإنه صفةٌ لازمة، والاشتياق فيه نوع افتعالٍ كما يدلّ عليه بناؤه كالاكتساب ونحوه، وقالت فرقة: الاشتياق أقوى لكثرة حروفه، وكلما قوي المعنى وزاد زادوا حروفه. وحكمت فرقةٌ ثالثةٌ بين القولين، وقالت: الاشتياق يكون إلى غائب، وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب. والصواب أن يقال: الشوق مصدر شاقه يشُوقه إذا دعاه إلى الاشتياق إليه، فالشوق داعية الاشتياق ومبدأه، والاشتياق مُوجبه وغايته، فإنه

---

(١) في الصحاح «يا دار ميّ» قال: والدكداك من الرمل: ما تلبد منه بالأرض ولم يرتفع والجمع الدكادك والدكاديك. والبرقة بالضم: غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة والجمع برق.

يقال: شاقني فاشتقت، فالاشتياق فعلٌ مطاوع لشاقني. واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد؟ فقالت طائفةٌ: يزول، فإن الشوق سفر القلب إلى المحبوب، فإذا وصل إليه انتهى السفر.

وألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قَرَّ عَيْناً بالإياب المسافر[1]

قالوا: ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور، ولهذا إنما يقال للغائب: أنا إليك مشتاق وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه. وقالت طائفة: بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر:

وأعظم ما يكونُ الشوق يوماً إذا دَنَت الْخِيامُ من الخيام

قالوا: ولأن الشوق هو حُرقة المحبة والتهابُ نارها في قلب المحب، وذلك مما يزيده للقرب والمواصلة. والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة غيرُ النوع الذي كان عند الغَيْبة عن المحب، قال ابن الرومي:

أُعانقُها والنفسُ بعدُ مَشُوقةٌ إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزولَ صبابتي فيشتدُّ ما ألقى من الهيَمان
ولم يك مقدارُ الذي بي من الْجَوَى لِيَشْفِيَه ما تَرْشُفُ الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غَلِيلَه سوى أن يَرَى الروحين تمتزجان

فصل: وأما الْخِلابة فهي الحبّ الخادع، وهو الحب الذي وصل إلى الْخِلْب وهو الحجاب الذي بين القلب وسواد البطن. وسمي الحب خِلَابَةً لأنه يخدع ألباب أربابه، والْخِلابة: الخديعة باللسان، يقال: خَلبَهُ يَخْلُبه بالضم واخْتَلبه مثلُه. وفي المثل: إذا لم تَغْلِب فاخْلُب، أي فاخدع. والْخَلِبة: الْخَدَّاعة من النساء قال الشاعر[2]:

أودى الشبابُ وحُبُّ الخالة[3] الْخَلِبَهْ وقد برئتُ فما بالقلب من قَلَبَهْ[4]

قال ابن السِّكِّيت: رجلٌ خلّاب، أي خدَّاعٌ كَذَّاب، ومنه البرق الْخُلّب الذي لا غيث فيه كأنه خادع، ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجِز: إنما أنت برق خُلَّب. والْخُلَّب أيضاً:

---

(١) البيت لمعقر بن حمار البارقي.

(٢) هو النمر بن تولب.

(٣) في الصحاح: امرأة خالة، أي مختالة، وقوم خالة، أي مختالون، ويروى الخلبة أيضاً بفتح اللام على أنه جمع وهم الذي يخدعون النساء.

(٤) أي برئت من داء الحب ولم يعد بالقلب علة.

السحاب الذي لا مطر فيه، ومنه الحديث: «إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ لا خِلَابَة»[1] أي لا خديعة. والحب أحقّ ما يُسَمّى بهذا الاسم، لأنه يُعمي ويُصِمّ، ويخدع لُبَّ المحب وقلبه.

فصل: وأما البلابل فجمع بَلْبَلَة، يقال: بلابل الحب وبلابل الشوق، وهي وساوسه وهمّه. قال في الصحاح: الْبَلْبَلَةُ والْبَلْبَال: الهمّ وَوَسْوَاس الصدر.

فصل: وأما التباريح فيقال: تباريح الحب، وتباريح الشوق، وتباريح الْجَوى. وبرّح به الحب والشوق: إذا أصابه منه البَرْح وهو الشدة. قال في الصحاح: لقيت منه بَرْحاً بارحاً، أي شدةً وأذى، قال الشاعر:

أجِـــدَّ هـــذا عَمْـــرَكَ الله كلمـــا دعـــاك الْهَـــوى بَـــرْحٌ لعينيـــك بـــارحُ

ولقيت منه بنات بَرْح وبني بَرْح، ولقيت منه البِرَحين والبُرَحين، بكسر الباء وضمها، أي الشدائدَ والدواهي.

فصل: وأما السَّدَم بالتحريك فهو الحب الذي يتبعه ندمٌ وحزن. قال في الصحاح: السَّدَم بالتحريك: النَّدَم والْحُزْن وقد سَدِم بالكسر، ورجلٌ نادمٌ سادم ونَدْمَانُ سَدْمَانُ، وهو إتباعٌ، وما له همٌّ ولا سَدَمٌ إلا ذاك.

فصل: وأما الغَمَرَات فهي جمع غَمْرَة، والغَمْرَةُ ما يَغْمُرُ القلبَ من حبٍّ أو سكرٍ أو غفلة. قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الخَرَّاصونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١]. ومنه الماء الغَمْر الكثير الذي يغطي من دخل فيه، ومنه غَمَرَات الموت، أي شدائده، وكذلك غَمَرات الحبّ، وهو ما يغطي قلب المحب فَيَغْمُرُه، ومنه قولهم: رجلٌ غَمْرُ الرِّدَاءِ، كناية عن السخاء، لأنه يَغْمُرُ العيوب، أي يغطيها فلا يظهر مع السخاء عيب. قال كُثَيِّر:

غَمْـــرُ الـــرِّداء إذا تبســـم ضـــاحكـــاً غَلِقـــت لضَحْكَتـــه رقـــابُ المـــال

وقال القُطَامِيّ يصف سفينة نوح:

إلـــى الْجُـــودِيّ حتـــى صـــار حِجْـــراً وكـــان لـــذلـــك الْغَمْـــر انحســـار

أي لذلك الماء الذي غمر الأرض ومن عليها.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٤٨، والاستقراض باب ١٩، والخصومات باب ٣، والحيل باب ٧. ومسلم في البيوع باب ٤٨. وأبو داود في البيوع باب ٦٦. والترمذي في البيوع باب ٢٨. والنسائي في البيوع باب ٥١. ومالك في البيوع حديث ٩٨. وأحمد في المسند (٢/ ٨٠، ١٢٩، ١٣٠).

فصل: وأما الوَهَل فهو بتحريك الهاء وأصله الفَزَع والرَّوع، يقال: وَهِلَ يُوْهَلُ وهو وَهِلٌ وَمُسْتَوْهِلٌ. قال القُطَامِيّ يصف إبلاً:

وتــرى لجَيْضَتِهِـــنَّ[1] عنــد رحيلنـــا وَهَـــلاً كـــأنَّ بِهِـــنَّ جِنَّـــةَ أَوْلَـــقِ[2]

وإنما كان الوَهَل من أسماء الحب لما فيه من الرَّوع، ومنه يقال: جمالٌ رائع. فإن قيل: ما سبب رَوْعَة الجمال ولأيّ شيء إذا رأى المحبُّ محبوبَهُ فجأة يرتاع لذلك ويصفرّ لونه ويُبْهَتُ. قال الشاعر:

ومـــا هـــو إلا أن أراهـــا فُجَـــاءَةً فـــأُبْهَـــت حتـــى لا أكـــاد أُجيـــب

وكثيرٌ من الناس يرى محبوبه فيصفرّ ويرتعد؟ قيل: هذا مما خفي سببه على أكثر المحبين فلا يدرون ما سببه، فقيل سببه أن الجمال سلطانٌ على القلوب، وإذا بدا راع القلوب بسلطانه، كما يرُوعها الملك ونحوُه ممن له سلطانٌ على الأبدان، فسلطان الجمال والمحبة على القلوب، وسلطان الملوك على الأبدان، فإذا كان السلطان الذي على الأبدان يَرُوع إذا بدا، فكيف بالسلطان الذي هو أعظم منه؟ قالوا: وأيضاً فإن الجمال يأسِرُ القلب فيحسّ القلب بأنه أسيرٌ ولا بُدَّ لتلك الصورة التي بدت له، فيرتاع كما يرتاع الرجل إذا أحسَّ بمن يأسِرُه، ولهذا إذا أمن الناظر من ذلك لم تَحْصُل له هذه الرَّوعة. قال الشاعر:

عـــلامـــةُ مـــن كـــان الهَـــوَى بفـــؤاده إذا مـــا رأى محبـــوبَـــهُ يتغيـــر

فصل: وأما الشَّجَن فهو من أسمائه، فإن الشَّجَن الحاجة حيث كانت، وحاجة المحب أشد شيء إلى محبوبه. قال الراجز:

إنـــي ســـأبـــدي لـــكِ فيمـــا أُبْـــدي لـــي شجنـــان شَجَـــنٌ بِنَجْـــدِ
وشجنٌ لي ببلادِ السِّند

والجمع شجون. قال: والنفس شَتَّى شُجُونُهَا، ويجمع على أشجان. قال الشاعر:

تَحَمَّـل أصْحـابِـي ولـم يجـدوا وجـدي وللنـاس أشجـانٌ ولـي شجـنٌ وحـدي

وقد شَجَنَتْنِي الْحَاجَةُ تَشْجُنُنِي شَجْناً: إذا حبستك، ووجه آخر أيضاً وهو أن الشَّجَن الْحُزْن والجمع أشجان، وقد شَجِن بالكسر فهو شاجنٌ وأشجنه غيره وشَجَنَه، أي أحزنه، والحب فيه الأمران: هذا وهذا.

---

(١) قال في اللسان: وهو الروغان والعدول عن القصد، وأصل الجيض الميل عن الشيء.
(٢) الأولق: الجنون، وقيل: الخفة من النشاط كالجنون.

فصل: وأما اللاعج فهو اسم فاعل من قولهم: لَعَجَه الضربُ إذا آلَمَه وأحرق بجلده. قال الْهُذَلِي[(١)]:

ضرباً أليماً بِسِبْتٍ يَلعجُ الْجِلْدَا[(٢)]

ويقال: هو لاعجٌ لحُرْقة الفؤاد من الحب.

فصل: وأما الاكتئاب فهو افتعالٌ من الكآبةِ، وهي سوء الحال والانكسار من الحزن، وقد كئب الرجلُ يَكأبُ كأبة وكآبة كَرَأفَةٍ وَرَآفة ونشأةٍ ونشاءة فهو كئيبٌ، وامرأةٌ كئيبة وكأباء أيضاً. قال الراجز[(٣)]:

أوْ أنْ تُرَي كأباء لم تبْرَنْشِقي

واكتأب الرجلُ مثله، وَرَمَادٌ مُكْتَئِب اللون: إذا ضرب إلى السواد كما يكون وجه الكئيب، والكآبة تتولد من حصول الحب وفوت المحبوب فتحدُثُ بينهما حالةٌ سيئة تسمى الكآبة.

فصل: وأما الوَصَبُ فهو ألم الْحُب ومرضه فإن أصل الوَصَب المرض، وَقد وَصِب الرجلُ يَوْصَب فهو وصِبٌ، وَأوْصَبه الله فهو مُوصَبٌ، وَالمُوَصَّبُ بالتشديد الكثير الأوجاع. وفي الْحديث الصحيح: «**لاَ يُصِيبُ الْمُؤمِنَ مِن هَمٍّ وَلاَ وَصَبٍ حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إلاّ كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[(٤)] ووصَب الشيءُ يَصِبُ وُصُوباً إذا دام، تقول: وَصَب الرجلُ على الأمر إذا داوم عليه. قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ [النحل: ٥٢] أي الطاعة دائمة.

فصل: وأما الْحزن فقد عُدَّ من أسماء المحبة والصواب أنه ليس من أسمائها، وإنما هو حالة تحدث للمحب، وهي ورود المكروه عليه، وهو خلاف المسرة، ولما كان الْحُب لا يخلو من ورود ما لا يسرّ على قلب المحب كان الْحزن من لوازمه. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالحَزَن، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْل، وَضَلَعِ الدَّيْن وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[(٥)]، فاستعاذ ﷺ من ثمانية

---

(١) في ياقوت: هو عبد مناف بن ربع الجربي، وصدره:

* إذا تجرد نوح قامتا معه *

(٢) السبت بالكسر: كل جلد مدبوغ. يلعج: يؤلم ويحرق.

(٣) هو جندل بن المثنى الطهوي يخاطب ابنة أخيه. والمبرنشق: الفرح المسرور وقد ابرنشق.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى باب ١. ومسلم في البرّ حديث ٥٢. والترمذي في الجنائز باب ١. وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٣، ٣٣٥، و ٣/ ٤، ١٨، ٢٤، ٣٨، ٤٨، ٦١، ٨١).

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٤، والأطعمة باب ٢٨، والدعوات باب ٣٥ و ٤٠. وأبو داود في=

أشياء، كل شيئين منهما قرينان. فالهم والحزن قرينان، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضى فهو الْحزن، وإن كان لما يستقبل فهو الهم، والعجز والكسل قرينان فإن تخلُّف العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل، والجبن والبخل قرينان، فإن الرجل يراد منه النفع بماله أو ببدنه، فالجبان لا ينفع ببدنه، والبخيل لا ينفع بماله، وَضَلَع الدَّيْن وَغَلَبَة الرجال قرينان، فإن قهر الناس نوعان: نوعٌ بحقٍّ فهو ضَلَع الدَّين، ونوعٌ بباطلٍ فهو غَلَبَة الرجال. وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة الخوف والحزن، فلا يحزنون على ما مضى، ولا يخافون مما يأتي، ولا يطيب العيش إلا بذلك، والحب يلزمه الخوف والحزن.

فصل: وأما الكَمَدُ فمن أحكام المحبة في الحقيقة وليس من أسمائها، ولكن المتكلمون في هذا الباب لا يفرّقون بين اسم الشيء ولازمه وحكمه، والكَمَد الحزن المكتوم، تقول منه: كَمِد الرجل فهو كَمِدٌ وَكَمِيدٌ والكُمْدَةُ تغيُّر اللون وأكْمَدَ القصَّار الثوب إذا لم يُنَقِّه.

فصل: وأما اللَّذْع فهو من أحكام المحبة أيضاً، وأصله من لَذْع النار. يقال: لَذَعَتْهُ النَّارُ لَذْعاً: أحرقته، ثم شبهوا لَذع اللسان بلَذْع النار، فقالوا: لَذَعَهُ بلسانه، أي أحرقه بكلامه، يقال: أعوذ بالله من لَوَاذِعِهِ.

فصل: وأما الْحُرَق فهي أيضاً من عوارض الْحُب وآثاره، والْحُرْقة تكون من الْحُب تارةً ومنه قولهم: ما لك حُرْقةٌ عَلى هذا الأمر، وتكون من الغيظ ومنه في الحديث: «تَرَكْتُهُمْ يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ».

فصل: وأما السُّهْدُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها، فالسُّهادُ: الأرَقُ وقد سَهِدَ الرجل بالكسر يَسْهَد سَهَداً، والسُّهدُ بضم السين والهاء: القليل النوم. قال أبو كبير الْهُذَلِيّ:

فأتت به حُوشَ الْجَنان مُبَطَّناً ... سُهُداً إذا ما نام ليلُ الْهَوْجَلِ[1]

وسهّدته أنا فهو مُسَهَّد.

فصل: وأما الأرَق فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها فإنه السهر، وقد أرقت

= الوتر باب ٣٢. والنسائي في الاستعاذة باب ٨ و ٢٥ و ٤٥. والترمذي في الدعوات باب ٧٠. وأحمد في المسند (٣/ ٢٢٦).

(١) حوش الجنان، أي حديد الفؤاد. والمبطن: الضامر البطن. والهوجل: الرجل الأهوج.

بالكسر أي سهرت، وكذلك ائتَرَقْتُ على افتعلت فأنا أرِقٌ، وأرّقني كذا تأريقاً، أي سهرني.

فصل: وأما اللَّهْفُ فمن أحكامها وآثارها أيضاً، يقال: لَهِفَ بالكسر يَلْهَفُ لَهْفاً أي حزن وتحسّر. وكذلك التّلهف على الشيء. وقولُهم: يا لَهْفَ فلان كلمةٌ يُتَحَسَّر بها على ما فات، واللَّهْفان المتحسّر، واللَّهِيف المضطر.

فصل: وأما الْحَنين فقال في الصحاح: الْحَنين الشوقُ وتَوَقَانُ النفس، تقول منه: حَنَّ إلَيْهِ يَحِنُّ حَنيناً فهو حانٌّ، والْحَنَانُ الرحمة، تقول منه: حَنَّ عليه يَحِنُّ حَنَاناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ [مريم: ١٢] وتحنَّنَ عليه ترَحَّم، والعرب تقول: حَنَانك يَا رَبّ وحَنَانَيْك بمعنى واحدٍ، أي رحمتك، قال امْرُؤُ القَيْس:

وَيمْنَحُها بنو شَمْجَى بن جَرْمٍ ... مَعِيزَهم حَنَانك ذا الْحَنَان

وقال طَرْفَة:

أبا منذرٍ أفنيتَ فَاسْتَبْقِ بعضنا ... حَنَانَيْكَ بعضُ الشّرّ أهونُ من بعض

وفي الحقيقة الْحَنين من آثار الْحُب ومُوجباته، وحنين الناقة صوتها في نِزَاعِها إلى ولدها. وحَنَّةُ الرجل امرأتُه. قال[1]:

وليلةِ ذات دُجَّى سَرَيْتُ ... ولم تَضِرْني حَنَّةٌ وَبَيْتُ

قلت: سُمِّيَت حَنَّةً لأن الرجلَ يَحِنُّ إليها أين كان.

فصل: وأما الاستكانة فهي أيضاً من لوازم الْحُب وأحكامه، لا من أسمائه المختصة به، وأصلها الخضوع. قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ في سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦] وأصلها استفعل من الكون، وهذا الاشتقاق والتصريفُ يطابق اللفظ، وأما المعنى فالمستكِنُّ ساكنٌ خاشعٌ ضدُّ الطائش، ولكن لا يوافق السكون تصريف اللفظة فإنه إن كان افْتَعَلَ كان ينبغي أن يقال اسْتَكَنَ لأنه ليس في كلامهم افْتِعَال، والحق أنه اسْتَفْعَلَ من الكون فنقلوا حركة الواو إلى الكاف قبلها فتحركت الواو أصلاً وانفتح ما قبلَها تقديراً فقلبت ألِفاً كاستقام، والكوْن الحالة التي فيها إنابةٌ وذلّ وخضوع. وهذا يُحْمَد إذا كان لله، ويُذَمُّ إذا كان لغيره، ومنه الحديث: «**أعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ**»[2] أي الرجوع عن الاستقامة بعدما كنت عليها.

---

(١) هو أبو محمد الفقعسي.

(٢) أخرجه مسلم في الحج حديث ٤٢٦. والترمذي في الدعوات باب ٤١. والنسائي في الاستعاذة باب

فصل: وأما التّبالة فهي فعالة من تَبَلَه إذا أفناه. قال الجوهري: تَبَلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم. قال الأعشى:

أألن رأت رجــلاً أعشــى أضــرّ بــه   رَيْــبُ الــزمــان ودهــرٌ مُتْبِــلٌ خَبِــلُ

أي يذهب بالأهل والولد، وتبله الحب، أي أسقمه وأفسده. قلت: ومنه قول كعب ابن زهير بن أبي سُلمْى:

بــانــت سعــاد فقلبــي اليــوم متبــول   متيَّــمٌ عنــدهــا لــم يُفْــدَ مكبــول

فصل: وأما اللَّوْعة فقال في الصحاح: لَوْعة الحب حُرْقته وقد لاعه الْحُب يَلُوعه والْتَاعَ فُؤاده أي احترق من الشوق، ومنه قولهم: أتانٌ لاَعَةُ الفُؤَادِ إلَى جَحْشِهَا. قال الأصمعي: أي لائعةُ الفؤاد وهي التي كأنها وَلْهَى من الفَزَع.

فصل: وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَهُ يَفْتِنُهُ فُتُوناً، قال الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه: ٤٠] أي امتحنَّاك واختبرناك. والفِتْنَة تقال عَلَى ثلاثة معانٍ، أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] أي امتحانك واختبارُك. والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتْنَة فلان، أي افْتِتَانُه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] يقال: أصابته الفِتْنَةُ وَفَتَنَتْهُ الدنيا وفتنته المرأةُ وأفتنته. قال الأعشى:

لئــن فَتَنَتْنــي لَهْــيَ بــالأمــس أفتنــت   سعيــداً فــأضحــى قــد قَلَىٰ كــل مسلــم

وأنكر الأصمعي أفتنته. والثالث: المفتون به نفسُه يُسَمى فتنةً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي لم تكن عاقبة شِركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه. وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤] فقيل المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ما جَوْدَته ودينارٌ مفتون. قال الخليل: والفَتْنُ: الإحراق قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] وورِقٌ فَتِينٌ، أي فضةٌ مُحْرَقَة. وافْتُتِنَ الرجل وفُتِنَ: إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالُه أو عقلُه. وفَتَنَتْهُ المرأة إذا ولَّهته، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣] أي لا تفتنون على عبادته إلا مَنْ سبق في علم الله أنه يصلَى الجحيم فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه،

=٤١ و ٤٢. وابن ماجة في الدعاء باب ٢٠. والدارمي في الاستئذان باب ٤٢. وأحمد في المسند (٥/ ٨٢، ٨٣).

وأما قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦] فقيل: الباء زائدة، وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور، والصواب أن يُبْصِر مُضمَّنٌ معنى يَشْعُرُ ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء. وفي الحديث: «**المُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ يَسَعُهُمَا المَاءُ وَالشَّجَرُ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلى الْفُتَّانِ**»[1] يروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمعُ فاتنٍ كتاجرٍ وتُجَّار. والمقصود أن الْحُب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

فصل: وأما الجنون فمن الْحُب ما يكون جنوناً، ومنه قوله:

قالت جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلت لها ... العشق أعظم مما بالمجانين
العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنما يُصْرَع المجنونُ في الحين

وأصل المادة من السَّتر في جميع تصاريفها، ومنه أجَنَّه الليل وجَنَّ عليه: إذا ستره، ومنه الْجَنِين لاستتاره في بطن أمه، ومنه الْجَنّة لاستتارها بالأشجار، ومنه المِجَنُّ لاستتار الضارب به والمضروب، ومنه الْجِنّ لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس فإنهم يُؤنَسُون أي يُرون، ومنه الْجُنَّة بالضم وهي ما استترت به واتّقيت، ومنه قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦، والمنافقون: ٢] وأجننت الميّت: واريته في القبر فهو جَنِين. والْحُب المفرط يستر العقل فلا يَعْقِل المحب ما ينفعه ويضره فهو شعبةٌ من الجنون.

فصل: وأما اللَّمَم فهو طَرَف من الجنون، ورجل ملمومٌ، أي به لَمَمٌ، ويقال أيضاً: أصابت فلاناً من الجنّ لَمَّةٌ وهو المس والشيء القليل قاله الجوهري. قلت: وأصل اللفظة من المقاربة، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] وهي الصغائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رَأَيْتُ أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرِّجْل تزني وزناها المشي، والفم يزني وزناه القُبَل. ومنه ألَمَّ بكذا، أي قاربه ودنا منه، وغلامٌ مُلِمّ، أي قارب البلوغ، وفي الحديث: «**إنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطاً أَوْ يُلِمّ**»[2]، أي يقرب من ذلك. وبالجملة فلا يستبين كونُ اللَّمَم من أسماءِ الحب

---

(١) أخرجه أبو داود في الإمارة باب ٣٦. ونسبه السيوطي في الجامع الكبير إلى أبي داود والبيهقي والطبراني.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٣٧، والرقاق باب ٧. ومسلم في الزكاة حديث ١٢١. وابن ماجة في الفتن باب ١٨. وأحمد في المسند (٣/٧، ٢١، ٩١). ومعنى الحديث أن نبات الربيع وخضره=

وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال: إن المحبوب قد ألمَّ بقلب المحب، أي نزل به، ومنه ألْمِمْ بنا، أي أنزل بنا، ومنه قوله:

متى تأتِنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا ... تجدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تأججا

فصل: وأما الْخَبْلُ فمن موجبات العشق وآثاره لا من أسمائه وإن ذُكر من أسمائه فإن أصله الفساد وجمعه خُبُول، والْخَبَل بالتحريك الجن، يقال به خبَلٌ، أي شيء من أهل الأرض، وقد خَبَله وخَبَّله واخْتَبَلَه: إذا أفسد عقله أو عضوه، ورجلٌ مُخَبَّلٌ وهو نوع من الجنون والفساد.

فصل: وأما الرَّسِيسُ فقد كثر في كلامهم رَسِيسُ الهوى والشوق ورَسيسُ الحب، فظنّ من أدخله في أسماء الحب أنه منها وليس كذلك، بل الرَّسِيسُ الشيء الثابت، فرَسِيسُ الحب ثباتُه ودوامُه، ويمكن أن يكون من رَسِّ الْحُمى ورَسِيسها وهو أوّل مسِّها، فشبهوا رَسِيسَ الحب بحرارته وحُرْقته برسيس الْحُمَّى، وكان الواجب عَلَى هؤلاء أن يجعلوا الأوار من أسماء الحب لأنه يضاف إليه، قال الشاعر[1]:

إذا وجدتُ أوارَ الحبِّ في كبِدي ... أقبلتُ نحو سِقَاء القوْم أبْتَرِدُ
هبني بَرَدتُ ببَرْد الماء ظاهرَه ... فمن لنارٍ عَلَى الأحشاء تتَّقِدُ

وقد وقع إضافة الرَّسِيسِ إلى الهوى في شعر ذي الرُّمة حيث يقول:

إذا غيَّر النَّأيُ المحبين لم يكَدْ ... رَسِيسُ الهوى من حُبّ مَيَّة يبرَح

وفيه إشكالٌ نحْويٌّ ليس هذا موضعَه.

فصل: وأما الداء المُخَامِرُ فهو من أوصافه وسُمي مُخَامِراً لمخالطته القلب والرُّوح يقال خامره، قال الجوهري: والمُخَامَرَة المخالطة، وخامر الرجل المكان إذا لزمه. وقد يكون أخِذَ من قولهم: استخمر فلانٌ فلاناً إذا استعبده، وكأن العشق داء مستعبدٌ للعاشق، ومنه حديث مُعاذ: مَنِ اسْتَخْمَرَ قَوْماً[2]، أي أخذهم قهراً وتملَّكَ عليهم، فالحبّ داء مخالِطٌ مُسْتَعْبِد.

= يقتل حبطاً بالتخمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل، إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصرة فإنه لا يضرّ. والحبط: التخمة، وهي امتلاء البطن وانتفاخه من الإفراط في الأكل.

(١) هو عروة بن أذينة.

(٢) ذكر الزمخشري في الفائق هذا الحديث وابن الأثير في النهاية وغيرهما من أصحاب اللغة.

فصل: وأما الودُّ فهو خالص الحبّ وألْطَفُه وأرَقُّه، وهو من الحبّ بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهري: وَدِدْت الرجلَ أوَدُّه وُدًّا إذا أحببته. والوِدُّ والوُدّ والوَدّ المَوَدَّة، تقول: بودّي أن يكون كذا، وأما قول الشاعر:

أيهــا العــائــد المُســائِــلُ عنــا وبــــودِّيــــكَ أن تــــرى أكفــــانــــي

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء. والوِدُّ الوديد بمعنى المودود والجمع أوُدٌّ مثل قِدْحٍ وأقدُح وذئبٍ وأذْؤُب، وهما يتوادّان وهم أوِدَّاءِ، والوَدُود المحب، ورجالٌ وُدَدَاء يستوي فيه المذكر والمؤنث لكونه وصفاً داخلاً عَلَى وصف للمبالغة. قلت: الوَدُود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المَوَدَّة، واخْتُلِفَ فيه عَلَى قولين: فقيل: هو وَدودٌ بمعنى وادٌّ كضَرُوبٍ بمعنى ضارب وقَتُولٍ بمعنى قاتلٍ ونؤومٍ بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعلٌ كغفور بمعنى غافر، وشكورٍ بمعنى شاكر، وصبورٍ بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الوَدود الحبيب، والأوّل أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩] وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه يحب التوّابين وأنه يحبّ عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال: ﴿إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢] فالتائب حبيب الله، فالودّ أصفى الحبّ وألطفه.

فصل: وأما الْخُلَّة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحد حبُّه لمحبوبه، وهي رتبةٌ لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها في العالم الخليلان إبراهيم ومحمدٌ صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالى: ﴿واتَّخَذَ الله إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٤] وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتخَذَ إبرَاهِيمَ خَلِيلاً**»(١) وفي الصحيح عنه ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أهْلِ الأرْض خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. وَلْكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمٰنِ**»(٢)، وفي الصحيح أيضاً: «**إنِّي أبْرَأُ إلَىٰ كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلتِهِ**»(٣). ولما كانت الْخُلة مرتبة لا تقبل المشاركة امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ

---

(١) نسبه السيوطي إلى ابن ماجه والبيهقي وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٨٠، ومناقب الأنصار باب ٤٥، وفضائل الصحابة باب ٣ و ٥، والفرائض باب ٩. ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ٢٨، وفضائل الصحابة حديث ٢ ـ ٧. والترمذي في المناقب باب ١٤ ـ ١٦. وابن ماجة في المقدمة باب ١١. والدارمي في الفرائض باب ١١. وأحمد في المسند (١/ ٢٧٠، ٣٥٩ و ٣/ ١٨، ٤٧٨ و ٤/ ٤، ٥، ٢١٢).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٤، وابن ماجة في المقدمة باب ١١.

شعبةً من قلبه، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذَبحه من قلبه، لا ذَبْحُه بالمُدْيَة، فلما أسلما لأمر الله وقدَّم محبة الله تعالى عَلَى محبة الولد، خلَص مقام الخُلّة وفدى الولد بالذِّبْح.

وقيل: إنما سُمِّيت خُلَّةً لتخلّل المحبة جميع أجزاء الرُّوح، قال:

قــد تخلّلــت مسلــك الــرُّوح منــي ... وبــذا سمــي الخليــل خليــلا

والخلَّةُ الخليلُ يستوي فيه المذكر والمؤنث لأنه في الأصل مصدر قولك خليلٌ بَيِّنُ الخَّلة والخَلُولَة، قال[1]:

ألا أبْلِغــا خُلَّتــي جــابــراً ... بــأن خليلــك لــم يُقْتَــل

ويجمع عَلَى خِلال مثل قُلَّة وقِلال. والْخِلُّ الودّ والصديق، والْخِلاَل أيضاً مصدر بمعنى المُخَالَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خلال﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قال امرؤ القيس:

ولست بمَقْلِيِّ الْخلال ولا قالي[2]

والخليل الصديق والأنثى خليلة، والْخِلالة والْخَلالة والْخُلالة بكسر الخاء وفتحها وضمها: الصداقة والمودّة. قال[3]:

وكيــف تُــوَاصــلُ مــن أصبحــت ... خــلاَلَتُــهُ كــأبــي مَــرْحَــبِ[4]

وقد ظن بعض من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وهذا باطلٌ من وجوهٍ كثيرة، منها: إنَّ الْخُلة خاصةٌ والمحبة عامة فإن الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين، وقال في عباده المؤمنين: ﴿يُحِبّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٧]، ومنها: أن النبي ﷺ نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحبَّ النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها[5]، ومنها: أنه قال: «**إنَّ الله اتَّخذَني خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**»[6]. ومنها أنه قال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أهْلِ الأرْضِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلٰكِنْ أُخُوَّةُ الإسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ**»[7].

---

(١) هو أوفى بن مطر المازني.
(٢) صدر البيت: صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ... ولست...
(٣) هو النابغة الجعدي.
(٤) في الصحاح: وأبو مرحب كنية الظل، ويقال هو كنية عرقوب الذي قيل فيه: مواعيد عرقوب.
(٥) الحديث في الصحيحين وغيرهما.
(٦) تقدم تخريجه ص٣٣ حاشية ١.
(٧) تقدم تخريجه ص ٣٣ حاشية ٢.

فصل: وأما الْخِلْمُ فهو مأخوذ من المُخَالَمَة وهي المصادقة والمودّة، والْخِلْمُ الصديق، والأخلام الأصحاب، قال الكُمَيْت:

إذا ابتسر الحربَ أخلامُها كِشَافاً وهُيِّجت الأفْحُلُ[1]

فصل: وأما الغرام فهو الحبُّ اللازم، يقال: رجلٌ مُغْرَمٌ بالحبِّ، أي قد لزمه الحب وأصل المادة من اللزوم، ومنه قولهم رجلٌ مُغْرَمٌ من الغُرْم أو الدّيْن، قال في الصحاح والغَرَام الولوع، وقد أغْرِمَ بالشيء، أي أولِعَ به، والغريم الذي عليه الدّيْن، يقال: خذ من غريم السوء ما سَنَحَ، ويكون الغريم أيضاً الذي له الدَّين، قال كُثَيِّر عَزّة:

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفّى غَريمَه وَعَزّةُ مَمْطولٌ مُعَنًّى غريمُهَا

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿إن عذابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ [الفرقان: ٦٥] والغرام: الشّر الدائم اللازم والعذاب، قال بشر[2]:

ويوم النِّسَارِ ويوم الْجِفَا رِ كانا عذاباً وكانا غراما[3]

وقال الأعشى:

إن يعاقبْ يكن غراماً وإن يُعْـ ـطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

وقال أبو عبيدة: ﴿إن عذابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ [الفرقان: ٦٥] كان هلاكاً ولزَاماً لهم. وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظَ الغرام وإن لهِجَ به المتأخرون.

فصل: وأما الهُيام قال في الصحاح: هام عَلى وجهه يَهِيمُ هَيْماً وَهَيَمَاناً ذهب من العشق أو غيره، وقلبٌ مستهام، أي هائم، والهُيام بالضم: أشد العطش والهُيَامُ كالجنون من العشق، والهُيام: داء يأخذ الإبل فتهيم لا ترعى، يقال: ناقة هَيْمَاء، قال: والهِيام بالكسر: الإبل العِطاش الواحد هَيْمَان، وناقةٌ هَيْمَى مثل عطشان وعَطْشى، وقومٌ هِيمٌ، أي عِطاش، وقد هاموا هُياماً، وقوله تعالى: ﴿فَشَاربون شُرْبَ الْهِيم﴾ [الواقعة: ٥٥] هي الإبل العِطَاش. قلت: جمع أهْيم هِيمٌ مثل أحمر وحمر وهو جمع فَعلاء أيضاً كصفراء وصفر.

فصل: وأما التّذْلِيهُ ففي الصحاح: التّذْلِيهُ ذهاب العقل من الهوى، يقال: دَلَّهَهُ

---

(١) في اللسان: وابتسر الفحل الناقة ضربها قبل الضبعة وهي شدة الشهوة. وفي الكشاف أن تلقح الناقة في غير زمان لقاحها، ويقال ذلك في الحرب على المثل.

(٢) وكذلك هو في الصحاح. أما في اللسان فقد نسبه للطرماح.

(٣) النسار: ماء لبني عامر، ومنه يوم النسار. والجفار: ماء لبني تميم بنجد ومنه يوم الجفار.

الحُبُّ، أي حيَّره وأدهشه، ودَلِهَ هو يَدْلَهُ قال أبو زيد: الدّلوهُ: الناقة لا تكاد تحنُّ إلى إلفِ ولا ولد، وقد دَلهَتْ عن إلْفها وعن ولدها تَدْلَهُ دُلوهاً.

فصل: وأما الوَلَهُ فقال في الصحاح: الوَلَهُ: ذهاب العقل والتحيُّرُ من شدة الوجد، ورجل وَالِه وامرأة وَالِه ووَالِهَةٌ. قال الأعشى:

فــأَقْبَلَــتْ والهــاً ثَكْلــى عَلَــى عَجَــلٍ ... كــلٌ دهــاهــا وكــلٌ عنــدهــا اجتمعــا

وقد وَلِهَ يَوْلَهُ وَلهاً وَوَلَهاناً وتَوَلَّهَ واتَّلَهَ وهو افتعل أدغم. قال الشاعر[1]:

واتله الغيور

والتَّوْلِيهُ أن يُفَرَّق بين الأم وولدها، وفي الحديث: «لَا تُوَلَّهُ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا»[2]، أي لا تُجْعل والهاً وذلك في السّبايا. وناقةٌ والِه: إذا اشتدّ وَجدُهَا عَلَى ولدها. والمِيلاَهُ التي من عادتها أن يشتدّ وَجْدُهَا على ولدها صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وماء مُولَه ومُوَلَّهٌ أرسل في الصحراء فذهب، وقول رُؤْبة:

بــه تَمَطَّــتْ غَــوْلَ كــلّ مِيلَــهِ ... بنــا حَــرَاجيــجُ المَهَــارَى النُّفَّــهِ[3]

أراد البلاد التي تُوَلِّهُ الإنسان، أي تحيّره.

فصل: وأما التعبُّد فهو غاية الحب وغاية الذل، يقال: عبده الحبُّ، أي ذلله. وطريقٌ معبَّدٌ بالأقدام، أي مُذَلَّلٌ، وكذلك المحب قد ذلّله الحب ووطّأه، ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء. فمحبة العبودية هي أشرف أنواع المحبة، وهي خالص حق الله على عباده، وفي الصحيح عن مُعاذ أنه قال: كنت سائراً مع رسول الله ﷺ فقال: يا مُعاذ، فقلت: لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك، قال: ثم سار ساعةً ثم قال: يا معاذ، قلت لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك، قال: : ثم سار ساعةً فقال: يا معاذُ، قلت لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك، قال: أتدري ما حَقُّ الله على عباده؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: حقُّه عليهم

---

(١) هو مليح الهذلي، والبيت في اللسان:

إذا مــا حــال دون كــلام سعــدى ... تنــائــي الــدار واتلــه الغيــور

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٤) وابن حجر في تلخيص الحبر (٣/ ١٥) والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٠٢٣ و ٢٥٠٢٣) والزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٦٦، ٢٦٠). والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٤٧٧). وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٦/ ٢٤١٢).

(٣) تمطت: أي سارت سيراً طويلاً. والغول: بعد المفازة. والحراجيج جمع حرجوج وهي الناقة الطويلة على وجه الأرض. والمهارى: الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان. والنفه: الكالة والذليلة.

أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم بالنار . وقد ذكر الله سبحانه رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهي مقام التحدِّي، ومقام الإسراء، ومقام الدعوة، فقال في التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. وإذا تدافع أولو العزم الشفاعةَ الكبرى يوم القيامة يقول المسيح لهم: اذهبوا إلى محمد عبد غفرَ الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. فنال ذلك المقام بكمال العبودية لله وكمال مغفرة الله له، فأشرف صفات العبد صفة العبودية، وأحَبُّ أسمائه إلى الله اسم العبودية، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أحَبُّ الأسماءِ إلى الله عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ، وَأَصْدَقُهَا حارثٌ وَهَمَّام، ، وأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّة»[1]. وإنما كان حارث وهمام أصدَقها لأن كل أحد لا بدّ له من همّ وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثه وفعله، وكلُّ أحدٍ حارثٌ وهمام، وإنما كان أقبَحَهَا حربٌ ومُرّة لما في مسمى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما وبالله التوفيق.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٦١، وأحمد في المسند (٤/ ٣٤٥).

في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين

فالأسماء الدالة علَى مسمى واحد نوعان: أحدهما أن يَدُلَّ عليه باعتبار الذات فقط، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفاً محضاً، وهذا كالِحْنطة والقمح والبُرِّ والاسم والْكُنْيَةِ واللَّقَب إذا لم يكن فيه مدحٌ ولا ذمٌّ وإنما أتي به لمجرد التعريف، والنوع الثاني أن يدلَّ على ذاتٍ واحدة باعتبار تبايُنِ صفاتها كأسماءِ الرب تعالى، وأسماءِ كلامه، وأسماءِ نبيه، وأسماءِ اليوم الآخر، فهذا النوع مُترادِفٌ بالنسبة إلى الذات، متباينٌ بالنسبة إلى الصفات، فالرب والرحمن والعزيز والقدير والمَلِكُ يدلّ على ذاتٍ واحدةٍ باعتبار صفاتٍ متعددة، وكذلك البشير والنذير والحاشر والعاقب والماحي، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجَمْع ويوم التَّغابُن ويوم الآزِفَة ونحوها، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهُدى ونحوها، وكذلك أسماء السيف فإنّ تعدُّدها بحسب أوصافٍ وإضافاتٍ مختلفة، كالمهنَّد والعَضْب والصَّارم ونحوها، وقد عرَفتَ تبايُنَ الأوصاف في أسماء المحبة، وقد أنكر كثيرٌ من الناس الترادُف في اللغة، وكأنهم أرادوا هذا المعنى، وأنه ما من اسمين لمسمًّى واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ في صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافة، سواء عُلِمت لنا أو لم تُعْلَم، وهذا الذي قالوه صحيحٌ باعتبار الواضع الواحد، ولكن قد يَقَعُ الترادُف باعتبار واضعَيْن مختلفَيْن يسمي أحدهما المسمى باسم، ويسميه الواضع الآخر باسم غيره، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة، وهذا كثير ومن ههنا يقع الاشتراك أيضاً، فالأصل في اللغة هو التبايُن وهو أكثر اللغة والله أعلم.

الباب الرابع

في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب

وهذا بابٌ شريفٌ من أشرف أبواب الكتاب، وقبل تقريره لا بدَّ من بيان مقدمة وهي أن الحركات ثلاث: حركةٌ إرادية، وحركةٌ طبيعية، وحركةٌ قَسْرية، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره، فإن كان من المتحرك فإما أن يقارنها الشعور والعلم فهي الطبيعية، وإن كانت من غيره فيه القَسْرية، وإن شئت أن تقول المتحرّك إما أن يتحرّك بإرادته أوْ لا، فإن تحرك بإرادته فحركته إرادية، وإن تحرَّك بغير إرادته فإما أن تكون حركته إلى نحو مركزه أوْ لا، فإن تحرَّك إلى جهة مركزه فحركتُه طبيعية، وإن تحرَّك إلى غير جهة مركزه فحركتُه قَسْرية، إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعةٌ لإرادة المتحرك، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره، ولا بد أن ينتهيَ المراد لغيره إلى لنفسه دفعاً للدَّور والتسلسل. والإرادة إما أن تكون لجلب منفعة ولذةٍ إما للمتحرك وإما لغيره، أو دفعِ ألم ومضرَّة إما عن المتحرّك أو عن غيره، والعاقل لا يَجْلِبُ لغيره منفعةً ولا يدفع عنه مضرةً إلا لما له في ذلك من اللذة ودفع الألم، فصارت حركته الإرادية تابعةً لمحبته، بل هذا حكم كل حيّ متحرّك. وأما الحركة الطبيعية فهي حركة الشيء إلى مستقرّه ومركزه، وتلك تابعةٌ للحركة التي اقتضت خروجَه عن مركزه وهي القَسْرية التي إنما تكون بقسر قاسِر أخرجَه عن مركزه إما باختياره كحركة الحجر إلى أسفل إذا رُمي به إلى جهة فوق، وإما بغير اختيار مُحَرّكه كتحريك الرياح للأجسام إلى جهة مَهَابِّها، وهذه الحركة تابعةٌ للقاسر، وحركة القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره، فإن الملائكة مُوَكَّلَةٌ بالعالم العُلوي والسفلي تدبِّره بأمر الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أمْراً﴾ [النازعات: ٥] وقال: ﴿فالمُقَسِّمَاتِ أمْراً﴾ [الذاريات: ٤] وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً، فالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً، فالْفَارِقَاتِ فَرْقاً، فالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥] وقال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً، والسَّابِحَاتِ سَبْحاً، فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً، فالْمُدَبِّرَاتِ أمْراً﴾ [النازعات: ١ ـ ٥] وقد وكَّل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكةً تحرّكها، ووكّل بالرياح ملائكةً تصرّفها بأمره وهم خَزَنتها، قال الله تعالى: ﴿وَأمَّا عَادٌ فأهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وقال

غير واحد من السلف: عَتَتْ عَلَى الخزّان فلم يقدروا عَلَى ضبطها (ذكره البخاري في صحيحه) ووكل بالقطر ملائكةً، وبالسحاب ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت به، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ إِذْ سَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَتَتَبَّعَ السَّحَابَةَ حَتَّى انتهتْ إلى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا، فَنَظَرَ فإذا رَجُلٌ في الحَدِيقَةِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاةٍ، فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ يَا عَبْدَ الله؟ فَقَالَ فُلَانٌ الاسمُ الَّذِي سَمِعَه في السَّحابةِ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ فِي هذه السَّحَابَةِ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَمَا تَصْنَعُ فِي هٰذِهِ الْحَدِيقَةِ؟ فَقَالَ. إِنِّي أَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ: ثُلُثٌ أَتَصَدَّقُ بِهِ، وَثُلُثٌ أُنْفِقُهُ عَلَى عِيالِي، وثُلُثٌ أَرُدُّهُ فِيهَا»(١). ووكّل الله سبحانه بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلّم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحبّ، فقال: «بَلْ أَسْتَأْنِي لَهُمْ لَعَلَّ الله أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»(٢) ووكّل بالرّحِم ملكاً يقول: يا ربّ نطفة؟ يا ربّ علقة؟ يا ربّ مضغة؟ يا ربّ ذكرٌ أم أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقيٌّ أم سعيد؟ ووكّل بكل عبدٍ أربعةً من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومُعقِّبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلّهم اثنان يحفظونه من أمر الله، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بمُساءلة الموتى ملائكةً يثبتونه ويؤُزّزنه(٣) إلى الطاعات أزّاً، ووكّل بالنار ملائكةً يبنونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها ويُقومون بأمرها، ووكّل بالجنة ملائكةً يبنونها ويفرشونها، ويصنعون أرائكها وسُرُرَها وصحافها ونمارقَها وزَرابيّها(٤) فأمْرُ العالم العُلوي والسُّفلي والجنة والنار بتدبيرِ الملائكة بإذن ربهم تبارك وتعالى وأمره، ﴿لا يَسْبِقُونَه بِالْقَوْلِ وهُمْ بأمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] و ﴿لَا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون عَلَى تنفيذ أوامره ليس بهم عجزٌ عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به، وكذلك البحار قد وُكِّلت بها ملائكةٌ تسجرها(٥) وتمنعها أن تفيض عَلَى الأرض فتغرق أهلَها، وكذلك أعمال بني آدم خيرُها وشرُّها قد وُكّلت بها ملائكةٌ تحصيها وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الايمان بالملائكة أحدَ أركان الايمان الذي لا يتمّ إلا به. وهي خمس: الايمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٤٥، وأحمد في المسند (٢/٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٧. ومسلم في الجهاد حديث ١١١ وأحمد في المسند (١/٢٥٨).

(٣) يؤزونه: يغرونه.

(٤) الأرائك: الأسرة المنجدة المزينة. والصحاف: آنية الأكل. والنمارق: الوسائد. والزرابي: البسط.

(٥) تسجرها: تملؤها.

وإذا عُرِفَ ذلك عُرف أن كل حَركةٍ في العالم فسببُها الملائكة، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعاً وقَدَراً، والملائكةُ هم المنفِّذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

والمقصود أن حركات الأفلاك وما حوتْه تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة، فالمحبة والإرادة أصلُ كل فعل ومبدأه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، حتى دفعه للأمور التي يبغضها ويكرهها، فإنما يدفعها بإرادته ومحبته لأضدادها واللَّذة التي يجدها بالدفع كما يقال: شَفى غيظه، وشَفى صدره، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كان كريهاً، مثل شرب الدواء الذي يُدْفَع به ألمُ المرض، فإنه وإن كان مكروهاً من وجهٍ فهو محبوبٌ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب، وكذلك فعلُ الأشياء المخالفة للهوى، فإنها وإن كانت مكروهةً فإنما تُفْعَل لمحبةٍ وإرادة، وإن لم تكن محبوبةً لنفسها فإنها مستلزِمَةٌ للمحبوب لنفسه. فلا يترك الحيُّ ما يُحِبه ويهواه، إلا لما يُحِبُّه ويهواه، ولكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبة، ولذلك كانت المحبة والإرادة أصلاً للبغض والكراهة، فإن البغيض المكروه ينافي وجودَ المحبوب، والفعلُ إما أن يتناول وجودَ المحبوب أو دفعَ المكروه المستلزِم لوجود المحبوب، فعاد الفعل كله إلى وجود المحبوب.

والحركة الاختيارية أصلُها الإرادة، والقسريةُ والطبيعيةُ تابِعتان لها، فعاد الأمر إلى الحركة الإرادية، فجميع حركات العالم العلوي والسفلي تابعة للإرادة والمحبة، وبها تحرّكَ العالمَ ولأجلها، فهي العلة الفاعليّة والغائيّة، بل هي التي بها ولأجلها وُجِد العالم، فما تحرّك في العالم العُلوي والسفلي حركةٌ إلا والإرادةُ والمحبة سببها وغايتُها، بل حقيقة المحبة حركة نفس المحبّ إلى محبوبه، فالمحبة حركةٌ بلا سكون. وكمالُ المحبة هو العبوديةُ، والذلّ، والخضوعُ، والطاعة للمحبوب، وهو الحق الذي به وله خُلِقَتِ السموات والأرض والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ [صَ: ٢٧] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ [المؤمنون: ١١٦].

والحق الذي خُلِق به ولأجله الخلقُ هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع والذُّل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجَنَّة والنار. والسمواتُ والأرضُ إنما قامت بالعدل

الذي هو صراط الله الذي هو عليه وهو أحبُّ الأشياء إلى الله تعالى قال الله تعالى حاكياً عن نبيّه شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فهو على صراطٍ مستقيم في شَرْعه وقَدَره، وهو العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذي به وله خُلقت السموات والأرضُ وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] فنزَّهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السَّموات عَبَثاً لغير حكمةٍ ولا غايةٍ محمودة، وهو سبحانه يُحْمَد لهذه الغايات المحمودة كما يُحْمَد لذاتِه وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها، وخَلَق ما يكره لاستلزامه ما يحبه وتَرَتُّبِ المحبوب له عليه، ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبّه لما يترتب عليه من فوات محبوبٍ له أعظَم منه، أو حصولِ مكروهٍ أكرهَ إليه من ذلك المحبوب، وهذا كما ثَبَّطَ قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته، لأنه يكره طاعاتِهم ويُفَوِّت بها ما هو أحبُّ إليه منها من جهادهم وما يترتب عليه من المُوَالاة فيه والمعاداة، وبذلِ أوليائه نفوسَهم فيه، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم، ولأجل هذا خلق الموت والحياة وجعل ما على الأرض زينة لها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموتِ والحياة وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً، فيكون عمله موافقاً لمحابِّ الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خُلِق هو لها وخُلِق لأجلها العالم، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العملُ الأحسنُ وهو مَوَاقعُ محبته ورضاه، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقَدَره ليبلوهم أيُّهم أحسنُ عملا.

فانقسم الخلق في هذا الابتلاء فريقين: فريقاً داروا مع أوامره ومحابّه، ووقفوا حيث وقف بهم الأمر، وتحرّكوا حيث حرَّكهم الأمر، واستعملوا الأمر في القَدَر، وركبوا سفينةَ الأمر في بحر القَدَر، وحَكَّموا الأمر على القَدَر، ونازعوا القَدَر بالقَدَر امتثالاً لأمره واتباعاً لمرضاته، فهؤلاء هم الناجون.

والفريق الثاني عارضوا بين الأمر والقَدَر، وبين ما يحبه ويرضاه، وبين ما قدَّره وقضاه، ثم افترقوا أربع فِرَقٍ:

فرقةٌ كذَّبت بالقَدَر محافظةً على الأمر، فأبطلت الأمر من حيث حافظت على القَدَر، فإن الإيمان بالقَدَر أصل الايمان بالأمر، وهو نظام التوحيد، فمن كذَّب بالقَدَر نَقَضَ تكذيبُه إيمانَه.

وفرقةٌ ردّت الأمر بالقَدَر وهؤلاء من أكفر الخلق، وهم الذين حكى الله قولهم في القرآن إذ قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وقالوا أيضاً: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]. وقالوا أيضاً: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢]. وقالوا أيضاً: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧].

فجعلهم الله سبحانه وتعالى بذلك مكذِّبين خارصين ليس لهم علم، وأخبر أنهم في ضلال مبين.

وفرقةٌ دارت مع القَدَر، فسارت بسَيْره، ونزلت بنزوله، ودانت به، ولم تبالِ وافقَ الأمرَ أو خالفه، بل دينُها القَدَر، فالحلالُ ما حلّ بيدها قَدَراً، والحرام ما حُرِمَتْهُ قَدَراً، وهم مع من غلَب قَدَراً من مسلمٍ أو كافرٍ، برًّا كان أو فاجراً، وخواصُّ هؤلاء وعُبَّادُهم لما شَهِدوا الحقيقة الكونية القَدَرية صاروا مع الكفار المسلَّطين بالقَدَر، وهم خُفراؤهم، فهؤلاء أيضاً كفَّار.

وفرقةٌ وقفت مع القَدَر مع اعترافها بأنه خلافُ الأمر، ولم تَدِن به ولكنها استرسلت معه، ولم تُحَكِّم عليه الأمر وعَجزت عن دفع القدَر بالقَدَر اتباعاً للأمر، فهؤلاء مفرِّطون، وهم بين عاجزٍ وعاصٍ لله، وهؤلاء الفِرَقُ كلهم مُؤْتَمُّونَ بشيخهم إبليس، فإنه أوّلُ من قدّم القدَر على الأمر وعارضه به، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] وقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ٥] فردّ أمر الله بقدره، واحتجّ على ربه بالقَدَر. وانقسم اتباعه أربعَ فِرَق كما رأيت، فإبليس وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالاً كونياً. فالقدَرُ دينهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٤] فدينُهم القَدَر، ومصيرُهم سقر. فبعث الله الرسل بالأمر وأمرهم أن يحاربوا به أهلَ القدر، وشرَع لهم من أمره سُفُناً وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعُم في بحر القَدَر، وخصّ بالنجاةِ من ركبها كما خَصّ بالنجاة أصحاب السفينة، وجعل ذلك آيةً للعالمين. فأصحابُ الأمر حربٌ لأصحاب القَدَر حتى يردُّوهم إلى الأمر، وأصحاب القدَر يحاربون أصحابَ الأمر حتى يخرجوهم منه، فالرسلُ دينُهم الأمرُ مع إيمانهم بالقدَر وتحكيمِ الأمر عليه، وإبليسُ

وأتباعُه دينُهم القَدَر ودفعُ الأمر به، فتأمّل هذه المسألة في القدر والأمر وانقسامِ العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة، وبالله التوفيق.

فحركاتُ العالم العُلوي والسفلي وما فيهما موافقة للأمر، إما الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وإما الأمر الكوني الذي قدّره وقضاه، وهو سبحانه لم يقدِّره سدًى ولا قضاه عبثاً، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة، وما يترتب عليه من أمور يحب غاياتِها وإن كره أسبابها ومبادئها، فإنه سبحانه وتعالى يحب المغفرة وإن كره مَعَاصِيَ عباده، ويحب السَّتْر وإن كره ما يَسْتر عبدَه عليه، ويحب العتْق وإن كره السبب الذي يُعتق عليه من النار، ويحب العفوَ كما في الحديث: «**اللَّهُمْ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[1] وإن كره ما يعفو عنه من الأوزار، ويحب التَّوابين وتوبتَهم وإن كره معاصيَهم التي يتوبون إليه منها، ويحب الجهاد وأهلَه بل هم أحبُّ خلقه إليه وإن كره أفعال من يجاهدونه، وهذا بابٌ واسع قد فُتح لك فادخل منه يُطلعك عَلى رياضٍ من المعرفة مُونِقَةٍ مات مَنْ فاتته بحسرتها، وبالله التوفيق.

وهذا موضعٌ يَضيق عنه عِدَّة أسفار واللبيب يدخل إليه من بابه، وسرُّ هذا الباب أنه سبحانه كاملٌ في أسمائه وصفاته، فله الكمالُ المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، وهو يحب أسماءه وصفاته، ويحب ظهور آثارها في خلقه، فإن ذلك من لوازم كماله، فإنه سبحانه وَتِرٌ يحبُّ الوَتر، جميلٌ يحبّ الجمال، عليمٌ يحبّ العلماء، جوادٌ يحب الأجواد، قويٌّ، والمؤمنُ القويُّ أحَبُّ إليه من المؤمن الضعيف، حَيِيٌّ يحبّ أهل الحياء، وفيٌّ يحبّ أهل الوفاء، شكورٌ يحبّ الشاكرين، صادقٌ يحبّ الصادقين، محسنٌ يحب المحسنين.

فإذا كان يحبّ العفو والمغفرةَ والْحِلْمَ والصفحَ والسَّتْرَ لم يكن بدٌّ من تقديره للأسباب التي تَظهر آثارُ هذه الصفات فيها، ويَسْتدِلُّ بها عبادُه عَلى كمال أسمائه وصفاته، ويكون ذلك أدْعى لهم إلى محبته وحمدِه وتمجيدِه والثناء عليه بما هو أهلُه، فتحصُل الغاية التي خَلَقَ لها الخلق، وإن فاتت من بعضهم فذلك الفواتُ سببٌ لكمالها وظهورها، فتضمن ذلك الفواتُ المكروهُ له أمراً هو أحبُّ إليه من عدَمه، فتأمل هذا الموضع حقَّ التأمل. وهذا ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم حين يجمعهم في صعيدٍ واحد، ويُوصِل إلى كل نفس ما ينبغي إيصالُه إليها من الخير والشرّ، واللذّةِ والألم، حتى مثقالِ الذّرة، ويوصل كل نَفس إلى غاياتِها التي تشهد هي أنها أوْلى بها، فحينئذ يَنْطِق

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٨٤، وابن ماجة في الدعاء باب ٥.

الكونُ بأجمعه بحمده تبارك وتعالى قالاً وحالاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فحذف فاعل القول لأنه غيرُ معين، بل كل أحدٍ يَحْمَدُه عَلَى ذلك الحُكم الذي حكم فيه، فَيَحْمَدُه أهل السموات وأهلُ الأرض، والأبرارُ والفجارُ، والإنسُ والجِنُّ حتى أهلُ النار. قال الحسن أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حَمْدَه لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً، وهذا والله أعلمُ هو السرُّ الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر: ٧٢] وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] كأن الكون كلَّه نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب.

في دواعي المحبة ومتعلقها

الداعي قد يُراد به الشعورُ الذي تتبَعُه الإرادةُ والميل، فذلك قائمٌ بالمحبّ، وقد يُراد به السببُ الذي لأجله وُجدت المحبةُ وتعلّقت به، وذلك قائمٌ بالمحبوب، ونحن نريد بالداعي مجموعَ الأمرين، وهو ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبّته، وما قام بالمحب من الشعور بها، والموافقَة التي بين المحب والمحبوب، وهي الرابطة بينهما وتسمّى بين المخلوق والمخلوق مناسبةً وملاءمة.

فهاهنا أمور: وصفُ المحبوب وجماله، وشعورُ المحب به، والمناسبةُ وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحبوب، فمتى قوِيت الثلاثة وكَمُلَت، قوِيت المحبة واستحكمت، ونقصان المحبة وضعفُها بحسب ضعفِ هذه الثلاثة أو نَقْصِها، فمتى كان المحبوبُ في غاية الجمال، وشعورُ المحب بجماله أتمَّ شعور، والمناسبةُ التي بين الرُّوحين قويةٌ، فذلك الحبُّ اللازم الدائم، وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً لكن هو في عين المحب كامل، فتكون قوّة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حُبَّك للشيء يُعمي ويُصِمّ، فلا يرى المحبُّ أحداً أحسنَ من محبوبه، كما يُحْكى أنَّ عَزَّة دخلت على الحجّاج فقال لها: يا عَزَّة والله ما أنتِ كما قال فيك كُثَيِّر، فقالت: أيها الأمير إنه لم يَرَني بالعين التي رأيتَني بها. ولا ريب أن المحبوب أحلى في عين محبه وأكبرُ في صدره من غيره، وقد أفصح بهذا القائلُ في قوله(١):

فـوالله مـا أدري أزِيـدَتْ مـلاحـة ... وحُسْناً على النِّسوان أم ليس لي عَقْلُ

وقد يكون الجمالُ مُوَفَّراً لكنه ناقصُ الشعور به فتَضْعُفَ محبتُه لذلك، فلو كُشفَ له عن حقيقته لأسر قلبَه، ولهذا أمِرَ النساءُ بسَتْر وجوههن عن الرجال، فإن ظهور الوجه يُسْفِر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان، ولهذا شُرع للخاطب أن ينظر إلى المخطوبة، فإنه إذا شاهد حسنَها وجمالَها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبة والأُلفه بينهما كما أشار

---

(١) هو الحكم بن معمر الخضري.

إليه النبي ﷺ في قوله: «إذا أرَادَ أحَدُكُم خِطْبَةَ امْرَأةٍ فَلْيَنْظُرْ إلى مَا يَدْعُوهُ إلى نِكَاحِهَا فَإنَّهُ أحْرَى أنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا»(١) أي يُلاءم ويوافق ويصلُح. ومنه الأدام الذي يَصْلُح به الخبز، وإذا وُجد ذلك كلُّه وانْتَفتِ المناسبة والعَلاقة التي بينهما لم تَسْتحكم المحبة، وربما لم تقع البتةَ، فإن التناسُبَ الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة.

فكلُّ امرىءٍ يصبو إلى من يناسبُهْ

وهذه المناسبة نوعان: أصليةٌ من أصل الخلقة، وعارضةٌ بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمرٍ من الأمور، فإن من ناسب قصدُك قصدَه حصل التوافُقُ بين رُوحك ورُوحه، فإذا اختلف القصدُ زال التوافُق، فأما التناسُب الأصلي فهو اتفاق أخلاق وتشاكُل أرواح وشوق كلّ نفس إلى مُشاكلها، فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة، فتنجذب كلٌّ منهما إلى الأخرى بالطبع، وقد يقع الانجذاب والميلُ بالخاصِّية، وهذا لا يعلَّل ولا يُعرَف سببُه كانجذاب الحديد إلى الحجر المِغْنَاطيس. ولا ريب أن وقوعَ هذا القَدْر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات كما قيل:

محاسنُها هَيُولى(٢) كل حسنٍ ومِغْناطِيسُ أفئِدَةِ الرجال

وهذا الذي حَمَلَ بعضَ الناس على أن قال: إن العشق لا يقف على الحُسْن والجمال ولا يلزم من عَدَمِه عَدَمُه، وإنما هو تشاكُل النفوس وتمازُجُها في الطباع المخلوقة، كما قيل(٣):

وما الْحُبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنه شيءٌ به الرُّوحُ تَكْلَفُ

قال هذا القائل: فحقيقتُه أنه مِرْآة يُبصر فيها المحبُّ طباعَه وَرِقَّته في صورة محبوبه، ففي الحقيقة لم يحبّ إلا نفسه وطباعَه ومشاكِلَه.

---

(١) هذا الحديث مركّب من حديثين. الأول: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل» أخرجه أبو داود في النكاح باب ١٨، والترمذي في النكاح باب ٥، وأحمد في المسند (٢/ ٢٨٦، ٢٩٩، و٣/ ٣٣٤، ٣٦٠، و٥/ ٤٢٤). والثاني: عن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة في عهد رسول الله ﷺ، فقال لي: «أنظرت إليها؟» قلت: لا. قال: «فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما». أخرجه النسائي في النكاح باب ١٧ واللفظ له، والترمذي في النكاح باب ٥، وابن ماجة في النكاح باب ٩، والدارمي في النكاح باب ٥، وأحمد في المسند (٤/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) الهيولى: مادة الشيء الذي يصنع منها. وعند القدماء: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية.

(٣) هو لمحمد بن داود الظاهري كما جاء في ديوان الصبابة.

قال بعضهم لمحبوبه: صادفتُ فيك جوهرَ نفسي ومُشَاكَلَتَهَا في كل أحوالها، فانبعثت نفسي نحوك وانقادت إليك، وإنما هَوِيتُ نفسي. وهذا صحيح من وجه، فإن المناسبة عِلَّةُ الضَّمِّ شَرْعاً وقَدَراً، وشاهِدُ هذا بالاعتبار أن أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أشْبَهَ بجوهر بدنه وأكثرَ مناسبةً له، وكلما قويت المناسبة بين الغاذي والغذاء كان ميلُ النفس إليه أكثر، وكلما بعدت المناسبة حصلت النَّفْرَةُ عنه، ولا ريب أن هذا قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّد الحسن والجمال، ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيةُ العُلْوية تعشق صفاتِ الكمال بالذات، فأحبُّ شيءٍ إليها العلم والشجاعة والعِفَّةُ والجودُ والإحسان والصبر والثبات لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللئيمةِ الدنيَّة فإنها بِمَعْزِلٍ عن محبَّة هذه الصفات، وكثيرٌ من الناس يحمله على الجود والإحسان فرطُ عشقه ومحبَّتِهِ له واللذَّة التي يجدها في بذله، كما قال المأمون: لقد حُبِّبَ إليَّ العفوُ حتى خشيتُ أن لا أؤجَر عليه. وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: تعلمت هذا العلم لله؟ فقال: أما لله فعزيز، ولكن شيءٌ حُبِّب إليَّ ففعلتُه. وقال آخر: إني لأفرح بالعطاء وألتذ به أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه مني. وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات:

وتأخذُه عند المكارم هِزَّةٌ ... كما اهتَزَّ عند البَارح[1] الغُصْنُ الرَّطْبُ

وقال شاعر الحماسة:

تراه إذا ما جئتَه مُتَهَلِّلاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائلُهْ[2]

وكثيرٌ من الأجواد يعشق الجود أعظمَ عِشق، فلا يصبرِ عنه مع حاجته إلى ما يجود به، ولا يقبل فيه عذلَ عاذل، ولا تأخذه فيه لومةُ لائم، وأما عشاق العلم فأعظمُ شَغَفاً به وعشقاً له من كل عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر. وقيل لامرأةِ الزُّبَيْرِ بن بكار أو غيره: هنيئاً لِك إذ ليست لك ضَرَّة، فقالت: والله لهذه الكتبُ أضرُّ عليَّ من عِدَّة ضرائر. وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الْجَدُّ إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع وأعرف من أصابه مرضٌ من صُداعٍ وحُمَّى. وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وَجَد إفاقةً قرأ فيه، فإذا غُلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يَحِلّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك. وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ

---

(١) البارح: الريح الحارة في الصيف.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وقد ورد في شرح ديوانه (ص ١٤٢) طبعة دار الكتب المصرية. ونسب في الأغاني (ج ١٣) طبع بولاق لعبد الله بن الزبير الأسدي.

فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت قَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فعشقُ صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الرُّوح وتلك الصفات ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفَها معشوقاً كما قيل:

أنــت القتيــلُ بكــلٍّ مــن أحْبَبْتَــه فـاخْتَرْ لنفسِـكَ فـي الهـوى من تَصْطفي

فإذا كانت المحبّةُ بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكّنت ولم يُزلْها إلا مانعٌ أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبةٌ لغرضٍ من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحلّ، فمن أحبّك لأمرٍ ولّى عند انقضائه، فداعي المحبة وباعثُها إن كان غرضاً للمحبِّ لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمراً قائماً بالمحبوب سريعَ الزوال والانتقال زالت محبته بزواله، وإن كان صفةً لازمةً فمحبتُه باقيةٌ ببقاء داعيها ما لم يعارضه معارضٌ يوجب زوالَها، وهو إما تغيُّر حال في المحب، أو أذًى من المحبوب، فإن الأذى إما أن يُضْعِفَ المحبة أو يزيلها.

قال الشاعر:

خـذي العفـو مني تستـديمـي مَـوَدَّتـي ولا تَنْطِقـي فـي سَوْرتـي حيـن أغضَـب
فـإنـي رأيـتُ الحـبَّ فـي القلـب والأذى إذا اجتمعـا لـم يَلْبَـثِ الحـبُّ يـذهـب

وهذا موضعٌ انقسم المحبُّون فيه قسمين: ففرقةٌ قالت: ليس بحبٍّ صحيح ما يزيله الأذى، بل علامَةُ الحب الصحيح أنه لا ينقص بالجفوة ولا يذهبه أذى قالوا: بل المحب يلتذّ بأذى محبوبه له، كما قال أبو الشِّيص:

وقـف الهـوى بـي حيـث أنـتِ فليس لـي مُتَـــأخَّــــرٌ عنــــه ولا مُتَقَــــدَّمُ
وَأَهَنْتِنـي فــأهنــتُ نفسَــي جــاهــداً مــا مَــنْ يهــون عليــكِ ممــن يُكــرَم
أشبهــتِ أعــدائــي فصــرتُ أحِبُّهــم إذ كـــان حظِّــي منــك حظِّــيَ منهــم
أجــدُ المــلامــةَ فــي هــواكِ لــذيــذةً حبّــاً لِــذكــرِكِ فَلْيَلُمْنِــي اللــوَّم

فهذا هو الحب على الحقيقة فإنه متضمنٌ لغاية الموافقة، بحيث قد اتخذَ مرادَه ومرادَ محبوبه من نفسه، فأهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له، وأحبَّ أعداءه لما أشبههم محبوبُه في أذاه. وهذا وإن كانت الطباعُ تأباه لكنه مُوجَبُ الحبّ التام ومقتضاه. وقالت فرقةٌ: بل الأذى مزيلٌ للحب، فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها، كما أن القلوب

مجبولةٌ على حبِّ من يحسن إليها. وما ذكره أولئك فدعوى منهم.

والإنصاف أن يقال: يجتمع في القلب بغضُ أذى الحبيب وكراهتُه، ومحبتُه من وجه آخر، فيحبه ويُبغض أذاه، وهذا هو الواقع، والغالبُ منها يواري المغلوب ويبقي الْحكم له، وقد كشف عن بعض هذا المعنى الشاعرُ في قوله[1]:

ولـو قلـتِ طَـأْ فـي النـار أعلـمُ أنـه ... رضـاً لـكِ أو مُـدْنٍ لنـا مـن وصـالِـكِ
لقـدَّمـتُ رِجْلـي نحـوهـا فـوطئتُهـا ... هـدًى منـكِ لـي أو ضِلَّـةً مـن ضـلالـكِ
وإن سـاءنـي أن نِلْتِنِـي بمسـاءةٍ ... فقـد سـرّنـي أنـي خَطَـرتُ ببَـالِـكِ[2]

فهذا قد أنصف حيث أخبر أنه يسوؤه أن ينالَه محبوبُه بمساءة ويسرّه خطورُه بباله، لا كمن ادَّعى أنه يلتذّ بأذى محبوبه له، فإن هذا خارجٌ عن الطباع، اللهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلةً إلى رضى المحبوب وقربه، فإنه يلتذّ به إذا لاحظ غايتَه وعاقبتَه، فهذا يقع، وقد أخبرني بعض الأطباء قال: إني أَلْتَذُّ بالدواء الكريه إذا علمتُ ما يحصُل به من الشفاء، وأضعه عَلَى لساني وأتَرَشّفُه محبةً له، ومن هذا التذاذُ المحبين بالمشاقِّ التي توصلهم إلى وصال محبوبهم وقربه، وكلما ذكروا روحَ الوصال وأن ما هم فيه طريقٌ موصلٌ إليه، لذّ لهم مقاساتُه، وطاب لهم تحمُّلُه. كما قال الشاعر:

لهـا أحـاديـثُ مـن ذكـراك تَشْغَلُهـا ... عـن الشـراب وتُلْهيهـا عـن الـزاد
لهـا بـوجهـك نـورٌ تستضـيءُ بـه ... ومـن حـديثـك فـي أعْقـابهـا حـادي
إذا شَكَـتْ مـن كَـلاَلِ السيـر أُوعِـدُهـا ... رَوْحَ اللقـاء فتقـوى عنـد ميعـاد

والمقصود أن المحبة تستدعي مشاكلةً ومناسبة، وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده من حديث عائشة رضي الله عنها: أن امرأةً كانت تدخل على قريش فتضحكهم، فقدمت المدينةَ فنزلت على امرأةٍ تُضْحك الناس، فقال النبي ﷺ: «على مَنْ نزلت فلانة؟» فقالت: على فلانةِ المضحكة، فقال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[3]. وأصل الحديث في الصحيح. وذُكر لبقراط رجلٌ من أهل النقص يحبه فاغتمّ لذلك وقال: ما أحبني إلا وقد وافقتُه في بعض أخلاقه، وأخذ المتنبي هذا المعنى فقلبه وأجاد فقال:

---

(١) هو عبد الله بن الدمينة.

(٢) سيأتي هذا البيت في الباب العشرين وفيه: «لئن ساءني... لقد سرني الخ»، وهو الصواب.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢. ومسلم في البرّ حديث ١٥٩ و ١٦٠. وأبو داود في الأدب باب ١٦/. وأحمد في المسند (٥/ ٣٣، ٢٨٨).

وإذا أتتك مَذَمَّتِي من ناقص فهي الشهادةُ لي بأني فاضل

وقال بعض الأطباء: العشقُ امتزاجُ بالرُّوح لما بينهما من التناسبِ والتشاكل، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليصُ بعضه من بعض، ولذلك تَبْلُغُ المحبةُ بين الشخصين حتى يتألّم أحدُهما بتألُّم الآخر، ويَسْقَمَ بسقمه وهو لا يَشْعُر، ويُذكر أن رجلاً كان يحب شخصاً فمرض فدخل عليه أصحابه يعودونه فوجدوا به خفةً فانبسط معهم، وقال: من أين جئتم؟ قالوا: من عند فلانٍ عُدْناهُ، فقال: أوَ كان عليلاً؟ قالوا: نعم وقد عُوفيَ، فقال: والله لقد أنكرتُ عِلّتِي هذه ولم أعرِف لها سبباً غير أني توهمت أن ذلك لعلةٍ نالت بعضَ من أحبّ، ولقد وجدت في يومي هذا راحةً ففرحْتُ طمعاً أن يكون الله سُبحانه وتعالى شفاه، ثم دعا بدواةٍ فكتب إلى محبوبه[1]:

إني حُمِمْتُ ولم أشعُر بحُمَّاكِ حتى تحدّثَ عُوّادِي بشكواكِ
فقلتُ ما كانت الْحُمّى لِتَطْرُقَني من غير ما سببٍ إلا لِحُمّاكِ
وخَصلةٍ كنتُ فيها غيرَ مُتّهَم عافانيَ الله منها حين عافاكِ
حتى اتفقت نفسي ونفسُك في هذا وذاك وفي هذا وفي ذاكِ

ويُحْكى أن رجلاً مرض مَن يُحبُّه فعاده المحبّ فمرض من وقته، فعوفيَ محبوبه فجاء يعوده فلما رآه عُوفي من وقته وأنشد:

مَرِضَ الْحبيبُ فعُدْتُه فمرضتُ من حَذَري عليه
وأتى الْحبيبُ يعودُني فبرئتُ من نظري إليه

وأنت إذا تأمّلْتَ الوجودَ لا تكاد تجد اثنين يتحابّان إلا وبينهما مشاكلةٌ أو اتفاقٌ في فعلٍ أو حالٍ أو مَقْصِدٍ، فإذا تباينتِ المقاصدُ والأوصاف والأفعال والطرائق لم يكن هناك إلا النَّفْرَةُ والبعدُ بين القلوب، ويكفي هذا الحديثُ الصحيح عن رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بالْحُمَّى والسّهَرِ»**[2].

فإن قيل: فهذا الذي ذَكرتم يقتضي أنه إذا أحب شخصٌ شخصاً أن يكون الآخر

---

(١) الشعر لأبي نواس قاله في رحمة بن نجاح كما في ديوانه (ص ٢٩٩) طبع مصر ببعض اختلاف وزيادة بيتين والقوافي فيه مفتوحة خطاباً للذكر. وجاء في ديوان الصبابة لابن أبي حجلة أنها قيلت في عنان جارية الناطفي فهي هناك كما هي هنا مكسورة خطاباً للمؤنث.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٧. ومسلم في البرّ حديث ٦٦. وأحمد في المسند (٤/٢٦٨، ٢٧٠).

يحبه فيشتركان في المحبة، والواقعُ يشهد بخلافه، فكم من محبٍّ غير محبوب بل بسيف البغض مضروب، قيل: قد اختلف الناس في جواب هذا السؤال، فأما أبو محمد بن حزم فإنه قال: الذي أذهب إليه أن العشق اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخلقة في أصل عُنْصُرِها الرفيع، لا عَلَى ما حكاه محمد بن داود عن بعض أهل الفلسفة أن الأرواح أكَرٌ مقسومةٌ لكن عَلَى سبيل مناسبةِ قواها في مَقَرِّ عالَمها العُلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها. وقد علمنا أن سرّ التمازج والتبايُن في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، فالشكلُ إنما يستدعي شكلَه والمثلُ إلى مثله ساكنٌ. وللمجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مشاهَد. والتنافرُ في الأضداد، والموافقةُ في الأنداد، والنِّزاعُ فيما تشابه موجود بيننا، فكيف بالنفسِ وعالَمُها العالمُ الصافي الخفيف، وجوهرُها الجوهرُ الصَّعَّاد المعتدل، وسِنْخُها[1] المُهَيَّأُ لقَبول الاتفاق والميل والتَّوْق والانحراف والشهوة والنِّفار؟ والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٨] فجعل عِلَّةَ السكون أنها منه، ولو كان عِلَّةَ الحب حسنُ الصورة الجسدية لوجب أن لا يُسْتَحْسَنَ الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيراً ممن يُؤْثِرُ الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد مَحيداً لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرءُ من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيءٌ في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسببٍ من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها.

قال: ومما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أن المحبة ضُروب: فأفضلُها محبةُ المتحابِّين في الله إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل المذهب، وإما لفضلِ علم يُمْنَحُه الإنسانُ. ومحبةُ القرابة، ومحبةُ الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبةُ التصاحُب والمعرفة، ومحبةٌ لبرٍّ يضعه المرء عند أخيه، ومحبةٌ لطمع في جاه المحبوب، ومحبةُ المتحابَّيْن لسرٍّ يجتمعان عليه يلزمهما سَتْرُه، ومحبةٌ لبلوغ اللذة وقضاء الوَطَرِ، ومحبةُ العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. وكل هذه الأجناس فمنقضيةٌ مع انقضاء عِلَلِها، وزائدةٌ بزيادتها، وناقصةٌ بنقصانها، متأكِّدَةٌ بدُنوِّها، فاترةٌ ببعدها، حاشا محبةِ العشق الصحيح المتمكن من النفس. ثم أورد هذا السؤال[2] قال: والجوابُ أن نفس الذي لا يحب من يُحبه مُكْتَنَفَة الجهات ببعض الأعراض الساترة، والحُجُب

---

(١) السنخ: الأصل من كل شيء.

(٢) يشير إلى السؤال الذي تقدم في آخر الصفحة السابقة وهو: فإن قيل فهذا الذي ذكرتم يقتضي أنه إذا أحب شخص شخصاً أن يكون الآخر يحبه فيشتركان في المحبة والواقع يشهد بخلافه. وهذا السؤال ليس لفظ ابن حزم وإنما أورده المؤلف بالمعنى.

المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تُحِسّ بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلّصت لاستويا في الاتصال والمحبّة. ونفس المحب متخلِّصةٌ عالمةٌ بمكان ما كان يَشْرَكُها في المجاورة طالبةٌ له قاصدةٌ إليه باحثة عنه مشتهيةٌ لملاقاته، جاذبةٌ له لو أمكنها كالمِغْناطيس والحديد، وكالنار في الحجر.

وأجابت طائفةٌ أخرى أن الأرواح خُلِقَتْ على هيئة الكُرَة ثم قُسِمت. فأي رُوحين تلاقيتا هناك وتجاورتا تألفتا في هذا العالَم وتحابتا، وإن تنافرتا هناك تنافرتا هنا، وإن تألفتا من وجهٍ وتنافرتا من وجهٍ كانتا كذلك هاهنا، وهذا الجواب مبنيٌّ على الأصل الفاسد الذي أصَّله هؤلاء أن الأرواح موجودةٌ قبل الأجساد، وأنها كانت متعارفةً متجاورةً هناك، تتلاقى وتتعارف وهذا خطأ، بل الصحيح الذي دلّ عليه الشرع والعقل أن الأرواح مخلوقةٌ مع الأجساد، وأن المَلك المُوَكَّلَ بنفخ الرُّوح في الجسد ينفُخ فيه الرُّوحَ إذا مضى على النطفة أربعةُ أشهر ودخلت في الخامس، وذلك أوّل حدوث الرُّوح فيه. ومن قال إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط، وأقبحُ منه قولُ من قال: إنها قديمةٌ، أو تَوَقّف في ذلك، بل الصواب في الجواب أن يقال: إن المحبة كما تقدّم قسمان: محبةٌ عَرَضِيَّةٌ غَرَضِيَّةٌ، فهذه لا يجب الاشتراك فيها بل يقارنها مَقْتُ المحبوب وبغضُه للمحب كَثيراً، إلا إذا كان له معه غرضٌ نظيرُ غرضه فإنّه يحبّه لغرضه منه، كما يكون بين الرجل والمرأة اللّذَيْن لكلٍّ منهما غرضٌ مع صاحبه. والقسم الثاني محبةٌ رُوحانية سببُها المشاكلَة والاتفاق بين الرُّوحين، فهذه لا تكون إلا من الجانِبَين ولا بدّ، فلو فتّش المحب المحبةَ الصادقةَ قلبَ المحبوب لوجد عنده من محبته نظيرَ ما عنده أو دونه أو فوقه.

فصل: وإذا كانت المحبةُ من الجانِبَيْن استراح بها كلُّ واحدٍ من المحبين، وسكَّن ذلك بعضَ ما به وعدّه نوعاً من الوصال، وقالت امرأةٌ من العرب:

حَجَحتُ ولم أحْجُج لذنبٍ عمِلتُه ... ولكن لتُعْدِيني عَلى قاطع الْحَبلِ
ذهبتَ بعقلي في هواه صغيرةً ... وقد كبرت سنِّي فردَّ به عقلي
وإلا فسوِّ الحبَّ بيني وبينه ... فإنك يا مولاي تُوصَفُ بالعدل

وقال آخر:

فيا ربِّ أشغلها بحبي كما بها ... شَغَلْتَ فؤادي كي يخفَّ الذي بيا

وقالت امرأةٌ تعاتب بَعْلَها: أسأل الذي قسم بين العباد معايشهم أن يَقْسِم الحبَّ بيني وبينك، ثم أنشدت:

أَدعو الذي صَرَفَ الهوى ... منِّي إليكَ ومنكَ عني

أن يبتليك بما ابتلا ... ني أو يسلَّ الحبَّ مني

وقال آخر:

فيا ربِّ إن لم تَقْسِم الحبَّ بيننا ... بشَطْرَين فاجعلني عَلَى هجرها جَلْدا
وأعقبنيَ السُّلوانَ عنها ورُدَّ لي ... فؤاديَ من سَلْمى أُثِبْكَ به حَمْدا

وقال أبو الهُذَيْل العَلاَّف: لا يجوز في دَوْر الفلك ولا في تركيب الطبائع ولا في الواجب ولا في الممكن أن يكون محبٌّ ليس لمحبوبه إليه ميل، وإلى هذا المذهب ذهب أبو العباس الناشىء حيث يقول:

عيناكِ شاهِدَتان أنكِ من ... حَرِّ الهوى تجدين ما أجِدُ
بكِ ما بنا لكنْ عَلَى مَضَضٍ ... تَتَجلَّدين وما بنا جَلَدُ

وقال أبو عُيَيْنَة:

تبيتُ بنا تَهْذِي وأهذي بذكرها ... كلانا يقاسي الليلَ وهوَ مُسهَّدُ
وما رَقَدَتْ إلا رأتني ضجيعَها ... كذاك أراها في الكرى حين أرْقُدُ
تُقِرُّ بذنبي حين أغفو ونلتقي ... وأسألها يقظانَ عنه فتَجْحَدُ
كلانا سواء في الهوى غير أنها ... تَجَلَّدُ أحياناً وما لي تجلُّدُ

وقال عُرْوَةُ بن أُذَيْنَة:

إن التي زَعَمَتْ فؤادَك ملها ... خُلِقت هواك كما خُلِقْتَ هَوًى لها
فبك الذي زَعَمَتْ بها فكلاكما ... أبدى لصاحبه الصَّبابَة كلَّها

فإذا تشاكلت النفوس وتمازجت الأرواح وتفاعلت تفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذي بين الأرواح، فإن البدن آلة الرُّوح ومَرَكَبُه، وبهذا ركَّب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلباً للامتزاج والاختلاط بين البدنين، كما هو بين الرُّوحين، ولهذا يسمى جماعاً وخِلاطاً ونكاحاً وإفضاء، لأن كل واحدٍ منهما يُفضي إلى صاحبه فيزول الفضاءُ بينهما.

فإن قيل: فهذا يوجب تأكُّدَ الحبّ بالجماع وقوّتَه به والواقعُ خلافه، فإن الجماعَ يُطفِىء نار المحبة ويُبرِّد حرارتَها ويسكّن نفسَ المحب، قيل: الناسُ مختلفون في هذا فمنهم من يكون بعد الجماع أقوى محبةً وأمكنَ وأثبتَ مما قبلَه، ويكون بمنزلة من وُصف له شيء ملائمٌ فأحبّه، فلما ذاقه كان له أشدَّ محبة، وإليه أشدَّ اشتياقاً، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث عروج الملائكة إلى ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عباده ـ وهو أعلم بهم ـ فيقولون: إنهم يسبحونك ويحمدونك ويقدّسونك فيقول: وهل

رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوني؟ فتقول الملائكة: لو رأوك لكانوا أشدَّ تسبيحاً وتقديساً وتمجيداً ثم يقولون: ويسألونك الجنة فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فتقول الملائكة: لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلباً وذكر الحديث(١). ومعلومٌ أن محبةَ من ذاق الشيء الملائمَ وعُدِمَ صبرَه عنه أقوى من محبة من لم يَذُقْهُ، بل نفسه مفطومةٌ عنه، والمودَّةُ التي بين الزوجين والمحبةُ بعد الْجماع أعظمُ من التي كانت قبله. والسببُ الطبيعي أن شهوة القلب ممتزجةٌ بلذَّة العين، فإذا رأت العينُ اشتهى القلب، فإذا باشر الجسمُ الجسمَ اجتمع شهوةُ القلب ولذَّةُ العين ولذة المباشرة، فإذا فارق هذه الْحال كان نِزَاعُ نفسه إليها أشدَّ، وشوقه إليها أعظمَ كما قيل:

وأكثــرُ مــا يكــونُ الشــوقُ يــومــاً إذا دنــتِ الــديــارُ مــن الــديــار

ولذلك يتضاعف ألمه وحسرته في مقابلة مضاعفة لذّة من عاوده، وهذا في جانب المرأة أقوى فإنها إذا ذاقت عُسَيْلَةَ الرجل ولا سيما أوّل عُسَيْلَة لم تكد تصبر عنه بعد ذلك، قال أيمن بن خُرَيم:

يميــت العتــابَ خِــلاطُ النســاءِ ويُحيــي اجتنــابُ الْخِــلاط العتــابــا

وتزوَّج زهير بن مسكين الفهري جارية ولم يكن عنده ما يرضيها به، فلما أمكنته من نفسها لم تَرَ عنده ما ترضى به فذهبت ولم تَعُدْ، فقال في ذلك أشعاراً كثيرة، منها:

تقــول وقــد قَبَّلْتُهــا ألــف قُبْلَــةٍ كفـاك أمـا شـيءٌ لـديك سـوى القُبَـلْ
فقلـت لهـا حـبٌّ علـى القلـب حفظُـه وطـولُ بكـاء تستفيـض لـه المُقَـلْ
فقـالـت لعمـرُ الله مـا لـذّةُ الفتـى مـن الحـب فـي قـولٍ يخـالفـه الفعـل

وقال آخر:

رأت حُبِّــي سعــادُ بــلا جمــاع قــالــت حبلُنــا حبــلُ انقطــاع
ولســت أُريــد حبّــا ليــس فيــه متــاعٌ منــكَ يــدخــل فــي متــاعــي
فلــو قبّلتنــي ألفــاً وألفــاً لمــا أرضيــت إلاّ بــالجمــاع
إذا مــا الصــبُّ لــم يــكُ ذا جمــاع يــرَى المحبــوبَ كــالشــيءِ المُضــاع
جِمــاعُ الصــبّ غــايــةُ كــلّ أنثــى وداعيــةٌ لأهــل العشــق داعــي
فقلــت لهــا وقــد ولّــت تعــالَــيْ فــإنــك بعــد هــذا لــن تُــراعــي

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٧. ومسلم في الذكر حديث ٢٥. والترمذي في الدعوات باب ١٢٩. وأحمد في المسند (٢/ ٣٨٢).

وإنــك لــو ســألــتِ بقــاءَ يــومٍ — خليٌّ عـن جمـاعـك لـن تطـاعـي
فقــالــت مــرحبـاً بفتًـى كـريـم — ولا أهــلاً بــذِي الْخَنْــعِ اليَـرَاع[1]
إذا مــا البعــلُ لــم يــكُ ذا جِمـاعٍ — يُـرى فـي البيـت مـن سقـط المتـاع

وقال آخر:

ولمـا شكـوتُ الحـبَّ قـالـت كـذبتَنـي — فكـم زوْرةٍ منـي قصـدتُـك خـاليـا
فمــا حُــلَّ فيهــا مــن إزارٍ للــذّةٍ — قعـدتُ وحـاجـاتُ الفـؤاد كمـا هيـا
وهــل راحــةٌ للمــرء فـي وِرد مَنْهَـلٍ — ويَـرْجِـعُ بعـد الـوِرْد ظمـآنَ صـاديـا

وقال العباس بن الأحنف:

لـم يَصْـفُ وصـلٌ لمعشـوقَيْـن لـم يَـذُقـا — وصــلاً يَجِـلُّ علـى كـل اللــذاذات

وقال هُدْبَة بن الْخَشْرَم:

والله مــا يَشْفــي الفــؤاد الهــائمـا — نفـثُ الـرّقـى وعَقْـدُك التمـائمـا
ولا الحــديــثُ دون أن تُــلازمــا — ولا اللّــزامُ دون أن تفــاعمــا[2]
ولا الفِعــام دون أن تفــاقمــا[3] — وتعلــوَ القــوائــمُ القــوائمــا

وقال آخر:

قــولا لعــاتكــة التــي — فــي نظــرةٍ قضـت الــوَطَــرْ
إنــي أُريــدكِ للنكــا — ح ولا أُريــدكِ للنظــرْ
لــو كــان هــذا مقنعــي — لَقَنِعْــتُ عنهــا بــالقمــرْ

وقال آخر:

دواءُ الحــبِّ تقبيــلٌ وشَــمٌّ — ووضــعٌ للبطــون علــى البطــون
ورَهْــزٌ تــذرف العينــان منــه — وأخــذٌ بــالمنــاكــب والقــرون[4]

وقالت امرأةٌ وقد طُلبت منها المحادثة:

ليــس بهــذا أمــرتنــي أمّــي — ولا بتقبيــلٍ ولا بشــم

---

(١) الخنع: الذي يكتفي من النساء بالمغازلة والملاعبة، وخنع فلان إلى النساء: مال لهن وعاشرهن بالمغازلة والملاعبة. واليراع: الجبان الذي لا قلب له. وعلى التشبيه: من لا رأي ولا عقل له.

(٢) الفعام: أن تشم رائحة جسدها وتملأ به أنفك.

(٣) الفقام: أن تقبلها حتى ترتوي. والفقم: اللحي؛ وفي الحديث (من حفظ ما بين فقميه) أي ما بين لحييه.

(٤) الرهز: شدة الحركة في الجماع. والقرن: ذؤابة المرأة، الخصلة من الشعر.

لكـن جمـاعـاً قـد يسلّـي همـي يسقـط منـه خـاتمـي فـي كُمِّـي

وقد كشف الشاعر سبب ذلك حيث يقول:

لـو ضَـمَّ صـبٌّ إلْفَـهُ ألفـاً لمـا أجـدى وزادت لـوعـةٌ وغـرامُ
أرواحُهـم مـن قبـل ذاك تـألّفَـتْ فتـألّفَـتْ مـن بعـدهـا الأجسـام

وقال المؤلف:

سـألـت فقيـهَ الْحُـبّ عـن علّـة الهـوى وقلـتُ لـه أشكـو إلـى الشيـخ حـاليـا
فقـال دواء الحـب أن تُلْصِـقَ الْحَشَـا بـأحشـاء مَـنْ تهـوى إذا كنـتَ خـاليـا
وتَتّحـدَا مـن بعـد ذاك تعـانُقـاً وتَلْثَمَـه حتـى يُـرى لـك نـاهيـا
فتقضـيَ حـاجـاتِ الفـؤاد بـأسـرهـا علـى الأمـن مـا دام الحبيـب مُـؤاتيـا
إذا كـان هـذا فـي حـلالِ فحبَّـذا وصـالٌ بـه الـرحمـنُ تلقـاه راضيـا
وإن كـان هـذا فـي حـرامٍ فـإنـه عـذابٌ بـه تلقـى العنـا والمكـاويـا

قال هؤلاء: ولا يستحكم الحبّ إلا بعد أن يَشُقَّ الرجلُ رداءه وتشقَّ المرأة المعشوقةُ بُرْقُعَهَا، كما قال الشاعر:

إذا شُـقَّ بُـرْدٌ شُـقَّ بـالبُـرْد بُـرْقـعٌ دَوَالَيْـكَ حتـى كلُّنـا غيـرُ لابِـس
فكـم قـد شققنـا مـن رداءٍ مُحَبَّـرِ ومـن بـرقـعٍ عـن طفلـةٍ غيـرِ عـانـس[١]

ولما بلغ بعضَ الظرفاء[٢] قولُ المأمون: ما الحبّ إلّا قبلةٌ. الأبيات: قال: كذب المأمون ثم قال:

وبـاض الحـبُّ فـي قلبـي فـوا ويـلا إذا فـرَّخْ
ومـا ينفعنـي حبـي إذا لـم أكنـس البَـرْبَـخْ[٣]
وإن لـم يَضَـعِ الأصْلـ ـعُ خُـرجيـه عَلَـى المطبـخْ

وقال ابن الرُّومي:

أعـانقُهـا والنفـسُ بعـدُ مَشـوقَـةٌ إليهـا وهـل بعـد العِنَـاق تـدانـي
وألْثَـمُ فـاهـا كـي تـزولَ صبَـابتـي فيشتـدّ مـا ألقـىٰ مـن الهَيمَـان
ولَـمْ يَـكُ مقـدارُ الـذي بـي مـن الجَـوَى لِيَشْفِيَـه مـا تـرشـفُ الشفتـان

---

(١) محبر: مزين ومنمق. والعانس: البكر النصف والجمع عوانس وعنس.
(٢) هو أبو العبر كما جاء في الأغاني للأصفهاني.
(٣) البربخ: منفذ المياه ومجراه، والبالوعة من الخزف وغيره وهو هنا يعني الفرج.

كـأن فـؤادي ليـس يشفـي غَليلَـه سـوى أن أرى الـرُّوحيـن تمتـزجـان

وقال الطبراني في معجمه الأوسط: حدَّثنا بكر بن سهل: حدَّثنا عبد الله بن يوسف: حدّثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيمَ بن مَيْسَرَة، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله عندنا يتيمة قد خطبها رجلان: مُوسِرٌ ومُعْسِرٌ، وهي تهوى المُعْسِرَ، ونحن نهوى المُوسِرَ، فقال: «**لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابَّين مِثْلُ التَّزْوِيج**» قال أبو القاسم الطبراني: لم يَرْوِه عن طاوس إلا إبراهيم، ولا رواه عن إبراهيم إلا محمد بن مسلم، وسفيان الثوري، تفرَّد به مُؤَمَّل بن إسماعيل عن الثوري انتهى. وقد رواه أبو الفرج بن الجوزي من حديث حَسَّان بن بِشْر: حدّثنا أحمد بن حَرْب: حدّثنا ابن عُيَيْنَةَ: حدثنا عمرو، عن جابر فذكره. وقال المعافىٰ بن عِمْران: حدّثنا إبراهيم بن يزيد، عن سليمان بن موسى، عن عمرو، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وحدّثنا علي بن حرب الطائي: حدّثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن إبراهيم بن مَيْسَرة، عن طاوس. وذكره الدارقطني في كتاب الغرائب وقال: تفرَّد به يزيد بن مروان، عن عمرو بن هٰرون، عن عثمان بن الأسود المكي، عن إبراهيم بن مَيْسَرة، عن طاوس.

وقالت هند بنت المُهلَّب: ما رأيت لصالحي النساء وشِرَارهن خيراً من إلحاقهنّ بمن يَسْكُنَّ إليه من الرجال، ولَربَّ مسكونٍ إليه غير طائل والسَّكَن عَلَى كل حالٍ أوفق.

وذكر الحاكم في تاريخ نَيْسابور من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «**أَرْبَعٌ لا يَشْبَعْنَ مِنْ أَرْبَع: أَرْضٌ مِنْ مَطَرٍ، وأُنْثَى مِنْ ذَكَرٍ، وَعَيْنٌ مِنْ نَظَرٍ، وَعَالِمٌ مِنْ عِلْم**»[1]. وهذا باطلٌ قطعاً عَلَى رسول الله ﷺ وهو كثير عن أبي هريرة رضي الله عنه. وذكر الطبراني في معجمه الأوسط من حديث ابن عمر يرفعه: «**فَضْلُ مَا بَيْنَ لَذَّةِ الْمَرْأَة وَلَذَّةِ الرَّجُلِ كَأَثَرِ الْمِخْيَطِ فِي الطِّينِ إلاَّ أَنَّ الله سَتَرَهُنَّ بِالْحَيَاءِ**» وقال: لم يَرْوِه عن ليث إلا أبو المسيب سَلْم بن سلام عن سويد عن عبد الله بن أسامة عن يعقوب بن خالد عن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنهما. قلت: وهذا أيضاً لا يَصِحُّ عن رسول الله ﷺ، وإسناده مظلم لا يحتج بمثله.

فصل: ورأت طائفةٌ أن الجماع يُفسد العشقَ ويُبطله أو يُضعفه، واحتجت بأُمور منها: أن الجماع هو الغاية التي تُطْلَب بالعشق فما دام العاشقُ طالباً فعشقه ثابتٌ، فإذا

---

(١) ذكر هذا الحديث في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى من رواية الحاكم أيضاً عن عائشة لا عن أبي هريرة. وفي سنده عبد السلام بن عبد القدوس، قال فيه أبو حاتم: يروي الموضوعات، لا يحل الاحتجاج به.

وصل إلى الغاية قضى وطَرَه، وبَرَدَت حرارة طلبه، وطَفِئَتْ نارُ عشقه. قالوا: وهذا شأن كل طالبِ لشيءٍ إذا ظَفِر به، كالظمآن إذا رَوِيَ، والجائع إذا شَبع، فلا معنى للطلب بعد الظفر. ومنها: أن سبب العشق فكريٌّ وكلما قَوِيَ الفكرُ زاد العشق، وبعد الوصول لا يَبْقَى الفكر، ومنها: أنه قبل الظفر ممنوعٌ، والنفسُ مُولَعَةٌ بحبّ ما مُنِعَتْ منه كما قال[1]:

وزادني كَلَفاً في الحب أن مُنِعَتْ ... أحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

وقال الآخر:[2]

لولا طِرَادُ الصيد لم تَكُ لَذَّةٌ ... فَتَطَارُدي لي بالوصالِ قليلا

قالوا: وكانت الجاهلية الجهلاء في كفرهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، وكانوا يصونون العشق عن الجماع، كما ذُكر أن أعرابيًّا عَلِق امرأةً فكان يأتيها سنين وما جرى بينهما ريبة، قال: فرأيت ليلةً بياض كفها في ليلةٍ ظلماء فوضعتُ يدي عَلَى يدها فقالت: مه لا تفسد ما صَلَح فإنه ما نكح حبٌّ إلا فسد. فأخذ ذلك المأمون فقال:

ما الحبّ إلا نظرةٌ ... وغمزُ كفٍّ وعَضُدْ
أو كُتُبٌ فيها رُقَى ... أجلُّ من نفث العُقَدْ
ما الحبّ إلا هكذا ... إن نُكحَ الحبُّ فَسَدْ
مَن كان هذا حبَّه ... فإنما يبغي الوَلَدْ

وهَوِى آخرُ امرأةً فدام الحالُ بينهما في اجتماع وحديثٍ ونظر، ثم إنه جامعها فقطعت الوصلَ بينهما فقال:

لو لم أواقع دام لي وصلُها ... فليتني لا كنتُ واقعتُها

وقيل لآخرَ شكا فراقَ محبوبةٍ له:

أكثرتَ مِنْ وَطْئِها وَالوَطْءُ مَسْأَمَةٌ ... فارفُق بنفسك إن الرفقَ محمود

وذكر عمر بن شَبَّة عن بعض علماء أهل المدينة قال: كان الرجل يحب الفتاة فإذا ظفر بها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدُها وتَعِدُه، فإذا التقيا لم يَشْكُ حبًّا ولم يُنشد شعراً وقام إليها كأنه أشهد عَلَى نكاحها أبا هريرة رضي الله عنه.

لم يَخْطُ من داخل الدِّهليز منصرفاً ... إلاَّ وخَلْخالها قد قارب الساقا

---

(١) هو الأحوص.

(٢) هو كشاجم كما جاء في ديوان الصبابة.

قال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت: العناق والضَّمة والغَمْزةُ والمحادثة.

ثم قالت: يا حضريّ فكيف هو عندكم؟ قلت: يقعد بين شُعبها الأربع ثم يُجهدها. قالت: يا ابنِ أخي ما هذا عاشقٌ هذا طالب ولد.

وسئل أعرابيٌّ عن ذلك فقال: مَصُّ الرِّيق، ولثْمُ الشَّفَة، والأخذ من أطايب الحديث، فكيف هو فيكم أيها الحضري؟ فقال: العَفْسُ(١) الشديد، والجمع بين الركبة والوريد، ورَهْزٌ يوقظ النائم، ويَشفي القلب الهائم. فقال: بالله ما يفعل هذا العدو الشديد فكيف الحبيب الودود؟.

وقال بعضهم: الحبّ يطيب بالنظر ويَفْسُد بالغمزِ. قال هؤلاء: والحب الصحيح يوجب إعظامَ المحبوب وإجلالَه والحياءَ منه، فلا تطاوعه نفسه أن يلقي جلباب الحياء عند محبوبه، وأن يُلْقِيَه عنه، ففي ذلك غاية إذلاله وقهره كما قيل:

إذا كـان حـظ المـرء ممـن يُحبُّـه ... حـرامـاً فحظـي مـا يَحـلّ ويَجمُـلُ
حـديـثٌ كمـاء المُـزْنِ بيـن فُصُـولـه ... عتـابٌ بـه حسـن الْحـديـث يُفَصَّـل
ولَثْـمُ فـمٍ عَـذْب اللِّثَـاتِ كـأنمـا ... جنـاهـن شهـدٌ فُـتَّ فيـه القَـرَنْفَـلُ
ومـا العشـق إلا عفـةٌ ونـزاهـةٌ ... وأنـسُ قلـوبٍ أنْسُهـن التغـزُّل
وإنـي لأستحيـي الحبيـبَ مـن التـي ... تَـريـبُ وأُدعَـى للجميـل فـأحْمِـل

وزعم بعضهم أنه كان يُشْرَط بين العشيقة والعاشق أنَّ له من نصفها الأعلى إلى سُرّتها ينال منه ما يشاءُ من ضمّ وتقبيل ورَشْف، والنصفُ الأسفلُ يَحْرُم عليه، وفي ذلك قال شاعر القوم:

فللحـبّ شطـرٌ مطلَـقٌ مـن عِقَـالِـهِ ... وللبَعْـل شطـرٌ مـا يُـرام مَنِيـعُ

وقال الآخر:

لهـا شطـرٌ فمـن حِـلٌ وَبِـلٌ ... ونصـفٌ كـالبَحيـرَة مـا يهـاج(٢)

وهذا كان من دين الجاهلية فأبطلته الشريعةُ، وجعلت الشّطرين كليهما للبَعْل. والشعراءُ قاطبةً لا يرون بالمحادثة والنظر للأجنبيات بأساً، وهو مخالفٌ للشرع والعقلِ

---

(١) عفسه عفساً: طرحه على الأرض وضغطه ضغطاً شديداً، وضربه على عجزه.

(٢) البل بالكسر: المباح يقال: حل بل وهو إتباع. والبحيرة: الناقة، كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقوا أذنها وأعفوها أن ينتفع بها ولم يمنعوها مرعى ولا ماء، وقد أبطلها الإسلام.

فإن فيه تعريضاً للطبع لما هو مجبولٌ على الميل إليه، والطبعُ يَسْرِق ويَغْلِبُ، وكم من مفتونٍ بذلك في دينه ودنياه، فإن قيل فقد أنشد الحاكم في مناقب الشافعي له[1]:

يقــولــون لا تنظُــرْ وتلــك بليّــةٌ ... ألا كــلّ ذي عينيــن لا بــدَّ نــاظــرُ
وليــس اكتحــالُ العيــن بــالعيــن ريبــةً ... إذا عَــفَّ فيمــا بيــن ذاك الضمــائــر

فإن صحت عن الشافعي فإنما أراد النظر الذي لا يدخل تحت التكليف، كنظرة الفَجْأة أو النظر المباح. وقد ذهب أبو بكر محمد بن داودَ الأصفهانيُّ إلى جواز النظر إلى من لا يحلّ له كما سيأتي كلامه إن شاء الله تعالى. قال أبو الفرج بن الجوزي: وأخطأ في ذلك وجرَّ عليه خطؤه اشتهارَه بين الناس وافتضاحَه. وذهب أبو محمد بن حزم إلى جواز العشق للأجنبية من غير رِيبةٍ، وأخطأ في ذلك خطأ ظاهراً فإن ذَريعة العشق أعظمُ من ذَريعة النظر، وإذا كان الشرعُ قد حرّم النظر لما يؤدي إليه من المفاسد كما سيأتي بيانُه إن شاء الله تعالى، فكيف يجوز تعاطي عشق الرجل لمن لا يحل له؟.

والمقصود أن هذه الفرقة رأت أن الجماع يُفْسد العشق فغارت عليه مما يفسدُه، وإن لم تتركْهُ ديانة. وقيل لبعض الأعراب: ما ينال أحدُكم من عشيقته إذا خلا بها؟ قال: اللّمسَ والقُبَلَ وما يشاكلها. قال: فهل يتطاولان إلى الجماع؟ فقال: بأبي وأمي ليس هذا بعاشق، هذا طالب ولد. ويُحكى أن رجلاً عشق امرأةً فقالت له يوماً: أنت صحيح الحبّ غير سقيمه ـ وكانوا يُسَمُّون الْحبّ عَلَى الخنا الْحب السقيم ـ فقال: نعم، فقالت: اذهب بنا إلى المنزل، فما هو إلاّ أن حصلت في منزله فلم يكن له همةٌ غيرُ جماعها، فقالت له وهو كذلك:

أســرفــت فــي وطئنــا والــوَطءُ مَقْطَعَــةٌ ... فــارفُــق بنفســك إن الــرفــق محمــود

فقال لها وهو عَلى حاله:

لــو لــم أطــأْكِ لمــا دامــت محبتُنــا ... لكــن فِعْلِــي هــذا فعــلُ مجهــود

فنفرت من تحته وقالت: يا خبيث أراك خلافَ ما قلت من صحة الحب، ولم تجعل جماعي إلاّ سبباً لذهاب حبك، والله لا ضمني وإياك سقفٌ أبداً. وسيأتي تمامُ الكلام في هذا في باب عفاف المحبين، إن شاء الله تعالى.

فصل: الخطاب بين الفريقين أن الجماع الحرام يفسد الْحبّ، ولا بدّ أن تنتهي المحبةُ بينهما إلى المعاداة والتباغُض والقِلى كما هو مشاهَدٌ بالعيان، فكل محبةٍ لغير الله

---

(١) في معجم البلدان لياقوت أن هذين البيتين للخضيل بن عبيد فلم تتأكد نسبتهما إلى الشافعي.

آخرها قلًى وبغض، فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر؟ وهذه عداوةٌ بين يدَي العداوة الكبرى التي قال الله تعالى فيها: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وسنذكر إن شاء الله تعالى من ظَفِر بمحبوبه وترك قضاء وَطَرِه منه رغبةً في بقاء محبته وخشيةً أن تنقلب قلًى وبغضاً في الباب الموعود به فإن ذلك أليقُ به. وأما الجماعُ المباحُ فإنه يزيد الحبَّ إذا صادق مرادَ المحب، فإنه إذا ذاق لذَّتَه وطَعْمَه أوجب له ذلك رغبةً أُخرى لم تكن حاصلةً قبل الذَّوق. ولهذا لا يكاد البِكْران يصبر أحدُهما عن الآخر، هذا ما لم يَعْرِض للحبّ ما يُفسده ويُوجب نقلَه إلى غيرِ المحبوب. وأما ما احتجَّ به الآخرون فجوابُه أن الشهوةَ والإرادة لم تُطْفَأ نارُها بالكلّية، بل فترت شهوةُ ذلك الوقت ثم تعود أمثالَها، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدُهما عن حبيبه، وإلا فما دام بمرأى منه وهو قادرٌ عليه متى أحبّ فإن النفس تسْكُن بذلك وتطمئن به، وهذا حال كلّ من كان بحضرته ما يحتاج إليه من طعامٍ وشرابٍ ولباس وهو قادرٌ عليه، فإن نفسه تسكُن عنده، فإذا حِيل بينه وبينه اشتدّ طلبه له ونزاعُ نفسه إليه، على أن المحب للشيء متى أفرط في تناوُل محبوبه نَفَرَتْ نفسهُ منه، وربما انقلبت محبّتُهُ كراهِيَةً. وسيأتي مَزِيدُ بيانٍ لهذا في باب سُلُوّ المحبين إن شاء الله تعالى.

فصل: ودواعي الحبّ من المحبوب جمالُه، إما الظاهرُ أو الباطن أو هما معاً، فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشِّيم والأوصاف كان الداعي منه أقوى، وداعي الحبّ من المحبّ أربعة أشياء: أوّلُها: النظر إما بالعين أو بالقلب إذا وُصفَ له، فكثيرٌ من الناس يحب غيره ويفنى فيه محبةً وما رآه لكن وُصفَ له، ولهذا نهى النبي ﷺ المَرْأةَ أن تَنْعَتَ الْمَرْأةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كأنَّه ينْظُرُ إلَيْهَا. والحديث في الصحيح[1]، الثاني: الاستحسان، فإن لم يورث نظرُه استحساناً لم تقع المحبة، الثالث: الفكر في المنظور وحديثُ النفس بِهِ، فإن شغل عنه بغيره مما هو أهمُّ عنده منه لم يَعْلَق حبُّه بقلبه، وإن كان لا يعدم خطراتٍ وسوانحَ، ولهذا قيل: العشق حركة قلبٍ فارغ. ومتى صادف هذا النظرُ والاستحسانُ والفكرُ قلباً خالياً تمكّن منه كما قيل:

أتـانـي هـواهـا قبـل أن أعـرِف الهـوى ... فصـادف قلبـاً خـاليـاً فتمكّنـا

فإن قيل: فهل يتوقف عَلَى الطمع في الوصول إلى المحبوب أم لا؟ قيل: الناسُ في هذا عَلَى أقسام: منهم من يعشق الجمالَ المُطْلَقَ، فقلبُه مُعَلَّقٌ به إن استقلّت ركائبه،

---

(١) حديث: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها» أخرجه البخاري في النكاح باب ١١٨، وأبو داود في النكاح باب ٤٣، والترمذي في الأدب باب ٣٨.

وإن حلت مضاربُه، وهذا لا يتوقف عشقُه على الطمع. ومنهم من يعشق الجمالَ المقيَّد سواءٌ طَمِعت نفسهُ في وصاله أم لم تطمع، ومنهم من لا يعشق إلا من طمعت نفسه في وصاله، فإن يئس منه لم يَعْلَق حبُّه بقلبه، والأقسام الثلاثة واقعةٌ في الناس، فإذا وُجد النظرُ والاستحسانُ والفكرُ والطمعُ هاجت بلابله، وأمكن من معشوقه مقاتله، واستحكم داؤه، وعجِزَ عن الأطباء دواؤه.

تــالله مــا أسَــرَ الهــوى مــن عــاشــقٍ إلا وعــزَّ عَلــى النفــوس فَكــاكُــهُ

وإذا كان النظرُ مبدأ العشق، فحقيقٌ بالمطلَق أن لا يعرِّض نفسه للإسار الدائم بواسطة عينه، وإذ قد أفضى بنا الكلام إلى النظر فلنذكر حُكْمه وغائلته.

في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣٠، ٣١] فلما كان غضُّ البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمُه تحريمَ الوسائل فيُباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خِيفَ منه الفسادُ ولم يعارضه مصلحةٌ أرجحُ من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغَضِّه مطلقاً بل أمر بالغضّ منه، وأما حفظ الفرج فواجبٌ بكل حال، لا يباح إلا بحقّه، فلذلك عمّ الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العينَ مِرْآة القلب، فإذا غضّ العبدُ بصرَه غضّ القلب شهوتَه وإرادتَه، وإذا أطلق بصرَه أطلق القلب شهوتَه. وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رَدِيف رسول الله ﷺ يوم النحر من مُزْدَلِفَةَ إلى مِنًى، فمرت ظُعُن[1] يَجْرِينَ فَطِفِق الفضل ينظر إليهنَّ فَحَوَّل رسول الله ﷺ رَأسَهُ إلى الشِّقِّ الآخر[2]، وهذا منعٌ وإنكار بالفعل. فلو كان النظر جائزاً لأقرّه عليه. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ على ابنِ آدم حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى أَدرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالعَيْنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا النَّظَرُ، وَاللِّسَانُ يَزْنِي وَزِنَاهُ النُّطْقُ، وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْخُطَى، وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاها الْبَطْشُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلِك أَوْ يُكَذِّبُه**»[3] فبدأ بزنى العينِ لأنه أصل زنى اليد والرِّجل والقلبِ والفَرْج، ونبّه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقُبَل، وجعل الفرج

---

(١) جمع ظعينة: الراحلة يرتحل عليها، الهودج، الزوجة.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٧٧، والحج باب ١، والصيد باب ٢٤. ومسلم في الحج حديث ٤٠٧. وأبو داود في المناسك باب ٢٥. ومالك في الحج حديث ٩٧. وأحمد في المسند (١/ ٢١٢).

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ١٢، والقدر باب ٩. ومسلم في القدر حديث ٢٠ و ٢١. وأبو داود في النكاح باب ٤٣. وأحمد في المسند (٢/ ٢٧٦، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٧٢، ٣٧٩، ٤١١، ٤٣١، ٥٣٥، ٥٣٦).

مصدقاً لذلك إن حقق الفعلَ، أو مكذباً له إن لم يُحَقِّقْهُ. وهذا الحديث من أبين الأشياء عَلى أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه ردٌّ على من أباح النظر مطلقاً. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «يا عَلِيُّ لا تُتْبِع النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فإنَّ لك الأولى وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَة»[1].

ووقعت مسألة: ما تقول السادة للعلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرةً فعلِق حبُّها بقلبه واشتدّ عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أوّل نظرةٍ فلو أعَدْتَ النظرَ إليها لرأيتَها دون ما في نفسك فسلوتَ عنها، فهل يجوز له تعمُّدُ النظر ثانياً لهذا المعنى؟.

فكان الجواب: الحمد لله لا يجوز هذا لعشرة أوْجُهٍ: أحدها: أن الله سبحانه أمر بغضّ البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرّمه على العبد. الثاني: أن النبي ﷺ سئل عن نظر الْفَجْأة، وقد علم أنه يؤثِّر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر. الثالث: أنه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحالٌ أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له. الرابع: أن الظاهر قوةُ الأمر بالنظرة الثانية لا تناقُصُهُ، والتجربةُ شاهدةٌ به، والظاهر أن الأمر كما رآه أولَ مرةٍ فلا تحسنُ المخاطرة بالإعادة. الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابُه. السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسنٍ لِتَتِمَّ البلية. السابع: أنه لا يُعَانُ على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرّمه عليه، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة. الثامن: أن النظرة الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، ومعلومٌ أن الثانية أشدُّ سمًّا فكيف يتداوى من السمّ بالسمّ؟. التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عزَّ وجلَّ في ترك محبوبٍ كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبيّن حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًّا تركه، فإذاً يكون تركُهُ لأنه لا يلائم غرضَه لا لله تعالى، فأين معاملةُ الله سبحانَهُ بترك المحبوب لأجله؟. العاشر: يتبين بضرب مثلٍ مطابقٍ للحال وهو أنك إذا ركبتَ فرساً جديداً فمالت بك إلى دربٍ ضيق لا ينفذُ ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدُّخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوةً أو خَطوتين فَصِحْ بها ورُدَّها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكَّن دخولُها، فإن رَدَدْتها إلى ورائها سَهُل الأمر، وإن توانيت حتى وَلَجَت[2] وسُقْتَهَا داخلاً ثم قمت تَجْذِبها بذَنبها عَسُر عليك أو تعذَّر خروجُها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سَوْقها إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثَّرت في القلب، فإن عَجِل الحازمُ وحَسَم المادّة من أوّلها سَهُل علاجُه، وإن كرَّر النظر ونقب

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٤٣. والدارمي في الأدب باب ٢٨، والرقاق باب ٣. وأحمد في المسند (٥/ ٣٥١، ٣٥٣. ٣٥٧).

(٢) ولجت: دخلت.

عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلبٍ فارغٍ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تَنْمي حتى يفسد القلب ويُعْرِضَ عن الفكر فيما أمِر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكابَ المحظورات والفتن، ويلقي القلب في التلف. والسببُ في هذا أن الناظر التذَّت عينُه بأوَّل نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غضَّ أوَّلاً لاستراح قلبُه وسَلِم، وتأمَّل قول النبي ﷺ: «**النظرةُ سهْمٌ مَسْمُومٌ مِن سِهَام إبْلِيسَ**»[١] فإن السَّهْم شأنُه أن يسريَ في القلب فيعمل فيه عمل السمّ الذي يُسْقَاه المسمومُ، فإن بادر واسْتَفْرَغَه وإلا قتله ولا بدَّ.

قال المَرُّوذِيُّ: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة؟ قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرةٍ قد ألقت في قلب صاحبها البلابل[٢]. وقال ابن عباس: الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره وقلبه وذكره، وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها وقلبها وعَجُزها.

فصل: ولما كان النظرُ من أقرب الوسائل إلى المحرَّم اقتضت الشريعة تحريمَه، وأباحَتْه في موضع الحاجة، وهذا شأن كل ما حُرِّم تحريمَ الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة، كما حُرِّمت الصلاة في أوقات النهي لئلا تكون وسيلةً إلى التشبُّه بالكفّار في سجودهم للشمس، وأبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت وصلاة الجنازة وفعل ذوات الأسباب على الصحيح. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرَةُ سهمٌ مسمومٌ منْ سهامِ إبْلِيسَ فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأةٍ أوْرَثَ الله قَلْبَهُ حَلاوَةً يَجِدُهَا إلى يَوْمِ يَلْقَاهُ**»، أو كما قال. وقال جريرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفَجْأة فأمرني أن أصرف بصري[٣]. ونظرةُ الفَجْأة هي النظرةُ الأولى التي تقع بغير قصدٍ من الناظر، فما لم يَعْتَمِدْه القلبُ لا يُعاقَب عليه، فإذا نظر الثانيةَ تعمُّداً أثِمَ، فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفَجْأة أن يَصرِفَ بصره ولا يستديمَ النَّظَرَ فإن استدامته كتكريره، وأرشدَ من ابْتُلِي بنظرة الفَجْأة أن يداويهَ بإتيان امرأته، وقال: إنَّ معهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا، فإن في ذلك التسلّي عن المطلوب بجنسه. والثاني أن النظر يثير قوّة الشهوة فأمره بتنقيصها بإتيان أهله، ففتنة النظر أصلُ كل فتنةٍ كما ثبت في الصحيحين من حديث أُسامة بن زيد رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أضَرَّ**

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) جمع بلبال وبلبالة: شدة الألم والوساوس.

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٤٣. والترمذي في الأدب باب ٢٨. وأحمد في المسند (٤/ ٣٥٨، ٣٦١).

عَلَى الرِّجَال مِنَ النِّساءِ»[1]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الْخُدْري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**اتَّقوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّساءَ**»[2] وفي مسند محمد بن إسحاق السرّاج من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أَخْوَفُ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتي النساءُ وَالْخَمْرُ**» وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قِبَلِ النساءِ، وكفرُ من بقي من قِبَلِ النساء.

فصل: وفي غَضّ البصر عِدّة فوائد: أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظرَه دامت حسرتهُ، فأضرُّ شيء عَلَى القلب إرسال البصر، فإنه يُريه ما يشتدّ طلبه ولا صبرَ له عنه ولا وصولَ له إليه، وذلك غايةُ ألَمه وعذابه، قال الأصمعي: رأيت جاريةً في الطواف كأنها مَهَاةٌ، فجعلتُ أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليكِ من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلتَ طَرفك رائداً ... لقلبك يوماً أَتْعَبَتْك المَناظرُ
رأيتَ الذي لا كله أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرَّمِيَّة، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرْمَى في الحشيش اليابس، فإن لم يُحرقه كلَّه أحرقت بعضَه كما قيل:

كل الحوادث مَبْدأها من النظر ... ومُعْظَمُ النار من مُسْتَصْغَرِ الشَّرر
كم نظرةٍ فتكَتْ في قلب صاحبها ... فَتْكَ السهام بلا قوس ولا وَتر
والمرءُ ما دام ذا عينٍ يُقَلِّبُهَا ... في أعينِ الغيدِ موقوفٌ عَلَى الخطر
يَسُرّ مقلته ما ضرَّ مهجته ... لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر

والناظر يَرْمي من نظره بسهامٍ غَرَضها قلبُه وهو لا يَشْعرُ، فهو إنما يرْمي قلبَه، ولي من أبيات:

يا رامياً بسهام اللَّحْظ مجتهداً ... أنتَ القتيلُ بما ترمي فلا تُصِبِ
وباعثَ الطرف يَرْتاد الشفاءَ له ... تَوَقَّهُ إنَّه يأتيك بالعَطَبِ

وقال الفرزدق:

تزوَّدَ منها نظرةً لم تَدَعْ له ... فؤاداً ولم يَشْعُرْ بما قد تزوَّدا

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١٧. والترمذي في الأدب باب ٣١. وابن ماجة في الفتن باب ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر باب ٩٩. والترمذي في الفتن باب ٢٦. وابن ماجة في الفتن باب ١٩. وأحمد في المسند (٣/١٩، ٢٢، ٤٦، ٦١، ٨٤).

فلـم أرَ مقتـولاً ولـم أر قـاتـلاً ... بغيـر سـلاحٍ مثـهمـا حيـن أقصـدا

وقال آخر:

ومـن كـان يُـؤْتـى مـن عـدُوٍّ وحـاسـدٍ ... فـإنـيَ مـن عينـي أُتيـتُ ومـن قلبـي

همـا اعْتَـوَرَانِـي[1] نظـرة ثـم فكـرةً ... فمـا أبقيـا لـي كـل مـن رقـادٍ ولا لُـبِّ

وقال آخر:

رمـانـي بهـا طَـرْفـي فلـم تُخْـطِ مقلتـي ... ومـا كـل مـن يُـرْمـى تصـاب مقـاتلُـهْ

إذا مِـتُّ فـابكـونـي قتيـلاً لطَـرْفـه ... قتيـل صـديـقٍ حـاضـرٍ مـا يُـزايِلُـهْ

وقال ابن المعتز:

متيـمٌ يـرعـى نجـومَ الـدُّجـى ... يبكـي عليـه رحمـةً عـاذلـهْ

عينـي أشـاطـت[2] بـدمـي فـي الهـوى ... فـابكـوا قتيـلاً بعضُـه قـاتلُـهْ

ومثله للمتنبي:

وأنـا الـذي اجْتَلَـبَ المنيَّـة طـرفُـه ... فَمَـن الْمُطَـالِـبُ والقتيـلُ القـاتـلُ

وقال أيضاً:

يـا نظـرةً نفـتِ الـرُّقـادَ وغـادرت ... فـي حـد قلبـي مـا بَقِيـتُ فلـولا

كـانـت مـن الكحـلاء سُـؤْلـي وإنمـا ... أجَلـى تَمَثَّـل فـي فَـؤادي سُـولا

وقال أيضاً:

وُقِـيَ الأميـرُ مـن العيـون[3] فـإنـه ... مـا لا يـزول بـبأْسـه وسخـائـه

يستَـأْمِـرُ البطـلَ الكَمِـيَّ[4] بنظـرة ... ويحـول بيـن فـؤاده وعـزائـه

وقال الصوري:

إذا أنـت لـم تَـرْعَ البـروقَ اللـوامحـا ... ونمتَ جرى من تحتك السيلُ سائحا

غَـرَسْـتَ الهـوى بـاللحـظ ثـم احتقـرتَـه ... وأهملتـه مُنْتَـأنسـاً مُتَسـامحـا

ولـم تـدرِ حتـى أينعـت شَجَـراتُـه ... وهبـت ريـاحُ الـوجـد فيـه لَـواقحـا

فـأمسيـتَ تستـدعـي مـن الصبـر عـازبـاً ... عليـك وتستـدنـي مـن النـوم نـازحـا[5]

---

(١) اعتوراني: تداولاني.

(٢) أشاط دمه وأشاطه غيره: أهلكه، أو عرضه للقتل.

(٣) في ديوان المتنبي: وقى الأمير هوى العيون.

(٤) الكمي: الشجاع، الجريء، المقدام كان عليه السلاح أو لم يكن.

(٥) عازباً ونازحاً: بعيداً.

ودخل أصبهان مُغَنٍّ فكان يتغنى بهذين البيتين:

سمــاعــاً يــا عبــادَ الله منــي ... وكفُّــوا عــن مــلاحظــة المِــلاح
فــإن الحــبَّ آخــرُه المنــايــا ... وأوّلُــهُ شبيــهٌ بــالمُــزاح

وقال آخر:

وشــادنٍ[1] لمــا بــدا ... أسْلَمَنِــي إلــى الــرَّدى
بظَــرفــه ولطفــه ... وطَــرفــه لمــا بــدا
أردتُ أن أصيــده ... فصــاد قلبــي وعــدا

وقال آخرُ يعاتب عينَه:

والله يــا بصــري الجــانــي عَلَــى جسـدي ... لأطفئــنَّ بــدمِعــي لَــوْعَــةَ الحَــزَنِ
تــالله تطمَــعُ أن أبكــيِ هــوًى وضنًــى ... وأنــت تشبــع مــن غُمْــضٍ ومــن وَسَــن
هيهــات حتــى تُــرى طَــرْفــاً بــلا نَظَــرِ ... كمــا أُرَى فــي الهــوى شخصــاً بــلا بَــدَن

وقال آخر:

يــا مــن يــرى سقمــي يــزيــدُ ... وعِلَّتــي أعْيَــت طبيبــي
لا تعجبــنَّ فهكــذا ... تَجْنــي العيــونُ عَلَــى القلــوب

وقال آخر:

لــواحظُنــا تجنــي ولا عِلْــمَ عنــدنــا ... وأنفسُنــا مــأخــوذةٌ بــالجــرائــر[2]
ولــم أرَى أغبــى مــن نفــوس عفــائــفٍ ... تُصــدِّق أخبــارَ العيــون الفــواجــر
ومــن كــانــت الأجفــان حُجَّــابَ قلبــه ... أذِنَّ عَلَــى أحشــائــه بــالفــواقــر[3]

وقال آخر:

ومستفتــح بــابَ البــلاء بنظــرةٍ ... تــزوَّد منهــا قلبُــه حَسْــرَةَ الــدَّهْــر
فــوالله مــا تــدري أيــدري بمــا جنــت ... علــى قلبــه أم أهلكَتْــه ومــا يــدري

وقال آخر:

أنــا مِــنْ بيــنِ عَــدُوَّيــ ... ــن همــا قلبــي وطــرفــي

---

(١) الشادن: ولد الظبية وجمعه شوادن.

(٢) الجرائر جمع جريرة: الذنوب والجنايات.

(٣) الفواقر جمع فاقرة: الدواهي.

ينظـــــرُ الطـــــرْفُ وَيْهـــــوَى القَلْـ ـــــــبُ والمقصـــــــودُ حَتْفـــــي

وقال الخفاجي[1]:

رَمــتْ عينهــا عينــي وراحــت سليمــةً فَمَـنْ حـاكـمٌ بيـن الكَحِيلـة والعَبْـرى[2]
فيـا طَـرْفُ قـد حـذَّرتـك النظـرةَ التـي خَلَسْـتَ فمـا راقبـت نهيـاً ولا زَجْـرا
ويـا قلـبُ قـد أرداك طـرفـيَ مـرَّةً فـوَيحَـك لـمْ طـاوعتـه مـرةً أُخـرى

ولي من أبياتٍ لعل معناها مبتكَر:

ألــم أُقــل لــك لا تَسْــرِقْ مــلاحظــةً فسـارقُ اللحـظ لا ينجـو مـن الـدَّرَك[3]
نصبـتُ طـرفـي لـه لمـا بـدا شَـرَكـاً فكــان قلبــيَ أوْلــى منــه بــالشَّـرَك

الفائدة الثانية: أنه يورثُ القلبَ نوراً وإشراقاً يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمةً تظهر في وجهه وجوارحه. ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى: ﴿الله نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾ عقيب قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠، ٣٥] وجاءُ الحديث مطابقاً لهذا حتى كأنه مشتقٌ منه وهو قوله: **«النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، فمن غضَّ بصرَه عن محاسن امرأةٍ أورث الله قَلْبَهُ نوراً»** الحديث.

الفائدة الثالثة أنه يورث صحة الفِراسة فإنها من النور وثمَرَاتِه، وإذا استنار القلب صحَّتِ الفِراسة لأنه يصير بمنزلة المِرْآة الْمَجْلُوّة تظهر فيها المعلومات كما هي، والنظر بمنزلة التنفُّس فيها، فإذا أطلق العبدُ نظرَه تَنَفَّسَتْ نفسُه الصُّعَداء في مِرْآة قلبه فَطَمَسَت نورَها كما قيل:

مِــرْآةُ قلبــك لا تُــريــك صــلاحَــه والنفـــسُ فيهـــا دائمـــاً تتنفَّـــس

وقال شجاع الكِرْمَاني: من عمر ظاهرَه باتّباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطىء فِراستُه. وكان شجاع لا تخطىء له فراسة. والله سبحانه وتعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غضَّ بصرَه عن المحارم عوَّضه الله سبحانه وتعالى إطلاقَ نور بَصِيرته، فلما حبس بصرَه لله أطلق الله نور بَصِيرته، ومن أطلق بصرَه في المحارم حبس الله عنه بَصِيرتَه.

الفائدة الرابعة أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهلّ عليه أسبابه، وذلك بسبب

(١) هو عبد الله بن سعيد المعروف بابن سنان الخفاجي.
(٢) العبرى: الباكية.
(٣) الدرك: التبعة أو العقاب وهي ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله في الشر.

نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائقُ المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض. ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبُه وأظلم، وانسدّ عليه باب العلم وطُرُقه.

الفائدة الخامسة أنه يورث قُوَّةَ القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة. وفي الأثر: إن الذي يخالف هواه يَفْرَق[1] الشيطان من ظلّه، ولهذا يوجد في المتَّبِع لهواه من ذلّ القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه. قال الحسن: إنهم وإن هَمْلَجَت بهم البغال وطَقْطَقَتْ بهم البَراذين[2] إن ذل المعصية لفي قلوبهم؛ أبى الله إلا أن يذل من عصاه. وقال بعض الشيوخ: الناسُ يطلبون العزّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله. ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه. وفيه قِسْطٌ ونصيبٌ من فعل من عاداه بمعاصيه، وفي دعاء القنوت: إنه لا يَذِلّ من واليت، ولا يَعِزّ من عاديت.

الفائدة السادسة أنه يورث القلب سروراً وفرحة، وانشراحاً أعظمَ من اللذّة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوَّه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضاً فإنه لما كَفَّ لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرّةُ نفسه الأمّارة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرّةً ولذةً أكمل منها، كما قال بعضهم: «والله لَلَذَّةُ العفة أعظمُ من لذّة الذنب». ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذةً أكملَ من لذَّة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما. وها هنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة أنه يُخلِّص القلبَ من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسيرُ شهوته وهواه، فهو كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسير

ومتى أسرت الشهوةُ والهوى القلب تمكّن منه عدوُّه وسامه سوءَ العذَاب وصار:

كعصفورةٍ في كفّ طفلٍ يسومها   حياضَ الردى والطفلُ يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة أنه يسدّ عنه باباً من أبواب جهنم، فإن النظر بابُ الشهوة الحاملة عَلَى مُواقعة الفعل، وتحريمُ الرب تعالى وشرعُه حجابٌ مانعٌ من الوصول، فمتى هَتَك الحجاب ضرِيَ[3] عَلَى المحظور، ولم تَقِفْ نفسُه منه عند غاية، فإن النفس في هذا

(١) يفرق: يخشى ويخاف.

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة. والطقطقة: حكاية صوت حوافر الدواب. والبراذين: الدواب مفردها برذون وبرذونة.

(٣) ضري به أو عليه: لزمه وأولع به، اعتاده وتجرأ عليه.

الباب لا تَقْنَع بغايةٍ تقف عندها، وذلك أن لذّتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يُقْنِعُه التليد[1]، وإن كان أحسنَ منه منظراً وأطيبَ مَخْبَرًا، فغضُّ البصر يَسُدُّ عنه هذا الباب الذي عَجَزَت الملوكُ عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة أنه يقوّي عقلَه ويزيده ويثبته، فإن إطلاق البصر وإرسالَه لا يَحصلُ إلا من خِفّة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصّة العقل ملاحظةُ العواقب. ومُرْسِلُ النظر لو علم ما تجني عواقبُ نظره عليه لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقلُ الناسِ من لم يرتكب سبباً ... حتى يفكِّرَ ما تَجْني عواقبه

الفائدة العاشرة أنه يُخلِّص القلب من سُكر الشهوة ورَقْدة الغفلة، فإن إطلاقَ البصر يوجب استحكامَ الغفلة عن الله والدارِ الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى عن عشاق الصُّور: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. فالنظرةُ كأسٌ من خمر، والعشقُ هو سكر ذلك الشراب، وسكرُ العشق أعظمُ من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يُفيق، وسكران العشق قلّما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سكران سكر هوًى وسكر مدامةٍ ... ومتى إفاقته مَنْ به سُكْران؟

وفوائد غضّ البصر وآفاتُ إرساله أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، وإنما نبَّهْنا عليه تنبيهاً ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلاً إلى قضاء الوَطَر منه شرعاً، كالمُرْدان الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السمُّ الناقع[2] والداءُ العُضَال[3]. وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشَّعْبي مُرْسَلاً، قال: قدم وفدُ عبد القيس عَلَى النبي ﷺ وفيهم غلامٌ أمردُ ظاهرُ الوَضاءة[4]، فأجلسه النبيُّ ﷺ وراء ظهره وقال: كانَتْ خَطِيئَةُ مَنْ مَضَى مِنَ النَّظَر. وقال سعيد بن المسيَّب: إذا رأيتم الرجل يحدُّ النظرَ إلى الغلام الأمرد فاتَّهِموه. وقد ذكَر ابن عديّ في كامله من حديث بقية عن الوازع عن أبي سَلَمَة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يحدَّ الرجل النظر إلى الغلام الأمرد، وكان إبراهيم النَّخَعي وسفيانُ الثوريُّ وغيرُهما من السلَف يَنْهَوْن عن مجالسة المرْدان. قال النَّخعي: مجالستُهم فتنةٌ وإنما هم بمنزلة النساء. وبالجملة فكم من مُرْسِلٍ لحظاته رجع بجيش صبره مغلولاً، ولم يقلع حتى تَشَحَّط[5] بينهم قتيلا.

يا ناظراً ما أقلعت لَحَظاته ... حتى تشحّط بينهن قتيلا

(١) التليد: القديم وضده الطارف.
(٢) السم الناقع: البالغ الأثر، القاتل.
(٣) الداء العضال: الشديد المعجز، الذي لا طب له.
(٤) الوضاءة: الحسن والجمال والنظافة.
(٥) تشحط: تخبط واضطرب وتمرغ.

في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما

لما كانت العين رائداً، والقلب باعثاً وطالباً، وهذه لها لَذَّةُ الرؤية، وهذا له لذة الظفر، كانا في الهوى شريكَيْ عِنان. ولما وقعا في العناءِ، واشتركا في البلاء، أَقبل كلٌّ منهما يلوم صاحبَه ويعاتبُه.

فقال القلب للعين: أَنتِ التي سُقْتِني إلى موارد الهَلَكات، وأوقعتني في الحَسَرات بمُتابعتك اللحَظات، ونزَّهت طرفك في تلك الرياض، وطلبت الشفاء من الْحَدَق المِراض، وخالفتِ قولَ أَحكم الحاكمين: ﴿قُل لِلمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠] وقولَ رسوله ﷺ: «**النَظَرُ إلى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِن سِهَامِ إبليسَ، فَمَنْ تَرَكَهُ [من] خَوْفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَثَابَهُ اللهُ إيماناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ في قَلْبِه**»، (رواه الإمام أحمد) حدّثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة.

وقال عمر بن شَبَّة: حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس، حدّثنا عنبسة بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا أبو الحسن المدني، حدثنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال: رسولُ الله ﷺ: «**نَظَرُ الرَّجُلِ في محَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهمٌ مِنْ سِهَامِ إبليسَ مَسْمُومٌ، فَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذلِكَ السَّهْمِ أعْقَبَهُ اللهُ عبَادَةً تَسرُه**». فَمن الملومُ سوى من رمى صاحبَه بالسهم المسموم؟ أوَ ما علمتِ شيءٌ أضرَّ على الإنسان من العين واللسان؟ فما عَطِبَ أكثرُ من عَطِبَ إلا بهما، وما هَلَكَ أكثرُ من هَلَكَ إلا بسببهما، فاللّه كم من مَورد هَلَكةٍ أَورداه، ومصدَرِ ردىً عنه أَصدراه، فمن أَحبَّ أن يحيا سعيداً أو يعيش حميداً فليَغُضَّ من عِنان طَرْفه ولسانه ليسلم من الضرر، فإنه كامنٌ في فضول الكلام وفضول النظر. وقد صرّح الصادقُ المصدوقُ بأَن العينين تزينان وهما أَصل زنى الفرج، فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد سئل رسولُ الله ﷺ عن نظرَة الفَجْأَة فأمر السائل أن يَصْرِف بصره، فأَرشده إلى ما ينفعه ويدفع عنه ضرره، وقال لابن عمه علي رضي الله عنه محذراً له مما يوقع في الفتنة ويورث الحسرة: «**لا تُتْبِع النَّظْرَةَ**»(١). أوَ ما سمعت قولَ العقلاءِ: من سرَّح ناظره،

(١) تقدم تخريجه.

أتعب خاطره، ومن كثرت لحَظاته، دامت حَسَرَاته، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عبراته، وقولَ الناظم[1]:

نظـــرُ العيـــون هـــو الـــذي ... جعـل الهـلاكَ إلـى الفـؤاد سبيـلا
مـا زالـت اللحظـات تغـزو قلبَـه ... حتـى تَشَحَّـط بينهـن قتيـلا

وقال آخر[2]:

تَمَتَّعتُمـا يـا مقلتـيّ بنظـرةٍ ... وأوردتمـا قلبـي أَمَـرَّ المـوارد
أعينـيّ كُفَّـا عـن فـؤادي فـإنـه ... مـن الظلـم سَعْيُ اثنيـن فـي قتـل واحـد

فصل: قالت العين: ظلمتني أَوّلاً وآخراً، وبُؤْتَ بإثْمي باطناً وظاهراً، وما أنا إلا رسولُك الداعي إليك، ورائدُك الدالُّ عليك.

وإذا بعثـت بـرائـدٍ نحـو الـذي ... تهـوى وتَعْتَبِـهُ ظلمـت الـرائـدَا

فأَنت الملك المطاع، ونحن الجنود والأتباع. أركبتني في حاجتك خيلَ البريد، ثم أقبلت عليّ بالتهديد والوعيد. فلو أمرتني أن أُغلق عليّ بابي، وأُرخي عليَّ حجابي، لسمعتُ وأطعت، ولَمَا رَعَيْت في الْحِمى[3] ورتعت، أرسلتني لصيدٍ قد نُصِبَت لك حبائلُه وأشراكه، واستدارت حولك فِخَاخُه وشِبَاكُه. فغدوتَ أسيراً، بعد أن كنتَ أميراً، وأصبحتَ مملوكاً، بعد أن كنت مليكاً. هذا وقد حكم لي عليك سيدُ الأنام وأعدلُ الحكام عليه الصلاة والسلام، حيث يقول: «**إنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سائِرُ الْجسدِ، ألاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[4]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: القلبُ مَلِك والأعضاء جنودُه، فإن طابَ الملِكُ طابت جنوده، وإذا خَبُث الملك خبثت جنودُه. ولو أنعمتَ النظرَ لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك، وصلاحَها ورشدَها برشادك، ولكنك هلكت وأهلكت رعيَّتك، وحَمَلت عَلَى العين الضعيفة خطيئَتك، وأصل بلِيَّتك أنه خلا منك حبُّ الله وحبُّ ذكره وكلامِهِ وأسمائه وصفاته، وأقبلتَ على غيره وأعرضت عنه، وتعوَّضت بحب مَنْ سواه والرغبة فيه منه. هذا وقد سمعتَ ما قصّ عليك من إنكاره سبحانه على بني إسرائيل استبدالَهم طعاماً بطعامٍ أدنى

(١) البيتان لابن مرداس كما جاء في سحر العيون.

(٢) البيتان للأرجاني كما جاء في تزيين الأشواق وفيهما: أعيناي.

(٣) الحمى: الموضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى فيه. وحمى الله: محارمه. ورتعت الماشية: رعت كيف شاءت في خصب وسعة.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٩. ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧. وابن ماجة في الفتن باب ١٤. والدارمي في البيوع باب ١.

منه، فذمَّهم على ذلك ونعاه عليهم، وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [النور: ٦١] فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره، ووليّه ومالك أَمره، الذي لا صلاح له ولا فلاح، ولا نعيمَ ولا سرور، ولا فرحة ولا نجاة، إلا بأَن يوحِّدَه في الحب، ويكونَ أحبَّ إليه مما سواه، فانظر بالله بمن استبدلت؟ وبمحبة مَن تعوضت؟ رضيت لنفسك بالحبس في الحش[1]، وقلوبُ محبيه تجول حول العرش. فلو أقبلتَ عليه وأعرضتَ عمن سواه لرأَيت العجائب، وَلأَمِنْتَ من المتالف والمعَاطب، أَوَ ما علمت أنه خصَّ بالفوز والنعيم، مَنْ أتاه بقلبٍ سليم، أي سليمٍ مما سواه، ليس فيه غيرُ حبه واتّباع رضاه. قالت وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عماي وعماكَ في القياس. وقد قال من بيده أَزِمّةُ الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فصل: فلما سمعت الكبد تحاوُرَهما الكلام، وتناوُلَهمَا الخصام، قالت: أنتما على هلاكي تَسَاعَدْتما، وعلى قتلي تعاونتما. وقد أنصف من حكى مناظرتكما، وعلى لساني متظلماً منكما:

يقـول طـرْفـي لقلبـي هِجْـت لـي سَقَمـاً ... والعيــنُ تـزعـمُ أن القلـبَ أَنكـاهـا[2]
والجســمُ يشهــد أن العيــنَ كـاذبــةٌ ... وهــي التــي هيَّجــت للقلــب بَلْــواهـا
لــولا العيــونُ ومــا يَجْنِيــنَ مــن سَقَــم ... مـا كنـتُ مُطَّـرَحـاً مـن بعـضِ قَتْـلاهـا
فقــالــت الكبــدُ المظلــومــةُ اتّئِــدا ... قطعتمــــانــــي ومـــا راقبتـــم اللّـــهَ

وقال آخر[3]:

يقـول قلبـي لطَـرْفـي أَن بكـى جـزعـا ... تبكـي وأنـتَ الـذي حَمّلْتَنـي الـوَجَعَـا
فقــال طــرفــي لــه فيمــا يعــاتبــهُ ... بــل أنــت حَمَّلْتَنــي الآمــال والطَّمَعَـا
حتــى إذا مــا خــلا كــلٌّ بصــاحبــه ... كــلاهمــا بطــويــل السُّقــم قــد قَنِعَـا
نــادتهمــا كبــدي لا تَبْعــدا فلقــد ... قطعتمــانــي بمــا لاقيتمــا قطَعَــا

وقال آخر:

عـــاتبـــتُ قلبـــيَ لمـــا ... رأَيـــتُ جسمـــي نحيـــلا
فـــألـــزم القلـــبُ طـــرفـــي ... وقـــال كنـــتَ الـــرســـولا

(١) الحش مثلثة: البستان. وهو أيضاً المخرج. وكانوا يقضون حوائجهم في البساتين.
(٢) أنكاها: أوقع بها؛ ونكى: غلب وقهر وانتصر.
(٣) في سحر العيون أنه ابن جنكيتا البغدادي.

فقـــال طـــرفـــي لقلبـــي بـــل كنـــتَ أنـــتَ الـــدليـــلا
فقلـــــتُ كُفّـــا جميعـــاً تـــركتمـــانـــي قتيـــلا

ثم قالت: أنا أتولى الحكم بينكما. أنتما في البلية شريكا عِنان، كما أنكما في اللذَّة والمسرة فَرسا رهان. فالعينُ تلتذّ، والقلبُ يتمنَّى ويشتهي، ولهذا قال فيكما القائل:

ولمــا سَلْـوتُ الحـبَّ بَشَّـر نـاظـري لقلبـي فقـال القلـبُ لـي ولـك الهنـا
تخلَّصـت مـن إحيـاء ليلـكَ سـاهـراً وخلَّصتَنـي مـن لـوعـة الهجـر والضنَـا
كـلانـا مُهَنَّـا بـالبقـاء فـإن تَعُـدْ فـلا أنـتَ يبقيـكَ الغـرامُ ولا أنـا

وإن لم تُدْرِكْكُما عناية مُقَلِّبِ القلوب والأبصار، وإلاّ فما لكِ من قُرَّةٍ ولا للقلب من قرار، قال الشاعر:

فـوالله مـا أدري أَنفسـي أَلـومُهـا على الْحـبّ أم عيـني المشُـومَـةَ أم قلبي
فـإن لُمْـتُ قلبي قـال لـي العيـن أبصـرَتْ وإن لُمْـتُ عيـني قـالـت الـذنـبُ للقلـب
فعينـي وقلبـي قـد تقـاسمتمـا دمـي فيـا ربّ كـن عـونـاً علـى العيـن والقلـب

قالت: ولما سقيتِ القلبَ ماء المحبة بكؤوسك، أوقدتِ عليه نارَ الشوق فارتفع إليك البخار، فتقاطر منك فشَرِقتِ بشُربه أوّلاً، وشرِقت بحرّ ناره ثانياً، قال:

خذي بيدي ثم اكشفي الثوبَ فانظري ضنـى جسـدي لكننـي أتستَّـر
وليس الـذي يَجـرِي مـن العيـن مـاؤهـا ولكنهـا رُوحٌ تـذوب فتقطـر

قالت: والْحاكمُ بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه فإن في الأثر المشهور: لَا تزالُ الخصومةُ يوْمَ القيامة بينَ الخلائِق حتّى تختصِمَ الرُّوحُ والجسدُ فيقولَ الجسدُ للرُّوح: أنتِ الذي حرّكتِني وَأمرْتني وصرَّفْتِني، وإلا فأنَا لمْ أكُنْ أَتحرّكُ ولا أَفْعَلُ بدُونِك. فتقول الرّوحُ لهُ: وَأَنتَ الذي أَكلتَ وَشَرِبْتَ وبَاشرْتَ وتَنعّمت، فأنت الذي تستحقُّ العقُوبَة، فيُرْسِلُ اللهُ سبحانهُ إليهما ملَكاً يحكمُ بينهما فيقولُ: مَثَلُكما مَثَلُ مُقْعَدٍ بصيرٍ وأعمى يمشي، دَخلا بستاناً فقال المقعدُ للأعمى: أنَا أرَى ما فيهِ مِنَ الثمارِ وَلكنْ لا أَستطيعُ القيامَ، وقال الأعمى: أَنا أَستطيعُ القيامَ ولكنْ لا أُبصِرُ شيئاً، فقال له المقعدُ: تعالَ فاحْملْني فأَنت تمشي وَأَنا أَتَناول، فعلى منْ تكونُ العقوبةُ؟ فيقولُ: عليهما، قالَ فكذلكَ أَنْتُما. وبالله التوفيق.

في ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه

قالت هذه الطائفة: بيننا وبينكم الكتاب والسنة، وأقوال أئمة الإسلام والمعقول الصحيح.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا يَعُمّ جميعَ ما خلق الله فما الَّذِي أُخرج من عمومه الوجه المليح؟ وهو من أحسن ما خلق. وموضعُ الاستدلال به والاعتبار أقوى، ولذلك يُسَبَّحُ الخالق سبحانه عند رؤيته، كما قال بعض الناظرين إلى جميل الصورة:

ذي طلعةٍ سبحان فالق صبحه ... ومعاطفٍ[1] جلَّت يمينُ الغارس
مرَّت بأَرجاءِ الخيال طُيوفُه ... فبكت عَلَى رَسم السُّلُوّ الدارس[2]

ورؤية الجمال البديع تُنْطِق أَلْسِنَةَ الناظرين بقولهم: سبحان الله ربّ العالمين، وتبارك أَحسنُ الخالقين، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسنَ عَبثاً، وإنما أَظهرها ليستدلَّ الناظر إليها عَلَى قدرته ووَحْدانيته وبديع صُنْعِه، فلا تُعَطَّلَ عما خُلقت له.

وأما السُّنَّة فالحديثُ المشهور: «**النَّظَرُ إلى الْوَجْهِ المَلِيح عِبَادَةٌ**»[3].

وفي الحديث الآخر: «**اطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ**»[4]. وفي هذا إرشادٌ إلى

---

(١) المعاطف: المواضع التي تثنى من الجسد.

(٢) درس درساً: عفا وذهب أثره وبلي وتقادم عهده.

(٣) أورده علي القاري في الأسرار المرفوعة (٣٥، ٣٧٠، ٤٣٦). بلفظ: «النظر إلى الوجه الجميل عبادة».

(٤) وفي بعض ألفاظ الحديث: «... عند صباح الوجوه». أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩٤) والذهبي في ميزان الاعتدال (٣٤٢٧، ٤٠٠٨، ٥١٣٦، ٧٨٧٩، ٨٣٥٣) وابن حجر في لسان الميزان (٣/ ١٥٨٧، ٤/ ٤١٨، ٥/ ٥٣٨) وابن حبان في المجروحين (١/ ٢٤٨، ٢/ ٣١٣) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ١٩) والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤/ ١٠٣) والسيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢/ ٤١) والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ١٨٥، ٧/ ١١، ١١/ ٤٣، ٢٩٦، =

تصفُّح الوجوه وتأمُّلها. وخطب رجلٌ امرأةً فاستشار النبي ﷺ في نكاحها، فقالَ: «**هَل نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟**» فقالَ: لا، قال: «**اذهبْ فانظرْ إليها**». ولو كان النظرُ حراماً لما أطلق له أَن ينظر فإنه لا يأمن الفتنة.

وأما أقوال الأئمة فحكى السمعاني أن الشافعي رضي الله عنه كتب إليه رجلٌ في رقعة:

سَلِ المُفْتِي المكّيَّ هل في تزاوُرٍ ... ونظرةِ مشتاقِ الفؤاد جُناح[1]

فأجابه الشافعيّ:

معاذَ إلَـهِ الْعَرْش أن يُذْهب التقى ... تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جراح

وذكر الخرائطي هذا السؤال والجواب عن عطاءِ بن أَبي رَبَاح، وأوَّلُه: سألت عطاء المكّيّ. وذكر الحاكم في مناقب الشافعي رضي الله عنه من شعره:

يقولون لا تنظر وتلك بَليَّةٌ ... أَلا كلُّ ذي عينين لا بدَّ ناظر

وليس اكتحالُ العين بالعين ريبةً ... إذا عفَّ فيما بين الضمائر

وذكر الاستِراباذي في كتاب مناقب الشافعي أن رجلاً كتب إلى سعيد بن المسيَّب:

يا سيد التابعين والبَرَرَهْ ... نسيتُ في العشق سورة البقرهْ

فكن بفتواك مشفقاً رَفِقاً ... باهى بك اللهُ أكرمَ البَرَرَهْ

هل حرَّم اللهُ لَثْمَ خدِّ فتًى ... أوصافُه بالجمال مشتَهِرَهْ

فأجابه سعيد:

يا سائلي عن خفيِّ لَوْعَتِه ... عليك بالصبر تَحْمَدَن أَثَرَهْ

ولا تكن طالباً لفاحشةٍ ... أَو كالذي ساق سيلُه مطرَهْ

وراقِب الله واخشَ سَطْوَتَه ... وخالف الفاسقين والفَجَرَهْ

وقبِّل الخد من حبيبك ذا ... في كل يومٍ وليلةٍ عَشَرَهْ

= ١٣/ ١٥٨). والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٥١، ١٥٧) والتاريخ الصغير (٢/ ١٧٦) والشجري في أماليه (٢/ ١٥٤) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ١٢١، ١٣٩، ٣/ ٣٤٠، ٤/ ١٠٢) وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٣/ ١١٣٨) والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (٣٩). وابن الجوزي في تلبيس إبليس (٢٦٥) والموضوعات (٢/ ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢) وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (٥١) وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (١١٦) والسهمي في تاريخ جرجان (٣٨٥) وأبو نعيم في تايخ أصفهان (٢/ ٥٩).

(١) الجناح بالضم: الإثم والجرم والميل إلى الإثم.

وقال أبو العباس المبرد في الكامل: قال أعرابي أنشدنيه أبو العالية:

سألتُ الفَتَى المكّيَّ ذا العلم ما الذي ... يحلّ من التقبيل في رمضان
فقال لي المكّيُّ أما لزوجةٍ ... فسبعٌ وأما خُلَّةٍ[1] فثمان

وذكر أبو بكر الخطيب في كتابٍ رواه مالك عن بعضهم:

أقول لمُفْتٍ بين مكَّةَ والصفا ... لك الخيرُ هل في وصلهنَّ حرام
وهل في صَمُوتِ الْحَجْل مهضومة الحشا ... عِذَابِ الثنايا إن لَثمتُ أثام[2]
فقال لي المفتي وسالت دموعهُ ... عَلَى الخدِّ من عينيه فهي تُؤامُ
ألا ليتني قبَّلتُ تلك عشيةً ... ببطن مِنًى والمحْرِمون نيام

وقال الحاكم في كتاب مناقِب الشافعي: حدثنا أَبو العلاء بن كُوشيار الحاري، أَنبأَنا علي بن سليمان الأخفش، عن محمد بن الجهم قال: سمعت الربيع يقول: حضرت الشافعي بمكة وقد دفع إليه رجلٌ رقعة فيها:

أقول لمفتي خَيْفِ مكةَ والصفا ... لك الخيرُ هل في وصلهنَّ حرام
وهل في صَمُوت الحَجْلِ مهضومة الحشا ... عِذابِ الثنايا إن لَثِمْتُ أَثام

قال: فوقَّع الشافعي فيها:

فقال لي المفتي وفاضت دموعهُ ... عَلَى الخدِّ من عينٍ وهنَّ تُؤَام
أَلا ليتني قبَّلت تلك عشيَّةً ... ببطن مِنًى والمُحْرِمونَ قيام

وقال عمرو بن سفيان ابن ابنة جامع ابن مُرْخِيَة[3]:

إنا سألنا مالكاً وقرينه ... ليثَ بن سعدٍ عن لِثَام الوامق[4]
أيجوز قالا والذي خلق الورى ... ما حرَّم الرَّحمن قبلة عاشق

ذكر ذلك صاحب كتاب رستاق الاتفاق وهو شاعر المصريين، وأنشد فيه لعمرو ابن سفيان هذا وكتب بها إلى ابن عُيَيْنَة:

---

(١) الخلة: الصداقة والمحبة التي تخللت القلب. والصديق يستوي فيه المذكر والمؤنث. وخلة الإنسان أهل مودته. وخلة الرجل: الزوجة.

(٢) الحجل: القيد وهو الخلخال أيضاً. وجارية صموت: لا يسمع لخلخالها صوت لامتلاء ساقيها، ومهضومة الحشا: ضامرة البطن.

(٣) في تاج العروس: ومرخية كمحسنة لقب جامع بن مالك بن شداد قال: وفي التكملة لقب جامع بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن قلاب.

(٤) الوامق: المحب.

قلنـــا لسفيـــان الهـــلالـــي مـــرَّةً | حـــرّمـــت ضَـــمَّ العـــاشـــق المشتـــاق
لحبيبـــه مـــن بعـــد نَـــأْيِ نـــالـــه | فـــأجـــاب لا والـــواحـــد الْخَـــلاّق

وأنشد فيه لجدّه جامع، وكتب بها إلى علي بن زيد بنِ جُدْعان:

سألنا ابنَ جُدْعان بن عَمْرٍو أخا العلا | أيُحْـرُم لثـمُ الْحِـبِّ فـي ليلـة القـدر
فقـال لنـا المكّـيُّ ونـاهيـك عِلْمُـهُ | ألا لا ومـن قـد جـاء بـالشّفـع والـوَتـر

وأنشد لإبراهيم بن المدبِّر وكتب بها إلى أَبي بكر بن عياش أحد أئمة القرّاء:

ســأَلــت ابــن عَيّــاشٍ وكــان معلّمــاً | لك الخيرُ هل في ضمَّة الْحِبّ من وِزْر
فقــال أبــو بكــر ولا فــي لِثَــامــه | ألَـم يـأتِنَـا التنـزيـل بـالـوَضْـع لـلإِصْـر

وأنشد لآخر، وكتب بها إلى الإمام أحمد بن حنبل قال: وزعم بعضهم أنه إسحاق ابن مُعاذ بن زهير شاعر أهل مصر في وقته:

سـألـتُ إمـام النـاس نَجْـلَ ابـنِ حَنْبَـلِ | عـن الضـمِّ والتقبيـل هـل فيـه مـن بـاس
فقـــال إذا جـــلَّ العَـــزاء فـــواجـــبٌ | لأنـك قـد أحييـت عبـداً مـن النـاس

وأنشد لابن مُرْخِيَة، وكتب بها إلى أبي حنيفة:

كتبـتُ إلـى النعمـان يـومـاً رسـالـةً | نســائلــه عــن لَثْــم حِــبٍّ ممنَّــع
فقـــال لنـــا لا إثـــم فيـــه وإنـــه | شهـــيٌّ إذا كـــانـــت لعشـــرٍ وأربـــع

وكتب رجل إلى أبي جعفر الطحاوي:

أَبـــا جعفـــرٍ مـــاذا تقـــول فـــإنـــه | إذا نـــابنـــا خَطْـــبٌ عليـــك المعـــوَّل
فـلا تُنْكِـرَنْ قـولـي وَأَبشـر بـرحمـة الـ | إلــه عــن الأمــر الــذي عنــه نســأَل
أبـالْحُـبِّ عـارٌ أم مـن الحـب مَهْـرَبٌ | وهـل مـن لَحَـا[١] أهـل الصبابـة يَجْهـل
وهـــل بمبـــاحٍ فيـــه قتـــلُ مُتَيَّـــمٍ | يهـــاجـــره أَحبـــابُـــه وهـــو يـــوصـــل
فـــرأيُـــكَ فـــي ردِّ الجـــواب فـــإنني | بمـــا فيـــه تقضـــي أيهـــا الشيـــخُ أَفعـــل

فأجابه الطَّحاوي:

ســأَقضــي فــي الــذي عنــه تَســأَل | وأحَكــمُ بيــن العــاشقيــن فــأعــدل
فــديتــك مــا بــالحــب عــارٌ عَلِمْتُــه | لعمـرك عنـدي مـن ذوي الجهـل أَجهـل
وليــس مبــاحــاً عنــدنــا قتــلُ مسلــمٍ | بــلا تِــرَةٍ[٢] بــل قــاتــلُ النفــس يُقْتَــل

---

(١) لحا: لام.

(٢) الترة: الذحل، أي الثأر عامة أو الظلم فيه.

ولكنه إن مات في الحبّ لم يكن ... له قَوَدٌ فيه ولا عنه يُعقَل[1]
وصالُك من تهوى وإن صدّ واجبٌ ... عليك كذا حكمُ المتيم يفعل
فهذا جوابٌ فيه عندي قناعةٌ ... لما جئت عنه أيها الصبّ تسأل

ويكفي أَن المعتزلة من أَشدّ الناس تعظيماً للذنوب، وهم يخلدون أَصحابَ الكبائر ولا يَرَوْنَ تحريمَ ذلك، كما ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه المشهور لبعض المعتزلة:

سأَلنا أبا عثمان عَمْراً وواصلاً ... عن الضمِّ والتقبيل للخدِّ والجيد
فقالا جميعاً والذي هو عادلٌ ... يجوز بلا إثمٍ قولَ تفنيد[2]

وقال إسحاق بن شبيب:

سأَلنا شيوخَ الواسطيين كلّهم ... عن الرَّشْفِ والتقبيل هل فيهما إثمُ
فقالوا جميعاً ليس إثماً لزوجةٍ ... ولا خُلّةٍ والضمُّ من هذه غُنْمُ

وأَنشد أبو الحسن علي بن إبراهيم بنِ محمد بن سعد الخير في كتابه شرح الكامل:

فلما أَن أُبيح لنا التلاقي ... تعانَقْنا كما اعْتَنق الصديقُ
وهل حَرَجاً تراه أَو حراماً ... مَشُوقٌ ضمَّه صبٌّ مَشُوقُ

وقال الخطيب في تاريخ بغداد: حدَّثنا أبو الْحسن علي بن أيوب بن الْحسن إملاء، حدَّثنا أبو عبد الله المَرْزُباني وابن حَيُّويَه وابن شاذان قالوا: حدّثنا أبو عبدالله إبراهيم ابن محمد بن عرفة نِفْطَوَيْه بِقُرْطبَة قال: دخلت عَلَى محمد بن داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف تجدُك؟ قال: حبّ مَن تعلم أَورثني ما ترى، فقلت له: مامنعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ قال: الاستمتاع على وجهين: أَحَدهُما النظرُ المباح، والثاني اللذَّة المحظورة. فأما النظر المباح فأورثني ما ترى، وذكر القصة. وستأتي في باب عفاف العشاق. والمقصود أَنه لم يَرَ النظَر إلى معشوقه ولا عِشْقَه حراماً. وجرى على هذا المذهب أبو محمد بن حَزْم في كتاب «طوق الحمامة» له. قالوا: ونحن نحاكمكم إلى واحدٍ يُعَدّ بآلاف مؤلفة وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه سئل:

ما تقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم في رجلٍ عاشقٍ في صورة وهي مُصِرّة على هجره منذ زمنٍ طويل لا تزيده إلا بعداً، ولا يزداد لها إلا حبًّا، وعشقُه لهذه الصورة من

---

(١) القود: القصاص. والعقل: الدية. عقل القتيل: أعطى ديته. وقد عقل عنه، أي غرم عنه إذا لزمته دية فأداها عنه.

(٢) تفند فلان: تندم لرأي أخطأ فيه.

غير فسقٍ ولا خنى، ولا هو ممن يُدَنِّسُ عشقه بزنى، وقد أفْضى به الحالُ إلى الهلاك لا محالة، إن بقي مع محبوبه على هذه الحالة، فهل يَحِلّ لمن هذه حالهُ أن يُهْجَرَ؟ وهل يجب وصالُه على المحبوب المذكور؟ وهل يأثم ببقائه على هجره؟ وما يجب من تفاصيل أَمرهما؟ وما لكل واحدٍ منهما على الآخر من الحقوق مما يوافق الشرع الشريف؟

فأجاب بخطه بجوابٍ طويل قال في أثنائه: فالعاشقُ له ثلاثُ مقامات: ابتداء، وتوسُّطٌ، ونهاية. أم ابتداؤه فواجبٌ عليه فيها كتمانُ ذلك وعدمُ إفشائه للخلق، مراعياً في ذلك شرائطَ الفُتوَّة من العفّة مع القدرة، فإن زاد به الحال إلى المقام الأوسط فلا بأْس بإعلام محبوبه بمحبته إياه، فيخفّ بإعلامه وشكواه إليه ما يجد منه، ويحذر من اطلاع الناس على ذلك، فإن زاد به الأمرُ حتى خرج عن الحدود والضوابط التحق بالمجانين والموسوسين. فانقسم العشاق قسمين: قسمٌ قَنِعُوا بالنظرة بعد النظرة، فمنهم من يموت وهو كذلك ولا يُظْهر سرَّه لأحدٍ، حتى محبوبُه لا يدري به، وقد روي عن النبي ﷺ: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1]، والقسم الثاني أباحوا لمن وصل إلى حدٍّ يخاف على نفسه منه القُبْلَة في الْحين، قالوا: لأن تركها قد يؤدِّي إلى هلاك النفس، والقُبلةُ صغيرةٌ وهلاكُ النفس كبيرة. وإذا وقع الإنسان في مَرَضَين داوَى الأخطر ولا خطرَ أعظمُ من قتل النفس، حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعَته على ذلك إذا علم أَن ترك ذلك يؤدِّي إلى هلاكه، واحتجُوا بقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣٠] وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] وبحديث الذي قال: يا رسول الله، إني لقيتُ امرأةً أجنبيةً فأصبت منها كلَّ شيْءٍ إلاَّ النكاح، قال: «أَصلَّيت معنا؟» قال: نعم، قال: «إن الله غفَر لكَ»[2] فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٥]، ثم قال: فإن كان هذا السائلُ كما زعم ممن لا يدنس عِشْقَه بزِنى، ولا يصْحبه بخنى فَيُنْظَرُ في حاله، فإن كان من الطبقة الأولى فالنظر كافٍ لهم إن

---

(١) ذكره بلفظ: «من عشق فظفر فعفّ فمات مات شهيداً» الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٤٤٠) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٦٣). وبلفظ: «من عشق فعفّ ثم مات فهو شهيد» الزبيدي في الإتحاف (٧/ ٤٤٠) والمتقي الهندي في كنز العمال (١١١٧٩) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٦٤) ورُوي بألفاظ متقاربة في مواضع أخرى.

(٢) أخرجه الترمذي بنحوه وفي إسناده قيس بن الربيع وضعفه وكيع وابن المديني وقال ابن معين: ضعيف الحديث لا يساوي شيئاً. كما رواه الترمذي أيضاً من طريق آخر وقال: هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ وكذا قال ابن المديني وابن خزيمة: لم يسمع من معاذ بن جبل رضي الله عنه. راجع تفسير الخازن وتهذيب التهذيب.

صدقت دعواهم، وإن كان من الطبقة الثانية فلا بأس بشكواه إلى محبوبه كي يَرِقَّ عليه ويرحمه، وإن غلب عليه الْحال فالتحق بالثالثة أُبيح له ما ذكرنا بشرط أَن لا يكون أُنمُوذجاً لفعل القبيح المحرم، فيلتحق بالكبائر ويستحق القتل عند ذلك ويزول عنه العذر ويحقّ عليه كلمةُ العذاب. انتهى ما ذكرناه من جوابه.

قالوا: وقد جوّزت طائفة من فقهاء السلف والخلف والعلماء استمناء الإنسان بيده إذا خاف الزنى، وقد جوّزت طائفةٌ من الفقهاء لمن خاف على نفسه في الصوم الواجب من شدَّة الشَّبَق أن تتشقق أُنْثيَاه أن يجامع امرأَته، وَبنوْا على ذلك فرعاً: وهو إذا كان له امرأتان حائضٌ وصائمة فهل يطأُ هذه أو هذه؟ عَلَى وجهين؛ ولا ريب أن النظر والقبلة والضمّ إذا تضمَّن شفاءه من دائه كان أسهلَ من الاستمناء باليد والوطء في نهار رمضان.

وقد جوّز بعض الفقهاء للمرأَة إذا خافت الزنى أن تتخذ لها شيئاً تدخله في فرجها وتخرجه لئلا تقع في محظور الزنى.

ولا ريب أن الشريعة جاءت بالتزام الدخول في أدنى المفسدتين دفعاً لأعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما، فأين مفسدةُ النظر والقبلة والضمّ من مفسدة المرض والجنون أو الهلاك جملة؟ فهذا ما احتجت به هذه الفرقة ونحن نذكر ما لها وما عليها في ذلك بحول الله وقوّته وعونه.

في الجواب عما احتجت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج

وشُبَهُهُمُ التي ذكروها دائرةٌ بين ثلاثة أَقسام: أَحدها: نُقولٌ صحيحةٌ لا حجة لهم فيها، والثاني: نُقولٌ كاذبةٌ عمن نسبت إِليه من وضع الفُسّاق والفُجّار كما سنبينه، الثالثُ: نُقولٌ مُجْمَلَةٌ محتملة لخلاف ما ذهبوا إِليه.

فأَما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤] فهو نَظير احتجاجهم بعينه عَلَى إِباحة السماع الشيطاني الفسقيّ بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، قالوا: والقولُ عامٌّ فحمَّلوا لفظه ومعناه ما هو بريءٌ منه. وإِنما القول هاهنا ما أَمرهم الله باستماعه، وهو وَحْيُهُ الذي أنزله عَلَى رسوله وهو الذي قال فيه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١] فهذا هو القول الذي أُمروا باتّباع أَحسنه كما قال: ﴿وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] والنظر الذي أَمَرَنا سبحانه به المُؤدّي إلى معرفته والإِيمان به ومحبَّتِهِ والاستدلالِ عَلَى صدقِ رُسله فيما أخبروا به عنه من أسمائه وصفاته وأَفعاله وعقابه وثوابه، لا النظرُ الذي يوجب تعلُّق الناظر بالصورة التي يَحْرُمُ عليه الاستمتاع بها نظراً ومباشرة، فهذا النظر الذي أمر الله سبحانه وتعالى صاحبه بغضّ بصره، هذا مع أن القوم لم يُبْتَلَوْا بالمُرْدان، وهم كانوا أَشرفَ نفوساً، وأطهرَ قلوباً من ذلك، فإِذا أمرهم بغضّ أبصارهم عن الصورة التي تباح لهم في بعض الأحوال خشيةَ الافتتان، فكيف النظر إلى صورة لا تباح بحال؟ ثم يقال لهذه الطائفة: النظر الذي ندب الله إليه نظرٌ يثاب عليه الناظرِ، وهو نظرٌ موافق لأمره، يقصد به معرفة ربه ومحبّته، لا النظرُ الشيطاني. ويشبه هذا الاستدلال استدلال بعض الزنادقة المتَسبين إلى الفقه عَلى حِلّ الفاحشة بمملوك الرجل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦، والمعارج: ٣٠]، ومَعْتَقِدُ ذلك كافرٌ حلالُ الدم بعد قيام الحجة عليه، وإِنما تسترت هذه الطائفةُ لهواها وشَهواتها، وأَوهمت أنها تنظر عِبرةً

واستدلالاً، حتى آل ببعضهم الأمرُ إلى أن ظنُّوا أن نظرهم عبادةٌ، لأنهم ينظرون إلى مظاهر الجمال الإلٰهي، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى عن قول إخوان النصارى يظهر في تلك الصورة الجميلة، ويجعلون هذا طريقاً إلى الله، كما وقع فيه طوائف كثيرةٌ ممن يدَّعي المعرفة والسلوك.

قال شيخنا رحمه الله تعالى(١): وكفرُ هؤلاء شرٌّ من كفر قوم لوط، وشرٌّ من كفر عبَّاد الأصنام، فإن أولئك لم يقولوا: إن الله سبحانه يتجلّى في تلك الصورة، وعُبَّادُ الأصنام غايةُ ما قالوه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وهؤلاء قالوا: نعبدهم لأن الله ظهر في صُوَرهم. وحكى لي شيخنا: أن رجلاً من هؤلاء مرَّ به شابٌّ جميلٌ فجعل يُتبعه بصرَه، فأنكر عليه جليسٌ له وقال: لا يَصلُح هذا لمثلك، فقال: إني أرى فيه صفاتِ معبودي وهو مَظْهَرٌ من مظاهر جماله، فقال: لقد فعلت به وصنعت، فقال: وإن. قال شيخنا: فلعن الله أُمةً معبودُها مَوْطوؤها. قال: وسئل أفضلُ متأَخريهم العفيفُ التِّلْمِسَاني فقيل له: إذا كان الوجود واحداً فما الفرق بين الأُخت والبنت والأجنبية حتى تَحِلَّ هذه؟ فقال: الجميعُ عندنا سواء ولكنْ هؤلاء المحجوبون قالوا: حرامٌ، فقلنا: حرامٌ عليكم. ومن هؤلاء الزنادقة من يخصّ ذلك ببعض الصُّوَر، فهؤلاء من جنس النصارى بل هم إخوانهم، فالنظر عند هؤلاءِ إلى الصُّوَر المحرَّمة عبادة، ويشبه أن يكون هذا الحديث من وضع بعض هؤلاء الزنادقة، أو مُجَّان الفُسّاق، وإلا فرسول الله ﷺ بريء منه. وسئل شيخنا عمن يقول: النظر إلى الوجه الحسن عبادة، ويروى ذلك عن النبي ﷺ، فهل ذلك صحيحٌ أم لا؟ فأجاب بأَن قال: هذا كذبٌ باطل، ومن روى ذلك عن النبي ﷺ أَو ما يشبهه فقد كذب عليه ﷺ، فإنّ هذا لم يَرْوِه أَحدٌ من أهل الحديث لا بإسناد صحيحٍ ولا ضعيف بل هو من الموضوعات، وهو مخالفٌ لإجماع المسلمين. فإنه لم يقل أحدٌ إن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبيِّ الأمرد عبادة. ومن زعم ذلك، فإنه يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل، فإن النظر منه ما هو حرامٌ، ومنه ما هو مكروهٌ، ومنه ما هو مباحٌ والله أعلم. وأما الحديث الآخر، وهو: «**أَطْلُبُوا الخَيْرَ مِنْ حِسَانِ الْوُجوه**»(٢) فهذا وإن كان قد رُوي بإسناد إلا أنه باطلٌ لم يصحَّ عن رسول الله ﷺ. ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة، فإنه إنما أَمر بطلب الخير منهم لا بطلب وصالهم ونيل المحرَّم منهم، فإن الوجه الجميل مَظِنَّة الفعل الجميل، فإن الأخلاق في الغالب مناسبةٌ للخِلْقة بينهما نسبٌ قريب، وأَما أَمر النبي ﷺ للخاطب بأَن ينظر إلى المخطوبة فذلك نظرٌ للحاجة،

(١) هو شيخه أبو العباس أحمد بن تيمية.
(٢) تقدم تخريجه قبل صفحات.

وهو مأمور به أَمْرَ استحباب عند الجمهور، وأَمْرَ إيجابٍ عند بعض أَهلِ الظاهر، وهو من النظر المأْذون فيه لمصلحةٍ راجحة، وهو دخول الزوج عَلى بصيرة وأَبعد من ندمه ونَفْرَته عن المرأَة، فالنظر المباح أَنواعٌ هذا أحدُها بخلاف النظر إلى الصورة المحرَّمة.

فصل: وأما ما ذكره السمعاني عن الشافعيِّ ـ رحمه الله تعالى ـ فمن تحريف الناقل. والسائلُ لم يذكر لفظ الشافعي، والبيتان هكذا هما:

سـأَلـت الفتـى المَكِّـيَّ هَـلْ فـي تـزاوُرٍ ... ونظـرةٍ مشتـاق الفـؤاد جُنـاح
فقـال معـاذ اللـهِ أن يُـذهـبَ التقـى ... تـلاصُـقُ أَكبـادٍ بهـنَّ جِـراح

فهذا السائل هو الذي ذكر السؤال والجواب، وهو مجهول لا يُعْرَف هل هو ثقة أم لا؟ ثم إن الجواب لا يَدُلُّ على مقصود هذه الفرقة بوجهٍ ما، بل هو حجةٌ عليها فإنه نهى أن يُذهب التقى تلاصُق هذه الأكباد، فكأنه قال: لا تتلاصق هذه الأكباد لئلا يُذهب تلاصقها التقى، فالتلاصقُ المذكور فاعلٌ، والتقى مفعولٌ، فكأنه قال: لا يفعل لئلا يُذهب التلاصُقُ التقى. وجوابٌ آخرُ وهو أَن هذا التلاصُق إنما يكون غير مذْهبٍ للتقى إذا كان في عشق مباح بل مستحَبٌّ كعشق الزوجة والأَمَة.

وأما ما ذكروا عن سعيد بن المسيَّبِ ـ رحمه الله تعالى ـ فقد أجاب عنه سعيدٌ نفسُه، فإنه لما مرّ به مُزْخِيَةُ هذا السائلُ ـ وكان من بني كلاب ـ قال سعيد: هذا من أكذب العرب، قيل: كيف يا أَبا محمد؟ قال: أليس الذي يقول:

سـأَلـت سعيـدَ بـنَ المُسيَّـبِ مفتـي الـ ... ـمدينـة هـل فـي حبّ دَهماء[1] من وِزْر
فقـال سعيـدُ بـنُ المسيَّـب إنمـا ... تُـلام علـى مـا تستطيـع مـن الأمـر

كذب واللهِ ما سأَلني عن شيء من هذا قطُّ ولا أفتيته. وإذا كان هذا جوابَ سعيدٍ في مثل هذا فما جوابُه لمن سأَله أن يقبّل حبيباً أجنبياً كلّ يوم وليلةٍ عشرة؟ فقبّح الله الفَسَقَةَ الكذّابين عَلَى العلماء لا سيما عَلَى مثل سعيد، فهؤلاء كلُّهم فَسَقَةٌ كاذبون أرادوا تنفيق فسقهم بالكذب عَلَى علماءِ وقتهم، كما نَفّق الفاسقُ أبو نُوَاس كذبه على إسحاق بن يوسف الأزرق. قال عبد الله بن محمد ابن عائشة: أتيت إسحاق بن يوسف الأزرق يوماً، فلما رآني بكى، قلت: ما يبكيك؟ قال: هذا أبو نُوَاس، قلت: ما لَه؟ قال: يا جارية، ائتيني بالقرطاس فإذا هو فيه مكتوب:

يـا سـاحـرَ المقلتيـن والجيـدِ ... وقـاتلـي منـه بـالمـواعيـد

(١) الدهماء: السوداء. والشفة الدهماء: الخالصة الحمرة وعامة الناس وسوادهم.

تـوعـدنـي الـوصـلَ ثـم تُخْلِفُنـي ... ويـلاه مـن مخلـفٍ لمـوعـودي
حـدَّثنـي الأزرق المحـدِّث عـن ... شمـرٍ وعـوفٍ عـن ابـن مسعـود
لا يُخلـفُ الـوعـدَ غيـر كـافـرةٍ ... أو كـافـرٍ فـي الجحيـم مَصْفُـود

كَذب والله عليَّ وَعَلَى التابعين وَعلَى الصحابة. ولو صحَّ عنْ سعيد لم يكن لكم فيه حجةٌ فإن سعيداً أَمره بالصبر أوّلاً، ومراقبة الله وخوفِ سطوته ومخالفةِ الفَسَقَةِ، ثم أمره بتقبيل خدّ من يحبه كلَّ يومٍ عشر مرات، وهذا قطعاً إنما أراد به من يَحلّ له تقبيلُه من زوجةٍ أو سُرِّية، فأمره أن يعتاض بقُبلتها من لا يَحِلَّ له، ولا يَظُنُّ بعلماء الإسلام غيرَ هذا إلا مُفْرِطٌ في الجهل أَو مُتَّهَمٌ عَلَى الدين.

وأما ما ذكره المبرِّد عن الأعرابي الذي سأَل المفتي المكيَّ عن القبلة في رمضان فقال: للزوجة سبعٌ وللخُلَّة ثمان فهذا المستفتي والمُفتي لا يُعْرَف واحدٌ منهما حتى يقبَل خبرُه، ولو صحَّ ذلك وعُرف المستفتي والمفتي لكانت الْخُلة هي أمَته الجميلة، وهي التي يَحِلّ تقبيلُها ثمانياً فأكثر.

وأما أَن يفتي أحدٌ من أهل الإسلام بأَنه يَحِلّ تَقبيلُ المرأة الأجنبية المحرَّمة عليه ثمانياً في رمضان أو غيره فمعاذ الله من ذلك، وهكذا حكمُ الأثر الذي ذكره الخطيب في كتابٍ رواه مالك، ولا يُظَن بعالم أَنه تمنَّى أن يقبِّل امرأَةً أجنبيةً وهو مُحْرِم ببطن مِنًى، فإن القُبلة المذكورة تعَرِّضُ الْحجَّ للفساد وتُبطله عند طائفة، فإن صحَّ هذا فإنما أَراد امرأَته أَو أَمَتَه.

وأما الأثر الذي ذكره الحاكم في مناقب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ فليس بين الحاكم وبين الربيع من يحتجّ به. ويدل عَلَى أن القصة كذبٌ ظاهرٌ أَن المستفتي زعم أن الشافعيَّ أجاب بقوله: فقال ليَ المفتي وفاضت دموعُه. وهذا إنما هو حكاية المستفتي قول المفتي فَمن هو الحاكي عن الشافعي؟ فدعوا هذه الأكاذيبَ والتُّرَّهات.

وأما ما ذكرتم عن عمرو بن سفيان ابن بنت جامع فمن ذكر هذا عن عمرو بن سفيان؟ ومن هو عمرو بن سفيان ابن بنت جامع بن مُرْخِيَةَ هذا؟ وهذا موضعُ البيتين المشهورين:

سـأَلْنـا عـن ثُمَـالَـةَ كـلَّ حـيٍّ ... فقـال القـائلـون ومَـنْ ثُمَـالَـهْ(١)

(١) في ترجمة المبرد لابن خلكان: ثمالة واسمه عوف بن أسلم بطن من الأزد. وذكر القالي في الأمالي: أنها لعبد الصمد بن المعذل وأورد هذين البيتين وبعدهما ثالث قال: ويقال: إن هذه الأبيات للمبرد وكان يشتهي أن يشتهر بهذه القبيلة فصنع هذه الأبيات فشاعت وحصل له مقصوده من الاشتهار.

فقلتُ محمدُ بنُ يزيدَ منهم فقالوا زدتَنا بهمُ جَهالهْ

وهل يَحِلُّ لأحدٍ أن يصدِّق عن مالكٍ والليثِ بن سعد أنهما أَجازا تقبيلَ خدّ المرأة الأجنبية المعشوقة أو خدّ الأمرد الجميل الصورة؟ هذا وقصةُ مالك مع الذي ضمّ صبيًّا إليه فأفتى بضربه ستمائة سوطٍ فمات، فقال له أبو الفتى: قتلتَ ابني، فقال: قتله الله. فمَن هذا تشديدُه وفتواه هل يفتي بجواز تقبيل خدود المُرْد الحسان؟ نعم ما حرّم الرحمنُ قُبلةَ عاشقٍ يَحِلُّ لمعشوقه مواصلتُه، ولا قُبلةَ الرجل خدّ ولده كما قبّل الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ خدَّ ابنته عائشة رضي الله عنها، ورأى أعرابيٌّ النبيَّ ﷺ يقبِّل أحد ابنَيْ ابنته فقال: وإنكم لَتُقبِّلون الصبيان؟ إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبّلتهم، فقال: «**أَوَ أَمْلِكُ لَكَ إِنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ؟**»[1].

وأما صاحبُ كتاب رُسْتاق الاتفاق وهو شاعر المصريين فلعمرُ اللهِ لقد أفسدت إذ أسندت، فإنه الفاسقُ الماجنُ المسمَّى أبا الرَّقَعْمَق[2]، ولكن لا يُنكَر هذا المتنُ بهذا الإسناد، فإنه لا يليق إلا به.

وأما قصة إبراهيم بن المدبِّر عن أبي بكر بن عيَّاش فنقلٌ غير مُصَدّق عن قائلٍ غيرِ معصوم.

وأما ما ذكروا عن الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ فوالذي لا إلٰه غيرُه إنه لَمِن أَقبح الكذب عليه، ولو أن هذا الكاذبَ الفاسقَ نفق هذه الكَذبةَ بغيره لراج أمرُها بعضَ الروّاج، ولكن من شدّة جهله نفَّقها بأحمد بن حنبل وهو كمن نسب إليه القولَ بأن القرآن مخلوق أو تقديمَ عليٍّ عَلَى أبي بكر، أَو تقديمَ الرأي على السُّنَّة، وأَمثالَ ذلك، وكذلك ما ذكره عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى، ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة، فإنه قال: لا إثم فيه إذا كانت لعشرٍ وأربع، ولم يقل إذا كانت أَجنبية، ونحن نقول بما قال أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ إذا كان المعشوق حلالا.

وأما ما ذكر عن الطَّحاويّ فلا نعلم صحته، وإن صحّ فإنما أراد به التقبيلَ المباح، فإن الرجلَ قد يُبتلى بهجر زوجته أو أَمَته له فيسأل أَطباءَ الدين وأَطباء الجسم وأَطباءَ الحبّ عن دوائه، فيجيبه كلٌّ منهم بمقتضى علمه وما عنده، وقد شكى مُغيثٌ زوجُ بَرِيرَةَ حبَّه لها فشفع عندها النبي ﷺ أن تراجعه فلم تفعل[3]، وشكى إليه رجلٌ أَن امرأَته لا تردُّ

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٦٤. وأبو داود في الأدب باب ١٨. وابن ماجة في الأدب باب ٣. وأحمد في المسند (٦/ ٥٦، ٧٠).

(٢) هو أحمد بن محمد الأنطاكي له ترجمة في يتيمة الدهر للثعالبي ووفيات الأعيان لابن خلكان.

(٣) الحديث رُوي من عدة طرق في صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، ومسند الإمام أحمد، وغيرها من الصحاح.

يدَ لامس فقال: طلِّقها، فقال: إني أخاف أن تتبعها نفسي، فقال: استمتع بها. ذكره الإمام أحمد والنسائي. قال بعض أهل العلم: راعى النبي ﷺ دفعَ أعلى المفسدتين بأدناهما، فإنه لماشكى إليه أنها لا ترُدُّ يدَ لامسٍ أمره بطلاقها، فلما أخبره عن حبّها وأنه يخاف أن لا يصبرَ عنها ولعلّ حبّه لها يدعوه إلى معصية أمره أن يمسكها مداواةً لقلبه ودَفعاً للمفسدة التي يخافها باحتمال المفسدة التي شكى منها. وأجاب أبو عبيدة عنه بأنها كانت لا تردّ يدَ لامسٍ يطلب منها العطاء، فكانت لا تَرُدُّ يدَ من سألها شيئاً من مال الزوج، ورُدّ عليه هذا التأويلُ بأنه لا يقال لطالب العطاء لامسٌ وإنما يقال له ملتمس. وأجابت طائفة أُخرى عنه بأن طرآن المعصية عَلَى النكاح لا توجب فساده. وقال النسائي: هذا الحديث مُنكر. وعندي أن له وجهاً غيرَ هذا كلّه، فإن الرجل لم يشك من المرأة أنها تزني بكل من أَراد ذلك منها، ولو سأل عن ذلك لما أَقرّه رسول الله ﷺ عَلى أن يقيمَ مع بَغِيٍّ ويكون زوجَ بَغِيٍّ دُيُوثاً[1]، وإنا شكى إليه أَنها لا تجذِبُ نفسها ممن لاعبها ووضع يدَه عليها أَو جذب ثوبها ونحو ذلك، فإن من النِّساء من تلين عند الحديث واللعب ونحوه وهي حَصانٌ[2] عفيفةٌ إذا أُريد منها الزنى، وهذا كان عادةَ كثيرٍ من نساء العرب ولا يَعُدُّون ذلك عيباً، بل كانوا في الجاهلية يرون للزوج النصفَ الأسفلَ وللعشيق النصف الأعْلى.

فللحِبِّ ما ضَمَّت عليه نقابها ... وللبَعْلِ ما ضُمَّت عليه المآزِرُ

والمقصود أن القوم كانوا مع العاشق على معشوقه إذا كان يُباح له وصالُه، وسنذكر ذلك في باب مساعدة العشاق بالمباح من التّلاق إن شاء الله تعالى.

وأَما ما ذكروا عن شيوخ المعتزلة وشيوخ الواسطيين، فأما أبو عثمان المذكور وهو عمرو بن عبيد، وواصلٌ وهو واصلُ بن عطاء وهما شيخا القوم ولو أفتيا بذلك لكانت فُتْيا من مبتدعَيْن مذمومَيْن عند السّلَف والخَلف، فكيف والمخبر بذلك رجلٌ مجهولٌ من المعتزلة كذب على من يعظّمهما المعتزلة لينفّق فِسْقَه؟

وأما قصة محمد بن داود الأصبهاني فغايتها أَن تكون من سعيه المعفوّ المغفور، لا من عمله المشكور، وسلّط الناس بذلك على عرضه، والله يغفر لنا وله، فإنه تعرّض بالنظر إلى السقم الذي صار به صاحبَ فِراش، وهذا لو كان ممن يُباح له لكان نقصاً وعيباً، فكيف من صبيٍّ أَجنبيّ؟ وأَرضاه الشيطان بحبه والنظر إليه عن مواصَلته، إذا لم

(١) الديوث: الذي يقود على أهله.

(٢) المرأة الحصان: المتزوجة والعفيفة.

يطمع في ذلك منه، فنال منه ما عَرف أَن كيده لا يتجاوزه وجعله قدوةً لمن يأْتَمّ به بعده كأبي محمد بن حزم الظاهريّ وغيره، وكيدُ الشيطان أَدَقُّ من هذا.

وأَما أَبو محمد فإنه على قدر يُبْسه وقَسْوته في التمسُّك بالظاهر وإِلغائه للمعاني والمناسبات والْحِكَم والعِلَل الشرعية انماع في باب العشق والنظر وسماع الملاهي المحرَّمة، فوسّع هذا الباب جدًّا وضيّق باب المناسبات والمعاني والْحكم الشرعية جدًّا، وهو من انحرافه في الطرفين حين ردّ الْحديث الذي رواه البخاريُّ في صحيحه في تحريم آلات اللهو بأنه معلّق غير مُسْنَد، وخَفِيَ عليه أَن البخاريَّ لقي من علَّقه عنه وسمع منه، وهو هشام بن عَمّار، وخفي عليه أَن الحديث قد أَسنده غير واحدٍ من أَئمة الْحديث غير هشام بن عَمَّار، فأَبطل سُنَّةً صحيحةً ثابتةً عن رسول الله ﷺ لا مَطْعَنَ فيها بوجهٍ[١].

وأَما من حاكمتمونا إليه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فنحن راضون بحكمه، فأَين أَباح لكم النظرَ المحرَّم وعشقَ المُرْدان والنساء الأجانب؟ وهل هذه إلا كذبٌ ظاهر عليه؟ وهذه تصانيفُه وفتاواه كلها ناطقةٌ بخلافِ ما حكيتموه عنه؟ وأما الفُتْيا التي حكيتموها فكذب عليه لا تناسب كلامَه بوجه، ولولا الإطالة لذكرناها جميعَها حتى يعلَم الواقف عليها أنها لا تصدُر عمن دونه فضلاً عنه، وقلت لمن أوقفني عليها: هذه كذب عليه لا يشبه كلامه، وكان بعض الأُمراء قد أوقفني عليها قديماً وهي بخط رجلٍ متَّهَم بالكذب، وقال لي: ما كنت أظن الشيخَ برِقَّة هذه الحاشية، ثم تأملتها فإذا هي كذبٌ عليه، ولولا الإطالة لذكرنا من فتاويه ما يبين أن هذه كذب.

وأَما ما ذكرتم من مسأَلة التزام أَدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، فنحن لا ننكر هذه القاعدة بل هي من أَصحّ قواعد الشريعة، ولكن الشأن في إدخال هذه الصورة فيها. بل نحاكمكم إلى هذه القاعدة نفسها فإِن احتمال مفسدة أَلم الحبّ مع غضّ البصر وعدم تقبيل المحبوب وضمِّه ونحو ذلك أَقلُّ من مفسدة النظر والتقبيل، فإن هذه المفسدة تَجُرُّ إلى هلال القلب وفساد الدين، وغايةُ ما يُقَدَّر من مفسدة الإمساك عن ذلك سقمُ الجسد أَو الموتُ تفادياً عن التعرّض للحرام، فأَين إحدى المفسدتين من الأخرى؟ عَلَى أَن النظر والقُبلة والضمَّ لا يمنع السقم والموت الحاصل بسبب الحبّ، فإن العشق يزيد بذلك ولا يزول.

---

(١) الحديث الذي يشير إليه هو قوله ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلّون الحر (أي الفرج) والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة». أخرجه البخاري في الأشربة باب ٦، وأبو داود في اللباس باب ٦، والترمذي في الفتن باب ٣٨، والدارمي في الأشربة باب ٨.

فمــا صبابَــةُ مشتــاقٍ عَلَــى أَمَــلٍ   مــن الــوصــال كمشتــاقٍ بــلا أمــل

ولا ريب في أن محبة من له طمعٌ أقوى من محبة من يئس من محبوبه، ولهذا قال الشاعر:

وأبــرحُ مــا يكــون ٱلحــبّ يــومــاً   إذا دَنــتِ الــدّيــارُ مــن الــدّيــار

فإن قيل: فقد أباح الله سبحانه للمضطر الميتة والدمَ ولحمَ الخنزير، وتناوُلُها في هذه الحال واجبٌ عليه. قال مسروق والإمام أحمد ـ رحمهما الله تعالى ـ: من اضْطُرَّ إلى أكل الميتة فلم يأكل فمات دخل النار، فغايةُ النظرة والقُبْلة والضَّمة أن تكون محرَّمةً، فإذا اضْطُرَّ العاشق إليها فإن لم تكن واجبةً فلا أقل من أن تكون مباحة، فهذا قياسٌ واعتبار صحيح، وأين مفسدةُ موتِ العاشق إلى مفسدة ضمّه ولثمه؟

فالجواب أن هذا يتبين بذكر قاعدة، وهي أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل في العبد اضطراراً إلى الجماع بحيث إن لم يفعله مات، بخلاف اضطراره إلى الأكل والشرب واللباس، فإنه من قِوام البدن الذي إن لم يباشره هلك، ولهذا لم يُبِحْ من الوَطْءِ الحرام ما أباح من تناوُل الغذاء والشراب المحرَّم، فإن هذا من قبيل الشهوة واللذة التي هي تتمة وفَضْلَة، ولهذا يمكن الإنسان أن يعيش طول عمره بغير تزوّج وغير تَسَرٍّ، ولا يمكنه أن يعيش بغير طعامٍ ولا شرابٍ، ولهذا أمر النبي ﷺ الشباب أن يداووا هذه الشهوة بالصوم، وقال تعالى عن عشّاق ٱلْمُرْدان: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١، والنمل: ٥٥] فأخبر أن الحامل عَلَى ذلك مجرَّدُ الشهوة لا الحاجةُ فضلاً عن الضرورة، والشهوةُ المجرَّدة لا تلتحق بالضروريات ولا بالحاجات، والْحِميَةُ عنها خشيةَ إفضائها إلى مرضٍ أصعبَ منها جارٍ مجرى الْحِميَة عن تناول ما يضرّ من الأطعمة والأشرِبة، وذلك لا تدعو الضرورةُ إلى تناوُله وإن كانت النفسُ قد تشتهيه، فالقُبْلة والنظرُ والضمُّ ونحوها جار مجرى تناوُل الفاكهة المضرّة والزفرة المضرّ للمحموم ومن به مرض يضره معه تناوُل ذلك، فإذا قال المريض: أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيتُ الموت لم يكن صادقاً في قوله، وإنما الحاملُ له عَلَى ذلك مجرَّدُ الشهوة، وربما زاد تناوُل ذلك في مرضه، فالطبيبُ الناصح لا يفسح له فيه، فكيف يفسح الشارعُ الحكيم الذي شريعتُه غايةُ طِبّ القلوب والأديان وبها تحفظ صحّتها وتدفع موادُّها الفاسدة في تناول ما يزيد الداء ويقوِّيه ويمده؟ هذا من المحال، بل الشريعةُ تأمر بالْحِمية عن أسباب هذا الداء خوفاً من استحكامه وتَولدِ داءٍ آخر أصعبَ منه.

وأما مسألَة مَنْ خاف تشقُّق أُنْثَيَيْهِ وأنه يباح له الوَطْءُ في رمضان، فهذا ليس على إطلاقه، بل إن أمكنه إخراجُ مائه بغير الوَطْءِ لم يَجُزْ له الوَطْءُ بلا نزاع، وإن لم يمكنه

ذلك إلا بالوَطْءِ المباح فإنه يجري مجرى الإفطار لعذر المرض ثم يقضي ذلك اليوم، والإفطار بالمرض لا يتوقَّف على خوف الهلاك، فكيف إذا خاف تَلَفَ عُضو من أعضائه القاتلة، بل هذا نظيرُ من اشتدَّ عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داءٌ من الأدواء، أو يتلفَ عضوٌ من أعضائه، فإنه يجوز له الشربُ ثم يقضي يوماً مكانه. فإن قيل: فلو اتفق له ذلك ولم يكن عنده إلا أجنبيةٌ هل يباح له وَطْؤُها لئلا تتلف أُنْثَياه؟ قيل: لا يباح له ذلك، ولكن له أن يخرج ماءه باستمنائه، فإن تعذَّر عليه فهل يجوز له أن يمكنها من استخراج مائه بيدها؟ هذا فيه نظر، فإن أُبيح جرى مجرى تطبيب المرأة الأجنبية للرجل ومسِّها منه ما تدعو الحاجة إلى مَسِّه، وكذلك تطبيبُ الرجل للمرأة الأجنبية ومَسُّه ما تدعو الحاجة إليه والله أعلم.

وقد سئل أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكَلْوَذاني في رقعة:

قل لأبي الخطاب نجم الهُدى ... وقُدْوةِ العالم في عصره
لا زلت في فتواك مستأمناً ... من خُدع الشيطان أو مكره
ماذا ترى في رَشَإٍ أغْيَدِ ... حاز اللَّمى والدُّرَّ في ثغره[1]
لم يَحْكِ بدر التَّمِّ في حُسْنه ... حتى حكى الزُّنْبورَ[2] في حُضْره
فهل يُجيزُ الشرعُ تقبيلَه ... لمستهامٍ خاف من وِزْره
أم هل عَلَى المشتاق في ضمِّه ... من غير إدناءٍ إلى صدره
إثمٌ إذا ما لم يكن مضمِراً ... غيرَ الذي قدَّم من ذكره

فأجاب:

يا أيها الشيخُ الأديب الذي ... قد فاق أهل العصر في شعره
تسأل عن تقبيل بدرِ الدُّجى ... وعَطْفِ زَنْدَيْك عَلَى نحره
هل ورد الشرعُ بتحليله ... لمستهامٍ خاف من وِزْرِه
من قارف الفتنة ثم ادعى الـ ... ـعصمة قد نافق في أمره
هل فتنةُ المرء سوى الضمّ والتـ ... ـقبيل للحِبِّ عَلَى ثغره
وهل دواعيَ ذلك المشتهَى ... إلا عناقُ البدر في خِدْره
وبذْلُه ذاك لمشتاقه ... يزري عَلَى هاروتَ في سِحْره

---

(١) الرشا: ولد الظبية إذا قوي ومشي. والأغيد: المتثني في لين ونعومة، واللمى: سمرة في الشفة تستحسن. وشفة لمياء: لطيفة رقيقة اللحم.

(٢) الزنبور والزنبار: حشرة أليمة اللسع، وهو أيضاً: الخفيف الظريف. والحضر: عدو في وثب، وارتفاع الفرس في وثبه.

ولا يُجيــزُ الشــرعُ أَسبــابَ مــا ... يُــورِّط المسلــمَ فــي حَظْــره
فــانــجُ ودع عنــك صُــدَاعِ الهــوى ... عســاك أن تسلــمَ مــن شــرِّه
هــذا جــوابُ الكَلْــوَذانِــيِّ قــد ... جــاءك يــرجــو اللَّــهَ فــي أَجــره

فهذا جواب أهل العلم، وهو مطابقٌ لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

وسئل الإمام أبو الفرج بن الجوزيّ ـ رحمه الله ـ بأبيات:

يــا أيهــا العــالــمُ مــاذا تــرى ... فــي عــاشــقٍ ذاب مــن ٱلْــوَجْــدِ
مــن حــبّ ظبــيٍ أغيــدٍ أهيــفٍ ... سهــلِ المُحَيّــا حســنِ القــدّ
فهــل تــرى تقبيلَــه جــائــزاً ... فــي الفــمِ والعينيــن والخــدِّ
مــن غيــر مــا فُحْــشٍ وَلا ريبــةٍ ... بــل بعنــاقٍ جــائــزِ الحــدّ
إن كنــت مــا تفتــى فــإنــي إذاً ... أَصيــح مــن وجــدي وأَستعــدي

فكتب ـ رحمه الله تعالى ـ الجواب:

يــاذا الــذي ذاب مــن الــوَجْــد ... وظــل فــي ضُــرٍّ وفــي جَهْــدِ
إسمــع فــدتــك النفــس مــن نــاصــح ... بنصحــه يَهْــدِي إلــى الــرُّشْــدِ
لــو صــحّ منــك العشــقُ مــا جئتنــي ... تســألنــي عنــه وتستعــدِي
فــالعــاشــقُ الصــادقُ فــي حبــه ... مــا بــالــه يســأل مــا عنــدي
غَيَّبَــه العشــقُ فمــا إن يُــرى ... يُعيــدُ فــي العشــقِ ولا يُبــدي
وكــلُّ مــا تــذكــر مستفتيــاً ... حــرّمــه اللــهُ عَلَــى العبــد
إلا لمــا حلّلــه ربُّنــا ... فــي الشــرع بــالإبــرام والعَقْــد
فَعَــدِّ مــن طُــرقِ الهــوى مُعْــرِضــاً ... وقــف ببــاب الــواحــدِ الفَــرْد
وسَلْــه يَشفيــك ولا يبتلــي ... قلبَــك بــالتعــذيــب والصَّــدِّ
وعِــفَّ فــي العشــقِ ولا تُبْــدِه ... وَٱصْبِــرْ وَكــاتــمْ غــايــةَ الْجُهــدْ
فــإن تَمُــتْ محتسبــاً صــابــراً ... تفــز غــداً فــي جنــة الخلــد

في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه

فالذي عليه الأطباء قاطبةً أنه مرض وَسْوَاسي شبيهٌ بالماليخوليا، يَجْلِبُهُ المرءُ إلى نفسيه بتسليط فكره على استحسان بعض الصُّوَر والشمائل، وسببهُ النفسانيُّ الاستحسان والفكر، وسببهُ البَدَنيّ ارتفاع بخارٍ رديء إلى الدّماغ عن مَنِيٍّ محتقن، ولذلك أكثر ما يعتري العُزَّاب، وكثرةُ الجماع تزيله بسرعة.

وقال بعض الفلاسفة: العشق طمعٌ يتولَّد في القلب ويتحرَّك وينْمِي، ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما قوي ازداد صاحبهُ في الاهتياج واللّجاج والتمادي في الطمع والحرص على الطلب، حتى يؤديَه ذلك إلى الغَمّ والقَلَق، ويكون احتراقُ الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها إليها. ومن غلبة السوداء يحصُلُ له فسادُ الفكر، ومع فساد الفكر يكون زوالُ العقل ورجاءُ ما لا يكون وتمنِّي ما لا يتمّ حتى يؤدِّيَ إلى الجنون، فحينئذٍ ربَّما قتل العاشقُ نفسَه، وربَّما مات غمًّا، وربما نظر إلى معشوقه فمات فرحاً، وربما شَهِقَ شَهْقَةً فتختنق رُوحُه فيبقى أَربعةً وعشرين ساعةً فَيُظَنُّ أنه قد مات، فيدفن وهو حيّ، وربما تنفَّس الصُّعداء فتختنق نفسُه في تامور[1] قلبه، وينضمّ عليها القلبُ ولا ينفرج حتى يموت، وتراه إذا ذُكر له من يهواه هرب دمُه واستحال لونُه. وقال أفلاطون: العشق حركةُ النفس الفارغة. وقال أرسطاطاليس: العشق عمى الحِسّ عن إدراك عيوب المحبوب. ومن هذا أَخذ جرير قولَه:

فلسـت بـراءٍ عيـبَ ذي الـودِّ كلِّـه ... ولا بعـضَ مـا فيـه إذا كنـت راضيـا
فعيـنُ الـرِّضـى عـن كـلِّ عيـبٍ كَليلَـةٌ ... ولكـنَّ عيـنَ السُّخـط تُبْـدِي المسـاويـا

وقال أرسطو: العشق جهلٌ عارضٌ صادف قلباً فارغاً لا شُغْل له من تجارةٍ ولا صناعةٍ. وقال غيره: هو سوءُ اختيارٍ صادف نفساً فارغة.

---

(١) التامور: دم القلب، وقيل كل دم.

قال قيس بن الملوّح:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وقال بعضهم: لم أرَ حقًّا أشبَهَ بباطلٍ، ولا باطلاً أشبَهَ بحقٍّ من العشق، هزلُه جِدّ، وجِدّه هزل، وَأَوّلُه لَعِب، وآخرُه عَطَب. وقال الجاحظ: العشق اسمٌ لما فَضَل عن المحبة، كما أن السَّرَف اسم لما جاوز الجود، والبخلَ اسمٌ لما جاوز الاقتصاد، فكلّ عشقٍ يسمَّى حبًّا، وليس كل حبٍّ يسمَّى عشقاً، والمحبةُ جنسٌ والعشقُ نوعٌ منها. ألا ترى أن كل محبةٍ شوقٌ، وليس كل شوق محبة؟ وقالت فرقةٌ أُخرى: العشق هو الاستهيام[1] والتضرّع واللَّوَذَانُ بالمعشوق، والوَجْدُ هو الحبّ الساكن، والهوى أن يهوى الشيء فيتبعَه غيًّا كان أو رشداً، والحب حرفٌ ينتظم هذه الثلاثةَ. وقال المأمون ليحيى بن أكثم: ما العشق؟ فقال: سوانحُ تسنح للمرء فيهيم بها قلبُه وتؤثرُها نفسُه. فقال له ثُمَامَةُ بن أشرس: اسكت يا يحيى، إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق، أو مُحرِمٍ صاد ظبياً، فأما هذه فمن مسائلنا نحن، فقال له المأمون: قل يا ثُمامة! قال: العشقُ جليسٌ مُمْتِع، وأليفٌ مُؤْنِس، وصاحبُ ملِكٍ مسالكُه لطيفة، ومذاهبُه غامضة، وأحكامُه جارية، مَلَكَ الأبدان وأرواحَها، والقلوبَ وخواطرَها، والعقولَ وآراءَها، قد أُعطي عِنان طاعتها، وقوّةَ تصرُّفِها؛ توارى عن الأبصار مَدْخَلُه، وَعَمِيَ في القلوب مَسْلَكُه. فقال له المأمون: أحسنت يا ثمامة. وأمر له بألف دينار.

وقال بعضهم: قلت لمجنون قد أذهب عقلَه العشق: أَجِزْ هذا البيت:

ومَا الحبُّ إلا شعلةٌ قَدَحَتْ بها عيونُ المَهَا باللحظ بين الجوانح

فقال بديهاً:

ونارُ الهوى تخفى وفي القلب فعلُها كفعل الذي جاءت به كفُّ قادح

وقال الأصمعي: سألت أعرابيًّا عن العشق فقال: جلَّ واللّهِ عن أن يُرى، وخَفِي عن أبصار الورى، فهو في الصدور كامنٌ ككُمون النار في الحجر، إن قُدح أورى، وإن تُرك توارى. وقال بعضهم: العشق نوعٌ من الجنون، والجنون فنون، فالعشق فنٌّ من فنونه. واحتج بقول قيس[2]:

قالوا جننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم أَلعشقُ أعظمُ مما بالمجانين

---

(١) الاستهيام: هو الهيام، وهو جنون العشق.

(٢) هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى.

الغشـقُ لا يستفيـق الـدهـرَ صـاحبُـه وإنمـا يُصْـرَع المجنـونُ فـي الحيـن

وقال آخر: إذا امتزجت جواهرُ النفوس بوصف المشاكلة أَنتجت لمحَ نور ساطع تستضيءُ به النفسُ في معرفة محاسن المعشوق فتسلك طريقَ الوصول إليه. وقال أعرابي: العشقُ أعظمُ مسلكاً في القلب من الرُّوح في الجسم، وأَمْلَك بالنفس من ذاتها، بطن وظهر فامتنع وصفُه عن اللسان، وخَفَي نعتُه عن البيان فهو بين السِّحر والجنون، لطيفُ المسلك والكُمون. وقيل: العشق مَلِكٌ غَشُومٌ[1]، مُسَلَّطٌ ظلوم، دانت له القلوب، وانقادت له الألباب، وخضعت له النفوس. العقل أسيرُه، والنظرُ رسولُه، واللحظُ لفظه، دقيقُ المسلَك، عسيرُ المَخْرَج. وقيل لآخر: ما تقول في العشق؟ فقال: إن لم يكن طَرَفاً من الجنون، فهو نوعٌ من السحر.

وأما الفلاسفةُ المشّاؤون[2] فقالوا: هو اتفاق أخلاق، وتشاكل مَحَبَّاتٍ وتجانُسُها، وشوقُ كُلِّ نفس إلى مُشاكِلِها ومُجانسها في الخلقة القديمة قبل إهباطها إلى الأجساد. قلت: هذا مبنيٌّ عَلى قولهم الفاسد بتقدُّم النفوس عَلى الأبدان، وعليه بنى ابنُ سينا قصيدَته المشهورة:

* هَبَطَتْ إليك من المحلِّ الأرفَعِ *

وسمعت شيخَنا يحكي عن بعض فضلاء المغاربة وهو جمال الدين بن الشرِيشيّ شارحُ المقامات أنه كان ينكر أَن تكون هذه له قال: وهي مخالفةٌ لما قرّره في كتبه من أن حدوث النفس الناطقة مع البدن.

وقال آخرون في وصفه: دَقّ عن الأفهام مَسْلَكُه، وخَفِيَ عن الأبصار موضعُه، وحارت العقول في كيفية تَمَكُّنه، غير أن ابتداء حركته وعظمَ سلطانه من القلب ثم يتغشّى سائرَ الأعضاء فيبدي الرِّعدةَ في الأطراف، والصفرة في الألوان، والضعفَ في الرأْي، واللَّجْلَجَةَ في الكلام، والزَّلَلَ والعِثار، حتى يُنْسَبَ صاحبُه إلى الجنون. وقيل لأبي زهير المديني: ما العشق؟ قال: الجنون والذلّ وهو داء أهل الظَّرْف. ونظر عاشقٌ إلى معشوقه فارتعدت فرائصُهُ وغُشِيَ عليه، فقيل لحكيم: ما الذي أَصابه؟ فقال: نظر إلى من يحبه فانفرج له قلبُه فتحرك الجسم بانفراج القلب. فقيل له: نحن نحبُّ أَولادَنا وأهلَنَا ولا يصيبنا ذلك، فقال: تلك محبةُ العقل وهذه محبةُ الرّوح، قال:

---

(١) الغشوم: الذي يخبط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه.

(٢) المشاؤون: أتباع أرسطو. وقيل: لقبوا به لأنه كان يعلمهم وهم مشاة، أو لأن محل التعليم كان يسمى بالممشى. وفي تاج العروس للزبيدي: المشائيون: فرقة من الحكماء كانوا يمشون في ركاب أفلاطون.

وما هو إلا أَن يَراها فُجَاءةً فتصطكَّ رِجلاه ويسقطَ للجَنْبِ

وقال: العشقُ مِلكٌ مسلَّطٌ على قهر النفوس وأَسْر القلوب، قال الشاعر:

مَلكَ القلوبَ فأصبحت في أسره وبودِّها أن لا يُفَكّ إسارُها

وقال أعرابي في وصفه: بالقلب وَثْبَتُه، وبالفؤاد وَجْبَتُهُ[1]، وبالأحشاء نارُه، وسائرُ الأعضاء خُدَّامُه، فالقلبُ من العاشق ذاهلٌ، والدمعُ منه هامل[2]، والجسم منه ناحل. مرورُ الليالي تجدّده، وإساءة المحبوب لا تفسده.

وقيل: ليس هو موقوفاً على الحسْن والجمال، وإنما هو تشاكُلُ النفوس وتمازُجها في الطباع المخلوقة فيها كما قيل:

وما الْحبُّ منْ حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنَّه شيءٌ به الروحُ تَكْلَفُ

وقيل: أوّلُ العشق عَناء، وأوسطُه سُقْم، وآخرُه قتل. كما قال ابن الفارض رحمه الله:

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالْحشا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنًى به وله عَقْلُ
وعِشْ خالياً فالحبُّ أوَّله عنًى[3] وأَوْسَطُه سُقْمٌ وآخرُه قتلُ

---

(١) وجبته: خفقته واضطرابه.

(٢) هملت العين: فاضت وسالت.

(٣) في الديوان: فالحب راحته عنا... وأوله سقم... الخ.

في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه

فنقول: اختلف الناس في العشق هل هو اختياريٌّ أو اضطراريّ خارج عن مقدور البشر؟ فقالت فرقة: هو اضطراريٌّ وليس باختياريّ، قالوا: وهو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد، والجائعِ للطعام، وهذا مما لا يُمْلَكُ.

قال بعضهم: والله لو كان لي من الأمر شيءٌ ما عذّبتُ عاشقاً، لأن ذنوبَ العُشَّاق اضطرارية، فإذا كان هذا قولَه فيما تولد عن العشق من فعلٍ اختياري فما الظن بالعشق نفسه؟ وقال أبو محمد بنُ حَزْم: قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيت امرأةً فعشقتُها، فقال عمر: ذاك مما لا يُمْلك.

وقال كامل في سَلْمى:

يلومونني في حُبّ سَلْمى كأنما ... يَرَوْنَ الهوى شيئاً تَيَمَّمْتُهُ[1] عَمْدا
ألا إنما الحبُّ الذي صَدَعَ الحشا ... قضاءٌ من الرحمن يَبْلو بهِ العَبْدَا

وقال التميمي في كتاب امتزاج الأرواح: سئل بعض الأطباء عن العشق فقال: إن وقوعَه بأهله ليس باختيارٍ منهم، ولا بحرصهم عليه، ولا لذة لأكثرهم فيه، ولكن وقوعه بهم كوقوع العِلَل المُدْنِفَة، والأمراض المُتلِفَةِ، لا فرق بينه وبين ذلك. وقال المدائني: لام رجلٌ رجلاً من أهل الهوى فقال: لو صحَّ لذي هوًى اختيارٌ لاختار أن لا يهوى. ويَدُلّ على ذلك من السنَّة ما رواه البخاري في صحيحه من قصّة بَريرة أن زوجها كان يمشي خلفها بعد فراقها له وقد صارت أَجنبيةً منه، ودموعُه تسيل على خدَّيه، فقال النبي ﷺ: «**يا عَبّاسُ ألَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغيثٍ بَريرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَريرةَ مُغيثاً؟**» ثم قال لها: «**لَوْ رَاجَعْتِيهِ**»، فقالت: أَتأْمُرُني؟ فقال: «**إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ**»، قالت: لا حاجة لي فيه[2] ولم يَنْهَهُ

---

(١) تيمم الشيء: تعمده وارتجاه.

(٢) أخرجه النسائي في القضاة باب ٢٨. وابن ماجة في الطلاق باب ٢٩. والدارمي في الطلاق باب ١٥.

عن عشقِها في هذه الحال، إذ ذلك شيءٌ لا يُملَكُ ولا يدخل تحت الاختيار. وقال جامع:

سـألـت سعيـدَ بـنَ المسيَّـبِ مفتـيَ الـ ـمـدينة هـل فـي حـبِّ دَهْمَـاءَ مِـنْ وِزْرِ
فقـال سعيــدُ بــن المسيَّــبِ إنمــا يـلام علـى مـا يُسْتطـاع مـن الأمـرِ[1]

قالوا: والعشقُ نوعٌ من العذاب، والعاقلُ لا يختار عذابَ نفسه، وفي هذا قال المؤمّل:

شَـفَّ المُـؤَمَّـلَ يـومَ الْحِيـرَة النظـرُ ليـت المـؤمَّـلَ لـم يُخْلَـق لـه بَصَـرُ
يكفـي المحبِّيـن فـي الـدنيـا عـذابُهـم واللَّـهِ لا عَـذَّبَتْهُـمْ بعـدهـا سَقَـرُ

فيقال: إنه عَمِيَ بعد هذا. وقال آخر: ليس الهوى إلى الرأي فيَمْلِكَه، ولا إلى العقل فيُدْرِكَه، ثم أنشد:

ليـس خَطْـبُ الهـوى بخطـب يسيـر لا يُنَبِّيـكَ عنـه مثـلُ خبيـرِ[2]
ليـس أمـرُ الهـوى يُـدَبَّـر بـالـرأ ي ولا بـالقيـاس والتفكيـر
إنمـا الأمـرُ فـي الهـوى خَطَـرَاتٌ مُحْـدِثَـاتُ الأمـور بعـد الأمـور

وقال القاضي أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سلمان النُّوقاتي[3] في كتابه «محنة الظرّاف»: العشاقُ معذورون عَلَى الأحوال إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار، بل اعتراهم عن جبرٍ واضطرار، والمرءُ إنما يلام على ما يستطيع من الأمور، لا عَلى المَقْضِيّ عليه والمقدور. فقد قيل: إن الحاملَ كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضعُ حَمْلها، فكيف ترى هذه وضعته؟ أَباختيارٍ كان ذلك أم باضطرارٍ؟ قال غيره: وهؤلاء النِّسوة قَطَّعن أَيديهنّ لما بَدا لهن حسنُ يوسف عليه السلام وما تمكّن حبُّه من قلوبهن، فكيف لو شُغِفْنَ حبّاً؟ وكان مُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْر إذا رأته المرأَة حاضت لحسنه وجماله. قال فيه الشاعر:

إنمـا مُصْعَـبٌ شهـابٌ مـن اللـ ـهِ تَجلَّـت عـن وجهـه الظلمـاء

ومن هاهنا أخذ أَحمد بن الحسين الكندي المتنبي قوله:

تَـقِ اللَّـهَ واستُـرْ ذا الجمـالَ بِبُـرْقُـعٍ فإن لُحْتَ حاضت في الخدور العَواتق[4]

(١) تقدم هذان البيتان وفيهما: تلام.
(٢) قيل إنها لعلية بنت المهدي؛ حكاه الصولي كما في تزيين الأسواق.
(٣) نوقات: محلة بسجستان يقال لها: دنوها فعربت.
(٤) في ديوان المتنبي: خف الله. والعواتق: الشابات من النساء.

فإذا كان هذا من مجرَّد الرؤية فكيف بالمحبة التي لا تُمْلَك؟ وقال هشام بن عُرْوة عن أَبيه: مات بالمدينة عاشقٌ فصلى عليه زيدُ بن ثابتٍ، فقيل له في ذلك فقال: إني رَحِمتُه. ورؤي أبو السائب المخزوميُّ ـ وكان من العلم والدين بمكان ـ متعلّقاً بأَستار الكعبة وهو يقول: أَللهم أرحم العاشقين وقوِّ قلوبهم واعطف عليهم قلوبَ المعشوقين، فقيل له في ذلك فقال: والله لَلدُّعاءُ لهم أفضلُ من عُمْرَةٍ من الجِعْرَانَةِ(١) ثم أَنشد:

يـا هَجْرُ كُـفَّ عـن الهـوى ودع الهـوى … للعـاشقيـن يطيـبُ يـا هَجْـرُ
مـاذا تـريـدُ مـن الـذيـن جفـونُهـم … قَـرْحَـى وَحَشْـو قلـوبهـم جَمْـرُ
مُتبَلِّـديـن(٢) مـن الهـوى أَلـوانهـم … ممـا تُجِـنُّ قلـوبهـم صُفْـرُ
وسـوابـقُ العَبَـرَات فـوق خـدودهـم … دررٌ تَفِيـض كـأنهـا قَطْـرُ

ويُذكَرُ أَن النبيَّ ﷺ مرّ بجاريةٍ تتغنَّى:

هـل علـيَّ وَيْحَكمـا … إن هَـويـتُ مـن حَـرَج

فتبسَّم وقال: «لا حَرَجَ إن شاء الله»(٣)، قالوا: وقد فسّر كثيرٌ من السَّلَف قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] بالعشق. وهذا لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيلَ وأَن العشقَ من تحميل ما لا يُطَاق. والمراد بالتحميل هاهنا التحميلُ القدَريُّ لا الشرعيُّ الأمريُّ. قالوا: وقد رأينا جماعةً من العشَّاق يطوفون على مَن يدعو لهم أن يعافيهم الله من العشق، ولو كان اختياراً لأزالوه عن نفوسهم. ومن هاهنا يتبيَّن خطأُ كثيرٍ من العاذلين، وعَذْلُهم في هذه الحال بمنزلة عَذْلِ المريض في مرضه، قال:

يـا عـاذلـي والأمـرُ فـي يـده … هـلاّ عَـذَلْـتَ وفـي يـدي الأمـرُ

وإنما ينبغي العذلُ قبل تعلقِّ هذا الداء بالقلب كما قيل فيه:

يُـذكِّـرنـي حـم والـرُّمـحُ شـاجِـرٌ … فهـلا تَـلا حـمَ قبـل التقـدُّم

---

(١) الجعرانة: موضع بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة.

(٢) المتبلد: المتردد المتحير الساقط إلى الأرض من الضعف.

(٣) في الرسالة القشيرية جاء: وقد روي أن رجلاً أنشد بين يدي رسول الله ﷺ:

أقبلـت فـلاح لهـا … عـارضـان كـالسبـج
أدبـرت فقلـت لهـا … والفـؤاد فـي وهـج
هـل علـيَّ ويحكمـا … إن عشقـت مـن حـرج

فقال رسول الله ﷺ: لا. قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرح الرسالة: هذا حديث موضوع. ويدل قول المؤلف: ويذكر، على أنه غير متأكد من صحة الحديث.

وقالت فرقةٌ أُخرى: بل اختياريٌّ تابعٌ لهوى النفس وإرادتها، بل هو استحكامُ الهوى الذي مدحَ اللهُ مَنْ نهى عنه نفسه فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] فمحالٌ أَن ينهى الإنسانُ نفسَه عما لا يدخل تحت قدرته.

قالوا: والعشقُ حركةٌ ٱختياريةٌ للنفس إلى نحو محبوبها، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التي لا تدخل تحت قدرة العبد. قالوا: وقد ذمّ الله سبحانه وتعالى أصحابَ المحبة الفاسدة الذين يحبون من دونه أنداداً، ولو كانت المحبةُ اضطراريةً لما ذُمُّوا عَلَى ذلك. قالوا: ولأن المحبةَ إرادةٌ قويّةٌ، والعبدُ يُحْمَدُ ويُذَمُّ عَلَى إرادته، ولهذا يُحْمَدُ مُريدُ الخير وإن لم يفعله، ويُذَمّ مريدُ الشرِّ وإن لم يفعله. وقد ذمّ الله الذين يحبون أن تَشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا، وأخبر أَن لهم عذاباً أَليماً. ولو كانت المحبةُ لا تُمْلَك لم يتوعّدْهم بالعذاب عَلَى ما لا يدخل تحت قدرتهم. قالوا: والعقلاءُ قاطبةً مُطْبِقُون عَلَى لوم من يحبُّ ما يتضرّر بمحبته. وهذا فطرةٌ فطرَ ٱللَّهُ عليها الخلقَ، فلو ٱعتذَر بِأَني لا أَملك قلبي لم يقبلوا له عذراً.

فصل: وفصل النزاع بين الفريقين أَن مبادىءَ العشق وأَسبابَه اختياريّة داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكّر والتعرُّض للمحبة أَمرٌ اختياريٌّ، فإذا أَتى بالأسباب كان تَرَتُّبُ المسبَّب عليها بغير اختياره كما قيل:

تَــوَلَّــعَ بــالعشــق حتــى عَشِــقْ ... فلمــا استقــلّ بــه لــم يُطِــقْ
رأى لُجَّــةً ظنَّهــا مَــوْجَــةً ... فلمــا تمكّــن منهــا غَــرِقْ
تَمَنَّــى الإقــالــةَ مــن ذَنبــه ... فلــم يستطعْهــا ولــم يَسْتَطِــقْ

وهذا بمنزلة السكر من شُرْب الخمر، فإن تناوُل المسكر اختياري وما يتولد عنه السكر اضطراريٌّ، فمتى كان السببُ واقعاً باختياره لم يكن معذوراً. ولا ريب أَن متابعةَ النظر واستدامةَ التفكر بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب، ولهذا إذا حصل العشقُ بسببٍ غير محظور لم يُلَمْ عليه صاحبُه، كمن كان يعشق امرأَتَه أَو جاريتَه ثم فارقها وبقي عشقُها غير مفارقٍ له، فهذا لا يُلام على ذلك كما تقدّم في قصة بَرِيرَةَ ومُغِيث. وكذلك إذَا نظر نظرةَ فجَأة ثم صرف بصرَه وقد تمكّن العشقُ من قلبه بغير اختياره، على أَن عليه مُدافعتَه وصرفَه عن قلبه بضدّه، فإذا جاء أَمرٌ يَغْلِبُه فهناك لا يلام بعد بذل الجهد في دفعه. ومما يبين ما قلناه أَن سكر العشق أعظمُ من سكر الخمر كما قال الله تعالى عن عُشّاق الصُّور من قول لوطٍ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] وإذا كان أدنى السكرَين لا يُعْذَر صاحبُه إذا تعاطَى أَسبابه، فكيف يُعْذَر صاحبُ السكر الأقوى مع تعاطِي أَسبابه؟ وإذ قد وصلنا إلى هذا الموضع فلنذكر باباً في سكرة الحب وسببها.

في سكرة العشاق

ولا بدّ قبل الخوض في ذلك من بيان حقيقة السكر وسببه وتَوَلُّده فنقول: السكر لذّةٌ يغيب معها العقلُ الذي يُعْلَم به القولُ ويحصلُ معه التمييز. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٢] فجعل الغايةَ التي يزول بها حكمُ السكران أَن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حدُّ السكران عند جمهور أهل العلم.

قيل للإمام أَحمدَ بنِ حنبلٍ رحمه الله تعالى: بماذا يُعلمَ أَنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرفْ ثوبَه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. ويُذْكَر عن الشافعيّ رحمه الله تعالى أَنه قال: إذا اختلط كلامُه المنظوم، وأَفشى سرَّه المكتوم. وقال محمد بن داود الأصفهاني: إذا عزَبت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم. فالسكر يجمع معنَيَيْن: وجودَ لذَّة، وعدمَ تمييز، والذي يقصُد السكرَ قد يقصد أَحدَهما وقد يقصد كليهما، فإن النفس لها هوًى وشهواتٌ تلتذّ بإِدراكها، والعلمُ بما في تلك اللذّات من المفاسد الْعاجلةِ والآجلة يمنعها من تناوُلها، والعقلُ يأْمرها بأَن لا تفعل، فإذا زال العقلُ الآمرُ والعلمُ الكاشف انبسطت النفس في هواها، وصادفت مجالاً واسعاً.

وحرَّم الله سبحانه وتعالى السكر لشيئين ذكرهما في كتابه من قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ في الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٤] فأخبرَ الله سبحانه أنه يوجب المفسدةَ الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل، ويمنع المصلحةَ التي لا تَتِمُّ إلا بالعقل.

وقد يكون سببُ السكر أَلَماً كما يكون لذَّةً. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. وقد يكون سببهُ قوَّةَ الفرح بإدراك المحبوب بحيث يختلط كلامُه،

وتتغيَّر أَفعالُه بحيثُ يزول عقلُه، وربما قتله الفرحُ بسببٍ طبيعيٍّ وهو انبساطُ دم القلب انبساطاً خارجاً عن العادة، والدم حامل الحارِّ الغريزي فيبرُد القلبُ بسبب انبساط دمه فيحدث الموت.

وقد جرى هذا لأحمد بن طُولون أميرِ مصرَ فإنه مرَّ بصيادٍ في يومٍ بارد وعنده بُنَيٌّ له، فرق عليهما، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب، فصبه في حِجْره ومضى، فاشتدَّ فرحه به فلم يحمِل ما ورد عليه من الفرح فقضى مكانه، فعاد الأميرُ من شأنه فوجد الرجل ميّتاً والصبي يبكي عند رأسه فقال: من قَتله؟ فقال: مرّ بنا رجلٌ ـ لا جزاه الله خيراً ـ فصب في حِجْر أبي شيئاً فقتله مكانه، فقال الأمير: صدق نحن قتلناه. أَتاه الغنى وهلةً واحدةً[1] فَعَجزَ عن احتماله فقتله، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله فحرّض الصبيَّ عَلَى أن يأخذ الذهب فأَبى وقال: والله لا أُمسك شيئاً قتل أبي.

والمقصودُ أَن السكرَ يوجب اللذَّة ويمنع العلم، فمنه السكرُ بالأطعمة والأشرِبة، فإن صاحبَها يحصلُ له لذّةٌ وسرورٌ بها يحمله عَلَى تناوُلها لأنها تغيّب عنه عقله فتغيّب عنه الهموم والغموم والأحزان تلك الساعةَ، ولكن يَغْلَطُ في ذلك فإنها لا تزول ولكن تتوارى، فإذا صحا عادَت أَعظمَ ما كانت وأَوفرَه، فيدعوه عَوْدُها إلى العَوْد كما قال الشاعر:

وكأْسٍ شربتُ عَلَى لذَّةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها

ومن الناس من يقصدُ بها منفعةَ البدن وهو غالط، فإنه يترتب عليها من المضرَّة المتولِّدة عن السكر ما هو أعظمُ من تلك المنفعة بكثير، واللذّة الحاصلة بذكر الله والصلاة عاجلاً وآجلاً أعظمُ وأبقى وأَدفع للهموم والغموم والأحزان.

وتلك اللذَّة أجلبُ شيْءٍ للهموم والغموم عاجلاً وآجلاً، ففي لذّة ذكر الله والإقبال عليه والصلاةِ بالقلب والبدن من المنفعة الشريفة العظيمة السالمة عن المفاسد الدافعة للمضارِّ غنًى وعِوَضٌ للإنسان الذي هو إنسانٌ عن تلك اللذَّة الناقصة القاصرة المانعة لما هو أكملُ منها، الجالبة لألمٍ أَعظمَ منها.

فصل: ومن أسباب السكر حبُّ الصُّوَر، فإنه إذا استحكم وقويَ أَسكر المحبّ، وأشعارُهم بذلك مشهورة كثيرةٌ ولا سيما إذا اتصل الجماعُ بذلك الحب، فإن صاحبَه ينقص تمييزه أَو يعدم في تلك الحالة بحيث لا يميِّز، فإن انضاف إلى ذلك السكر سكرُ الشراب بحيث يجتمع عليه سكرُ الهوى وسكرُ الخمر وسكرُ لذّة الجماع فذلك غايةُ

---

(١) وهلة واحدة: أي دفعة واحدة.

السكر. ومنه ما يكون سببهُ حبَّ المال والرِّئاسة وقوَّة الغضب، فإن الغضب إذ قَوِيَ أوجب سكراً يقرُب من سكر الخمر.

ويدخل ذلك في الإغلاق الذي أَبطل النبي ﷺ وقوع الطلاق فيه بقوله: «لا طَلَاقَ في إغْلاق»(١) رواه أَبو داود وقال: أَظنه الغضب. وفسّره الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أيضاً بالغضب.

ومما يدُلّ عَلى صحة ذلك قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١] قال السلَف في تفسيرها: هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضبِ من غير إرادةٍ منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءَه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحاملَ له عَلَى ذلك سكرُ الغضب لا يجيب دعاءَه.

ومن هذا قولُ الواجد لراحلته بعد يأْسه منها وإيقانه بالهلاك: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، قال رسول الله ﷺ: «أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(٢) ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصده. وذكر النبي ﷺ ذلك تحقيقاً لشدة الفرح الذي أَفضى به إِلى ذلك. وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكرَ لأن السكرَ سببهُ ما يوجب اللذَّةَ القاهرةَ التي تغمُر العقل، وسببُ اللذَّة أَدراكُ المحبوب، فإذا كانت المحبة قويَّةً وإدراك المحبوب قويًّا والعقلُ ضعيفاً حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارةً من ضعف المحبة وتارةً من قوَّة السبب الوارد، ولهذا يحصُل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصُل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه.

فصل: ومن أقوى أَسباب السكر المُوجِبَةِ له سماعُ الأصوات المطربة من جهتين: من جهة أنها في نفسها توجب لذَّةً قويةً ينغمر معها العقل، ومن جهة أَنها تحرّك النفس إلى نحو محبوبها كائناً ما كان، فيحصُل بتلك الحركة الشوقُ والطلب مع التخيُّل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لَذَّةٌ عظيمةٌ تَقْهَرُ العقلَ، فتجتمع لذّة الألحان ولذَّة الأشجان، ولهذا يَقْرِنُ المَغْنِيُّون بهذه اللذّات سماعَ الألحان بالشراب كثيراً ليَكمُل لهم السكرُ بالشراب والعشقِ والصوتِ المطرِب، فيجدون من لذّة الوصال وسكره في هذه الحال ما لا يجدونه بدونها.

---

(١) لفظ الحديث: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق» وروي: «... في غلاق». أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٨، وابن ماجة في الطلاق باب ١٦، وأحمد في المسند (٦/ ٢٧٦).

(٢) من حديث رواه مسلم في التوبة حديث رقم ٧.

فالخمرُ شرابُ النفوس، والألحانُ شَرابُ الأرواح، ولا سيَّما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصفُ حال المحب على مقتضى الحال التي هو فيها، فيجتمع سماعُ الأصوات الطيِّبةِ وإدراكُ المعاني المناسبة، وذلك أقوى بكثيرٍ من اللذّة الحاصلةِ بكل واحدٍ منها على انفراده، فتستولي اللذَّة على النفس والرُّوحِ والبدن أَتمَّ استيلاء فيحدث غايةُ السكر. فكيف يدَّعي العذرَ مَن تعاطى هذه الأسباب ويقول: إن ما تولّد عنها اضطراريٌّ غيرُ اختياري وبالله التوفيق.

في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان

فكلما قَوِيَتِ المحبّةُ قويت اللذَّةُ بإدراك المحبوب، وهذا البابُ من أَجلّ أَبواب الكتاب وأَنفعها. ونذكر فيه بيانَ معرفة اللذَّة وأَقسامها ومراتبها فنقول: أَما اللذَّة ففُسِّرت بأَنها إدراكُ الملائم كما أَن الألم إدراك المُنافي. قال شيخنا: والصوابُ أن يقال إِدراكُ الملائم سببُ اللذَّة، وإدراكُ المنافي سببُ الألم، فاللذّة والألم يَنْشآن عن إدراك المُلائم والمُنافي، والإدراكُ سببٌ لهما، واللذَّة أظهر من كل ما تُعَرَّف به فإنها أمرٌ وجدانيٌّ، وإنما تُعَرَّف بأسبابها وأحكامها. واللذّةُ والبهجةُ والسرورُ وقُرَّة العين وطيبُ النفس والنعيمُ ألفاظٌ مُتقاربةُ المعنى، وهي أمرٌ مطلوبٌ في الجملة، بل ذلك مقصود كلّ حيٍّ، وذلك أمرٌ ضروريٌّ من وجوده، وذلك في المقاصد والغايات بمنزلة الحِسّ والعلوم البديهية في المبادىء والمقدّمات، فإن كلّ حيٍّ له علمٌ وإحساسٌ، وله عملٌ وإرادةٌ، وعلمُ الإنسان لا يجوز أن يكون كلّه نظريًّا استدلاليًّا لاستحالة الدّور والتسلسل، بل لا بدّ له من علم أَوّله بديهي يبدَهُ النفسَ ويبتدىء فيها، فلذلك يُسمّى بديهيًّا وأَوّلياً، وهو من نوع ما تُضطرُّ إليه النفس ويُسمَّى ضروريًّا. فإن النفس تُضطرّ إلى العلم تارةً وإلى العمل أُخرى، وكذلك العملُ الاختياريُّ المراديّ له مُرادٌ، فذلك المرادُ إما أن يُراد لنفسه أو لشيء آخر، ولا يجوز أن يكون كلُّ مرادٍ مراداً لغيره حذراً من الدَّور والتسلسل، فلا بدّ من مرادٍ مطلوبٍ محبوبٍ لنفسه، فإذا حصل المطلوبُ المرادُ المحبوب فاقترانُ اللذّة والنعمة والفرح والسرور وقُرّة العين به عَلى قدر قوّة محبته وإرادته والرغبة فيه، وذلك أَمرٌ ذَوْقِيٌّ وجديٌّ، ولهذا يغلِب على أَهل الإرادة والعمل من السالكين اسمُ الذوق والوَجد لما في وجود المراد المطلوب من الذوق والوجد الموجِب للفرح والسرور والنعيم. فهاهنا ثلاثةُ أنواعٍ من الأسماء متقاربة المعاني، أَحدُها: الشهوةُ والإرادةُ والميل والطلب والمحبة والرغبةُ ونحوُها، الثاني: الذَّوقُ والوَجد والوصولُ والظفر والإدراك والحصولُ والنَّيْلُ ونحوُها، الثالثُ: اللذَّةُ والفرَح والنعيم والسرور وطيب النفس وقرَّة العين ونحوُها، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة.

فصل: وإذا كانت اللذةُ مطلوبةً لنفسها فهي إنما تُذَمُّ إذا أعقبت ألماً أعظم منها أو منعت لذَّةً خيراً منها، وتُحْمَدُ إذا أعانت على اللذّة الدائمة المستقرة وهي لذةُ الدار الآخرة ونعيمها الذي هو أفضلُ نعيم وأجله كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢، ٧٣]، واللهُ سبحانه وتعالى إنما خلق الخلقَ لدار القرار وجعل اللذة كلَّها بأسرها فيها كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بَلْهَ ما اطّلَعْتُمْ**»(١) أي غيرَ ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيقُ عليهم حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدُّنيا متاعٌ يُتَمتَّعُ بها إلى غيرها، والآخرةَ هي المستقرُّ والغاية.

فصل: وإذا عُرِفَ أن لَذّاتِ الدنيا ونعيمَها متاعٌ ووسيلةٌ إلى لَذّات الدار الآخرة ولذلك خُلِقت كما قال النبي ﷺ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»(٢) فكلُّ لذَّة أَعانتْ عَلى لَذّاتِ الدار الآخرة فهي محبوبةٌ مَرْضِيَّةٌ للرَّب تعالى، فصاحبُها يلتذ بها من وجهين: من جهة تنعّمه وقُرّة عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه وإفضائها إلى لذّةٍ أكملَ منها، فهذه هي اللذة التي ينبغي للعاقل أن يسعى في تحصيلها، لا اللذّةُ التي تُعْقِبُهُ غاية الألم وتفوّتُ عليه أَعظمَ اللذات، ولهذا يثابُ المؤمنُ على كلّ ما يلتذ به من المباحات إذا قَصَدَ به الإعانةَ والتوصُّلَ إلى لذّة الآخرة ونعيمها، فلا نسبة بين لذة صاحب الزوجة أو الأمَةِ الجميلة التي يحبها وعينُه قد قرّت بها، فإنه إذا باشرها والتذَّ قلبُه

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، وتفسير سورة ٣٢ باب ١، والتوحيد باب ٣٥. ومسلم في الإيمان حديث ٣١٢، وصفة الجنة حديث ٢ ـ ٥. والترمذي في تفسير سورة ٣٢ باب ٢، وسورة ٥٦ باب ١. وابن ماجة في الزهد باب ٣٩. وأحمد في المسند (٥/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع باب ٥٩، والنسائي في النكاح باب ١٥، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٨).

وبدنُه ونفسُه بوصالها أُثيب على تلك اللذة في مقابلة عقوبة صاحب اللذّة المحرَّمة على لذّته، كما قال النبي ﷺ «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ أَجْرٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ ٱللهِ أَيَأْتي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَه فِيهَا أَجْرٌ؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟» قالوا: نعم قال: «فَكَذٰلِكَ إذا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ»(1).

واعلم أن هذه اللـذَّة تتضاعـف وتتـزايد بحسب مـا عنـد العبـد من الإقبال على الله وإخلاص العمل له والرغبـةِ في الدار الآخرة، فإن الشهـوة والإرادة المنقسمةَ في الصُّوَر اجتمعـت له في صورةٍ واحدة، والخوفَ والهـمَّ والغمَّ الذي في اللذة المحرَّمة معـدومٌ في لذّته، فإذا اتفـق له مع هذا صـورةٌ جميلةٌ ورزق حُبَّـها ورزقـت حُبَّه وانصرفـت دواعي شهوته إليها، وَقَصَرَتْ بَصَـرَه عن النظر إلى سـواها ونفسَه عن التطلُّـع إلى غيرها فلا مناسبة بين لذَّتـه ولذَّة صاحب الصـورة المحرَّمة. وهذا أَطيـب نعيم يُنـالُ من الدُّنيا، وجعلـه النبي ﷺ ثالثَ ثلاثةٍ بها يُنال خيـرُ الدُّنيا والآخرة وهي: قلبٌ شاكر، ولسـانٌ ذاكر، وزوجةٌ حسناءُ إن نظر إليهـا سرته، وإن غـاب عنها حفظته في نفسهـا ومالـه، فالله المستعان.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأُ القرآن فإذا فرغ قال: أَين العُزّاب؟ فيقول: ادنوا مني ثم قولوا: اللهم ارزقني امرأَةً إذا نظرتُ إليها سرتني، وإذا أَمرتها أَطاعتني، وإذا غِبْت عنها حفظت غَيبتي في نفسها ومالي.

والألَمُ والحزمُ والغمُّ ينشأُ من عَدَم العلم بالمحبوب النافع، أَو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به، أَو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته، وهذا من أعظم الألم. ولهذا يكون أَلمُ الإنسان في البرزخ(2) وفي دار الحيوان(3) بفوات محبوبه أَعظَم من أَلمه بفواته في الدُّنيا من ثلاثة أَوجه، أَحدها: معرفتُه هناك بكمال ما فاته ومقداره، الثاني: شدّةُ حاجته إليه وشوقُ نفسه إليه مع أنه قد حِيل بينه وبينه كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، الثالث: حصول ضده المؤلم له. فليتأَمل العاقلُ هذا الموضع ولْيُنْزِل نفسه منزلةَ مَن قد فاته أَعظمُ محبوبٍ وأَنفعُه وهو أفقرُ شيءٍ وأَحوجُهُ إليه فواتاً لا يرْجَى تداركُه وحصل على ضده، فيا لها من مصيبةٍ ما أوجعَها،

(1) أخرجه مسلم في الزكاة باب ٥٢. وأبو داود في التطوع باب ١٢، والأدب باب ١٦٠. وأحمد في المسند (٥/ ١٦٧، ١٦٨).

(2) البرزخ: الحاجز بين شيئين، وما بين الموت والبعث، فمن مات فقد دخل البرزخ. قال تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

(3) دار الحيوان: هي الدار الآخرة.

وحالةٍ ما أقْطَعها، فأين هذه الحال من حالة مَنْ يلتذّ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى من الأكل والشرب واللباس والنكاح وشفاء الغيظ بقهر العدو وجهادٍ في سبيله، فضلاً عما يلتذّ به من معرفة ربه وحبه له وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه، والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلى لِقائه كما في الحديث الذي صححه ابن حِبَّان والْحاكم: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ» وهذه اللذّةُ لا تزال في الدّنيا في زيادةٍ مع تنقيصها بالعدوّ الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدوّ الظاهر، فكيف إذا تجرَّدت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتّصلت بالرفيق الأعلى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً. ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً﴾ [النساء: ٦٨، ٦٩]. فإذا أفضى إلى دار النعيم فهنالك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر عَلَى قلب بشر، فبؤْساً وتَعْساً للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يَهُزّها الشوقُ إلى ذلك طرباً، ولا تَتَّقدُ نارُ إرادتها لذلك رَغَباً، ولا تبعد عما يَصُدُّ عن ذلك رَهَباً، فبصائرها كما قيل:

خَفَافيشُ أعشاها النهارُ بضوئه ولاءَمَها قِطَعٌ من الليل مظلم

تجول حول الْحُش، إذا جالت النفوسُ العلويَّةُ حول العرش، وتندسّ في الأحجار، إذا طارت النفوس الزكية إلى أَعْلى الأوكار.

فلم تَرَ أمثال الرجال تفاوتوا إلى الفضل حتى عُد أَلْف بواحد

فصل: وكلّ لذّةٍ أعقبت ألماً أو منعتْ لذّةً أكملَ منها فليست بلذّةٍ في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، فأي لذّة لآكل طعامٍ شهيّ مسمومٍ يُقَطِّع أمعاءَه عن قريب؟ وهذه هي لذَّاتُ الكُفَّار والفُسَّاقِ بعلوِّهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومَرَحهم. وذلك مثل لذّة الذين اتخذوا من دون الله أَولياءَ يحبونهم كحبّ الله، فنالوا بهم مَوَدّةَ بَيْنهِمْ في الحياة الدنيا، ثم استحالت تلك اللذّة أَعظم أَلَمٍ وأَمرّه. ومن ذلك لذّةُ العقائد الفاسدة والفرحُ بها، ولذّةُ غَلَبَة أَهل الجور والظلم والعدوان والزنى والسرقة وشرب المسكرات. وقد أَخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يُمكّنْهم من ذلك لخيرٍ يريده بهم، إنما هو استدراجٌ منه لينيلَهم به أعظم الألم قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ في الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى: ﴿فلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

فصل: وأما اللذّة التي لا تُعقب ألماً في دار القرار ولا توصل إلى لذّةٍ هناك فهي لذّةٌ

باطلة، إذ لا منفعة فيها ولا مضرّة، وزمنُهَا يسيرٌ ليس لتمتُّع النفس بها قدر وهي لا بدَّ أن تَشْغَلَ عما هو خيرٌ وأنفعُ منها في العاجلة والآجلة وإن لم تَشْغَلْ عن أصل اللذّة في الآخرة وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «**كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلاَّ رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلاَعَبَتَهُ أَهْلَهُ فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ**» (رواه مسلم[١]) ولهذا كانت لذّة اللعب بالدفّ في العرس جائزة فإنها تعين على النكاح، كما تعين لذّةُ الرمي بالقوس وتأديب الفرس على الجهاد، وكلاهما محبوبٌ لله. فما أعان على حصول محبوبه فهو من الحق، ولهذا عَدّ ملاعبةَ الرجل امرأته من الحقّ لإعانتها على مقاصد النكاح الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، وما لم يُعِنْ على محبوب الرب تعالى فهو باطل لا فائدة فيه، ولكن إذا لم يكن فيه مضرَّةٌ راجحةٌ لم يُحَرَّمْ ولم يُنْه عنه، ولكن إذا صدّ عن ذكر الله وعن الصلاة صار مكروهاً بغيضاً للرب عز وجل مَقيتاً عنده إما بأصله وإما بالتجاوُز فيه. وكلُّ ما صدَّ عن اللذّة المطلوبة فهو وبالٌ على صاحبه، فإنه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينفعه ويَجْلِبُ له اللذّةَ المطلوبة الباقية لكان خيراً له وأنفع.

ولما كانت النفوس الضعيفةُ كنفوس النساء والصبيان لا تنقاد إلى أسباب اللذّة العظمى إلاّ بإعطائها شيئاً من لذة اللهو واللعب بحيث لو فطمتْ عنه كل الفطام طلبت ما هو شرٌّ لها منه رخَّص لها من ذلك فيما لم يرخص فيه لغيرها. وهذا كما دخل عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ وعنده جوار يضربن بالدُّف فأسكتهنّ لدخوله وقال: «**هذا رَجُلٌ لَا يُحِبُّ الْبَاطِلَ**»[٢] فأخبر أَن ذلك باطلٌ ولم يمنعهن منه لما يترتَّب لهن عليه من المصلحة الراجحة، ويَتْرُكْنَ به مفسدةً أَرجحَ من مفسدته، وأيضاً فيحصل لهم من التألُّم بتركه مفسدةٌ هي أَعظمُ من مفسدته، فتمكينهم من ذلك من باب الرحمة والشفقة والإحسان، كما مكن النبي ﷺ أَبا عُمَيرٍ من اللعب بالعصفور بحضرته[٣]، ومكن الجاريتين من الغناء بحضرته[٤] ومكّن عائشةَ رضي الله عنها من النظر إلى الحَبَشَة وهم

(١) غير موجود في صحيح مسلم، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أصحاب السنن الأربعة.

(٢) رواه الإمام أحمد في قصة أخرى ليس فيها ذكر الدف والجواري بل قاله ﷺ للأسود بن سريع وكان ينشده شعراً.

(٣) هو حديث: «يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر» رواه البخاري في الأدب باب ٨١، ١١٢. ومسلم في الأدب حديث ٣٠. وأبو داود في الأدب باب ٦٩. والترمذي في الصلاة باب ١٣١، والبر باب ٥٧. وابن ماجة في الأدب باب ٢٤. وأحمد في المسند (٣/ ١١٥، ١١٩، ١٧١، ١٨٨، ١٩٠، ٢٠١، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٧٨، ٢٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في العيدين باب ٣. ومسلم في العيدين حديث ١٦. وابن ماجة في النكاح باب ٢١.

يلعبون في المسجد[1]، ومكّن تلك المرأةَ أن تضرب عَلَى رأسه بالدُّف[2] ونظائر ذلك. فأين هذا من اتخاذ الشيوخ المشار إليهم المقتَدى بهم ذلك ديناً وطريقاً مع التوسُّع فيه غاية التوسُّع بما لا ريب في تحريمه؟ ونظيرُ هذا إعطاء النبي ﷺ المؤلَّفَةَ قلوبهم من الزكاة والغنيمة لضعف قلوبهم عن قلوب الراسخين في الإيمان من أصحابه، ولهذا أعطى هؤلاء ومنع هؤلاء وقال: أَكِلُهُمْ إلى مَا جَعَلَ اللَّهُ في قلوبهمْ منَ الغنَاءِ والخير، ونظير هذا مزاحُه ﷺ مع مَن كان يمزح معه من الأعراب والصبيان والنساء تطييباً لقلوبهم، واستجلاباً لإيمانهم، وتفريحاً لهم. وفي مراسيل الشَّعبيِّ أَن النبيَّ ﷺ مرَّ على أَصحاب الدِّركِلَة فقال: «خذوا يا بني أَرْفِدَة[3] حَتَّى تَعْلَمَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً» (ذكره أبو عبيد وقال: الدِّركِلَة: لعبة العجم) فالنبيُّ ﷺ يبذُل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألَّفُها به على الحق المأمور به ويكون المبذول مما يلتذّ به الآخذ ويحبه، لأن ذلك وسيلةٌ إلى غيره، ولا يفعل ذلك مع من لا يحتاج إليه كالمهاجرين والأنصار، بل يبذل لهم أنواعاً أُخَرَ من الإحسان إليهم، والمنافع في دينهم ودنياهم. ولما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن لا يحب هذا الباطل ولا سماعَه، ولا يحتاج أَن يُتَأَلَّفَ بما يُتَأَلَّفُ به غيرُه، وليس مأموراً بما أُمر به النبيُّ ﷺ من التأليف على الإيمان به، وطاعته بكل طريق ـ كان إعراضُه عنه كمالاً بالنسبة إليه، وحالُ النبيِّ ﷺ أَكملُ.

فصل: إذا عُرِف هذا فأَقسامُ اللذّات ثلاثةٌ: لذّةٌ جُثمانية، ولذة خيالية وَهْمِية، ولذّةٌ عقليةٌ رُوحانية.

فاللذة الجثمانيةُ لذّةُ الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذّة يَشترك فيها مع الإنسان الحيوانُ البهيمُ، فليس كمالُ الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أَنقص الحيوانات له فيها، ولأنها لو كانت كمالاً لكان أَفضلُ الإنسان وأَشرفُهم وأَكملُهم أَكثرَهم أَكلاً وشرباً وجماعاً، وأَيضاً لو كانت كمالاً لكان نصيبُ رسل الله وأنبيائه وأَوليائه منها في هذه الدار أَكملَ من نصيب أعدائه. فلما كان الأمرُ بالضدّ تبين أنها ليست في نفسها كمالاً، وإنما تكون كمالاً إذا تضمَّنت إعانةً على اللذة الدائمة العظمى كما تقدّم.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٢٦٩، والعيدين باب ٢٥، والجهاد باب ٧٩، والمناقب باب ١٥، والنكاح باب ١١٤. ومسلم في العيدين حديث ١٧، ٢١، ٢٢، والمساجد حديث ١٨. والنسائي في العيدين باب ٣٤، ٣٥. وأحمد في المسند (٣٦٨/٢، ٥٦، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٦٦، ١٨٦، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٧٠).

(٢) ربما يشير بذلك إلى إنشاد النساء عند قدوم رسول الله ﷺ قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في دلائل النبوة وليس فيه ذكر للدف والألحان.

(٣) أرفدة: أبو الحبش. والحديث رواه الخرائطي في اعتلال القلوب وفي الصحاح بلفظ: جدوا.

فصل: وأما اللذّة الوهميَّةُ الخيالية فلذةُ الرِّئاسة والتعاظُم على الخلق والفخر والاستطالة عليهم.

وهذه اللذة وإن كان طُلاّبُها أشرفَ نفوساً من طلاب اللذّة الأولى فإن آلامَها وما توجبه من المفاسد والمضار أعظمُ من التذاذ النفس بها، فإن صاحبها منتصبٌ لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه. ولهذا شروطٌ وحقوقٌ تفوِّت على صاحبها كثيراً من لذاته الحسِّيَّة، ولا يتمّ إلا بتحمُّل مشاقَّ وآلامٍ أَعظمَ منها. فليست هذه في الحقيقة بلذةٍ وإن فرحت بها النفسُ وسُرَّت بحصولها. وقد قيل: إنه لا حقيقة للذة في الدُّنيا وإنما غايتُها دفعُ آلامٍ كما يُدفع أَلَمُ الجوع والعطش وألمُ الشهوة بالأكل والشرب والجماع. ولذلك يُدفع أَلَمُ الخمول وسقوطِ القدر عند الناس بالرِّئاسة والجاه. والتحقيقُ أَن اللذّةَ أمرٌ وجوديٌّ يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضادّ.

فصل: وأما اللذّةُ العقليةُ الرُّوحانية فهي كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذّات، وهو لذّة النفس الفاضلة العُلوية الشريفة، فإذا انضمَّت اللذّة بذلك إلى لذّة معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له والرضا به عوضاً عن كل شيءٍ ولا يُتَعَوَّض بغيره عنه، فصاحب هذه اللذة في جنةٍ عاجلةٍ نِسْبَتُها إلى لذات الدنيا، كنسبة لذّة الجنة إلى لذّة الدنيا، فإنه ليس للقلب والرُّوح أَلَذُّ ولا أَطيبُ ولا أحلى ولا أَنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرةِ العين به والأنس بقربه والشوقِ إلى لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرّةٍ من هذه اللذّة لا يُعْدَل بأَمثال الجبال من لذّات الدنيا ولذلك كان مثقالُ ذرّةٍ من إيمانٍ بالله ورسوله يُخَلِّص من الخلود في دار الآلام فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولَها؟ قال بعض العارفين: مَنْ قرَّت عينُه بالله قرَّت به كلُّ عين، ومَنْ لم تَقَرَّ عينه بالله تقطَّعت نفسه على الدنيا حَسَرَات، ويكفي في فضل هذه اللذةِ وشرفها أَنها تُخرِجِ من القلب أَلمَ الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا، حتى إنه ليتأَلَّم بأَعظم ما يلتذّ به أَهلُها، ويَفِرُّ منه فرارَهم من المؤلم. وهذا موضعٌ الحاكمُ فيه الذوقُ لا مجرَّدُ لسان العلم. وكان بعضُ العرافين يقول: مساكين أهلُ الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيبَ نعيمها، فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبةُ الله والأنسُ به والشوقُ إلى لقائه ومعرفةُ أسمائه وصفاته.

وقال آخر: أَطيب ما في الدنيا معرفتُه ومحبتُه، وألذُّ ما في الآخرة رؤيتهُ وسماعُ كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: واللهِ إنه لَيَمُرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال إنهم لفي عيش طيّب. وأنت ترى محبةَ مَنْ في محبته عذاب القلب والرُّوح كيف توجب لصاحبها لذّةً يتمنى أنه لا يفارقه حبُّه كما قال شاعرُ الحماسة:

تَشَكَّى المحبون الصبابةَ ليتني ... تحملتُ ما يَلْقَوْنَ من بينهم وَحدي
فكانت لقلبي لذّةُ الحبِّ كلُّها ... فلم يَلْقَها قبلي محبٌّ ولا بعدي

قالت رابعة: شَغَلُوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله، ولو تركوها لجالت في الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد. وقال سَلم الخواص: تركتموه وأَقبل بعضكم على بعض، ولو أَقبلتم عليه لرَأَيتم العجائب. وقالت اْمرأَةٌ من العابدات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما ذُخر لها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة لم يَصْفُ لها في الدنيا عيش، ولم تَقَرَّ لها في الدنيا عين. وقال بعض المحبين: إنَّ حبَّه عز وجل شغل قلوبَ مُحبّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبه عزّ وجلّ لذّةٌ تُداني محبته، ولا يؤمِّلون في الآخرة من كرامة الثواب أَكبرَ عندهم من النظر إلى وَجه محبوبهم. وقال بعض السَّلَف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أَمرَ الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أَمرَ الآخرة، فإذا أراد اللهُ بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللَّتَيْنِ في قلبه فأَبصر بهما من اللذَّة والنعيم ما لا خطر له مما وَعَدَ به مَنْ لا أصدقُ منه حديثاً، وإذا أراد به غيرَ ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعرِضِ عن ذكره العقوبة إلا صدؤهُ وقسوته وتعطيله عما خُلِقَ له لكفى بذلك عقوبة.

وقد روى عبد العزيز بن أبي رَوّاد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ هٰذه القُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ**» قيل: يَا رَسُولَ اْللهِ فَمَا جِلَاؤُه؟ قال: «**تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ**»[1] وقال بعض العارفين إن الحديدَ إذا لم يُستعملْ غَشِيَه الصَّدَأُ حتى يفسدَه، كذلك القلب إذا عُطِّل من حب الله والشوق إليه وذِكره غَلبه الجهلُ حتى يميتَه ويُهْلِكه. وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أَذِبْه بالذِّكر. وأبعدُ القلوب من الله القلب القاسي، ولا يُذهب قساوته إلا حبٌّ مقلقٌ، أَو خوفٌ مزعج، فإن قيل: ما السبب الذي لأجله يلتذّ المحبّ بحبه وإن لم يظفر بحبيبه؟ قيل: الحبّ يوجب حركة النفس وشدّةَ طلبها، والنفسُ خُلِقت متحركةً بالطبع كحركة

(١) في شرح الإحياء للحافظ العراقي قال: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

النار، فالحب حركتُها الطبيعيةُ، فكلّ من أحبّ شيئاً من الأشياء وجد في حبه لذّةً ورَوْحاً، فإذا خلا عن الحب مطلقاً تعطلت النفسُ عن حركتها وثَقُلت وكَسِلَتْ وفارقها خفةُ النشاط. ولهذا تجد الكُسالى أكثرَ الناس همًّا وحزناً، ليس لهم فرحٌ ولا سرورٌ، بخلاف أرباب النشاط والْجِدّ في العمل أيِّ عمل كان، فإن كان النشاطُ في عملٍ هم عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته، كان التذاذهم بحبه ونشاطُهم فيه أقوى. وبالله التوفيق.

فيمن مدح العشق وتمناه، وغبط صاحبه على ما أوتيه من مناه

هذا موضعٌ انقسم الناس فيه قسمين، وربما كان الشخص الواحد فيه مجموعُ الحالتين. فقسمٌ مدحوا العشقَ وتمنَّوْه ورغبوا فيه، وزعموا أن مَن لم يَذُق طعمَه لم يذق طعم العيش. قالوا: وقد تبيَّن أن كمال اللذّة تابع لكمال الحبّ فأعظم الناس لذّةً بالشيء أكثرُهم محبةً له، وقد تقدَّم تقريرُه. قالوا: وقد حبّب اللهُ سبحانه وتعالى إلى رُسُله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديدَ المحبة لحوَّاء، وقد أَخبر اللهُ سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها. قالوا: وحبُّه لها هو الذي حمله على موافقتها في الأكل من الشجرة. قالوا: وأوّلُ حبٍّ كان في هذا العالم حبُّ آدمَ لحوَّاءَ وصار ذلك سنَّةً في ولده في المحبة بين الزوجين. قالوا: وهذا داود من محبته للنساء جمع بين مائة امرأةٍ. وكذلك ابنُه سليمان. قالوا: وقد عاب اليهودُ ـ عليهم لعائن الله ـ رسولَ الله ﷺ محبة النساء وكثرة تزوُّجه، فأنزل الله سبحانه وتعالى ذبًّا عن رسول الله ﷺ وإخباراً بأن ذلك من فضله وإنعامه عليه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٥٣]. قالوا: وقد كان عند إبراهيم خليل الرحمٰن أَجمل النساء سارّة، ثم تسرّى بهاجر وكانت المحبّةَ لها. قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه: كان إبراهيم الخليل يحب سُرِّيَّته هاجر محبةً شديدة، وكان يزورها في كل يومٍ على الْبُراق من الشام من شغفه بها.

قال الخرائطي: حدّثنا نصر بن داود، حدّثنا الواقدي، عن محمد بن صالح، عن سعد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أَبيه فذكَره، وقد ثبت في الصحيح من حديث الشَّعبيّ عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بعثني رسول الله ﷺ عَلى جيشٍ وفيهم أبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما، فلما رجعت قلت: يا رسول الله، من أَحبُّ الناس إليك؟ قال: «وما تريد؟» قلت: «أُحب أن أعلم». قال: «عائشة»، قلت: إنما أَعني من الرجال، قال: «أبوها»[1] وذكر مبارك بن فُضالة عن علي بن زيد عن عمته عن عائشة، أَن فاطمة

(١) تقدم بنحوه.

رضي الله عنها ذكرتها عند النبي ﷺ فقال لها: يا بُنَيَّة إنها حبيبة أبيك. وأصل الحديث في الصحيح من حديث الليث عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الرحمن عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: أَرسل أَزواج النبي ﷺ فاطمة بنت النبي ﷺ إليه، فدخلت وهو مضطجع معي في مِرْطي[1]، فقالت: يا رسول الله، إن أَزواجَك يسأَلْنَك العدل في ابنة أبي قُحافة، وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» قالت: بَلَى، قال: «فأَحِبِّي هذِهِ»[2] وثبت في الصحيح من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أَبي قِلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يَقْسِمُ بين نسائه فيعدِل ويقول: «اللَّهُمَّ هٰذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِي فِيما تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ»[3] يريد ﷺ أنه يطيق العدل بينهنّ في النفقة عليهن والقَسم بينهنَّ، وأما التسوية بينهنَّ في المحبة فليست إليه ولا يملكها.

وقال ابن سيرين: سأَلت عَبِيدة[4] عن قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] فقال: يعني الحبَّ والجماع.

وقال ابن عباس: لا يستطيع أن يعدل بينهن في الشهوة ولو حرص.

وقال أبو قيس مولى عمرو بن العاص: بعثني عمرو إلى أمّ سَلَمة فقال: سلها أَكان رسول الله ﷺ يُقَبِّلُ أهلَه وهو صائم؟ فإن قالت لا فقل لها إن عائشةَ رضي الله عنها حدَّثتنا أن رسول الله ﷺ كان يقبِّلها وهو صائم، فسأَلها فقالت: لا، فأخبرها بما قال عبد الله[5]، فقالت أُمّ سلمة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ كان إِذا رأى عائشة رضي الله عنها لم يتمالك عنها، أما أَنا فلا. وقال بيان الشعبيّ: أَتاني رجلٌ فقال: كُلّ أُمَّهات المؤمنين أُحِبّ إلا عائشة، فقلت: أما أنت فقد خالفت رسول الله ﷺ، كانت عائشة رضي الله عنها أحبهنّ إلى قلبه.

وقال مصعب بن سعد: فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأُمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ عشرةَ آلاف عشرةَ آلاف، وزاد عائشة ألفين وقال: إنها حبيبةُ رسول الله

(١) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفح به المرأة وجمعه مروط.
(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٨٣، والنسائي في عشرة النساء باب ٣.
(٣) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٣٨. والترمذي في النكاح باب ٤١. والنسائي في عشرة النساء باب ٢. وابن ماجة في النكاح باب ٤٧. والدارمي في النكاح باب ٢٥. وأحمد في المسند (٦/ ١٤٤).
(٤) هو عبيدة السلماني كما جاء في تفسير القرطبي.
(٥) كذا.. ولعل الصواب أبو عبد الله أو عمرو، والثابت في صحيح مسلم أنه ﷺ كان يقبل أم سلمة وهو صائم.

ﷺ. وكان مسروق إذا حدَّث عن عائشة رضي الله عنها يقول: حدَّثتني الصِّدِّيقَةُ بنت الصِّدِّيق حبيبةُ رسول ربّ العالمين المبرَّأةُ من فوق سبع سمٰوات. قال أبو محمد بن حزم: وقد أحبّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المَهْدِيِّين كثيرٌ.

قال الخرائطي: واشترى عبد الله بن عمرَ جاريةً روميَّة فكان يحبّها حبًّا شديداً، فوقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويُفدِّيها. وكانت تقول له: أنت قالون، تعني جيد، ثم إنها هربت منه فوجد عليها وَجداً شديداً وقال:

قد كنتُ أحسِبُني قالونَ فانصرفت ... فاليوم أعلمُ أني غيرُ قالون

وقصةُ مُغيثٍ وعشقِه بَرِيرَةَ حتى إنه كان طوف وراءها ودموعُه تسيل على خدّيه في الصحيح. وكان عُرْوة بن أُذَيْنَة شيخُ مالك من العلماء الثقات الصُّلَحاء وقفت عليه امرأةٌ فقالت: أنت الذي يقال له الرجلُ الصالح وأنت تقول:

إذا خَدِرَتْ رِجْلي تذكّرت من لها ... فناديتُ لُبْنى باسمها ودعَوْتُ
دعوتُ التي لو أن نفسي تُطيعني ... لألقيتُ نفسي نحوها وقضَيْتُ(1)

وقال صالح عن ابن شهاب: حدّثني عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ أَن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ في قريبٍ من ثمانين رجلاً ليس فيهم إلا قرشيّ، والله ما رأيت صفحةَ وجوهٍ قطُّ أَحسنَ من وجوههم يومئذ، قال: فذكروا النساء فتحدَّثوا فيهنّ وتحدّثت معهم حتى أحببتُ أَن نسكت، قالوا: ولولا لطافةُ الحبّ ولذَّته ما تمنّاه المتمنون. وقال شاعر الحماسة:

تَشَكَّى المحبّون الصبابةَ ليتني ... تحمَّلتُ ما يَلْقَوْن من بينهم وَحدي
فكانت لقلبي لذَّةُ الحبّ كلُّها ... فلم يَلْقَها قبلي محبٌّ ولا بعدي

قالوا: والعشقُ المباحُ مما يؤجر عليه العاشقُ كما قال شريك بن عبد الله ـ وقد سئل عن العُشّاق ـ فقال: أَشدُّهم حبًّا أعظمُهم أجراً. وصدق والله إذا كان المعشوق ممن يحبّ اللهُ للعاشق قربَه ووصلَه، وقالت امرأة:

لن يقبلَ اللهُ من معشوقةٍ عملاً ... يوماً وعاشقُها لَهْفانُ مهجور
ليستْ بمأجورةٍ في قتل عاشقِها ... لكنّ عاشقَها في ذاك مأْجور

ونحن نقول: متى باتت مهاجرةً لفراش عاشقها الذي هو بعلُها لعنتها الملائكةُ حتى تصبح. قالوا: والعشقُ يصفي العقل ويُذهب الهمّ ويبعث عَلَى حسن اللباس وطيب

---

(1) البيتان لقيس بن ذريح.

المطعم ومكارم الأخلاق ويعلي الهمة ويحمل عَلَى طيب الرائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والمُروءَة، وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين، وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان، وهو خلق الكرام كما قيل:

وما أَحببتُها فُحْشاً ولكن ... رأيتُ الحبَّ أخلاقَ الكرام

قالوا: وأَرواح العُشَّاق عَطِرَةٌ لطيفة، وأَبدانهم رقيقةٌ ضعيفة، وأزواجُهم بطيئةُ الانقياد لمن قادها، حاشا سكنها الذي سكنت إليه، وعقدت حبَّها عليه. وكلامُهم ومنادمتهم تزيد في العقول، وتحرك النفوس، وتطرب الأرواح، وتلهو بأخبارهم أُولو الألباب.

فأحاديثُ العُشّاق زينة مجالسهم، ورُوح محادثتهم، ويكفي أن يكون الأعرابي الذي لا يُذْكر مع الملوك ولا مع الشجعان الأبطال يعشق ويشتهر بالعشق فيُذْكَر في مجالس الملوك والخلفاء ومَن دونَهم، وتدوَّن أخبارُه وتُرْوَى أشعارُه، ويُبقي له العشقُ ذكراً مخلّداً. ولولا العشق لم يُذكر له اسمٌ ولم يُرْفَعْ له رأْس.

وقال بعض العقلاء: العشقُ للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركتَه ضرّك، وإن أكثرت منه قتلك.

وقال ابن عبد البَرّ في كتابه «بهجة المجالس»: وُجد في صحيفةٍ لبعض أهل الهند: العُشق ارتياحٌ جُعِلَ في الرُّوح، وهو معنًى تُنْتِجُه النجومُ في مَطَارح شُعاعها، ويتولَّد في الطِّباع بوصلة أشكالها، وتَقَبُّلُه الرُّوح بلطيف جوهرها، وهو يُعَدُّ جلاءَ القلوب، وصيقلَ الأذهان ما لم يُفْرِط، فإذا أفرط صار سقماً قاتلاً، ومَرَضاً مُنهكاً[1] لا تنفُذُ فيه الآراء، ولا تَنْجَعُ فيه الْحِيَل، والعلاجُ منه زيادةٌ فيه.

وقال أعرابيٌّ: هو أنيس النفس، ومحادث العقل، تُجنُّه الضمائر، وتخدمه الجوارح. وقال عبد الله بن طاهرٍ أميرُ خُراسان لولده: اعشقوا تَظْرُفُوا، وعِفُّوا تشرُفُوا. وقال قُدامة: وصفه بعضُ البلغاء فقال: يشجِّع الجبان، ويسخِّي البخيل، ويُصَفِّي ذهنَ البليد، ويفصح لسان العَيِيِّ، ويبعث حَزْم العاجز، ويَذِلُّ له عزُّ الملوك، وتُصْدَع له صَوْلَةُ[2] الشجاع، وهو داعيةُ الأدب، وأَوّلُ بابٍ تُفْتَق به الأذهانُ والفِطَن، وتستخرَج به دقائقُ المكايد والْحِيَل، وإليه تستروح الهمم، وتسكن نوافرُ الأخلاق والشِّيَم، يُمْتع جليسَه، ويؤنس أليفَه، وله سرورٌ يجول في النفوس، وفرحٌ يسكُن في القلوب. وقيل لبعض

---

(١) كذا. . . والصواب ناهكاً لأن فعله ثلاثي: أي مضنياً.

(٢) الصولة: السطوة في الحرب ونحوها ويقال: هو ذو صولة: مقدام.

الرؤساء: ابنُك قد عشق، فقال: الحمد لله، الآن رقّت حواشيه، ولَطُفَتْ معانيه، ومَلُحت إشاراتُه، وظَرُفَتْ حركاته، وحسُنت عباراته، وجادت رسائله، وحلّت شمائله، فواظب عَلَى المليح، واجتنب القبيح.

وقيل لآخر ذلك فقال: إذا عشق لَطُفَ وظرُفَ وَدَقَّ وَرَقَّ. وقيل لبعضهم: متى يكون الفتى بليغاً؟ قال: إذا صنَّف كتاباً، أو وصف هوًى أو حبيباً. وقيل لسعيد بن أسلم: إن ابنَك شرع في الرقيق من الشعر، فقال: دعوه يَظْرُفُ وينظُف ويَلْطُف. وقال العباس بن الأحنف:

وما الناسُ إلا العاشقون ذوو الهوى ... ولا خيرَ فيمن لا يُحب ويَعْشَقُ

وقال الحسين بن مُطَير:

إن الغواني جنةٌ رَيْحانُها ... نضرُ الحياة فأين عنها نَعْزِفُ[1]

لولا ملاحتهنّ ما كانت لنا ... دنيا نَلَذُّ بها ولا نتصرف

وقال غيره:

ولا خيرَ في الدنيا ولا في نعيمها ... وأنت وحيدٌ مفردٌ غيرُ عاشق

وقال آخر:

هل العيشُ إلا أن تروحَ وتغتدي ... وأَنت بكأس العشق في الناس نشوانُ

وقال العَطوي:

ما دِنتُ بالحب إلاَّ ... والحبّ دينُ الكرام

وقال آخر:

نظرتُ إليها نظرةً فهَوِيتُها ... ومن ذا له عقلٌ سليمٌ ولا يَهوى

وقال آخر:

وما سرّني أَني خَلِيٌّ من الهوى ... ولو أَن لي ما بين شرقٍ ومغرب

وقال آخر:

وما تَلِفَتْ إلا من العشقِ مُهْجَتي ... وهل طاب عيشٌ لامرئٍ غيرِ عاشق

وقال آخر:

ولا خيرَ في الدنيا بغير صبابة ... ولا في نعيمٍ ليس فيه حبيبُ

---

(١) عزفت نفسه عن الشيء: انصرفت عنه وزهدت فيه.

وقال الكُمَيْت:

مـــا ذاق بُـــؤْسَ معيشـــةٍ ونعيمَهـــا ... فيمـــا مضـــى أحـــدٌ إذا لـــم يَعْشَـــقِ
ألعشـــقُ فيـــه حـــلاوةٌ ومَـــرارةٌ ... فـــاسـأل بـــذلـــك مـــن تطعَّـــم أَوْ ذُقِ

وقال آخر:

ومــا طــابــت الــدنيــا بغيــر محبــةٍ ... وأيُّ نعيــمٍ لامــرىءٍ غيــرِ عــاشــق

وقال آخر:

أُسكُـــن إلـــى سَكَـــنٍ تَلَـــذُّ بحبّـــه ... ذهــب الــزمــانُ وأنــت خــالٍ مفــرد

وقال آخر:

إذا أَنـت لـم تعشـق ولـم تَـدْرِ مـا الهـوى ... فــأنــت وَعَيْــرٌ فــي الفــلاةِ ســواءُ

وقال آخر:

إذا أَنـت لـم تَعْشَـقْ ولـم تَـدْرِ مـا الهـوى ... فكـن حجَـراً مـن يـابس الصخـر جَلْمَـدا

وقال آخر:

إذا أَنـت لـم تَعْشَـقْ ولـم تَـدْرِ مـا الهـوى ... فقــم فــاعتلــف تِبْنــاً فــأنــت حِمَــارُ

وقال آخر:

إذا لــم تَـذُقْ فـي هـذه الـدار صَبْـوةً(١) ... فمـــوتُـــكَ فيهـــا والحيـــاةُ ســـواءُ

وقال الأقرعُ بنُ مُعاذ:

ولا خيـرَ فـي الـدّنيـا إذا أَنـت لـم تَـزُرْ ... حبيبـــاً ولا وافـــى إليـــك حبيـــبُ

وقال آخر:

ومـا ذاق طَعـمَ العيـش مـن لـم يكـن لـه ... حبيـــبٌ إليـــه يطمئـــنُّ ويَسْكُـــنُ

وقال علي بن أبي كثير لابن أبي الزرقاء: هل عشقت قطّ حتى تكاتب وتراسل وتواعد؟ قال: لا، فقال: لا يجيء منك شيء. وكان لبعض الملوك ولدٌ واحدٌ ساقطُ الهِمَّة دنيء النفس فاتر، فأراد أن يُرَشِّحَهُ للمُلْك فسلّط عليه الجواري والقِيان(٢) فعشق منهنَّ واحدة، فأُعْلِمَ بذلك الملكُ فسُرَّ وأَرسل إلى المعشوقة أَن تجنَّيْ عليه وقولي: إني لا

(١) الصبوة: الشوق والحنين والميل إلى الحبيب.
(٢) جمع قينة: الأمة المغنية، وقيل الأمة مغنية كانت أو غير مغنية.

أَصلُح إلاّ لملكٍ أو عالم، فلما قالت له ذلك أخذ في التعلُّم وما عليه الملوك من أدوات الملك حتى برع في ذلك. وقال المرْزُباني: سئل أبو نَوْفَل هل يسلم أَحدٌ من العشق؟ فقال: نعم الْجِلْفُ[١] الجافي الذي ليس له فضلٌ ولا عنده فهم، فأَمّا من في طبعه أَدنى ظَرْفٍ أو معه دَماثة أهل الحجاز وظَرْفُ أهل العراق فهيهات. وقال علي بن عبدة: لا يخلو أحدٌ من صَبْوَةٍ إلا أن يكون جافيَ الْخِلْقَة ناقصاً أو منقوصَ الهِمّة أو عَلَى خلاف تركيب الاعتدال. قالوا: ولا يكمُل أحدٌ قطُّ إلا من عشقه لأهل الكمال وتشبَّهَ بهم. فالعالم يبلغ في العلم بحسب عشقه له، وكذلك صاحبُ كلّ صناعةٍ وحرفة. ويكفي أن العاشق يرتاح لكريم الأخلاق والأفعال والشِّيم لتُحْمَد شمائله عند معشوقه كما قال:

ويرتاح للمعروف في طلب العُلى لتُحْمَدَ يوماً عند ليلى شمائلُه[٢]

وقال أبو المِنْجاب: رأيت في الطواف فتًى نحيفَ الجسم بيِّنَ الضعف يلوذ ويتعوَّذ ويقول:

وَدِدْتُ بأن الحبَّ يُجْمَعُ كلُّه فيُقْذَفُ في قلبي وينغلق الصَّدْرُ
فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ومن فرحي بالحبّ أو ينقضي العمرُ

فقلت: يا فتى، أما لهذه البَنِيَّة[٣] حُرْمةٌ تمنعك عن هذا الكلام؟ فقال: بلى والله ولكن الحبَّ ملأ قلبي بفرح التذكر، ففاضت الفكرة في سرعة الأوبة[٤] إلى من لا يشذّ عنه معرفة ما بي، فتمنَّيتُ المُنٰى. والله ما يسُرُّني ما بقلبي منه ما فيه أميرُ المؤمنين من الملك، وإني أدعو اللهَ أن يُثبتَه في قلبي عمري، ويجعله ضجيعي في قبري، دَرَيْتُ به أَو لم أَدْر. هذا دعائي أَو أَنصرفَ من حَجّتي، ثم بكى، فقلتُ: ما يبكيك؟ قال: خوفُ أن لا يستجاب دعائي، وله قصدت وفيه رغبت مما يعطي اللّه سائرَ خلقه. ثم مضى. قالت هذه الفرقة: وغايةُ ما يقدَّر في أَمر العشق أَنه يقتُل صاحبه كما هو معروف عند جماعة من العُشّاق. وقد قال سُوَيْدُ بن سعيد الْحَدَثاني: حدّثنا علي بن مُسْهِر، عن أَبي يحيى القَتّات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَشِقَ فَكَتَم وَعَفَّ وَصَبَرَ فمَاتَ فَهُوَ شَهيدٌ**»[٥] رواه عن سُوَيْدٍ جماعةٌ. وقال الخطيب: حدّثنا أبو الحسن علي بن أيوب أَملاء منه حدّثنا أبو عبد الله المَرْزُباني وابنُ حَيَّوَيه وابن شاذان قالوا: حدّثنا أبو عبد الله إبراهيمُ بن محمد بن عرفة نِفْطَويْه قال: دخلت على محمد بن داود الأصبهاني

---

(١) الجلف: الغليظ الجافي والأحمق.
(٢) الشمائل جمع شمال: الأخلاق والطباع.
(٣) البنية: الكعبة المشرفة.
(٤) الأوبة: الرجعة.
(٥) تقدم تخريجه.

في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: حبٌّ من تعلم أورثني ما ترى. فقلت: ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع عَلى وجهين: أَحدُهما النظر المباح، والثاني اللذّة المحظورة. فأما النظرُ المباحُ فأورثني ما ترى، وأما اللذّة المحظورةُ فإنه منعني منها ما حدّثني أبي، حدّثنا سويد بن سعيد، حدّثنا علي بن مُسْهِر، عن أبي يحيـى القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ غَفَرَ اللهُ لهُ وَأَدْخَلَه الْجَنَّةَ». قال الحاكم أبو عبد الله: إنما أَتعجّب من هذا الحديث، فإنه لم يحدّث به غير سُوَيد، وهو وداود بن علي وابنه أبو بكر ثقات. ثم رواه الخطيب: حدّثنا الأزهري، حدَّثنا المُعَافَى بنُ زكريا، حدّثنا قُطْبة بن الفضل بن إبراهيم الأنصاري، حدّثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدّثنا سُويد، حدَّثنا ابن مُسْهِر، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً. ورواه الزُّبَيْرُ بنُ بكَّار عَن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجِشُون، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ به. ولفظه: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فمات فهوَ شهيدٌ» رواه أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب. حدّثنا أبو يوسف يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف، عن الزبير فذكره، فخرج سُوَيد عن عُهْدة التفرُّد به، عَلَى أنه لو تفرَّد به فهو ثقةٌ، احتجَّ به مسلم في صحيحه. وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبي: اكتب عنه حديث ضِمَام. وقال البغوي: كان حافظاً وكان أحمد ينتقي لولديه عليه صالح وعبدِ الله، فكانا يختلفان إليه. وقال مسلم: ثقة ثقة. وقال أبو حاتم الرازي ويعقوبُ بنُ شيبة: هو صدوق. وأكثرُ ما عيبَ به التدليسُ[1] وقد صرّح هاهنا بالتحديث، وعِيبَ بأنه ذهب بصره في آخر عمره، فربما أُدخل عليه هذا الحديث في كتبه، ولكن رواية الأكابر عنه هذا الحديث كان قبل ذهاب بصره، لأنه إنما عمي في آخر عمره، وليس هذا بقادحٍ في حديثه.

قلت: وهذا حديثٌ باطلٌ عَلى رسول الله ﷺ قطعاً لا يُشْبِهُ كلامَه، وقد صحَّ عنه أَنه عدّ الشهداء ستة[2] فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيداً ولا يمكن أن يكون كلُّ قتيلٍ بالعشق شهيداً فإنه قد يعشق عشقاً يستحقّ عليه العقوبة. وقد أنكر حُفّاظ الإسلام هذا الحديثَ

---

(١) التدليس في البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري. وجاء في القاموس المحيط أن التدليس في الإسناد هو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعله ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه أو ممن سمعه منه ونحو ذلك.

(٢) في الأصل: «ستًا».

على سُوَيد وقد تكلّم الناس فيه، فقال ابن المديني: ليس بشيءٍ والضريرُ إذا كان عنده كتبٌ فهو عَيْبٌ شديد. وقال يعقوب بن شيبة: صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعدما عمي. وقال البخاريُّ: كان قد عمي فيُلقّن ما ليس من حديثه. وقال أبو أحمد الجرجاني: هذا الحديث أَحد ما أُنكر عَلى سُوَيد، وأنكره البيهقي وأبو الفضل بن طاهر وأبو الفرج بن الجوزي وأَدخله في كتابه الموضوعات.

ولما رواه أبو بكر الأزرق عن سُوَيد عاتبه عليه ابن المَرْزُبان فأسقط ذكر النبي ﷺ منه. وكان سُوَيد إذا سئل عنه لا يرفعه، وهذا أحسنُ أحواله أن يكون موقوفاً. ولذلك رواه أَبو محمد الحسين القاري من حديث أبي سعد البقال، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قولَه. وأما سياق الخطيب له من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها فلا يَشُكُّ من شمَّ رائحة الحديث أَن هذا باطل عَلَى هشام عن أبيه عن عائشة، ولا يحتمل هذا المتنُ هذا الإسناد بوجهٍ، والتحاكُم في ذلك إلى أهل الحديث لا إلى العارين الغرباء منه. والظاهر أن ابن مسروق سرقه وغيَّر إسنادَه. وأَما حديث الزبَيْر بن بكار فمن رواية يعقوب بن عيسى وهو ضعيف لا تقوم به حجّة قد ضعّفه أهل الحديث ونسبوه إلى الكذب.

فيمن ذم العشق وتبرم به
وما احتج به كل فريق على صحة مذهبه

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد أثنى اللهُ عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه أن لا يحمِّلَهم ما لا طاقة لهم به، وقد فُسِّر ذلك بالعشق، وليس المرادُ اختصاصَه به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به. وقال مكحول: هو شدّة الغُلْمَة[1]. وقال النبي ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يُذِلّ نَفْسَهُ»[2]. قال الإمام أَحمدُ: تفسيرُه أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق، وهذا مطابق لحال العاشق، فإنه أَذَلُّ الناس لمعشوقه ولما يحصُل به رضاه، والحبُّ مبناه على الذل والخضوع للمحبوب كما قيل:

إِخْضَعْ وَذِلّ لمن تحب فليس في ... شرع الهوى أَنفٌ يُشال ويُعْقَد[3]

وقال آخر:

مساكينُ أَهلُ العشق حتى قبورهم ... عليها ترابُ الذلّ بين المقابر

وقال آخر:

قالوا عهدناك ذا عزٍّ فقلت لهم ... لَا يعجبِ الناسُ من ذلّ المحبينا
لا تنكروا ذِلَّةَ العُشّاق إنهم ... مستعبدون برِقِّ الحبّ راضونا

قالوا: وإذا اقتحم العبدُ بحرَ العشق ولعبت به أمواجُه فهو إلى الهلاك أدنى منه إلى السلامة، كما ذكر الخرائطي أنه كان بالمدينة جاريةٌ ظريفةٌ فهَوِيَتْ رجلاً من قريشٍ، وكان لا يفارقها ولا تفارقه فملّها، وزاد حبُّها له فسَقِمت، وجعل مولاها لا يَعْبأُ بشكواها ولا يَرِق لها، حتى هامت على وجهها ومزقت ثيابها وأَفضت[4] إلى أمرِ عظيمِ. فلما رأى ما

---

(١) الغلمة: غلبة الشهوة وشدتها.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٠٥).
(٣) شال: ارتفع. وشال ميزان فلان: غلب في المفاخرة ونحوها.
(٤) أفضى به إلى كذا: بلغ وانتهى به إليه.

صارت إليه عالجها فلم ينفع فيها العلاج، وكانت تدور في السِّكَكِ بالليل وتقول:

أَلحبُّ أوّل ما يكون لجاجة[١] ... تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى لُجَج[٢] الهوى ... جاءت أُمورٌ لا تُطاق كِبارُ
من ذا يُطيق كما نطيق من الهوى ... غَلَبَ العَزاءُ وباحت الأسرارُ

قال الخرائطي: وأَنشدني بعض أصحابنا:

الحبُّ أَوَّله شيءٌ يهيم به ... قلبُ المحبّ فَيَلْقى الموتَ كاللَّعِبِ
يكون مبدؤه من نظرةٍ عَرَضَتْ ... وَمَزْحَةٍ أُشعلت في القلب كاللَّهَبِ
كالنار مبدؤها من قَدْحَةٍ[٣] فإذا ... تضرّمت أحرقت مستجمَع الحَطَبِ

قالوا: وكيف يُمْدَح أمرٌ يمنع القرار، ويسلُب المنام، ويوَلّه العقل، ويُحْدِث الجنون، بل هو نفسه جنون، كما قال بعض الْحكماء: الجنون فنون، والعشق فنٌّ من فنونه، كما قال بعض العشاق:

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلت لهم ... العشق أعظمُ مما بالمجانين
العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنما يُصْرَع المجنونُ في الْحين

قالوا: وكم من عاشق أَتلف في معشوقه ماله وعِرْضَه ونفسَه، وضيَّع أَهلَه ومصالحَ دينه ودنياه. قال الزُّبَيْرُ بن بكار: جاءت بدويةٌ إلى أُختٍ لها فقالت: كيف بك من حبّ فلان؟ قالت: حرَّك واللهِ حبُّه الساكنَ، وسكَّن المتحرِّك، ثم أنشأت تقول:

فلو أنّ ما بي بالْحَصْى فلقَ الْحَصْى ... وبالرِّيح لم يُسْمَعْ لهنّ هُبُوبُ
ولو أنني أَستغفرُ الله كلما ... ذكرتُكَ لم تُكْتَبْ عليَّ ذنوبُ

فقلت: والله لأسألنَّه كيف هو من حبك، فجاءته فسألته فقال: إنما الهوى هوانٌ ولكنه خُولِفَ باسمه، وإنما يَعْرِف ذلك من اسْتَبْكَتْهُ المَعَالم والطلول.

وأنشد أبو الفضل الربعي:

قد أمطرت عيني دماً فدماؤُها ... بعد الدُّموع من الجفون هَوَامِلُ
كيف العزاءُ ولا يزال من الضنى ... في الجسم مني والجوانح نازلُ
لَهْفي على زَمَنٍ مضى تجتازني ... فيه صروفُ الدهر وهي عَوَاقِلُ

---

(١) اللجاجة: التمادي في العناد.
(٢) اللجج جمع لجة: معظم الماء ويقال: لجة الماء ولجة الظلام.
(٣) القدحة بالكسر: اسم لاقتداح النار. وضرم النار وأضرمها: أشعلها وأوقدها وألهبها.

قالوا: والعشق هو الداء الدوي[1] الذي تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح، بل هو بحرٌ مَنْ رَكبه غَرِق، فإنه لا ساحل له ولا نجاة منه، وهو الذي قال فيه القائل:

وما أَحدٌ في الناس يُحْمَدُ أَمْرُهُ ... فيوجد إلا وهو في الْحب أحمق
وما أَحدٌ ما ذاق بُؤْسَ معيشةٍ ... فيعشق إلا ذاقها حين يعشق

وقال العباس بن الأحنف:

ويحَ المحبين ما أشقى نفوسَهم ... إن كان مثلُ الذي بي بالمحبينا
يَشْقَوْن في هذه الدنيا بعشقهم ... لا يُرْزَقون به دُنيا ولا دينا

وقال آخر:

أَلعشقُ مَشْغَلَةٌ عن كل صالحةٍ ... وَسَكْرَةُ العشقِ تَنْفي لَذَّةَ الوَسَنِ[2]

وقال محمد بن أبي محمد اليزيدي:

كيف يطيق الناس وصف الهوى ... وهو جليلٌ ما له قَدْرُ
بل كيف يصفو لِحَليف الهوى ... عيشٌ وفيه البَيْنُ والْهَجْرُ

وقال محمد بن أُميَّة:

قرينُ الحب يأْنَسُ بالهموم ... ويُكثر فكرةَ القلب السقيم
وأعظمُ ما يكون به اغتباطاً ... على خطرٍ ومُطَّلعٍ عظيم

وقال أبو تمام:

أما الهوى فهو العذابُ فإن جرت ... فيه النوى فأليم كلِّ عذاب

وقال ابن أبي حُصَيْنَةَ:

والعشقٌ يجتذب النفوس إلى الردى ... بالطبع واحَسَدِي لمَنْ لم يعشق

وقال ابن المعتزّ:

الحب داءٌ عُضالٌ لا دواء له ... يحار فيه الأطباءُ النحاريرُ[3]
قد كنت أَحسب أنَّ العاشقين غَلَوْا ... في وصفه فإذا بالقوم تقصيرُ

---

(١) الدوي: الشديد المهلك.

(٢) الوسن: النعاس.

(٣) عضال: شديد أعيا الأطباء. والنحارير جمع نحرير: العالم المتقن.

وقال أعرابيٌّ:

ألا مـا الهـوى والحـبّ بـالشـيء هكـذا ... يـذلّ بـه طـوع اللسـان فيـوصـفُ
ولكنَّـه شـيءٌ قضـى اللـهُ أَنـه ... هـو المـوتُ أَو شـيءٌ مـن المـوت أَعْنَفُ
فـأَوَّلُـه سقـمٌ وآخـره ضنًـى ... وأوسطُـه شوقٌ يَشُـفُّ[1] ويُتْلِـفُ
وَرَوْعٌ وتسهيـدٌ وهـمٌّ وحسـرةٌ ... ووجْـدٌ عَلَـى وَجْـدٍ يـزيـد ويَضْعُـفُ

وقال عبد المحسن الصُّوري:

مـا الحـبُّ إلا مسلـكٌ خَطِـرٌ ... عَسِـرُ النجـاة ومَـوْطِـىءٌ زَلَـقُ

وقال آخر:

وكـان ابتـداءُ الـذي بـي مُجُـونـا ... فلمـا تمكَّـن أمسـى جنـونـا
وكنـتُ أظـنُّ الهـوى هيِّنـاً ... فـلاقيـتُ منـه عـذابـاً مُهينـا

وقالت امرأة:

رأَيـت الهـوى حُلْـواً إذا اجتمـع الشَّمْـلُ ... ومُـرًّا عَلَـى الهجـران لا بـل هـو القتـلُ
فمـن لـم يَـذُقْ للهجـر طعمـاً فـإنـه ... إذا ذاق طعم الحب لم يدْرِ ما الوَصْلُ
وقـد ذقـتُ طعمَيْـه عَلَـى القـرب والنـوى ... فـأَبعـدُه قتـلٌ وأَقـربـهُ خَبْـلُ[2]

قالوا: والعشق يترك الملِكَ مملوكاً، والسلطانَ عبداً، كما قال الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وكانَ ملكَ الأندلس:

ظـلَّ مـن فَـرْط حُبِّـه مملـوكـا ... ولقـد كـان قبـل ذاك مليكـا
تـركَتْهُ جـآذِرُ[3] القصـر صبًّـا ... مستهـامـاً علـى الصعِيـد تَـرِيكـا
يجعـلُ الخـدَّ واضعـاً فـوق تُـرْبٍ ... للـذي يجعـل الحـريـرَ أَرِيكـا
هكـذا يحسـنُ التـذلُّـل بـالحُـرْ ... رِ إذا كـان فـي الهـوى مملـوكـا

وقال الرشيد، وقد عشقَ ثلاثَ جوارٍ من جواريه ـ ويقال: إنه المأْمون ـ:

مَلَـكَ الثـلاثُ الآنسـاتُ عِنـانـي ... وحَلَلْـنَ مـن قلبـي بكـلِّ مكـان
مـا لـي تطـاوعنـي البـرِيـةُ كلُّهـا ... وأُطيعُهـنّ وهـنّ فـي عصيـانـي
مـا ذاك إلا أَن سلطـانَ الهـوى ... وبـه قَـوِيـنَ أَعـزُّ مـن سلطـانـي

---

(١) يشف: يسقم ويضني.
(٢) الخبل: فساد العقل.
(٣) جمع جؤذر: البقرة الوحشية.

وقال بعض الملوك[1] في جارية له عشقها وكانت كثيرة التَّجنِّي عليه:

أمـا يكفيـكِ أنـك تَمْلِكينـي   وأن النـاسَ كلّهـم عبيـدي
وأنـكِ لـو جَهِـدتِ علـى تـلافـي   لقلـتُ مـن الـرِّضـا أَحسنـتِ زيـدي

وقال ابنُ طاهر ملكُ خُراسان:

فـإنـي وإن حنَّـت إليـك ضمـائـري   فمـا قَـدْرُ حُبِّـي أن يَـذِلّ لـه قـدري

وقال ابن الأحمر ملكُ الأندلس:

أَيـا رَبَّـةَ الْخِدْر التـي أَذهبت نُسْكـي[2]   علـى كـل حـالٍ أَنـت لا بُـدَّ لـي منـكِ
فـإمـا بـذلٍّ وهـو أَلْيَـقُ بـالهـوى   وإمَّـا بعـزٍّ وهـو أَلْيَـقُ بـالملـكِ

قالوا: وكم ممن هرب من الحبّ إلى مظانِّ التلَف ليتخلّص من التلَف بالتلَف. قال دِعْبِل الشاعر: كنت بالثغر فنودي بالنفير، فخرجت مع الناس فإذا بفتًى يَجُرّ رمحَه بين يديَّ فالتفت فنظر إليَّ فقال: أَنت دِعْبِل؟ قلت: نعم، قال: اسمع منِّي، ثم أنشدني فقال:

أَنـا فـي أمـرَيْ رشـادِ   بيـن غـزوٍ وجهـادِ
بـدَنـي يغـزو عـدوّي   والهـوى يغـزو فَـؤادي

ثم قال: كيف ترى؟ قلت: جيد والله، قال: فوالله ما خرجت إلا هارباً من الحبّ، ثم قاتل حتى قتل. وقال أَصرم بن حميد:

نحـن قـومٌ تُلينُنـا الْحـدَق النُّجْـ   ـلُ علـى أَننـا نُلِيـن الْحـديـدا
طـوع أيْدي الظِّبـاءِ تقتـادنـا الْعِيـ   ـنُ ونقتـادُ بـالطِّعـان الأسـودا
تتَّقـي سخطَنـا الليـوثُ ونخشـى   صَـوْلَـةَ الْخِشْفِ حين يبدي الصدودا[3]
وتـرانـا عنـد الكـريهـة أَحـرَا   راً وفـي السلـم للغـوانـي عَبيـدا

قالوا: ورأينا الداخلَ فيه يتمنَّى منه الخلاص، ولات حينَ مَناص، قال الخرائطي: أَنشدني أبو جعفر العبدي:

إِنِ اللـهَ نجّـانـي مـن الحـبّ لـم أَعـد   إليـه ولـم أقبـل مقـالَـةَ عـاذلـي
ومـن لـي بمَنْجَـاة مـن الحـبّ بعـدما   رمتنـي دواعـي الحـبّ بيـن الحبـائـل

(١) هو هارون الرشيد كما سيأتي في الباب الثامن والعشرين.
(٢) النسك: العبادة.
(٣) الصولة: السطوة والقدرة والقهر. الخشف: ولد الظبية أول ما يولد يستوي فيه الذكر والأنثى.

وقال أبو عبيدة: الحبائل الموت، قال: وأنشدنني أبو عبيد الله بن الدولابي:

دعوتُ ربي دعاءً فاستجاب له ... كما دعا ربّه نوحٌ وأيوبُ
أن يَنْزِعَ الداءَ من صدري ويجعلَه ... في صدر سَلْمى وحملُ الداء تعطيبُ
أو يَشْفِ[1] قلبي سريعاً من صَبابته ... فلا أحِنُّ إذا حَنّ المَطَاريبُ

قالوا: وكم أكبّتْ فتنة العشق رؤوساً عَلَى مناخرها في الجحيم، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرَّعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم، وكم أخرجت من شاء اللهُ من العلم والدين، كخروج الشعرة من العجين، وكم أزالت من نعمة، وأَحلَّتْ من نِقْمَة، وكم أنزلت من مَعْقِلِ عزّه عزيزاً فإذا هو من الأذلّين، ووضعت من شريفٍ رفيع القدر والمَنْصِب فإذا هو في أسفل السافلين، وكم كشفت من عورة، وأَحدثت من رَوْعة، وأَعقبت من أَلَم، وأَحلَّت من نَدَم، وكم أضرمت من نار حسرات أَحرقت فيها الأكباد، وأذهبت قدراً كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد، وكم جلبت من جهْد البلاء، ودَرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فقلَّ أَن يفارقها زوال نعمة، أو فجاءةُ نقمة، أو تحويلُ عافية، أو طُروقُ بليَّة، أَو حدوثُ رَزِيَّة، فلو سأَلت النِّعَم ما الذي أَزالك؟ والنِّقَم ما الذي أَدالك[2]؟ والهمومَ والأحزان ما الذي جلبك؟ والعافية ما الذي أبعدك وجنبك؟ والسَّتر ما الذي كشفك؟ والوجه ما الذي أَذهب نورك وكَسَفك؟ والحياة ما الذي كدرك؟ وشمسَ الإيمان ما الذي كوَّرك[3]؟ وعزَّة النفس ما الذي أذلّك وبالهوان بعد الإكرام بدَّلك؟ لأجابتك بلسان الْحال اعتباراً، إن لم تُجبْ بالمقال حِواراً:

هذه والله بعضُ جنايات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُم خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢] ويكفي اللبيبَ موعظة واستبصاراً، ما قصَّه الله سبحانه وتعالى عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيراً واعتباراً، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس الْحامِل له على التكبُّر عن طاعة الله عزَّ وجلّ في أمره بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس وإعجابُه بها عَلى أن عصى أمره، وتكبَّر عَلى طاعته، فكان من أمره ما كان، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة وحمله هواه على أن أَكل من الشجرة التي نُهِي عنها، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود، فكان عَاقبةُ ذلك الهوى والشهوةِ إخراجَه منها إلى دار التعب والنَّصَب. وقيل: إنه إنما أكل منها طاعةً لحوَّاء، فحمله حبُّه لها أن أطاعها

(١) كذا.. ولا وجه لحذف الياء إلا للضرورة.
(٢) أدالك: جعل لك القلبة.
(٣) الشمس كورت: أفلت واضمحلت. قال تعالى في سورة التكوير: ﴿إذا الشمس كورت﴾.

ودخل في هواها، وإنما توصَّل إليه عدوُّه من طريقها ودخل عليه من بابها. فأول فتنةٍ كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر سبحانه فتنةَ الكفّار الذين أشركوا به ما لم ينزِّل به سلطاناً، وابتدعوا في دينه ما لم يَشْرَعْه، وحرّموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبَّدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها، واتَّخذوا الشياطين أولياء من دونه، والْحاملُ لهم على ذلك كلِّه الهوى والْحبُّ الفاسد، وعليه حاربوا رسلَه، وكذبوا كتبه، وبذلوا أنفسَهم وأموالَهم وأَهليهم دونه حتى خسروا الدُّنيا والآخرة. ثم ذكر سبحانه وتعالى قصّةَ قوم نوح وما أصارهم إليه الهوى من الغرَق في الدنيا ودخولِ النار في الآخرة. ثم ذكر قصّة عادٍ وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة. ثم ذكر قصّة قوم صالحٍ كذلك، ثم قصّةَ العُشّاق، أئمةِ الفسّاق، وناكحي الذكران وتاركي النِّسوان، وكيف أخذَهم وهم في خوضهم يلعبون[1] وقطع دابرَهم وهم في سكْر عشقهم يَعْمَهُون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أُمةٍ من الأمم أَجمعين، وجعلهم سَلَفاً لإخوانهم اللوطيّةِ من المتقدِّمين والمتأَخرين، ولما تجرأُوا على هذه المعصية ومَرَدوا[2]، ونهجوا لإخوانهم طريقاً وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجَّت الملائكةُ إلى ٱلله من ذلك ضجيجاً، وعَجَّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهم إلى الله جميعُ المخلوقات، وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأْخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدُّم بالوعد والوعيد إليهم، فأَرسل إليهم رسولَهُ الكريم بحذرهم من سوءِ صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأَذَن رسول الله ﷺ بالدعوة عَلَى رؤوس الملإِ منهم والأشهاد، وصاح بها بين أَظهُرِهم في كل حاضرٍ وباد. وقال فكان في قوله لهم من أَعظم الناصحين: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨] ثم أَعاد لهم القول نصحاً وتحذيراً، وهم في سكرة عشقهم لا يعقلون: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] فأجاب العُشاق جوابَ من أُركسَ في هواه وغيِّه فقلبُه بعشقه مفتون. و ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فلما أَن حانَ الوقت

---

(١) خاضوا في الحديث: تفاوضوا فيه، ومن المجاز فلان يخوض في الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى. وفي سورة الأنعام ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي في باطلهم يتشاغلون.

(٢) مرد على الشيء يمرد: مرن عليه وتدرب ومهر فيه، وأكثر ما يستعمل في الشر. ومرد الإنسان والشيطان فهو مارد: عتا وازداد في الشر وتجرأ في الآثام. وفي سورة التوبة ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾.

المعلوم وجاء ميقاتُ نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرَّحمٰن تبارك وتعالى لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوطٍ ملائكةً في صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصُّوَر، وجاءوه في صورة الأضياف النزُول بذي الصدر الرحيب، فـ ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] وجاء الصريخ إلى اللوطيّة أن لوطاً قد نزل به شبابٌ لم يَنْظُر إلى مثل حُسْنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأى مثلهم الرّاؤون، فنادى اللوطيّة بعضهم بعضاً أن هَلُمُّوا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات، ونَيْلُ أكبر اللَّذَّات ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]. فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كَظِيمٌ من الهمِّ والغمِّ وقلبُه بالحزن عَميد: ﴿يَا قَوْمِ هٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]. فلما سمع اللُّوطيّة مقالَه أَجابوه جوابَ الفاجر المجاهر العنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. فقال لهم لوطٌ مقالَةَ المضْطَهد الوحيد: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨]. فلما رأت رسلُ الله ما يقاسي نبيُّه من اللوطيَّة كشفوا له عن حقيقة الحال وقالوا: هوِّن عليك، ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]. فسُرّ نبيّ الله سرورَ المحبّ وافاه الفرج بغتةً على يد الحبيب، وقيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. ولما أَبَوْا إلا مُراودتَه عن أَضيافه ولم يرعَوْا حقَّ الجار ضربَ جبريل بجناحه على وجوههم فطَمَسَ منهم الأعين وأعمَى الأبصار، فخرجوا من عنده عُمْيَاناً يتحسّسون ويقولون: ستعلم غداً ما يَحِلُّ بك أيها المجنون. فلما انشقَّ عمودُ الصبح جاء النداء من عند ربّ الأرباب، أن اخسف بالأمة اللوطيّة وَأَذِقهم أَليم العذاب، فاقتلع القويُّ الأمين جبريلُ مدائنهم على ريشةٍ من جَناحه ورفعها في الْجوّ حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم وصياح دِيكَتِهِمْ، ثم قلبها فجعل عالَيها سافلَها وأُتبعوا الحجارة من سجِّيلٍ وهو الطين المستحجر الشديد، وخوّف سبحانَه إخوانَهمْ على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣] فهذه عاقبة اللوطيّة عُشَّاقِ الصُّوَر وهم السلف وإخوانهم بعدهم على الأثر.

وإن لـم يكـونـوا قـومَ لـوطٍ بعينهـم	فمـا قـومُ لـوطٍ منهـم ببعيـد
وإنهـم فـي الْخَسْـفِ ينتظـرونهـم	علـى مـوْردٍ مـن مهلـةٍ ورصيـدِ
يقـولـون لا أهـلاً ولا مـرحبـاً بكـم	ألـم يتقـدَّم ربُّكـم بـوعيـد

فقـالـوا بلـى لكنّكـم قـد سَنَنْتُـم صـراطـاً لنـا فـي العشـق غيـرَ حميـد
أتينـا بـه الـذُّكْـرَانَ مـن عشقنـا لهـم فـأوردنـا ذا العشـقُ شـرَّ ورود
فـأنتـم بتضعيـف العـذاب أحـقُّ مـن مُتَـابِعكـم فـي ذاك غيـر رشيـد
فقـالـوا وأنتـم رُسُلكـم أنـذرتكُـم بمـا قـد لَقِينَـاه بصـدقِ وعيـد
فمـا لكـم فضـلٌ علينـا فكلّنـا نـذوق عـذاب الهُـونِ جـدَّ شـديـد
كمـا كلُّنـا قـد ذاق لـذَّةَ وصلهـم ومَجْمَعُنَـا فـي النـار غيـرُ بعيـد

وكذلك قومُ شعيبٍ إنما حملَهم على بَخْس المِكيال والميزان فرط محبتهم للمال، وغَلَبَهُمُ الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذَاب.

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوةُ وعشقُ الرئاسة على تكذيب موسى حتى آل بهم الأمرُ إلى ما آل. وكذلك أَهلُ السَّبت الذين مُسخوا قَردةً إنما أُتُوا من جهة محبة الحيتان وشهوة أَكلها وَالحرص عليها. وكذلك الذي آتاه الربُّ تبارك وتعالى آياته ﴿فَانسَلَخَ مِنهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٤] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. وتأمَّلْ قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ ولم يقل فسلخناه بل أضاف الانسلاخ إليه وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخليه عنها بالكلية، وهذا شأنُ الكافر. وأما المؤمنُ ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لا ينسلخ من الإيمان بالكلية، ثم قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل فتبعه. فإن في أتبعه إعْلاماً بأنه أدركَه ولَحِقه، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي لحقوهم ووصلوا إليهم ثم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ ففي ذلك دليلٌ على أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه، فهذا قد أَخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة بالعلم قدرٌ زائدٌ على مجرّد تعلمه، ثم أخبر الله عز وجل عن السبب الذي منعه أن يُرْفَع بها، فقال: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾. وقوله: ﴿أَخلد إلى الأرض﴾ أي سكن إليها ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه أَرضيّة سفلية لا سماوّية عُلْوية، وبحسب ما يُخْلد العبد إلى الأرض يَهبط من السماء، قال سهل: قسم الله الأعضاء من الهوى، لكل عضوٍ منه حظًّا. فإذا مال عضوٌ منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب. وللنفس سبعُ حُجُب سماويّة وسبع[1] حجب أرضيّة، فكلما دفن العبدُ نفسَه أَرضاً أرضاً سما قلبه سماء سماء، فإذا دفن النفسَ تحت الثرى، وصل القلبُ إلى العرش. ثم ذكر سبحانه مَثَلَ

---

(١) كذا.. بتذكير العدد والأشهر تأنيثه.

المتّبع لهواه كمثل الكلب الذي لا يفارقه اللّهث في حَالَتَيْ تركه والحمْلِ عليه، فهكذا هذا لا يفارقه اللّهث على الدُّنيا راغباً وراهباً.

والمقصودُ أن هذه السورةَ من أوّلها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات وما آل إليه أمرُهم، فالعشقُ والهوى أصلُ كل بلية. قال عَدِيُّ بن ثابت: كان في زمن بني إسرائيل راهبٌ يعبد الله حتى كان يؤتى بالمجانين يُعَوِّذهم[1] فيبرأُون على يديه، وإنه أُتي بامرأةٍ ذاتِ شرفٍ من قومها قد جُنّت، وكان لها إخوةٌ فأتَوْه بها فلم يزل الشيطانُ يزين له حتى وقع عليها فحملت، فلما استبان حَمْلُها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها، فذهب الشيطانُ في صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب، ثم أتى بقيةَ إخوتها رجلاً رجلاً، فجعل الرجلُ يلقى أخاه فيقول: والله لقد أتاني آتٍ فذكر لي شيئاً كبُر عليّ ذكرُه فذكر ذلك بعضُهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم، فسار الناس إليه حتى استنزلوه من صَوْمعته فأقرّ لهم بالذي فعل، فأُمر به فصلب، فلما رُفع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال: أنا الذي زينتُ لك هذا وأَلقيتك فيه، فهل أَنت مُطيعي فيما أقول لك وأُخلِّصك؟ قال: نعم، قال: تسجد لي سجدةً واحدةً، فسجد له وقُتل الرجل، فهو قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وقال واصل مولى أَبي عُيَيْنَةَ: دخلت على محمد بن سِيرين فقال لي: هل تزوّجت؟ فقلت: لا، قال: وما يمنعك؟ قلت: قلة الشيء، قال: تزوّجَ عبد الله بن محمد بن سِيرين ولا شيء له فرزقه الله.

ثم حدَّث أن امرأةً من بني إسرائيل يقال لها مَيْسُونَة خاصمت إلى حَبْرَيْن من بني إسرائيل فعلقاها قال: وكان كلّ واحدٍ منهما يكتُمُ صاحبَه ما يجد منها، فأُخبرا أنها في حائط[2] تغتسل، قال: فجاءا فتسوَّرا عليها الحائط. فلما رأتهما دخلت غَمْراً[3] من الماء فوارت نفسها، فقالا لها: إنك إن لم تفعلي غدونا فشهدنا عليك بالزُّور، فأَبت فشهدا عليها. فلما قرّبت ليقام عليها الحدُّ نزل الوحي على دانيال بتكذيبهما، فهذا بعض فتنة العشق.

---

(١) يعوذهم: يرقيهم، وعوذه تعويذاً وأعاذه إعاذة: دعا له بالحفظ ورقاه. والعوذة: الرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون لأنه يعاذ بها، وهي التي تكتب وتعلق على الإنسان من العين والفزع والجنون.

(٢) الحائط: البستان.

(٣) الغمر: الماء الكثير.

وقد روى شعبة عن عبد الملك بن عُمَيْر قال: سمعت مُصعبَ بنَ سعدٍ يقول: كان سعدٌ يعلمنا هذا الدُّعاء ويذكره عن النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ ٱلْقَبْرِ**»[١].

وقال الحسن بن عَرَفة: حدّثنا أبو معاوية الضَّرير عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنه لم يكن كفرُ مَن مضى إلا من قِبَلِ النساء وهو كفر من بقي أيضاً.

وقد روى سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن سليمان التَّيْمي، عن أَبي عثمان النَّهْدِي، عن أُسامةَ بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي أَضَرَّ عَلَى ٱلرِّجَال مِنَ ٱلنِّسَاءِ**»[٢].

وروى أبو إسحاق، عن هبيرة بن يَرِيم، عن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ورضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ٱلْخَمْرُ وَالنِّسَاءُ**»[٣].
وقال عليّ بن حرب: حدّثنا سفيان بْنُ عُيَيْنَةَ، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيَّبِ قال: «ما أَيس الشيطان من أَحَدٍ قَطُّ إلَّا أَتاه من قِبَل النساء».

وروى سفيان بن حسين، عن يَعْلَى بن مسلم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قيل لآدم ما حملك على أَكل الشجرة؟ قال: يا ربّ زيّنت لي حوّاء، قال: فإني قد عاقبتها لا تحمل إلّا كرهاً، ولا تضع إلّا كرهاً، وأَدميتها في الشهر مرَّتين».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ أو غيره ـ: «أَوَّل فتنة بني إسرائيل كانت من قِبَل النساء».

قالوا: ويكفي من مضرَّة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق، وذلك موجودٌ في كل زمان.

فهذا بعض ما احتجَّت به هذه الفرقة لقولها. ونحن نعقد للحكم بين الطائفتين باباً مستقلاًّ بعون الله تعالى.

---

(١) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب، كما قال السيوطي.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

في الحكم بين الفريقين، وفصل النزاع بين الطائفتين

فنقول: العشق لا يُحْمَد مطلقاً ولا يُذَمّ مطلقاً، وإنما يُحْمَد ويُذَمّ باعتبار متعلَّقه، فإن الإرادة تابعةٌ لمرادها، والحبّ تابعٌ للمحبوب، فمتى كان المحبوب مما يُحَبُّ لذاته أَو وسيلةً توصِّله إلى ما يُحَبُّ لذاته، لم تُذَمّ المبالغةُ في محبته بل تحمد. وصلاحُ حال المحبّ كذلك بحسب قوّة محبته.

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أَن يصرف قوى حبّه كلَّهَا لله تعالى وحده بحيث يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبه ورُوحه وجوارحه، فيُوَحِّد محبوبه ويوحِّد حبّه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب توحيد المحبوب أن المحبة لا تَصحّ إلا بذلك، فتوحيد المحبوب أَن لا يتعدّد محبوبُه[1]،وتوحيد الحب أن لا يبقى في قلبه بقية حبٍّ حتى يبذلَها له،فهذا الحبّ وإن سمي عشقاً فهو غايةُ صلاح العبد ونعيمِه وقرّةِ عينه، وليس لقلبه صلاحٌ ولا نعيمٌ إلا بأَن يكون الله ورسولُه أحبّ إليه مما سواهما، وأن تكون محبتُه لغير الله تابعةً لمحبة الله، فلا يحب إلا لله، كما في الحديث الصحيح: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبّ المَرْءَ لَا يُحِبّهُ إِلَّا لِلهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**»[2] فأخبر أن العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون اللهُ أحبَّ إليه مما سواه، ومحبَّةُ رسوله هي من محبته، ومحبّة المرء إن كانت لله فهي من محبة الله، وإن كانت لغير الله فهي مُنقصة لمحبة الله مُضْعِفة لها، وتَصْدُق هذه المحبة بأن يكون كراهتُه لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أَو أَشدّ. ولا ريب أنّ هذا من أَعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدّم عَلَى محبة نفسه وحياته شيئاً فإِذا قدّم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث

---

(١) الضمير هنا عائد على محذوف وهو المحب.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٩ و ١٤، والإكراه باب ١، والأدب باب ٤٢. ومسلم في الإيمان حديث ٦٦. والنسائي في الإيمان باب ٢ ـ ٤. وابن ماجة في الفتن باب ٢٣. وأحمد في المسند (٣/١٠٣، ١١٤، ١٧٢، ١٧٤، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٧٥، ٢٨٨).

لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يُلْقَى في النار ولا يكفر كان الله أحبَّ إليه من نفسه، وهذه المحبةُ هي فوق ما يجده سائر العُشَّاق والمحبين من محبة محبوبهم، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مِثْل لمن تعلّقت به وهي محبةٌ تقتضي تقديمَ المحبوب فيها على النفس والمال والولد، وتقتضي كمالَ الذلّ والخضوعِ وَالتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً، وهذا لا نظير له في محبة مخلوقٍ ولو كان المخلوقُ مَنْ كان.

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يَغْفِرُه الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونَ ٱللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. والصحيح أن معنى الآية والَّذين آمنوا أَشدُّ حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم كما تقدَّم بيانُه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبَهم غيرُه. وكلّ أَذًى في محبة غيره فهو نعيمٌ في محبته، وكلّ مكروهٍ في محبة غيره فهو قُرّة عينٍ في محبته.

ومن ضرب لمحبته الأمثالَ التي هي في محبّة المخلوق للمخلوق كالوصل والهجر والتَّجَنِّي بلا سبب من المحبّ وأَمثالِ ذلك مما يتعالى الله عنه عُلوًّا كبيراً فهو مخطىءٌ أقبحَ الخطإِ وأَفحشه، وهو حقيقٌ بالإبعاد والمقت. والآفةُ إنما هي من نفسه وقلة أدبه مع محبوبه، واللهُ تعالى نهى أن يَضْرب عبادُه له الأمثالَ فهو لا يقاس بخلقه. وما ابتدع من ابتدع إلا من ضَرْبِ الأمثالِ له سبحانه. فأصحابُ الكلام المُحْدَثِ المبتدع ضربوا له الأمثالَ الباطلةَ في الخبر عنه وما يوصف به، وأصحابُ الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال في الإرادة والطلب. وكلاهما على بِدْعَةٍ وخطإٍ.

والعشقُ إذا تعلّق بما يحبه اللهُ ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه. وذلك أَنواع: أحدُها محبةُ القرآن بحيث يَغْنَى بسماعه عن سماع غيره، ويَهيم قلبه في معانيه ومراد المتكلّم سبحانه منه، وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه، فمن أَحب محبوباً أَحبّ حديثَه والحديثَ عنه كما قيل:

إن كنـــت تـــزعُـــمُ حبِّـــي ... فَلِـــم هجـــرتَ كتـــابـــي
أمـــا تـــأمّلـــت مـــا فيـــه مـــن لـــذيـــذ خطـــابـــي

وكذلك محبة ذِكْره سبحانه وتعالى من علامة محبته، فإن المحبّ لا يشبع من ذكر محبوبه، بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكّره به. وكذلك يحب سماع أوصافه وأفعاله وأَحكامه، فعشق هذا كلّه من أَنفع العشق، وهو غاية سعادة العاشق، وكذلك عشقُ العلم النافع، وعشقُ أَوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم

الأخلاق، فإن هذه الصفات لو صُوِّرت صُوَراً لكانت من أَجمل الصُّوَر وأَبهاها، ولو صُور العلمُ صُورةً لكانت أجملَ من صُورة الشمس والقمر، ولكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكيّة، كما أَن محبةَ الله ورسوله وكلامِه ودينِه إنما تناسب الأرواح العُلويَّة، السمائية الزكيّة، لا الأرواحَ الأرضيةَ الدَّنيَّة، فإذا أَردت أن تعرِفَ قيمةَ العبد وقدرَه فانظر إلى محبوبه ومُراده. واعلم أَن العشقَ المحمود لا يَعْرِضُ فيه شيءٌ من الآفات المذكورة.

بقي هاهنا قسمٌ آخرُ، وهو عشقٌ محمودٌ يترتَّب عليه مفارقة المعشوق، كمن يعشق امرأَتَه أو أَمَتَهُ فيفارقها بموتٍ أو غيره فيَذهب المعشوق ويبقى العشق كما هو، فهذا نوعٌ من الابتلاء إن صبر صاحبُه واحتسب نال ثواب الصابرين، وإن سَخِط وجزع فاته معشوقُه وثوابُه، وإن قابل هذه البلوى بالرضا والتسليم فدرجتُه فوق درجة الصبر. وأعْلى من ذلك أن يقابلَها بالشكر نظراً إلى حسن اختيار اللّه له؛ فإنه ما يقضي الله للمؤمن قضاءً إلاّ كان خيراً له، وإن لم يعلم كونَه خيراً له فليسلّم للصادق المصدوق في خبره المؤكّد باليمين حيث يقول: «**وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إلاّ كانَ خَيْراً لَهُ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَلَيْسَ ذٰلِكَ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ**»[1]. وإيمان العبد يأْمره بأَن يعتقد بأن ذلك القضاءَ خيرٌ له؛ وذلك يقتضي شكرَ من قضاه وقدَّره وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٤، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣، و ٦/ ١٥).

في استحباب تخير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله

قال الله تعالى عقيب ذكره ما أحلَّ لعباده من الزوجات والإماء وما حرَّم عليهم: ﴿يُرِيدُ ٱللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَٱللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً. يُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ ٱلإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٥ ـ ٢٧]. أي لا يصبر عن النساء، كما ذكر الثوري عن ابن طاوس عن أبيه ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ قال: إذا نظر إلى النساء لم يصبر، وكذلك قال غيرُ واحدٍ من السلف. ولما كانت الشهوةُ في هذا الباب غالبةً لا بدَّ أن توجب ما يوجب التوبة، كرَّر سبحانه وتعالى ذكر التوبة مرَّتين، فأخبر أنَّ مُتَّبِعِي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلاً عظيماً، وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد التخفيف عنا لضعفنا، فأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعاً، وأن نتسرَّى من الإماء بما شئنا.

ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال: حالةُ جهلٍ بما يَحِلُّ له ويحرمُ عليه، وحالةُ تقصير وتفريط، وحالة ضعفٍ وقلّةِ صبر، قابل سبحانه جهلَ عبده بالبيان والهدى، وتقصيرَه وتفريطَه بالتوبة، وضَعفَه وقلة صبره بالتخفيف.

وقال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدّثنا أبو مَعْمَر، حدّثنا يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ وَحُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ. الْجَائِعُ يَشْبَعُ وَالظَّمآنُ يَرْوَى وَأَنَا لاَ أَشْبَعُ مِنْ حُبِّ الصَّلاَةِ وَالنِّسَاءِ**»(١). وأصله في صحيح مسلم بدُون هذه الزيادة.

وفي صحيح مسلم(٢) من حديث عُرْوَة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أصاب

---

(١) الحديث بدون زيادة: «... الجائع يشبع... الخ» في سنن النسائي (كتاب عشرة النساء، باب ١) ومسند الإمام أحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥).

(٢) الحديث بهذا السياق غير موجود في صحيح مسلم ولكنه جاء في كتاب مناقب أمهات المؤمنين =

رسول الله ﷺ سبايا بني الْمُصْطَلِق وقعت جُوَيْرِية بنت الحارث بن أبي ضِرَار في السهم لثابت بن قيس بن الشمَّاس أو لابن عمّ له، فكاتبت عَلَى نفسها، وكانت امرأةً جميلة حُلوةً لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها. قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتُها عَلَى باب الحجرة فكرهتها، وعلمت أن رسول الله ﷺ يرى منها ما رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضِرَار سيِّدِ قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فجئت رسول الله ﷺ أستعينه. قال: «فَهَلْ لَكِ في غَيْرِ ذَلِكَ؟» قالت: وما هو؟ قال: «أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتزوَّجُكِ» قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت. وخرج الخبرُ إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أُعْتِقَ بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المُصْطَلِق، فما أعلم امرأةً كانت أعظم بركةً عَلَى قومها منها».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: خرج سهمي يوم جَلولاء جارية كأَنَّ عنقها إبريقُ فضة، فما ملكت نفسي أن قمت إليها فقبّلتها.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال: «قدم رسول الله ﷺ خَيْبَرَ فلما فتح الله عليه الْحِصْنَ، ذُكر له جمالُ صفيةَ بنتِ حُيَيّ وقد قُتل زوجها وكانت عروساً، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فخرج بها حتى بلغا سدّ الرَّوْحاءِ[(١)] فبنى بها[(٢)] ثم صنع حَيْساً[(٣)] في نطع[(٤)] صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: «آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ» فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ عَلَى صفية، ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت رسول الله ﷺ يُحَوّي[(٥)] لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفيةُ رِجلَها عَلَى ركبته حتى تركب»[(٦)].

وعند أبي داود في هذه القصة قال: وقع في سهم دَحِية جاريةٌ جميلةٌ، فاشتراها رسول الله

= للمحب الطبري. وفي المواهب اللدنية أن الذي خرجه هو أبو داود وزاد شارح المواهب أحمد. «وكلاهما من حديث لابن إسحاق».

(١) في صحيح البخاري وغيره: سد الصهباء وهو الأصوب. والروحاء بالمهملة: مكان قريب من المدينة وليست قرب خيبر، فالصواب أنها الصهباء، وهي على بريد من خيبر، قاله ابن سعد وغيره.

(٢) بنى بها وعليها: دخل بها.

(٣) الحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد وقد يجعل عوض الأقط الدقيق والفتيت.

(٤) النطع وفيه أربع لغات: بساط من أدم.

(٥) يحوي لها: أي يجعل لها حوية وهي كساء محشو يدار حوال سنام البعير تركبه المرأة.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٤، والبيوع باب ١١١، والمغازي باب ٣٨، والأطعمة باب ٢٨. وأحمد في المسند (٣/١٥٩).

ﷺ بسبعة أَرْؤُس، ثم دفعها إلى أُمّ سُليـم تُصَنِّعُهَا وتهيئها وتعتدّ في بيتها، وهي صفية بنتُ حُيَيّ.

وقال أبو عبيدة: حج عبدُ الملك بنُ مروان ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالد هذا من رجالات قريش المعدودين، وكان عظيم القدر عند عبد الملك فبينما هو يطوف بالبيت إذ بَصُرَ برمَلَةَ بنتِ الزُّبَيْر بن العَوّام فعشقها عشقاً شديداً، ووقعت بقلبه وقوعاً متمكناً، فلما أراد عبد الملك القُفول همّ خالدٌ بالتخلف عنه، فوقع بقلب عبد الملك تهمَةٌ، فبعث إليه فسأله عن أمره، فقال: يا أمير المؤنين، رَمْلَةُ بنت الزُّبير، رأيتها تطوف بالبيت فأذهلت عقلي، والله ما أبديتُ إليك ما بي حتى عِيلَ صبري. ولقد عرضت النوم علَى عينيّ فلم تقبله، والسَّلْوَّ عَلَى قَلبي فامتنع منه. فأطَال عبد الملك التَّعجُّبَ من ذلك وقال: ما كنت أقول إن الهوى يستأسر مثلَك، قال: فإني لأشدُّ تعجُّباً من تعجُّبك مني، ولقد كنت أَقول: إن الهوى لا يتمكّن إلاَّ من صنفين من الناس: الشعراء والأعراب. أما الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكرَ في النساءَ ووصفهنَّ والتغزُّل فمال طبعهم إلى النساء فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى فاستسلموا إليه منقادين. وأما الأعراب، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها، ولا يَشْغَلُه عنه شيء، فضعُفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم. فما رأيت نظرةً حالت بيني وبين الحزم، وحسّنت عندي ركوب الإثم، مثل نظرتي هذه. فتبسَّم عبد الملك فقال: أفكل هذا قد بلغ بك؟ فقال: والله ما عرتني هذه البلية[1] قبل وقتي هذا. فوجَّه عبدُ الملك إلى الزُّبير يخطُب رَمْلَةَ على خالد، فذكروا لها ذلك فقالت: لا والله أو يطلّقَ نساءه، فطلق امرأتين كانتا عنده، وظعن[2] بها إلى الشام وكان يقول:

أَليـس يـزيـد الشـوقُ فـي كـل ليلـةٍ ... وفـي كـل يـومٍ مـن حبيبتنـا قـرْبـا
خليلـيّ مـا مـن سـاعـةٍ تَـذْكُـرَانِهَـا ... مـن الـدهـر إلاَّ فـرّجـت عنـي الكَـربـا
أحـبّ بنـي العَـوّام طُـرًّا لحبهـا ... ومـن أجلهـا أَحببـت أَخـوالهـا كَلْبـا
تجـول خَـلاخيـلُ النسـاء ولا أرى ... لـرَمْلَـةَ خَلْخـالاً يجـول ولا قُلْبـا[3]

وذكر الخرائطي: أَن بشرَ بن مَرْوان كان إذا ضرب البَعْث[4] عَلى أحدٍ من جنده ثم

(١) عرتني البلية: غشيتني.
(٢) ظعن: سار وارتحل. والظعينة الهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن والظعينة أيضاً المرأة ما دامت في الهودج.
(٣) يجول: يتحرك ويضطرب لسعته. والقلب بالضم: سوار المرأة، يكون نظماً واحداً.
(٤) ضرب عليه البعث: أوفده وأمره بالسفر إلى أحد الثغور أو مركز من المراكز.

وجده قد أخلّ بمركزه أقامه عَلى كرسي ثم سمَّر يديه في الحائط، ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه، فلا يزال يَتَشَحَّط حتى يموت. وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهدٍ بعرس ابنة عمه، فلما صار في مركزه كتب إلى ابنة عمه كتاباً، ثم كتب في أَسفله:

لولا مخافةُ بشرٍ أَو عقوبتُه ... وأَن يُرى بعد ذا في الكف مسمار
إذًا لعطّلت ثغري ثم زُرتكم ... إن المحب إذا ما اشتاق زَوّار

فلما ورد عليها الكتاب أَجابته عنه، ثم كتبت في أَسفله:

ليس المحبُّ الذي يخشى العقابَ ولو ... كانت عقوبتُه في فَجْوَةِ النارِ
بل المحبُّ الذي لا شيء يُفْزِعه ... أَو يَستقِرَّ ومن يهواه في الدارِ

فلما قرأَ الكتابَ قال: لا خير في الحياة بعد هذا. وأَقبل حتى دخل المدينة فأَتى بشرَ بنَ مروان في وقت غَدائه، فلما فرغ من غَدائه أُدخل عليه فقال: اسمع عذري فإما عفوت وإما عاقبت. فقال: ويلك وهل لك من عذرٍ؟ فقصّ عليه قصته وقصة ابنة عمه فقال: أَوْلى لكما! يا غلام، خط عَلَى اسمه من البَعْث وأعطه عشرة آلاف درهم والحق بابنة عمك.

سهرتُ ومن أهدى ليَ الشوقُ نائم ... وعذَّب قلبي بالهوى وهو سالمُ
فوا حسرتا حتى متى أنا قائلٌ ... لمن لا منى في حبِّكم أنت ظالمُ
وحتّى متى أُخفي الهوى وأُسِرُّه ... وأدفُنُ شوقي في الحشا وأُكاتمُ
أريد الذي قد سرَّكم بمساءتي ... ليَغْفُلَ واشٍ أو ليُعْذرَ لائمُ

وقال آخر:

بي لا بها ما أُقاسي من تَجَنُّيها ... ومن جوى[1] الحبّ في الأحشاء أفديها
واللهُ يعلم أَني لا أُسَرُّ بأن ... تلقى من الوجد ما لاقَيْتُه فيها
خوفَ البكاء كما أبكي فتتركني ... أبكي على كبدي طوراً وأبكيها

وقال العباس بن هشام الكلبي: ضرب عبد الملك بن مروان بَعْثاً إلى اليمن فأقاموا سنين، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال: والله لأَعُسّنّ الليلة مدينة دمشق ولأسمعن الناسَ ماذا يقولون في البعث الذي أغزيت فيه رجالهم، وأغرمتهم أموالهم، فبينما هو في بعض أزِقتها إذ هو بصوت امرأةٍ قائمةٍ تصلي فتسمَّع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم مسيِّرَ النُّجب[2]،ومُنزلَ الكُتب،ومُعطِيَ الرَّغب[3]، أَسألك أَن تردَّ لي غائبي

---

(١) الجوى: الحرقة وشدة الوجد.
(٢) النجب جمع نجيبة: خيار الإبل.
(٣) الرغب: المطلوب والمرغوب فيه.

فتكشف به همي، وتُقِرَّ به عيني، وأَسأَلك أَن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مَرْوان الذي فعل بنا هذا، ثم أَنشأت تقول:

تطـاولَ هـذا الليـلُ فـالعيـن تَـدْمَـعُ ... وأَرَّقنِـي حـزنٌ لقلبـيَ مُـوجِـعُ
فَبِـتُّ أُقـاسـي الليـلَ أرعـى نُجـومَـه ... وبـات فـؤادي بـالجـوى يتقطَّـع
إذا غـاب منهـا كـوكـبٌ فـي مَغيبِـه ... لَمَحْـتُ بعينـي كـوكبـاً حيـنَ يَطْلُـع
إذا مـا تـذكَّـرتُ الـذي كـان بيننـا ... وجـدتُ فـؤادي حسـرة يتصـدَّع
وكـلُّ حبيـب ذاكـرٌ لحبيبـه ... يُـرَجِّـي لقـاه كـل يـوم ويطمـع
فـذا العـرشِ فـرِّجْ مـا تـرى مـن صبابتي ... فـأنـت الـذي يـدعـو العبـادُ فيسمـع
دعـوتـك فـي السـراء والضُّـرّ دعـوةً ... عَلـى حـاجـةٍ بيـن الشراسيـف[1] تَلْـذَع

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف هذا المنزل؟ قال: نعم هذا منزل يزيد بن سنان. قال: فما المرأَة منه؟ قال: زوجته، فلما أَصبح سأل كم تصبر المرأَة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر.

وقال جَرير بن حازم عن يَعْلَى بن حكيم، عن سعيد بن جبير قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أَمسى أَخذ دِرّتَه ثم طاف بالمدينة، فإذا رأَى شيئاً ينكره أنكره، فبينما هو ذاتَ ليلةٍ يَعُسُّ إذ مرّ بامرأةٍ عَلى سَطْحٍ وهي تقول:

تطـاول هـذا الليـلُ وأخْضَـل[2] جـانبـه ... وأَرَّقنـي أن لا خليـل ألاعبُـهْ
فـوالله لـولا اللـهُ لا ربّ غيـرُهُ ... لحُـرّك مـن هـذا السـريـر جـوانبُـهْ
مخـافـةُ ربـي والحيـاءُ يَصُـدُّنـي ... وأُكـرم بعلـي أن تُنـال مـراكبُـهْ

ثم تنفَّست الصُّعَداءَ وقالت: لَهَانَ عَلى عمر بن الخطاب ما لقيتُ الليلة، فضرب باب الدار فقالت: من هذا الذي يأْتي إلى امرأَةٍ مُغيبَةٍ[3] هذه الساعة؟ فقال: افتحي، فأَبت، فلما أَكثر عليها قالت: أَمَا والله لو بلغ أَمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها قال: افتحي فأَنا أمير المؤمنين، قالت: كذبت ما أَنت أمير المؤمنينَ، فرفع بها صوتَه وجَهَرَ لها فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هِيهِ كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت، فقال: أَين زوجك؟ قالت: في بَعْثِ كذا وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أَن سَرِّحْ فلان ابن فلان، فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك. ثم دخل عَلى حَفْصة ابنتِه فقال: أَي بُنَيّة كم تصبرُ

---

(١) الشراسيف: جمع شرسوف: وهو الطرف اللين من الضلع مما يلي البطن.
(٢) اخضل الليل: أظلم.
(٣) امرأة مغيبة: التي غاب زوجها.

المرأةُ عن زوجها؟ قالت: شهراً واثنين وثلاثة، وفي الرابع يَنْفَدُ الصبرُ، فجعل ذلك أجَلاً للبَعْث. وهذا مطابقٌ لجعل الله سبحانه وتعالى مُدّةَ الإيلاء أربعة أشهر، فإنه سبحانه وتعالى علم أن صبر المرأة يضعُف بعد الأربعة، ولا تحتمل قوّةُ صبرها أكثرَ من هذه المدَّة، فجعلها أجلاً للمُولي، وخيرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه، وإن شاءت فسخت نكاحه. فإذا مضت الأربعة أشهر عِيلَ صبرُها. قال الشاعر:

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يُجِبِ الصبرُ

في أن دواء المحبين، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين

قد جعل الله سبحانه وتعالى لكل داءٍ دواء، ويسّرَ الوصالَ إلى ذلك الدواء شرعاً وقدَراً، فمن أراد التداويَ بما شرعه الله له، واستعان عليه بالقدَر وأَتى الأمرَ من بابه صادف الشفاء، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعاً وإن امتحنه به قدَراً فقد أخطأ طريقَ المداواة، وكان كالمتداوي من داءٍ بداءٍ أعظمَ منه، وقد تقدّم حديث طاوُس عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكاحِ»[1]. وقد اتفق رأْي العقلاءِ من الأطباء وغيرهم في مواضع الأدوية أَن شفاء هذا الداءِ في التقاءِ الرُّوحَيْنِ والتصاقِ البَدَنَيْنِ. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الزُّبير عن جابر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ رأى امرأةً فأتى زينبَ فقضى حاجته منها وقال: «إنَّ الْمَرأَةَ تُقبلُ في صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ في صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَأَنَّ ذٰلِكَ يَرُدُّ ما في نَفْسِهِ»[2]. وذكر إسماعيل بنُ عَيّاش، عن شُرَحْبيل بن مسلم عن أبي مسلم الْخَولاني رحمه الله أنه كان يقول: يا معشر خَوْلان زوِّجوا شبابكم وإماءكم فإن الغُلْمَةَ أمرٌ عارم[3] فأعِدُّو عُدّتها، واعلموا أنه ليس لِمُنْعِظٍ إذن. يريد أنه إذا استأذن عليه فلا إذن له. وذكر العتبيّ أن رجلاً من ولد عثمان ورجلاً من ولد الحسين خرجا يريدان موضعاً لهما، فنزلا تحت سَرْحَةٍ[4] فأخذ أحدُهما فكتب عليها:

خبّـرينـا خُصِصْـتِ بـالغيـث يـا سَـرْ ... حُ بصـدقٍ والصـدقُ فيـه شفـاءُ

وكتب الآخر:

هـل يمـوت المحـبّ مـن أَلَـم الْحُبْـ ... ـبِ ويَشفـي مـن الحبيـب اللقـاءُ

---

(١) تقدم بلفظ: «لم يُر للمتحابين مثل التزويج».

(٢) أخرجه مسلم في النكاح حديث ٩، وأحمد في المسند (٣/ ٣٣٠).

(٣) عارم: شديد، قاس، لا يطاق.

(٤) السرحة: شجرة عظيمة طويلة، وجمعها سرح.

ثم مضيا، فلما رجعا وجدا مكتوباً تحت ذلك:

إن جهــلاً ســؤالُــك السَّــرْحَ عَمــا ... ليــس يــومــاً عليــك فيــه خَفــاءُ
ليــس للعــاشــق المحــبّ مــن الْحبْـ ... ـــبِ ســوى لــذَّةِ اللقــاءِ شفــاءُ

وقال أبو جعفر العذري:

لَسكْـرُ الهـوى أَرْوَى لعظمـي ومَفْصِلـي ... إذا سكـر النَّـدمـانُ مـن لـذَّة الخمـر
وأحسـنُ مـن قَـرْعِ المثانـي[1] ونَقْـرِها ... تـراجيـع صـوت الثغـر يُقْـرَع بـالثغـر
ولمــا دعــوتُ الصبــرَ بعــدك والبكــا ... أجـاب البكـا طـوعـاً ولـم يُجِـب الصبـر

وقال عبد الله بن صالح: كان الليث بنُ سعد إذا أراد الجماع خلا في منزلٍ في داره ودعا بثوبٍ يقال له: الهركان، وكان يَلْبسُه إذ ذاك، وكان إذا خلا في ذلك المنزلِ عُلِم أنه يريد أمراً، وكان إذا غَشِيَ أهله قال: اللهمّ شُدّ لي أصلَه، وارفع لي صدره، وسهّل عليّ مدخله ومخرجه، وارزقني لذّته، وهب لي ذرِّيَّةً صالحةً تقاتل في سبيلك. قال: وكان جَهْوَرِيًّا فكان يُسْمع ذلك منه (رضي الله عنه).

وقال الخرائطي: حدَّثنا عمارة بن وثيمة قال: حدَّثني أَبي قال: كان عبد الله بن ربيعة من خيار قريش صلاحاً وعفّة، وكان ذَكرُه لا يَرقُد فلم يكن يشهد لقريشٍ خيراً ولا شرًّا، وكان يتزوّج المرأة فلا تمكث معه إلاّ أياماً حتى تهرب إلى أَهلها، فقالت زينب بنت عمر بن أَبي سلمة: ما لهنَّ يهربنَ من ابن عمهن؟ قيل لها: إنهنَّ لا يُطِقْنَهُ، قالت: فما يمنعه مني؟ فأنا والله العظيمةُ الخلق، الكبيرة العجز، الفَخْمَةُ الفَرْج، قال: فتزوّجها، فصبرت عليه، وولدت له ستة من الولد.

وقال رشيدُ بن سعد، عن زهرة بن معبدٍ، عن محمد بن المنكدر أنه كان يدعو في صلاته: اللهمَّ قوِّ لي ذَكَري فإن فيه صلاحاً لأهلي. وقال حماد بن زيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سِيرين قال: كان لأنَس بن مالك غلامٌ وكان شيخاً كبيراً، فرافعته امرأَته إلى أَنَسٍ وقالت: لا أُطِيقه، ففرض له عليها ستةً في اليوم والليلة.

وقال عليّ بنُ عاصم: حدَّثنا خالدُ الحَذَّاء قال: لما خلق الله آدم وخلق حوّاء قال له: يا آدم اسكن إلى زوجك، فقالت له حوّاء: يا آدم ما أَطيبَ هذا! زدنا منه. وفي الصحيح أن سليمان بن داود عليهما السلام طاف في ليلةٍ واحدة عَلَى تسعين امرأة. وفي

---

(١) المثاني من الأوتار: الذي بعد الأول. الترجيع: تردد الصوت في قراءة أو أذان أو غناء أو رمز أو غير ذلك مما يترنم به.

الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يطوف عَلَى نسائه في الليلة الواحدة وهنَّ تسع نسْوَةٍ، وربما كان يطوف عليهنَّ بغسلٍ واحد، وربما كان يغتسل عند كل واحدةٍ منهنَّ.

وقال المَرُّوذِيُّ: قال أبو عبد الله ـ يعني أحمدَ بن حنبل ـ ليس العُزُوبة من أمر الإسلام في شيء، النبيُّ ﷺ تزوّج أربعَ عشرةَ ومات عن تسع، ولو تزوَّج بشرُ بن الحارث لَتَمَّ أمره، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزوٌ ولا حَجٌّ ولا كذا ولا كذا، وقد كان النبي ﷺ يصبح وما عندهم شيء، ومات عن تسع، وكان يختار النكاح ويَحُثُّ عليه، ونهى عن التَّبَتُّل[1]، فمن رغب عن سنة النبي ﷺ فهو عَلَى غير الحق، ويعقوب في حزنه قد تزوّج ووُلد له، والنبي ﷺ قال: «حُبِّبَ إِلَيّ النِّسَاءُ». قلت له: فإن إبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال: لَروعةُ صاحب العيال فما قدرت أن أُتمّ الحديث[2] حتى صاح بي وقال: وقعت في بُنَيّات[3] الطريق، انظر ما كان عليه محمدٌ ﷺ وأَصحابه ثم قال: بكاء الصبيّ بين يدي أبيه يطلب منه الخبز أَفضل من كذا وكذا. أين يَلحق المتعبّدُ العَزَبُ؟ انتهى كلامه.

وقد اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج مجامعةُ امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك، فإنه حقٌّ له فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه؛ بمنزلة من استأْجر داراً إن شاء سكنها، وإن شاء تركها.

وهذا من أضعف الأقوال، والقرآن والسنَّةُ والعُرْفُ والقياس يرُدُّهُ. أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الّذِي عَلَيْهِنّ بِالمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فأخبر أَن للمرأة من الحق مثلَ الذي عليها، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها، فهو حقٌّ على الزوج بنصِّ القرآن، وأَيضاً فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضدّ المعروف أَن يكون عنده شابَّةٌ شهوتُها تَعْدِلُ شهوةَ الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ولا يذيقُها لذَّةَ الوطء مَرَّةً واحدةً. ومن زعمَ أَن هذا من المعروف كفاه طبعُه رَدًّا عليه. والله سبحانه وتعالى إنما أَباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره، فقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقالت طائفةٌ: يجب عليه وَطْؤُها في العُمْر مرّةً واحدةً ليستقرّ لها بذلك الصَّداق. وهذا من جنس القول الأوّل، وهذا باطلٌ من وجهٍ آخر، فإن المقصود إنما هو المعاشرةُ

---

(١) التبتل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله، والتفرغ للعبادة، وترك النكاح. ومنه قوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾.

(٢) تتمته كما في الإحياء: أفضل من جميع ما أنا فيه.

(٣) بنية الطريق: طريق صغير يتشعب من الجادة.

بالمعروف، والصَّداقُ دخل في العَقْد تعظيماً لحُرْمته وفرقاً بينه وبين السفاح[١]. فوجوب المقصود بالنكاح أَقوى من وجوب الصَّداق.

وقالت طائفة ثالثةٌ: يجب عليه أَن يَطَأَها في كلِّ أَربعة أشهر مرَّة، واحتجُّوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أَباح للمُولِي تَرَبُّصَ أَربعة أشهر وخيَّر المرأة بعد ذلك، إن شاءَت أَن تقيم عنده، وإن شاءَت أَن تفارقه. فلو كان لها حقٌّ في الوَطْءِ أَكثر من ذلك لم يجعل للزّوج تركَه في تلك المدّة، وهذا القول وإن كان أَقْرَبَ من القولين اللّذَيْن قبلَه فليس أَيضاً بصحيح فإنه غير المعروف الذي لها وعليها. وأَما جَعْلُ مُدّة الإيلاء أَربعة أَشهرٍ فنظراً منه سبحانه للأزواجِ فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطْءِ امرأَته مُدّةً لعارضٍ من سفرٍ أَو تأْديب أَو راحة نفس أَو اشتغال بمهم، فجعل الله سبحانه وتعالى له أَجلاً أَربعة أَشهر. ولا يلزم من ذلك أَن يكون الْوَطْءُ مؤقّتاً في كل أَربعة أَشهر مرّة.

وقالت طائفة أُخرى: بل يجب عليه أَن يَطَأَها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودُها، وقد أَمر اللهُ سبحانه وتعالى أَن يعاشرها بالمعروف. فالْوَطْ داخلٌ في هذه المعاشرة ولا بدَّ، قالوا: وعليه أَن يُشبعها وَطْئاً إذا أَمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتاً. وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجِّح هذا القول ويختاره.

وقد حَضّ النبي ﷺ على استعمال هذا الدواء ورغَّب فيه وعلّق عليه الأجر وجعله صدقةً لفاعله فقال: «**وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»[٢] ومن تراجم النَّسائي على هذا: الترغيب في المباضعة، ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذّة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهابُ أَفكارها الرديئة عنها، وخفّةُ الرُّوح، وذهابُ كثافتها وغِلَظها، وخفّة الجسم، واعتدالُ المزاج، وجلبُ الصِّحة ودفع الموادّ الرديئة، فإن صادف ذلك وجهاً حسناً، وخُلُقاً دَمِثاً[٣]، وعشقاً وافراً، ورغبةً تامةً، واحتساباً للثواب، فذلك اللذّة التي لا يعادلها شيءٌ، ولا سيما إذا وافقت كمالها فإنها لا تكمُل حتى يأْخذَ كلُّ جزءٍ من البدن بقِسْطه من اللذّة، فتلتذّ العين بالنظر إلى المحبوب، والأُذُن بسماع كلامه، والأنفُ بشم رائحته، والفم بتقبيله، واليد بلمسه. وتعتكف كلُّ جارحةٍ على ما تطلبه من لذّتها، وتقابله من المحبوب؛ فإن فقد من ذلك شيءٌ لم تزل

(١) السفاح: الفجور. وقيل (تزوج المرأة سفاحاً) أي بغير سنة ولا كتاب.

(٢) تقدم مطولاً. وجاء في القاموس المحيط أن البضع بالضم الجماع أو الفرج نفسه، والمهر، والطلاق، وعقد النكاح ضد، والمباضعة: المجامعة.

(٣) دمث دمثاً: لان وسهل، ودمثت المرأة دماثة: سهل خلقها.

النفسُ متطلِّعةً إليه، متقاضيةً له، فلا تسكُن كل السكون، ولذلك تسمَّى المرأة سَكَناً لسكون النفس إليها، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. ولذلك فضّل جماعُ النهارَ على جماع الليل، ولسببٍ آخرَ طبيعي، وهو أن الليلَ وقتٌ تبرُد فيه الحواسّ وتطلب حظها من السكون، والنهار محلّ انتشار الحركات كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ [الفرقان: ٤٧]. وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]. وتمامُ النعمة في ذلك فرحةُ المحب برضاء ربه تعالى بذلك، واحتسابُ هذه اللذة عنده، ورجاءُ تثقيل ميزانه، ولذلك كان أَحبّ شيءٍ إلى الشيطان أن يفرّق بن الرجل وبين حبيبه، ليتوصل إلى تعويض كلٍّ منهما عن صاحبه بالحرام، كما في السنن عنه ﷺ: «**أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ تعالى الطَّلَاقُ**»[1]. وفي صحيح مسلم من حديث جابرٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبُثُّ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ فَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى زَنَى فَيَقُولُ يَتُوبُ فَيَقُولُ الآخَرُ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ فَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ. نِعْمَ أَنْتَ**»[2] فهذا الوصال لما كان أَحب شيءٍ إلى الله ورسوله كان أَبغض شيءٍ إلى عدوّ الله، فهو يسعى في التفريق بين المتحابين في الله المحبة التي يحبها الله، ويؤلف بين الاثنين في المحبة التي يبغضها الله ويَسخَطها. وأَكثرُ العُشاق من جنده وعسكره، ويرتقي بهم الحال حتى يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحشَ، ويؤلّف بينهم عليها كما قيل:

عجبت من إبليس في نَخْوَتِهْ ... وقبح ما أَظهر من سيرتهْ
تاه على آدم في سجدةٍ ... وصار قوّاداً لذرِّيتهْ[3]

وقد أَرشد النبي ﷺ الشبابَ الذين هم مَظِنَّة العشق إلى أنفع أَدويتهم. ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فليَتَزَوّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ**».

وفي لفظٍ آخر ذكره أبو عبيد: حدّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ**». وذكر الحديث،

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٣، وابن ماجة في الطلاق باب ١.
(٢) أخرجه مسلم في المنافقين حديث ٦٦ و ٦٧ و ٦٨. وأحمد في المسند (٣/ ٣١٤، ٣٣٢، ٣٥٤، ٣٦٦، ٣٨٤).
(٣) البيتان لأبي نواس.

وبين اللفظين فرقٌ فإن الأوّل يقتضي أمر العَزَب بالتزويج، والثاني يقتضي أمر المتزوِّج بالباءة، والباءة: اسمٌ من أسماء الوَطء. وقوله: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوّج**» فُسِّرت الباءة بالوَطء وفسرت بموَن النكاح، ولا ينافي التفسيرَ الأوّل إذِ المعنى عَلى هذا مُؤَنُ الباءة ثم قال: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لهُ وِجَاءٌ» فأَرشدهم إلى الدواء الشافي الذي وضع لهذا الأمر، ثم نقله عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجاري الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته، فكميَّةُ الغذاء وكيفيتُه يزيدان في توليدها، والصومُ يضيق عليها ذلك فيَصير بمنزلة وِجَاء الفَحْل[1]، وقلَّ من أَدْمَنَ الصوم إلا وماتت شهوته أو ضَعُفت جدًّا، والصوم المشروع يُعَدِّلها. واعتدالُها حسنةٌ بين سيئتين، ووَسَطٌ بين طَرَفين مذمومين، وهما العُنَّة[2] والغُلْمَة الشديدة المُفرطة، وكلاهما خارجٌ عن الاعتدال وكلا طَرَفَيْ قصد الأمور ذميم، وخير الأمور أوساطها، والأخلاقُ الفاضلة كلها وسط بين طَرَفَيْ إفراطٍ وتفريط، وكذلك الدين المستقيم وَسَطٌ بين انحرافين، وكذلك السنَّة وَسَطٌ بين بِدْعتين، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أَن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدَيْن، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة، فإنا لم نقصد له وبالله التوفيق.

---

(١) وجاء الفحل: دق عروق خصيتيه بين حجرين ولم يخرجهما، أو رضهما حتى تنفضخا فيكون شبيهاً بالخصاء.

(٢) العنة: عدم القدرة على إتيان النساء. والغلمة: غلبة الشهوة.

في ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه على كل حال

اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمالُ الباطنُ هو محلّ نظر الله من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح: «**إنّ الله لاَ يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم وأَعْمَالِكُمْ**»[1]. وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذاتَ جمالٍ، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتسب رُوحه من تلك الصفات، فإن المؤمِنَ يُعْطَى مهابةً وحلاوةً بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أَمر مشهود بالعِيان، فإنك ترى الرجلَ الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورةً وإن كان أَسودَ أو غيرَ جميل، ولا سيما إذا رُزِق حظًّا من صلاة الليل فإنها تنوّر الوجه وتحسُّنه.

وقد كان بعضُ النساء تكثر صلاة الليل، فقيل لها في ذلك، فقالت: إنها تحسّن الوجه وأَنا أحبّ أن يحسنَ وجهي. ومما يدُلُّ عَلَى أن الجمال الباطنَ أَحسنُ من الظاهر أن القلوب لا تنفكّ عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه.

فصل: وأما الجمال الظاهر فزينةٌ خَصَّ الله بها بعضَ الصُّوَر عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ في الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفطورةٌ على استحسانه.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أَنه قال: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قالوا: يا رسول الله، الرجلُ يحبّ أن تكون نعله حسنةً وثوبه حسناً أَفذلك من الكِبْر؟ فقال: «**لا. إنّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[2] فبطر

(١) أخرجه مسلم في البرّ حديث ٣٣. وابن ماجة في الزهد باب ٩. وأحمد في المسند (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧. وأبو داود في اللباس باب ٢٦. وأحمد في المسند (١/ ٣٨٥، ٤٢٧).

الحقِّ جَحْدُه ودَفعُه بعد معرفته، وغَمْطُ الناس النظرُ إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبُه الجنة.

فصل: وكما أن الجمال الباطن من أعظم نِعَم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمةٌ منه أيضاً على عبده يوجب شكراً، فإن شَكَرَه بتقواه وصيانته ازداد جمالاً على جماله، وإن استعمل جمالَه في معاصيه سبحانه قَلَبَهُ له شيئاً ظاهراً في الدُّنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وَحشةً وقبحاً وشَيْناً، ويَنْفُرُ عنه من رآه، فكلّ من لم يتَّقِ الله عزّ وجلّ في حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يَشِينه به بين الناس، فحسنُ الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبحُ الباطن يعلو جمالَ الظاهر ويستره.

يا حَسَنَ الوجه تَوَق الْخَنَا[1] لا تُبْدِلَنَّ الزَّيْنَ بالشَّيْنِ
ويا قبيحَ الوَجهِ كن محسناً لا تجمعنْ بين قبيحَيْنِ

وكان النبي ﷺ يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جَرِيرُ بنُ عبد الله ـ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُسَمِّيه يوسف هذه الأمة ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أنت امْرُؤٌ قَدْ حَسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ»[2]. وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كلَّ يوم في المرآة، فإن رأى صورتَه حسنةً لم يشِنْهَا بقبيح فعله، وإن رآها قبيحةً لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل.

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس، معظماً في القلوب، لم يبعث الله نبيًّا إلا جميلَ الصورة، حسنَ الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا قال علي بن أَبي طالب كرَّمَ الله وجهه.

وكان النبي ﷺ أجمل خلق الله، وأَحسنهم وجهاً كما قال البرَاء بن عازِبٍ رضي الله عنه وقد سئل: أَكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثلَ القمر[3].

وفي صفته ﷺ: كأنَّ الشمس تجري في وجهه، يقول واصفه: لم أَرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه.

وقال ربيعة الْجُرَشي: قُسِّم الْحُسْن نصفين: فبين سارَّة ويوسف نصفُ الحسن، ونصفُ الحسن بين سائر الناس. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه رأَى يوسف ليلة الإسراء وقد

---

(١) الخنا: الفحش.

(٢) رواه الديلمي كما جاء في منتخب كنز العمال.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٣، والترمذي في المناقب باب ٨.

أُعطي شَطْر الحسن[1] وكان رسول الله ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسنَ الوجه حسنَ الاسم، وكان يقول: «**إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيداً فَلْيَكُنْ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الاسم**»[2].

وقد روى الخرائطي من حديث ابن جُرَيج عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ وَجْهاً حَسَناً واسْماً حَسَناً وخُلقاً حَسَناً وَجَعَلَهُ في مَوْضِعٍ غَيْرَ شَائِنٍ لَهُ فَهُوَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ في خَلْقِهِ**»، وقال وهب: قال داود: يا ربّ أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال: مؤمنٌ حسن الصورة، قال: فأيّ عبادك أبغض إليك؟ قال كافرٌ قبيح الصورة.

ويُذكر عن عائشة رضي الله عنها أَن رسول الله ﷺ كان ينتظره نفرٌ من أَصحابه عَلَى الباب، فجعل ينظر في الماء ويُسَوِّي شعره ولحيتَه، ثم خرج إليهم، فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: «**نَعَمْ إذا خَرَجَ الرَّجُلُ إلى إِخْوَانِهِ فَلْيُهَيِّئْ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»[3] وقال يحيى بن أبي كثْير: دخل رجلٌ عَلى معاوية غمصاً، يعني رمص[4] العينين، فحطّ من عطائه فقال: ما يمنع أحدَكم إذا خرج من منزله أَن يتعاهد أديمَ وجهه؟ وكانت عائشةُ بنتُ طلحة من أجمل أهل زمانها، أو أجملهم، فقال أَنس بن مالك: والله ما رأيت أحسن منك إلا معاويةَ على منبر رسول الله ﷺ، فقالت: والله لأنا أحسنُ من النار في عين المقرور في الليلة القارّة.

ودخل عليها أَنَسٌ يوماً في حاجة فقال: إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك فينظروا إلى جمالك، قالت: أفلا قلت لي فألبَسَ ثيابي؟.

وكان مُصْعَبُ بن الزُّبير من أجمل الناس وكان يحسدُ الناسَ عَلَى الجمال، فبينما هو يخطب يوماً إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزْد، وكان جميلاً، فأعرض بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحيةٍ أُخرى، فدخل ابن حُمْران من تلك الناحية، وكان جميلاً، فرمى ببصره إلى مُؤخَّر المسجد، فدخل الحسن البصرِيّ، وكان من أجمل الناس، فنزل مُصْعَبٌ عن المنبر.

وخرج نِسْوَةٌ يوم العيد ينظرون إلى الناس فقيل لهنّ: من أحسن من مرّ بكنَّ؟ قلن: شيخ عليه عمامةٌ سوداء، يَعْنِينَ الحسن البصري. وأخذ مصعبُ بن الزُّبير رجلاً من

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٥٩، وأحمد في المسند (٣/١٤٨، ٢٨٦).

(٢) رواه البزار، كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.

(٣) تقدمت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث قريباً في هذه الصفحة، أما القصة فإن قول المؤلف في أولها «ويذكر» يدل على الضعف.

(٤) الغمص: ما يسيل من العين من الرمص، والرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في موق العين.

أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه، فقال الرجل: أيها الأمير، ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُسْتضاء به فأتعلقّ بأطرافك وأقول: يا ربِّ سل مُصْعَباً فيمَ قتلني؟ فقال مُصْعَب: أطلقوه. فقال الرَّجُل: أيها الأمير، اجعل ما وهبت لي من حياتي في خَفْضٍ[1] فقال مُصْعَب: أعطوه مائة ألف درهم، فقال: إني أُشهد اللهَ أن لعبد الرحمن[2] بن قيس الرّقَيّات نصفَها، قال مُصْعَب: ولم ذلك؟ قال لقوله:

إنمـــا مصعـــبٌ شهـــابٌ مـــن اللَّـ ـــه تجلَّـــت عـــن وجهـــه الظَّلْمَـــاء

وقال الزُّبَيْر بنُ بَكَّار: حدّثنا مُصْعَب الزُّبيري، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي الحسن قال: خرج أبو حازم يرمي الْجِمَار ومعه قومٌ متعبّدون وهو يكلمهم ويحدّثهم ويقصّ عليهم، فبينما هو يمشي وهم معه إذ نظر إلى فتاة مستترةٍ بخمارها، ترمي الناس بطرفها يَمْنَةً ويَسْرَةً، وقد شَغَلَت الناسَ وهم ينظرون إليها مبهوتين، وقد خَبَط بعضُهم بعضاً في الطريق، فرآها أبو حازم فقال: يا هذه اتَّقِي اللهَ فإنَّك في مَشْعَرٍ[3] من مشاعر الله عظيم، وقد فتنت الناس، فاضربي بخِمَارك على جَيبك فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فأقبلت تضحك من كلامه وقالت: إني والله:

مِـن الـلاّء لـم يَحْجُجْـنَ يَبْغِيـنَ حِسْبَـةً وَلٰكِـن لِيَقْتُلْـنَ الْبَـرِيءَ المُغَفَّـلا[4]

فأقبل أبو حازم على أصحابه وقال: تعالَوا ندعو الله أن لا يعذِّب هذه الصورةَ الحسناء بالنار، فجعل يدعو وأصحابُه يُؤَمِّنُونَ[5].

وقال ضَمْرَة بن ربيعة، عن عبد الله بن شَوْذَب: دخلت امرأة جميلةٌ على الحسن البصري فقالت: يا أبا سعيد، ينبغي للرجال أن يتزوَّجوا على النساء؟ قال: نعم، قالت: وعلى مثلي؟ ثم أسفرت عن وجهٍ لم يُرَ مثلُه حسناً وقالت: يا أبا سعيد، لا تُفتوا الرجال بهذا. ثم ولّت، فقال الحسن: ما عَلى رجلٍ كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا!

---

(١) الخفض: الدعة وسعة العيش.
(٢) كذا.. والذي جاء في الأغاني وغيره أن اسمه عبيد الله.
(٣) المشعر: موضع مناسك الحج؛ والمشعر الحرام: جبل بآخر المزدلفة واسمه قزح.
(٤) البيت للعرجي.
(٥) في الأغاني للأصفهاني قال: بلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء أهل العراق (يريد بهم المتزمتين المتغالين في الورع) لقال لها: اغربي قبحك الله! ولكنه ظرف عباد الحجاز.

وقال عبد الملك بنُ قُرَيْب[1]: كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون: قد جاءت قد جاءت. فتحوَّل الناس فقمت معهم، فإذا جاريةٌ قد وردت الماء، ما رأيت مثلَها قطُّ في حسن وجهها وتمام خَلْقها، فلما رأَت تشوُّف[2] الناس إليها أرسلت بُرْقُعَها فكأنه غمامةٌ غطّت شمساً، فقلت: لم تمنعيننا النظر إلى وجهك هذا الحسن؟ فأنشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلتَ طَرْفك رائداً ... لقلبك يوماً أَتعبتك المناظرُ
رأَيتَ الذي لا كلَّه أَنتَ قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أَنت صابرُ

ونظر إليها أعرابيٌّ فقال: أنا والله ممن قلَّ صبره، ثم قال:

أَوَحْشِيَّةَ العينين أين لك الأهلُ ... أَبِالْحَزْنِ حَلّو أَمْ محلُّهم السَّهْلُ
وأيةُ أَرضٍ أَخرجتكِ فإنني ... أَراك من الفردوس إن فُتِّشَ الأصلُ
ففي خبِّرينا ما طَعِمْتِ وما الذي ... شربت ومِن أَين استقلّ بك الرّحْلُ[3]
لأن علاماتِ الْجِنان مُبِينَةٌ ... عليك وإن الشَّكل يشبهه الشكلُ
تَناهيتِ حسناً في النساء فإن يكن ... لبدر الدُّجى نسْلٌ فأَنتِ له نسلُ

وقال آخر[4]:

يا مُنْسي المحزون أحزانَه ... لما أتته في المعزِّينا
إستقبلتهنَّ بتمثالها ... فقُمْن يضحكن ويبكينا
حَقٌّ لهذا الوجه أَن يَزْدَهي[5] ... عن حُزْنِهِ من كان محزونا

وقال آخر:

أَنيري مكانَ البدر إن أَفَلَ[6] البدرُ ... وقومي مقام الشمس ما استأْخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضَوْؤُها ... وليس لها منك التبسُّم والثغر

وقال آخر:

رقاديَ يا طرفي عليك حرامُ ... فخلٍّ دموعاً فَيْضُهُنَّ سِجَامُ[7]

---

(١) هو الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب).

(٢) تشوف: نظر وتطلع.

(٣) استقل بك الرحل: جاء وقدم.

(٤) هو أبو نواس الحسن بن هانىء، ورواية الأغاني:

يا منسي المأتم أحزانه ... لما أتاهم في المعزينا

(٥) يزدهي: يتيه بحسنه، ويحمل من رآه وكان محزوناً على نسيان حزنه.

(٦) أفل: غاب.

(٧) سجام: سائل بكثرة.

ففي الدّمع إطفاءٌ لنار صبابةٍ لها بين أَحْناء الضلوع ضِرَامُ[1]
ويا كبدي الحرّى[2] التي قد تَصَدَّعَتْ من الوجد ذوبي ما عليك ملام
ويا وجهَ من ذلّت وجوهٌ أعِزَّةٌ له وَزهى عزًّا فليس يُرام
أجِرْ مستجيراً في الهوى باسطاً إليك يديه والعيونُ نِيَام

وذكر الخرائطي عن بعض العَلَويين قال: بينا أنا عند الحسن بن هانىء وهو ينشد:

ويلي عَلَى سود العيون النُّهَّد الضُّمْرِ البطون
النَّاطِقاتِ عن الضمير لنا بأَلْسِنَةِ الْجُفون

فوقف عليه أعرابيٌّ ومعه بُنَيُّه فقال: أَعِدْ عليَّ، فأعاد عليه فقال: يا ابن أخي، ويلك أَنت وحدك من هذا؟ ويلي أَنا وأَنت، وويلُ ابني هذا، وويل هذه الجماعة، وويل جيراننا كلِّهم.

وقال الخرائطي: حدّثنا يموت بن المُزَرَّع، حدّثنا محمد بن حميد، حدّثنا محمد ابن سلمة قال: حدثني أبي قال: أتيت عبدَ العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجنّ للنبي ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها، فوجدته مستلقياً يتغنَّى:

فما روضةٌ بالْحَزْن طيبةُ الثرى يَمُجُّ الندى جَثْجَاثُها وَعَرارُها[3]
بأَطيبَ من أَردانِ عَزَّةَ موْهناً وقد أُوقدت بالمَنْدَل الرَّطْبِ نارُها[4]
من الْخَفِرات البيضِ لم تَلْقَ شقْوَةً وبالحسَب المكنون صافٍ نجارُها[5]
فإن برزت كانت لعينيك قُرَّةً وإن غبتَ عنها لم يَعُمّك عارُها

فقلت له: أتُغني أَصلحك الله وأَنت في جلالك وشرفك؟ فقال: أَما والله لأحملنَّها ركبانَ نجد، قال: فوالله ما اكترث بي وعاد يتغنى:

فما ظبيةٌ أدماء خَفَّاقةُ الْحَشَا تجوب بظِلْفَيْها متونَ الخمائل[6]
بأحسنَ منها إذ تقول تدلّلاً وأَدمُعُها تُذْرِين حشوَ المكاحل

(١) الضرام: لهب النار.
(٢) الحرى: التي يبست من مرض أو حزن.
(٣) الحزن من الأرض: ما غلظ. ويمج الندى يلقيه عنه. والجثجاث: نبات سهلي له زهرة صفراء طيبة الريح. والعرار جمع عرارة: بهار طيب الرائحة.
(٤) المندل: العود الطيب الرائحة.
(٥) الخفرات: جمع خفرة، وهي الشديدة الحياء. والنجار: الأصل والحسب.
(٦) أدماء: شديدة السمرة. والظلف: الظفر المشقوق للظبية والبقرة ونحوهما. والمتون جمع متن: الظهر.

تمتَّعْ بهذا اليومِ القصيرِ فإنه ... رهينٌ بأيام الصدود الأطاول

قال: فندمت عَلَى قولي وقلت له: أَصلحك الله أتحدّثني في هذا بشيء؟ قال: نعم حدَّثني أبي قال: دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم وأَشعب يغنيه:

مغيرِيةٌ كالبدر سُنَّةُ وجهها ... مُطَهَّرَةُ الأثواب والعِرضُ وافرُ

لها حسبٌ زاكٍ وعِرْضٌ مهذّبٌ ... وعن كل مكروه من الأمر زاجرُ

من الْخَفراتِ البيض لم تَلْقَ ريبةً ... ولم يَسْتَمِلها عن تُقى الله شاعرُ

فقال له سالم: زدني، فغناه:

أَلَمَّت بنا والليل داجٍ كأنه ... جَنَاحُ غُرابٍ عنه قد نَفَضَ القَطْرَا

فقلت أعطارٌ ثوى في رحالنا ... وما احتملت ليلى سوى طيبها عِطْرا

فقال له سالم: والله لولا أَن تتداوله الرُّواة لأجزلت جائزتك فإنك من هذا الأمر بمكان.

قال الخرائطي: حدَّثنا العباس بن الفضل، عن بعض أصحابه قال: حججت سنة من السنين فإني لبالرَّبَذَة[1] إذ وقفت علينا جاريةٌ على وجهها بُرْقُعٌ فقالت:

يا معشرَ الحجيج، نَفَرٌ من هُذَيل، ذهب بنَعَمهم السيل، وقعدت بهم الأيام، ما بهم نُجْعَة[2]، فمن يراقبُ فيهم الدار الآخرة ويعرف لهم حق الأخوة جزاه الله خيراً.

قال: فرْضخنا لها، فقلت لها: هل قلت في ذلك شيئاً؟ فأنشأت تقول:

كَفُّ الزمان توسدتنا عَنْوَةً ... شَلَّت أَناملُها عن الأعراب

قومٌ إذا حلَّ العُفَاة[3] ببابهم ... أَلفَوْا نوافلَهم بغير حساب

فقلنا لها: لو أَمتعتينا بالنظر إلى وجهك، فكشفت البُرْقُع عن وجهٍ لا والله لا تهتدي العقول لوصفه، فلما رأَتنا قد بُهِتْنا لحسنها أَنشأت تقول:

الدهرُ أَبدى صفحةً قد صانها ... أبواي قبل تمرس الأيام[4]

فتمتَّعوا بعيونكم في حسنها ... وانْهَوْا جوارحَكم عن الآثام

ثم انصرفت. وكان محمد بن حميد الطوسي يهوى جاريةً فأرسل إليها مرةً أُتْرُجَّةً[5]

---

(١) في معجم ياقوت: الربذة: قرية من قرى المدينة.

(٢) النجعة: طلب الكلأ، ومساقط الغيث، وقصد ذي المعروف لمعروفه.

(٣) العفاة: الذين افتقروا لا يسألون.

(٤) تمرس الأيام: ممارسة نوائبها وفواجعها.

(٥) الأترجة: نوع من الليمون يجلو اللون ويزيل الكلف.

فبكت بكاء شديداً، فقيل لها: يوجه إليك من تحبينه بهديةٍ فتبكين هذا البكاء؟ فغنَّت:

أَهــدى لــه أَحبـابُـه أُتـرُجَّـةً ... فبكـى وأَشفـق مـن عِيـافـة زاجـر[1]
خـاف التلـوُّنَ والفـراقَ لأنهـا ... لـونـان بـاطنُهـا خـلافُ الظـاهـر

فلما جاءه الرسول أَخبره عنها بما أَغاظه، فكتب إليها[2]:

ضيَّعـتِ عهـدَ فتـى لغيبـك حـافـظِ ... فـي حفظـه عجـبٌ وفـي تضييعـكِ
وصـددتِ عنـه ومـا لـه مـن حيلـةٍ ... إلا الـوقـوفُ إلـى أَوان رجـوعـكِ
إن تقتليـه وتـذهبـي بحيـاتـه ... فبحسـن وجهـكِ لا بحسـن صنيعـكِ

فلما وافتها الرّقعةُ بكت حتى رَحمها من حولها ثم اندفعت تقول:

هـل لعينـي إلـى الـرُّقـاد شفيـعُ ... إن قلبـي مـن السقـام مَـرُوع
لا تـرانـي بخلـتُ عنـكَ بـدمـع ... لا وحـقّ الحبيـب مـا لـي دمـوعُ
إن قلبـي إليـكَ صـبٌّ حـزيـنٌ ... فـاستـراحـت إلـى الأنيـن الضلـوع
ليـس فـي العطـف يـا حبيبـي بـدعٌ ... إنمـا هجـر مـن يُحِـبّ بـديـع

ثم كتبت إليه: أنا مملوكة لا أملك من أمري شيئاً، فإذا كان لك فيَّ حاجة فاشترني لأكون طوعَ يديك، فاشتراها فمكثت عنده وكانت من أحظى إمائه، حتى قتل في وقعة بابَك الْخُرَّمي، فكانت تتمثل في رثائه بقول أَبي تمام:

محمـدُ بـنُ حُمَيْـدٍ أخلقـت رِمَمُـهْ ... أُريـقَ مـاءُ المعـالـي مـذ أُريـق دمُـهْ
رأيتُـه بِنِجـاد السيـف مُحْتَبِيـاً[3] ... فـي النـوم بـدراً جلت عـن وجهـه ظُلَمُهْ
فقلـت والـدمـعُ مـن حـزن ومـن كَمَـدِ ... يجـري انسكـابـاً علـى الخـدّيـن مُنْسَجِمُهْ
ألـم تمـت يـا شقيـقَ النفـس مـذ زمـنٍ ... فقـال لـي لـم يَمُـت مـن لـم يمـت كَـرَمُـهْ

فصل: وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ما هي؟ وهذا أمر لا يُدْرَك إلا بالوصف، وقد قيل: إنه تناسُبُ الخلقة واعتدالُها واستواؤها. ورب صورة متناسبةِ الخلقة، وليست في الحسن هناك. وقد قيل: الحسنُ في الوجه والملاحةُ في العينين. وقيل: الحسنُ أمرٌ مركَّبٌ من أشياءَ: وضاءة وصباحة وحسن تشكيل وتخطيط ودموية في البشرة. وقيل: الحسنُ معنى لا تناله العبارة، ولا يحيط به الوصف، وإنما للناس منه

(١) عيافة الطير: زجرها. وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها فتتفاءل أو تتشاءم.
(٢) الشعر لابن أبي عيينة.
(٣) نجاد السيف: حمائله. واحتبى: جلس على أليتيه وضم فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند. ويقال احتبى الثوب: اشتمل به وأداره على ظهره وساقيه.

أوصافٌ أمكن التعبير عنها. وقد كان رسول الله ﷺ في الذروة العُليا منه، ونظرت إليه عائشة رضي الله عنها يوماً ثم تبسَّمت، فسألها مِمَّ ذاك؟ فقالت: كأن أبا كَبِيرِ الهذَليّ إنما عَنَاكَ بقوله:

ومُبَـرَّإٍ مـن كـلِّ غُبَّـرِ حَيْضَـةٍ ... وفسـادِ مُـرْضِعَـةٍ وداءِ مُغْيـلِ[١]
وإذا نظـرتَ إلـى أسِـرَّةِ وجهـه ... بـرَقَـت كبـرق العـارض المتهلـل[٢]

ولقي بعضُ الصحابة راهباً فقال: صف لي محمداً كأني أنظر إليه فإني رأيت صفته في التوراة والإنجيل، فقال: لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، فوق الربعة، أبيض اللون مُشْرَباً بالحمرة جَعْداً ليس بالقَطَطِ، جُمّته إلى شحمة أُذنه، صَلْت الجبين، واضحَ الْخَدّ، أدعَج العينين، أقنى الأنف، مفلج الثنايا، كأن عنقه إبريق فضّة، ووجهه كدارة القمر فأَسلم الراهب[٣]. وفي صفة هند بن أبي هالة له ﷺ: لم يكن بالطويل المُمَغَّط، ولا بالقصير المتردّد. كان رَبْعَةً من الرجال، ولم يكن بالْجَعْد القَطَط ولا بالسَّبط، ولم يكن بالمُطَّهم ولا بالمُكَلْثَم، وكان في الوجه تدوير، أبيض مُشْرَب أَدْعَجُ العينين، أَهْدَبُ الأشفار، جليل المُشَاش والكَتَد، شَثْنُ الكفين والقدمين، دقيق المَسْرُبَة، إذا مشى تَقَلع كأنما ينحطّ من صَبَب، وإذا التفت التفت جميعاً. كأن الشمس تجري في وجهه. وكان ﷺ مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبة والمهابة، فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه[٤] وكمل الله سبحانه مراتبَ الجمال ظاهراً وباطناً. وكان أحسنَ خلق الله خَلْقاً وخُلُقاً، وأجملَهم

---

(١) غبّر الحيض: بقايا دمه، وأضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد الذي يكون من قبلها. والمغيل من الغيل: وهو اللبن الذي ترضعه المرأة ولدها وهي حامل. ويروى: وداء معضل، قاله التبريزي في شرح الحماسة. والحديث في الحلية لأبي نعيم.

(٢) الأسرة جمع سرار: وهي خطوط الجبهة، والعارض: السحاب يعترض في الأفق، والمتهلل: المتلألىء.

(٣) البائن: المفرط في الطول. والقطط: القصير الجعد وكان شعره عليه الصلاة والسلام بين الجعودة والسبوطة كما سيأتي بعد هذا. والجمة: الشعر المجموع على الرأس، وقيل الشعر مطلقاً. والصلت: الواسع. والأدعج: الشديد سواد العين في شدة بياضها. والقنا: طول الأنف ودقة أرنبته وحدب في وسطه. والفلج: تباعد ما بين الثنايا والرباعيات خلقة. ودارة القمر: هالته. والحديث مذكور بنحوه في منتخب كنز العمال وقال: رواه ابن عساكر.

(٤) الحديث رواه الترمذي في الشمائل على غير هذا الوجه. الممغط: المفرط الطول. والمتردد: الداخل بعضه في بعض، وأما المطهم (أي الضخم): الكثير اللحم، والمكلثم: المدور الوجه، والمشرب: الذي في بياضه حمرة، والأهدب: الطويل الأشفار، المشاش: يريد رؤوس المناكب، والكتد: مجتمع الكتفين وهو الكامل. والشثن: الغليظ الأصابع. والمسربة: هو الشعرالدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة، والتقلع: أن يمشي بقوة، والصبب: الحدور.

صورةً ومعنًى. وهكذا كان يوسف الصدّيق ﷺ. ولهذا قالت امرأةُ العزيز للنِّسوة لما أرَتْهنَّ إياه ليَعْذُرْنَها في محبته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] أي هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومني عَلَى محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي فمنع هذا الجمال، فباطنه أحسن من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحبُّ وإن غيَّب محبوبَه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه. ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ [الدهر: ١١] فجمَّل ظواهرَهم بالنضرة وبواطنَهم بالسرور، ومثله قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فإنه لا شيء أشهى إليهم وأقرّ لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه، فنضَّر وجوهَهم بالحسن، ونعَّم قلوبَهم بالنظر إليه. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الدهر: ٢١] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الدهر: ٢١] أي مُطَّهِّراً لبواطنهم من كلّ أذًى. فهذا زينة الباطن. ويشبهه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قد أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينة الباطن. وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً﴾ [فصلت: ١٢] فزين ظاهرَها بالمصابيح، وباطنَها بحفظها من الشياطين. وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن. وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة. ومنه قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعُرْي دون الجوع والظمإ، وبين الظمإ والضَّحى دون الظمإ والجوع، فإن الجوع عُرْيُ الباطن وذُلُّه، والعُرْيُ جوعُ الظاهر وذُلُّه. فقابل بين نفي ذلّ باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأُ حَرُّ الباطن، والضَّحى حَرُّ الظاهر. فقابل بينهما. وسئل المتنبي عن قول امرىء القيس:

كأنِّيَ لَمْ أرْكَبْ جواداً للذّةٍ ولم أتَبَطَّنْ كاعِباً ذات خَلْخَال
ولم أسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أقل لخيليَ كُرِّي كَرَّةً بعد إجفال[1]

فقيل له: إنه عيب مقابلةُ سَبْي الزّقّ الرّوِي بالكرّ، وكان الأحسن مقابلته بتبطُّن الكاعب بين اللذّتين، وكذلك مقابلةُ ركوب الجواد للكرّ أحسن من مقابلته لتبطُّن الكاعب فقال: بل الذي أتى به أحسن فإنه قابل مركوبَ الشجاعة بمركوب اللذّة واللهو،

---

(١) سبأ الخمر واستباها: شراها ليشربها والسباء: الخمر، والسباء بتشديد الباء: بياعها. والروي: الكثير المروي، والزق: وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف بالشراب وغيره.

فهذا مركب الطرب وهذا مركب الحرب والطلب، وكذلك قابل بين السِّباءين، سِباء الزِّق وسِباء الرق.

قلت: وأيضاً فإن الشارب يفتخر بالشجاعة كما قال حسان:

ونشـــربهـــا فتتـــركنـــا ملـــوكـــاً   وأُســـداً مـــا يُنَهْنِهُنَـــا اللقـــاءُ[1]

وهذه جملةٌ اعتراضية من ألطف الاعتراض[2].

وقيل: الحسنُ ما استنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل كما قيل:

ذي طلعـــةٍ سبحـــان فـــالِـــق صبحـــه   ومعـــاطـــفِ جلّـــت يميـــنُ الغـــارس

وقال علي بن الجهم:

طلعـــتْ فقـــال النـــاظـــرون إلـــى   تصـــويـــرهـــا مـــا أعظـــم اللهَ
ودنـــت فلمـــا سلّمـــتْ خجلـــت   والتـــفَّ بـــالتفـــاح خـــداهـــا
وكـــأن دِعـــصَ الـــرمـــل[3] أسفلُهـــا   وكـــأن غصـــنَ البـــان أَعـــلاهـــا
حتـــى إذا ثمِلَـــت بنشـــوَتهـــا   قـــرأت كتـــاب البـــاه عينـــاهـــا

وقال آخر:

ذو صـــورةٍ بَشَـــرِيَّـــة قَمَـــرِيَّـــة   تستنطـــق الأفـــواه بـــالتسبيـــح

وقال آخر:

وإذا بـــدت فـــي بعـــض حـــاجتهـــا   تستنطـــق الأفـــواه بـــالتسبيـــح

وقال بشار:

تُلْقَـى بتسبيحـةٍ مـن حسـن مـا خُلقـت   وتستفـزّ حشـا الـرائـي بـإرعـاد

ولي من أبيات:

يـــا صـــورةَ البـــدر ولا الـــذي   صَـــوَّر ليـــس البـــدرُ يحكيـــكِ
مُنّـــي عَلـــى العيـــن ولا تبخلـــي   بنظـــرةٍ فـــالعيـــن تَفْـــديـــكِ
وإن تحـــرَّجـــتِ لهـــذا فكـــم   قـــد سبـــح الـــرحمـــنَ رائيـــكِ

---

(١) نهنه فلاناً عن الشيء: كفه عنه وزجره. وهذا البيت قاله حسان قبل أن يسلم، ولم يشرب الخمر بعد إسلامه.

(٢) لعله يشير إلى أن ما ذكره من أن أمثلة التقابل ليست من مقصود الكتاب لكنها لا تخلو من فائدة يحلو بها الخطاب.

(٣) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة.

هــذا بهــذا فــارتجــي أَجْــرَ مَــن إن غبــتِ عنـــه ظـــلّ يبكيـــكِ

قال ابن شُبْرُمَة: كفاك من الحسن أنه مشتقٌّ من الحسنة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تمَّ حسنها. وقالت عائشة رضي الله عنها: البياضُ شَطْر الحسن. وقال بعض السلَف: جعل الله البهاءَ والهَوَجَ مع الطول، والدَّهاءَ والدَّمامةَ مع القِصَر، والخيرَ فيما بين ذلك.

ومما يُذَمُّ في النساء المرأةُ القصيرة الغليظة وهي التي عناها الشاعر بقوله:

وأَنـــتِ التـــي حببـــتِ كـــلّ قصيـــرةٍ إلـــيّ ولـــم تَشْعُـــرْ بـــذاك القصـــائـــر
عَنَيْـــتُ قصيـــراتِ الحجـــال[١] ولـــم أُرِدْ قِصَـــارَ النِّسَـــا شـــرُّ النســـاء البَحَـــاتـــر

والبحاتر: هن النساء القصار الغلاظ. وبعضهم يبالغ في هذا حتى يفضل المهازيل عَلَى السِّمان.

أنشد الزمخشري:

لا أَعشــق الأبيــض المنفــوخَ مــن سِمَــنٍ لكننـــي أَعشـــق السُّمْـــر المَهَـــازيـــلاَ
إنــي امْــرُؤٌ أَركــب المُهْــرَ المضمَّــر فــي يــومِ الــرّهــان فــدعنــي واركــب الفيــلا

وطائفة تفضل السِّمان وتقول: السِّمَنُ نصفُ الحسن، وهو يستر كلَّ عيب في المرأة ويبدي محاسنها. وخيار الأمور أوساطها.

ومما يُستحسن في المرأة طولُ أربعةٍ وهنَّ: أَطرافها[٢]، وقامتها، وشعرها، وعنقها. وقِصَرُ أربعةٍ: يدها، ورجلها، ولسانها، وعينها[٣]، فلا تبذل ما في بيت زوجها، ولا تخرج من بيتها، ولا تستطيل بلسانها، ولا تَطْمَح بعينها. وبياض أَربعةٍ: لونها، وفرقها، وثغرها، وبياض عينها. وسوادُ أَربعةٍ: أهدابها، وحاجبها، وعينها، وشعرها. وحمرة أربعةٍ: لسانها، وخدّها، وشفتها مع لَعَس[٤]، وإشرابُ بياضها بحمرة. ودقّة أربعةٍ: أنفها، وبنانها، وخصرها، وحاجبها. وغِلَظُ أَربعةٍ: ساقها، ومِعْصَمُها، وعَجيزَتها، وذاك منها. وسَعَة أربعةٍ: جبينها، ووجهها، وعينها، وصدرها. وضيقُ أربعة: فمها، ومنخرها، وخَرْقُ أُذنها، وذاك منها. فهذه أحقُّ النساء بقول كُثَيِّر:

لــو أن عَــزّةَ خــاصمــت شمــس الضُّحى فــي الحســن عنــد مُــوَفَّــقٍ لقضــى لهــا

(١) الحجال جمع حجل: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس.
(٢) الأطراف هنا: اليدان والرجلان.
(٣) لعله أراد بها المعاني لا الأعيان فلهذا أعقبها بتفسير وبيان.
(٤) اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة.

وقال آخر:

لــو أبصــرَ الــوجــهَ وهــو منهــزمٌ ... ليــلاً وأعــداؤه مــن خلفــه وقفــا

وقال خر:

يــا طيــبَ مَــرْعًــى مُقلــةٍ لــم تخــفْ ... بــوجنتيهــا زَجْــرَ حُــرّاس

حلّــت بــوجــهٍ لــم يَغِــضْ مــاؤه ... ولــم تَخُضْــه أعيــنُ النــاس[١]

وقال آخر:

فلــم يــزل خــدُّهــا رُكنــاً ألــوذ بــه ... والخــالُ فــي خــدّهــا يغنــي عــن الحجــر

وقول الآخر وأنشده المبرِّد:

وأحســنُ مــن ربــع ومــن وصــف دِمْنَــةٍ ... ومن جَبَلَيْ طيٍّ ومن وصفكم سَلْعا[٢]

تَــلَاحُــظُ عينَــيْ عــاشقيــن كــلاهمــا ... لــه مُقلــةٌ فــي خــد معشــوقــه تَــرْعَــى

وأنشد ثعلب:

خُــزاعيــة الأطــراف مُــريّــة الحشــا ... فَــزَاريــة العينيــن طــائيــة الفــم

ومكِّيَــةٌ فــي الطيــب والعِطْــرِ دائمــاً ... تبــدّت لنــا بيــن الحَطِيــم وزَمْــزَمِ

ثم قال: وصفها بما يستحسن من كل قبيلة.

وقال صالح بن حسان يوماً لأصحابه: هل تعرفون بيتاً من الغزَل في امرأة خَفِرة؟ قلنا: نعم بيتٌ لحاتم في زوجته ماويّة:

يضــيء لهــا البيــتُ الظليــل خصــاصــه[٣] ... إذا هــي يــومــاً حــاولــت أن تبسّمــا

قال: ما صنعتم شيئاً، قلنا: فبيتُ الأعشى:

كــأن مِشيتَهــا مــن بيــت جــارتهــا ... مَــرُّ السحــابــة لا رَيْــثٌ ولا عَجَــل

قال: جعلها تدخل وتخرج، قلنا: يا أبا محمد، فأيّ بيت هو؟ قال: قول أبي قيس ابن الأسْلَت:

ويكــرمهــا جــاراتُهــا فيَــزُرْنَهــا ... وتَعْتــل عــن إتيــانهــنّ فتُعْــذَر

قلت: وأحسن من هذا كله ما قاله إبراهيم بن محمد الملقَّب بنِفْطَوَيْه رحمه الله:

وخبــرهــا الــواشــون أن خيــالهــا ... إذا نمــتُ يَغْشَــى مضجعــي ووســادي

---

(١) لم يغض ماؤه: لم ينضب. وغاض الماء: غار وقل ونقص. ولم تخضه الأعين: لم تقتحمه.

(٢) الدمنة: آثار الدار أو الناس. وسلع: جبل في المدينة.

(٣) الخصاص جمع خصاصة: وهي الخرق أو الفرجة والخلل في الباب وغيره.

فخفـرهـا فـرطُ الحيـاء فـأرسلـت تعيـرنـي غَضْبـى بطـول رقـادي

ومما يستحسن في المرأة رقةُ أديمها[1]، ونعومة مَلْمَسه كما قال قيس بن ذَريح:

تعلّـق رُوحـي رُوحهـا قبـل خلقنـا ومـن بعـد مـا كنـا نِطـافـاً[2] وفـي المهـد

فـزاد كمـا زدنـا فـأصبـح نـاميـاً فليـس وإن متنـا بمُنْفَصـم العهـد

ولٰكنّـه بـاقٍ عَلَـى كـل حـادثٍ ومـؤْنسُنـا فـي ظلمـة القبـر واللحـد

يكـاد مسيـلُ المـاء يَخْـدِش جلـدهـا إذا اغتسلـت بـالمـاء مـن رقـة الجلـد

قلت: ومن المبالغة في معنى البيت الأخير قولُ أبي نُوَاس:

تَـوَهَّمَـهُ قَلْبـي فـأَصْبَـحَ خَـدُّه وفيـه مكـانُ الـوَهْـم مـن نظـري أثَـرُ

ومَـرَّ بِقَلْبـي خـاطـرٌ فجـرحتُـهُ ولـم أرَ جِسْمـاً قَـط يجْـرحـه الفكـر

وصـافحـه كفِّـي فـآلَـمَ كفَّـه فمـن غمـز كفِّـي فـي أنـاملـه عقـر[3]

ولي من أبيات:

يُـدمـي الحـريـرُ أَديمَهَـا مِـن مَسّـه فـأَديمُهَـا منـه أرقُ وأَنعـم

فصل: فيا أيها العاشق سمعهُ قبل طَرْفه فإن الأُذن تعشق قبل العين أحياناً، وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر. والمؤمنون يشتاقون إلى الجنة وما رأوْها، ولو رأَوْها لكانوا أشدَّ لها شوقاً، والصَّرُورَةُ[4] يكاد قلبهُ يذوب شوقاً إلى رؤية البيت الحرام. فإن شاقتك هذه الصفات وأخذت بقلبك هذه المحاسن:

فـاسْـمُ بعينيـك إلـى نِسْـوَةٍ مُهُـورُهُـنَّ العمـل الصـالـح

وحَـدِّث النفـسَ بعشـق الأُلـى فـي عشقهـنّ المَتْجَـرُ الـرابـح

واعمـلْ عَلَـى الـوصـل فقـد أمكنـت أسبـابُـهُ ووقتهـا رائـح

فصل: وقد وصف الله سبحانه حُورَ الجنة بأحسن الصفات، وحلَّاهن بأحسن الْحِلَى، وشوّق الْخُطّاب إليهنَّ حتى كأنهم يرونهنّ رؤيةَ العين. قال الطبراني: حدّثنا بكر ابن سهل الدمياطي، حدّثنا عمرو بن هشام البيروتي، حدثنا سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أُمّ سَلَمَة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] قال: «حُورٌ بيضٌ، عِينٌ

---

(١) أديمها: جلدها.

(٢) جمع نطفة: ماء الرجل والمرأة. وهي أيضاً الماء الصافي قل أو كثر.

(٣) عقر: جرح.

(٤) الصرورة: الذي لم يحج.

ضِخَامُ ٱلْعُيُون. شعر الْحَوْرَاءِ بِمَنْزِلَةِ جَنَاحِ النَّسْرِ» قلت: أخبرني عن قوله عزَّ وجلّ ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]. قال: «صفاؤهنَّ صفاء الدُّرّ الذي في الأصداف الذي لم تَمَسَّه الأيدي» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]. قال: «خَيراتُ الأخلاق حِسَانُ الوجوه» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كأنهنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]. قال: «رِقَّتُهُنَّ كرِقَّة الجلد الذي رأيتِ في داخل البيضة ممَّا يَلي القِشْرَ وهو الغِرْقىءُ». قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾ [الواقعة: ٢٧]. قال: «هُنَّ اللواتي قُبِضن في دار الدُّنيا عجائزَ رُمْصاً شُمْطاً خلقهن اللهُ بعد الكِبَرِ فجعلهنَّ عذَارَى عُرُباً متعشِّقَاتٍ متحبِّبَاتٍ أَتراباً على ميلاد واحد». قلت: يا رسول الله نساءُ الدُّنيا أفضل أم الحور العِين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضلُ من الْحُور العين كفضل الظهارة عَلَى البطانة». قلت: يا رسول الله وبمَ ذلك؟ قال: «بصلاتهنَّ وصيامهنَّ وعبادتهنَّ الله أَلبس الله وجوهَهنّ النور، وأجسادَهُن الحرير، بيضُ الألوان، خُضْر الثياب، صُفْر الحلي، مَجَامِرُهُنَّ الدرّ، وأمشاطهنَّ الذهب يَقلن: نحن الخالدات فلا نموت، نحن الناعمات فلا نَبْأَسُ أبداً، نحن المقيمات فلا نَظْعن أبداً، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، طُوبى لمن كنّا له وكان لنا». قلت: يا رسول الله المرأةُ منَّا تتزوَّج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، مَن يكون زوجهَا؟ قال: «يا أُمّ سَلَمة إنها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خُلُقاً فتقول: أي ربّ إن هذا كان أحسنَهم معي خُلُقاً في دار الدُّنيا فزوِّجنيهِ، يا أُمَّ سَلَمَة ذهب حسن الخُلُقُ بخيري الدنيا والآخرة»[١].

فصل: وقد وصفهنَّ الله عزَّ وجلَّ بأنهنَّ كواعب، وهو جمع كاعِبٍ، وهي المرأة التي قد تكعَّب ثديُها واستدار ولم يَتَدَلَّ إلى أسفل، وهذا من أحسن خَلْق النساء، وهو ملازمٌ لِسِنِّ الشباب. ووصفهنَّ بالْحُور وهو حسن ألوانهنَّ وبياضُه، قالت عائشة رضي الله عنها: البياضُ نصف الحسن. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا تمَّ بياضُ المرأة في حسن شعرها فقد تمَّ حسنها، والعرب تمدح المرأة بالبياض. قال الشاعر:

بِيــضٌ أَوانــس مــا هممــن بــريبــةٍ ... كظبــاءِ مكــة صَيْــدهــنَّ حــرامُ
يُحْسَبْــنَ مــن ليــن الحــديــث زوانيــاً ... ويَصُــدُّهُــنَّ عــن الْخَنَــا الإســلامُ

والعِينُ جمعُ عَيْنَاءٍ وهي المرأةُ الواسعة العَيْن مع شدَّة سوادها وصفاء بياضها وطولِ

(١) ذكره المؤلف في كتابه حادي الأرواح وعقب عليه بقوله: تفرد به سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً، ثم ساق هذا الحديث من طريقه وقال: لا يعرف إلا بهذا السند.

أهدابها وسوادها. ووصفهنَّ بأنهنّ خَيْرَاتٌ حسان وهو جمع خَيْرة، وأصلها خيِّرة بالتشديد كطَيِّبَة ثم خُفّف الحرف، وهي التي قد جَمَعَت المحاسن ظاهراً وباطناً فكَمُلَ خَلْقها فهنَّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه. ووصفهنَّ بالطَّهارة، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] طَهُرْنَ من الحيض والبول والنَّجْو[١] وكلِّ أذًى يكون في نساء الدُّنيا، طَهُرت بواطنُهنَّ من الغيرة وأذى الأزواج وتجنِّيهنَّ عليهم وإرادة غيرهم، ووصفهنَّ بأنهنَّ مَقْصُوراتٌ في الخيام، أي ممنوعاتٌ من التبرُّج والتبذُّل لغير أزواجهنَّ، بل قد قُصِرْنَ على أَزواجهنَّ لا يخرجن من منازلهم وقُصِرن عليهم فلا يردن سواهم، ووصفهنَّ سبحانه بأَنهنَّ قاصِرَاتُ الطَّرْف، وهذه الصفةُ أَكمل من الأولى، ولهذا كنَّ لأهل الجنتين الأُولَيَيْن، فالمرأَة منهنَّ قد قَصَرت طَرْفَها عَلى زوجها من محبتها له ورضاها به، فلا يتجاوز طرفُها عنه إلى غيره كما قيل:

أذود سَوَامَ الطَّرْف[٢] عنك وما له ... عَلَى أَحدٍ إلا عليك طريق

وكذلك حال المقصورات أيضاً لكن أُولئك مقصورات، وهؤلاء قاصرات. ووصفهنَّ سبحانه بقوله: ﴿أَبْكاراً. عُرُباً أَتْرَاباً﴾ [الواقعة: ٣٧، ٣٨] وذلك لفضل وَطْءِ البكر وحلاوته ولذاذته عَلَى وَطْءِ الثَّيِّب[٣]. قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله لو مَرَرت بشجرةٍ قد رُعيَ منها وشجرةٍ لم يُرْعَ منها ففي أَيِّهما كنت تُرْتِعُ بعيرَك؟ فقال: «في الَّتي لَمْ يُرْعَ مِنْهَا»[٤] تعني أنه لم يتزوّج بكراً غيرَها. وصحَّ عنه أنه قال لجابر لما تزوّج امرأَة ثيباً: «هلاَّ بِكراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ»[٥]؟ فإن قيل: فهذه الصفة تزول بأوّل وَطْءٍ فتعود ثَيِّبًا، قيل الجواب من وجهين: أَحدهما أَن المقصود من وَطْءِ البِكْر أَنها لم تَذُق أَحداً قبل وطئها فتَزْرَعُ محبته في قلبها، وذلك أَكمل لدوام العشرة فهذه بالنسبة إليها، وأَما بالنسبة إلى الواطىء فإنه يَرْعى روضةً أُنفاً لم يَرْعَها أَحدٌ قبله، وقد أَشار تعالى إلى هذا المعنى

---

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

(٢) سوام الطرف: النظر يحوم حولها.

(٣) الثيب: تذكر وتؤنث. والرجل الثيب هو الذي دخل بامرأة، والمرأة الثيب هي التي دخل بها.

(٤) خرجه مسلم وأبو حاتم كما جاء في مناقب أمهات المؤمنين للمحبّ الطبري. ورتعت البعير: أكلت ما شاءت.

(٥) أخرجه البخاري في البيوع باب ٣٤، والوكالة باب ٨، والجهاد باب ١١٣، والمغازي باب ١٨، والنكاح باب ١٠، و ١٢١ و ١٢٢، والنفقات باب ١٢، والدعوات باب ٥٣. ومسلم في الرضاع حديث ٥٤ ـ ٥٦ و ٥٨. وأبو داود في النكاح باب ٣. والنسائي في النكاح باب ١. وابن ماجة في النكاح باب ٧. والدارمي في النكاح باب ٣٢. وأحمد في المسند (٣/ ٢٩٤، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣١٤، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٦).

بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦ و ٧٤] ثم بعد هذا تستمرّ له لَذّةُ الوطءِ حالَ زوال البكارة. والثاني أنه قد رُوي «أن أهل الجنة كلما وطىء أحدهُم امرأةً عادت بكراً كما كانت، فكلما أتاها وجدها بكراً»[1]. وأما العُرُبُ فجمع عَروب، وهي التي جمعت إلى حلاوةِ الصورة حسنَ التأني والتبعُّل والتحبب إلى الزوج بدَلِّها وحديثها وحلاوة منطقها وحسن حركاتها، قال البخاري في صحيحه: وأما الأتراب فجمع تِرْب يقال: فلانٌ تِرْبي، إذا كنتما في سن واحد، فهنَّ مستوياتٌ في سنّ الشباب لم يقصِّر بهنَّ الصغر، ولم يُزْرِ بهنَّ الكبر، بل سنُّهنَّ سنُّ الشباب. وشبههنّ تعالى باللُّؤْلو المكنون، وبالبَيْض المكنون وبالياقوت والمَرْجان. فخذ من اللؤلؤ صفاء لونه وحسنَ بياضه ونعومة مَلْمَسه، وخذ من البَيْض المكونون وهو المصونُ الذي لم تَنَلْه الأيدي اعتدال بياضه وشَوْبَه بما يُحسِّنْه من قليل صُفرةٍ، بخلاف الأبيض الأمهق[2] المتجاوز في البياض، وخذ من الياقوت والمرجان حسنَ لونه في صفائه وإشرابه بيسيرٍ من الحمرة.

فصل: فاسمع الآن وصفَهنّ عن الصادق المصدوق، فإن مالت النفسُ وحدّثتك بالخِطْبة وإلاّ فالإيمان مدخول[3]. فروى مسلم في صحيحه من حديث أيوب، عن محمد ابن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجالُ في الجنة أكثر أَم النساء؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أَو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إِنَّ أَوَّل زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لِكلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرى مُخُّ سُوقِهمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحمِ وَمَا في الجَنَّةِ أَعْزَب».

وقال الطبراني في معجمه: حدّثنا أحمد بن يحيى الحلواني والحسن بن علي الفَسوي قالا: حدثنا سعيد بن سليمان: حدّثنا فضلُ بن مرزوق، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ صُورَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ على أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّمَاءِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ عَلى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرى مُخُّ سُوقِهِما مِنْ وَرَاءِ لُحُومِهِمَا وَحُلَلِهِمَا كما يُرى الشَّرَابُ الأَحْمَرُ فِي الزُّجَاجَةِ البَيْضَاءِ». قال الحافظُ أبو عبد الله المقدسي: هذا عندي على شرط الصحيح.

وفي الصحيحين من حديث هَمّام بن مُنَبِّه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا

(١) رواه الطبراني معجمه وسيأتي قريباً.
(٢) الأمهق: الأبيض الناصع البياض بغير حمرة، وهو معيب في لون الإنسان.
(٣) مدخول: داخله الفساد.

وَلاَ يَمْتَخِطُونَ فِيهَا وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا، آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ[١] وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ؛ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً».

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدَّثنا يونس بن محمد، حدَّثنا الخزرَج بن عثمان السعدي، حدَّثنا أبو أيوب مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قِيدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا. وَلَنَصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا» قال: قلت: يا أبا هريرة وما النَّصيف؟ قال: الخمار فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابسه؟

وقال ابن وهب: أخبرنا عمرٌو أن دَرَّاجاً أَبا السَّمح حدّثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الْخُدْرِيّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ لَتَأْتِيهِ امْرَأَةٌ تَضْرِبُ عَلى مَنْكِبِهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ [عَلَيْهَا] لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ فَيَرُدّ [عَلَيْهَا] السَّلاَمَ وَيَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ أَنَا الْمَزِيدُ، وإِنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْباً أَدْنَاهَا مِثْلُ النعمان فَيَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ وإِنَّ عَلَيْهِم التِّيجَانَ وإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ». وبعض هذا الحديث في جامع الترمذي وهو على شرطه.

وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فِيهَا ولَقَابُ[٢] قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قِيدِهِ ـ يَعْنِي سَوْطَهُ ـ خَيْرٌ مِنَ الدنْيَا وما فِيها وَلو اطَّلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ إِلى الأَرْضِ لَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُما رِيحاً وأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا ولَنَصِيفُهَا عَلى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدنْيَا ومَا فِيهَا»[٣].

وفي المسند من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

---

(١) الألوة: العود الهندي الذي يتبخر به. قال الأصمعي: أراها فارسية عربت.

(٢) قاب القوس: ما بين مقبضه وطرفه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٥ و ٦ و ٧٣، والرقاق باب ٢ و ٥١. ومسلم في الإمارة حديث ١١٢ ـ ١١١٥. والترمذي في فضائل الجهاد باب ١٧ و ٢٦. والنسائي في الجهاد باب ١١ و ١٢. والدارمي في الجهاد باب ٩. وأحمد في المسند (١/ ٢٥٦، و ٢/ ٥٣٢، ٥٣٣، و/ ١٣٢، ١٤١، ١٥٣، ٢٠٧، ٢٦٣، ٢٦٤، ٤٢٣، و ٤/ ١٦٨، و ٥/ ٢٦٦، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٩، ٤٢٢ و ٦/ ٤٠١).

ﷺ: «لِلرَّجُلِ مِنْ [أَهْلِ] الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ الْعِينِ على كُلِّ واحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وراءِ الثِّيَابِ»[(١)].

وقال ابن وهب: حدّثنا عمرٌو أَنَّ دَرَّاجاً أَبا السمح حدّثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً الّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ واثْنَانِ وسَبْعُونَ زَوْجَة ويُنْصَبُ لهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدٍ ويَاقُوتٍ كما بَيْنَ الجَابِيَةِ وصَنْعَاءَ» (رواه الترمذي)[(٢)].

وفي مُعجم الطبراني من حديث أبي أُمامة عن النبي ﷺ قال: «خُلِقَ الْحُورُ الْعِينُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ»[(٣)].

فصل: فإن أردت سماع غنائهنَّ فاسمع خبره الآن. ففي معجم الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أزْواجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أزواجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ مَا سَمِعَهَا أحَدٌ قَطُّ. إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الْخَيِّرَاتُ الْحِسَانُ، أَزْواجُ قَوْمٍ كِرَامٍ، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ أَعْيَانٍ. وإِنَّ مِمّا يُغَنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُتْنَهْ، نَحْنُ الآمِنَاتُ فَلَا نَخَفْنَهْ، نَحْنُ الْمُقِيماتُ فَلَا نَظْعَنَّهْ». وقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] إنه السماع ولا ريب أنه من الْحَبْرَة.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: حدَّثنا علي، أنبأنا زهير، عن أبي إسحاق، عن عاصم، عن علي رضي الله عنه قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] حتى إذا انتهوْا إلى بابٍ من أبوابها وجدوا عنده شجرةً يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعَمَدُوا إلى إحداهما فكأنما أُمروا به فشربوا منها فأَذهب الله ما في بطونهم من قذًى أو أذًى أو بأْس، ثم عَمَدُوا إلى الأُخرى فتطَّهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، ولم تتغيَّر أشعارهم بعدها أَبداً ولم تَشْعَثْ[(٤)] رؤوسهم كأنما ادَّهَنُوا بالدهان، ثم انتهوْا إلى [خَزَنَةِ][(٥)] الجنة فقالوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ثم تلقَّاهم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٣٠، ٢٤٧، ٣١٦، ٣٤٥، ٣٨٥، ٤٢٠، ٤٢٢، ٥٠٧). والترمذي في القيامة باب ٦٠، وصفة الجنة باب ٥ و ٧. والدارمي في الرقاق باب ١٠٨.

(٢) في صفة الجنة باب ٢٣. ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند (٣/ ٧٦).

(٣) ذكره المؤلف في كتابه حادي الأرواح بسند الطبراني وقال: قال الطبراني: لا يروى إلا بهذا الإسناد، تفرد به علي بن الحسن بن هارون ثم ذكره من طرق أخرى موقوفة وقال: ولا يصح رفع الحديث وحسبه أن يصل إلى ابن عباس.

(٤) تشعث: تغبر أو تنتشر.

(٥) زيادة من الزواجر لابن حجر.

الولدان يُطِيفون بهم كما يُطيف ولدان أهل الدُّنْيَا بالحميم يَقْدَم عليهم من غيبته فيقولون له: أَبشر بما أَعدَّ الله تعالى لك من الكرامة، ثم ينطلق غلامٌ من أولئك الولدان إلى بعض أَزواجه من الحُور العِين فيقول: جاء فلان باسمه الذي كان يُدْعَى به في الدُّنيا قالت: أَنت رأَيته؟ قال: أَنا رأَيتُه وهو بأثري فيستخفّ إحداهنّ الفرحُ حتى تقوم على أُسْكُفَّة[1] بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أَساس بنيانه فإذا جَنْدَلُ[2] اللؤلؤ فوقه صَرْحٌ أَخضر وأَحمرُ وَأَصفر من كل لون، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عزّ وجلّ قدّره لأَلمَّ[3] أن يُذهب بصره، ثم طأطأ رأْسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة، ونمارقُ[4] مصفوفة، وزرابيُّ[5] مبثوثة، ثم اتّكأُوا فقالوا: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ثم ينادي منادٍ: تحيَوْنَ فلا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تظعنون أبداً، وتَصِحّون فلا تمرضون أبداً[6].

وفي سنن ابن ماجة عن أُسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خطر لَهَا هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مشيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَثَمَرَةٌ نضيجَةٌ وَزَوْجةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ وَفَاكِهَةٍ وَخُضْرَةٍ وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِي مَحلَّة عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ»**. قالوا: نعم يا رسولَ اللهِ، نحْنُ المُشَمِّرُونَ لَهَا، قال: **«قولوا إن شَاءَ اللهُ»**. فقَال القوم: إن شاء الله تعالى[7].

فصل: فهذا وصفُهنّ وحسنُهنّ فاسمع الآن لذّةَ وِصالهن وشأْنه، ففي مسند أبي يَعْلَى الموصليّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فذكَر حديثاً طويلاً وفيه: **«فأَقولُ يا ربِّ وعدْتني الشَّفَاعَةَ فَشَفِّعْتَنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الجنَّةَ فيقول الله تعالى قد شَفَّعْتُكَ وَأَذِنْتُ لَهُمْ في دُخُولِ الجنَّة»**. وكان رسول الله ﷺ يقول: **«وَالَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقِّ ما أَنْتمْ في الدّنيا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ ومَسَاكِنِكُمْ من أَهْلِ الْجَنَّةِ بأَزواجِهِمْ ومساكِنِهِمْ فَيَدْخلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِيءُ اللهُ وَثِنْتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ لَهُمَا فَضْلٌ عَلَى مَنْ أَنْشأَ اللهُ بِعِبَادَتِهِمَا اللهَ فِي الدُّنيَا يدخلُ عَلَى الأولى مِنْهُمَا في غُرْفَةٍ مِنْ يَاقُوتةٍ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ باللُّؤْلُؤِ عليهِ سبعونَ زوجاً مِنْ سُنْدُس وَإِسْتَبْرَق وَإِنَّهُ لَيَضَعُ**

---

(١) الأسكفة: عتبة الباب.

(٢) الجندل: الصخر العظيم.

(٣) ألم: أوشك أن يذهب بصره.

(٤) النمارق: تجمع نمرقة: الوسائد الصغيرة.

(٥) الزرابي: جمع زربية: الطنافس المخملة والبسط.

(٦) أورده ابن حجر في الزواجر، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٧) أخرجه ابن ماجة في الزهد باب ٣٩.

يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثمَّ ينظرُ إلى يدِهِ مِنْ صدْرِهَا ومِنْ وراءِ ثِيابِها وجِلْدِهَا ولحمِهَا وإنَّهُ لَيَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إلى السِّلْكِ في قَصَبَةِ الياقوتِ كَبِدُهُ لهَا مِرْآة ـ يعني وكَبدُها له مِرآةٌ ـ فَبيْنَا هُوَ عِنْدَهَا لايَملُّهَا ولا تملُّهُ ولا يَأتيها مِنْ مَرَّةٍ إلاَّ وجدَهَا عَذْراءَ. مَا يَفْتُرُ ذَكَرُهُ ولاَ يَشْتكِي قُبُلها. فَبَيْنَا هُو كَذٰلِكَ إذْ نُودِيَ إنَّا قَدْ عَرَفْنا أَنَّكَ لا تَملُّ ولا تُمَلّ إلاَّ أَنَّهُ لا مَنِيَّ ولا مَنِيَّةَ إلاَّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَزْوَاجٌ غَيْرهَا فَيَخْرُجُ فَيَأْتِيهنَّ وَاحِدَةً واحِدَةً كُلما جاءَ واحِدَةً قالَتْ: وَاللهِ ما في الجنَّةِ شَيْءٌ أحسنُ مِنكَ وما في الجنةِ شيءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ». وهذا قطعةٌ من حديث الصور الطويل الذي رواه إسماعيل بن رافع[١].

وفي صحيح مسلم[٢] من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللهُ عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ لِلْمُؤْمِنِ في الْجَنةِ لَخَيْمةً من لُؤلؤَةٍ واحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طولُهَا سِتُّونَ مِيلاً للمؤمِنِ فيها أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المؤمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضاً». رواه البخاري[٣] وقال: ثلاثون ميلاً.

وفي جامع الترمذي من حديث أَنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُعْطَى المؤمِنُ في الْجَنةِ قوَّةَ كَذا وكَذا من النِّساءِ» قلت: يا رسولَ الله ويُطيق ذلك؟ قال: «يُعْطَى قوة مائة» قال: هذا حديث صحيح غريب[٤].

وفي معجم الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله هل نَصِل إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ في اليوم إلى مائة عذراءَ» وفي لَفْظٍ: قلنا يا رسول الله نُفضي إلى نسائنا في الجنة؟ فقال «إي والذي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ الرَّجلَ لَيُفْضي في الغَدَاةِ الواحِدَةِ إلى مائة عَذْرَاءَ». قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: ورجالُ هذا الحديث عندي على شرط الصحيح.

---

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث في كتابه حادي الأرواح وقال: تفرد به إسماعيل بن رافع وقد روى له الترمذي وابن ماجه وضعفه أحمد ويحيى وجماعة. وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه فيها نظر وقال الترمذي: ضعفه بعض أهل العلم وسمعت محمداً ـ يعني البخاري ـ يقول: هو ثقة مقارب الحديث. وقال لي شيخنا أبو الحجاج الحافظ: هذا الحديث مجموع من عدة أحاديث ساقه إسماعيل أو غيره هذه السياقة وما تضمنه معروف في الأحاديث والله أعلم. وذكر قطعة منه في موضع آخر من الكتاب وعقب عليها بهذا وزاد قوله: قلت: ولكن إذا روى مثل هذا ما يخالف الأحاديث الصحيحة لم يلتفت إلى روايته. وأيضاً فالرجل الذي روى عنه القرظي لا يدرى من هو.

(٢) كتاب صفة الجنة، حديث ٢٣ ـ ٢٥.

(٣) في تفسير سورة ٥٥ باب ٢، وبدء الخلق باب ٨. ورواه أيضاً الترمذي في صفة الجنة باب ٣، والدارمي في الرقاق باب ١٠٩.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة الجنة باب ٦.

وفي حديث لَقيط العقيلي الطويل الذي رواه الطبراني وعبد الله بن أحمد في السنة وغيرُهما أنه قال: قلت يا رسول الله: أَوَ لَنَا فِيهَا أَزواجٌ مصلحات؟ قال: «**الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ تَلَذُّونَهُنَّ مِثْلَ لَذَّاتِكُمْ في الدُّنيا وَيَلَذُّونَكُمْ غَيْرَ أَنْ لاَ تَوَالُدَ**».

وذكر ابن وهبٍ عن عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن عبد الرحمن بن حُجَيْرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أَنَطَأُ في الجنة؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْماً دَحْماً**[1]، **فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بِكْراً**». قال الحافظ أبو عبد الله: دَرّاجٌ اسمه عبد الرحمن بن سمعان المصري، وثّقهُ يحيى بن مَعِين؛ وأخرج عنه أبو حاتم بن حِبَّان في صحيحه وكان بعض الأئمة ينكر بعض حديثه والله أعلم.

وفي معجم الطبراني من حديث أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أَبْكَاراً**».

وفيه أيضاً من حديث أَبي أُمامة رضي الله عنه أَنه سمع رسول الله ﷺ سُئل: هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال: «**بِذَكَرٍ لاَ يَمَلُّ وَشَهْوَةٍ لاَ تَنْقَطِعُ دَحْماً دَحْماً**».

وفيه أيضاً عنه أَن رسول الله ﷺ سئل: أَيجامع أهل الجنة؟ قال: «**دَحْماً دَحْماً وَلَكِنْ لاَ مَنِيَّ وَلاَ مَنِيَّةَ**».

من قصيدة للمؤلف في وصف الحور[2]

يا خاطبَ الحور الحسان وطالباً ... لوصالهنّ بجنة الحَيَوَان
لو كنت تدري من خطبت ومن طلبـ ... ـت بذلت ما تحوي من الأثمان
أو كنتَ تعرف أين مسكنها جعلـ ... ـت السعي منك لها عَلَى الأجفان
أَسرع وحُثَّ السيرَ جُهدك إنما ... مسراك هذا ساعةٌ لزمان
فاعشق وحدّث بالوصال النفسَ وابْـ ... ـذُلْ مهرَها ما دمت ذا إمكان
واجعل صيامك دون لقياها ويو ... مَ الوصل يومَ الفطر من رمضان
واجعل نعوتَ جمالها الحادي وسر ... نحو الحبيب ولستَ بالمتواني
واسمع إذن أوصافَها ووصالها ... واجعل حديثك ربّةَ الإحسان
يا من يطوف بكعبة الحسن التي ... حُفَّت بذاك الحجر والأركان
ويَظَلُّ يسعى دائماً حول الصفا ... ومُحَسِّر مسعاه كلَّ أوان
ويرومُ قُربان الوصال عَلَى مِنًى ... والْخَيْفُ يحجبه عن القُربان

(١) جاء في القاموس المحيط: دحمه دحماً: دفعه دفعاً شديداً. والمرأة: نكحها؛ والدحم: الأصل.
(٢) هي قطعة من قصيدة المؤلف في السنة سماها: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية».

فلـــذا تــراه مُحْــرِمــاً أبــداً ومــو ... ضــعُ حلَّــةٍ منــه فليــس بــدان
يبغــي التمتُّــع مفــرداً عــن حبــه ... متجــرِّداً يبغــي شفيــعَ قِــران
وسيظــلّ بــالجَمَــرات يــرمــي قلبَــه ... هــذي منــاسكــه بكــل زمــان
والنــاس قــد قضَــوْا منــاسكهــم وقــد ... حثــوا ركــائبهــم إلــى الأوطــان
وحَــدَت بهــم همــمٌ لهــم وعــزائــمٌ ... نحــو المنــازل ربَّــة الإحســان
رفعــت لهــم فــي السيــر أعــلامُ الــوصا ... ل فشمَّــروا يــا خيبَــة الكســلان
ورَأَوْا عَلــى بُعــدٍ خيــامــاً مُشــرفــا ... تِ مشــرقــاتِ النــور والبــرهــان
فتيمّمــوا تلــك الخيــام فــآنســوا ... فيهــنَّ أقمــاراً بــلا نقصــان
مــن قــاصــراتِ الطــرْفِ لا تبغــي ســوى ... محبــوبهــا مــن ســائــر الشبّــان
قَصــرَت عليــه طَــرْفَهــا مــن حسنــه ... والطّــرْفُ منــه مُطْلَــقٌ بــأمــان
وَيحــار منــه الطــرف فــي الْحســن الــذى ... قــد أُعطيــت فــالطــرفُ كــالْحيــران
ويقــول لمــا أن يشــاهــدَ حسنَهــا ... سبحــان معطــي الحســن والإحســان
والطــرف يشــرب مــن كــؤوس جمــالهــا ... فتــراه مثــل الشــارب النشْــوان
كمُلــت خــلائقهــا وأُكمــل حسنُهــا ... كــالبــدر ليــلَ الســت بعــد ثمــان

* * *

والشمــسُ تجــري فــي محــاســن وجههــا ... والليــلُ تحــت ذوائــب الأغصــان
فَيَظــلّ يعجــب وهــو مــوضــعُ ذاك مــن ... ليــل وشمــس كيــف يجتمعــان
ويقــول سبحــان الــذي ذا صنعُــهُ ... سبحــان متقــن صنعــة الإنســان
لا الليــل يُــدرك شمسهــا فتغيــب عنـ ... ـد مجيئــه حتــى الصبــاح الثــانــي
والشمــسُ لا تــأتــي بطــرد الليــل بــل ... يتصــاحبــان كــلاهمــا أخَــوان
وكــلاهمــا مــرآةُ صــاحبــه إذا ... مــا شــاءَ يُبصــر وجهــه يَــرَيَــان
فيــرى محــاســنَ وجهــه فــي وجههــا ... وتــرى محــاسنَهــا بــه بعيــان
حُمْــر الخــدود ثغــورُهــن لآلِــىءٌ ... ســود العيــون فــواتــر الأجفــان
والبــرقُ يبــدو حيــن يَبْسِــمُ ثغــرهــا ... فيضــيءُ سقــف القصــر بــالجــدران
ريــانــة الأعطــاف مــن مــاء الشبــا ... ب فغصنُهــا بــالمــاء ذو جَــرَيــان
لمــا جــرى مــاء النعيــم بغصنهــا ... حمــل الثمــارَ كثيــرةَ الألــوان
فــالــورد وَالتُّفــاح والــرُّمَّــان فــي ... غصــنٍ تعــالــى غــارسُ البستــان
والقــدّ منهــا كــالقضيــب اللَّــدْن فــي ... حســنَ القــوام كــأوســط القضبــان
فــي مَغْــرَس كــالعــاج تحســب أَنَّــه ... عــالــي النقــا[1] أو واحــدُ الكُثْبــان

---

(١) النقا: الكثيب من الرمل.

لا الظهـــر يلحقــه وليـــس ثُـدِيُّهـا		بلـــواحـــقٍ للبطـــن أو بـــدَوَان
لُكنهـــنَّ كـــواعـــبٌ ونـــواهـــدٌ		فثُــدِيُّهُـــنّ كــأحســن الـــرُّمـــان
والجيــد ذو طــولٍ وحسـنٍ فــي بيـا		ضٍ واعتـــدال ليـــس ذا نكـــران
يشكـــو الحُلِـيُّ بعــادَه فلــه مــدى الـ		أيـــام وَســـواسٌ مـــن الهجـــران
والمِعْصَمـــان فــإن تشــأْ شبِّهْهمــا		بسبيكتيـــن عليهمـــا كفَّـــان
كـالـزبـد لينـاً فـي نعـومـة مَلْمَـس		أَصـــــداف درٍّ دُوّرت بـــــوزان
والصـــدر متســعٌ علــى بطــنٍ لهـا		والخصـــرُ منهـــا مغـــرمٌ بثمـــان
وعليـــه أحســـن سُـــرّةٍ هـــي زينـــةٌ		للبطــن قــد غــارت مــن الأعكـان[١]
حُــقٌّ مــن العــاج استــدار وحشـوهُ		حبّـــات مســـكٍ جـــلَّ ذو الإتقـــان
وإذا نـــزلـــت رأيـــتَ أمـــراً هـــائـــلاً		مـــا للصفـــات عليـــه مـــن سلطـــان
لا الحيـــضُ يغشـــاه ولا بـــولٌ ولا		شـــيءٌ مـــن الآفـــات فـــي النِّســـوان
فَخِـــذان قـــد حُفّـــا بـــه حـــرَســـاً لـــهُ		فجنـــابُـــه فـــي عـــزّةٍ وصِيَـــانِ
قـــامـــا بخـــدمتـــه هـــو السلطـــان بيـ		ـنهمـــا وحـــقٌّ طـــاعـــةُ السلطـــان
وهـــو المطـــاعُ إذا هـــو استـــدعـــى الحبيـ		ـــب أتـــاه طـــوعـــاً وهـــو غيـــرُ جبـــان
وجمـــاعُهـــا فهـــو الشفـــاء لصبهـــا		فـــالصـــبّ منـــه ليـــس بـــالضَّجْـــرَان
وإذا أتـــاهـــا عـــادت الحسنـــاء بكـ		ـــراً مثـــلَ مـــا كـــانـــت مـــدى الأزمـــان
وهـــو الشهـــي أَلَـــذُّ شـــيء هكـــذا		قـــال الـــرســـولُ لمـــن لـــه أُذنـــان
يـــا ربّ غفـــراً قـــد طغـــت أقـــلامنـــا		يـــا ربّ معـــذرةً مـــن الطغيـــان
أَقـــدامُهـــا مـــن فضـــةٍ قـــد رُكِّبـــت		مـــن فـــوقهـــا ســـاقـــان ملتفّـــان
والســـاقُ مثـــلُ العـــاج ملمـــومٌ بـــه		مُـــخُّ العظـــام تنـــالـــه العينـــان
والـــرّيـــحُ مســـكٌ والجســـومُ نـــواعـــمٌ		واللـــونُ كـــاليـــاقـــوت والمَـــرْجـــان
وكـــلامهـــا يسبـــي العقـــول بنغمـــةٍ		زادت علـــى الأوتـــار والعيـــدان
وهـــي العَـــرُوب بشكلهـــا وبِـــدَلِّهـــا		وتحبُّـــبِ للـــزوج كـــل أوان
أَتْـــرابُ سِـــنٍّ واحـــدٍ متمـــاثـــلٍ		ســـنُّ الشبـــاب لأجمـــل الشُّبَّـــان
بكـــرٌ فلـــم يـــأْخـــذ بكـــارتهـــا ســـوى الـ		ـمحبـــوب مـــن إنـــس ولا مـــن جـــان
مُعْطـــي المُجـــامِعُ قُـــوّةَ المـــائـــة التـــي اجـ		ـتمعـــت لأقـــوى واحـــد الإنســـان
ولقـــد أتـــانـــا أنـــه يَغْشـــى بيـــو		م واحـــدٍ مـــائـــةً مـــن النســـوان
ورجـــالـــه شـــرط الصحيـــح رَوَوْا لهـــم		فيـــه وذا فـــي معجـــم الطبـــرانـــي

---

(١) جمع عكنة: الطي الذي في البطن من السمن.

وبــذاك فُسّــر شغلهــم فــي ســورة | مــن بعـد فـاطـر[1] يـا أخـا العـرفـان

* * *

هــذا دليــلٌ أن قــدر نســائهــم | متفــاوتٌ بتفــاوُتِ الإيمــان
وبــه يــزول تــوّهــم الإشكــال عــن | تلــك النصــوص بمنــة الــرحمٰــن
فــي بعضهــا مــائــةٌ أَتــى وأَتــى بهــا | سبعــون أيضــاً ثــم جــا ثِنتــان
فتفــاوُتُ الــزوجــات مثــلُ تفــاوت الــ | ــدرجــات فــالأمــران مختلفــان
وبقــوّة المــائــة التــي حصلــت لــه | أفضــى إلــى مــائــةٍ بــلا خَــوَران
وأَعفُّهــم فــي هــذه الــدنيــا هــو الــ | أقــوى هنــاك لــزهــده فــي الفــانــي
فــاجمــع قــواك لمــا هنــا وغُــضَّ منـ | ــك الطــرف واصبــر ســاعــةً لــزمــان
مــا هــا هنــا والله مــا يســوى قُــلا | مــةَ ظفــر[2] واحــدةٍ مــن النِّســوان
ونصيفُهــا خيــرٌ مــن الــدُّنيــا ومــا | فيهــا إذا كــانــت مــن الأثمــان
لا تُــؤْثِــر الأدنــى علــى الأعلــى فــإن | تفعــل رجعــت بــذلّــة وهــوان
وإذا بــدت فــي حُلَّــةٍ مــن لبسهــا | وتمــايلــت كتمــايــل النشــوان
تهتــزّ كــالغصــن الــرطيــب وحملُــه | وردٌ وتُفّــاحٌ علــى رُمّــان
وتبخــتــرت فــي مشيهــا ويحــق ذا | ك لمثلهــا فــي جنــة الــرضــوان
ووصــائــفٌ مــن خلفهــا وأمــامهــا | وعلــى شمــائلهــا وعــن أيمــان
كــالبــدر ليلــةَ تمّــه قــد حُــفّ فــي | غَســق الــدُّجــى بكــواكــب الميــزان[3]
فلســانُــه وفــؤادُه والطــرفُ فــي | دهَــش وإعجــاب وفــي سبحــان
تستنطــق الأفــواهَ بــالتسبيــح إذ | تبــدو فسبحــان العظيــم الشــان
والقلــب قبــل زفــافهــا فــي عُــرســه | والعــرس إثــرَ العــرس متصــلان
حتــى إذا واجهتــه تقــابــلا | أرأيــت إذْ يتقــابــلُ القمــران
فســل المتيَّــمَ هــل يَحِــلُّ الصبــرُ عــن | ضــمٍّ وتقبيــل وعــن فَلَتــان
وســل المتيَّــم أيــن خلــف صبــره | فــي أيِّ وادٍ أم بــأيِّ مكــان
وســل المتيــم كيــف حــالتــه وقــد | ملئــت لــه الأذُنــان والعينــان
مــن منطــقٍ رقّــت حــواشيــه ووجـ | ـهٍ كــم بــه للشمــس مــن جَــرَيــان

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة يس: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ فقد فسر كثير من السلف الشغل في هذه الآية بافتضاض الأبكار.

(٢) قلامة الظفر: ما سقط منه.

(٣) الغسق: أول ظلمة الليل. والدجى: الظلمة.

وســـل المتيَّـــم كيـــف عيشتُـــه إذاً ... وهمـــا علـــى فـــرشَيْهمـــا خِلْـــوان
يتســـــاقطـــــان لآلئـــــاً منثـــــورةً ... مـــن بيـــن منظـــوم كنظـــم جُمـــان[1]
وسَـــل المتيـــم كيـــف مجلسُـــه مـــع ألـ ... ـمحبـــوب فـــي رَوْحٍ وفـــي رَيحـــان[2]
وتـــدور كـــاســـاتُ الـــرحيـــق عليهمـــا ... بـــأكـــفّ أقمـــارٍ مـــن الـــولـــدان
يتنـــازعـــان الكـــأسَ هـــذا مـــرةً ... والخـــوْد أخـــرى ثـــم يَتّكئـــان
فيضمهـــا وتضمـــه أرأيـــت مَعْـ ... ـشـــوقَيـــن بعـــد البعـــد يلتقيـــان
غـــاب الـــرَّقيـــبُ وغـــاب كـــلُّ منكّـــدٍ ... وهمـــا بثـــوب الـــوصـــل مشتمـــلان
أتـــراهمـــا ضَجِـــرَيـــن مـــن ذا العيـــش لا ... وحيـــاةِ ربـــك مـــا همـــا ضَجِـــران

* * *

يـــا عـــاشقـــاً هـــانـــت عليـــه نفسُـــه ... إذ بـــاعهـــا غَبْنـــاً بكـــل هَـــوَان
أتـــرى يليـــق بعـــاقـــلٍ بيـــعُ الـــذي ... يبقـــى ـ وهـــذا وصفـــه ـ بـــالفـــانـــي

(١) جمع جمانة: حبة تعمل من الفضة كالدرة.
(٢) روح وريحان: في راحة وترحم (رحمة).

في علامات المحبة وشواهدها

وقبل الخوض في ذلك لا بدَّ من ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول: النفوس ثلاثةٌ: نفسٌ سماويةٌ عُلوية، فمحبتها منصرفةٌ إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان وٱجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقرِّبها من الرِّفيق الأعلى، وذلك قوتها وغِذاؤها ودواؤُها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفسٌ سَبُعية غضبية، فمحبتُها منصرفةٌ إلى القهر والبغي والعُلوّ في الأرض والتكبر والرِّئاسة عَلى الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفُها به.

ونفسٌ حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفةٌ إلى المأْكل والمشْرَب والمنْكَح، وربما جمعت الأَمْرَيْن فانصرفت محبتُها إلى العلوّ في الأرض والفساد كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ في الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إنَّه كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، والحبُّ في هذا العالم دائرٌ بين هذه النفوس الثلاثة، فأيّ نفسٍ منها صادفت ما يلائم طبعَها استحسنته ومالت إليه ولم تصغ فيه لعاذل ولم تأْخذها فيه لومةُ لائم. وكلُّ قسم من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أَولى بالإيثار، وأَن الاشتغال بغيره والإقبال على سواه غَبْنٌ وفوات حظ. فالنفسُ السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبةٌ طَبْعية بها مالت إلى أَوصافهم وأَخلاقهم وأَعمالهم.

فالملائكة أولياء هذا النوع في الدُّنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوِّه عنه، والاستغفار له إذا زَلَّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحَضِّه على التصديق بالوعد، وتحذيرِه من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسُه في الوحدة، ووليُّهُ ومعلمه ومثبِّتُه ومسكِّن جأْشه، ومرغِّبه في الخير، ومحذّره من الشرّ، يستغفر له إن أَساء، ويدعو له بالثبات إن أَحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شِعاره[1]، فإن قصده عدوٌّ له بسوء وهو نائمٌ دفعه عنه.

فصل: والشياطين أَولياء النوع الثاني يخرجونهم من النور إلى الظلمات. قال الله تعالى: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلنَا إِلى أُمَمٍ مِنْ قبلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣] وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عليهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فأَنَّهُ يُضِلُّهُ ويهْدِيهِ إِلى عذَابِ السّعيرِ﴾ [الحج: ٤] وقال تعالى: ﴿ومَنْ يَتّخِذِ الشَّيطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً. يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ومَا يَعِدُهُمُ الشيطانُ إِلَّا غُرُوراً. أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جهَنّمُ ولا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً﴾ [النساء: ١١٨ ـ ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجدُوا إلَّا إبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ ففسقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفتتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ من دُونِي وهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

فهذا النوعُ بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبةٌ طَبْعيةٌ، بها مالت إلى أَوصافهم وأَخلاقهم وأَعمالهم، فالشياطينُ تتولاهم بضدّ ما تتولى الملائكة لمن ناسبهم، فتؤُزُّهم إلى المعاصي أَزًّا وتزعجهم إليها ازعاجاً لا يستقرُّون معه ويزينون لهم القبائح ويخففونها على قلوبهم ويُحَلونها في نفوسهم، ويثقلون عليها الطاعات ويُثَبِّطُونهم[2] عنها ويقبِّحُونها في أعينهم، ويُلقون على أَلْسِنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد، ويزينونه في أسماع من يسمعه منهم، يَبِيتُون معهم حيث باتوا، وَيقيلون[3] معهم حيث قالوا، ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم، يأْكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾ [النساء: ٣٧] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وإِنَّهُمْ

---

(١) الشعار: ما تحت الدثار من اللباس وهو ما يلي الجسد. وشعائر الحج مناسكه وعلاماته.

(٢) ثبطه عن الأمر ثبطاً وتثبيطاً: عوقه وبطأ به عنه؛ وفسره الجوهري بشغله عنه. ومنه قوله تعالى: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾.

(٣) قال يقيل قيلاً وقيلولة: نام واستراح وقت القيلولة وهي نصف النهار.

لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨].

فصل: وأما النوعُ الثالث فهم أشباه الحيوان، ونفوسُهم أرضيةٌ سفلية لا تبالي بغير شهواتها ولا تريد سواها.

إذا عرفتَ هذه المقدِّمة فعلامات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبه ومراده، فمن تلك العلامات تعرف من أيّ هذه الأقسام هو، فنذكر فصولاً من علامات المحبة التي يُسْتَدَلُّ بها عليها:

فمنها: إدمانُ النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه، فإن العين بابُ القلب وهي المعبِّرَةُ عن ضمائره والكاشفةُ لأسراره. وهي أَبلغ في ذلك من اللسان، لأن دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها، ودلالةُ اللسان لفظيةٌ تابعة لقصده، فترى ناظر المحبّ يدور مع محبوبه كيف ما دار، ويجول معه في النواحي والأقطار كما قال:

أَذُودُ سَوامَ الطَّرْفِ عنك وما له ... على أَحدٍ إلّا عليك طَريق

بل المحبّ في عين المحبوب تمْثالُه، كما في قلبه شخصُه كما قيل:

ومن عجبٍ أَنّي أَحِنُّ إليهمُ ... وأَسأَل عنهم من لَقِيتُ وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

فالمحب نظره وقفٌ على محبوبه كما قال:

إن يحجبوها عن العيون فقد ... حجبت عيني لها عن البشر

فصل: ومنها: إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه ورميهُ بطرفه نحو الأرض، وذلك من مهابته له، وحيائه منه وعظمته في صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يُحِدُّ[1] النظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض. قال الله تعالى مخبراً عن كمال أَدب رسول الله في ليلة الإسراء: ﴿ما زَاغَ الْبَصرُ وَما طَغَى﴾ [النجم: ١٧] وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً، ولا طَمَحَ متجاوزاً إلى ما هو رائيه ومقبلٌ عليه كالمُتشارف[2] إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتدّ نهي النبي ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أَبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع مَن المصلي واقفٌ بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس مطرقاً إلى الأرض، ولولا أن

---

(١) أحد النظر إليه: نظر متأملاً.
(٢) المتشارف: المتطلع.

عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه، لم يكن فرقٌ بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل.

فصل: ومنها: كثرة ذكر المحبوب واللَّهَج[1] بذكره وحديثه، فمن أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه. ولهذا أمر الله سبحانه عبادَه بذكره عَلَى جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوفَ ما يكونون فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٦] والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابَهم وقتَ المخاوف ومُلاقاةِ الأعداء كما قال قائلهم:

ذكرتـكِ والْخَطِّـيُّ يَخْطِـرُ بيننـا ... وقـد نَهِلـت منَّـا المثقَّفَـةُ السُّمْـرُ[2]

وقال آخر:

ولقد ذكرتـكِ والـرِّماح كـأنهـا ... أشطـان بئـرٍ فـي لَبـان الأدهـم[3]

فـودِدت تقبيـل السيـوف لأنهـا ... بَـرَقـت كبـارق ثغـرك المتبسّـم

وفي بعض الآثار الإلٰهية: إن عبدي الذي يذكرني وهو مُلاقٍ قِرْنَه. فعلامة المحبة الصادقة ذكرُ المحبوب عند الرَّغب والرهَب. وقال بعض المحبين في محبوبه:

يـذكّـرنيـك الخيـرُ والشـرُّ والـذي ... أخـاف وأَرجـو والـذي أَتـوقَّـع

ومن الذكر الدّالّ على صدق المحبة سبقُ ذكر المحبوب إلى قلب المحبّ ولسانه عند أول يقظة من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه كما قال قائلهم:

آخـر شـيء أنـت فـي كـلّ هَجْعَـةٍ ... وأوّل شـيء أَنـت وقـتَ هُبـوبـي[4]

وذِكر المحبوب لا يكون عن نسيان مستحكم فإن ذكره بالقوَّة في نفس المحبّ، ولكن لضيق المحل به يَرِد عليه ما يُغيب ذكره، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان، وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبِس المحبّ لسانه على ذكره، ثم يحبس قلبه على لسانه، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره. وكما أن الذكر من نتائج الحبّ فالحبّ أيضاً

(١) اللهج بالشيء: الولوع به. ولهج به: أغري به فثابر عليه.

(٢) الخطي: الرماح، والثقاف: ما تسوى به الرماح.

(٣) في رواية أخرى:

. . . . . والـرمـاح نـواهـل ... منـي وبيـض الهنـد تقطـر مـن دمـي

والشطن: الحبل الطويل يستقى به من البئر أو تشد به الدابة. واللبان: ما جرى عليه اللبب من الصدر، وموضع القلادة.

(٤) الهجعة: نومه خفيفة من أول الليل. وهجع: نام ليلاً. والهبوب: الاستيقاظ والانتباه. وهب الرجل من نومه: انتبه واستيقظ.

من نتائج الذكر، فكلٌّ منهما يثمر الآخر، وزرعُ المحبة إنما يُسْقى بماء الذكر، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة.

فصل: ومن علاماتها الانقيادُ لأمر المحبوب وإيثارُه على مراد المحب، بل يتَّحد مرادُ المحبّ والمحبوب. وهذا هو الاتحاد الصحيح لا الاتحاد الذي يقوله إخوان النصارى من المَلاحِدة، فلا اتحاد إلاَّ في المراد، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحبّ واحداً، فليس بمحبٍّ صادقٍ من له إرادةٌ تخالف مراد محبوبه منه، بل هذا مريدٌ من محبوبه لا مريدٌ له، وإن كان مريداً له فليس مريداً لمراده. فالمحبُّون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب. وهذا أَعلى أَقسام المحبِّين. وزهدُ هذا أَعلى أَنواع الزهد، فإنه قد زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد في الدُّنيا أعظمُ مما بين السماء والأرض. فالزهد خمسة أقسام: زهدٌ في الدُّنيا، وزهدٌ في النفس، وزهدٌ في الجاه والرِّئاسة، وزهدٌ فيما سوى المحبوب، وزهدٌ في كلّ إرادةٍ تخالف مراد المحبوب. وهذا إنما يحصلُ بكمال المتابعة للرسول الحبيب.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ وَاللهُ غَفورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له، وكونُ العبد محبوباً لله أَعلى من كونه محبًّا لله، فليس الشأن أن تحبّ الله ولكن الشأن أَن يحبَّك الله. فالطاعةُ للمحبوب عنوانُ محبته كما قيل:

تَعصـي الإلـه وأنـت تـزعـم حبَّـه ... هـذا محـالٌ فـي القيـاس بـديـعُ
لـو كـان حبُّـك صـادقـاً لأطعتـه ... إن المحـبّ لمـن يحـبّ مطيـع

فصل: ومن علاماتها قلة صبر المحبّ عن المحبوب، بل ينصرف صبره إلى الصبرِ على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبرِ على أحكامه، فهذا صبر المحبّ، وأما الصبرُ عنه فصبر الفارغ عن محبَّته المشغولِ بغيره، قال:

والصبـرُ يُحْمَـدُ فـي المـواطـن كلِّهـا ... وعـن الحبيـب فـإنـه لا يُحْمَـدُ

فمن صبر عن محبوبه أَدّى به صبره إلى فوات مطلوبه. وقال بعض المحبّين:

مـا أحسـنَ الصبـرَ وأَمـا علـى ... أَن لا أَرى وجهَـك يـومـاً فـلا
لـو أَن يـومـاً منـك أَو سـاعـةً ... تبـاع بـالـدُّنيـا إذاً مـا غـلا

فصل: ومنها: الإقبال عَلَى حديثه وإِلقاءُ سمعه كلِّه إليه، بحيث يفرغ لحديثه سمعه

وقلبه، وإن ظهر منه إقبالٌ عَلَى غيره فهو إقبالٌ مستعارٌ يستبين فيه التكلُّف لمن يَرْمُقُه كما قال:

وأُديــم لَحْــظ محــدِّقــي ليــرى أَن قــد فهمــت وعنــدكــم عقلــي

فإن أعوزه حديثُه بنفسه فأحبُّ شيء إليه الحديثُ عنه، ولا سيما إذا حدّث عنه بكلامه فإنه يقيمه مقامَ خطابه كما قال القائل: المحبّون لا شيء أَلَذَّ لهم ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم وفيه غاية مطلوبهم، ولهذا لم يكن شيء أَلَذ لأهل المحبة من سماع القرآن، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قلت: أَقرأُ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: «إنِّي أُحبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فقرأت عليه من أوّل سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤٠] قال: «حَسْبُكَ الآنَ»، فرفعت رأسي فإذا عيناه تَذْرِفان[١]. وكان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا قارئاً أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى ذكّرنا ربّنا، فيقرأُ أبو موسى وربما بكى عمر.

ومر رسول الله ﷺ بأبي موسى رضي الله عنه وهو يصلي من الليل فأعجبته قراءته فوقف واستمع لها، فلما غدا على رسول الله ﷺ قال: «لَقَدْ مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وأَنْتَ تَقْرأُ فَوَقَفْتُ واسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِكَ»، فقال: لو أَعلم أَنك كنت تسمع لحبَّرته لك تحبيراً[٢]. والله سبحانه وهو الذي تكلم بالقرآن يأذن ويستمع للقارىء الحسَن الصوت من محبته لسماع كلامه منه كما قال ﷺ: «للهُ أَشَدُّ أَذناً إِلَى الْقَارِىءِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ»[٣] ـ والأَذنُ بفتح الهمزة والذّال مصدر أَذِنَ يَأْذَنُ: إذا استمع. قال الشاعر:

أيهــا القلــبُ تَعَلَّــلَ بــدَدَنْ[٤] إنَّ قلبــي فــي سمــاعٍ وأَذَنْ

وقال ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْواتِكُمْ»[٥] وغلِط من قال: إنَّ هذا من المقلوب وإن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣٣) والبخاري في فضائل الصحابة باب ٢٥، والجنائز باب ٤ و ٤٣، والجهاد باب ٧، والمناقب باب ٢٥، والمغازي باب ٤٤، وتفسير سورة ٤ باب ٩، وفضائل القرآن باب ٣٣ و ٣٥، والترمذي في الجنائز باب ١٤. والنسائي في الجنائز باب ٢٧.

(٢) حبّره: زيّنه ونمّقه. والحديث أخرجه مسلم. وأخرجه أيضاً أبو يعلى بزيادة كما قال ابن حجر العسقلاني.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٩، ٢٠) وابن ماجة في الإقامة باب ١٧٦.

(٤) الددن: اللهو واللعب.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤) والبخاري في التوحيد باب ٥٢. وأبو داود=

المرادَ زيِّنوا أصواتكم بالقرآن. فهذا وإن كان حقًّا فالمرادُ تحسينُ الصوت بالقرآن. وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»[(١)] ووهم من فسره بالغنى الذي هو ضدّ الفقر من وجوه: أحدُها: أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنّى. الثاني: أن تفسيره قد جاء في نفس الحديث: يجهر به هذا لفظه قال أحمد: نحن أعلم بهذا من سفيان وإنما هو تحسين الصوت به يحسنه ما استطاع. الثالث: أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ ولو احتمله، فكَيف وبنية اللفظ لا تحتمله كما تقدّم. وبعد هذا فإذا كان من التغنِّي بالصوت ففيه معنيان: أحدهما: يجعله له مكان الغناء لأصحابه من محبته له وَلَهجِهِ به كما يُحِبّ صاحب الغناء لغنائه، والثاني: أنه يزينه بصوته ويحسنه ما استطاع كما يزين المتغنِّي غناءه بصوته، وكثيرٌ من المحبِّين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجيّ، فهؤلاء قتلى القرآن، لا قتلى عُشاق المُرْدان[(٢)] والنِّسْوان.

فصل: ومنها: محبةُ دار المحبوب وبيته حتى محبةُ الموضع الذي حلّ به، وهذا هو السرُّ الذي لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون في الوصول إليها هَجْرَ الأوطان والأحباب، ولذَّ لهم فيها السفر الذي هو قطعةٌ من العذاب، فركبوا الأخطار، وجابوا المفَاوِزَ والقِفار، واحتملوا في الوصول غايةَ المشاقِّ، ولو أمكنهم لسعَوْا إليها عَلى الجفون والأحداق.

نعـم أسعـى إليـك عَلـى جفـونـي وإن بَعُـدَت لمســراك الطـريــق

وسرُّ هذه المحبة هي إضافة الربّ سبحانه له إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

قال الشاعر:

لمـا انتسبـتُ إليـك صـرْتُ معظَّمـاً وعلـوتُ قـدراً دون مـن لـم يُنْسَـب

وكلُّ ما نُسب إلى المحبوب فهو محبوب ﴿وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: ١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] ﴿وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٢] ومن فهم هذا فهم معنى قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقول عبده ورسوله ﷺ: «لَبَّيْكَ

= في الوتر باب ٢٠. والنسائي في الافتتاح باب ٨٣. وابن ماجة في الإقامة باب ١٧٦. والدارمي في فضائل القرآن باب ٣٤.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٧٢، ١٧٥، ١٧٩). والبخاري في التوحيد باب ٤٤. وأبو داود في الوتر باب ٢٠. والدارمي في الصلاة باب ١٧١، وفضائل القرآن باب ٣٤.

(٢) جمع أمرد: الغلام الذي طر شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد.

وسَعْدَيْكَ والْخَيْرُ في يَدَيْكَ والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ»[1] وإذا كان من يحبّ مخلوقاً مثلَه يحبّ داره كما قال:

أمُــرُّ عَلــى الــدِّيــارِ ديــارِ ليلــى   أُقبِّــلُ ذا الجــدارَ وذا الجــدارا
ومــا حــبُّ الــدِّيــار شغفــنَ قلبــي   ولكــن حــبُّ مــن سكــن الــديــارا

فكيف بمن ليس كمثله شيء ومن ليس كمثل محبته محبة؟

فصل: ومنها: الإسراع إليه في السير، وحثُّ الركاب نحوه، وطيُّ المنازل في الوصول إليه، والاجتهاد في القرب والدُّنوّ منه، وقطع كلّ قاطعٍ يقطع عنه، واطِّرَاحُ الأشغال الشاغلة عنه، والزُّهْدُ فيها، والرغبة عنها، والاستهانة بكلّ ما يكون سبباً لغضبه ومقته وإن جلّ،والرغبةُ في كلّ ما يدني إليه وإن شقّ، قال الشاعر:

ولــو قلــتِ طَــأْ فــي النــار أعلــم أنــه   رضــاً لــك أو مُــدْنٍ لنــا مــن وصــالــكِ
لقــدّمــت رِجْلــي نحــوهــا فــوطِئْتهــا   هــدًى منــك لــي أو ضِلّــةً مــن ضــلاَلــك

فصل: ومنها: محبة أحباب المحبوب وجيرانهِ وخَدَمه وما يتعلّق به، حتى حرفته وصناعته وآنيته وطعامه ولباسه قال:

أحــبّ بنــي العَــوّام طُــرًّا لحبهــا   ومــن أجلهــا أَحببــت أَخــوالهــا كلبــا

وقال آخر:

يشتــــاق واديهــــا ولــــولا حبُّكــــم   مــــا شــــاقــــه وادٍ زهــــت أزهــــارُه

وقال الآخر:

فيــا ســاكنــي أكنــافِ[2] طَيْبَــة كلُّكــم   إلــى القلــب مــن أَجــل الحبيــب حبيــبُ

وفي أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أَجل سراويل معشوقه فوُجد في

(١) أخرجه بأسانيد وطرق متعددة أحمد في المسند (٢/٣، ٢٧، ١٣١، ٣٧٨، ٣/٣٢، ٤/٦٦، ٥/١٩١، ٢٣٠، ٢٤٢، ٢٨٦، ٣٧٨) والبخاري في العلم باب ٤٩، والرقاق باب ٣٧، والتوحيد باب ٣٢ و ٣٧ و ٣٨، والأطعمة باب ١، واللباس باب ١٠١، والاستئذان باب ٣٠، وتفسير سورة ٢ باب ١٣، وسورة ٢٢ باب ١، وأحاديث الأنبياء باب ٧. ومسلم في الطهارة حديث ٣٧٩، وصلاة المسافرين وقصرها حديث ٢٠١، والحج حديث ١٩ و ٢٠ و ٢١. وأبو داود في المناسك باب ٢٦، والفتن باب ٢، والحدود باب ٢٠، والأدب باب ١٥٠ و ١٥١. والترمذي في الحج باب ١٣، والدعوات باب ٣٢، والجنة باب ١٨. والترمذي في الحج باب ١٣، والدعوات باب ٣٢، والجنة باب ١٨. والنسائي في المناسك باب ٥٤، والافتتاح باب ١٧. وابن ماجة في المناسك باب ١٥. والدارمي في الصلاة باب ٣٣. ومالك في الحج حديث ٢٨.

(٢) جمع كنف: الناحية، والجانب، والظل.

تركته اثنا عشر حملاً وفردةٌ من السراويلات (ذكره البصري)، وعشق آخرُ الهاوُونات من أَجل صوت هاوُن محبوبته، فوُجد في تركته عدةُ آلافٍ منها، وعند الناس من هذا عجائبُ كثيرةٌ. وكان أَنس بن مالك رضي الله عنه يحبّ الدُّبَّاء[1] كثيراً لما رأَى النبي ﷺ يتتبعها من جوانب القصعة.

فصل: ومنها: قِصَرُ الطريق حين يزوره، ويوافي إليه كأنها تُطْوَى له، وطولها إذا انصرف عنه وإن كانت قصيرة قال:

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى أَزورها ... أَرى الأرضَ تُطْوَى لي ويدنو بعيدُها
من الْخَفِرات البيض ودّ جليسُها ... إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تعيدها

وقال آخر:

واللهِ ما جئتكُمْ زائراً ... إلاَّ وجدت الأرض تُطْوَى لي
ولا انثنى عزميَ عن بابكم ... إلاَّ تعثَّرتُ بأَذيالي

وقال آخر:

وإذا قمت عنك لم أَمشِ إلاَّ ... مشيَ عانٍ[2] يقاد نحو الفناء
وإذا جئتُ كنتُ أَسرعَ في السيـ ... ـر من الطير نازلاً في الهواء

وقال الآخر:

وتدنو الطريقُ إذا زرتكُمْ ... وتبعدُ إذْ أَنْثَني راجعا

فصل: ومنها: انجلاء همومه وغمومه إذا زار محبوبَه أَو زاره، وعَوْدُها إذا فارقه كما قال:

يزور فتنجلي عنِّي همومي ... لأن جِلاء حزني في يديه
ويمضي بالمسرَّة حين يمضي ... لأن حوالتي فيها عليه

ومن المعلوم أنه ليس للمحبّ فرحةٌ ولا سرورٌ ولا نعيم إلا بمحبوبه، وبمفارقة محبوبه عذابهُ الآجل والعاجل.

فصل: ومنها: البَهَتُ[3] والرَّوْعة التي تحصُل عند مواجهة الحبيب أَو عند سماع ذكره، ولا سيما إذا رآه فَجْأَةً أو طلع بغتةً كما قال الشاعر:

---

(١) الدباء: القرع.
(٢) عان: أسير أو ذليل أو خاضع. وعنا له يعنو عنوًا: خضع وذل.
(٣) البهت: الدهشة والحيرة.

فمــا هـــو إلاَّ أن أَراهـــا فجـــاءَةً   فـــأُبْهَـــتَ حتـــى مـــا أكـــاد أُجيـــب
فـــأَرجــع عـــن رأْيـــي الـــذي كـــان أَوّلاً   وأَذكـــر مـــا أَعـــددتُ حيـــن تغيـــب

وقال آخر:

فمـــا هـــو إلاَّ أن يـــراهـــا فُجَـــاءَةً   فتصطـــكَّ رِجـــلاه ويسقـــط للجنـــب

وربما اضطرب عند سماع اسمه فَجْأَةً كما قال:

وداعٍ دعـا إذ نحـن بـالْخَيْـفِ مـن مِنًـى   فهيَّـجَ أَشجـانَ الفـؤاد ومـا يـدري
دعـا بـاسـم ليلـى غيـرِهـا فكَـأَنمـا   أَطـار بليلـى طـائـراً كـان فـي صـدري

وقد اخْتُلِفَ في سبب هذه الرَّوعة والفَزَع والاضطراب فقيل: سببه أن للمحبوب سلطاناً عَلَى قلب محبه أعظمَ من سلطان الرعيَّة، فإذا رآه فَجْأَةً راعه ذلك ما يرتاع مَنْ يرى مَنْ يعظِّمه فَجْأَةً، فإن القلب معظِّمٌ لمحبوبه خاضعٌ له، والشخص إذا فَجِئَه المعظَّمُ عنده راعه ذلك، وقيل: سببُه انفراجُ القلب له، ومبادرتُه إلى تَلَقِّيه فيهرُبُ الدَّم منه فيبرد ويُرْعَد ويحدُث الاصفرار والرِّعدة، وربما مات. وبالجملة فهذا أَمرٌ ذوقيٌّ وجداني، وإن لم يُعْرَفْ سببُه.

فصل: ومنها: غيرته لمحبوبه وعَلَى محبوبه، فالغيرة له أَن يكره ما يكره، ويغار إذا عُصِيَ محبوبُه وانْتُهِكَ حقُّه وضُيِّع أمرهُ. فهذه غيرة المحبّ حقًّا، والدينُ كلّه تحت هذه الغيرة.

فأَقوى الناس ديناً أَعظمُهم غيرةً، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(١) فمحبُّ الله ورسوله يغار لله ورسوله عَلَى قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبُه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبَّة أخلى وإن زعم أنه من المحبّين، فكذب من ادّعى محبة محبوبٍ من الناس وهو يرى غيرَه ينتهك حُرْمَةَ محبوبه ويسعى في أذاه ومَساخطه ويستهين بحقّه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذلك بل قلبه بارد، فكيف يصحّ لعبدٍ أن يَدَّعِيَ محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انْتُهِكت، ولا لحقوقه إذا ضيِّعت. وأقلّ الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه، فيغار لمحبوبه من تفريطه في حقه وارتكابه لمعصيته.

وإذا ترَحلت هذه الغيرة من القلب ترحّلت منه المحبة، بل ترحّل منه الدين وإن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٨/٤) والبخاري في النكاح باب ١٠٧، والحدود باب ٤٠، والتوحيد باب ٢٠. ومسلم في اللعان حديث ١٦ و ١٧. والدارمي في النكاح باب ٣٧.

بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هي أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الحاملةُ عَلى ذلك، فإن خلت من القلب لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم يَنْهَ عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرةً منه لربه، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبيته الجهادَ فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ولَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فصل: وأما الغَيْرَة على المحبوب فإنما تُحْمَدُ حيث يُحْمَد الاختصاص بالمحبوب ويُذَمّ الاشتراك فيه شرعاً كغيرة الإنسان عَلَى زوجته وأمَتِه والشيء الذي يختصُّ هو به، فيغار من تعرُّض غيره لذكره ومشاركته له فيه، وهذه الغيرة تختصُ بالمخلوق ولا تُتَصَوَّر في حقّ الخالق، بل المحبّ لربه يحبّ أن الناس كلّهم يحبُّونه ويذكرونه ويعبدونه ويَحْمَدُونه، ولا شيء أقرّ لعينه من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله.

ولما لم يميّز كثيرٌ من الصوفية بين هاتين الغيرتين وقع في كلامهم تخبيط قبيح. وأحسن أَمره أن يكون من السعي المغفور لا المشكور. وكان بعض جَهَلَتهم إذا رأى مَنْ يذكر الله أو يحبه يغار منه وربما سكّته إن أمكنه ويقول: غيرةُ الحبّ تحملني على هذا، وإنما ذلك حَسَدٌ وبَغْيٌ وعُدْوانٌ ونَوْعُ معاداةٍ لله ومُرَاغَمة لطريق رسله أَخرجوها في قالب الغيرة، وشبَّهوا محبة الله بمحبة الصُّوَر من المخلوقين.

ولا ريب أن هذه الغيرة محمودة في محبة من لا تَحْسُن مشاركة المحبّ فيه، وسيأتي ذلك في باب الغيرة على المحبوب.

فصل: ومنها: بذلُ المحبّ في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتَّع به بدون المحبة، وللمحبّ في هذا ثلاثةُ أَحوال: أَحدُها بذلُه ذلك تكلُّفاً ومشقَّةً وهذا في أَوَّل الأمر، فإذا قويت المحبةُ بذَلَه رضاً وطوعاً، فإذا تمكّنت من القلب غاية التمكن بذَلَه سؤالاً وتضرُّعاً كأنه يأخذه من المحبوب، حتى إنه لَيَبْذُل نفسَه دون محبوبه كما كان الصحابة رضي الله عنهم يَقُون رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم حتى يصرّعوا حوله:

ولـي فـؤادٌ إذا لـجّ[1] الغـرامُ بـه ... هـام اشتيـاقـاً إلـى لُقْيـا مُعـذِّبـه
يَفـديك بـالنفس صـبٌّ[2] لـو يكون لـه ... أعـزُّ مـن نفسـه شـيءٌ فـداك بـه

---

(١) لج: تمادى.

(٢) الصب: العاشق المشتاق. والصبابة: الشوق، وقيل رقته، وقيل حرارته وقيل رقة الهوى والولع الشديد بالشيء.

ومَن آثر محبوبَه بنفسه فهو له بماله أشدُّ إيثاراً قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ولا يَتمُّ لهم مقام الإيمان حتى يكون الرسولُ أحبَّ إليهم من أنفسهم فضلاً عن أبنائهم وآبائهم كما صحّ عنه ﷺ أنه قال: «لاَ يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ولدِه ووالدِه والنَّاس أَجْمَعين» وقال له عمر رضي الله عنه: والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كلّ شيءٍ إلّا من نفسي فقال: «لا يا عُمَرُ حتَّى أَكُونَ أحبَّ إليْكَ منْ نفسِكَ» قال: فواللهِ لأنت الآن أحبُّ إليّ من نفسي فقال: «الآن يا عُمر»[١].

فإذا كان هذا شأنَ محبّة عبده ورسوله فكيف بمحبته سبحانه؟ وهذا النوعُ من الحبّ لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعاً لا قدراً، وإن وُجد في الناس من يُؤْثر محبوبَه بنفسه وماله فذاك في الحقيقة إنما هو لمحبة غرَضه منه، فحمله محبةُ غرضه على أن بذلَ فيه نفسَه وماله، وليست محبّتُه لذلك المحبوب لذاته بل لغرضه منه، وهذا المحبوب له مثْلٌ ولمحبته مثل، وأما محبة الله ليس لها مثْلٌ ولا للمحبوب مثل، ولهذا حكّم الصحابةُ رضي الله عنهم رسول الله ﷺ في أنفسهم وأموالهم فقالوا[٢]: هذه أموالُنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحرَ لخُضْناه، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك. قال قيس بن صِرْمة الأنصاري:

ثوى في قريش بضعَ عشرة حِجَّةً ... يذكّر لو يَلْقى حبيباً مؤاتيا
ويَعْرِض في أهل المواسم نفسه ... فلم يَرَ من يُؤْوي ولم يَرَ داعيا
فلما أتانا واستقرّت به النوى ... وأصبح مسروراً بطَيْبَةَ راضيا[٣]
بذلنا له الأموال من حِلّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا[٤]
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا ربّ غيره ... وأن رسولَ الله أصبح هاديا

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/١٧٧، ٢٠٧، ٢٧٥، ٢٧٨، ٤/٣٣٦) والبخاري في الإيمان باب ٨، والأيمان باب ٣. ومسلم في الإيمان حديث ٦٩ و ٧٠. والنسائي في الإيمان باب ١٩. وابن ماجة في المقدمة باب ٩.

(٢) القائل هو سعد بن معاذ. رواه أصحاب السير في غزوة بدر مطولاً ورواه مسلم مختصراً.

(٣) هذا البيت ملفق هنا من بيتين هما:

فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى ... وكان له عوناً من الله باديا

وقد وردت هذه الأبيات في سيرة ابن هشام بزيادة واختلاف.

(٤) الوغى: الحرب والجلبة. وآسيته بنفسي: سويته بها.

فالمحب وصفه الإيثار، والمدعي طبعه الاستئثار.

فصل: ومنها: سروره بما يُسَرُّ به محبوبُه كائناً ما كان، وإن كرهته نفسُه فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه، يكرهه طبعاً ويحبه لما فيه من الشفاء. وهكذا المحبّ مع محبوبه، يَسُرُّه ما يرضى به محبوبُه وإن كان كريهاً لنفسه. وأما من كان واقفاً مع ما تشتهيه نفسه من مراضي محبوبه فليست محبته صادقة، بل هي محبة معلولة، حتى يُسَرَّ بما ساءه وسرّه من مراضي محبوبه، وإذا كان هذا موجوداً في محبة الخلق بعضهم لبعض فالحبيب لذاته أولى بذلك. قال أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّم
وأهنتني فأهنتُ نفسيَ جاهداً ... ما مَن يهون عليك ممن يُكرم
أشبهتِ أعدائي فصرتُ أُحبّهم ... إذ كان حظي منك حظيَ منهم
أجد الملامة في هواكِ لذيذة ... حبّاً لذكركِ فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ

وقريبٌ من هذا البيت الأخير قولُ الآخر:

لئن ساءني إن نِلْتِني بمساءَةٍ ... لقد سرّني أني خطرتُ ببالك[1]

وقال الآخر:

صدودكِ عني إن صددتِ يَسُرُّني ... ولم أرَ قبلي عاشقاً سُرَّ بالصدّ
سُررْتُ به أني تيقّنت أنما ... دعاكِ إليه رغبةٌ منكِ في ودي
ولو كنتِ فيه تزهدين لساءه[2] ... ولكنما عَتْبُ المحبّ من الوجد
فيا فرحةً لي إذ رأيتكِ تَعْتِبي[3] ... عليّ لذنبٍ كان مني عَلَى عمد

وقال الآخر:

أهوى هواها وطولُ البُعد يعجبها ... فالبُعدُ قد صار لي في حبِّها أَرَبا
فمن رأى والهاً قبلي أخا كلَفٍ ... ينأى إذا حِبُّه من أرضه قَرُبا

وقريبٌ من هذا قول أحمد بن الحسين[4]:

يا من يَعِزُّ علينا أن نفارقَهم ... وجداننا كلّ شيءٍ بعدكم عَدَم
إن كان سركم ما قال حاسدُنا ... فما لجُرحٍ إذا أرضاكُم ألم

---

(١) تقدم هذا البيت مع غيره.
(٢) كذا.. ولعل الصواب: لساءني.
(٣) كذا.. ولا وجه لحذف النون.
(٤) هو أبو الطيب المتنبي.

واهتدم[١] بعضهم هذا فقال:

يا من يَعِزُّ علينا أن نُلِمّ بهم إذ بُعدنا عنهم قد صار قصدَهم
إن كان يرضيكم هذا البعاد فما فيه لصَبِّكُمْ جَرْحٌ ولا ألم

ولَعَمْرُ الله أكثر هذه دعاوى لا حقيقة لها، والصادقُ منهم يخبر عن علمه وإرادته، لا عن حاله وصفته. ولقد أحسن القائل[٢]:

رَضُوا بالأماني وابتُلوا بحظوظهم وخاضوا بحارَ الحب دعوى وما ابتلُّوا
فهم في السُّرى لم يَبْرَحوا من مكانهم وما ظعنوا[٣] في السير عنه وقد كلُّوا

وإن كان هذا هو وصف قائلها بعينه وحاله فإنه خاض بحارَ الحب وما ابتلّ فيه له قدم، وأخبر عن نفسه عند انكشاف غِطائه وطلبِ الرسل له لقدومه على ربه فقال وصدق[٤]:

إن كان منزلتي في الحبّ عندكم ما قد لَقِيتُ فقد ضيعت أيامي
أُمنيَّةٌ ظَفِرت نفسي بها زمناً فاليوم أحسبها أضغاث أحلام[٥]

وهذه حال كل من أحبَّ مع الله شيئاً سواه فإنه إلى هذه الغاية يصير ولا بدّ، وسيبدو له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغروراً مخدوعاً بأمنيَّةٍ ظَفِرت نفسُه بها مدَّةَ حياته ثم انقطعت وأعقبت الحسرة والندامة. قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] فالأسباب التي تقطعت بهم هي الوَصل والعلائق والمودات التي كانت لغير الله وفي غير ذات الله، وهي التي يَقْدَم إليها سبحانه فيجعلها هباء منثوراً، فكل محبةٍ لغيرِه فهي عذابٌ على صاحبها وحسرةٌ عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته، ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تُبلى السرائر كما قال:

سيبقى لكم في مُضْمَر القلب والحشا سريرةُ حبٍّ يوم تُبلى السرائر

وقال آخر:

إذا تصدّع شملُ الوصل بينهم فللمُحِبِّين شملٌ غيرُ منصدع

---

(١) الاهتدام: نوع من السرقات الشعرية.
(٢) هو ابن الفارض.
(٣) ظعنوا: ساروا وارتحلوا.
(٤) هو ابن الفارض.
(٥) أضغاث الأحلام: ما يدخل بعضها في بعض وليست كالصحيحة ولا تأويل لها لعدم تبينها. وفي سورة يوسف ﴿قالوا أضغاث أحلام﴾.

وإن تقطع حبلُ الوصل يومئذٍ   فللمحبِّين حبلٌ غيرُ منقطع

فصل: ومنها: حبّ الوحدة والأنس بالخلوة والتفرُّد عن الناس وكأن المحبة قد ثُبتت على ذلك، فلا شيء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرُّده، فإنه إن ظفر بمحبوبه أحبّ خلوته به، وكَره من يدخل بينهما غايةَ الكراهة، ولهذا السرِّ ـ والله أعلم ـ أمر النبي ﷺ بردِّ المارّ بين يدي المصلي حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدري ما عليه من الإثم لكان وقوفُه أربعين خيراً له من مروره بين يديه[1] ولا يجد ألم المرور وشدّتَه إلا قلب حاضرٌ بين يدي محبوبه مقبلٌ، وقد ارتفعت الأغيار بينه وبينه، فمرور المارِّ بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين المحبّ ومحبوبه. وهذا أمرٌ الحاكم فيه الذوقُ فلا ينكره إلا من لم يَذُق.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مرور المارّ بين يدي المصلي يُذهب نصفَ أجره. (ذكره الإمام أحمد) وأيضاً فإن المحبّ يستأنس بذكر محبوبه وكونه في قلبه لا يفارقه، فهو أنيسُه وجليسه لا يستأنس بسواه، فهو مستوحشٌ ممن يَشْغَلُهُ عنه. وحدَّثني تقي الدِّين ابن شقير، قال: خرج شيخ الإسلام ابنُ تَيْمِيّة يوماً فخرجت خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمثّل بقول الشاعر[2]:

وأخرُجُ من بين البيوت لعلّني   أحدّث عنك القلب بالسر خاليا

فخلوة المحبّ بمحبوبه هي غايةُ أُمنيّته، فإن ظَفِر بها وإلاَّ خلا به في سرِّه وأوحشه ذلك من الأغيار. وكان قيس بن الملوَّح إذا رأى إنساناً هرب منه، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه ذكر له ليلى وحديثها فيأنَس به ويسكن إليه. وينبغي للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاهم: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠].

إذَا لم تكُنْ فيكُنَّ سُعْدَى فلا أرى   لكنَّ وجوهاً أو أُغيَّبَ في لحدي

فصل: ومنها: استكانة المحبِّ لمحبوبه وخضوعُه وذلُّه له، والحبُّ مبنيٌّ عَلَى الذُّلِّ، ولا يأنَف العزيزُ الذي لا يَذِلُّ لشيءٍ من ذله لمحبوبه، ولا يَعُدُّه نقصاً ولا عيباً، بل كثيرٌ منهم يَعُدُّ ذلَّه عزًّا كما قال:

إذا كنتَ تهوى من تحبّ ولم تكن   ذليلاً له فاقرَا السلامَ عَلى الوصل
تذلل لمن تهوى لتكسِبَ عِزَّة   فكم عِزَّةٍ قد نالها المرءُ بالذُّلِّ

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.
(٢) هو مجنون ليلى كما جاء في تزيين الأسواق للأنطاكي.

وقال الآخر:

إخضع وَذِلّ لمن تحب فليس في ... شرع الهوى أنفٌ يُشال ويُعقد[1]

وقال الآخر:

ويعجبني ذُلّي لديك ولم يكن ... لِيُعْجِبني لولا محبتك الذُّلّ

وقال آخر:

يَلَذُّ له ذلُّ الهوى وخضوعُهُ ... ولولا الهوى ما لذّ للعاقل الذُّلّ

وقال الآخر:

مساكينُ أهلُ الحبِّ حتى قبورُهم ... عليها ترابُ الذُّلّ دون المقابر[2]

ومتى استحكم الذُّلُّ والحبّ صار عبوديةً، فيصير قلب المحبّ معبداً لمحبوبه، وهذه الرتبة لا يليق أن تتعلّق بمخلوقٍ، ولا تصلح إلا لله وحده.

فصل: ومنها: امتدادُ النَّفَسُ وتردُّدُ الأنفاس وتصاعدُها. وهذا نوعان:

أحدُهما: ما يقارنه حزنٌ ولَهَفٌ[3] كما قال القائل:

رُبَّ ليلٍ أمَدَّ من نَفَس العا ... شق طولاً قطعتُه بانتحاب

وقال آخر:

تردُّد أنفاس المحبّ يدُلُّنا ... عَلَى كُنْهِ[4] ما أخفاه من ألم الحبِّ

إذا خَطَرَاتُ الحبِّ خامرْنَ قلبه ... تنفَّس حتى ظلَّ متصدعَ القلب

والثاني: ما يكون سببُه طرباً ولذّةً. وسببُ وجود النوعين انحصارُ القلبِ وانفراجُه بسبب الوارد الذي ورد عليه فأحدث للنَّفَس الذي تروحه عليه الرِّئة كيفيَّةً مؤذِيَةً وطلب إخراجها فهو تنفُّسُ الصُّعَدَاءِ، وأما تنفُّسُ الراحة فإن القلب ينبسط بعد انقباضه فيدفع الهواء المحيط به فيطلب الخروج.

فصل: ومنها: هجرُه كلَّ سببٍ يُقْصِيه من محبوبه ويبغضه المحبوب، وارتياحهُ لكل سببٍ يُدنيه منه ويستحمد به عنده إذا بلغه عنه. وفي الباب عجائب للمحبين، فكثيرٌ منهم هجر طعاماً أو لباساً أو أرضاً أو صناعةً أو حالةً من الحالات كان محبوبه يَمْقُتُهَا فلم يَعُدْ إليها أبداً، ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة. وكثيرٌ منهم حمله الحبّ على اكتساب

---

(١) تقدم هذا البيت.

(٢) تقدم هذا البيت.

(٣) اللهف: التحسر.

(٤) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته وغايته وقدره.

المعالي والفضائل وغيرها مما يعلم أن المحبوب يُعَظِّمه ويحبُّه. وهذا نوعان أيضاً:

أحدُهما: أن يكون المحبوب مُؤثراً لذلك محبًّا له، فالمحب يبذُل جُهْدَهُ فيه لينال منه أعلاه إن أمكنه، فإن كان المحبوبُ مشغوفاً بجمع المال أثر ذلك في مُحِبّه شغفاً أشدَّ من شغفه، وإن كان مشغوفاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشدَّ من اجتهاده، وإن كان مشغوفاً بحرفةٍ أو صناعةٍ حَرَص المحبُّ على تعلمها إن وجد إلى ذلك سبيلاً، وإن كان مشغوفاً بالنوادر والحكايات الْحِسان والأخبار المستحسنة بالغ المحبّ في تحفُّظها، فالمحبةُ النافعة أن تقع على عشق كامل يحملك عشقُه على طلب الكمال، والبليّة كلُّ البليّة أن تُبْتَلى بمحبة فارغٍ بطال صِفرٍ من كل خير فيحملك حبُّه عَلَى التشبُّه به.

والثاني: أن يكون المحبوب فارغاً من محبة ذلك وإيثاره، ولكن المحبة تستخرج من قلب المحبّ عزماً وإرادة وحرصاً عَلى ما يَعْظُم به في عين المحبوب وقلبه، فتجده من أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده كما قيل:

ويـرتـاح للمعـروف فـي طَلـب العُلَـى ... لتُحْمَـد يـومـاً عنـد ليلـى شمـائلُـهُ[1]

وهذا قد يكون له سببٌ آخرُ وهو معاداةُ الناس له وتنقُّصهم إياه وازدراؤُهم به، فيحمله الانتخاء لنفسه والغيرةُ لها ومحبتُها عَلى المنافسة في المعالي واكتساب الحمد، وهذا من شرف النفس وعِزَّتها كما قيل:

مـن كـان يشكـر للصـديـق فـإنني ... أحبـو بصـالـح شكـريَ الأعـداءَ
هـم صيَّـروا طلـب المعـالـي دَيـدنـي ... حتـى وطئْـتُ بنعلـيَ الجـوزاءَ[2]
ولـربمـا انتفـع الفتـى بعـدوِّه ... والسـمُّ أحيـانـاً يكـون شفـاءَ

وقال الآخر:

عـداي لهـم فضـلٌ علـيَّ ومِنَّـةٌ ... فـلا أعـدم الـرحمٰـن عنِّـي الأعـاديـا
هـمُ بحثـوا عـن زَلّتـي فـاجتنبتهـا ... وهـم نـافسـونـي فـاكتسبـتُ المعـاليـا

فصل: ومنها: الاتفاق الواقع بين المحبّ والمحبوب، ولا سيما إذا كانت المحبةُ محبة مشاكَلَةٍ ومناسَبَة، فكثيراً ما يمرض المحبّ بمرض محبوبه ويتحرّك بحركته ولا يشعر أحدُهما بالآخر، ويتكلم المحبوب بكلامٍ فيتكلم المحبّ به بعينه اتفاقاً، فانظر إلى قول النبي ﷺ لعُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه يوم الْحُدَيْبِيَة لما قال له: «ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟» قال: بلى، قال: «فَعَلاَمَ نُعْطي الدنيَّةَ في ديننا؟» فقال: «إنِّي رَسُولُ

(١) جمع شمال: أخلاقه وطباعه.

(٢) الديدن: العادة والدأب. والجوزاء: برج من أبراج السماء.

الله **وَهُوَ نَاصِرِي وَلَسْتُ أَعْصيهِ**» فقال: ألم تكن تحدّثنا أنا نأتي البيت فنطوِّف به؟ فقال: «**قُلْتُ لَكَ إنَّك تَأتِيهِ الْعَامَ؟**» قال: لا، قال: «**فإنكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ به**». ثم جاء أبا بكرٍ الصِّديقَ رضي الله عنه فقال له: «يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟» قال: بلى، قال: (فعَلاَم نعطي الدنية[١] في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟) فقال له: إنه رسول الله وهو ناصره وليس يَعصيه، قال: ألم يكن يحدّثنا أنا نأتي البيت فنطوِّف به؟ قال: أقال لك إنك تأتيه العامَ؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومُطـوِّفٌ به. فأجاب على جواب رسول الله ﷺ حرفاً بحرف من غير تواطُؤٍ ولا تشاعر، بل موافقة محبٍّ لمحبوب. هكذا وقع في صحيح البخاري، ووقع في بعض المغازي أنه أتى أبا بكر أوّلاً فقال له ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ بعدَه فقال له مثلَ ما قال أبو بكر.

قال السُّهَيْلي: وهذا هو الأولى ويشبه أن يكون المحفوظ، فإنه لا يُظَن بعمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يقول له قولاً فلا يرضى به حتى يأتي أبا بكر رضي الله عنه بعد ذلك والشبهةُ عنده لم تزل فيعيدها عليه، ولا يُظَنُّ ذلك بعمر رضي الله عنه. ولعمري لقد نزع أبو القاسم بذنوبٍ صحيح، ولكن المحفوظ هو الذي وقع في البخاري، وعليه عامة أهل السِّير والمسانيد والسُّنن. وأما ما نسب إلى عمر رضي الله عنه فقد أُجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له في ذلك كما تقدم له أمثالُها، فإنه كان يقول القول فينزل به الوحي، والثاني أن المقام كان مقامَ محنةٍ وابتلاء عَجَز عنه صبرُ أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم، وداخَلَهم من الهمّ والقَلق والتحرُّق على أعدائهم أمرٌ عظيم. ولهذا لما أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا بُدْنهم لم يقم منهم رجلٌ واحدٌ حتى دخل ﷺ على أُمّ سَلَمة مُغضباً فقالت له: من أغضبك أغضبه الله، فقال: «**وَمَا لِيَ لاَ أغْضَبُ وَأنا آمُرُ بالأمْرِ فلاَ أُتّبعُ؟**»[٢] وهذا يردّ تأويلَ من تأوّله على أن القومَ كانوا محسنين في ذلك التثُّبت، وأنهم كانوا ينتظرون النسخ فلا لوم عليهم. وهذا خطأ قبيحٌ من هذا المعتذر، بل كانت المبادرة إلى امتثال أوامره ﷺ أولى بهم، ولو كانوا محسنين في التأخير لما اشتدَّ غضبُه عليهم ولكان أولى منهم بانتظار النسخ، بل هذا من سعيهم المغفور الذي غفره الله لهم بكمال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله، وعَذَرَهم الله سبحانه لقوّة الوارد وضعِفهم عن حَمله حتى لم يحمله عمر رضي الله عنه في قوّته وشدته، واحتمله رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وكان جوابُهما من مشكاةٍ[٣] واحدة.

---

(١) الدنية والدني: الحقير، الضعيف، الساقط.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٦) وابن ماجة في المناسك باب ٤١.

(٣) المشكاة: الكوة غير النافذة. وقيل الأنبوبة في وسط القنديل. قال تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾.

ولما احتمل رسول الله ﷺ هذا الحكم الكونيّ الأمريّ الذي حكم الله له به ورضي به وأقرَّ به ودخل تحته طوعاً وانقياداً ـ وهو الفتح الذي فتح الله له ـ أثابه الله عليه بأربعة أشياء: مغفرة ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه، وهدايته صراطاً مستقيماً، ونصر الله له نصراً عزيزاً. وبهذا يقع جواب السؤال الذي أورده بعضهم ها هنا فقال: كيف يكون حكم الله له بذلك علةً لهذه الأمور الأربعة إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢] الآية، وجوابهُ ما ذكرنا أن تسليمه لهذا الحكم والرضا به والانقيادَ له والدخولَ تحته أوجب له أن آتاه الله ذلك، والمقصود إنما هو ذكر الاتفاق بين المحب والمحبوب، وهذا الذي جرى للصِّديق رضي الله عنه من أحسن الموافقة، ومن هذا موافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لربه تعالى في عدة أُمور قالها فنزل بها الوحي كما قال. وتقوى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه، وهذا بحسب تعلُّق الهمة به وتوجّه القلب إليه واتحادِ مراده بمراده، وربما اقتضى ذلك اتفاقَهما في المرض والصحة والفرح والحزن والْخُلق، فإن كان مع ذلك بينهما تشابهٌ في الخلق الظاهر فهو الغاية في الاتفاق. ولنقتصر من العلامات على هذا القدر وبالله التوفيق.

في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها، فإن قوى الحبّ متى انصرفت إلى جهة لم يبقَ فيها مُتَّسَعٌ لغيرها. ومن أمثال الناس: «ليس في القلب حُبّان، ولا في السماءِ ربّان» ومتى تقسّمت قوى الحبّ بين عدّة محالّ ضَعُفت لا محالة وتأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ الله وَلاَ تُطِعِ الكافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إن الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً. وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً. وَتَوَكَّلْ عَلَى الله وَكَفى بالله وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ١ ـ ٣] كيف أمره بتقواه المتضمِّنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه محبةً له وخشيةً ورجاءً، فإن التقوى لا تَتمُّ إلاّ بذلك، واتباع ما أُوحي إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصّة، وبالتوكل عليه هو يتضَّمن اعتمادَ القلب عليه وحده وثقَته به وسكونَه إليه دون غيره. ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلاّ وجهةٌ واحدة إذا مال بها إلى جهةٍ لم يَمِلْ إلى غيرها، وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتَّبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخرُ لغيره، بل ليس إلا قلبٌ واحد، فإن لم يفرِد بالتوكل والمحبة والتقوى ربّه وإلاّ انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجةَ الرجل أُمّه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دَعِيّه ابنَه؛ فانظر ما أحسنَ هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب، وله نظائر في القرآن عديدةٌ، فمنها قوله: ﴿هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفيفاً فَمرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا الله رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمّا آتَاهُمَا صالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُما فَتَعَالى الله عمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨، ١٨٩] فالنفسُ الواحدةُ وزوجُها آدمُ وحوّاء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما، ولا يُلْتَفَت إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولدٌ فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولدٌ فسمياه عبد الحارث ففعلا، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه فلم يكن لِيشركَ به بعد ذلك. ونظيرُ هذا الاستطراد قوله:

﴿يَسألُونَكَ عَنِ الأهِلّةِ قلْ هي مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثم قال: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بأنْ تأتُوا الْبُيوتَ مِنْ ظُهُورِها﴾ [البقرة: ١٨٩] فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهِلّةِ استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثيرٌ جدًّا.

والمقصودُ أن المحبّة تستلزم توحيد المحبوب فيها، وقد بالغ أبو محمد بن حزم في إنكاره عَلَى من يزعم أنه يعشق أكثرَ من واحدٍ وقال في ذلك شعراً، ونحن نذكر كلامه وشعره، قال بعد كلامٍ طويل: ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحبّ اثنين ويعشق شخصين متغايرين، وإنما هذا ں جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً، وهي على المجاز تسمّى محبةً لا على التحقيق: وأما نفس المحبّ فما في الميل به فضلٌ يصرفه من أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحب ثانٍ، وفي ذلك أقول:

كَـذَبَ المـدّعـي هـوى اثنيـن حتمـاً ... مثـلَ مـا فـي الأصـول أُكـذِبَ مـانـي[١]

ليـس فـي القلـب مـوضـعٌ لِحَبيبَيْـ ... ـنِ ولا أحـدث الأمـورَ اثنـان

فكمـا العقـلُ واحـدٌ ليـس يـدري ... خـالقـاً غيـر واحـدٍ رحمـان

فكـذا القلـب واحـدٌ ليـس يقـوى[٢] ... غيـرَ فـردٍ مُبَـاعِـدٍ أو مُـدَان

هـو فـي شِـرعَـة المـودّة ذو شَكْـ ... ـكٍ بعيـدٌ مـن صحـة الإيمـان

وكـذا الـدِّيـنُ واحـدٌ مستقيـمٌ ... وكَفـورٌ مَـنْ عنـده دِينَـان

وقد اختلف الناسُ في هذه المسألة فقالت طائفة: ليس للقلب إلاّ وجهةٌ واحدةٌ إذا توجَّه إليها لم يمكنه التوجُّه إلى غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً فلا يكون فيه حُبَّان، وكان الشيخ إبراهيم الرقي رحمه الله يميل إلى هذا. وقالت طائفةٌ: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجَّه إلى أحدهما[٣] ولا يَشْغَلُه عن توجُّهه إلى الآخر، قالوا: والقلبُ حَمَّالٌ فما حملته تحمَّل، فإذا حمَّلته الأثقال حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجُّه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده، ولا يَشْغَلُهُ واحدٌ من ذلك عن الآخر، فقد كان

---

(١) ماني: صاحب مذهب المانوية، ولد في بابل عام ٣١٥ وهو من القائلين بالتناسخ وبقدم الظلمة والنور وأزليتهما. ويزعم أن الليل يخلق الشر والنهار يخلق الخير. وفي دينه من الضلالات والخزعبلات ما يفوق الأساطير. ومن أغرب ما يدعو إليه تحريم الزواج وإباحة اللواط كما يحرم ذبح الحيوانات ويحلل أكلها ميتة!!

(٢) كذا.. ولعل الصواب يهوى كما يدل عليه البيت الأول.

(٣) كذا.. بالتذكير بعد قوله وجهتان. ولعل الصواب هو التأنيث.

رسول الله ﷺ قلبُه متوجهٌ في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال مَنْ يصلي خلفه، وكان يسمع بكاء الصبيّ فيخفّف الصلاة خشيةَ أن يَشُقَّ على أمه[1] أفلا ترى قلبَه الواسع الكريمَ كيف اتّسع للأمرين؟ ولا يُظَنّ أن هذا من خصائص النبوة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتسع قلبُه للصلاة والجهاد في آنٍ واحد، وهذا بحسب سَعَة القلب وضيقه وقوته وضَعْفِه. قالوا: وكمال العبودية أن يتّسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته، فلا يَشْغَلُه أحد الأمرين عن الآخر، وهذا موجود في الشاهد، فإن الرجل إذا عمِل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده، فإن قلبه يتّسع لمراعاة عمله وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له، بل هذا شأن كل محبٍّ يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته، قالوا: وهذا رسول الله ﷺ بكى يوم موت ابنه إبراهيم فكان بكاؤه رحمةً له، فاتَّسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله، ولم يَشْغَلْه أحدُهما عن الآخر، لكن الفُضَيْل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضحك، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال إن الله سبحانه قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه. ومعلومٌ أن بين هذه الحال وحالِ رسول الله ﷺ حينئذٍ تفاوتٌ لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ. ونظيرُ هذا اتساع قلب رسول الله ﷺ لغناء الْجُوَيْرِيتَين اللَّتَيْن كانتا تغنّيان عند عائشة رضي الله عنها فلم يَشْغَلْه ذلك عن ربه، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوّعت ببذل ما عليها من الحق، ولم يتسع قلب عمر لذلك لمّا دخل فأنكره، وكم بين من تَرِدُ عليه الواردات فكلٌّ منها يثير همته ويحرّك قلبه إلى الله كما قال القائل:

يـــذكّـــرُنيـــك الخيـــرُ والشـــرُّ والـــذي أخـــافُ وأرجـــو والـــذي أتـــوقّـــعُ[2]

ومن يَرِدُ عليه من الواردات فيَشْغَلُه عن الله ويقطعه عن سير قلبه إليه. فالقلبُ الواسعُ يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه، فلا يهرُب منهم ولا يلحق بالقِفار[3] والجبال والخلوات، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله، فإن لم يَسِرْ معه سار هو وتركه، ولا يُنكَر هذا فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا في المغنّي إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلّهم، فإن لم يطربوا معه لم يَدَعْ طربَه لغِلَظ أكبادهم، وكثافة طبعهم. وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى قوّته وحجّته.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٤٠، ٥/ ٣٠٥) والبخاري في الأذان باب ٦٥ و ١٦٣. وأبو داود في الصلاة باب ١٢٣. والنسائي في الإمامة باب ٣٥. وابن ماجة في الإقامة باب ٤٩.

(٢) تقدم هذا البيت.

(٣) جمع قفرة: مفازة لا نبات فيها ولا ماء. وأقفرت الدار: خلت.

والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ومستحيلٌ أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كلُّ ذاتٍ منهما مستغنيةٌ عن الأخرى من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان، فليس الذي يُحَبُّ لذاته إلاّ الإلهُ الحقُّ الغنيُّ بذاته عن كل ما سواه وكل ما سواه، فقيرٌ بذاته إليه. وأما ما يُحَبُّ لأجله سبحانه فيتعدّد. ولا تكون محبةُ العبد له شاغلةً له عن محبة ربه ولا يشركه معه في الحب، فقد كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ زوجاتِه وأحبَّهُنَّ إليه عائشةُ رضي الله عنها، وكان يحب أباها ويحب عمر رضي الله عنهم، وكان يحب أصحابه وهم مراتبُ في حبّه لهم، ومع هذا فحبُّه كلُّه لله وقوى حبّه جميعُها منصرفةٌ إليه سبحانه.

فإن المحبة ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه. فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبةَ الحبيب تقتضي محبةَ ما يحبُّ ومحبةَ ما يعين عَلَى حبه ويوصل إلى رضاه وقربه، وكيف لا يحبُّ المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟ وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وأصلُ الشِّرك الذي لا يغفره الله هو الشِّرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الربَّ سبحانه في خلق السموات والأرض وإنما كان شركُهم بها من جهة محبتها مع الله فوالَوْا عليها وعادَوْا عليها وتألّهوها وقالوا: هذه آلهةٌ صغارٌ تقرّبنا إلى الإله الأعظم. ففرقٌ بين محبة الله أصلاً والمحبة له تَبَعاً والمحبة معه شركاً. وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مَفْرَق الطرُق بين أهل التوحيد وأهل الشِّرك.

ويُحْكى أن الفُضَيْلَ دخل على ابنته في مرضها فقالت له: يا أبت هل تحبني؟ قال: نعم، قالت: لا إله إلاّ الله، والله ما كنتُ أظنُّ فيك هذا، ولم أكن أظنك تحبّ مع الله أحداً، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لي منك الرحمة أي يكون حبك لي حبَّ رحِمٍ جعلها الله في قلب الوالد لولده لا محبةً مع الله. فللّه حقٌّ من المحبة لا يَشْرَكه فيه غيره، وأظلم الظلم وضعُ تلك المحبة في غير موضعها، والتشريكُ بين الله وغيره فيها. فليتدبَّر اللبيب هذا الباب فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

في غيرة المحبين على أحبابهم

لما كان هذا الباب متَّصلاً بإفراد المحبوب بالمحبة ومن موجباته فإن الغَيْرَة بحسب قوّة المحبة، وقوّتها بحسب إفراد المحبوب حَسُن ذكرُه بعده.

وأصل الغَيْرَة الْحَمِيَّة والأَنَفَةُ[1]، والغيرةُ نوعان: غيرةٌ للمحبوب، وغيرةٌ عليه. فأما الغيرة له فهي الحميَّة له والغضب له إذا اسْتُهِينَ بحقه وانْتُقِصَت حُرْمَتُه وناله مكروه من عدوّه، فيغضب له المحبُ ويَحْمى وتأخذه الغَيْرَة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه، فهذه غَيْرَة المحبين حقًّا، وهي من غَيْرةِ الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحلَّ محارمَه وعصى أمره.

وهذه الغيرة هي التي تحمل عَلى بذل نفس المحبّ ومالِهِ وعرضِه لمحبوبه حتى يزولَ ما يكرهه، فهو يغار لمحبوبه أن تكون فيه صفةٌ يكرهها محبوبهُ ويَمْقُتُهُ عليها أو يفعل ما يبغضه عليه، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفةٌ يكرهها ويبغضها، والدِّينُ كلّه في هذه الغَيْرة بل هي الدِّين، وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوَّه ولا أمر بمعروفٍ ولا نهى عن منكرٍ إلاَّ بهذه الغَيْرة، ومتى خلت من القلب خلا من الدين، فالمؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحبّ، والغَيْرة تصفِّي القلب وتخرج خَبَثَه كما يخرج الكِيرُ[2] خَبَثَ الحديد.

فصل: وأما الغَيْرة على المحبوب فهي أَنَفَةُ المحبّ وَحَمِيَّتُه أن يشاركه في محبوبه غيرُه وهذه أيضاً نوعان: غَيْرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه، وغيرةُ المحبوب على محبه أن يحب معه غيرَه، والغيرة من صفات الربّ جلّ جلاله، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ومن غَيرته تعالى لعبده وعليه يحميه مما يضُرُّهُ في آخرته كما في الترمذي وغيره

---

(١) الأنفة: الاستنكاف.

(٢) الكير: منفخ الحداد يكون من جلد غليظ وله حافات. وخبث الحديد نفايته أو ما نفاه الكير.

مرفوعاً: «**إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كما يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ**»(١) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف: «**وَاللهِ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»(٢). وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف سرٌّ بديع قد نبهنا عليه في باب غَضِّ البصر وأنه يورث نوراً في القلب. ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذي مثَّله بالمشكاة لتعلُّق أحدهما بالآخر. فجمع النبي ﷺ بين ظلمة القلب بالزِّنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس، وذكر أحدهما مع الآخر. وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ**»(٣).

وروى الثوري عن حماد بن إبراهيم عن عبد الله قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَغَارُ لِلْمُسْلِمِ فَلْيَغَرْ**»(٤). وروى أيضاً عن عبد الأعلى، عن ابن عُيَيْنَةَ(٥)، عن أُمِّه، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغَارُ فَلْيَغَرْ أَحَدُكُمْ**»، وفي الصحيح عنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُغَارُ وَالمؤْمِنُ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ ما حَرَّمَ عليه**»(٦)، وروى القَعْنَبِيُّ عن الدَّراوَرْدِيّ، عن العلاءِ، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يَغَارُ واللهُ أَشَدُّ غَيْرَةً**»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في الكسوف باب ٢. ومسلم في الكسوف حديث ١. والنسائي في الكسوف باب ١١. ومالك في الكسوف حديث ١.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٥ و ٢٠، والنكاح باب ١٠٧، وتفسير سورة ٦ باب ٧، وسورة ٧ باب ١. ومسلم في التوبة حديث ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥. والترمذي في الدعوات باب ٩٥. والدارمي في النكاح باب ٣٧.

(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود مرفوعاً وقال رواه الطبراني في الأوسط.

(٥) هكذا.. وفي شرح الجامع الصغير للمناوي: قال الهيثمي: فيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو ضعيف... قال ابن القطان: والحديث لا يصح فإن فيه أبا عبيدة عن أمه زوج عبد الله بن مسعود ولا يعرف لهما حال. وإذن فإن عيينة هنا مصحفة عن «أبي عبيدة».

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٤٣، ٥٢٠، ٥٣٢، ٥٣٩) والبخاري في النكاح باب ١٠٧. ومسلم في التوبة حديث ٣٦. والترمذي في الرضاع باب ١٤.

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٣٥، ٤٣٨) ومسلم في التوبة حديث ٣٨.

فصل: وغَيْرةُ العبد على محبوبه نوعان: غَيْرةٌ ممدوحةٌ يحبُّها الله، وغيرةٌ مذمومة يكرهها الله، فالتي يحبها الله أن يغار عند قيام الرِّيبة، والتي يكرهها أن يغار من غير ريبةٍ بل من مجرَّد سوءِ الظن. وهذه الغَيرة تُفْسدُ المحبة وتوقع العداوة بين المحبّ ومحبوبه.
وفي المسند وغيره عنه ﷺ قال: «الْغَيرةُ غيرتانِ: فَغَيْرَةٌ يُحِبُّها الله وأُخرَى يَكْرَهُهَا الله»، قلْنَا: يا رسول الله ما الغَيْرَةُ التي يحبّ الله؟ قال: «أن تُؤتَى مَعَاصِيهِ أوْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُهُ»، قلنا: فما الغَيْرَةُ التي يكرهُ الله؟ قال: «غَيْرَةُ أَحَدِكُمْ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ»(١)، وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن مِنَ الغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ الله وَمِنْهَا مَا يَكْرَهُ الله فالْغَيْرَةُ التي يُحِبها الله الْغَيْرَةُ في الرِّيبَةِ، وَالْغَيْرَةُ التي يَكْرَهُهَا الله الْغَيْرَةُ فِي غيرِ رِيبَةٍ»(٢). وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لأنَا أغيرُ مِنْهُ وَالله أغْيَرُ مِنِّي»(٣). وقال عبد الله بن شدّاد: الغيرة غَيرتان: غَيرةٌ يصلح بها الرجل أهلَه، وغَيْرةٌ تدخله النار. وروى عبد الله بن لَهيعةَ، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن شماسة المَهْرِي، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عَلَى ماريَة القبطية وهي حاملٌ بإبراهيم وعندها نسيبٌ لها قدم معها من مصر فأسلم، وكان كثيراً ما يدخل على أمّ إبراهيم وأنّه جَبَّ نفسه فقطع ما بين رجليه حتى لم يَبْقَ قليلٌ ولا كثير، فدخل رسولُ الله ﷺ يوماً عليها فوجد في نفسه من ذلك شيئاً كما يقع في أنفس الناس، فخرج متغيِّرَ اللون، فلقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعرف ذلك في وجهه، فقال: يا رسول الله، أراك متغيِّر اللون، فأخبره ما وقع في نفسه من قريب ماريةَ، فمضى بسيفه فأقبل يسعى حتى دخل على مارية فوجد عندها قريبَها ذلك، فأهوى بالسيف ليقتله، فلما رأى ذلك منه كشف عن نفسه، فلما رآه عمر رضي الله عنه رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: إن جبريل أتاني فأخبرني أن الله عزّ وجلّ قد برّأها وقريبَها مما وقع في نفسي، وَبشّرني أن في بطنها غلاماً وأنه أشبهُ الخلق بي وأمرني أن أسَمِّيَه إبراهيم(٤).

وقال الواقدي عن محمد بن صالح، عن سعد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: كانت سارَّةُ عند إبراهيم ﷺ فمكثت معه دهراً لا ترْزَق منه ولداً، فلما رأت

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٥٤).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦) وأبو داود في الجهاد باب ١٠٤. والنسائي في الزكاة باب ٦٦. وابن ماجة في النكاح باب ٥٦. والدارمي في النكاح باب ٣٧.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٤٨) والبخاري في النكاح باب ١٠٧، والتوحيد باب ٢٠. ومسلم في اللعان حديث ١٦ و ١٧. والدارمي في النكاح باب ٣٧.
(٤) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر والطبراني في المعجم الكبير وغيرهما، كما قاله ابن حجر في الإصابة.

ذلك وهبت له هاجرَ أمَتَها، فولدت لإبراهيم، فغارت من ذلك سارَّة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبَرَّ يمينُك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: اثقبي أُذنيها واخفضيها، والخَفْض هو الختان، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أُذنيها قُرْطين فازدادت بهما حسناً، فقالت سارَّة: إنما زدتها جمالاً، فلم تُقَارَّه[١] على كونها معه، وَوَجد بها إبراهيم وجداً شديداً فنقلها إلى مكة، فكان يزورها كلّ يومٍ من الشام على البُرَاق من شغفه بها وقلة صبره عنها.

وفي الصحيح من حديث حُمَيْد، عن أنس رضي الله عنه قال: أهدى بعضُ نساءِ النبيِّ ﷺ له قَصْعَةً فيها ثَرِيدٌ وهو في بيت بعض نسائه، فضربت يد الخادم فانكسرت القصعةُ، فجعل النبيُّ ﷺ يأخذ الثَّرِيدَ ويَرُدُّه في القصعة ويقول: كُلُوا غَارَتْ أُمُّكُمْ، ثم انتظر حتى جاءت قصعةٌ صحيحة فأعطاها التي كُسِرَتْ قصعتُها[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما غرتُ على امرأةٍ قط ما غِرتُ على خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ إياها ولقد ذكرها يوماً فقلت: ما تصنع بعجوز حمراء الشِّدقين قد أبدلك الله خيراً منها؟ فقال: «والله مَا أَبْدَلَنِي الله خَيْراً مِنْهَا»[٣]. فانظر هذه الغيرة الشديدة على امرأةٍ بعدما ماتت. وذلك لفرط محبتها لرسول الله ﷺ كانت تغار عليه أن يذكر غيرَها، وكذلك غَيرتها من صفية رضي الله عنهما، فإن رسول الله ﷺ لما قدم بها المدينة وقد اتخذها لنفسه زوجةً وعرَّس[٤] بها في الطريق، قالت عائشة رضي الله عنها: تنكرتُ وخرجت أنظر فعرفني فأقبل إليّ فانقلبت فأسرع المشي فأدركني فاحتضنني وقال «كيفَ رأيتِها؟» قلت: يهودية بين يهوديات ـ تعني السَّبْيَ ـ[٥].

وفي المسند من حديث الأشعث بن قيس قال: تضيفت بعضَ أصحاب النبي ﷺ

---

(١) لم تقاره: لم توافقه على بقائها معه. وقاره مقارة أي قر معه وسكن.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٠٥، ٢٦٣) والبخاري في النكاح باب ١٠٧. وأبو داود في البيوع باب ٨٩. والنسائي في عشرة النساء باب ٤. وابن ماجة في الأحكام باب ١٤. والدارمي في البيوع باب ٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٨، ٢٠٢، ٢٧٩) والبخاري في النكاح باب ١٠٨، ومناقب الأنصار باب ٢٠، والأدب باب ٢٣، والتوحيد باب ٣٢. ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٤ و ٧٥ و ٧٦. والترمذي في البرّ باب ٧٠، والمناقب باب ٦١. وابن ماجة في النكاح باب ٥٦.

(٤) يقال عرس: إذا نزل المسافر ليستريح ثم يرتحل. أما عرس بامرأته على معنى الدخول بها فقالوا هو خطأ، والصحيح: أعرس بامرأته: دخل بها.

(٥) ذكره بنحوه المحب الطبري في مناقب أمهات المؤمنين وقال: أخرجه ابن ماجه والحافظ الدمشقي في الموافقات.

فقام إلى امرأته فضربها، قال: فحجزت بينهما فرجع إلى فراشه فقال: يا أشعث احفظ عني شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ: «لَا تَسْأَلَنَّ رَجُلاً فِيمَ يَضْرِبُ امْرَأَتَهُ»(١). وذكر حماد بن زيد عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكة أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلاً من وراءِ جدارٍ، بينها وبينه قرابةٌ لا يعلمها ابن عمر، فجمع لها جرائد(٢) ثم ضربها حتى أضَبَّتْ(٣) حسيساً(٤). وذكر الخرائطي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يأكل تفاحاً ومعه امرأتُه فدخل عليه غلامٌ له فناولته تفاحةً قد أكلت منها فأوجعها معاذ ضرباً. ودخل يوماً على امرأته وهي تَطَّلع في خباء أَدَم فضربها. وذكر الثوري عن أشعث عن الحسن أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبي ﷺ لطمها، فدعا الرجلَ ليأخذَ حقها فأنزل الله عز وجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] فقال رسول الله ﷺ: «أَرَدْنَا أَمْراً وأَرَادَ الله أَمْراً»(٥) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديدَ الغَيْرَة وكانت امرأته تخرج فتشهد الصلاة فيكره ذلك فتقول: إن نهيتني انتهيت، فيسكت امتثالاً لقول رسول الله ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله»(٦) وهو الذي أشار على النبي ﷺ أن يَحْجُب نساءه، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نسائهم، ثم قام الإسلام على ذلك، فقال عمر: يا رسول الله، لو حجبتَ نساءك فإنه يدخل عليهن البَرُّ والفاجر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ آية الحجاب(٧). ورُفع إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلٌ قد قتل امرأته ومعها رجلٌ آخر، فقال أولياءُ المرأة: هذا قتل صاحبتنا، وقال أولياءُ الرجل: إنه قد قتل صاحبنا، فقال عمر رضي الله عنه: ما يقول هؤلاء؟ قال: ضرب الآخر فَخِذَي امرأته بالسيف فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته، فقال لهم عمر: ما يقول؟ فقالوا: ضرب بسيفه فقطع فَخِذَي المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنتين، فقال عمر رضي الله عنه: إن عادوا فَعُدْ. ذكره سعيد بن منصور في سننه.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في النكاح باب ٥١.

(٢) الجرائد جمع جريدة: قضبان النخل يجرد عنها الخوص.

(٣) أضبّ الشيء: أخفاه.

(٤) الحسيس: الصوت الخفي.

(٥) في الإصابة لابن حجر: ذكر القصة مقاتل وعبد بن حميد والطبري وغيرهم. وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته علي البيضاوي: رواها أبو داود.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٦، ٣٦، ١٥١، و ٥/ ١٩٢، ١٩٣، و ٦/ ٢٩) ومالك في القبلة حديث ١٢. والبخاري في الجمعة باب ١٣. ومسلم في الصلاة حديث ١٣٦. وأبو داود في الصلاة باب ٥٢. وابن ماجة في المقدمة باب ٢. والدارمي في الصلاة باب ٥٧.

(٧) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٤، ٣٦، و ٦/ ٢٢٣، ٢٧١) والبخاري في الوضوء باب ١٣، والاستئذان باب ١٠. ومسلم في السلام حديث ١٨.

وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى، قالوا لو وجد رجلاً يزني بامرأته فقتلهما فلا قصاص عليه ولا ضمان، إلا أن تكون المرأة مُكْرَهَةً فعليه القصاص بقتلها، ولكن لا يُقبل قولُ الزوج إلا بتصديق الوليِّ أو بيِّنَةٍ، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في عدد البينة فُروِيَ عنه أنها رجلان، ويروى عنه لا بد من أربعة، ووجه هذه الرواية ظاهر حديث سعد بن عُبَادة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أرَأيت إن وجدتُ رجلاً مع امرأتي أُمهله حتى آتي بأربعة شُهَداء؟ فقال النبي ﷺ «نعم» فقال: والذي بعثك بالحق إن كنتُ لأضربه بالسيف غيرَ مُصْفحٍ[(1)] فقال النبيّ ﷺ: «أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ غَيرةِ سَعْدٍ لأنَا أَغْيَرُ مِنْهُ واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»[(2)].

وذكر سعيد بن منصور عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن رجل دخل بيتَه فإذا مع امرأته رجلٌ فقتلها وقتله، فقال عليّ رضي الله عنه: إن جاء بأربعة شُهَداء وإلاّ دُفع برُمَّته[(3)]. ووجهُ رواية الاكتفاء باثنين أن البينةَ ليست على إقامة الحدّ، ولكن عَلَى وجوب[(4)] السبب المانع من القصاص، فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدي عَلَى أهله، ولكن لما أنكر أولياء القتيل طُولِبَ القاتلُ بالبينة فاكتفي برجلين. ورُفع إلى عمر رضي الله عنه رجلٌ قد قتل يهوديًا فسأله عن قصته فقال: إن فلاناً خرج غازياً وأوصاني بامرأته، فبلغني أن يهوديًا يختلف إليها فكمنت له حتى جاء، فجعل ينشد ويقول:

وأبيض غرّه الإسلام منّي ... خَلَوْتُ بِعِرْسِه ليل التّمام[(5)]
أَبِيتُ عَلَى ترائبها ويمسي ... عَلَى جَرْدَاءَ لاحقة الْحِزَام
كأن مواضعَ الرَّبَلاَت منها ... فِئَامٌ ينهضون إلى فِئَام[(6)]

فقمت إليه فقتلته، فأهدر عُمَر دَمَه[(7)] وليس في هذين الأمْرَيْن مطالبة عُمَر رضي الله عنه القاتل بالبيِّنة إذا لعلَّه تيقَّن ذلك أو أَقرَّ به الوليّ، والصواب أنه متى قام عَلَى ذلك دلالةٌ ظاهرةٌ لا تحتمل الكذب أغنت عن البيِّنة. وذكر سفيان بن عُيَيْنَةَ عن الزهري، عن

(١) يقال. صفح فلاناً بالسيف: ضربه بعرضه لا بحده.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) في لسان العرب لابن منظور: الرمة: قطعة حبل يشد بها الأسير أو القاتل إذا قيد إلى القتل، وقول علي يدل على هذا.
(٤) كذا.. ولعل الصواب: وجود.
(٥) العرس امرأة الرجل، والجمع أعراس، وربما سمي الرجل والأنثى عرسين. وليل التمام: أطول ليلة في السنة.
(٦) الربلات: جمع ربلة وهي باطن الفخذ. والفئام: وطاء يفرش في الهودج ونحوه.
(٧) أهدر دمه: أباح قتله.

القاسم بن محمد، عن عبيد بن عُمَير أن رجلاً أضاف إنساناً من هُذَيل فذهبت جاريةٌ لهم تحتطب فأرادها عن نفسها، فرمته بِفِهْرٍ[1] فقتلته، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ذاك قتيلُ الله لا يُودى[2] أبداً. وذكر حَمَّاد بن سَلَمة عن القاسم بن محمد أن أبا السَّيارة أُولع بامرأة أبي جُنْدَب يراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل فإن أبا جُنْدَب إن يعلمْ بهذا يَقْتُلْك، فأبى أن يَنْزِع، فكلمت أخا أبا جُندب فكلّمه فأبى أن يَنْزِع[3]، فأخبرت بذلك أبا جُندب، فقال أبو جُندب: إني مخبر القوم أني أذهب إلى الإبل، فإذا أظلمت جئت فدخلت البيت فإن جاءك فأدخليه عليّ، فودّع أبو جُندب القوم وأخبرهم: إني ذاهبٌ إلى الإبل، فلما أظلم الليل جاء فكمن في البيت. وجاء أبو السَّيارة وهي تطحن في ظلها، فراودها عن نفسها فقالت: وَيْحَك! أرأيت هذا الأمر تدعوني إليه هل دعوتك إلى شيء منه قط؟ قال: لا ولكن لا أصبر عنك، قالت: أدخل البيت حتى أتهيَّأَ لك، فلما دخل البيتَ أغلق أبو جُندب الباب ثم أخذه فدقَّه من عنقه إلى عَجْبِ[4] ذَنَبه، فذهبت المرأة إلى أَخي أبي جُندب فقالت: أدرك الرجلَ فإن أبا جُندب قاتلُه، فجعل أخوه يناشده فتركه، وحمله أبو جُندب إلى مَدْرَجَةِ الإبل فألقاه. فكان إذ مرَّ به إنسان قال له: ما شأنك؟ فيقول: وقعت من بَكْرٍ[5] فحطمني، وبلغ الخبرُ عُمَرَ رضي الله عنه فأرسل إلى أبي جُندبٍ فأخبره بالأمر على وجهه، فأرسل إلى أهل المرأة فصدَّقوه، فجلد عمر أبا السيارة مائة جلدة وأبطل دِيَتَه.

وذكر العباس بن هشام الكلبيّ عن أبيه أن عمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِيَّ أتى مكة حاجًّا، وكان من أجمل العرب، فنظرت إليه امرأةٌ فقالت: لا أدري وجهه أحسن أم فرسه، وكان له جُمَّةٌ[6] تسمَّى الزينة، فكان إذا جلس مع أصحابه نشرها، وإذا قام عَقَصَها[7]، فقالت له المرأة: أين منزلك؟ قال: نجد، قالت: ما أنت بنجديّ ولا تِهاميّ فاصدقني، فقال: رجلٌ من أهل السَّرَاة فيما بين مكة واليمن، ثم أشار إليها ارْتَدفي خلفي ففعلت، فمضى بها إلى السَّرَاة وتبعها زوجُها فلم يلحقها فرجع، فلما استقرت عنده قطع عروقها وقال:

---

(١) الفهر: الحجر ملء الكف، وقيل: الحجر عامة.

(٢) لا يودى: أي ليس له دية.

(٣) نزع عن الأمر: ترك وانتهى.

(٤) العجب: مؤخر كل شيء، وأصل الذنب، وعجب الذنب: جزء في أصل الذنب عند رأس العصعص.

(٥) البكر: الفتى من الإبل، والأنثى بكرة، والجمع أبكر وبكران.

(٦) الجمة: مجتمع شعر الرأس.

(٧) عقص الشعر: ضفره ولبته على الرأس.

والله لا تتبعين بعدي رجلاً أبداً، ثم ردَّها إلى زوجها عَلَى تلك الحال.

فصل: والله سبحانه وتعالى يغار عَلى قلب عبده أن يكون مُعَطَّلاً من حبه وخوفه ورجائه وَأن يكون فيه غيرُه. فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلهي: ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كلَّ شيءٍ لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عن ما خلقتُك له. وفي أثر آخر: خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفّلتُ لك برزقك فلا تتعب. يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كلَّ شيء، وإن فُتُّك فاتكَ كلّ شيء، وأنا خيرٌ لك من كل شيء، ويغار على لسانه أن يتعطّل من ذكره ويشتغلَ بذكر غيره، ويغار على جوارحه أن تتعطّل من طاعته وتشتغل بمعصيته، فيقبُح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أَراد الله بعبده خيراً سلّط على قلبه إذا أَعرض عنه واشتغل بحبّ غيره أَنواعَ العذاب حتى يرجع قلبه إليه، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاءِ. وهذا من غيرته سبحانه وتعالى عَلَى عبده، وكما أَنه سبحانه وتعالى يغار عَلَى عبده المؤمن فهو يغار له ولحُرمته، فلا يُمكّن المفسدَ أن يتوصَّل إلى حُرمته غيرةً منه لعبده، فإنّه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم، وجوارحهم، وأهلهم، وحريمهم، وأموالهم، يتولّى سبحانه الدفع عن ذلك كلِّه غَيْرَةً منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم. والله تعالى يغار عَلى إمائه وعَبيده من المفسدين شرعاً وقَدَراً، ومن أجل ذلك حَرَّم الفواحش وشرع عليها أعظَم العقوبات وأشنعَ القَتَلاتِ لشدَّة غيْرته على إمائه وعبيده، فإن عُطِّلت هذه العقوباتُ شرعاً أجراها سبحانه قَدَراً.

فصل: ومن غَيْرَته سبحانه وتعالى غَيْرَتُه عَلَى توحيده ودينه وكلامه أَن يحظى به من ليس من أهله، بل حال بينهم وبينه غيرة عليه، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ [الأنعام: ٢٥، والإسراء: ٤٦]. ولذلك ثبّط سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله واللّحاق به غَيْرَةً كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ ٱللهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧] فغار سبحانه عَلَى نبيِّه بالفتنة فثبّطهم وأقعدهم عنهم. وسمع الشبلي رحمه الله تعالى قارئاً يقرأُ: ﴿وإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ [الإسراء: ٤٥]. فقال: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغَيْرَة ولا أحدٌ أغير من الله، يعني أنه سبحانه وتعالى لم يجعل الكفّار أَهلاً لمعرفته. وهاهنا نوع من غيرة الرب سبحانه وتعالى لطيفٌ تهتدي إليه العقول، وهو أن العبد يُفْتَحُ له بابٌ من الصفاء والأُنس

والوجود، فيساكنه ويطمئنّ إليه وتلتذّ به نفسُه فيشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحقُّ فيخليه منه ويَرُدُّه حينئذ إليه بالفقر والذِّلَّة والمسكَنة، ويُشهده غايةَ فقره وإعدامه[1] وأنه ليس معه من نفسه شيء البَتَّة، فتعود عزَّةُ ذلك الأنس والصفاء والوجود ذِلَّةً ومسكنة وفقراً وفاقة، وذرَّةٌ من هذا أَحبُّ إليه سبحانه وتعالى وأنفعُ للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأنس المجرّد عن شهود الفقر والذلة والمسكنة. وهذا بابٌ لا يتسع له قلب كلّ أحد.

فصل: ومن الغَيْرَة ٱلغَيْرة على دقيق العلم وما لا يدركه فَهْمُ السامع أن يُذْكر له. ولهذه الغيرة قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حدِّثُوا الناسَ بما يعرفون، أتحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسوله؟ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت بمحدّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنةً. فالعالم يغار على علمه أن يَبْذُلَه لغير أهله، أو يضعه في غير محله كما قال عيسى ابن مريم ﷺ: يا بني إسرائيل لا تمنعوا الحكمة أَهلَها فتظلموهم، ولا تبذلوها لغير أهلها فتظلموها.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. فقال للسائل: وما يُؤَمِّنُك أني إن أخبرتك بتفسيرها كفرت؟ فإنك تكذّب به[2] وتكذيبُك بها كفرُك بها. فالمسألة الدقيقةُ اللطيفة التي تُبْذَلُ لغير أهلها كالمرأة الحسناء التي تُهْدَى إلى ضريرٍ مُقْعَد كما قيل:

* خَوْدٌ[3] تُزَفّ إلى ضرير مُقْعَد *

وكان أبو عليّ إذا وقع شيءٌ في خِلال مجلسه من تشويش الوقت يقول: هذا من غيرة الحقّ، يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت، قال الشاعر:

هَمَّت بإتيانِنا حتى إذا نظرت ... إلى المِرآةِ نهاها وجهُها الحسنُ
ما كان هذا جزائي من محاسنها ... عُذِّبت بالهجر حتى شفَّني الحَزَنُ

قال القُشَيْري: وقيل لبعضهم: أتحبّ أن تراهم؟ قال: لا، قيل: ولِمَ؟ قال: أُنزِّهُ ذلك الجمالَ عن نظر مثلي، وفي معناه أنشدوا:

إني لأحسُدُ ناظريّ عليكا ... حتى أَغُضَّ إذا نظرتُ إليكا
وأراك تخطر في شمائلك التي ... هي فتنتي فأغار منك عليكا

(١) الإعدام والعدم: الفقدان، وأعدم الرجل: افتقر.

(٢) كذا.. ولعل الصواب بها.

(٣) الخود: الشابة الجميلة الناعمة الحسنة الخلق، جمعها خود وخودات.

قلت: وهذه غيرةٌ فاسدة وغاية صاحبها أن يُعْفَى عنه وأن يعدَّ ذلك في شَطَحاته المذمومة، وأما أن تُعَدَّ في مناقبه وفضائله أن يقال أتحب أن ترى الله فيقول: لا ورؤيتُه أَعلى نعيم أهل الجنة، وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يسأَله النظر إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه: «**اللهُمَّ إني أَسأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلى لِقَائِكَ**»[1] وقول هذا القائل: أُنزّه ذلك الجمالَ عن نظر مثلي من خدع الشيطان والنفس، وهو يشبه ما يُحْكى عن بعضهم أَنه قيل له: أَلا تذكره؟ فقال: أُنزهه أن يجري ذكرُه على لساني، وطَرْدُ هذا التنزيه الفاسد أن ينزهه أن يجري كلامُه على لسانه أو يخطُرَ هو أيضاً على قلبه، وقد وقع بعضهم في شيء من هذا فلاموه فأنشد:

يقــولــون زُرْنــا واقــض واجــبَ حقّنــا ... وقــد أسقطــت حــالــي حقــوقَهــم عنّــي
إذا هــم رأَوْا حــالــي ولــم يــأْنَفُــوا لهــا ... ولــم يــأْنَفُــوا منّــي أَنِفْــتُ لهــم منّــي

وطَرْدُ هذه الغيرة أَن لا يزور بيته غيرةً على بيته أن يزوره مثلُه. ولقد لُمْتُ شَخْصاً مرّةً على ترك الصلاة فقال لي: إني لا أرى نفسي أهلاً أن أدخل بيته، فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء. ومن هذا ما ذكره القُشَيري قال: سئل الشبلي متى تستريح؟ فقال: إذا لم أرَ له ذاكراً. ومات ابنٌ له فقطعت أُمُّه شعرها فدخل هو الحمام ونَوَّر لحيته[2] حتى ذهب شعرها. فقيل له: لِمَ فعلت هذا؟ فقال: إنهم يعزونني على الغفلة[3] ويقولون: آجرك الله، ففديت ذكرَهم لله تعالى على الغفلة بلحيتي وموافقة لأهلي. ونظير هذا ما يُحكى عن الثَّوري رحمه الله تعالى أنه سمع رجلاً يؤذِّن فقال: طعنة وسمّ الموت، وسمع كلباً يَنْبَح فقال: لَبَّيك وسعدَيك، فسئل عن ذلك فقال: أما ذاك فكان يذكره على رأْس الغفلة، وأما الكلب فقال الله تعالى: ﴿وَإِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وسمع الشبلي مرةً رجلاً يقول: جل الله، فقال: أحب أن تُجِلَّه عن هذا، ويا عجباً ممن يَعُدُّ هذا في مناقب رجلٍ ويجعله قدوةً ويزيّن به كتابه. وهل شيءٌ أشدُّ على قلب المؤمن وأمرُّ عليه من أن لا يرى لربه ذاكراً؟ وهل شيءٌ أَقرّ لعينه من أن يرى ذاكرين الله بكل مكان، وعذرُ هذا القائل أنه لا يرى ذاكراً لله بحقِّ الذكر، بل لا يرى ذاكراً إلَّا والغفلة والسهوةُ مستوليةٌ على قلبه، فيذكر ربَّه بلسان فارغ من القلب وحضوره في الذكر، وذلك ذكرٌ لا يليق به، فيغار محبُّه أن يُذكر بهذا الذكر فيحب أن لا يسمع أحداً يذكره هذا الذكر. ولما اشترك الناس في هذا الذكر أَخبر أن راحته أَن لا يرى له ذاكراً. هذا أَحسنُ ما يُحمَل عليه

(١) تقدم هذا الحديث مطولاً ص٢٣.

(٢) نور لحيته: دهنها بالنورة. والنورة: أخلاط تستعمل لإزالة الشعر.

(٣) أي على غفلتهم عن تعظيم الله.

كلامه، وإلا فظاهرُه إلى العداوة أَقربُ منه إلى المحبَّة. وليس هذا حال الشبليّ رحمه الله تعالى فإن المحبة كانت تغلب عليه، ومع ذلك فهو من شطحاته التي يُرْجَى أَن تُغْفَر له بصدقه ومحبته وتوحيده، لا أنها مما يُحْمَدُ عليه ويُقْتَدَى به فيه.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم وإن كان ذكرهم إيَّاه مراتب، فأعلاها ذكرُ القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور وجمعيته بكليته بأَحبّ الأذكار إليه، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضاً وإن لم يشاهد المذكور، ثم ذكر القلب وحده، ثم ذكر اللسان وحده، فهذه مراتب الذكر وبعضها أَحبُّ إلى الله من بعض.

وكان طَرْدُ قول الشبليّ أَن راحته أن لا يرى لله مصلياً، ولا لكلامه تالياً، ولا يرى أحداً ينطِق بالشهادتين، فإنّ هذا كلّه من ذكره بل هو أَعلى أنواع ذكره، فكيف يستريح قلب المحبّ إذا لم يَرَ من يفعل ذلك؟ والله سبحانه وتعالى يحبّ أَنّ يُذْكر ولوكان من كافر.

وقال بعض السلف: إن الله يحبّ أَن يُذْكر عَلَى جميع الأحوال إلا في حال الجماع وقضاء الحاجة. وأَوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى ﷺ أن اذكرني على جميع أَحوالك، والله تعالى لا يُضِيع أجرَ ذكر اللسان المجرَّد، بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً، ولكن ثوابٌ دون ثواب.

قال القشيري: وسمعت الأستاذ أبا علي يقول في قول النبي ﷺ في مبايعته فرساً من أعرابيّ وأنه استقاله[1] فأقاله، فقال له الأعرابي: عَمْرَكَ اللهَ فمن أَنْتَ؟ فقال له النبي ﷺ: «امْرُؤٌ من قُرَيْش» فقال له بعض الحاضرين: كفاك جفاءً أَن لا تعرف نبيَّك. قال أبو علي: فإنما قال امرؤٌ من قريش غيرةً، وإلا كان واجباً عليه التعرُّف إلى كل أَحد أنه مَنْ هو، ثم إن الله أَجرى عَلَى لِسان ذلك الصحابي التعريفَ للأعرابي، فيقال: من العجب أن يقال: إن النبي ﷺ غار أن يَذْكُر أَنه رسول الله ﷺ للأعرابي الذي لا يعرفه، وهو كان دائماً يذكر ذلك لأعدائه من الكفار سرًّا وجهراً ليلاً ونهاراً ولا يغار من ذلك، فكيف يُظَنُّ به أنه غار أَن يَعْرِف ذلك المسكين أنه رسول الله ﷺ؟ هذا من خيالات القوم وتُرَّهاتِهِمْ[2] وإنما ستَر عنه ذلك الوقتَ معرفته له لحكمة لطيفةٍ فهمها الصحابيُّ فصرَّح بها للأعرابي، وهي أن الأعرابي كان جافياً جِلْفاً[3] فأَحبَّ النبي ﷺ أن يعرّفه جفاءَه وجَلافته بطريقٍ لا يبكته بها ويعرف من نفسه أنه أَهلٌ لذلك، فكأنه يقول بلسان الحال: كفاك جفاء أَن

(١) استقاله البيع: طلب إليه أن يقيله، أي يفسخ البيع.

(٢) جمع ترهة: الباطل.

(٣) الجلف: الرجل الجافي.

تجهلني فتسألني من أنا، فلما فهم الصحابي ذلك بلطف إدراكه ودِقَّة فهمه فباداًه به وقال: كفاك جفاءً أن لا تعرف نبيَّك.

ثم ذكر القُشَيري كلامَ الشبلي أنه قال: غَيْرة الإلْهية عَلى الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله، وهذا كلامٌ حسن.

قال القُشَيري: والواجب أن يقال: الغَيْرَةُ غَيْرتان: غَيْرَة الحقّ على العبد، وهو أن لا يَجعَله للخلق فيضنَّ به عليهم، وغَيرة العبد للحَقّ، وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأَنفاسه لغير الحقّ سبحانه، فلا يقال: أَنا أغار عَلَى الله ولكن يقال: أنا أغار لله، قال: فإذاً الغَيْرة على الله جهل، وربما تؤدي إلى ترك الدين.

والغَيرة لله توجب تعظيمَ حقوقه وتصفيةَ الأعمال له، فمن سنَّة الْحقّ مع أَوليائه أَنهم إذا ساكنوا غيراً أَو لاحظوا شيئاً أَو صالحوا بقلوبهم شيئاً يشوّش عليهم ذلك، فيغار على قلوبهم بأَن يعيدها خالصةً لنفسه فارغةً، كآدم عليه السلام لمّا وطَّن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه من الجنة، وإبراهيم الخليل عليه السلام لما أعجبه إسماعيل أَمره بذبحه حتى أَخرجه من قلبه، فلما أَسلما وَتَلَّه للجبين وصفّى سرَّه منه أَمره بالفِداء عنه. وقال بعضهم: احذروه فإِنه غيور لا يحبّ أَن يرى في قلب عبده سواه. وقيل: الْحقُّ تعالى غيورٌ ومن غَيْرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه.

وقال السَّرِيُّ لرجل عارفٍ: بي علَّةٌ باطنةٌ فما دواؤُها؟ قال: يا سَرِيّ الله غيورٌ لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه. فهذه غَيْرة صحيحة.

فصل: وهاهنا أقسامٌ أُخَرُ من الغَيرة مذمومة منها: غَيْرةٌ يحمل عليها سوءُ الظنّ فيؤذي بها المحبُّ محبوبه ويُغْري عليه قلبَه بالغضب، وهذه الغيرةُ يكرهها الله إذا كانت في غير ريبَةٍ، ومنها غيرةٌ تَحمله على عقوبة المحبوب بأَكثر مما يستحقه كما ذُكر عن جماعة أَنهم قتلوا محبوبهم. وكان ديك الجنّ الشاعرُ له غلامٌ وجاريةٌ في غاية الجمال وكان يهواهما جميعاً، فدخل المنزل يوماً فوجد الجارية معانقةً للغلام تقبِّله فشدّ عليهما فقتلهما، ثم جلس عند رأْس الجارية فبكاها طويلاً ثم قال:

يـا طلعـةً طلـع الْحِمـامُ[1] عليها ... وجنـى لهـا ثمـرَ الـردى بيـديها
روّيـتُ مـن دمهـا الثـرى ولَطـالمـا ... روّى الهـوى شفتـيَّ مـن شفتيهـا
وأَجلـت سيفـي فـي مَجَـالِ خِنَـاقهـا ... ومـدامعـي تجـري عَلَـى خـدّيهـا
فَـوَحَـقِّ نعليهـا فمـا وطـىء الثـرى ... شـيءٌ أَعـزُّ علـيّ مـن نعليهـا

(١) الحمام: قضاء الموت وقدره.

مـــا كـــان قَتْلِيهـــا لأنـــي لـــم أكـــن أَبكـــي إذا سقـــط الغبـــارُ عليهـــا
لكـن بخلـتُ عَلَـى سـواي بحسنهـا وأنفـت مـن نظـر الغـلام إليهـا

ثم جلس عند رأس الغلام فبكى وأنشأ يقول:

أشفقـتُ أن يَـرِدَ الـزمـانُ بغـدره أو أُبْتَلَـى بعـد الـوفـاء بهجـره
قمـرٌ أنـا استخـرجتـه مـن دَجْنِـهِ[1] بمـودّتـي وجنيتُـه مـن خِـدْره
فقتلتـه ولـه علـيَّ كـرامـةٌ مِـلْءَ الحشـا ولـه الفـؤاد بـأَسـره
عهـدي بـه مَيْتـاً كـأحسـن نـائـم والـدّمـعُ ينحـر مُقلتـي فـي نحـره
لـو كـان يـدري الْمَيْـتُ مـاذا بعـده بـالحـيّ منـه بكـى لـه فـي قبـره
غُصَصٌ[2] تكـاد تَفيـض منهـا نفسُـه ويكـاد يخـرج قلبُـه مـن صـدره

فصل: وقد يغار المحبّ عَلَى محبوبه من نفسه، وهذا من أعجب الغيرة وله أسباب:

منها: خشيته ان يكون مفتاحاً لغيره كما ذُكر أن الحسن بن هانىء وعلي بن عبد الله الجعفري اجتمعا فتناشدا فأنشد الحسن[3]:

ولمـا بـدا لـي أنهـا لا تَـوَدُّني وأن هـواهـا ليـس عنّـي بمنجلـي
تمنّيـت أن تُبلْـى بغيـري لعلّهـا تـذوق حـرارات الهـوى فتـرقّ لـي

فأنشده علي:

ربمـا سـرَّنـي صـدودُك عنّـي فـي طِـلاَبِيـك وامتنـاعـك منّـي
حَـذَراً أن أكـون مفتـاحَ غيـري فـإذا مـا خلـوتُ كنـت التمنـي

وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه وذكر محاسنه خشيةَ تعريضه لحبّ غيره له كما قال علي بن عيسى الرافقي:

ولسـت بـواصـفٍ أبـداً خليـلاً أُعـرضـه لأهـواء الـرجـال
ومـا بـالـي أُشـوّق قلـبَ غيـري ودون وصـالـه ستـرُ الحِجـال

وكثيرٌ من الجهال وَصَف امرأتَه ومحاسنها لغيره، فكان ذلك سببَ فراقها له واتصالها به.

---

(١) الدجنة والدجنة: الغيم المطبق والظلمة.

(٢) جمع غصة: وهي الشجا والهم والحزن وما غص به الإنسان من طعام أو غيظ.

(٣) هو أبو نواس، وفي كتاب الأغاني للأصبهاني أن هذين البيتين واللذين بعدهما كلها لعلي بن عبد الله الجعفري.

فصل: ومنها: أن يحمله فرطُ الْغَيرة عَلَى أن ينزل نفسَه منزلةَ الأجنبي فيغار عَلَى المحبوب من نفسه، ولا يُنكر هذا فإن في المحبة عجائبَ، وقد قال أبو تمام الطائي[1]:

بنفسي من أغار عليه مني ... وأحسد أَهلَه نظري إليه
ولو أني قدَرتُ طَمَستُ عنه ... عيونَ الناس من حذري عليه
حبيبٌ بثّ في جسمي هواه ... وأمسك مهجتي رهناً لديه
فروحي عنده والجسمُ خالٍ ... بلا رُوحٍ وقلبي في يديه

وقال آخر:

يا من إذا ذُكر اسمُه في مجلسٍ ... لذّ الحديث به وطاب المجلس
إني لَمِن نظري أَغار وإنني ... بك عن سواي من الأنام لأنْفَس
نفسي فداؤُك ولو رأيت تلددي[2] ... خَضِلَ المدامع مطرقاً أتنفّس
لعلمتَ أني في هواك مُعذّبٌ ... ومن الحياة ورَوْحِها مستَيْئِس

وقال علي بن نصر:

أَفاتِك أَنتِ فاتكةٌ بقلبي ... وحسنُ الوجه يَفْتُكُ بالقلوب
أَصونكِ عن جميع الناس يا من ... بُليت بها فأضحت من نصيبي
وعن نفسي أصونك ليت نفسي ... تقيك من الحوادث والخطوب
وما حقُّ الحِسان عليَّ إلاَّ ... صيانتهن من دَنَس[3] الذنوب

فصل: ومنها: شدّةُ الموافقة للحبيب، والْحبيبُ يكره أن يَنسب محبته إليه وأن يذكر ذلك، فهو لموافقته لمحبوبه يغار عليه من نفسه كما يَسُرُّه هجرُ محبوبه إذا علم أَن فيه مرادَه، قال الشاعر:

سُرِرتُ بهجرك لما علمـ ... ـت أَن لقلبك فيه سرورا
ولولا سرورُك ما سَرّني ... ولا كنتُ يوماً عليه صبورا

فصل: ومِلاك الغَيرة وأعلاها ثلاثة أنواع: غيرةُ العبد لربه أن تُنْتَهكَ محارِمُهُ وتُضَيَّعَ حدودُه، وغَيرتُه عَلَى قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأْنس بسواه، وغيرتُه عَلَى حُرْمَتِهِ أن يتطلّع إليها غيرُه. فالغيرةُ التي يحبها الله ورسوله دارت عَلَى هذه الأنواع الثلاثة، وما

---

(١) لأبيات ليست في ديوان أبي تمام المطبوع.
(٢) ـ: التحير والتردد.
(٣) الدنس: القبح والوسخ وفعل ما يشين.

عداها فإما من خدَع الشيطان، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة عَلى زوجها أن يتزوّج عليها. فإن قيل: فمِن أيِّ الأنواع تَعُدُّون غيرةَ فاطمة رضي الله عنها ابنةِ رسول الله ﷺ على عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه لما عزم عَلَى نكاح ابنةِ أبي جهل، وغيرةَ رسول الله ﷺ لها؟ قيل: من الغَيرة التي يحبّها الله ورسوله، وقد أشار إليها النبي ﷺ بأنها بَضْعَةٌ[1] منه وأنه يؤذيه ما آذاها، ويُريبه ما أرابها[2]، ولم يكن يَحْسُنُ ذلك الاجتماع البَتَّةَ، فإن بنتَ رسول الله ﷺ لا يَحْسُن أن تجتمع مع بنت عدوّه عند رجلٍ، فإن هذا في غاية المنافرة مع أن ذكر النبي ﷺ صِهْرَه الذي حدَّثه فصدّقه ووعدَه فوفى له دليلٌ على أن عليًّا رضي الله عنه كان مشروطاً عليه في العَقد إما لفظاً وإما عُرْفاً وحالاً أن لا يُريب فاطمة ولا يُؤذيهَا بل يمسكها بالمعروف، وليس من المعروف أن يَضُمَّ إليها بنت عدوّ الله ورسوله ويغيظَها بها، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِلاَّ أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبي طالبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتي وَيَتَزَوَّجَ ابْنَةَ أبي جَهْلٍ**»[3] والشرط العُرْفي الحالي كالشرط اللفظي عند كثيرٍ من الفقهاء كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى، على أن رسول الله ﷺ خاف عليها الفتنة في دينها باجتماعها وبنت عدوّ الله عنده، فلم تكن غَيرتُه ﷺ لمجرد كراهيَة الطبع للمشاركة، بل الحاملُ عليها حُرْمةُ الدين. وقد أشار إلى هذا بقوله: «**إِنّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا**»[4] والله أعلم بالصواب.

(١) البضعة منه: جزء منه. والبضعة: القطعة من اللحم.

(٢) أرابها: أغاظها وأقلقها.

(٣) روى هذه القصة البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

(٤) تكملة الحديث السابق في بعض الروايات.

في عفاف المحبين مع أحبابهم

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ. ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧]. ولما أُنزلت هذه الآيات على النبيِّ ﷺ قال: «**قَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آياتٍ مَنْ أَقَامَهُنّ دَخلَ الْجَنَّةَ**»(١). ثم قرأ هذه الآيات.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾، إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُم غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج: ١٩، ٢٩، ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]. الآية. وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. فإن قيل فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢]. فأمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أُولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محمل كلٍّ من الآيتين؟ فالجواب أَن قولَه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] في حقّ الأحرار، أمرهم الله تعالى أَن يستعفُّوا حتى يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن تَزَوَّجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم،

(١) رواه الترمذي كما جاء في تفسير الخازن. وقال الخفاجي في حاشيته على البيضاوي: الحديث وارد في السنن لكنهم اختلفوا في صحته وضعفه.

وأما قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. فإنه سبحانه أمرهم فيها أَنْ ينكحوا الأيامى وهنَّ النساء اللواتي لا أزواج لهنَّ، هذا هو المشهورُ من لفظ الأيّم عند الإطلاق وإن استُعْمِلَ في حقّ الرجل بالتقييد، كما أن العَزَب عند الإطلاق للرجل وإن استُعْمِل في حقّ المرأة. ثم أمرهم سبحانه أَن يزوّجوا عبيدَهم وإماءَهم إذا صَلَحوا للنكاح، فالآية الأولى في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم. وقوله في هذا القسم: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ [النور: ٣٢]. يَعُمُّ الأنواع الثلاثة التي ذُكرت فيه، فإن الأيّم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمَة، وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وان ماله لسيده فهو فقيرٌ ما دام رقيقاً فلا يمكن أن يُجعل لنكاحه غايةٌ وهي غناه ما دام عبداً، بل غناه إنما يكون إذا عَتَقَ واستغنى بهذا العِتْق، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرّق، فأمر سبحانه بإنكاحه وأَخبر أنه يغنيه من فضله، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذي ينتظر بنكاح الحرّ والله أعلم.

وفي المسند وغيره مرفوعاً: «**ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: الْمُتَزَوِّجُ يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمُكَاتَبُ يُرِيدُ الأَدَاءَ**»، وذكر الثالث(١).

فصل: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسفَ الصِّدِّيق ﷺ من العفاف أعظمَ ما يكون، فإن الدَّاعيَ الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حقّ غيره فإنه ﷺ كان شابًّا والشبابُ مركب الشهوة، وكان عَزَباً ليس عنده ما يعوّضه، وكان غريباً عن أَهله ووطنه. والمقيمُ بين أَهله وأَصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقطَ من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبدُ لا يأنَفُ مما يأنَفُ منه الحرّ، وكانت المرأة ذات مَنْصِبٍ وجمالٍ والدَّاعي مع ذلك أقوى مِن داعي مَنْ ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كُلْفَةُ تَعَرُّض الرجل وطلبه وخوفِه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبةُ التامّةُ والمراودةُ التي يزول معها ظنُّ الامتحان والاختبار لتعلَم عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمنَ هجومَ الداخل على بغتة، وأَتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كلّه فعفَّ لله ولم يُطِعْها، وقدّم حقَّ الله وحقَّ سيدها على ذلك كلّه، وهذا أمرٌ لو ابْتُلِيَ به سواه لم يُعْلَم كيف كانت تكون حاله. فإن قيل: فقد همَّ بها، قيل عنه جوابان، أَحدهما: أنه لم يَهُمَّ بها بل لولا أَن رأَى برهانَ ربّه لهمَّ، هذا قول بعضهم

---

(١) أخرجه في المسند (٢/ ٢٥١، ٤٧٧) والترمذي في فضائل الجهاد باب ٢٠. والنسائي في النكاح باب ٥. وابن ماجه في العتق باب ٣.

في تقدير الآية. والثاني وهو الصواب: أن همّه كان همَّ خطَرات فتركه لله فأثابه الله عليه وهمُّهَا كان همَّ إصرارٍ بذلت معه جُهْدَها فلم تصل إليه فلم يستوِ الهَمّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهمُّ همّان: همُّ خَطَرَات وهمُّ إصرار، فهمُّ الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به. فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣]. قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام، والصوابُ معهم لوجوهٍ، أحدها: أنه متصلٌ بكلام المرأة وهو قولها: ﴿ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ. ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣]. ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قولٍ لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقولُ في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللّبْس[1] فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأوّل أَولى به قطعاً. الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]. والسياق صريح في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]. فأرسل إليهنَّ الملك وأحضرهن وسألهنَّ وفيهنّ امرأته، فشهدنَ ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يُمكِنْهنَّ إلاّ قولُ الحقِّ فقال النسوة: ﴿حَاشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]. وقالت امرأةُ العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ الله لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. الأحسنُ أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أَخنه في امرأته في حال غيبته وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه ﷺ قال: ﴿وما أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاّ من رحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه، فإنه لما أظهر براءتَه ونزاهته مما قُذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكّيها ولا يبرئها، فإنها أمارة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته، قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفةٌ فالصوابُ أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلها في نسق واحدٍ يَدُلُّ عليه وهو قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]. وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ

(١) اللبس: الشبهة تخفى معها حقيقة الأمر. ولبس الشيء: خلطه وعماه، ولبس عليه الأمر: جعله مشكلاً ومدعاة إلى الشك والحيرة.

نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستتر ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]. فهذا هو المذكور أوّلاً بعينه فلا شيء يَفْصِل الكلام عن نظمه ويضْمَرُ فيه قولٌ لا دليل عليه. فإن قيل فما معنى قولها: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]. قيل: هذا تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته ليعلم أني لم أخنهُ بالكذب عليه في غيبته وإن خنتُه في وجهه في أوّل الأمر، فالآن يعلم أني لم أَخُنْهُ في غيبته، ثم اعتذرتْ عن نفسها بقولها: ﴿ومَا أُبرِّىءُ نفسي﴾ [يوسف: ٥٣]. ثم ذكرت السببَ الذي لأجله لم تبرِّىءْ نفسَها، وهي أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب أمرَ هذه المرأة! أقرَّت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها عَلَى ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبدَه وإلاَّ فهو عُرْضَةٌ للشرّ، فوازِنْ بين هذا وبين تقدير كون هذا الْكلام كلامَ يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوُت، ولا يُسْتَبْعَدُ أَن تقول المرأة هذا وهي عَلى دين الشرك فإن القوم كانوا يُقرُّون بالرَّبِّ سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنسَ قولَ سيِّدها لها في أوَّل الحال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

فصل: وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأ في عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجلٌ قَلْبُهُ مُتعلِّقٌ بالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذٰلِكَ وَتَفرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجمَالٍ فَقَالَ: إنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَرَجُلٌ تَصدَّق بِصَدَقَةٍ فأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شمالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»**(١).

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: **«بَيْنَمَا ثَلاَثَةٌ يَمْشُونَ إذْ أَخَذَتْهُمُ السماءُ فأَوَوْا إلَى غَارٍ في الْجَبَلِ فانْحطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فأَطبقتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالاً صَالِحَةً عَمِلْتُمُوهَا فَادْعُوا اللهَ بها، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَةٌ وَصِبْيَانٌ وَكُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فإذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فبدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِما قَبْلَ بَنِيَّ وَإنَّهُ نَأَى بي الشَّجَرُ**

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٣٩٢) والبخاري في الأذان باب ٢٦، والزكاة باب ١٦، والرقاق باب ٢٤، والحدود باب ١٩. ومسلم في الزكاة حديث ٩١. والترمذي في الزهد باب ٥٣. والنسائي في القضاة حديث ٢. ومالك في الشعر حديث ٤.

فَلَمْ آت حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَد نَامَا فَحلَبْتُ كما كُنْتُ أَحْلِبُ فقمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ[1] عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ أَزَلْ كَذٰلِكَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ اللهُ لَهُمْ فُرْجَةً. وَقَالَ الآخر: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ٱبْنَةَ عَمٍّ فَأَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ ٱلرِّجَالُ النِّسَاءَ فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَسَعيتُ حتَّى جَمَعْتُ مائَةَ دِينَارٍ فَجِئْتُهَا بِهَا فلمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ ٱتَّقِ اللهَ وَلاَ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا وَتَرَكْتُ الْمائَةَ دِينَارٍ فإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخرَة فَفَرَجَ اللهُ لَهُمْ فُرْجَةً. فقال الآخر: اللَّهُمَّ إِني كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجيراً بِفَرَقٍ[2] مِنْ أَرُزٍّ فلمَّا قضَى عَمَلَهُ قال: أَعْطِنِي حقِّي فَأَعْطَيْتُهُ فأَبَى أَنْ يَأْخُذَهُ فَزَرَعْتُهُ وَنَمَّيْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ لَهُ بَقَراً وَرِعَاءَهَا[3] فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فقالَ: يَا هَذَا ٱتَّقِ اللهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلكَ البَقَرِ وَرِعَائِهَا فَهُوَ لَكَ، فقالَ: ٱتَّقِ اللهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: لا أَسْتَهْزِىءُ بِكَ فَخُذْ ذٰلِكَ، فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ فإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعلْتُ ذٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا بَقِيَ مِنَ الصَّخْرَةِ فَفَرَجَ اللهُ عَنْهُمْ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[4].

وقال عبيد الله بن موسى: حدثنا شَيْبَانُ بن عبد الرحمن، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله الرازي، عن سعدٍ مولى طلحة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلاَّ مرَّةً أو مرَّتين حتى عَدَّ سبع مرَّات ما حدَّثت به، ولكن سمعته أكثر من ذلك قال: «كان ذُو الْكِفْلِ[5] من بني إسرائيلَ لاَ يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فأَتَتْهُ ٱمْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَاراً على أَنْ يَطَأَهَا فلمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ المَرْأَةِ أُرْعِدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ أَكْرَهْتُكِ؟ قالَتْ: لا ولكن هَذَا عملٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ! قال: فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ؟ قالَتْ: حَمَلَتْنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ فَتَرَكَهَا ثُمَّ قَالَ: اذْهَبِي وَالدَّنَانِيرُ لَكِ ثم قالَ: واللهِ لا يَعصي اللهَ ذُو الْكِفْلِ أَبَداً فماتَ مَنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهِ: غَفَرَ اللهُ لذي الكفْلِ»[6]. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

---

(١) يتضاغون: يتضورون ويصيحون من الجوع.

(٢) الفرق: مكيال معروف بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو ستة عشر رطلاً أو أربعة أرباع.

(٣) رعاء: جمع رعية وهي الكلأ أو جمع راع.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع باب ٩٨، والإجارة باب ١٢، والحرث باب ١٧. وأحمد في المسند (٢/ ١١٦، و٤/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٥) في الجامع الصحيح: الكفل وكذلك هو في تهذيب التهذيب في ترجمة سعد مولى طلحة راوي القصة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٣) والترمذي في القيامة باب ٤٨.

من حديث عُقْبَةَ بن عامر الْجُهَنِي رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكَ من الشّابّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»(١).

وذكر المبرِّد عن أبي كاملٍ، عن إسحاق بن إبراهيم، عن رجاء بن عمرو النَّخَعي، قال: كان بالكوفة فتًى جميل الوجه شديدُ التعبُّد والاجتهاد فنزل في جوار قوم من النَّخَع، فنظر إلى جاريةٍ منهنَّ جميلةٍ فَهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل به فأرسل يخطبُها من أَبيها، فأَخبره أبوها أنها مسمَّاةٌ لابن عمٍّ لها(٢)، فلما اشتدّ عليهما ما يقاسيانه من أَلم الهوى أرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدّةُ محبتك لي وقد اشتدّ بلائي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي، فقال للرسول: ولا واحدة من هاتينِ الْخَلَّتين، ﴿إنِّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ ربِّي عَذَابَ يوْمِ عَظيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥، ويونس: ١٥، والزمر: ١٣]. أخاف ناراً لا يخب سعيرها، ولا يخمد لهيبها، فلما أبلغها الرّسولُ قوله قالت: وأَراه مع هذا يخاف الله؟ والله ما أحدٌ أحقَّ بهذا من أَحدٍ، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدُّنيا وألقت علائقها(٣) خلف ظهرها وجعلت تتعبَّد، وهي مع ذلك تذوب وتنْحلُ حُبًّا للفتى وشوقاً إليه حتى ماتت من ذلك، فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده ويدعو لها، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في أحسن منظر فقال: كيف أنت وما لقيت بعدي؟ قالت:

نعمَ المحبة يا سُؤْلي(٤) محبتكم ... حبٌّ يقود إلى خير وإحسان

فقال: على ذلك إلى مَ صرتِ؟ فقالت:

إلى نعيمٍ وعيشٍ لا زوال له ... في جنَّة الخُلْد ملك ليس بالفاني

فقال لها: اذكريني هناك فإني لست أَنساك، فقالت: ولا أنا والله أَنساك، ولقد سألت مولاي ومولاك أن يجمع بيننا فأَعِنّي على ذلك بالاجتهاد، فقال لها: متى أراك؟ فقالت: ستأْتينا عن قريبٍ فترانا، فلم يعشِ الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتى مات رحمه الله تعالى.

وذكر الزُّبَيْرُ بن بكار أن عبد الرحمن بن أَبي عمّار نزل مكة وكان من عُبَّاد أهلها فسُمِّي القَسّ من عبادته، فمرّ يوماً بجاريةٍ تغنِّي فوقف فسمع غناءها فرآها مولاها فأمره أن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٥١).
(٢) مسماة له وعليه: مخطوبة له.
(٣) جمع علاقة: وهي ما تعلق بها من مال وزوج وولد.
(٤) السؤل: ما سألته. والحاجة.

يدخل عليها فأبى، فقال: فاقعد في مكانٍ تسمع غناءها ولا تراها، ففعل فأعجبته، فقال له مولاها له: لك أن أُحوِّلَها إليك؟ فامتنع بعض الامتناع ثم أجابه إلى ذلك، فنظر إليها فأعجبته فشغف بها وشغفت به، وعلم بذلك أهل مكة، فقالت له ذات يوم: أنا والله أحبكَ، فقال: وأنا والله أحبك، قالت: فإني والله أحب أن أضع فمي على فمك، قال: وأنا والله أحبّ ذلك، قالت: فما يمنعك فإن الموضع خالٍ؟ قال لها: ويحك إني سمعت الله يقول: ﴿الأَخِلاَّءُ يوْمئذٍ بَعْضُهُمْ لبعْضٍ عدُوٌّ إلا المُتَّقينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فأنا والله أكره أن يكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوةً في القيامة، ثم نهض وعيناه تَذْرِفان بالدموع من حبِّها.

وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ[١]: قلت لأعرابي: حدثني عن ليلتك مع فلانة قال: نعم خلوت بها والقمر يُرِينيها فلما غاب أَرتْنِيه، قلت: فما كان بينكما؟ قال: أقربُ ما أحلّ الله مما حرّم الله: الإشارة بغير ما باس، والدُّنُوُّ بغير إمساس، ولعمري لئن كانت الأيام طالت بعدها لقد كانت قصيرةً معها وحسبُك بالحب:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ ... إلا نهاني الحياءُ والكرم
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ... ولا مَشَتْ بي لرِيبةٍ قدم

وقال آخر:

وَصفُوها فلم أزل علم اللَّـ ... ـهُ كئيباً مُسْتولهاً مستهاما[٢]
هل عليها في نظرةٍ من جُناح ... من فتًى لا يزور إلا لماما[٣]
حال فيها الإسلامُ دون هواه ... فهو يهوى ويحفظ الإسلاما
ويميل الهوى به ثم يخشى ... أَن يطيع الهوى فيلقى أَثاما

وقال الحسين بن مُطَيْر:

أحبُّكِ يا سَلْمَى على غير ريبةٍ ... ولا بأس في حب تعَفُّ سرائرُهْ
أحبُّك حُبًّا لا أعنف بعده ... محبًّا ولكني إذا لِيم عاذرُهْ
وقد مات قلبي أوّل الحب مرّةً ... ولو متُّ أضحى الحبُّ قد مات آخرهْ

وقال محمد بن أبي زُرعة الدمشقي:

إن حظِّي ممن أحبّ كفافُ[٤] ... لا صدودٌ مُقْصٍ ولا إنصافُ

---

(١) هو الأصمعي.
(٢) مستولهاً: مضطرب العقل. ومستهاماً: هائماً.
(٣) لا يزور إلا لمامًا: في الأحايين.
(٤) كفاف: قليل والكفاف من الرزق ما كف عن الناس أي أغنى. وفي الحديث «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً».

كلما قلت قد أنابت إلى الوصـ ـــلِ ثناها عما أريد العفافُ
فكأني بين الصدود وبين الـ ـــوصل ممن مقامُه الأعراف[1]
في محلٍّ ين الجنان وبين النا رِ أرجو طَوْراً وطَوْراً أخاف

وقال عثمان بن الضحاك الْحِزَامي: خرجت أريد الحجّ فنزلت بالأبْوَاء، فإذا امرأةٌ جالسةٌ عَلَى باب خيمةٍ فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نُصَيْب:

بزينبَ أَلْمِمْ[2] قبل أن يرحل الرَّكْبُ وقل إن تَمَلِّينا فما ملَّكِ القلبُ

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا الشعر؟ قلت: نعم نُصَيْب، قالت: فتعرف زينبه؟ قلت: لا، قالت: فأنا زينبه، قلت: حياكِ الله، قالت: أما إن اليوم موعدُه من عند أمير المؤمنين، خرج إليه عام أوّل فوعدني هذا اليوم، لعلك لا تبرح حتى تراه، قال: فبينا أنا كذلك إذا أنا براكبٍ، قالت: ترى ذلك الراكب؟ إني لأحسبه إياه، قال: فأقبل فإذا هو نُصَيْب، فنزل قريباً من الخيمةِ ثم أقبل فسلم حتى جلس قريباً منها يسائلها وتسائله أن ينشدها ما أحدث فأنشدها، فقلت في نفسي: محبان طال التنائي بينهما لا بدّ أنْ يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعيري لأشدَّ عليه، فقال: عَلى رِسْلك إني معك، فجلست حتى نهض معي فتسايرنا ثم التفت إليَّ فقال: أقلت في نفسك محبّان التقيا بعد طول التنائي فلا بدّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم قد كان ذلك، قال: وربِّ هذه البَنيَّةِ ما جلست منها مجلساً هو أقرب من هذا.

وقال عُمر بن شبّةَ: حدّثنا أبو غسّان قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً يفرح أن يرى من يراها، فإن ظَفِرَ منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار. واليوم يشير إليها وتشير إليه فيَعِدُها وتَعِدُه فإذا التقيا لم يَشْكُ حبًّا ولم ينشد شعراً، وقام إليها كأنه قد أشهد عَلى نكاحها أبا هريرة رضي الله عنه. وقال محمد بن سيرين: كانوا يعشقون في غير رِيبةٍ، وكان الرجل يأتي إلى القوم فيتحدَّث عندهم لا يستنكر له ذلك. وقال هشام بن حسّان: لكن اليوم لا يَرْضَوْنَ إلّا بالمواقعة. وقيل لأعرابيّ: ما تَعُدُّون العشق فيكم؟ قال: القُبْلة والضمّة والغمزة، وإذا نكح الحبّ فسد. وقال المبرِّد: كان العتبيّ يحبّ جارية تسمَّى مَلك، فكتب إليها:

يا مَلَك قد صرت إلى خُطَّة رضيتُ منها فيكِ بالضَّيْم[3]

---

(١) الأعراف: قيل هو سور بين الجنة والنار.
(٢) ألم: انزل. والإلمام النزول.
(٣) الضيم: الظلم.

مـا اشتملـت عينـي عَلـى رَقـدة مـذ غبـتِ عـن عَيْنـي إلـى اليـوم
فبـتّ مفتـوقَ مَجـاري البكـا معطّـلَ العيـن عـن النـوم
ووجـدي الـدهـرَ بكـم غُلْمَـةٌ فـالمـوتُ مـن نفسـي عَلَـى سَـوْم[1]
يلـومنـي النـاس عَلـى حبّكـم والنـاس أولـى فِيـك بـاللـوم

قال فكتبت إليه:

إن تكـن الغُلْمَـةُ هـاجـت بكـم فعـالـج الغُلْمَـة بـالصـوم
ليـس بـكَ الحـبُّ ولكنّمـا تـدور مـن هـذا عَلَـى كَـوْم

يقال: كام الفحل يَكُوم كَوْماً إذا نزا على الْحِجْرَة[2] وأرادت هذه المعشوقة قولَ النبي ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَن لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[3].

وقال أبو الحسن المدائني: هَوِيَ بعضُ المسلمين جاريةً بمكة فأَرادها فامتنعت عليه، فقال على لسان عطاء بن أبي رَباح:

سـألت الفتـى[4] المكّـيَّ هـل فـي تعـانُقٍ وقُبلـةِ مُشتـاقِ الفـؤادِ جُنـاحُ
فقـال معـاذَ اللـهِ أن يـذهـبَ التقـى تـلاصُـقُ أَكبـادٍ بهـنَّ جـراحُ

فقالت: آلله سألت عطاءً عن ذلك فقال لك هذا؟ فقال: اللهمَّ نعم، فزارته وجعلت تقول: إيَّاك أن تتعدّى ما أفتاك به عطاء.

وقال الزُّبَير بن بكّار عن عبد الملك بن عبد العزيز الماجِشُون قال: أنشدت محمد بن المُنْكَدِر قولَ وَضَّاح الْيَمَن:

فمـا نـوَّلـت حتـى تضـرَّعـت حـولَهـا وأَقـرأْتُهـا مـا رخَّـص اللهُ فـي اللَّمَـم[5]

فضحك محمد وقال: إن كان وضَّاحٌ لمُفْتِياً في نفسه.

وقال الأصمعيّ: قيل لأعرابيّ: ما كنت صانعاً لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت

---

(١) على سوم: أي يطلبها ويحوم حولها.
(٢) هي الأنثى من الخيل، وأكثر اللغويين يقولون بغيرها.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٥٧، ٣٧٨، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٢) والبخاري في الصوم باب ١٠، والنكاح باب ٢ و٣. ومسلم في النكاح حديث ١. والنسائي في الصيام باب ٤٣. وابن ماجة في النكاح باب ١. والدارمي في النكاح باب ٢.
(٤) البيتان تقدما في صفحة ٨٢ و ٩١ باختلاف في اللفظ.
(٥) اللمم: الصغير من الذنوب نحو القبلة والنظرة وما أشبهها.

أمتِّع عيني من وجهها، وقلبي من حديثها، وأَستر منها ما لا يحبه الله، ولا يرضى كشفَه إلَّا عند حِلّه، قيل: فإن خِفْتَ أَن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أَكِلُ قلبي إلى حبِّها، ولا أَصير بقبيح ذلك الفعل إلى نقض عهدها. قال: وقيل لآخر وقد زُوِّجت عشيقتُه من ابن عمِّها وأَهلُها عَلى إهدائِها إليه: أَيَسُرُّك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذي أَمتعني بها وأَشقاني بطلبها، قيل: فما كنت صانعاً؟ قال: كنت أطيع الحبّ في لثمها، وأعصي الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشر سنين بما يبقى عارُه، وتُنشَر بالقبيح أَخبارُه، في ساعةٍ تَنفَدُ لذَّتُها وتبقى تِبِعَتُها، إني إذاً للئيم، لم يَغْذُني أَصلٌ كريم.

وقال عباس الدَّوري: كان بعضُ أصحابنا يقول: كان سفيان الثوريُّ كثيراً ما يتمثَّل بهذين البيتين:

تَفْنَى اللَّذاذةُ ممن نال صفوتَها ... من الحرام ويَبقى الوِزْرُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ في مَغَبَّتِها[1] ... لا خيرَ في لذَّةٍ من بعدها النارُ

وقال الحسين بن مُطَيْر:

ونفسَكَ أَكْرِم عن أمورٍ كثيرةٍ ... فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها
ولا تقرَبِ المَرْعَى الحرامَ فإنما ... حلاوتُه تفنى ويبقى مَريرُها

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الفُتُوَّة تركُ ما تهوى لما تخشى.

وقال الخرائطي: حدَّثنا إبراهيم بن الجُنَيْد، حدّثنا عبد الله بن أبي بكر المقدّمي، حدَّثنا جعفر بن سليمان الضُّبَعي قال: سمعت مالك بن دينار يقول: بينا أَنا أَطوف إذ أَنا بجاريةٍ متعبّدةٍ متعلّقةٍ بأستار الكعبة وهي تقول: يا رب كم من شهوةٍ ذهبت لذَّتها، وبقيت تَبِعتها، أيا رب أما لك أدبٌ إلّا النار؟ فما زال مقامها حتى طلع الفجر، فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي خارجاً أقول: ثكلت مالكاً أمُّه، جُوَيرِيَةٌ منذ الليلة قد بطّلَته[2].

وطائفةٍ بالبيت والليلُ مظلمُ ... تقول ومنها دمعُها يَتَسَجَّمُ[3]
أيا رب كم من شهوةٍ قد رُزِئْتُها ... ولذّة عيشٍ حبلُها متصرِّمُ[4]
أما كان يكفي للعباد عقوبةً ... ولا أدَباً إلّا الجحيم المضرّم

(١) المغبة: عاقبة الشيء.
(٢) بطلته: عطلته. وأبطل: فسد وذهب ضياعاً وخسراً. وأبطل: جاء بالباطل. وتبطل: تعطل. وفي الأساس: البطال المتعطل (وشر الفتيان المتبطل المتعطل).
(٣) يتسجم: يسيل.
(٤) تصرم: تقطع وتقضى.

فمـــا زال ذاك القـــول منهـــا تضـــرُّعـــاً ... إلـــى أن بـــدا فجـــرُ الصبـــاح المقـــدَّمُ
فشبَّكـــتُ منِّـــي الكـــفّ أَهْتُـــف خـــارجـــاً ... عَلـى الـرأس أبـدي بعـضَ مـا كنـت أَكتم
وقلـــت لنفســـي إذ تطـــاول مـــا بهـــا ... وأعيـــا عليهـــا وِرْدُهـــا المتغنَّـــمُ
ألا ثكلتـــك اليـــوم أُمُّـــك مـــالكـــاً ... جُـــوَيـــرِيـــةٌ أَلهـــاك منهـــا التكلُّـــم
فمـــا زلـــتَ بَطّـــالاً بهـــا طـــول ليلـــةٍ ... تنـــال بهـــا حظّـــا جسيمـــاً وتَغْنَـــمُ

وقال مَخْرَمَةُ بن عثمان: نُبِّئت أن فتًى من العُبَّاد هَوِيَ جارية من أهل البصرة فبعث إليها يخطبها فامتنعت وقالت: إن أردت غيرَ ذلك فعلت، فأرسل إليها: سبحان الله! أَدعوكِ إلى ما لا إثم فيه وتدعيني إلى ما لا يَصْلُح؟ فقالت: قد أخبرتك بالذي عندي فإن شئت فتقدَّم، وإن شئت فتأخَّر، فأنشأ يقول:

وأَســـأَلُهَـــا الحـــلالَ وتَـــدْعُ[1] قلبـــي ... إلـــى مـــا لا أريـــد مـــن الحـــرام
كـــداعـــي آل فـــرعـــونٍ إليـــه ... وهـــم يـــدعـــونـــه نحـــو الأثـــام
فظـــلّ منعَّمـــاً فـــي الخُلْـــد يسعـــى ... وظلّـــوا فـــي الجحيـــم وفـــي السَّقـــام

فلما علمت أنه قد امتنع من الفاحشة أَرسلت إليه: أنا بين يديك عَلَى الذي تحبّ، فأرسل إليها: لا حاجة لنا فيمن دعوناه إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية، ثم أنشد:

لا خيـــرَ فيمـــن لا يـــراقـــب ربّـــه ... عنـــد الهـــوى ويخـــافـــه إيمـــانـــا
حَجَـبَ التُّقَـى سُبُـلَ الهـوى فـأخـو التقـى ... يخشـــى إذا وافـــى المَعَـــاد هـــوانـــا

وقال عبد الملك بن مروان لليلى الأخيليّة: بالله هل كان بينك وبين توبة سوءٌ قطّ؟ قالت: والذي ذهب بنفسه وهو قادرٌ على ذهاب نفسي ما كان بيني وبينه سوءٌ قطّ، إلا أنه قدم من سفر فصافحته فغمزَ يدي فظننت أنه يَخْنَع[2] لبعض الأمر فذلك معنى قولي:

وذي حـــاجـــةٍ قلنـــا لـــه لا تَبُـــحْ بهـــا ... فليـــس إليهـــا مـــا حَيِيـــت سَبيـــلُ
لنـــا صـــاحـــبٌ لا ينبغـــي أن نخـــونَـــه ... وأنـــت لأُخـــرى صـــاحـــبٌ وخليـــلُ

قالت: لا والذي ذهب بنفسه ما كلّمني بسوءٍ قطّ حتى فرّق بيني وبينه الموت.

وقال ابن أحمر: بينا أَنا أَطوف بالبيت إذ بَصُرْتُ بامرأةٍ متبرقعةٍ تطوف بالبيت وهي تقول:

لا يقبـــل اللـــهُ مـــن معشـــوقـــةٍ عمـــلاً ... يـــومـــاً وعـــاشقُهـــا غضبـــانُ مهجـــورُ[3]

---

(١) كذا.. بحذف حرف العلة ولا مسوغ له إلا الضرورة.

(٢) يخنع: يدعو إلى الفجور. والخنعة: الزينة والفجور.

(٣) تقدم البيتان في الصفحة ١٢٣.

ليست بمأجورةٍ في قتل عاشقها ... لكنّ عاشقَها في ذاك مأجورُ

فقلت لها: في هذا الموضع؟ فقالت: إليك عنّي لا يَعْلَقْك الحبّ، قلت: وما الحبّ؟ قالت: جلّ والله عن أن يخفى، وخَفِيَ عن أن يُرى، فهو كالنار في أحجارها، إن حرّكته أَوْرَى[1]، وإن تركته توارى، ثم أنشدت تقول:

غِيدٌ أوانسُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظباءِ مكةَ صيدُهُنّ حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث أوانساً[2] ... ويَصُدُّهُنَّ عن الْخَنَا الإسلامُ

وقد روى محمد بن عبد الله الأنصاري، حدّثنا عبد الوارث، عن محمد بن جُحَادة، عن الوليد، عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وصامت شهرها وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتِ الْجَنَّةَ**»[3]. وقال هشام بن عمّار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدّثنا أبي، حدّثنا ابن لَهِيعَة، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ اتَّقَتْ رَبَّهَا وَأَحْصَنَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ادْخُلِي مِنْ أَيِّ أبواب الْجَنَّةِ شِئْتِ**»[4].

وقال الزُّبير بن بكّار: أخبرني سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، حدّثني أبي أن امرأةً لقيت كُثيِّر عزّة فقالت: تسمع بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تراه، قال: مَه رحمك الله! فأنا الذي أقول:

فإنْ أكُ معروقَ العظام فإنَّني ... إذا ما وزنت القومَ بالقوم أُوزَن

قالت: وكيف تُوزَن بالقوم وأنت لا تُعرف إلّا بعزّة؟ قال: والله لئن قلتِ ذاك لقد رفع اللهُ بها قدري، وزيَّن بها شعري، وإنها لَكَمَا قلت:

وما روضةٌ بالحَزْنِ طاهرةُ الثرى ... يَمُجّ النَّدى جثجاثها وَعَرارُها[5]
بأطيبَ من أردانِ عزّةَ مَوْهِناً ... وقد أُوقدت بالمَنْدَل الرَّطب نارُها
من الْخَفِرات البيضِ لم تلقَ شِقْوةً ... وبالحسب المكنون صافٍ نِجارُها
فإنْ برزت كانت لعينيك قُرَّةً ... وإن غِبْتَ عنها لم يَعُمَّكَ عارُها

قالت: أرأيت حين تذكر طيبها فلو أن زِنجيَّةً تخمرت بالمندل الرطب لطاب ريحها، ألا قلت كما قال امرؤ القيس:

---

(١) أورى: اشتعل.
(٢) تقدم البيتان الصفحة ١٧٣ وفيهما: «يحسبن من لين الحديث زوانياً». والخنا: الفحش.
(٣) رواه أحمد والبراز والطبراني، كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.
(٤) في مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف باختلاف في اللفظ.
(٥) تقدمت هذه الأبيات.

خليليّ مُرّا بي عَلَى أمّ جُندُب | نقضي لباناتِ[1] الفؤاد المعذَّبِ
ألم تريانِي كلما جئتُ طارقاً | وجدتُ بها طيباً وإن لم تَطَيَّب؟

فقال: واللهِ الحقُّ خيرُ ما قيل، هو والله أنعتُ لصاحبته منّي.

ودخلت عزّةُ عَلى عبد الملك بن مروان وهو لا يعرفها ترفع مَظلمةً لها، فلما سمع كلامها تعجّب منه، فقال له بعض جلسائه: هذه عزّة كُثَيِّر، فقال لها عبد الملك: إن أردت أن أرُدّ عليكِ مظلمتك فأنشديني ما قال فيك كُثَيِّر، فاستحْيت وقالت والله ما أعرف كُثيِّراً ولكنِّي سمعتهم يحكون عنه أنه قال فيّ:

قضى كلُّ ذي دَينٍ فوفّىٰ غريمَه | وعزّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

فقال عبد الملك: ليس عن هذا أسألك، ولكن أنشديني من قوله:

وقد زعمت أني تغيَّرت بعدها | ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيَّر
تغيَّر جسمي والخليقةُ كالذي | عَهِدْتِ ولم يخبر بسرّك مخبر

قالت: ما سمعت هذا ولكن سمعت الناس يحكون عنه أن قال فيّ:

كأني أنادي صخرةً حين أعرضت | من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصم زلّتِ
صفوحٌ[2] فما تلقاك إلاّ بخيلةً | فمن ملّ منها ذلك الوصل مَلّتِ

فقضى حاجتها وردَّ مظلمتها وقال: أَدخلوها على الجواري يأخذن من أدبها. وذكرت عنه أنه قال فيها أيضاً:

وما نلت منها مَحرماً غير أنني | أُقبِّل بسّاماً من الثغر أفلجا
وألثم فاها تارةً ثم تارةً | وأترك حاجاتِ النفوس تحرُّجا

وقال الزُّبير بن بكار، عن عباس بن سهل الساعدي قال: بينا أنا بالشام إذ لقيني رجلٌ من أصحابي فقال: هل لكم في جميل نعوده؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه وما يُخَيَّلُ إليّ إلا أن الموت يكرثه[3]، فنظر إليّ ثم قال: يا ابن سهل، ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قطّ، ولم يزنِ، ولم يقتل نفساً، يشهد أن لا إله إلا الله؟ قلت: أظنه قد نجا وأرجو له الجنة، فمن هذا الرجل؟ قال: أنا، قلت: والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبِّب[4] منذ عشرين سنة في بُثينةَ، فقال: لا نالتني شفاعةُ محمد ﷺ يوم القيامة ـ فإني

---

(١) جمع لبانة: الحاجة والنهمة.

(٢) المرأة الصفوح: المعرضة الهاجرة.

(٣) يكرثه: يشتد عليه ويبلغ منه المشقة.

(٤) شبب بفلانة: تغزل بها ووصف حسنها.

في أوّل يومٍ من أيام الآخرة وآخر يومٍ من أيام الدُّنيا ـ إن كنت وضعت يدي عليها لريبةٍ. فما برحنا حتى مات.

وقال عُوانة بن الحكم: كان عبد المطلب لا يسافر إلا ومعه ابنه الحارث، وكان أكبر ولده، وكان شبيهاً به جمالاً وحُسْناً، فأَتى اليمن وكان يجالس عظيماً من عظمائهم فقال له: لو أمرت ابنك هذا يجالسني وينادمني، ففعل، فعشقت امرأتُه الحارثَ، فراسلته فأَبى عليها، فألَحَّت عليه، فأخبر بذلك أباه، فلما يئست منه سقته سمَّ شهرٍ، فارتحل به عبد المطلب حتى إذا قدم مكة مات الحارث. وذكرها هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وذكر رثاء أبيه له بقصيدته التي فيها:

والحـــارث الفيّـــاض أكـــرم مـــاجـــدِ أيـــامَ نـــازعـــه الهمـــامُ الكـــاســـا

ولما احْتُضِرَ أبو سفيان بن الحارث هذا وهو ابن عمِّ النبي ﷺ قال لأهله: لا تبكوا عليَّ فإني لم أتنطف[1] بخطيئة منذ أسلمت.

ولما قدم عُرْوَةُ بن الزُّبير عَلَى الوليد بن عبد الملك خرجت برجله الآكلة[2] فاجتمع رأي الأطباءِ على نشرها وأنه إنْ لم يفعل سرت إلى جسمه فهلك، فلما عزم على ذلك قالوا له: نسقيك مُرْقِداً؟ قال: ولِمَ؟ قالوا: لئلا تُحِسُّ بما يُصنع، قال: لا بل شأنكم، فنشروا ساقه بالمنشار، فما أزال عضواً من عضوٍ حتى فرغوا منها ثم حسموها[3]، فلما نظر إليها في أيديهم تناولها وقال: الحمد لله، أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أَني ما مشيت بك إلى حرامٍ قَطّ.

ولما حضرتْ عُمَر بن أبي ربيعة الوفاةُ بكى عليه أخوه الحارث، فقال له عمر: يا أخي إن كان أسفك لما سمعت من قولي: قلت لها وقالت لي، فكل مملوكٍ لي حرٌّ إن كنت كشفت حراماً قطّ. فقال الحارث: الحمد لله تعالى طيّبت نفسي.

وقال سفيان بن محمد: دخلتْ يوماً عزّة عَلَى أُمِّ البنين أُختِ عمر بن عبد العزيز فقالت يا عَزَّة ما قول كُثَيِّر:

قضـــى كـــلُّ ذي دَيـــن فـــوفّـــىٰ غـــريمَـــه وعـــزَّةُ ممطـــولٌ معنَّـــى غـــريمُهـــا؟[4]

---

(١) تنطف: تلطخ.

(٢) الآكلة: الحكة والجرب.

(٣) حسموها: كووها لكيلا يسيل الدم.

(٤) تقدم هذا البيت. ومطل فلانا بدينه: سوفه بوعد الوفاء مرة بعد الأخرى، ومعنى: معذب حزين، مكلف بما يشق عليه.

ما كان هذا الدَّيْن؟ فقالت: كنت وعدته بقُبْلَةٍ فتحرَّجت منها، فقالت أُمّ البنين: أَنجزيها وعليّ إثمها، قالت: فأَعتقت أُمّ البنين بكلمتها هذه أربعين رقبةً، وكانت إذا ذكرتها بكت وقالت: ليتني خَرِست ولم أتكلم بها.

ولما احتُضر ذو الرُّمَّة قال: لقد هممت بميٍّ عشرين سنة في غير رِيبةٍ ولا فساد.

وكان الحارث بن خالد بن هشام المخزوميّ عاشقاً لعائشة بنت طلحة وله فيها أشعارٌ أفرد لها ابن المرزُبان كتاباً، فلما قُتل عنها مُصْعَبُ بن الزبير قيل للحارث: ما يمنعك الآن منها؟ قال: والله لا يتحدّث رجالات قريش أَن تشبيبي بها كان لرِيبةٍ ولشيءٍ من الباطل.

وقال ابن عُلاَثَة: دخلت على رجلٍ من الأعراب خيمتَه وهو يئنّ فقلت: ما شأنك؟ قال: عاشق، فقلت له: ممن الرجل؟ قال: من قومٍ إذا عشقوا ماتوا عفَّةً، فجعلت أَعْذله[1] وأُزهّده فيما هو فيه، فتنفّس الصُّعداءَ ثم قال:

ليس لي مسعدٌ فأشكو إليه ... إنما يسعدُ الحزينَ الحزينُ

وقال سعيد بن عُقْبَةَ لأعرابيّ: ممَّن الرجل؟ قال من قومٍ إذا عشقوا ماتوا قال: عذريٌّ وربِّ الكعبة، فقلت له: ومِمَّ ذاك؟ قال: في نسائنا صَباحة، وفي رجالنا عفة.

وقال سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عُذْرَة ورأيت بها هوًى غالباً خفت عليها الموت منه: ما بال العشق يقتلكم معاشرَ عُذْرَة من بين أَحياء العرب؟ فقالت: فينا جمالٌ وتعفُّفٌ والجمال يحملنا على العفاف والعفاف يورثنا رقة القلوب، والعشق يفني آجالنا، وإنا نرى عيوناً لا ترونها.

وقال أبوعبيدة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى: قال رجلٌ من بني فَزَارة لرجلٍ من بني عُذْرَة: ما يُعَدُّ موتكم من الْحبّ مزية، وإنما ذاك من ضعف البنية ووهن العقل وضيق الرِّئة، فقال له العذري: أَما لو رأيتم المحاجر البُلج، ترشقُ بالأعين الدُّعْج، من فوقها الحواجب الزُّجُّ، والشفاه السُّمْر، تفترُّ عن الثنايا الغُرّ، كأنها نظم الدُّر، لجعلتموها اللاّت والعُزّى ونبذتم الإسلام وراء ظهوركم[2].

وقال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول في مرضه الذي مات فيه: اللهم إنك

---

(١) أعذله: ألومه.

(٢) البلج جمع أبلج: الذي بعد ما بين عينيه فهو أبلج وهي بلجاء. الدعج: جمع دعجاء. والدعج: شدة سواد العين مع سعتها. والزج جمع زجاء والزجج: دقة في الحاجبين وطول. الثنايا جمع ثانية: وهي أربع أسنان في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل. الغر: البيضاء.

تعلم أني لم أطأ فرْجاً حراماً قطُّ وأنا أعلم، ولم آكل درهماً حراماً قطّ وأنا أعلم

وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي: دخلت عَلَى المعتضد وعَلَى رأسه غلمانٌ صِباحُ الوجوه أحداث، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأمّلهم، فلما أردت القيام أشار إليّ، فمكثت ساعةً فلما خلا قال لي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي عَلَى حرامٍ قطُّ.

وقال اليزيدي: جلس محمد بن منصور بن بسّام وعلى رأسه عدَّة خَدَمٍ لم يُرَ قطّ أحسنُ منهم، ما منهم من ثمنه ألف دينار بل أكثر، فجعل الناس ينظرون إليهم فقال محمد: هم أحرارٌ لوجه الله إن كان الله كتب عليّ ذنباً مع واحدٍ منهم، فمن عَرَفَ خلافَ ذلك منهم فليمضِ فإنه قد عَتَقَ وهو في حِلٍّ مما يأخذ من مالي.

وقال إبراهيم بن أبي بكر بن عيّاش: شهدت أبي عند الموت فبكيت فقال: ما يبكيك؟ فما أتى أبوك فاحشةً قطّ.

وقال عمر بن حفص بن غياث: لما حضرت أبي الوفاة أُغمي عليه فبكيت عند رأسه، فقال لي حين أفاق: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر يعني القضاءَ قال: لا تَبْكِ فإني ما حللت سراويلي على حرامٍ قطُّ، ولا جلس بين يديَّ خصمان فباليت عَلَى من توجَّه الحكم منهما.

وقال سفيان بن أحمد المَصِّيصِي: شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سُجِّي[1] نحو القبلة، فقامت جاريته تَغْمِز رجليه فقال: اغْمِزيهما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرامٍ قطُّ.

وقال محمد بن إسحاق: نزل السريُّ بن دينار في دَربٍ بمصر وكانت فيه امرأةٌ جميلةٌ فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة فقالت: لأَفْتِنَنَّهُ، فلما دخلت من باب الدار تكشَّفَت وأظهرت نفسها، فقال: ما لك؟ فقالت: هل لك في فراشٍ وَطِيّ وعيشٍ رخيّ؟ فأقبل عليها وهو يقول:

وكـم ذي معَـاصٍ نـال منهـنَّ لـذَّةً ... ومـات فخـلّاهـا وذاق الـدواهيـا
تَصَـرَّمُ لـذَّاتُ المعـاصـي وتنقضـي ... وتبقـى تِبَـاعـاتُ المعـاصي كمـا هيـا[2]
فيـا سَـوْءَتـا واللـهُ راءٍ وسـامـعٌ ... لعبـدٍ بعيـن الله يَغْشـى المعـاصيـا

(١) سجى الميت: مد عليه ثوباً وغطاه.
(٢) تصرم: تنقضي وتذهب. وتباعات جمع تباعة: ظلامة أو ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله في الشر.

وقال عمر بن بكير: قال أعرابي: علقتُ امرأةً كنت آتيها فأحدّثها سنين وما جرت بيننا ريبةٌ قطّ، إلا أني رأيت بياضَ كفها في ليلةٍ ظلماءَ فوضعت يدي عَلَى يدها، فقالت: مَهْ[1] لا تفسد ما بيني وبينك، فإنه ما نُكح حبٌّ قطّ إلاّ فسد. قال: فقمت وقد تصبّبْتُ عرَقاً حياءً منها ولم أَعُدْ إلى شيء من ذلك.

وذكر أبو الفرج وغيرُه أن امرأةً جميلةً كانت بمكة، وكان لها زوجٌ، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أَترى أَحداً يرى هذا الوجه ولا يفتتن به؟ قال: نعم، قالت: مَنْ؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فَلأفتننه، قال: قد أَذِنت لك، قال: فأَتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحيةٍ من المسجد الحرام فأَسفرت عن وجهٍ مثلِ فلقة القمر، فقال لها: يا أَمَةَ الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك قال: إني سائلكِ عن شيء فإن أنت صدقتِني نظرت في أمرك قالت: لا تسألني عن شيء إلاّ صدقتك قال: أخبريني لو أَن ملك الموت أَتاك ليَقبِض روحك أَكان يسرّكِ أَن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهمّ لا، قال: صدقت قال: فلو دخلتِ قبرك وأُجلست للمساءلة أكان يسرّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت قال: فلو أَن الناس أُعْطُوا كتبَهم ولا تدرين أَتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا قال: صدقت، قال: فلو أردت المَمَرّ على الصراط ولا تدرين هل تَنجين أو لا تَنجين أكان يسرّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخفّ ميزانك أم يثقل أكان يسرّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو وقفتِ بين يدي الله للمساءلة أكان يسرّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت قال: اتّقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطّال ونحن بطّالون، فأقبلت عَلَى الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بن عمير أفسد عَلَيَّ امرأتي، كانت في كل ليلةٍ عروساً فصيَّرها راهبة.

وقال سعيد بن عبد الله بن راشد: علقت فتاةٌ من العرب فتًى من قومها وكان عاقلاً فجعلت تكثر التردُّد إليه، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيَّرت واحتالت في أن خلا لها وجهُه، فتعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه فتزايد المرض حتى سقطت على الفراش، فقالت له أُمُّهُ: إنَّ فلانة قد مرضت وها علينا حق، قال: فعوديها وقولي لها:

(١) مه: اسم فعل مبني على السكون بمعنى انكفف، ولا تقل بمعنى اكفف لأن اكفف يتعدى ولا يتعدى. وحكمها في التنكير والوصل حكم صه. وجاء في القاموس المحيط للفيروزابادي: مهمه قال له مه مه أي اكفف.

يقول لك ما خبرك؟ فسارت إليها امُّه وسألتها ما بك؟ فقالت: وجعٌ في فؤادي هو أصل علتي، قالت: فإن ابني يسألك عن علتك، فتنفَّست الصُّعدَاءَ ثم قالت:

يسائلني عن علَّتي وهو علَّتي ... عجيبٌ من الأنباء جاء به الخبر

فانصرفت إليه أُمه وأخبرته وقالت له: تريد أَن تصير إليك؟ فقال: نعم، فذكرت أُمه لها ذلك فبكت وقالت:

ويبعدني عن قربه ولقائه ... فلما أَذاب الجسمَ منّي تعطَّفا
فلست بآتٍ موضعاً فيه قاتلي ... كفاني سَقاماً أَن أَموت تلهفا

وتزايدت بها العلَّة حتى ماتت.

وأحبَّ رجلٌ من أهل الكوفة يسمى أَبا الشعثاء امرأَةً جميلة، فلما علمت به كتبت إليه وقالت:

لأبي الشعثاء حبٌّ دائمٌ ... ليس فيه تهمةٌ لمُتَّهَمْ
يا فؤادي فازدجر[1] عنه ويا ... عَبَثَ الحبّ به فاقعد وقُمْ
جاءني منه كلامٌ صائدٌ ... ورسالاتُ المحبين الكلمْ
صائد يأْمنه غزلانُه ... مثل ما يأْمن غزلانُ الحَرَمْ
صلِّ إن أحببت أن تُعْطى المنى ... يا أَبا الشعثاء لله وصمْ
ثم ميعادُك بعد الموت في ... جنة الخلد إنِ اللهُ رَحِمْ
حيث أَلقاك غلاماً ناشئاً ... ناعماً قد كَمُلَت فيه النعم

وقال الأصمعي عن أبي سفيان بن العلاء قال: بَصُرت الثريَّا بعمر بن أبي ربيعة وهو يطوف حول البيت، فتنكرت وفي كفها خَلُوقٌ[2] فزَحَمته فأثر ٱلْخُلوق في ثوبه: فجعل الناس يقولون: يا أبا الخطاب ما هذا زِيُّ المحرم فأنشأ يقول:

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى ... جنةَ الخلد مَن ملاني خَلُوقا
مسحت كفها بجيب قميصي ... حينَ طُفنا بالبيت مسحاً رفيقا

فقال له عبد الله بن عمر: مثل هذا القول في هذا الموضع؟ فقال له: يا أبا عبد الرحمن قد سمعت مني ما قد سمعت فورَبّ هذه البَنِيةِ ما حللت إزاري عَلَى حرامٍ قطّ.

---

(١) ازدجر وانزجر بمعنى زجر: منعه ونهاه قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ أي منع من ارتكاب المآثم.
(٢) الخلوق: ضرب من الطيب أكثر أجزائه من الزعفران.

وقيل لليلى الأخيلية: هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله؟ قالت: إذاً أكون منسلخةً من ديني إن كنت ارتكبت عظيماً ثم أُتبعه بالكذب.

وقال العُتْبي: خرجت إلى المِرْبَد فإذا بأعرابي غَزِلٍ فمِلْت إليه فذكرت النساء فتنفَّس ثم قال: يا ابن أخي إن من كلامهن لَما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ. فقلت: صف لي نساءكم، فقال: نساءَ الحي تريد؟ قلت: نعم فأنشأ يقول:

رُجُحٌ[1] وَلَسْنَ من اللواتي بالضحى ... لِذيولهنَّ عَلَى الطريق غبار
يأنسنَ عند بعولهن إذا خَلَوْا ... وإذا هُمُ خرجوا فهن خِفارُ[2]

قال العتبي: فأخبرت به أبي قال: تدري من أين أَخذ قوله: وإن من كلامهن ما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ؟ قلت: لا، قال: من قول القطامي:

يَقْتُلْنَنا بحديثٍ ليس يعلمه ... من يتّقينَ ولا مكنونُه بادي
فهنَّ يُبدين من قول يُصِبْنَ به ... مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي[3]

وهذه الطائفةُ لعفتهم أَسباب أَقواها إجلال الجبَّار، ثم الرغبةُ في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرَّم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال ﷺ: «مَنْ يلبس الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبِسْهُ فِي الآخِرَةِ»[4] و «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ في الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا في الآخِرَةِ»[5]. فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرَّم الله عليه من النساء والصبيان ولذَّةَ التمتع بذلك في الآخرة، فليتخير العبد لنفسه إحدى اللذّتين، ولْيَطِبْ نفساً عن إحداهما بالأخرى؛ فلن يجعل الله من أَذهب طيّبَاتِه في حياته الدُّنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدُّنيا إذا لقي الله. ودون ذلك مرتبةً أَن يتركها خوف النار فقط، فإن تركها رغبةً ومحبةً أَفضلُ من تركها لمجرَّد خوف العقوبة.

---

(١) امرأة رجاح: عجزاء وأيضاً: رزان.

(٢) خفار: شديدات الحياء، ذوات وفاء.

(٣) في الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: فهن ينبذن... الخ وذو الغلة الصادي: الشديد العطش.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة باب ٧، والبيوع باب ٤٠، والأدب باب ٦٦. ومسلم في اللباس حديث ٦، ٧ و٩ و١٠. وأبو داود في الصلاة باب ٢١٣، واللباس باب ٧. والنسائي في الجمعة باب ١١، والعيدين باب ٥. وابن ماجة في اللباس باب ١٦. ومالك في اللباس حديث ١٨. وأحمد في المسند (١/ ٤٦، و٢/ ٢٠، ٢٤ ٣٩، ٤٩، ٥١، ٦٨، ٨٢، ١٠٣، ١٢٧، ١٤٦، ٣٢٩، ٣٣٧).

(٥) أخرجه ابن ماجة في الأشربة باب ٢. وأبو داود في الأشربة باب ٥. والنسائي في الأشربة باب ٤٥ و٤٦. وأحمد في المسند (٢/ ٢٢، ٩٨، ١٠٦، ١٢٣).

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوفُ العار والشنار[1]، ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال، ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهتُه، ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشامُ له وعظمتُه في صدره، ومنهم من يحمله عليها الرّغبة في جميل الذكر وحسن الأحدوثة، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء عَلى جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس، ومنهم من يحمله عليها كرمُ طبعه وشرفُ نفسه وعلوُّ همته، ومنهم من يحمله عليها لذّةُ الظفر بالعفة فإن للعفة لذّةً أعظمَ من لذة قضاء الوطر، لكنها لذّة يتقدمها ألَمُ حبس النفس ثم تعقبها اللذّة، وأَما قضاء الوطر فبالضد من ذلك، ومنهم من يحمله عليها علمُه بما تعقبه اللذَّةُ المحرَّمة من المضارّ والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشرّ كلها، كما ستقف عليه في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى.

فصل: ولم يزل الناسُ يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً، قال إبراهيم بن هَرْمة:

ولــــربّ لـــذَّةِ ليلـــةٍ قـــد نلتهـــا ... وحـــرامُهـــا بحـــلالهـــا مـــدفـــوعُ

وقال غيره:

إذا مـــا هممنـــا صـــدّنـــا وازعُ التقـــى ... فـــولـــى عَلـــى أَعقـــابـــه الهـــمُّ خـــاسئـــا

وقال آخر:

أَتـــأْذنـــون لصـــبٌّ فـــي زيـــارتكـــم ... فعنـــدكـــم شهـــواتُ السمـــع والبصـــر
لا يُضمـــرُ الســـوءَ إن طـــالـــت إقـــامتـــه ... عـــفُّ الضميـــرِ ولكـــن فـــاســـقُ النظـــر

وقال مسلم بن الوليد:

ألا ربّ يـــوم صـــادقِ العيـــش نلتـــه ... بهـــا ونـــدامـــاي العفـــافـــةُ والنُّهـــى[2]

وقال آخر:

إن تَـــــرَيْنـــــي زانـــــيَ العيـ ... ـنيـــــن فـــــالفـــــرجُ عفيـــــفُ
ليـــــس إلا النظـــــرُ الفـــــا ... تـــــر والشعـــــرُ الظـــــريـــــف

وقال الموسوي[3]:

بتنـا ضجيعَيـن فـي ثَـوْبـيْ هَـوًى وتُقًـى ... يَلُفُّنـــا الشـــوقُ مـــن فَـــرْقٍ إلـــى قَـــدم

(١) الشنار: أقبح العيب والعار والأمر المشهور بالشنعة.

(٢) العفافة: العفة وهي الكف عما لا يحل ولا يجمل قولاً أو فعلاً. والنهى جمع نهية: العقل، سمي به لأنه ينهى عن القبيح وعن كل ما ينافيه.

(٣) هو الشريف الرضي.

يَشِـي بنـا الطيـبُ أَحيـانـاً وآونـةً ... يُضيئنـا البـرقُ مجتـازاً عَلَـى إضـمِ[1]

ثـم انثنينـا وقـد رابـت[2] ظـواهـرنـا ... وفـي بـواطننـا بعـدٌ عـن التُّهَـم

وقال نِفْطَوَيْه:

كـم قـد خلـوتُ بمـن أَهـوى فيمنعنـي ... منـه الحيـاءُ وخـوفُ الله والحـذرُ

وكـم ظفـرت بمـن أهـوى فيقنعنـي ... منـه الفُكـاهـة والتجميـش[3] والنظـر

أَهـوى الحسـان وأهـوى أن أُجالسهـم ... وليـس لـي فـي حـرامٍ منهـمُ وطـر

كـذلـك الحـبُّ لا إتيـانُ معصيـةٍ ... لا خيـرَ فـي لـذَّةٍ مـن بعدهـا سَقَـرُ

وقال الشهاب محمود بن سليمان صاحب ديوان الإنشاء (الحلبي):

للـه وقفـة عـاشقَيْـن تـلاقيـا ... مـن بعـد طـول نَـوًى وبُعْـدِ مَـزار

يتعـاطيـان مـن الغـرام مُـدامـةً ... زادتهمـا بعـداً مـن الأوزار

صـدقـا الغـرامَ فلـم يَمِـلْ طَـرْفٌ إلـى ... فُحْـشٍ ولا كـفٌّ لحـلِّ إزار

فتـلاقيـا وتفـرّقـا وكـلاهمـا ... لـم يَخْـشَ مَطْعَـنَ عـائـبٍ أو زار[4]

وقيل لِبُثَيْنة: هذا جميل لِما به فهل عندك من حيلةٍ تُنَفِّسين بها وجدَه؟ فقالت: ما عندي أكثر من البكاء إلى أن أَلقاه في الدار الأخرى، أَو زيارته وهو ميت تحت الثرى. وقيل لعُتبة بعد موت عاشقها: ما كان يضرك لو أمتعتيه بوجهك؟ قالت: منعني من ذلك خوفُ العار، وشماتةُ الجار، ومخافةُ الجبار. وإن بقلبي أضعافَ ما بقلبه غير أني أَجد سَتْرَه أبقى للمودَّة، وأَحمدَ للعاقبة، وأَطوعَ للربّ، وأَخفَّ للذنب.

وهَوِي فتى امرأَةً وهَوِيته وشاع خبرهما فاجتمعا يوماً خاليَيْن فقال لها: هلمي نحقق ما يقال فينا فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أَقرأُ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقيل لبعضهم وقد هَوِيَ جاريةً فطال عشقه بها: ما أنت صانعٌ لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله؟ قال: والله لا جعلته أهونَ الناظرين إليّ، لا أَفعل بها خالياً إلاّ ما أفعله بحضرة أَهلها، حنينٌ طويل، ولحظٌ من بعيد، وأَترك ما يسخط الربّ، ويفسد الحبّ.

إذا كـان حـظُّ المـرءِ ممـن يحبـه ... حـرامـاً فحظـي مـا يَحِـلُّ ويَجْمُـل

---

(١) إضم كعنب: جبل، والوادي الذي في المدينة المنورة.

(٢) رابت: دعت إلى الشك.

(٣) التجميش: المغازلة بالقرص والملاعبة.

(٤) زرى عليه فعله: عابه.

حـديـثٌ كمـاء المُـزْن بيـن فصولـه ... عتـابٌ بـه حسـنُ الحـديـث يُفَصَّـل
ولَثْـمُ فَـمٍ عـذبِ اللثـات كـأنمـا ... جنـاهـن شهـدٌ فُـتَّ فيـه القَـرَنْفَـل
ومـا العشـقُ إلاّ عفـةٌ ونـزاهـةٌ ... وأُنـسُ قلـوبٍ أُنْسُهُـنّ التغـزُّل
وإنـي لأَسْتَحْيـي الحبيـبَ مـن التـي ... تـريـب وأُدْعَـى للجميـل فـأُجمـل

وقال آخر:

وإنـي لمشتـاقٌ إلـى كـل غـايـةٍ ... مـن المجـد يكبـو دونهـا المتطـاول
بـذولٌ لمـالـي حيـن يبخـل ذو النُّهـى ... عفيـف عـن الفحشـاء قَـرمٌ حُـلاحـل[1]

وما ألطفَ قوله: حين يبخل ذو النُّهى فإن ذا النُّهى لا يبخل إلا في موضع البخل، فأخبر هذا أنَّه يبذل ماله حين يبخل به ربُّه في موضع البخل.

وقال عامر بن حذافة: رأيت بصُحَارَ[2] جاريةً قد أَلصقت خدَّها بقبرٍ وهي تبكي وتقول:

خـدي يَقيـك خشـونـةَ اللحـد ... وأقـلُّ مـا لـك سيِّـدي خـدِّي
يـا سـاكـن التُّـرب الـذي بـوفـاتـه ... عَمِيَـتْ علـيَّ مسـالـكُ الـرشـد
إسمـع فـديتُـك قصّتـي فلعلَّنـي ... أَشفـي بـذلـك غُلَّـةَ الـوجـد

قال فسألتها عن صاحب القبر فقالت: فتًى رافقته في الصبا، ثم أَنشأت تقول:

كنـا كـزوج حمـائـمٍ فـي أيكـةٍ[3] ... متنعميـن بصحَّـةٍ وشبـاب
فغـدا الـزمـانُ مشتِّتـاً بفـراقـه ... إن الـزمـان مفـرِّقُ الأحبـاب

قال: فبكيت لرقة شعرها فأنشأت تقول:

تبكـي عليـه ولسـتَ تَعـرف أَمـرَه ... فـلأعلمنـك حـالَـه ببيـان
مـا كـان للعـافيـن[4] غيـرُ نـوالـه ... فـإذا استُجيـر ففـارس الفـرسـان
لا يُتْبِـعُ الجيـران رفـةَ طـرفـه ... ويتـابـع الإحسـان للجيـران
عـفُّ السـريـرةِ والجَهيـرَةُ مثلُهـا ... فـإذا اْستُضِيـم[5] أراك فَتْـكَ طعـان

---

(١) القرم: السيد المعظم، والحلاحل: السيد في عشيرته، والشجاع الركين في مجلسه.
(٢) صحار بالضم: قصبة عمان مما يلي الجبل، كما جاء في الصحاح للجوهري.
(٣) الأيكة وجمعها أيك: الشجر الكثيف الملتف وقيل الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.
(٤) العافين: طلاب المعروف. والنوال: العطاء.
(٥) استضيم: انتقص حقه، وضامه حقه واستضامه: ظلمه.

فقلت: أعلمِيني من هو؟ قالت: سنان بن وَبْرَة الذي يقول فيه الشاعر:

يـــا رائـــداً غيثـــاً لنَجْعَـــة قـــومـــه يكفيـــك مـــن غيـــثٍ نـــوالُ ســـنـــانَ

ثم قالت: يا هذا والله لولا أنك غريب ما متعتك من حديثي. قلت: فكيف كان حبه لك؟ قالت: ما كان يوسّدني إذا نمت إلَّا يدَه، فمكثت معه أربعة أَحوال[1] ما توسدت غيرها إلا في حالٍ يمنعه مانع.

وقال سعيد بن يحيى الأموي: حدَّثني عمي محمد بن سعيد، حدّثنا عبد الملك ابن عُمَير قال: كان أَخَوانِ من ثقيف من بني كُنَّةَ بينهما من التحاب شيءٌ لا يعلمه إلا الله، وكلّ واحدٍ منهما أَخوه عنْدَه عَدْلُ[2] نفسه، فخرج الأكبر منهما إلى سفرٍ له وله امرأةٌ فأَوصى أَخاه بحاجة أهله، فبينما المقيم في دار الظاعن إذ مرّت امرأة أَخيه في دِرعٍ تجوز من بيت إلى بيت، وكانت من أَجمل البشر، فرأى شيئاً حيره، فلما رأَته ولَّت ووضعت يدها عَلَى رأْسها ودخلت بيتاً، ووقع حبُّها في قلبه، فجعل يذوب ويَنْحَلُ جسمه ويتغيَّر لونه. وقدم أَخوه فقال: ما لك يا أَخي متغيراً، ما وجعك؟ قال: ما بي من وجعٍ، فدعا له الأطباء فلم يقف أَحدٌ على دائه غير الحارث بن كَلَدة وكان طبيباً فقال: أَرى عينين صحيحتين وما أَدري ما هذا الوجع وما أَظنه إِلا عاشقاً، فقال له أَخوه: سبحان الله، أسألك عن وجع أَخي وأنت تستهزىء بي، فقال: ما فعلت، وسأسقيه شراباً عندي فإِن كان عاشقاً فسيبين لكم، فأتاه بشرابٍ فجعل يسقيه قليلاً قليلاً، فلما أخذه الشراب هاج وقال:

أَلِمَّـــا بـــي علـــى الأبيـــا ت مـــن خَيـــفِ نَـــزُرْهُنَّـــهْ
غـــزالٌ مـــا رأيـــت اليـــو م فـــي دُور بنـــي كُنَّـــهْ
أسيـــلُ الخـــدّ مـــربـــوب[3] وفـــي منطقـــه غُنَّـــهْ

فقال: أنت طبيب العرب فبمن؟ قال: سأعيد له الشراب ولعله يسمِّي، فأعاد له الشراب فسمى المرأة، فطلقها أخوه ليتزوجها فقال المريض: عليّ كذا وكذا إن تزوَّجتها، فقضى ولم يتزوجها.

وقال علي بن المبارك السراج: حدّثنا أبو مسهر، عن بكر بن عبد الله قال: عرض الحجاج بن يوسف سجنه يوماً فأُتي برجل فقال: ما كان جُرمك؟ فقال: أصلح الله الأمير أخذني العَسَسُ[4] وأنا مخبرك بخبري، فإن كان الكذب ينجي فالصدق أولى بالنجاة، قال:

---

(١) جمع حول: السنة.
(٢) العدل: ما عدل الشيء. والمثل والنظير.
(٣) مربوب: جميل الجسم. ورب الولد: تعهده بما يغذبه وينميه. أسيل الخد: لين الخد طويله.
(٤) العسس: حرس الليل. وعس: طاف بالليل.

وما قصتك؟ قال: كنت أخاً لفلان فضرب الأمير عليه البَعْثَ إلى خراسان، فكانت امرأتُه تهواني وأنا لا أشعر، فبعثت إليَّ ذات يومٍ رسولاً أن قد جاء كتابُ صاحبك فهلم لتقرأه، فمضيت إليها فجعلت تَشْغَلُني بالحديث حتى صلينا المغرب، ثم أظهرت لي ما في نفسها مني ودعتني إلى السوء، فأبيت ذلك فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحن ولأقولنّ إنك لص، فخفتها والله أيها الأمير على نفسي فقلت: أمهليني حتى الليل، فلما صليت العَتَمة[1] وثقت بشدّة حَرَس الأمير فخرجت من عندها هارباً، وكان القتلُ أَيسرَ عليّ من خيانة أخي، فلقيني عَسَسُ الأمير فأخذوني، وقد قلت في ذلك شعراً، قال: وما قلت؟ فقال:

رُبّ بيضاءَ آنسٍ[2] ذاتِ دَلٍّ ... قد دعتني لوصلها فأَبيتُ
لم يكن شأنيَ العفافَ ولكن ... كنت خِلاًّ لزوجها فاستحَيْتُ

فأمر بإطلاقه.

وقال الربيع بن زياد: رأيت جاريةً عند قبرٍ وهي تقول:

بنفسي فتى أوفى البرية كلها ... وأقواهُمُ في الموت صبراً على الحب

فقلت لها: بم صار أوفاهم وأقواهم؟ قالت: هَوِيَني، فكان أهلي إن جاهر بحبّي لاموه، وإن كتمه عنفوه، فلما أخذه الأمر قال:

يقولون إن جاهرتُ قد عضك الهوى ... وإن لم أَبُحْ بالحبّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوى ويكتمُ حبَّه ... من الأمر إلاَّ أن يموتَ فيُعذرا

ولم يزال يردد هذين البيتين حتى مات، فوالله يا هذا لا أبرح أو يتصل قبرانا، ثم شهقت شهقة فصاح النساء وقلن: قضت، والذي اختار لها الوفاةَ فما رأيت أسرعَ ولا أوْحى من أمرها. قال ابن الدُّمَيْنَة:

وبتنا فُوَيْقَ الحَيِّ لا نحن منهمُ ... ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبات بقينا ساقطَ الطل والندى ... من الليل بُرْدا يُمْنَةٍ[3] عَطِران
نذود بذكر الله عنا غوى الصبا ... إذا كان قلبانا له يَرِدان
ونصدر[4] عن رِي العفاف وربما ... نقعنا غليل الحبّ بالرَّشفان

---

(١) العتمة: وقت صلاة العشاء.
(٢) الآنس: الفتاة الطيبة النفس المحبوب قربها، وحديثها يؤنس به.
(٣) بردا يمنة: ضرب من برود اليمن.
(٤) صدر عن الماء: رجع عنه وانصرف. قال تعالى: ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي يرجع الرعاء من سقيهم أو يرجعون إبلهم.

قال أبو الفرج: وشت جارية بُثَيْنَة بها إلى أبيها وأَخيها وقالت لهما: إن جميلاً عندها، فأتيا مشتملَيْن على سيفيهما فرأياه خالياً حُجْرَةً منها يحدّثها ويشكو إليها بَثَّهُ[1] ثم قال لها: يا بُثَيْنَةُ أرأيت ما بي من الشغف والعشق ألا تَجْزِينيه؟ قالت له: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: يا جميل أهذا تبغي؟ والله لقد كنتَ عندي بعيداً منه، فإذا عاودت تعريضاً بريبةٍ لا رأيت وجهي أبداً، فضحك وقال: والله ما قلت لكِ هذا إلاَّ لأعلم ما عندك، ولو علمت أنك تجيبينني إليه لعلمت أنك تجيبين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي إن طاوعتني نفسي، أو هجرتك أبداً، أما سمعت قولي:

وإنّـي لأرضـى مـن بُثَيْنَـة بـالـذي ... لـوَ أبصـره الـواشـي لقـرت بـلابلُـهْ[2]
بـلا وبـأن لا أستطيـع وبـالمنـى ... وبـالأمـل المـرجـوّ قـد خـاب آملُـهْ
وبـالنظـرة العَجْلـى وبـالحـول تنقضـي ... أَواخـرُه لا نلتقـي وأوائلُـهْ؟

فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما ينبغي لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا الرجل من إتيانها.

(١) البث: الحال وأشد الحزن الذي لا يصبر عنه صاحبه فيبثه. والمرض الشديد.
(٢) بلابله: أوهامه ووساوسه.

في ارتكاب سبيلي الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام

حقيقٌ بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلمَ سلامتَها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأوّلين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويُفضيان بصاحبهما إلى أَقبح الغايات وشرّ موارد الهلَكات، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزِّنى شرَّ سبيل فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فإذا كانت هذه سبيلَ الزنى فكيف بسبيل اللّواط التي تَعْدِلُ الفَعْلة منه في الإثم والعقوبة أضعافَها وأضعافَ أَضعافها من الزنى كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى؟ فأَما سبيل الزنى فأسوأُ سبيل، ومَقِيلُ[١] أَهْلِهَا في الجحيم شرُّ مَقِيل، ومستقَرُّ أرواحهم في البرزخ في تَنُّورٍ من نارٍ يأْتيهم لهبها من تحتهم، فإِذا أَتاهم اللهب ضجّوا وارتفعوا، ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحيٌ لا شكّ فيها.

فروى البخاري في صحيحه من حديث سَمُرَةَ بن جُنْدَب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ممّا يكثر أَن يقول لأصحابه: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنكُمْ من رُؤْيا؟» فيُقَصُّ عليه ما شاءُ الله أن يُقَصَّ. وإنه قال لنا ذات غَدَاةٍ: «إنه أَتَاني اللَّيلةَ آتِيَانِ وإنهما ابْتَعثاني وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنّا أَتينا علَى رجلٍ مُضْطَجِع وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصخرةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرةِ لرأْسه فيَثْلَغُ[٢] رأْسه فيَتَدَهْدَهُ الحجرُ هاهنا، فَيَتْبَعُ الحجرَ فيأخذهُ فلا يَرْجِعُ إليه حتى يَصِحَّ رأْسُه كما كان، ثم يعود عليه فَيَفْعَلُ به مثلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأولى» قال: «قلت لهما: سُبْحَانَ اللهِ ما هٰذَانِ؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا عَلَى رجلٍ مُسْتَلْقٍ لقفاه، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكَلُّوبٍ من حديدٍ، وإذا هو يأتي أَحَدَ شقَّيْ وجهه فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قفاه، ومَنْخِرَه إلى قفاه، وعينَه إلى قفاه، ثم يَتَحَوَّلَ إلى

(١) المقيل: المثوى والنوم في الظهيرة.

(٢) ثلغ رأسه: شدخه. ويتدهده: يتدحرج. والكلوب: المهماز، وحديدة معطوفة الرأس والجمع كلاليب. وضوضو: صاح وصرخ.

الجانب الآخر فيَفعل به مثل ما فَعَلَ بالجانب الأوّل، فما يَفْرُغُ من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانبُ كما كان، ثم يعود عليه فيَفْعَل مثل ما فعل المرّة الأولى» قال: «قلت: سُبْحَانَ الله ما هذان؟» قال: «قالا لي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطلقنا فأتينا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ» قال: «فاطَّلَعْنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُرَاةٌ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهَبُ ضَوْضَوْا». قال: «قلت لهما: ما هٰؤلاء؟» قال: «قالا لي: انْطَلِق انْطَلِق. فانطلقنا فأتينا عَلى نَهرٍ أحمرَ مثلِ الدَّم، وإذا في النَّهْرِ رجلٌ سابحٌ يَسْبَحُ، وإذا عَلى شَطِّ النهر رجل قد جمع عنده حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جَمعَ عنده الحجارةَ فَيَفْغَرُ له فاه فَيُلْقِمهُ حَجَراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فَغَرَ له فاه فألقمه حجراً»، قال: «قلت لهما: ما هذان؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجلٍ كريهِ المَرْآةِ[1] كأكْرَهِ ما أَنت رَاءٍ رجلاً مَرْآةً، وإذا عنده نارٌ يَحُشُّها ويسعى حولها»، قال: «قلت لهما: ما هذا؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا عَلَى روضةٍ مُعْتَمَّةٍ[2] فيها من كل نَوْرِ الرَّبيع، وإذا بين ظَهْرِي الرَّوضة رجلٌ طويلٌ لا أكاد أرى رأسَهُ طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قطّ» قال: «قلت لهما: ما هؤلاء؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا[3] على دَوْحَةٍ لم أَرَ دَوْحَةً قطّ أَعظَمَ منها ولا أَحسنَ»، قال: «قالا لي: ارْقَ فيها، فارتقينا فيها إلى مدينةٍ مَبْنِيّةٍ بلَبِنِ ذهبٍ ولَبِن فضةٍ»، قال: «قالا لي: فأتينا بابَ المدينة فاستفتحنا ففُتِحَ لنا فدخلناها فتلقّانا فيها رجالٌ شَطْرٌ من خَلْقِهِم كأحسنِ ما أَنت رَاءٍ، وشَطْرٌ كأقبحِ ما أَنت راءٍ» قال: «قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النَّهَر» قال: «وإذا نَهرٌ مُعْتَرِضٌ يجري كأنَّ ماءَه المَحْضُ في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوءُ عنهم فصاروا في أحسنِ صورةٍ» قال: «قالا لي: هذه جنّة عَدْن، وهذَاك منزلُك» قال: «فسما بصري صُعُداً فإذا قصرٌ مثل الرَّبابةَ البَيْضَاء» قال: «قالا لي: هٰذَاك منزلُك» قال: «قلت لهما: بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا ذَرَاني فأَدْخُلَهُ قالا: أما الآن فلا، وأَنت داخِلُهُ» قال: قلت لهما: «فإني قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجباً فَمَا هٰذَا الّذي رَأَيتُ؟» قال: «قالا لي: أَمَا إنا سنخبرك، أَمّا الرجل الأوّل الذي أتيت عليه يُثْلَغُ رأسُه بالحجر فإنه الرجلُ يأخذ

---

(١) المرآة: المنظر.

(٢) اعتم النبت: تم طوله وظهر نوره.

(٣) رواية البخاري: فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط الخ. قال القسطلاني: وعند الإمام أحمد والنسائي: إلى دوحة بدل روضة. والدوحة: الشجرة العظيمة من أي شجر كان. ولبن: جمع لبنة: التي يبنى بها. وهو في الأصل المضروب من الطين يبنى به دون أن يطبخ. والمحض: الخالص وكل شيء خالص لا يشوبه شيء يخالطه. والربابة: السحابة البيضاء.

القرآن فيرفضُه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرْشَر شِدْقُه إلى قفاه ومَنْخِرُه إلى قفاه وعينُه إلى قفاه فإنه الرجلُ يغدُو من بيته فيكذبُ الكَذْبَةَ تبلُغ الآفاق، وأمَّا الرجالُ والنساءُ العُرَاةُ الذين هم في مثل بناء التَّنور فإنهم الزُّناةُ والزَّواني، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النّهرَ ويُلْقَمُ الحَجَرَ فإنه آكلُ الرِّبَا، وأمَّا الرجلُ الكريهُ الْمَرْآةِ الذي عند النار يَحُشُّها ويسعى حولها فإنه مالكٌ خازنُ جهنم، وأمَّا الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم، وأما الوِلدان حولَه فكلُّ مولودٍ مات على الفِطرة» قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين، وأمَّا القومُ الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ وشَطرٌ منهم قبيحٌ فإنهم قومٌ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً تجاوز الله عنهم»(١).

وقال أبو مسلم الكَجِّي: حدّثنا صَدَقة بن جابر، عن سُلَيم بن عامر، قال: حدّثني أبو أمامة الباهلي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بَيْنَا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بضَبْعَيّ(٢) فأخرجاني فأتيا بي جبلاً وَعْراً وقالا لي: اصْعَد فقلت: إني لا أُطيقه فقالا: سنسهله لك» قال: «فصَعِدت حتى إذا كنتُ في سَوَاء الجبل(٣) إذا أنا بأصواتٍ مديدَةٍ فقلت: ما هذه الأصوات؟ فقالا: هذا عُواء أهل النار، ثم انطلق بي فإذا أنا بفوجٍ أشدُّ شيء انتفاخاً، وأنتنه ريحاً، وأسوأه منظراً، فقلت: من هؤلاء؟ فقالا: هؤلاء قَتْلَى الكفّار، ثم انطلَقَ بي فإذا بفوجٍ أشدُّ شيء انتفاخاً، وأنتنه ريحاً، كأنّ ريحهم المراحيضُ فقلت: من هٰؤلاء؟ قال: هٰؤلاء الزانون والزواني»(٤).

وقال قُتَيْبَةُ بن سعيد: حدَّثنا نوح بن قيس قال: حدَّثني أبو هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أُسريَ بي انْطُلِق بي إلى خَلْقٍ من خلق الله كثيرٍ، نساء مُعَلَّقات بثُديِّهِنَّ ومنهنّ بأَرجلهنّ منكسات، ولهنَّ صُرَاخٌ وخُوارٌ فقلت: يا جبريلُ من هٰؤلاء؟ قال: هؤلاء اللواتي يَزْنِينَ ويَقْتُلْنَ أولادَهنّ ويجعلْنَ لأزواجهنّ وَرَثَةً من غيرهم».

وقال أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين: حدّثنا عبد السلام بن شدّاد، عن غَزْوان بن جَرِير،

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير باب ٤٨، وأحمد في المسند (٥/٨، ١٤).

(٢) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد، والجمع أضباع.

(٣) سواء الجبل: وسطه.

(٤) بعض هذا الحديث ورد في الفتح لابن حجر عقب الحديث السابق وذكره المنذري في الترغيب والترهيب بأطول مما هنا ثم قال: رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما واللفظ لابن خزيمة ولا علة له.

عن أبيه أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه الفواحشَ فقال لهم: هل تدرون أيّ الزنى أَعظمُ؟ قالوا: يا أَمير المؤمنين كله عظيم قال: ولكن سأُخبركم بأعظم الزنى عند الله، هو أن يَزْنيَ الرجلُ بزوجة الرجل المسلم فيصير زانياً وقد أفسد على الرجل زَوْجَتَهُ. ثم قال عند ذلك: إن الناس يُرْسلُ عليهم يومَ القيامة ريحٌ منتنة حتى يتأذى منها كلُّ بَرٍّ وفاجرٍ، حتى إذا بلغت منهم كلَّ مبلغٍ وأَلَمَّتْ[1] أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم منادٍ يُسمعهم الصوتَ ويقول لهم: هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون: لا ندري والله إلا أنها قد بلغت منا كلّ مبلغ، فيقال: ألا إنها ريح فروج الزُّناة لَقُوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم يصرف بهم، فلم يذكر عند الصرف بهم جنةً ولا ناراً.

وقال الخرائطي: حدّثنا علي بن داود القنطري، حدَّثنا سعيد بن عفير، حدّثني مسلم بن علي الخشَني، عن أبي عبد الرحمن، عن الأعمش، عن شقيق، عن حُذَيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاكُمْ وَالزِّنَى فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ: ثَلاَثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلاَثٌ فِي الآخِرَةِ، فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهَاءِ، وَدَوَامُ الفَقْرِ، وَقِصَرُ الْعُمُرِ. وأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الآخِرَةِ فَسَخَطُ اللهِ، وَسُوءُ الْحِسَابِ، وَدُخُولُ النَّارِ**»[2].

ويُذكر عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: الْمُقِيمُ على الزِّنى كعابد وثن، ورفعه بعضهم، وهذا أولى أن يُشَبه بعابد الوثَن من مُدْمِن الخمر، وفي المسند وغيره مرفوعاً: مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ. فإنَّ الزِّنى أَعظمُ من شرب الخمر. قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ليس بعد قتل النفس أعظم من الزِّنى.

وفي الصحيحين من حديث أبي وائلٍ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسولَ الله أَيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أَن تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أَنْ تَزْنِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**»، فأنزَلَ الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾[3] [الفرقان: ٦٨].

---

(١) ألم: قرب، وبالناس: نزل بهم.

(٢) ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير وقال: رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق وأبو نعيم في والبيهقي في الشعب وضعفه، وأبو الفتح الراشدي في جزئه والرافعي.

(٣) أ . أحمد في المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢، ٤٦٤) والبخاري في تفسير سورة ٢ باب ٣ وسورة ٢٥ باب ٢، والأدب باب ٢٠، والحدود باب ٢٠، والديات باب ١، والتوحيد باب ٤٠=

وقال قُتَيْبَة بن سعيد: حدثنا ابن لَهِيعَة، عن ابن أَنْعُم، عن رجل، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِ وَيقولُ له: أَدْخُلِ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ»**[1] وذكر سفيان بنُ عُيَيْنَة، عن جامع بن شدّاد، عن أَبي وائل، عن عبد الله قال: إذا بخَس المكيال حُبس القطر، وإذا ظَهر الزِّنى وقع الطاعون، وإذا كثُر الكَذب كثر الهَرْج.

وفي الصحيحين[2] من حديث الأعمش، عن أَبي حازم، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كذَّابٌ، وعَائِلٌ مُستكبِرٌ»**[3].

وذكر سفيان الثوري، عن منصور، عن رِبعي بن حِراش، عن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ ثَلَاثَةً: الشَّيْخَ الزَّاني، وَالمُقِلَّ المُخْتَال، وَالْبَخِيل المَنَّان»**[4].

وذكر الأعمش، عن خَيْثَمَة، عن أَبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِ المُغِيبَةِ مَثَلُ الَّذِي يَنْهَشُهُ الأَسَاوِدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[5]. المُغِيبَةُ هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أَو حجٍّ أو غيرهما، وفي النسائي وغيره من حديث بُريدة عن النبي ﷺ قال: **«حُرْمَةُ نِساءِ المُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَأُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ المُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَخَانَهُ قِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا خَانَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ فَمَا ظَنُّكُمْ؟»**[6].

ويكفي في قُبح الزِّنى أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أَفحشَ القَتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهدَ عبادُه المؤمنون تعذيبَ فاعِله، ومن قبحه أن

= و٤٦. ومسلم في الإيمان حديث ١٤١ و١٤٢. وأبو داود في الطلاق باب ٥٠. والترمذي في تفسير سورة ٢٥ باب ١ و٢. والنسائي في الإيمان باب ٦، والتحريم باب ٥.

(١) رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق والديلمي في مسند الفردوس، كما قال السيوطي.

(٢) هذا الحديث لم يرد في صحيح البخاري وهو في الجامع الصغير والترغيب والترهيب دون أن يشير فيه إلى رواية البخاري بل قالا: رواه مسلم والنسائي، وزاد في الزواجر أحمد.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٥٣، ٤٨٠) والنسائي في الزكاة باب ٦٩، ٧٧، والبيوع باب ٥.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/١٤٨، ١٥١، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٨، ١٧٦، ١٧٨).

(٥) رواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مساوىء الأخلاق، كما قال السيوطي. والأساود جمع أسود: العظيم من الحيات وفيه سواد.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٢٥، ٣٥٥) ومسلم في الإمارة حديث ١٢٩. وأبو داود في الجهاد باب ١١. والنسائي في الجهاد باب ٤٧ و٤٨.

الله سبحَانهُ فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقلَ له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردةٍ فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا وكنتُ فيمن رجمهما.

فصل: والزنى يجمع خِلال الشرّ كلّها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المُرُوءة وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه ورعٌ، ولا وفاءٌ بعهدٍ، ولا صدقٌ في حديث، ولا محافظةٌ عَلى صديق، ولا غيرةٌ تامّة عَلى أهله. فالغدر والكذب والخيانة وقلةُ الحياء وعدمُ المرَاقبة وعدمُ الأنَفَة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته.

ومن موجباته غضبُ الرَّبِّ بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أَسوأَ مقابلة. ومنها سوادُ الوجه وظلمتُه وما يعلوه من الكآبة والمقْتِ الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها ظلمةُ القلب وطَمْسُ نوره(١) وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغِشْيَان الظلمة له. ومنها الفقرُ اللازم. وفي أَثرٍ يقول اللهُ تعالى: «أَنَا اللهُ مُهْلِكُ الطُّغَاة، وَمُفقرُ الزُّنَاة» ومنها أَنه يذهب حُرْمة فاعله، ويُسقطه من عين ربه ومن أعين عباده. ومنها أنه يسلُبه أحسنَ الأسماء وهو اسمُ العِفَّةِ والبِرّ والعدالة، ويعطيه أَضدادَها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن. ومنها أنه يسلُبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ». فسلبه اسم الإيمان المطلَق وإن لم يَسلُب عنه مطلقَ الإيمان. وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرةً في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خطّ دائرةً أُخرى خارجةً عنها وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه. ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمَّى مؤمناً، كما أن الرجل يكون معه جزءٌ من العلم والفقه ولا يسمَّى به عالماً فقيهاً، ومعه جزءٌ من الشجاعة والجود ولا يسمَّى بذلك شجاعاً ولا جواداً، وكذلك يكون معه شيءٌ من التقوى ولا يسمَّى مُتَّقِياً. ونظائره. فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتَأَوَّل بما يخالف ظاهره والله أعلم. ومنها أن يعرّض نفسه لسُكنَى التَّنُّور الذي رأَى النبيُّ ﷺ فيه الزُّنَاةَ والزواني. ومنها أَنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيثَ الذي وصف اللهُ به الزُّنَاةَ كما قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرّم الله الجنةَ على كل خبيثٍ، بل جعلها مأوَى الطيِّبين، ولا يدخلها إلاَّ طيِّب. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ادْخُلوا الْجَنَّةَ

---

(١) طمس نوره: ذهابه وطمس الشيء طمساً وطموساً: درس وانمحى.

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُها سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخولَ الجنة بطيبهم، والزُّناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنمَ دار الخبيث وأهلِه، فإذا كان يوم القيامة ميّز الخبيثَ من الطيِّب وجعل الخبيثَ بعضَه على بعضٍ ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النارَ طيِّبٌ، ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها الوحشةُ التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهَه، فالعفيف على وجهه حلاوةٌ وفي قلبه أُنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهَه الوحشة ومن جالسه استوحش به، ومنها قِلَّةُ الهَيْبَة التي تُنْزَع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيءٍ في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يُرْزَق المهابة والحلاوة. ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحدٌ على حُرْمته ولا على ولده. ومنها الرائحة التي تفوح عليه يَشمُّها كل ذي قلبٍ سليمٍ، تفوح من فِيهِ وجسدِه، ولولا اشتراكُ الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن كما قيل:

كـــلٌّ بـــه مثـــلُ مـــا بـــي غيـــر أنهـــم ... مـــن غيـــرةٍ بعضُهـــم للبعـــض عُـــذّال

ومنها ضيقة الصدر وحَرَجُه فإنَّ الزُّناة يعاملون بضدِّ قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبَه بما حرّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا يُنال إلاّ بطاعته، ولم يجعل الله معصيتَه سبباً إلى خيرٍ قطّ. ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذّةِ والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أنَّ الذي فاته من اللذّةِ أضعاف ما حصل له، دع رِبْحَ العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته. ومنها أنه يُعَرِّض نفسه لفوات الاستمتاع بالْحُور العِينِ في المساكن الطيّبة في جنّات عدن، وقد تقدّم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابسَ الحرير في الدُّنيا بحِرْمانه لُبْسَه يوم القيامة، وشاربَ الخمر في الدُّنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتَّع بالصُّوَر المحرَّمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدُّنيا فإن توسَّع في حلاله ضيّق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسّع فيه، وإن ناله من حرامٍ فاته نظيرُه يوم القيامة.

ومنها أن الزِّنى يُجرئه عَلَى قطيعة الرَّحم وعقوقِ الوالدَين وكَسْبِ الحرام وظُلْم الخلق وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسراً إلى سفك الدّم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تَتِمّ إلاّ بأنواعٍ من المعاصي قبلَها ومعها، ويتولَّد عنها أنواعٌ أُخَرُ من المعاصي بعدها، فهي محفوفةٌ بجندٍ من المعاصي قبلَها وجندٍ بعدها، وهي أجلب شيءٍ لشرّ الدُّنيا والآخرة، وأَمنعُ شيءٍ لخير

الدنيا والآخرة، وإذا عَلِقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عزّ على الناصحين استنقاذُه، وأعيا الأطباءَ دواؤه، فأسيرُها لا يُفدى، وقتيلها لا يُودى[1]، وقد وكّلها الله سبحانه بزوال النِّعم، فإذا ابْتُلِيَ بها عبدٌ فليودّع نِعَم الله فإنها ضيفٌ سريعُ الانتقال، وَشِيكُ الزَّوال. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

فصل: فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر، وأما سبيلُ الأمة اللُّوطيّة فتلك سبيلُ الهالكين الْمُفْضِيَةُ بسالكها إلى منازل المعذَّبين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمةٍ من الأمم، لا من تأَخّر عنهم ولا من تقدّم، وجعل ديارَهم وآثارهم عبرةً للمعتبرين، وموعظةً للمتّقين.

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنهما أنه وجد في بعض ضواحي العَرب رجلاً يُنكَحُ كما تُنكح المرأة، فجمع أبو بكر رضي الله عنه لذلك ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فاستشارهم، فكان عليٌّ رضي الله عنه أشدَّهم قولاً فيه فقال: إن هذا لم يعمل به أُمَّةٌ من الأمم إلّا أُمّةٌ واحدةٌ فصنع الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تُحرقوه بالنار، فأَحرقوه بالنار[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعةٌ من الصحابة والتابعين: يُرْجَمُ بالحجارة حتى يموت أُحصِن أو لم يُحصَن، ووافقه على ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك، وقال الزُّهري: يُرْجَمُ أُحصن أو لم يُحصَن، سنةٌ ماضيةٌ، وقال جابر بن زيد في رجل غَشِيَ رجلاً في دُبره قال: الدبرُ أعظمُ حُرمةً من الفرج، يُرْجَم أُحصِن أو لم يُحصَن، وقال الشَّعْبيّ: يُقْتَل أُحصِن أو لم يُحصَن.

وسئل ابن عباس عن اللوطي ما حدُّه؟ قال يُنْظَر أعلى بناءٍ في المدينة فيُرْمى منه مُنكَّساً ثم يُتْبع بالحجارة. ورجم عليٌّ لوطيًّا وأفتى بتحريقه. وكأنه رأى جواز هذا وهذا.

وقال إبراهيم النَّخعي: لو كان أحدٌ ينبغي له أن يُرجَم مرّتين لكان ينبغي لِلُّوطي أن يرجمَ مرَّتين. وذهبت طائفةٌ إلى أنه يُرجَم إن أُحصِن ويجلد إن لم يُحْصَن. وهذا قول الشافعي وأَحمدَ في روايةٍ عنه، وسعيد بن المسيَّب في روايةٍ عنه، وعطاء بن أبي رباح.

قال عطاء: شهدت ابن الزبير أُتِيَ بسبعةٍ أُخذوا في اللِّواط: أربعةٌ منهم قد أُحصِنوا،

---

(١) لا يودى: ليس له دية. وودى القاتل القتيل ودياً ودية: أعطى وليه ديته.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي، كما قال الهيتمي في الزواجر.

وثلاثة لم يُحصَنوا، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرُجموا بالحجارة، وأمر بالثلاثة فضُربوا الحدّ وفي المسجد ابن عمر وابن عباس. فالصحابة اتفقوا على قتل اللُّوطيِّ وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فظنّ بعضُ الناس أنهم متنازعون في قتله ولا نزاع بينهم فيه إلاّ في إلحاقه بالزاني أو قتله مطلقاً.

وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال: أحدُها أنها أعظم من عقوبة الزِّنى كما أن عقوبته في الآخرة أشدّ، الثاني أنها مثلُها، الثالث أنها دونها، وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبةَ الفاعلِ كعقوبة الزاني، وعقوبةَ المفعول به الْجَلدُ مطلقاً بكراً كان أو ثيِّباً قال: لأنه لا يلتذّ بالفعل به بخلاف الفاعل.

وذهب بعضُ الفقهاء إلى أنه لا حدّ على واحد منهما قال: لأن الوازع عن ذلك ما في الطباع من النَّفْرة عنه واستقباحه، وما كان ذلك لم يحتَج إلى أن يَزْجُر الشارعُ عنه بالحدّ كأكل العَذِرَة[١] والميتة والدم وشربِ البول، ثم قال هؤلاء: إذا أكثر منه اللُّوطيُّ فللإمام قتله تعزيراً[٢]، صرَّح بذلك أصحاب أبي حنيفة.

والصحيح أن عقوبتَه أغلظ من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك ولغِلَظ حُرمته وانتشار فساده، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أُمّةً ما عاقب اللُّوطيّة.

قال ابن أبي نُجيح في تفسيره عن عمرو بن دينار في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]. قال: ما نَزَا[٣] ذكَرٌ على ذكرٍ حتى كان قومُ لوط. وقال محمد بن مَخْلَدٍ: سمعت عباساً الدُّوريَّ يقول بلغني أن الأرض تَعُجُّ[٤] إذا ركب الذَّكرُ على الذكر. وذكر ابن أبي الدُّنيا بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يُشْرِفُ على سدوم[٥] فيقول: ويل لكِ سدوم يوماً ما لك، فجاءت إبرَاهِيمَ الرُّسلُ وكلَّمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [هود: ٧٦]. قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ [هود: ٧٧]. فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأتُه فجاءه قومُه يُهرَعُونَ إليه فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. أُزوِّجكم بهنَّ ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾؟ [هود: ٧٨]. وجعل لوطٌ الأضياف في بيته وقعد على باب البيت وقَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. قال: أي عشيرةٍ تمنعني قال: ولم يُبْعَث نبيٌّ بعد لوطٍ إلا

(١) العذرة: الغائط.
(٢) تعزيراً: ردعاً والتعزير شرعاً تأديب دون الحد.
(٣) نزا الفحل: وثب.
(٤) تعج: تصيح وتصرخ.
(٥) سدوم: قرية قوم لوط.

في عِزٍّ من قومه، فلما رأت الرُّسلُ ما قد لقي لوطٌ في سببهم ﴿قَالُوا يَا لُوط إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربةً طَمَسَت أَعينَهم قال: والطمسُ أن تذهب حتى تستوي، واحتمل مدائنَهم حتى سمع أَهلُ سماء الدنيا نَبيحَ كلابهم وأصواتَ دُيوكهم، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجارةً من سجِّيلٍ[1] قال: عَلَى أهل بواديهم وعلى رُعاتهم وعلى مسافريهم، فلم ينفلت منهم إنسان. وقال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جَنَاحَهُ تحت مدائن قوم لوطٍ فرفعها حتى سمع أهل السماء نِبيحَ الكلاب وأَصواتَ الدَّجاج والدِّيَكَة، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلَها ثم أُتبعوا بالحجارة.

وفي تفسير أبي صالحٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أغلق لوطٌ على ضيفه الباب فخلعوا الباب ودخلوا، فطَمَسَ جبريل أَعينَهم فذهبت أبصارهم فقالوا: يا لوط جئتنا بالسحرة؟ وتَوَعَّدوه، فأوجس في نفسه خيفةً قال: يذهب هؤلاء ونُؤْذَى، فقالوا: لا تخف إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ قال لوط: الساعةَ، قال جبريل: أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟ قال: فرُفعت المدينة حتى سمع أهل السماء نَبيحَ الكلاب ثم أُقْلِبت ورُموا بالحجارة. وقال حُذَيفة بن اليَمَان: لما أرسلت الرسلُ إلى قوم لوطٍ لتهلكهم قيل لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ ثلاث مرّات، وطريقهم على إبراهيم قال: فأتوْا إبراهيمَ فبشرُوه بما بشروه ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]. قال: كان مجادلتُه إيَّاهُم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أَفرأيتم إن كان فيهم أَربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة، فأتَوْا لوطاً وهو في أرض يعمل فيها فحسبهم ضيفاً، فأقبل بهم حين أَمسى إلى أهله فأتَوْا معه فالتفت إليهم فقال: أَما تَرَوْنَ ما يصنع هٰؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أَحدٌ شرٌّ منهم، قال: فانتهى بهم إلى أَهله فانطلقت العجوز السوءُ امرأَتُه فأتت قومه فقالت: لقد تضيف لوطاً الليلةَ قومٌ ما رأَيت قطُّ أَحسنَ وجوهاً ولا أَطيبَ ريحاً منهم، فأَقبلوا يُهْرَعُونَ إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقلبوه عليهم، فقام مَلَكٌ بجناحه فَصَفَقَه دونهم ثم أَغلق الباب ثم عَلَوا الأجاجيرَ[2] فجعل يخاطبهم فقال: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. حتى بلغ ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨٠، ٨١]. فطمس جبريل

---

(١) سجيل: طين مطبوخ.

(٢) الأجاجير: جمع إجار وهو السطح.

أعينَهم فما بقي أَحدٌ منهم تلك الليلةَ حتى عَميَ قال: فباتوا بشرّ ليلةٍ عُمْياً ينتظرون العذاب. قال: وسار بأَهله واستأذن جبريلُ عليه السلام في هلاكهم فأُذن له، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فألوى[1] بها حتى سمع أَهلُ السماء الدُّنيا ضُغاءَ[2] كلابهم، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال: فسمعت امرأتُه الوَجْبَة[3] وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب.

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: جادل إبراهيمُ الملائكةَ في قوم لوط أَن يُتْرَكُوا فقال: أَرأَيتم إن كان فيهم عشرةُ أَبياتٍ من المسلمين أَتتركونهم؟ فقالت الملائكة: ليس فيها عشرةُ أبيات ولا خمسةٌ ولا أربعةٌ ولا ثلاثة ولا اثنان، فحزن إبراهيم على لوط وأهل بيته و ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانت مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. فذلك قولُه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إنّ إبراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤، ٧٥]. فقالت الملائكة: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]. فبعث الله إليهم جبريل فانتسف المدينة ومن فيها بأحد جَنَاحَيه فجعل عالِيهَا سافلها وتبعتهم الحجارة بكل أرضٍ. فأَهلك الله سبحانه الفاعلَ والمفعول به، والساكت الرَّاضيَ، والدَّالّ المحصنَ منهم وغيرَ المحصن، العاشقَ والمعشوق، وأخذهم وهم في سكرة عشقهم يَعْمَهُونَ.

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال: إنّ الملائكة حين دخلوا عَلى لوطٍ ظنَّ أنهم أضيافٌ ضافوه فاحتفل لهم وحَرَص على كرامتهم، وخالفته امرأته إلى فسّاق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسنُ الناس وجهاً وأنضرُهم جمالاً وأطيبُهم ريحاً، فكانت هذه خيانتَها التي ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه. وفيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]. قال: واللهِ مَا زَنَتَا وَلا بغت أَمْرَأَةُ نبيٍّ قطّ فقيل له: فما كانت خيانة امرأةِ نوحٍ وامرأَة لوطٍ؟ فقال: أما امرأَة نوحٍ فكانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوطٍ فإنها كانت تَدُلُّ عَلَى الضَّيف.

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده، حدّثنا سليمان بن داود، حدّثنا عبد الوارث حدّثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدّثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي**

(١) ألوى بها: ذهب بها مصعداً.

(٢) الضغاء: الصياح من الألم.

(٣) الوجبة: صوت الساقط.

عَمَلُ قَوْمِ لوطٍ»[١] وقال هشام بن عمّار: حدثنا عبد العزيز الدّراوَرْدِي عن عمرو بن أبي عمرو، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ» (رواه الإمام أحمد[٢]) وقال القَعْنَبِي: حدّثنا عبد العزيز هو الدّراوَرْدِي، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حَنْطَب المخزومي، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ تَوَلّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأرْضِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْه، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ثَلاثاً، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ وَقَعَ عَلى بَهِيمَةٍ»[٣] هذا الإسناد على شرط البخاري.

وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا بشر بن المفضّل، عن خالد الْحَذَّاء، عن محمد بن سيرين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَاشَرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ» وفي لَفْظٍ: «إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ»[٤].

وفي المسند والسنن من حديث عِكْرِمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِه» وفي لفظ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ والمَفْعُولَ بِهِ»[٥]. وإسناده على شرط البخاري.

وروى سهيلُ بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوه يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فارْجُمُوهُ» أو قال: «فاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ».

وحرق اللوطيَّةَ بالنار أربعةٌ من الخلفاء: أبو بكر الصِّدِّيقُ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وعبدُ الله بن الزُّبير، وهشام بن عبد الملك.

وقال حمّاد بن سَلَمَة عن قتادة، عن خِلاس، عن عبيد الله بن معمر، قال: يُقْتَلُ اللُّوطِيُّ. وقال سعيد بن المسيَّب: عندنا عَلَى اللوطيّ الرجم أُحصن أو لم يُحْصَنْ سنّةٌ ماضية، وهذا يدلّ على أن ذلك سنّةٌ مضى عليها العمل.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود باب ٢٤، وابن ماجة في الحدود باب ١٢.

(٢) في المسند (١/٢١٧، ٢٦٩، ٣٠٠).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٠٩، ٣١٧). ورواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي كما جاء في الترغيب والترهيب وفي الزواجر.

(٤) رواه البيهقي في السنن، كما قال السيوطي.

(٥) رواه الترمذي في الحدود باب ٢٤، وابن ماجة في الحدود باب ١٢.

وقال الشَّعبيّ: يقْتَلُ أُحصِن أو لم يُحصَن. وقال الزهريّ وربيعة وابن هرمز ومالكُ بن أَنس: عليه الرجم أُحصِن أو لم يُحْصَن.

وقال بعض العلماء: وإنما قال سعيد بن المسيَّب: إن ذلك سنَّةٌ ماضيةٌ لقول النبي ﷺ: «**اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ**»، ولم يقل محصناً أو غيرَ مُحْصَن.

وحرقهم أبو بكرٍ رضي الله عنه بالنار بعد مشاورة الصحابة، وأشارَ عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بذلك، وحرقهم عليٌّ وابن الزبير كما ذكره الآجري وغيرُه عن محمد بن المنكدر أن خالدَ بن الوليد كتب إلى أبي بكر أنه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأةُ، فجمع أبو بكر لذلك أصحابَ رسول الله ﷺ وفيهم عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنهم فقال عليٌّ: إن هذا ذنبٌ لم يعمل به إلا أُمةٌ واحدةٌ ففعل الله بهم ما قد علمتم، أَرى أن تحرقوه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يُحْرَقَ بالنار، فأمر به أبو بكر أن يحرق.

قال: وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُرْجَم اللوطي بكراً كان أو ثيِّباً.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من عَمِلَ عَمَلَ قَوْم لُوطٍ فاقتلوه، ولم يفرِّق أحدٌ منهم بين المحصَنِ وغيره، وصرّح بعضُهم بعموم الحكم للمحصَن وغير المحصَن، فلذلك قال ابن المسيّب: إن هذا سنَّةٌ ماضية.

وفي مسائل إسحاق بن منصور الكَوْسَجَ قلت لأحمد: يُرْجَمُ اللُّوطِيُّ أُحْصِن أو لم يُحْصَن؟ فقال: يُرْجَمُ أُحْصِنَ أو لم يُحْصن. قال إسحاق بن راهويه: هو كما قال.

والسَّنةُ في الذي يعمل عمل قوم لوطٍ أن يُرْجَمَ محصناً كان أو غيرَ محصَن لأن النبي ﷺ قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمَ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ**» رواه ابن عباس عن النبي ﷺ كذلك، ثم أَفتى ابن عباس بعد النبي ﷺ فيمن يعمل عمل قوم لوطٍ أنه يُرْجَمُ وإن كان بكراً، فحكم في ذلك بما رواه عن النبي ﷺ.

وكذلك رُوِي عن علي بن أبي طالب مثلُ هذا القول أن اللوطيَّ يُرْجَمُ ولم يذكر محصَناً كان أو غير محصَن، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط، وكذا يُرْوَى عن أبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أنه حرقهم بالنار. هذا كلام إسحاق رحمه الله.

وذكر الآجري في كتاب تحريم اللواط من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: «**سَبْعَةٌ لَا يَنْظُرُ ٱللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَيَقُول: ٱدْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ: الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُول بِهِ، وَالنَّاكِحُ يَدَهُ، وَنَاكِحُ الْبَهِيمَةِ، وَنَاكِحُ الْمَرْأَةِ في دُبُرِهَا، وَالْجَامِعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ**

وَابْنَتِهَا، وَٱلزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ، وَالْمُؤْذِي لِجَارِهِ حَتَّى يَلْعَنَهُ».

وذكر عن أنس مرفوعاً نحوه وقال: «أَدْخُلُوا النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ إِلاَّ أَنْ يَتُوبُوا، إِلاَّ أَنْ يَتُوبُوا، إِلاَّ أَنْ يَتُوبُوا، فَمَنْ تَابَ تَابَ ٱللهُ عَلَيْهِ: النَّاكِحُ يَدَهُ، وَالْفَاعِلُ، وَالْمَفْعولُ بِهِ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالضارِبُ أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَغِيثَا، وَالْمُؤْذِي جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ، وَالزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ»[1].

وقال مجاهد: لو أن الذي يعمل ذلك العمل يعني عمل قوم لوطٍ اغتسل بكل قطرةٍ في السماء وكلِّ قطرةٍ في الأرض لم يزل نجساً، وقد ذكر الله سبحانه عقوبةَ اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سُوَرٍ من القرآن وهي: سورة الأعراف، وهود، والحِجْر، والأنبياء، والفرقان، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، واقتربت الساعة، وجمع على القوم بين عمىً الأبصار وخَسْفِ الديار، والقَذْف بالأحجار، ودخول النار. وقال محذراً لمن عَمل عَملَهم ما حل بهم من العذاب الشديد: ﴿وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وقال بعض العلماء: إِذَا علا الذكَرُ الذكرَ هرَبت الملائكة، وعجَّت[2] الأرض إلى ربِّهَا، ونزل سَخَط الجبّار جلّ جلالُه عليهم، وغَشِيَتْهُمُ اللعنةُ، وحفّت بهم الشياطين، واستأذنتِ الأرض ربَّهَا أن تَخْسِف بهم، وثَقُلَ العرش على حَمَلَتِهِ، وكبَّرَت الملائكةُ، واستعرت[3] الجحيم، فإذا جاءته رُسُلُ اللهِ لقبض رُوحِهِ نقلوها إلى ديار إخوانهم وموضع عذابهم، فكانت روحُه بين أَرواحهم. وذلك أَضيقُ مكاناً وأَعظمُ عذاباً من تَنُّور الزُّناة. فلا كانت لذّةٌ توجب هذا العذاب الأليم، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم. تذهب اللّذّات، وتُعقب الحسرات، وتَفْنى الشهوات، وتَبْقى الشقوة. وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يُنْشِد:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ ممن نَالَ صفوتَهَا ... مِنَ الحرام ويَبْقَى الْخِزْيُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عواقبُ سوءٍ في مَغَبَّتِهَا[4] ... لا خيرَ في لَذَّةٍ مِن بعدها النارُ

فصل: وأما إن كانت الفاحشةُ مع ذي رَحِمٍ مَحْرَمٍ فذلك الهُلْكُ كلُّ الهُلك، ويجب قتلُ الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره.

---

(١) رواه الحسن بن عرفة في جزئه والبيهقي في الشعب، كما قال السيوطي.

(٢) عجت: صاحت ورفعت صوتها.

(٣) استعرت النار: توقدت.

(٤) المغبة: العاقبة.

واحتجَّ أحمد بحديث عَدِيّ بنِ ثابت عن البَرَاءِ بن عازِب قال: لقيت خالي ومعه الرايةُ فقلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى رجلٍ تزوّج امرأة أبيه أَضرب عنقه، وآخذ ماله (رواه الإمام أحمد) واحتجَّ به.

وقال شعبة: حدّثنا الرُّكَيْنُ بن الربيع عن عَدِيّ بن ثابت عن البَرَاء قال: رأيت أُناساً ينطلقون فقلت: أَين تذهبون؟ قالوا: بعثنا رسول الله ﷺ إلى رجل يأْتي امرأَةَ أبيه أن نقتله.

وذكر عبد الله بن صالح: حدّثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «**اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ وَالَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ وَالَّذِي يَأْتِي كُلَّ ذَاتِ مَحْرَم**»[1]. وقال هشام بن عمّار: حدّثنا رِفْدَةُ بنُ قُضَاعة، حدّثنا صالح بن رشدان قال: أُتِي الحَجّاجُ برجلٍ قد اغتصب أُختَه عَلى نفسها فقال: احبسوه وسلوه مَن هاهنا من أصحاب محمدٍ ﷺ؟ فسألوا عبدَ الرَّحمن بن مطرف[2] فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تَخطَّى الْحُرْمَتَيْنِ فَخُطُّوا وَسْطَهُ بِالسَّيْفِ**». وأَفتى ابنُ عباس رضي الله عنهما بمثل ذلك. وقال عمر بنُ شَبَّةَ: حدّثنا مُعاذ بن هشام، حدثنا أبي عن قَتَادَة قال: أُتِيَ الْحَجّاجُ برجلٍ زنى بأُخته، فسأل عنها عبد الله فقال: يُضْرَبُ بالسيف، فأمر به الحجّاجُ فضرب عنقه بالسيف.

وذكر جماعةٌ عن حمّاد بن سَلَمَةَ، عن بكر بن عبد الله المُزَنِيّ أن رجلاً تزوّجَ خالته فرُفع إلى عبد الملك بن مروان قال: إنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَحِلُّ لِي فقال: لا جهالة في الإسلام وأَظنُّ أَنَّه أَمَرَ به فَقُتِلَ. وفي مسائل صالح بن أحمد قال: سألت أبي عن الرجل الذي تزوّج ذات مَحْرَم منه فقال: إن كان عمداً يُقْتَلُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ، وإن كان لا يعلم يُفَرَّقُ بينهما، وأستحبّ أن يكون لها ما أخذت منه ولا يَرْجِع عليها بشيء. وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جدّه أن النبي ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَتَى ذَاتَ مَحْرَمٍ**»[3].

---

(١) ذكره الهيتمي في الزواجر من دون الفقرة الأخيرة وقال: رواه البيهقي وغيره.

(٢) رواه أحمد والحاكم عن عبد الله بن أبي مطرف، كما قال السيوطي. وراجع هذه القصة أيضاً في الإصابة لابن حجر العسقلاني، وما قيل في تخريجها.

(٣) رواه الخرائطي عن ابن عمرو والطبراني في المعجم الكبير وأبو نعيم في الحلية كلاهما عن ابن عباس، كما قال السيوطي.

في رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين

قال الله تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. وكلُّ من أعان غيرَهُ على أَمْرٍ بقوله أو فعله فقد صار شفيعاً له، والشفاعةُ للمشفوع له هذا أَصلُهَا، فإن الشافع يَشْفع صاحبَ الحاجة فيصير له شَفْعاً في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كلُّ متعاونين على خيْرٍ أو شرٍّ بقولٍ أو عمل. ونظيرُها قوله تعالى: ﴿وتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه إذا كان جاءه طالب حاجةٍ يقول: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ على لِسَانِ رَسُولِهِ مَا أَحَبَّ»[١]، وفي صحيح البخاري أن بَرِيرَةَ لما عَتَقَتْ اختارت نفسَها فكان زوجُها يمشي خلفها ودموعُه تسيل على لحيته، فقال لها النبي ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ» فقالت: أَتأْمُرُني؟ قال: «لَا إنمَا أَنَا شَافِعٌ» قالت: فلا حاجة لي فيه[٢]. فهذه شفاعةٌ من سيِّدِ الشُّفَعَاءِ لمحبٍّ إلى محبوبه، وهي من أفضل الشفاعات وأَعْظَمِهَا أَجْراً عند الله، فإنها تتضمَّن اجتماع محبوبَيْنِ على ما يحبّه الله ورسوله، ولهذا كان أحبّ ما لإبليس وجنودِه التفريق بين هذين المحبوبين. وتأَمَّل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنها﴾ وفي السيِّئَةِ ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ فإن لفظ الكِفْلِ يُشْعِرُ بالحمل والثِّقَلِ، ولفظَ النصيب يُشْعِرُ بالحظِّ الذي يَنْصَبُ طالبُه في تحصيله، وإن كان كلٌّ منهما يُستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حَسُنَ اختصاصُ حظِّ الخير بالنصيب وحظِّ الشرّ بالكِفْلِ.

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلاً عَلى عهد رسول الله ﷺ زوَّجَ ابنةً له وكان خطبها قبل ذلك عمّ بنتها، فبلغ النبيَّ ﷺ أنها كارهةٌ هذا الذي زوّجها

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٠٩) والبخاري في الزكاة باب ٢١، والأدب باب ٢٦ و٢٧، والتوحيد باب ٣١. ومسلم في البر حديث ١٤٥. وأبو داود في الأدب ١١٧. والترمذي في العلم باب ١٤. والنسائي في الزكاة باب ٦٥.

(٢) أخرجه النسائي في القضاة باب ٢٨. وابن ماجة في الطلاق باب ٩. والدارمي في الطلاق باب ١٥.

أبوها، وأنه كان يعجبها أن يتزوّجها عمُّ بنتها، فأهدر النبيّ ﷺ نكاح أبيها وزوَّجها عمَّ بنتها[١]. وقد تقدّم حديثُ عمرو بن دينار، عن طاوُس، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، في حِجْرِي يتيمةٌ قد خطبها رجُلٌ مُوسِرٌ ورجُلٌ مُعدِمٌ، فنحن نحبّ الموسِرَ وهي تحبّ المُعْدِمَ. فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ»[٢] رواه سليمان بن موسى عنه.

وقال مَخْلَد بن الحسين: حدّثنا هشام بن حسّان، عن محمد بن سِيرِين قال: كان عمر بن الخطاب يَعُسُّ بالليل فسمع صوتَ امرأةٍ تغنّي وتقول:

هل من سبيلٍ إلى خمر فأَشربَها ... أَم هل سبيلٌ إلى نصر بن حجّاج

فقال: أَمّا وعمر حيٌّ فلا. فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجّاج فإذا رجلٌ جميلٌ فقال: اخرج فلا تساكني بالمدينة، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مُجاشع بن مسعود، وكانت له امرأةٌ جميلةٌ فأعجبها نصر، فأَحبها وأَحبّته فكان يقعد هو ومُجَاشعٌ يتحدّثان والمرأة معهما، فكتب لها نصر في الأرض كتاباً فقالت: وأنا، فعلم مُجَاشعٌ أنها جواب كلام، وكان مجاشعٌ لا يكتب والمرأة تكتب، فدعا بإناءٍ فأكفأه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو: إني لأُحِبُّكِ حبًا لو كان فوقكِ لأَظَلَّكِ وَلو كان تحتكِ لأَقلَّكِ[٣]، وبلغ نصراً ما صنع مُجاشع فاستحيا ولَزِمَ بيته وضَنِيَ جسمُهُ حتى كان كالفرخ[٤]، فقال مجاشع لامرأته: اذهبي إليه فأسندته إلى صدرها، وأطعمته الطعام بيدها، فلما تحامل خرج من البصرة.

إنّ الذين بخيرٍ كنتَ تذكرهم ... هم أهلكوك وعنهم كنتُ أنهاكا
لا تطلبنَّ شفاءً عند غيرهم ... فليس يُحْيِيك إلا من توفّاكا

فإن قيل: فهل تبيح الشريعة مثل ذلك؟ قيل: إذا تعيَّنَ طريقاً للدواء ونجاة العبد من الهَلَكةِ لم يكن بأَعظَمَ من مداواة المرأة للرجل الأجنبيّ، ومداواته لها، ونظرِ الطبيب إلى بدن المريض وَمَسِّه بيده لِلْحَاجَةِ. وأما التداوي بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجهٍ ما، وأما التداوي بالضمّ والقُبلة فإن تحقّق الشفاءُ به كان نظيرَ التداوي بالخمر عند من يبيحه، بل هذا أسهل من التداوي بالخمر فإنَّ شُرْبَهُ من الكبائر، وهذا الفعل من الصغائر. والمقصود

(١) رويت هذه القصة في صحيح البخاري وسنن النسائي وابن ماجة بألفاظ أخرى عن خنساء بنت خذام الأنصارية. ورويت من طرق أخرى في كتابي الإصابة وأسد الغابة.
(٢) تقدم بلفظ: «لم يُر للمتحابين مثل النكاح» وبلفظ: «لم يُر للمتحابين مثل التزويج».
(٣) أقل الشيء: حمله ورفعه.
(٤) الفرخ: ولد الطائر، وكل صغير من الحيوان والنبات. والفرخ أيضاً الرجل الضعيف الذليل المطرود.

أن الشفاعة للعشّاق، فيما يجوز من الوصال والتلاق، سنّةٌ ماضية وسعيٌ مشكور.

وقد جاء عن غير واحدٍ من الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم أنهم شفعوا هذه الشفاعة.

فقال الخرائطي: حدّثنا عليُّ بن الأعرابيّ، حدّثنا أبو غسان النَّهْدِيّ قال: مرّ أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في خِلَافَتِهِ بطريقٍ من طُرُقِ المدينةِ فإذا جاريةٌ تطحُن برحاها وهي تقول:

وهَـويتُـه مـن قبـل قطـع تمـائمـي ... متمـايسـاً[1] مثـل القضيـب النـاعـم
وكـأنَّ نُـورَ البَـدْرِ سُنَّـةَ وَجْهِـهِ ... يَنْمِـي وَيصعـد فـي ذُؤابـة هـاشـم[2]

فدقّ عليها البابَ فخرجتْ إليه فقال: ويلك أَحُرَّةٌ أنتِ أم مملوكة؟ فقالت: بل مملوكةٌ يا خليفة رسولِ الله ﷺ، قالَ: فمن هَوِيتِ؟ فبكت ثم قالت: بحقّ الله إلا انصرفتَ عنِّي، قال: لا أَرِيمُ أو تعلميني فقالت:

وأنـا التـي لعـب الغـرامُ بقلبهـا ... فبكـت لحـبّ محمـد بـن القـاسـم

فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جَعفر بن أبي طالب وقال: هؤلاء فِتَن الرجال، وكم قد مات بهنَّ من كريم، وعَطِبَ عليهنَّ من سليم.

ويُذكَر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه جاءته جاريةٌ تستعدي على رجُلٍ من الأنصار فقال لها عثمان: ما قصّتك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين كَلِفْتُ بابن أخيه، فما أَنْفَكُّ أُرَاعِيه، فقال له عثمان: إما أن تَهَبَهَا لابن أخيك أو أَعطيَك ثمنها من مالي، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

وأُتِيَ عَلِيُّ بن أبي طالب بغلام من العرب وُجِدَ في دار قومٍ بالليل فقال له: ما قصتك؟ فقال: لست بسارقٍ ولكنّي أَصْدُقُك:

تعلّقـتُ فـي دار الـربـاحـيّ خَـوْدَةً ... يَـذِلُّ لهـا مـن حسنهـا الشمـسُ والبـدرُ
لهـا فـي بنـات الـرُّوم حُسْنٌ ومَنْصِـبٌ ... إذا افتخـرت بـالحسـن صـدّقهـا الفخـرُ
فلمـا طـرَقـتُ الـدارَ مـن حَـرِّ مُهْجَـةٍ ... أتيـت وفيهـا مـن تـوقُّـدهـا جمـرُ
تبـادر أهـلُ الـدار لـي ثـم صيّحـوا ... هـو اللـصُّ محتـومـاً لـه القتـلُ والأسْـرُ

(١) متمايساً: متبختراً.

(٢) ينمي: يزيد ويكثر. والذؤابة: الناصية، وقيل منبتها من الرأس. وذؤابة القوم: أشرفهم والمقدم فيهم.

فلما سمع عليٌّ شعرَه رقّ له وقال للمهلّب بن رباح: اسمح له بها ونعوّضك منها، فقال: يا أمير المؤمنين سَلْهُ مَن هو لنعرف نسبه؟ فقال: النَّهّاسُ بن عُيَيْنَةَ الْعِجْلِيّ، فقال: خذها فهي لك.

وذكر التميمي في كتابه المسمى «بامتزاج النفوس» أن معاوية بن أبي سفيان اشترى جاريةً من البحرين فأُعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها:

وفارقتُه كالغصن يهتزُّ في الثرى   طَرِيراً وَسِيماً بعدما طرّ شاربُه[1]

فسألها فقالت: هو ابن عمِّي، فردَّها إليه وفي قلبه منها.

وقال سالم بن عبد الله: كانت عاتكة ابنة زيد تحت عبد الله بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سُوقه، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدةً ففعل، فوَجَدَ عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة، فلما بَصُرَ بأَبي بكر بكى وأنشأ يقول:

ولم أَرَ مثلي طلّقَ اليومَ مثلها   ولا مثلَها في غير جُرْم يطلَّق
لها خُلُقٌ جَزْلٌ وَحلمٌ ومَنْصِبٌ   وخَلْقٌ سَوِيٌّ في الْحَيَاةِ[2] ومَصْدَقُ

فرّق له أبو بكر رضي الله عنه وأمره بمراجعتها، فلما مات قالت ترثيه:

آليتُ[3] لا تنفكُّ عيني سخينةً   عليكَ ولا ينفكّ جلديَ أغبرا
فللّه عينا مَن رأى مثلَه فتًى   أعفَّ وأمضى في الهِيَاجِ وأصبرا
إذا شرَعت[4] فيه الأسنّةُ خاضها   إلى الموت حتى يترك الرمحَ أحمرا

فلما حلّت تزوّجها عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ وأولم عليها، فقال له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أُدخل رأسي إلى عاتكة أكلِّمها؟ قال: نعم، فأدخل عليٌّ رأسه إليها وقال: يا عُدَيَّةَ نفسها.

آليت لا تنفكُّ عيني قريرةً   عليكَ ولا ينفكُّ جلدي أصفرا

فبكتْ، فقال له عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن؟ كلُّ النساء يفعلن هذا. فلما قُتل عمر قالت ترثيه:

عين جُودي بعبرةٍ ونحيبِ   لا تَمَلِّي على الجواد النجيب

---

(١) الطرير: ذو المنظر والهيئة الحسنة. وطر شاربه: نبت.
(٢) رواية الأغاني والإصابة: «في الحياء». وجزل: كريم. ومصدق: صادق الخلال.
(٣) رواية الأغاني: «فأقسمت».
(٤) شرعت: تسددت.

فجعتنـــي المنـــون بـــالفـــارس المُعْـ ـلَـــم يـــوم الْهِيـــاج والتثـــويـــب[1]
قُـــل لأهـــل الضـــرّاء والبـــؤس مـــوتـــوا قـــد سقتـــه المنـــونُ كـــأسَ شَعُـــوب[2]

فلما حلّت تزوّجها الزُّبير بن العوّام، فاستأذنت ليلةً أن تخرج إلى المسجد فشقّ ذلك عليه وكرِهَ أن يمنعها لقول رسول الله ﷺ: «لا تَمْنَعوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ ٱللهِ»[3] فأذن لها ثم انكمى[4] في موضعٍ مظلمٍ من الطريق، فلما مرّت وضع يدَهُ عليها، فكرَّت راجعةً تسبِّحُ، فسبقها الزبير إلى المنزل، فلما رجعت قال لها: ما ردَّكِ عن وجهك؟ قالت: كنّا نخرج والناس ناس، وأما اليوم فلا. وتركت المسجد، فلما قُتل الزبير قالت ترثيه:

غـــدر ابـــن جُـــرمـــوز بفـــارس بُهْمَـــةٍ يـــوم اللقـــاء وكـــان غيـــر مُعَـــرِّدِ[5]
يـــا عمـــرو لـــو نبَّهْتَـــه لـــوجـــدتَـــهُ لا طـــائشـــاً رَعِـــشَ السِّنَـــانِ وَلا اليـــد
ثكلتـــك أُمُّـــكَ إن ظفـــرت بمثلـــه فيمـــا مضـــى حتـــى تـــروحَ وتغتـــدي
كـــم غمـــرةٍ قـــد خـــاضهـــا لـــم يَثْنِـــه عنهـــا طـــرادُك يـــا ابـــن أُمِّ الفـــرقـــد[6]
إن الـــزبيـــر لـــذو بـــلاءٍ صـــادقٍ سمـــحٌ سجيَّتُـــه كـــريـــمُ المشهـــد

فلما حلت خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالت: إني لأَضِنّ بِكَ على القتل.

وذكر الخرائطي أن المهدي خرجَ إلى الحج حتى إذا كان بزُبالة[7] جلس يتغدّى فأَتى بدويٌّ فناداه: يا أَميرَ المؤمنين إني عاشقٌ، ورفع صوته، فقال للحاجب: ويحك ما هذا؟ قال: ابنةُ عمي، قال: أَوَلَها أَبٌ؟ قال: نعم، قال: فما له لا يزوّجك إياها؟ قال: هاهنا شيءٌ يا أَميرَ المؤمنين، قال: ما هو؟ قال: إني هَجِينٌ - والهجينُ: الذي أُمُّهُ أَمَةٌ ليست عربيةً - قال له المهدي: فما يكون؟ قال: إنه عندنا عيبٌ، فأرسل في طلب أَبيها فأُتِيَ به، فقال: هذا ابن أَخيك؟ قال: نعم، قال: فلِمَ لا تزوّجه كريمتك؟ فقال له مثلَ مقالة ابن

(١) رواية الأغاني: «والتلبيب». المعلم: الفارس جعل لنفسه علامة الشجعان في الحرب. والتثويب في أذان الفجر أن يقول المؤذن: الصلاة خير من النوم.
(٢) المنون: الدهر. والمنون أيضاً: المنية. وشعوب: المنية والفراق.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/١٦، ٣٦، ١٥١، و٥/ ١٩٢، ١٩٣، و٦/ ٢٩) ومالك في القبلة حديث ١١. والبخاري في الجمعة باب ١٣. ومسلم في الصلاة حديث ١٣٦. وأبو داود في الصلاة باب ٥٢. وابن ماجة في المقدمة باب ٢. والدارمي في الصلاة باب ٥٧.
(٤) انكمى: اختفى واستتر.
(٥) البهمة: الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته. ومعرد: هارب. وعرد عن قرنه: أحجم ونكل.
(٦) الغمرة: الشدة. والفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي، وولد البقرة.
(٧) زبالة (بضم أوله): منزل بطريق مكة من الكوفة، كما في ياقوت.

أخيه، وكان من ولد العباس عنده جماعةٌ، فقال: هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هُجُن ما الذي يضرّهم من ذلك؟ قال: هو عندنا عيبٌ، فقال له المهدي: زوّجه إياها عَلَى عشرين ألف درهم، عشرة آلافٍ للعيب، وعشرة آلاف مَهْرُهَا، قال: نعم، فحمِدَ الله وأثنى عليه وزوّجه إياها، فأتى ببَدْرَتَيْنِ فدفعهما إليه فأنشأ الشابّ يقول:

إبْتَعْــتُ ظَبْيَــةَ بِــالْغَــلاَءِ وإنمــا ... يُعْطِــي الغَــلاَءَ بمثلهــا أمثــالــي
وتــركــت أســواقَ القِبــاح لأهلهــا ... إن القِبــاح وإن رَخُصْــنَ غَــوَالِــي

وذكر الخرائطي من حديث الهيثم بن عَدِيّ عن عَوَانَةَ بن الحكم أن عمر بن أبي ربيعة كان قد ترك الشعر ورغب عنه ونذر على نفسه بكلّ بيتٍ يقوله هَدْيُ بَدَنَةٍ[١]، فمكث كذلك حيناً ثم خرج ليلةً يريد الطواف بالبيت إذ نظر إلى امرأةٍ ذات جمالٍ تطوف، وإذا رجلٌ يتلوها، كلما رفعت رِجْلَهَا وضع رِجله موضعَ رِجْلها، فجعل ينظر إلى ذلك من أمرها، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هُنَيَّة ثم رجع، فلما رآه عمر وثب إليه وقال: لَتُخْبِرَنِّي عن أمرك، قال: نعم، هذه المرأة التي رأيتَ ابنةُ عمِّي وأنا لها عاشقٌ وليس لي مال، فخطبتها إلى عمِّي فرغب عني[٢] وسألني المَهْرَ ما لا أقدر عليه، والذي رأيتَ هو حظِّي منها، وما لي من الدُّنيا أمنيةٌ غيرُها، وإنما ألقاها عند الطواف وحظِّي ما رأيتَ من فعلي. فقال له عمر: ومَن عمُّك؟ قال: فلان ابن فلان، قال: انطلق معي إليه، فانطلقا، فاستخرجه عمر فخرج مبادراً فقال: ما حاجتُك يا أبا الخطّاب؟ قال: تزوّج ابنتك فلانةَ من ابن أخيك فلان، وهذا المَهْرُ الذي تسأله يُسَاق إليك من مالي، قال: فإني قد فعلت. قال عمر: إني أُحبُّ أن لا أبرحَ حتى يجتمعا، قال: وذلك أيضاً، قال: فلم يَبْرَح حتى جمعهما جميعاً، وأتى منزلَه فاستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأخذه، وجعل جوفُه يَجِيش[٣] بالشعر، فأنكرت جاريته ذلك، فجعلت تسأله عن أمره وتقول: ويحك ما الذي قد دهاك؟ فلما أكثرت عليه جلس وأنشد:

تقــول وَلِيــدتــي لمّــا رأتنــي ... طــربــتُ وكنــت قــد أَقصــرتُ حينــا
أراك اليــوم قــد أحــدثــت شــوقــاً ... وهــاج لــك البكــا داءً دفينــا
بــربــك هــل أَتــاك لهــا رســولٌ ... فشــاق أم رأيــتَ لهــا خَــدِينــا[٤]

---

(١) الهدي: ما يهدى إلى الحرم من النعم. والبدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها، والجمع بدن بالضم.
(٢) رغب عني: لم يردني.
(٣) يجيش: يزخر، يفيض.
(٤) الخدن والخدين: الصاحب، الحبيب، الصديق، والجمع أخدان.

فقلـــت شكـــا إلــيَّ أخٌ محـــبٌّ كبعـــض زمـــانـنـــا إذ تعلمينـــا
فعـــدَّ علـــيَّ مـــا يَلْقـــى بهنـــدٍ فـــوافـــق بعـــضُ مـــا كنَّـــا لقينـــا
وذو القلـــب المصـــاب وإن تعـــزَّى يُهَيَّـــجُ حيـــن يلقـــى العـــاشقينـــا
وكـــم مـــن خُلـــةٍ أَعـــرضـــت عنهـــا لغيـــر قِلَـــى وكنـــتُ بهـــا ضنينـــا[١]
رأيْـــتُ صـــدودهـــا فصـــددت عنهـــا ولـــو هـــام الفـــؤادُ بهـــا جنـــونـــا

وعرض خالد بنُ عبد الله القَسْريّ سجنَه يوماً وكان فيه يزيد ابن فلان البجلي[٢]، فقال له خالد: في أيّ شيءٍ حُبست يا يزيد؟ قال: في تهمة ـ أصلح الله الأمير ـ قال: أفتعود إن أطلقتك؟ قال: نعم، وكره أن يعرّض بقصّته لئلا يفضح معشوقته، فقال خالد: أحضروا رجال الحيّ حتى نقطع يده بحضرتهم، وكان ليزيدَ أخٌ فكتب شعراً ووجّه به إلى خالد:

أخـالـدُ قـد أُعطيـتَ فـي الخلـق رتبـةً ومـا العـاشـقُ المسكيـنُ فينـا بسـارق
أَقَـرَّ بمـا لـم يَـأْتِـه المـرءُ إنـه رأى القطـع خيـراً مـن فضيحـة عـاشـق
ولـولا الـذي قـد خِفْـتُ مـن قطـع كفِّـه لأُلْفِيـتُ فـي شـأْن الهـوى غيـرَ نـاطـق
إذا بـدت الـرايـات للسبـق فـي العُلـى فـأنـت ابـنَ عبـد الله أوّلُ سـابـق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله، فأَحضر أولياء الجارية فقال: زوّجوا يزيد فتاتكم، فقالوا: أمّا وقد ظهر عليه ما ظهر فلا، فقال: لئن لم تزوّجوه طائعين لَتُزَوِّجُنّه كارهين، فزوَّجوه ونقد خالد المَهْرَ من عنده.

وذكر أبو العباس المبرِّد قال: كان رجلٌ بالكوفة يدعى ليثَ بن زياد قد ربَّى جاريةً وأدَّبها فخرجت بارعةً في كل فنٍّ مع جمالٍ وافر، فلم يزل معها مدّةً حتى تبيّنت منه الحاجةَ فقالت: يا مولاي لو بعتَني كان أصلحَ لك مما أراك به وإن كنتُ لأظن أني لا أصبر عنك، فقصد رجلاً من الأغنياء يعرفها ويعرف فضلَها فباعها بمائة ألف درهم، فلما قبض المال وجّه بها إلى مولاها وجزع عليها جزعاً شديداً، فلما صارت الجارية إلى سيِّدها نزل بها من الوَحشة للأوّل ما لم تستطع دفعَه ولا كَتْمَه، فباحت به وقالت:

أتـانـي البـلاَ حقًّـا فمـا أنـا صـانـعُ أمصطبـــرٌ للبيـــن أم أنـــا جـــازعُ
كفـى جَـزَعـاً أنـي عَلَـى مثـل جمـرةٍ أقـاسـي نجـومَ الليـل والقلـبُ نـازعُ[٣]

---

(١) الخلة: الخليل يستوي فيه المذكر والمؤنث. والقلى: الهجر والبغض.
(٢) في ديوان الصبابة: «العجلي».
(٣) نازع: اشتد به الحنين والشوق.

فـــإن يمنعـــونـــي أن أَبـــوح بحبـــه ... فـــإنـــي قتيـــلٌ والعيـــونُ دوامـــع

فبلغ سيِّدَها شعرُها فدعا بها وأَرادها فامتنعت عليه وقالت له: يا سيِّدي إنك لا تنتفع بي، قال: ولِمَ ذاك؟ قالت: إني لما بي، قال: وما بك؟ صفيه لي! قالت: أجد في أحشائي نيراناً تتوقَّد، لا يقدر عَلى إطفائها أحد، ولا تسأَل عما وراء ذلك، فَرَحِمَهَا ورقّ لها وبعث إلى مولاها فسأل عن خبره، فوجد عنده مثلَ الذي عندها، فأَحضره فردّ الجارية عليه، ووهب له من ثمنها خمسين ألفاً، فلم تزل عنده مدةً طويلةً. وبلغ عبدَ الله ابنَ طاهرٍ خبرُهما وهو بخُراسان، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذي ذُكر له من قِبَل الجارية أَن يشتريَها له بما ملكت يمينه، فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب إليه عبدُ الله بنُ طاهر، فلم يجد سيِّدها بدًّا من عَرْضها عليه وهو كارهٌ فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول:

بـــديـــعُ حسْـــنٍ رشيـــقُ قـــدٍّ ... جعلـــت منِّـــي لـــه مـــلاذا

فأجابته الجارية:

فعـــاتبـــوه فـــزاد عشقـــاً ... فمـــات شـــوقـــاً فكـــان مـــاذا

فعلم أنها تَصْلُح له، فاشتراها بمائتي ألف درهم، فجهَّزها وحملها إلى عبد الله بن طاهر إلى خُراسان، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها عَلى ما أراد، فغلبته عَلى عقله، ويقال: إنها أمُّ محمد بن عبد الله بن طاهر، ولم تزل أَلطافُها[1] وجوائزها تأتي مولاها الأوّلَ حتى ماتت.

وقال عمر بن شَبَّة: حدّثنا أَيوب بن عمر الغفاري قال: طلّق عبد الله بن عامر امرأَته ابنةَ سهل بن عمرو، فقَدِمت المدينة ومعها ابنةٌ لها، ومعها وديعةُ جوهر استودعها إياه، فتزوّجها الحسنُ بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ثم أراد ابن عامر الحجَّ فأتى المدينةَ فلقي الحسن فقال: يا أبا محمد إن لي إلى ابنةِ سهلٍ حاجةً فأُحبّ أن تأذن لي عليها، فقال الحسن: البَسِي ثيابَك فهذا ابن عامرٍ يستأذن عليك، فدخل عليها فسألها وديعتَه فجاءَته بها عليها خاتمه. فقال لها: خذي ثلثَها فقالت: ما كنتُ لآخذ على أَمانةٍ ائْتُمنْتُ عليها شيئاً أَبداً، ثم أَقبل عليها ابن عامر فقال: إن ابنتي قد بلغت فأُحبُّ أن تُخَلِّي بيني وبينها، فبكت وبكت ابنتُها، فرق ابن عامر فقال الحسن: فهل لكما؟ فوالله ما مِنْ محلِّلٍ خيرٌ مني قال: فوالله لا أُخرجها من عندك أبداً، فكفلها حتى مات.

---

(١) ألطاف جمع لطف: الهدايا.

وذكر الزمخشري في «ربيع الأبرار» أن زُبَيْدَة بنت أبي جعفر[١] قرأت في طريق مكة على حائطٍ:

أمـا فـي عبـاد الله أو فـي إمـائـه ... كـريـمٌ يُجَلّي[٢] الهـمَّ عـن ذاهـب العقـل
لـه مقلـةٌ أمـا المـآقـي فقـرحـةٌ ... وأمـا الحشـا فـالنـارُ منه علـى رِجْـل[٣]

فنذرت أن تحتال لقائلهما حتى تجمعَ بينه وبين من يحبه، قالت: فإني لَبِمُزْدَلِفَةَ إذ سمعت من ينشدهما، فاستدعيت به فزعم أنه قالهما في بنت عمٍّ له وقد حلف أهلُها أن لا يزوِّجوها منه، فوجّهَتْ إلى الحيّ وما زالت تبذلُ لهم المالَ حتى زوّجوه. وإذا المرأة أعشقُ من الرجل، فكانت زبَيْدَة تعدُّه في أعظم حسناتها وتقول: ما أنا بشيء أسرّ مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة.

قال الزمخشري: وَهَوِيَ أحمد بن أبي عثمان الكاتبُ جاريةً لزُبَيْدَةَ اسمها «نعْم» حتى مرض وقال فيها أبياتاً منها:

وإنـي لَيُـرضينـي المَمَـرُّ ببـابهـا ... وأقنـع منهـا بـالشتيمـة والـزَّجْـرِ

فوهبتها له.

وذكر الخرائطي أنه كان لبعض الخلفاء غلامٌ وجاريةٌ من غلمانه وجواريه متحابَّيْن، فكتب الغلامُ إليها يوماً يقول:

ولقـد رأيتـك فـي المنـام كـأنمـا ... عـاطَيْتِنـي مـن رِيـق فيـكِ البـارد
وكـأن كفـك فـي يـدي وكـأننـا ... بِتْنـا جميعـاً فـي فـراشٍ واحـد
فطَفِقـتُ يـومـي كلَّـه متـراقـداً ... لأراكِ فـي نـومـي ولسـتُ بـراقـد
ثـم انتبهـت ومِعْصمـاكِ كـلاهمـا ... بيـدي اليميـن وفـي يمينـك سـاعـدي

فأجابته الجارية:

خيـراً رأيـتَ وكـلُّ مـا أبصـرتَـه ... ستنـالُـه منّـي بـرغـم الحـاسـد
إنـي لأرجـو أن تكـون معـانقـي ... فتبيـتَ منـي فـوق ثـدْي نـاهـد
وأراك بيـن خـلاخلـي ودَمـالجـي ... وأَراك بيـن تـرائبـي ومَجَـاسـدي[٤]

---

(١) كذا.. وهي بنت جعفر بن أبي جعفر.
(٢) يجلي: يكشف.
(٣) المآقي جمع مأقة: طرف العين مما يلي الأنف وهي مجرى الدمع. وعلى رجل: يعني على أشدها.
(٤) خلاخلي جمع خلخال: وثوب خلخال: رقيق. ودمالجي جمع دملج ودملوج: حلية

ونَبِيتُ أَلْطَفَ عاشقَيْنِ تعاطيا   طرفَ الحديث بلا مخافة راصد

فبلغ الخليفةَ خبرهُما فأنكحهما وأحسن إليهما على شدَّة غيرته.

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى: سمع المُهَلَّب فتًى يتغنَّى بشعرٍ في جاريةٍ له فقال المهلَّب:

لعَمْريَ إنّي للمحبِّين راحمٌ   وإنّي بسَتْر العاشقين حقيق
سأجمع منكم شمل وُدٍّ مبدَّد   وإنّي بما قد ترجُوَان خليق

ثم وهبها له ومعها خمسة آلاف دينار.

وقال الخرائطي: كان رجلٌ نخّاسٌ عنده جاريةٌ لم يكن له مالٌ غيرها، وكان يَعرِضها في المواسم فتغالى الناسُ فيها حتى بلغت مبلغاً كثيراً من المال وهو يطلب الزيادة، فعُلِّقها[1] رجلٌ فقيرٌ فكاد عقله أن يذهب، فلما بلغه ذلك وهبها له، فعوتب في ذلك فقال: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]. أفلا أُحيي الناس جميعاً؟

وقال علي بن قريش الجرجاني:

شكوت بلاءً لا أُطيق احتمالَه   وقلبي مطيعٌ للهوى غيرُ دافع
فأُقسم ما تركي عتابَك عن قِلًى   ولكن لعلمي أنه غيرُ نافع
وإني متى لم أَلْزَم الصبرَ طائعاً   فلا بدَّ منهُ مكرَهاً غيرَ طائع
إذا أنت لم يَعطفك إلا شفاعةٌ   فلا خير في ودٍّ يكون بشافع

وكان أبو السائب المخزومي أَحد القرّاءِ والفقهاء، فرؤي متعلِّقاً بأستار الكعبة وهو يقول: اللهمّ ارحم العاشقين، واعطِف عليهم قلوبَ المعشوقين. فقيل له في ذلك فقال: الدعاء لهم أفضلُ من عُمْرَةٍ من الْجِعْرَانة.

وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاماً[2] وجاريةً كانا في كُتاب فَهوِيَها الغلامُ، فلما كان في بعض أيامه في غفلةٍ من الغلمان كتب في لوح الجارية:

ماذا تقولين فيمن شَفَّه سَقَمٌ   من طول حبّك حتَّى صار حيرانا

= تحيط بالعضد. والترائب جمع تربية: عظام الصدر مما يلي الترقوتين وموضع القلادة. ومجاسد جمع مجسد: الثوب الملامس للجسد. وجسد به: لصق.

(١) علقها: أحبها.

(٢) هو علي بن الجهم.

فلما قرأته الجارية أغرورقت عيناها بالدُّموع رحمةً له وكتبت تحته:

إذا رأَينـا محبًّـا قـد أضـرَّ بـه طـولُ الصبـابـة أَوْلَيْنـاهُ إحسـانـا

وذكر الهَيْثَمُ بن عَدِيّ، عن محمد بن زياد أَن الحارث بن السَّليل الأزدي خرج زائراً لعلقمة بن حزم[1] الطائي وكان حليفاً له، فنظر إلى ابنة له تُدعَى الرباب وكانت من أجمل النساءِ، فأعجب بها وعشقها عشقاً حال بينه وبين الانصراف إلى أهله، فقال لعلقمةَ: إني أتيتك خاطباً وقد يُنْكَحُ الخاطب، ويدرك الطالب، ويُمْنَحُ الراغب. قال: كفوٌ كريم فأقم ننظر في أمرك، ثم انكفأ[2] إلى أمّ الجارية فقال لها: إن الحارث سيِّد قومه حسباً ومَنْصِباً وبيتاً فلا ينصرفنَّ من عندنا إلا بحاجته، فشاوري ابنتَك وأديريها عما في نفسها، فقالت لها: أي بُنَيّة، أَيّ الرجال أعجب إليك؟ الكَهْلُ الجحجاح[3]، المفضّل الميّاح[4]، أم الفتى الوَضّاح، الملول الطمّاح؟ قالت: الفتى الوَضّاح[5]، فقالت: إن الفتى يُغيرك[6]، وإن الشيخ يُميرك[7]، وليس الكهْلُ الفاضل، الكثير النائل[8]، كالحديث السنّ، الكثير المَنّ. فقالت: يا أمّاه أُحبُّ الفتى، كحبّ الرّعاءِ أنيق الكَلاَ. قالت: يا بُنَيّة، إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب. قالت: يا أُمّاه أَخشى من الشيخ أَن يدنسَ ثيابي، ويُبْلي شَبابي، ويشمتَ بي أَترابي. فلم تزل بها الأمُ حتى غلبتها على رأْيها فتزوّجها الحارث على خمسين ومائةٍ من الإبل وخادم وأَلف درهم، فبنى بها وكانت عنده أحبَّ شيءٍ إليه، فارتحل بها إلى أهله، فإنه لجالسٌ يوماً بفِناء مِظَلّته وهي إلى جانبه إذا أقبل فِتْيَةٌ يَعْتلجون[9] الصراع فتنفّست الصُّعَداء، ثم أرسلت عينيها بالكباء فقال ما يبكيك؟ فقالت: ما لي وللشيوخ، الناهضين كالفروخ[10]، فقال: ثكلتك أُمّك قد تجوع الحرَّة ولا تأكل بثدييها، فسارت مثلاً، أي لا تكون ظِئْراً[11]، وكان أوّلَ من نطق بها، ثم قال: أما وأبيك

(١) اسمه علقمة بن خصفة واسم ابنته الزباء، كما ذكره الميداني في أمثاله.

(٢) انكفأ: رجع.

(٣) الجحجاح: السيد السمح الكريم.

(٤) ماح في مشيته: مال وتبختر، وماح فلاناً: أعطاه.

(٥) الوضاح صيغة مبالغة: الحسن الوجه البسام. ورجل وضاح الحسب: ظاهره ونقيه ومبيضه.

(٦) يغيرها: يجعلها تغار بالزواج وغيره.

(٧) يميرك: يهيّىء لك طيب العيش. والميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٨) النائل: الكثير العطاء.

(٩) اعتلج القوم: اقتتلوا واصطرعوا.

(١٠) الفرخ: ولد الطائر وكل صغير من الحيوان والنبات والشجر، ومن الرجال: الذليل الضعيف.

(١١) الظئر: المرضعة لغير ولدها.

لربّ غارةٍ شهدتها، وسبْيةٍ أردفتها، وخمرةٍ شربتها، الحقي بأهلك فلا حاجة لي فيك، ثم أنشأ يقول:

وعيَّـــرَتْ أن رأتنـــي لابســـاً كِبَـــراً ... وغـــايـــةُ النفـــس بيـــن المـــوت والكِبَـــر
فـــإن بقيـــتِ رأيـــتِ الشيـــبَ راغمَـــةً ... وفـــي التفـــرُّق مـــا يقضـــي مـــن العِبَـــر
وإن يكـــن قـــد عـــلا رأســـي وغيَّـــره ... صَـــرفُ الـــزمـــان[1] وتقتيـــرٌ مـــن الشَّعَـــر
فقـــد أَروح للـــذّات الفتـــى جَـــذِلاً ... وهمتـــي لـــم تُشَـــبْ فـــاستخبـــري أثـــري[2]

(١) صرف الزمان: حدثانه ونوائبه.
(٢) جذلاً: فرحاً ونشيطاً. لم تشب: لم يصبها الوهن.

في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما

هذا بابٌ لا يدخل فيه إلّا النفوسُ الفاضلة الشريفة الأبية التي لا تقنع بالدُّون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيعَ العاجز المغبون، ولا يملكها لَطْخُ جمال مُغَشٍّ[1] عَلَى أنواع من القبائح، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأةٍ مبرقَعة:

إذا بـــــارك الله فــــي مَلْبَـــس ... فــلا بـــارك اللـــهُ فـــي البُـــرْقُـــع
يُـــريـــك عيـــونَ المَهَـــا مُسْبَـــلًا ... ويكشِـــفُ عـــن منظَـــرٍ فـــي أشنـــع

وقال الآخر:

لا يغـــرَّنْـــكَ مـــا تـــرى مـــن نقـــابٍ ... إن تحـــت النقـــاب داءً دَوِيَّـــا

فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون. وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعام أدنى منه، فنعى ذلك عليهم وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وذلك دليلٌ على وضاعة النفس وقلة قيمتها.

وقال الأصمعي: خلا رجلٌ من الأعراب بامرأةٍ فهمَّ بالريبة، فلما تمكَّن منها تنحى سليماً وجعل يقول: إن امرءاً باع جنةً عرضها السمواتُ والأرضُ بفِتر[2] ما بين رجلَيكِ لقليلُ البصر بالمساحة.

وقال أبو أسماء: دخل رجلٌ غَيْضَةً[3] فقال: لو خلوتُ هاهنا بمعصيةٍ مَن كان يراني؟ فسمع صوتاً ملأ ما بين لابَتِي[4] الغيضة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) مغش: يخفى ما فيه من عيوب.

(٢) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحهما.

(٣) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٤) اللابة: الحرة والموضع، ولابتا المدينة: حرتان تكتنفانها. وفي الحديث أنه ﷺ حرم ما بين لابتي المدينة.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا هَيْثَم ـ هو ابن خارجة ـ حدّثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الرحمن بن عَدِي البَهْرَاني، عن يزيد بن مَيْسَرة قال: إن الله تعالى يقول: أيها الشاب التاركُ شهوته لي، المتبذل[1] شبابه من أجلي، أنت عندي كبعض ملائكتي.

وذكر إبرهيم بن الجُنَيْد أن رجلاً راود امرأةً عن نفسها فقالت له: أنت قد سمعت القرآن والحديث فأنت أعلم قال: فأغلقي الأبواب فأغلقتها، فلما دنا منها قالت: بقي بابٌ لم أغلقه قال: أيّ باب؟ قالت: الباب الذي بينك وبين الله، فلم يتعرّض لها.

وذكر أيضاً عن أعرابي قال: خرجتُ في بعض ليالي الظلَم فإذا أنا بجارية كأنها عَلَم[2] فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل، إذا لم يكن لك ناهٍ من دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلاّ الكواكب، قالت: فأين مُكَوْكِبُها؟

وجلس زياد مولى ابن عياش رضي الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له: يا عبدَ الله، فقال له: قل ما تشاء، قال: ما هي إلا الجنة أو النار؟ قلت: نعم قال: وما بينهما منزلٌ ينزله العباد؟ قلت: لا والله فقال: والله إن نفسي لَنَفْسٌ أضِنٌّ بها على النار، والصبرُ اليومَ عن معاصي الله خيرٌ من الصبر عَلَى الأغلال.

وقال وهب بن مُنَبِّه: قالت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام: ادخل معي القَيْطون ـ تعني السِّتر ـ قال: إن القَيْطون لا يسترني من ربِّي.

وقال اليزيديّ: دخلت عَلَى هارون الرشيد فوجدته مُكبًا عَلى وَرقة ينظر فيها مكتوبةٍ بالذهب، فلما رآني تبسّم فقلت: فائدة أَصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم وجدتُ هذين البيتين في بعض خزائن بني أُميّة فاستحسنتهما، فأضفت إليهما ثالثاً، فقال: ثم أنشدني:

إذا سُدّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فَدَعْهُ لأخرى ينفتحْ لك بابُها
فإن قُراب البطن يكفيك مَلأَه ... ويكفيك سوْءَاتِ الأمور اجتنابها
فلا تكُ مِبْذالاً لدينك واجتنب ... ركوبَ المعاصي يَجْتَنِبْك عِقابُها

وقال أبو العباس الناشيء:

إذا المرء يحمي نفسه حِلَّ شهوةٍ ... لصحّة أيّامٍ تبيد وتَنْفَدُ
فما بالُه لا يحتمي من حرامها ... لصحّة ما يبقى له ويُخَلَّدُ

---

(١) المتبذل شبابه: الذي حرم نفسه من ملذاته.

(٢) العلم: الجبل؛ وشيء منصوب يهتدى به في الطريق.

وقيل: إن عليَّ بن أَبي طالب رضي الله عنه كان ينشد هذين البيتين:

إقــدع[1] النفــسَ بــالكَفـاف وإلاّ ... طلبــتْ منــك فــوق مـا يكفيهـا
إنمــا أنــتَ طــولَ عمــرك مــا عُمْـ ... ـمِـرْتَ فـي السـاعـة التـي أنـت فيهـا

ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما:

إذا المـرءُ لـم يتـرك طعـامـاً أَحبَّـه ... ولـم يَنْـهَ قلبـاً غـاويـاً حيـث يمَّمـا[2]
قضـى وطَـراً منـه وغـادر سُبَّـةً ... إذا ذُكـرت أَمثـالُهـا تمـلأ الفمـا

وقال شُعْبة، عن منصور، عن إبراهيم: كلَّم رجلٌ من العُبّاد امرأَةً فلم يزل بها حتى وضع يدَه عَلى فَخِذِها فانطلق فوضع يده عَلى النار حتى نَشَّت[3].

وقال زيد بن أسلم عن أَبيه: كان عابدٌ في صَوْمعةٍ يتعبّد فأَشرف ذات يومٍ فرأَى امرأَةً ففُتن بها، فأَخرج إِحدى رجليه من الصَّومعة يريد النزول إليها، ثم فكّر وادَّكر فأناب، فأراد أن يعيد رِجْله إلى الصومعة فقال: والله لا أُدخلُ رِجْلاً خرجت تريد أَن تعصي الله في صومعتي أبداً، فتركها خارجة من الصومعَة فأَصابها الثلجُ والبرد والرياح حتى تقطَّعت.

وقال بعض السلف: من كان له واعظٌ من قلبه زاده الله عز وجلّ عزًّا، والذلُّ في طاعة الله أقربُ من العزّ في معصيته.

وقال أبو العَتاهِية: لَقِيت أبا نُوَاس في المسجد الجامع فعذلته[4] وقلت له: أما آن لك أن تَرْعَوِي[5] وتنزجر؟ فرفع رأسه إليَّ وقال:

أتــرانــي يـــا عَتَـــاهـــي[6] ... تـــاركـــاً تلـــك المـــلاهـــي
اتـــرانـــي مفســـداً بـــالنُّسْـ ... ـــكِ عنْـــد القـــوم جـــاهـــي

فلما ألححت عليه في العذل أنشأ يقول:

لا تـــرْجـــع الأنْفـــسُ عـــن غَيِّهـــا ... مـــا لـــم يكـــن منهـــا لهـــا زاجـــرُ

فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيءٍ قلته.

وقال ابن السماك عن امرأةٍ كانت تسكُن البادية: لو طالعتْ قلوب المؤمنين بفكرها

---

(١) اقدع النفس: امنعها وكفها. وقدع فلاناً عن الشيء: كفه ومنعه.
(٢) يمم: قصد.
(٣) نشت: جفت واحترقت.
(٤) عذله: لامه.
(٥) ترعوي: تكف وترتدع.
(٦) العتاهي: ناقص العقل والأحمق. والعتاهية: ضلال الناس.

ما ذُخر لها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة، لم يَصْفُ لهم في الدُّنيا عيشٌ، ولم تَقَرَّ لهم عين. وقال ضَيْغَم لرجلٍ: إن حبَّه عزّ وجلّ شغل قلوبَ محبّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع محبته عزَّ وجلّ لذةٌ تداني محبَّتَه، ولا يأمُلون في الآخرة من كرامة الثواب أكبرَ عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم، فسقط الرجل مَغْشيًّا عليه.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، عن أبيه عن النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً صِراطاً مُسْتَقِيماً وَعَلَى جَنبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ وَفي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلوا الصِّرَاطَ وَلاَ تُعَرِّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ فإذا أَرَادَ أَحَدٌ فَتْحَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأبوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فإنَّكَ إِنْ فَتَحْتَه تَلِجْهُ، فالصِّرَاطُ الإسْلاَمُ، وَالسُّتُورُ الْمُرْخَاةُ حُدُودُ اللهِ، والأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ، وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ عزّ وَجَلّ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ واعِظُ اللهِ في قَلْبِ كلِّ مُسْلِمٍ»(١).

وقال خالد بن مَعْدَان: ما من عبدٍ إلاّ وله عينان في وجهه يبصر بهما أمْرُ الدُّنْيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمْرَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللَّتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب، وإذا أراد الله به غيرَ ذلك تركه على ما هو فيه، ثم قرأ: ﴿أمْ عَلى قُلوبٍ أقفَالُها﴾ [محمد: ٢٤].

وفي الترمذي عنه ﷺ «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى على اللهِ الأَمَانِي»(٢).

وفي المسند من حديث فُضالة بن عُبيد عن النبي ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ ٱللهِ وَٱلْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى ٱللهِ»(٣).

وقال الإمام أحمدُ رحمه الله تعالى: حدّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدّثنا عبد العزيز بن مسلم، عن الربيع بن أَنس، عن أبي العالية، عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: «من أصبح وأكثر همه غير الله فليس من الله»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٥. وابن ماجه في الزهد باب ٢١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٤).

(٤) أورده السيوطي في الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن مسعود وقال: رواه الحاكم.

عن أبيه، عن عطاء بن يَسَار قال: «قال موسى ﷺ: يا رب مَنْ أَهْلُك الذين تظلهم في ظلّ عرشك؟ قال: هم البريئة أيديهم، الطاهرة قلوبهم الذين يتحابُّون بجلالي، الذين إذا ذُكرت ذُكِروا بي، وإذا ذُكِروا بي ذُكِرت بذكرهم، الذي يُسْبغون الوضوء في المكاره، ويُنيبون إلى ذكري كما تُنيب النسور إلى وُكورها، ويَكْلَفون بحبِّي كما يَكْلف الصبيّ بحبّ الناس، ويغضبون لمحارمي إذا استُحِلَّت كما يغضب النَّمِرُ إذا حَرِبَ»[1].

وقال أَحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثني عبد الله بن يحيى قال: سمعت وهب بن مُنَبِّهٍ يقول: قال موسى عليه السلام: «أَيْ ربّ أَيُّ عبادك أَحبُّ إليك؟ قال: من أُذْكَرُ برؤيته».

وقال أحمد: حدثنا سَيّار، حدّثنا جعفر، حدثنا هشام الدَّسْتَوائي قال: بلغني أن في حكمة عيسى ابن مريم ﷺ: «تعملون للدُّنيا وأنتم تُرْزَقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترْزَقون فيها إلا بالعمل، وَيْحَكم علماءَ السوء، الأجرَ تأخذون والعملَ تُضيعون، توشكون أن تخرجوا من الدُّنيا إلى ظلمة القبر وضيقه، واللهُ عزَّ وجلَّ نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثرُ عنده من آخرته وهو في الدنيا أعظمُ رغبةً؟ كيف يكون من أهل العلم مَنْ مَسيرُه إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله عزَّ وجلَّ في قضائه فليس يرضى بشيء أصابه؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعملَ به؟».

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، قال: أوَ للَّعب خُلِقْنا؟

وقال أحمد: حدّثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، حدثني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أُمه فاطمةَ حدّثته أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بالنَّعِيمِ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلَامِ».

وقال أحمد: حدثنا أبو قَطَنٍ، حدّثنا شعبة، عن أبي مَسْلَمة[2]، عن أبي نضرَة قال:

---

(١) حرب: هيج أو طعن أو سلب. والحرب بالفتح: الويل والهلاك. وفي القاموس المحيط للفيروزابادي: حرب كفرح: كلب واشتد غضبه فهو حرب.

(٢) الذي يروي عن أبي نضرة ويروي عنه شعبة، هو أبو مسلمة سعيد بن يزيد، كما جاء في تهذيب التهذيب.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى: يا أبا موسى شوِّقنا إلى ربنا، قال: فقرأ. فقالوا: الصلاةَ! فقال عمر: أولسنا في الصلاة؟.

فصل: ومِلاكُ الأمر كله الرغبةُ في الله وإرادة وجهه والتقرُّبُ إليه بأنواع الوسائل، والشوقُ إلى الوصول إليه وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همَّةٌ إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعدَّ اللهُ فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همَّةٌ عاليةٌ تطالبه بذلك فخشية النار وما أعدَّ اللهُ فيها لمن عصاه، فإن لم تطاوعه نفسي بشيءٍ من ذلك فليعلم أنه خُلق للجحيم لا للنعيم، ولا يقدر على ذلك بعد قدَر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه، فهذه فصول أربعة هن: ربيعُ المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه، وهن منازلُه في سيره إلى الله عزّ وجلّ، وليس له منزلةٌ غيرها، فأما مخالفةُ الهوى فلم يجعل اللهُ للجنة طريقاً غيرَ مخالفته، ولم يجعل للنار طريقاً غير متابعته، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَى. وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [النازعات: ٤١]. قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ ربّه عليه في الدُّنيا، ومقامَه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيله، فقال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُد إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ﴾ [صٓ: ٢٦]. ثم ذكر مآلَ الضالّين عن سبيله ومصيرَهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [صٓ: ٢٦]. وأخبر سبحانه أن باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللهُ على قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]. وقد أخبر النبيّ ﷺ أن العاجز هو الذي اتَّبع هواه وتمنى على الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد، عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا تَحْتَ ظِلّ السَّمَاءِ إِلَهٌ يَعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ هَوَى مُتبع**».

وذكر من حديث جعفر بن حَيّان، عن أبي الحكم، عن أبي بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَخوفُ ما أَخافُ عليكم شَهَواتُ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلاَّتُ الهوَى**». وفي نسخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جدّه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ علَى أُمَّتي حُكْمُ جائرٍ، وَزَلَّةُ عالِمٍ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ**»(١).

---

(١) ورد في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري بلفظ: «إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم،=

وقيل لبعض الحكماء: أيّ الأصحاب أبرُّ؟ قال: العمل الصالح، قيل: فأيُّ شيءٍ أضرّ؟ قال: النفس والهوى. وقال بعض الحكماء: إذا اشتبه عليك أمران فانظر أقربهما من هواك فاجتنبه. وأُتِيَ بعضُ الملوك بأسيرٍ عظيم الْجُرْم فقال: لو كان هواي في العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك، ولكن لما كان هواي في قتلك خالفته إلى العفو عنك. وقال الهيثم بن مالك الطائيّ: سمعت النُّعمان بن بشير يقول عَلَى المنبر: إن للشيطان فخوخاً ومَصَالِيَ[1] وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطرَ بأنعُم الله، والفخرَ بإِعطاء الله، والكبرياءَ عَلى عباد الله، واتّباعَ الهوى في غير ذات الله.

وفي المسند وغيره من حديث قتادةَ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثَلاثٌ مُهْلِكاتٌ، وثلاثٌ مُنْجِيَاتٌ، فالمُهْلِكاتُ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وهوَى مُتَّبَعٌ، وَإعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ، والمُنْجِيَاتُ: تقوَى اللهِ تعالى في السرِّ والعلانيةِ، والعدلُ في الغَضَبِ والرِّضَى، والقَصْدُ في الفقرِ والغِنَى**».

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت عُمَيْس رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**بِئسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلَى. بئسَ العَبْدُ عبدٌ تَخَيَّلَ واختال، ونَسِيَ الكبيرَ المتعَال. بئسَ العَبْدُ عبدٌ سهَا ولهَا، ونسيَ المقابرَ والبِلى. بئسَ العبدُ عبدٌ بغى وَعَتَا، ونسيَ المبدأ والمُنتهى. [بئسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بالدِّينِ]. بئسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهاتِ، بئسَ العبدُ عبدٌ طَمَعٌ يقودُهُ. بئسَ العبدُ عبدٌ هَوًى يُضِلُّهُ. [بئسَ العبدُ عبدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ]**»[2].

وقد أَقسم النبيُّ ﷺ أنه لا يؤمنُ العبدُ حتى يكونَ هواه تَبَعاً لما جاء به، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً، فمن اتَّبَعَ هواه فهواه متبوعٌ له، ومن خالف هواه لما جاء به الرسولُ ﷺ فهواه تابعٌ له، فالمؤمن هواه تابعٌ له، والمنافق الفاجر هواه متبوعٌ له.

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هُدًى من الله أنه أَظلم الظالمين، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]. وأنت تجد تحت هذا

= ومن هوى متبع، ومن حكم جائر» وقال: رواه البزار والطبراني من طريق كثير بن عبد الله وهو واه، وقد حسنها الترمذي في موضع وصححها في موضع فأنكر عليه، واحتج بها ابن خزيمة في صحيحه.

(١) جمع مصلاة: وهي الشرك.

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ١٧، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقويّ» وما بين حاصرتين زيادة منه.

الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبع هواه، وجعل سبحانه وتعالى المُتعَ قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاءَ به الرسولُ ﷺ. وإما الهوى. فمن اتبع أَحدهما لم يمكنه اتباعُ الآخر، والشيطانُ يُطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقاً إلا من هواه. فلذلك كان الذي يخالف هواه يفْرَق[1] الشيطان من ظلّه، وإنما تطاق مخالفةُ الهوى بالرغبة في الله وثوابه، والخشيةِ من حجابه وعذابه. ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإن متابعتَه الداءُ الأكبر، ومخالفتَه الشفاءُ الأعظم. وقيل لأبي القاسم الْجُنَيْدِ: متى تنال النفوسُ مُناها؟ فقال: إذا صار داؤُها دواها، فقيل له: ومتى يصير داؤُها دواها؟ فقال: إذا خالفت هواها، ومعنى قوله: يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته. وقيل: إنما سُمِّيَ هوًى لأنه يهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين. والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر كما أَن مخالفتَه شارعُ الجنة الأعظم. وقال أبو دُلَفَ العِجْلي:

واســـوأَتـــا لفتًـــى لـــه أَدبٌ ... يُضحـــي هـــواه قـــاهـــراً أَدَبَـــهْ
يـــأتـــي الـــدنيَّـــة وهـــو يعـــرفهـــا ... فيَشِيـــنُ عِـــرْضـــاً صـــائنـــاً أَرَبَـــهْ
فـــإذا ارْعَـــوَى عـــادت بصيـــرتُـــه ... فبكـــى عَلَـــى الحيـــن[2] الـــذي سُلِبَـــهْ

وقال ابن المرتفق الهُذَلِيّ:

أيـــن لـــي مـــا تـــرى والمـــرءُ يـــأتـــي ... عـــزيمتَـــه ويغلِبُـــهُ هـــواه
فيعمـــى مـــا يـــرى فيـــه عليـــه ... ويحســـب مـــن يـــراه لا يـــراه

فصل: وأما الرّغبةُ في الله وإرادةُ وجهه والشوقُ إلى لقائه فهي رأس مال العبد ومِلاكُ أمره وقوامُ حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقُرَّة عينه، ولذلك خُلق، وبه أُمِرَ، وبذلك أُرسلت الرُّسلُ، وأُنزلت الكتب، ولا صلاحَ للقلب ولا نعيمَ إلا بأن تكون رغبتهُ إلى الله عزَّ وجلّ وَحْدَه، فيكون هو وحدَه مرغوبَه ومطلوبَه ومرادَه كما قال الله تعالى: ﴿فإِذا فرَغتَ فانْصَبْ. وإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ سَيُؤْتِينَا ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغِبٌ في الله، وراغِبٌ فيما عند الله، وراغِبٌ عن الله. فالمحبُّ راغبٌ فيه، والعاملُ راغب فيما عنده، والرّاضي بالدُّنيا من الآخرة راغبٌ عنه.

---

(١) يفرق: يفزع ويخاف.
(٢) الحين: الوقت طال أو قصر.

ومَن كانت رغبتُه في الله كفاه الله كلَّ مهمٍّ، وتولاّه في جميع أُموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعَه عن نفسه، ووقاه وقايةَ الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومَن آثَرَ اللهَ عَلَى غيره آثره اللهُ عَلَى غيره. ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف اللهَ لم يكن شيءٌ أَحبَّ إِليه منه، ولم تبقَ له رغبةٌ فيما سواه، إلاّ فيما يُقَرِّبه إليه ويعينه عَلَى سفره إِليه.

ومن علامات المعرفة الهيبةُ، فكلّما ازدادت معرفةُ العبد بربه ازدادت هيبتُه له وخشيتُه إياه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي العلماء به. وقال النبي ﷺ: «**أَنَا أَعْرَفُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً**»(١) ومن عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيءٍ، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأَنِسَ بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياءَ من الله، والتعظيمَ له، والإجلالَ والمراقبة والمحبة والتوكُّل عليه، والإنابةَ إليه والرّضا به والتسليم لأمره. وقيل للجُنَيْد رحمه الله تعالى: إن هاهنا أقواماً يقولون: إنهم يَصِلون إلى البرِّ بترك الحركات، فقال: هؤلاء تكلّموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم، والذي يزني ويسرِق أحسنُ حالاً من الذي يقول هذا، فإِن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإِلى الله رجعوا فيها، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أنقص من أعمال البرّ شيئاً.

وقال: لا يكون العارفُ عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البَرُّ والفاجر، والمطر يسقي ما يُحب وما لا يحبّ.

وقال يحيى بن مُعاذ: يخرج العارف من الدُّنيا ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤُه على نفسه، وشوقه إلى ربه. وقال بعضُهم: لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطي ملك سليمانَ لم يَشغَلْهُ عن الله طَرْفَةَ عين. وقيل: العارف أَنِسَ بالله فاستوحش من غيره، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه، وذلّ لله فأعزّه في خلقه.

وقال أبو سليمان الدّاراني: يُفْتَحُ للعارف على فراشه ما لا يُفتح له وهو قائمٌ يصلّي.

وقال ذو النون: لكل شيء عقوبةٌ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله.

وبالجملة فحياةُ القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً، ومتى واطأ(٢) اللسانُ القلب

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٥، ١٨١) والبخاري في الأدب باب ٨٢، والاعتصام باب ٥. ومسلم في الفضائل حديث ١٧ و١٢٨. والدارمي في المقدمة باب ٣.

(٢) واطأ: وافق وطابق.

في ذكره، وواطأ القلب مرادَ حبيبه منه، واستقلّ له الكثيرَ من قوله وعمله، واستكثر له القليلَ من برّه ولطفه، وعانق الطاعة وفارق المخالفة، وخرج عن كلّه لمحبوبه فلم يبقَ منه شيءٌ، وامتلأ قلبُه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه، وعَزّ عليه الصبرُ عنه، وعُدم القرارَ دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه، ولم يجد الأنس إلا بذكره، وحفظ حدوده، وآثره على غيره فهو المحب حقًّا.

وقال الْجُنَيْد: سمعت الحارث الْمُحَاسبيَّ يقول: المحبةُ ميلُك إلى الشيء بكلّيّتك، ثم إيثارُكَ له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتُك له سرًّا وجهراً، ثم علمُك بتقصيرك في حبه. وقيل: المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ما سوى مرادِ الحبيب من محبه. وفي بعض الآثار الإلٰهية: عبدي أنا وحقِّك لك محبٌّ فبحقي عليك كن لي محبًا. وقال عبد الله بن المبارك: من أُعطي شيئاً من المحبة ولم يُعْطَ مثلَه من الخشية فهو مخدوع.

وقال يحيى بن مُعاذ: مثقال خردلةٍ من الحب أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ.

وقال أبو بكر الكَتَّاني: جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلّم الشيوخُ فيها، وكان الْجُنَيْد أصغرَهم سنًّا فقالوا: هاتِ ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودَمَعَت عيناه ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أَحرق قلبَه أنوار هُويته، وصفا شربُه من كأس ودّه، فإن تكلّم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرّك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما عَلى هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين. وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إني حرّمتُ عَلى القلوب أن يدخلها حبي وحبُّ غيري، فأجمع العارفون كلُّهم أنَّ المحبة لا تَصِحّ إلّا بالموافقة حتى قال بعضهم: حقيقة الحب موافقة المحبوب في مراضيه ومساخطه واتفق القوم أَن المحبة لا تَصِحُّ إلّا بتوحيد المحبوب. وَيُحْكى أن رجلاً ادَّعى الاستهلاك[1] في محبة شخص فقال له: كيف وهذا أخي أَحسن مني وجهاً وأَتمُّ جمالاً؟ فالتفت الرجلُ إليه فدفعه الشابُّ وَقال: من يدَّعي هوانا ينظر إلى سوانا؟ وذكرت المحبة عند ذي النون فقال: كُفُّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدَّعيها، ثم أَنشأ يقول:

الخـــــوف أَولــــى بـــــالمســـــي ... ءِ إذا تـــــأَلَّـــــه وَالْحَـــــزَنْ
والحــــــبُّ يجمُـــــل بـــــالتّقِـ ... ـــيِّ وبـــالنقــيِّ مـــن الـــدَّرَنْ

---

(١) استهلك في كذا: جهد نفسه فيه.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدُّنيا والآخرة، إن النبي ﷺ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1]. فهم مع الله في الدنيا والآخرة. وقال يحيى بن مُعاذ: ليس بصادقٍ من ادّعى محبته ثم لم يحفظ حدودَه.

فصل: فالمحبة شجرةٌ في القلب عروقُها الذلُّ للمحبوب، وساقها معرفتُه، وأغصانُها خشيتُه، وورقُها الحياء منه، وثمرتُها طاعته، ومادّتها التي تسقيها ذكرُه، فمتى خلا الحبُّ عن شيءٍ من ذلك كان ناقصاً.

وقد وصف الله سبحانه نفسَه بأنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه، فأخبر أَنهم أشدّ حبًّا لله، ووصف نفسه بأنّه الوَدود وهو الحبيب قاله البخاري. والود خالص الحب، فهو يَوَدّ عباده المؤمنين ويودونه.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أَنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يَروي عن ربه عزّ وجلّ أنه قال: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِياً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبه، فإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وبِي يَبْطِشُ وبِي يَمْشِي، ولَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ»[2]. وفي لفظٍ في غير البخاري: «فإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وبَصراً ويَداً ومُؤَيِّداً» فتأمل كمالَ الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهةَ الربّ تعالى لمَساءَة عبده بالموت لمّا كره العبد مَساخطَ ربه، وكمالَ الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقتَه في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعاذته مما استعاذ به، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبيّ ﷺ: ما أَرى رَبَّكَ إلاّ يسارع في هواكَ[3]، وقال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي ما أرى ربك إلاّ يطيعك، فقال له: «وأنْتَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦. ومسلم في البر حديث ١٦٥. والترمذي في الزهد باب ٥٠، والدعوات باب ٩٨. والدارمي في الرقاق باب ٧١. وأحمد في المسند (١/ ٣٩٢، و٣/ ١٠٤، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤، و٤/ ١٠٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٣٤، ١٥٨، ٢٦١) والبخاري في تفسير سورة ٣٣ باب ٧، والنكاح باب ٢٩. ومسلم في الرضاع حديث ٤٩ و٥٠. والنسائي في النكاح باب ١. وابن ماجة في النكاح باب ٥٧.

يا عَمّ لَوْ أطَعْتَهُ أطَاعَك»(1). وفي تفسير ابن أبي نُجَيح عن مجاهد في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. قال: حبيباً قريباً إذا سألهُ أعطاه، وإذا دعاه أجابه. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى كن لي كما أُريد أكن لك كما تريد. وتأمل هذه الباء في قوله: فبي يسمع وبي يُبصر وبي يَبْطِش وبي يمشي كيف تجدها مبيَّنةً لمعنى قوله: كنت سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يُبصر به إلى آخره، فإن سمع سمع بالله، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به. وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]. وقولِهِ فيما رواه عنه رسولُه من قوله: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكت بي شفتاه». وهذا ضدّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]. فالصحبة التي نفاها هاهنا هي التي أثبتها لأحبابه وأوليائه، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقةً بأداء فرائضه، وبالتقرّب إليه بالنوافل بعدها لا غير، وفي هذا تعزيةٌ لمدَّعي محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها، وإنما معه الأماني الباطلة والدَّعاوى الكاذبة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جبريلُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبُّوهُ فيُحبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثمَّ يُوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ»(2) وفي لفظِ لمسلم(3): «إنَّ اللهَ إذا أَحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقالَ: إني أُحبُّ فلاناً فأَحبَّهُ قال فيُحِبُّهُ جبريلُ ثمَّ يُنَادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فأَحِبُّوه فيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، قالَ ثمّ يوضعُ لهُ القَبولُ في الأرض، وإذا أَبْغَضَ عَبْداً دَعا جِبْرِيلَ فيقولُ: إني أُبْغِضُ فُلاناً فأَبْغِضْهُ قالَ فَيُبْغِضُهُ جِبريلُ، ثم يُنَادِي في السماءِ أنّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَاناً فأَبْغِضُوهُ، ثمَّ يوضعُ لهُ البغضاءُ في الأرْضِ» وفي لفظِ آخر لمسلم(4) عن سهيل بن أبي صالح قال: كنّا بعرَفة فمرّ عمر بن عبد العزيز وهو عَلَى الموسم فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي: يا أَبَتِ أني أرى الله يحبُّ عمر بن عبد العزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحبّ في قلوب الناس، فقال: إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدّث عن رسول الله ﷺ ثم

(1) ذكره ابن حجر في الإصابة في ترجمة أبي طالب.

(2) أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٦٧، ٣٤١، ٤١٣، ٤٨٠، ٥٠٩، ٥١٤) والبخاري في بدء الخلق باب ٦، والأدب باب ٤١، والتوحيد باب ٣٣. ومسلم في البر حديث ١٥٧. والترمذي في تفسير سورة ١٩ باب ٧. ومالك في الشعر حديث ١٥.

(3) في البر والصلة والآداب حديث رقم ١٥٧.

(4) في البر والصلة والآداب حديث رقم ١٥٨.

ذكر الحديث. وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره فذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] انتهى. وقال بعضُ السلف في تفسيرها: يحبّهم ويحببهم إلى عباده.

وفي الصحيحين من حديث أَنس رضي الله عنه أَن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: «وما أَعْدَدْتَ لها؟» قالَ: لا شَيْءَ إِلاَّ أني أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فقال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[(١)] قال أنس رضي الله عنه: فما فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحنا بقول النبي ﷺ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. قال أنس: فأنا أُحبّ النبي ﷺ وأبا بكر وعُمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إيّاهم وإن لم أعمل أعمالهم.

وفي الترمذي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ»[(٢)]. وفي سنن أبي داود عنه قال: رأيت أصحاب النبيّ ﷺ فرِحوا بشيءٍ لم أَرَاهُمْ فرحوا بشيءٍ أشدَّ منه، قال رجل: يا رسولَ الله الرجلُ يحبّ الرجلَ على العمل من الخير يعَملُ به ولا يعمل بمثله. فقال رسولُ الله ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبّ»[(٣)]. وهذه المحبة لله توجب المحبة في الله قطعاً، فإن من محبة الحبيب المحبةَ فيه والبغض فيه.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي[(٤)] يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي». وفي جامع أبي عيسى الترمذي[(٥)] من حديث مُعاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «قالَ اللهُ عزّ وجلّ: الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ» وفي لفظ لغيره «الْمُتَحَابُّونَ بجَلاَلِ اللهِ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ»[(٦)]. وفي الموطّأ من حديث أبي إدريس الْخَولاني قال: دخلت مسجدَ دمشق فإذا فتىً برّاقُ الثنايا والناسُ حوله فإذا اختلفوا في شيءٍ

(١) أخرجه البخاي في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٦، والأدب باب ٩٥ و٩٦، والأحكام باب ١٠. ومسلم في البرّ حديث ١٦١ ـ ١٦٤. والترمذي في الزهد باب ٥٠. وأحمد في المسند (٣/ ١٠٤، ١١٠، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٧٦، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ١١٣.

(٤) أخرجه مسلم في البر حديث ٢٨. والترمذي في الزهد باب ٥٣. والدارمي في الرقاق باب ٤٤. ومالك في الشعر حديث ١٣. وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٧، ٣٢٨، ٣٧٠، ٥٣٣، ٥٣٥).

(٥) في الزهد باب ٥٣.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩).

أسندوه إليه وصدَروا[1] عن رأيه، فسألت عنه فقالوا: هذا مُعاذ بـن جبل، فلما كان الغد هَجَّرت[2] إليه فوجدتُه قد سبقني بالتهجير[2]، ووجدته يصلي، فانتظرتُه حتى قضى صلاتَه، ثم جئته من قِبَلِ وجهه فسلمت عليه ثم قلت: والله إني لأُحِبُّك في الله، فقال: آلله؟ قلت: الله، فقال: آلله؟ فقلت: الله، فأخذ بِحَبْوَةِ[3] ردائي فجبذني[4] إليه وقال: أبشر فإني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»[5].

وفي سنن أبي داود[6] من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ». وفيه أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مِنْ عِبَاد اللهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ» قالوا: يارسول الله، تخبرُنا من هم؟ قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ وَلاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ» وقرأ هذه الآية: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وفي لفظٍ لغيره: «إِنَّ للهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأنبياءُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ» قالوا: يا رسول الله صِفْهُمْ لَنَا، حَلِّهم لنا لعلَّنا نحبّهم قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ تَبَاذَلوهَا وَلاَ أَرْحَامٍ تَوَاصَلُوهَا هُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ وَعَلَى كَرَاسِيَ مِنْ نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ» ثم قرأ الآية: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ[7] مَلَكاً فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قال: أَيْنَ تَرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أَخاً لِي فِي هذِهِ الْقَرْيَةِ قال: لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا[8] قال: لا غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللهِ تَعَالَى، قال: فَإِنِّي رسولُ اللهِ إِلَيْكَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيه»[9].

---

(١) صدورا برأيه: أخذوا برأيه وعملوا به.

(٢) التهجر: التبكير إلى كل شيء والمبادرة إليه. والتهجـر: السير في الهاجرة.

(٣) حبوة الرداء: ما اشتمل عليه.

(٤) جبذه: جذبه.

(٥) أخرجه مالك في الشعر حديث ١٦.

(٦) كتاب السنة باب ٢.

(٧) المدرجة الطريق.

(٨) تربها: تتعهدها أو تنعم بها. ورب على فلان: أنعم عليه.

(٩) أخرجه مسلم في البّر والصلة والآداب حديث ٢٩. وأحمد في المسند (٢٩٢٢، ٤٠٨، ٤٦٢، ٤٨٢، ٥٠٨).

وقال رجلٌ لمُعاذ بن جبل: إني أُحبك في الله، قال: أَحبَّك الذي أحببتني له.

وفي سنن أبي داود[1] أن رجلاً كان عند رسول الله ﷺ فمرَّ رجل فقال: يا رسول الله إني لأحبُّ هذا، فقال له رسول الله ﷺ: «**أَعْلَمْتَهُ؟**» قال: لا، قال: «**أَعْلِمْهُ**» فلحقه فقال: إني أحبك في الله، قال: أحبَّك الذي أَحببتني له.

وفيها أيضاً[2] عن المِقْدام بن معد يكرب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**».

وفي الترمذي[3] من حديث يزيدَ بن نعَامة الضَّبِّيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا آخَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيَسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَمِمَّنْ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلُ لِلْمَوَدَّةِ**».

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»[4].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا حجّاج بن محمد الترمذي، حدثنا شريك، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن عمّار بن ياسر أن أصحابه كانوا ينتظرونه، فلما خرج قالوا: ما أبطأك عنّا أيها الأمير؟ قال: أمَا إني سوف أحدّثكم أنَّ أخاً لكم ممن كان قبلكم وهو موسى ﷺ قال: يا ربّ حدّثني بأحبّ الناس إليك، قال: ولِمَ؟ قال: لأحبّه بحبك إياه، قال: عبدٌ في أقصى الأرض أو طرف الأرض سمع به عبدٌ آخرُ في أقصى أو طرف الأرض لا يعرفه، فإن أصابته مصيبةٌ فكأنما أصابته، وإن شاكته شوكةٌ فكأنما شاكته، لا يحبه إلّا لي، فذلك أحبُّ خلقي إليّ. قال: يا ربّ خلقتَ خلقاً تدخلهم النار أو تعذّبهم، فأوحى الله إليه كلهم خَلْقي، ثم قال: ازرع زرعاً فزرعه، فقال: اسْقِه فسقاه، ثم قال: قم عليه، فقام عليه ما شاء الله من ذلك، فحصده ورفعه فقال: ما فعل زرعك يا موسى؟ قال: فرغت منه ورفعته قال: ما تركت منه شيئاً؟ قال: ما لا خيرَ فيه أو ما لا حاجة لي فيه، قال: فكذلك أنا لا أُعذّب إلّا مَن لا خير فيه.

فصل: ولو لم يكن في محبة الله إلّا أنها تنجي محبه من عذابه لكان ينبغي للعبد أن

---

(١) كتاب الوتر باب ٢٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ١١٣.

(٣) كتاب الزهد، باب ٥٤.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٩٣. وأبو داود في الأدب باب ١٣١. والترمذي في صفه القيامة باب ٥٤، والاستئذان باب ١. وابن ماجة في المقدمة باب ٩، والأدب باب ١١. وأحمد في المسند (٢/ ٣٩١، ٤٤٢، ٤٧٧، ٤٩٥، ٥١٢).

لا يتعوّض عنها بشيء أبداً. وسئل بعض العلماء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذّب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وقَالَت الْيَهودُ والنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وأحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «واللهِ لاَ يُعَذِّبُ اللهُ حَبِيبَهُ ولكِن قَدْ يَبْتَليه فِي الدُّنيَا».

وقال الإمام أحمد: حدّثنا سيَّار، حدّثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى ابن مريم ﷺ: «يا معشرَ الحواريين تحبَّبوا إلى اللهِ ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا إليه بالمَقْت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم» قالوا: يا نبيّ الله فمن نجالس؟ قال: «**جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهّدكم في دنياكم علمُه**».

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أنَّ الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنهُ يُعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال: ذُكر لنا أن هَرِم ابن حيان كان يقول: ما أقبل عبدٌ على اللهِ بقلبه إلا أقبل الله عزّ وجلّ بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودَّتهم ورحمتهم.

وقد روي مرفوعاً ولفظه: «**وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ على اللهِ بِقَلْبِهِ إلاّ أَقبَلَ اللهُ عزّ وجلّ عَلَيْهِ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ وَجَعَلَ قُلُوبَهُم تَفِدُ إِلِيهِ بِالْوُدِّ والرّحمَةِ وكَانَ اللهُ بِكُلِّ خيرٍ إِلَيْهِ أَسرَعَ**» وإذا كانت القلوبُ مجبولةً على حبِّ من أحسن إليها وكلُّ إحسان وصل إلى العبد فمن الله عزَّ وجلّ كما قال الله تعالى: ﴿ومَا بِكُمْ مِنْ نِعمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣] فلا ألأمَ ممن شغل قلبَه بحبِّ غيره دونه.

قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو معاوية قال حدّثني الأعمش، عن المُنْهَال، عن عبد الله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود أحببني وحبّب عبادي إليّ وحببني إلى عبادي، قال: يا ربّ هذا أنا أُحبك وأُحبّب عبادك إليك فكيف أُحبّبك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن.

ومن أفضل ما سئل الله عزّ وجلّ حبُّه وحبُّ عملٍ يقرب إلى حبّه، ومن أَجمع ذلك أن يقول: «اللهمَّ إني أسألك حبّك وحبّ من يحبُّك وحبّ عملٍ يقربني إلى حبّك، اللهمَّ

ما رزقتني مما أُحبُّ فاجعله قوّةً لي فيما تحب، وما زَوَيْتَ[1] عني مما أُحبّ فاجعله فراغاً فيما تحبّ، اللهمّ اجعل حبّك أَحبَّ إليَّ من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، اللهمّ حبّبني إليك وإلى ملائكتك وأَنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، واجعلني ممن يحبّك ويحبُّ ملائكتك وأنبيائك ورسلك وَعبادك الصالحين، اللهمَّ أَحي قلبي بحبّك واجعلني لك كما تحبّ، اللهمَّ اجعلني أُحبّك بقلبي كلّه، وأرضيك بجُهدي كلِّه، اللهمّ اجعل حبّي كلّه لك، وسعيي كلّه في مرضاتك»[2] وهذا الدُّعاء هو فُسطاط خيمة الإسلام الذي قيامُها به، وهو حقيقة شهادة أَن لا إله إلا الله وَأَن محمداً رسولُ الله، والقائمون بحقيقة ذَلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون. والله سبحانه تعرَّف إلى عباده من أَسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له، فإن القلوب مفطورةٌ عَلَى محبة الكمال ومن قام به، والله سبحانه وتعالى له الكمالُ المطلَقُ من كل وجهِ الذي لا نقصَ فيه بوجهِ ما، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه بل لو كان جمالُ الخلْق كلِّهم عَلى رجلٍ واحدٍ منهم وكانوا جميعهُم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قطُّ نسبةٌ إلى جمال الله، بل كانت النسبة أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى حِذاء جِرْم الشمس ﴿ولله الْمَثَلُ الأعْلى﴾ [النحل: ٦٠].

وقد رَوَى عن النبي ﷺ قوله: «إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[3] عبدُالله بن عَمْرو بن العاص، وأَبو سعيد الخُدْري، وعبد الله بن مسعود، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وثابت ابن قيس، وأبو الدَّرداءِ، وأبو هريرة، وأبو ريحانة رضي الله عنهم.

ومن أَسمائه الحسنى: الجميلُ، ومَن أَحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صُنعه، فله جمالُ الذّات، وجمال الأوصاف، وجمالُ الأفعال، وجمالُ الأسماء، فأسماؤه كلُّها كمال، وأفعاله كلها جميلة، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدنٍ أَنستهم رؤيتُه ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيء غيره، ولولا حجابُ النور عَلى وجهه لأحرقت سُبُحَاتُ[4] وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما في صحيح البخاري من حديث أبي

---

(١) زواه عن الشيء: صرفه ونحاه.

(٢) في الجامع الصحيح للترمذي قال: عن رسول الله ﷺ: «كان من دعاء داود: اللهم..» وذكر نحواً من هذا الدعاء.

(٣) رواه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحقّ وغمط الناس».

(٤) سبحات الله: أنواره وجلالته وعظمته.

موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إنّ الله لاَ يَنَامُ ولاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِه»(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار نورُ السموات من نور وجهه، وإن مقدار كلّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم الأمس [فتعرض عليه] أولَ النهار أو اليومِ فينظر فيها ثلاث ساعات، فيطّلع منها عَلَى بعض ما يَكره فيغضبه ذلك، فأوّلُ من يعلم بغضه الذين يحملون العرش يجدونه يثقُل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسُرداقات العرش والملائكةُ المقرّبون وسائر الملائكة، وينفخ جبريل في القَرْنِ فلا يبقى شيءٌ إلاّ الثقلين الجنَّ والإنس، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمةً، فتلك ستُّ ساعاتٍ، ثم يُؤْتى بما في الأرحام فيظر فيها ثلاث ساعات فيصورّكم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلّهم ثلاث ساعات، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيءٍ عليم، ثم قرأ: ﴿كلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ثم قال عبدالله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدّارمي).
حدَّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا حمّاد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب ابن عبدالله الفهري(٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه. رواه الحسن بن إدريس، عن خالد ابن الهياج،عن أَبيه، عن عَبّاد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن مَعْدان، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليلٌ، وإن السموات مملوءاتٌ نوراً من نور الكرسي، وإن يوماً عند ربك اثنتا عشرة ساعةً، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن إوّلَ من يعلم بغضبه حَمَلَةُ العرش يرونه يَثْقُلُ عليهم فيسبّحون له ويسبح له سرداقات العرش في ثلاث ساعات من النهار، حتى يمتلىء ربنا رضاً فتلك ستّ ساعاتٍ من النهار، ثم يأمر بأَرزاق الخلائق فيعطي من يشاء في ثلاث ساعاتٍ من النهار، فتلك تسع ساعات. ثم يرفع إليه أرحام كل دابّة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المدَّة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعةً، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]

---

(١) لم أجده في صحيح البخاري. ورواه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٣. وابن ماجه في المقدمة باب ١٣. وأحمد في المسند (٤٠١، ٤٠٥).

(٢) في تهذيب التهذيب (ج ١ ص ٤٠٧) أن حماد بن سلمة يروي عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز القرشي عن ابن مسعود.

هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى. وفي دعاء النبي ﷺ الذي دعا به يوم الطائف: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عليَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عليَّ سَخَطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتى تَرْضى وَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بكَ**»[1] وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلّها كما قال الله تعالى: ﴿وأَشْرَقَتِ الأرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ووُضِعَ الْكِتَابُ﴾ [الزمر: ٦٩] وقولُ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: نورُ السموات والأرض من نور وجهه، تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمواتِ والأرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي ﷺ قيامَ اللَّيل: «**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نورُ السَّمواتِ والأرْضِ ومَنْ فِيهِنَّ**» وفي سنن ابن ماجة وحرب الكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرّقاشي، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إذْ سَطَعَ لَهُمْ نورٌ فَرَفَعوا رُؤوسَهُم فإذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِم مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ: السَّلامُ عَلَيْكم يا أَهْلَ الْجَنَّةِ وذلِكَ قولُهُ: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فيرفعون رُؤوسَهُمْ فينظرونَ إليهِ وينظرُ إليهِمْ ولا يَلْتَفِتُونَ إلى شيءٍ مِنَ النَّعِيمِ حتى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ فَيَبْقَى نُورُهُ وبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وعلى دِيارِهِمْ ومَنَازِلِهِم» لفظ حديث حرب: «فمَا ظَنُّ الْمُحِبِّينَ بِلذّةِ النَّظَرِ إلى وجْهِهِ الكَرِيمِ في جنَّاتِ النَّعِيمِ؟» وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**أسألُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ والشَّوقِ إلى لِقَائِكَ**»[2]. (ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حِبَّان في صحيحه) فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبائه عند لقائه ثم اختر لنفسك:

أنــت القتيــلُ بكــلّ مــن أَحبتَــه   فـاختـر لنفسك فـي الهـوى مـن تصطفي

قال هشام بن حسان عن الحسن: إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نَسُوا نعيم الجنة. وقال هشام بن عمار: حدّثنا محمد بن سعيد بن سابور[3]، حدّثنا عبد الرحمن بن سليمان، حدّثنا سعيد بن عبدالله الجرشي القاضي أنه سمع أبا إسحاق الهمداني يحدّث عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفعه قال: «**إنَّ الله إذَا أَسْكَنَ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ بَعَثَ إلى أَهْلِ الْجَنَّةِ الرُّوحَ الأَمِينَ فيقولُ: يَا أَهلَ الْجَنَّةِ إنَّ رَبَّكُم يُقْرِئُكُمْ**

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة والطبراني في الدعاء والمعجم الكبير.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٩١) والنسائي في السهو باب ٦٢.

(٣) في تهذيب التهذيب (ج ٩ ص ٢٢٢) أن الذي يروي عنه هشام بن عمار هو محمد بن شعيب بن شابور وهو يروي عن عبد الرحمن بن حسان الكناني.

السَّلَامَ وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزُورُوهُ إِلى فِنَاءِ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَبْطَحُ[1] الْجَنَّة، تُرْبَتُهُ الْمِسكُ وَحَصْبَاؤُهُ[2] الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَشَجَرُهُ الذَّهَبُ الرَّطْبُ وَوَرَقُهُ الزُّمُرُّد، فَيخْرُجُ أَهْلُ الْجَنَّة مُسْتَبْشِرِين مَسْرُورِينَ، فَثَمَّ يَجْمَعُهُمْ وَثَمَّ كَرَامَةُ اللهِ وَالنَّظَرُ إِلى وَجْهِهِ، وَهَوَ مَوْعِدُ اللهِ أَنْجَزَهُ لَهمْ، فَيَأْذَنُ اللهُ فِي السَّماعِ وَالأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَيُكْسَوْنَ حُلَلَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يُنَادي مُنَادٍ: يا أَوْلِيَاءَ اللهِ هَل بَقِيَ مِمَّا وَعدَكُمُ اللهُ [رَبُّكُمْ] شيءٌ؟ فيقولونَ لَا وَقَدْ أَنْجزَنَا مَا وَعدَنا فما بَقِيَ شَيْءٌ إلا النظرُ إلى وَجْهِهِ، فَيَتَجَلّى لهُمُ الرَّبُّ (تَبَارَكَ وَتَعَالى) في حُجُبٍ فَيَقُولُ: يا جِبْرِيلُ ارْفَعْ حِجَابي لِعِبَادِي كيْ يَنْظُرُوا إلى وَجْهِي، قالَ فَيَرْفَعُ الحِجَابَ الأَوَّلَ فَيَنْظُرُونَ إِلى نُورٍ مِن الرَّبِّ فَيَخِرُّونَ له سُجَّداً فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ يَا عِبَادي ارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بدَارِ عَمَلٍ إنما هِيَ دَارُ ثَوَابٍ، فَيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثاني فينظُرُونَ أَمراً هُوَ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ فَيَخِرُّونَ لله حَامِدِينَ سَاجِدِين، فيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ أَنِ ارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ إِنهَا لَيْسَتْ بِدَارِ عَمَلٍ إنّما هِيَ دَارُ ثَوَابٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ. فيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثَّالِثَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنظُرُونَ إلى وَجْهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولونَ حِينَ يَنْظُرُونَ إلى وَجْهِهِ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، فَيَقُولُ كَرَامَتِي أَمْكَنَتْكُمْ مِن النَّظَرِ إلى وَجْهِي وَأَحَلَّتْكُمْ دَاري. فَيَأْذَنُ اللهُ لِلْجَنَّةِ أَنْ تَكَلَّمِي فَتَقُولُ: طوبَى لِمَنْ سَكَنَنِي وَطوبى لِمَنْ يَخْلُدُ فِيَّ وَطُوبى لِمَنْ أُعْدِدْتُ لهُ. وَذلِكَ قوله تعالى: ﴿طوبَى لهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]».

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذهبٍ آنِيَتُهما وَحِلْيَتُهما وَمَا فيهما، وَجنتان مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُما وَحِلْيَتُهما وَمَا فيهمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إلى رَبِّهِمْ إلَّا رِدَاءُ الْكِبرياءِ عَلى وَجْهِهِ في جنَّةِ عَدْنٍ»[3].

وذكر عثمان بن سعيد الدّارمي: حدّثنا أبو الرّبيع، حدّثنا جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبدالله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبي لأهلك فزادت طيباً على ما كانت، وما من يوم كان عيداً في الدُّنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة، ويَبْرُزُ لهم الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه، وتَسْفي[4] عليهم

---

(١) الأبطح: المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار ومنه أبطح مكة وبطحاء مكة.

(٢) جمع حصبة: الحصى.

(٣)أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، وتفسير سورة ٥٥ باب ١و ٢. ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٦. والترمذي في صفة الجنة باب ٣، ٧. وابن ماجة في المقدمة باب ١٣. والدارمي في الرقاق باب ١٠١. وأحمد في المسند (٤/ ٤١١، ٤١٦).

(٤) سفت الريح التراب ونحوه: ذرته أو حملته.

الريح بالطيب والمسك فلا يسألون ربَّهم تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً.

وقال عَبْدُ بن حُمَيد أخبرني شبابة عن إسرائيل، حدّثنا ثُوَيْر بن أبي فاختة سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَدْنى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلة مَنْ يَنْظُرُ إلى خَدَمِهِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُرِهِ مَسيرةَ أَلفِ سنة، وَأَكْرَمُهُمْ على الله مَنْ يَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ غَدْوَةً وَعَشِيَّةً» ثم تلا هذه الآية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] رواه الترمذي في جامعه[١] عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدّارمي[٢]، عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه إلى النبي ﷺ قال: «إنّ أَهْلَ الْجَنّةِ إذَا بَلَغَ مِنْهُمُ النعِيمُ كُلَّ مَبلغٍ وَظَنُّوا أَنْ لاَ نَعِيمَ أَفْضَلَ مِنْهُ تَجلّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالى فَنَظَرُوا إلى وَجْهِ الرَّحْمنِ فَنَسُوا كلَّ نَعِيمٍ عَايَنُوهُ حِينَ نَظَرُوا إلى وَجْهِ الرَّحمنِ».

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] قال: حسّنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه، وحَقَّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظر إلى ربها عزّ وجلّ. قال أبو سليمان الدّاراني: لو لم يكن لأهل المحبّة ـ أو قال المعرفة ـ إلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] لاكْتَفَوْا بها.

وذكر النسائي من حديث الزُّهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَامُونَ في رُؤيَةِ الشَّمْسِ في يَوْمٍ لاَ غَيْمَ فِيهِ وَفي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ غَيْمَ فيهَا؟» قلنا: لا، قال «فإنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبّكُم حَتَّى إنَّ أَحَدَكُمْ لَيُحَاضِرُهُ[٣] مُحَاضَرَةً فيقُولُ: عَبْدِي هلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فيقول: يا ربِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لي؟ فيقول: بمَغْفِرَتي صِرْتَ إلى هذا».

وفي الصحيحين من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تَعالى يَقولُ لأهلِ الجنَّة: يَا أَهلَ الجنَةِ، فيقولون: لَبَيكَ رَبَّنَا وَسَعدَيكَ وَالخَيرُ فِي يَدَيكَ فيقولُ: هلْ رَضِيتمْ؟ فيقولون: وما لَنَا لا نرضى وَقَدْ أعطيتَنا ما لَمْ تُعطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فيقولُ: ألا أُعْطِيكُمْ

---

(١) في كتاب التفسير سورة ٧٥ باب ٢، وفي كتاب صفة الجنة باب ١٧. ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٣ ـ ٦٤).

(٢) في المسند كتاب الرقاق، باب في أهل الجنة ونعيمها (١٠٤).

(٣) حاضر القوم: جالسهم وحادثهم بما يحضره.

أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ؟ فيقولون: يا رَبِّ وَأَيُّ شيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ؟ فيقول: أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فلا أَسْخَطُ عَلَيكُمْ أبَداً»[1].

وفي الصحيح والسنن والمساند من حديث ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**إذا دَخَل أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نادى منادٍ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ إنَّ لكُمْ عِنْدَ اللّهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فيقولون: ما هو أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُثقِّلْ مَوَازِيننا وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الحِجابَ فَيَنْظُرُونَ إلَيْهِ، فَوَاللهِ ما أَعْطَاهُمُ اللّهُ شَيْئاً أَحَبَّ إلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلَيْهِ وَلاَ أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ**»[2].

وفي صحيح البخاري من حديث جرير بن عبد الله قال: كُنَّا جُلوساً عند النبي ﷺ إذْ نَظَرَ إلى القمر لَيلَة البدر فقالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ لا تُضَامُونَ في رُؤْيَتِهِ فإن اسْتَطَعْتُمْ أنْ لاَ تُغْلَبوا عَلَى صَلاةٍ قَبلَ طُلوعِ الشَّمْس وقَبْلَ غُرُوبِهَا فافْعَلُوا**»[3].

وفي الصحيحين[4] من حديث الزُّهري، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ**[5] **في القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟**»» قالوا: لا يا رسول الله قال: «**فَهَل تُضارُّونَ في الشَّمْسِ لَيسَ دُونَها سَحَابٌ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فإنَّكُم تَرَوْنَهُ كَذٰلِكَ**». وفي لَفظٍ: «**فإنَّكُمْ لا تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ رِبِّكُمْ إلاّ كما تُضَارُّونَ في رُؤْيَتِهِمَا**».

وقال الترمذي: حدَّثنا قُتَيْبَةَ، حدَّثنا عبد العزيز بن محمد، عن العَلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَجْمَعُ اللّهُ النَّاسَ**

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٧، والرقاق باب ٥١. ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، وصفة الجنة حديث ٩. والترمذي في القيامة باب ١٨. وأحمد في المسند (٣/ ٨٨، ٩٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٣٣) والترمذي في تفسير سورة ١٠ باب ١. وابن ماجة في المقدمة باب ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت باب ١٦، وتفسير سورة ٥٠ باب ٢، والتوحيد باب ٢٤. وأبو داود في السنّة باب ١٩. والترمذي في صفه الجنة باب ١٦. وابن ماجة في المقدمة باب ١٣. وأحمد في المسند (٤/ ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥).

(٤) صحيح البخاري (كتاب التوحيد باب ٢٤، والرقاق باب ٥٢، وتفسير سورة ٤ باب ٨) وصحيح مسلم (كتاب الإيمان حديث ٢٩٩ و٣٠٢). وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٢/ ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٦٨، ٥٣٤) وأبو داود في السنّة باب ١٩. والترمذي في صفة الجنة باب ١٥ و٢٠.

(٥) جاء في القاموس المحيط: لا تضارون في رؤيته: أي لا تضامون تضاماً يدنو لبعضكم من بعض فيضايقه. وجاء في لسان العرب: لا يضر بعضكم بعضاً وينفرد برؤيته. وقال في تفسيرها أيضاً: لا يقع بكم في رؤيته ضر ولا يلحقكم ضيم.

يومَ القِيامَةِ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمّ يَطّلعُ عَلَيهِمْ رب العَالمِينَ تبارك وَتعالى فيَقُولُ: ليتّبعْ كلُّ إنْسَانٍ مَا كانَ يَعْبُدُ، فيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صلِيبُهُ ولِصَاحِبِ التّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ ولصاحِبِ النّارِ نارُهُ فيَتّبِعُونَ مَا كانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْقَى المسْلِمُونَ فيَطّلعُ عَلَيهِمْ ربُّ العَالمِينَ تَبارك وتَعالَى فيقُولُ: أَلاَ تَتّبِعُونَ النّاس؟ فيَقُولون نعوذُ باللّهِ مِنْكَ نَعُوذُ باللّهِ مِنْكَ، اللّهُ ربُّنا هٰذا مَكانُنَا حَتى نَرَى ربَّنَا، وَهُوَ يأمُرُهم وَيُثَبِّتُهُمْ ثُمّ يَتَوارَى ثم يَطّلِعُ عَلَيهِمْ فيقول: أَلاَ تَتّبِعُون النّاسَ؟ فَيقُولون: نَعُوذُ باللّهِ مِنكَ، نَعُوذُ باللهِ مِنْك، اللّهُ ربُّنا، وهٰذا مَكانُنا حتى نرَى ربَّنا، وهُوَ يَأْمُرُهُم ويُثَبِّتُهُم». قالوا: وهَلْ نراهُ يا رسول اللّهِ؟ قال: «وهَل تُضَارُّون في رُؤيَةِ القَمَرِ ليلَةَ البَدْرِ»؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: «فإنّكُم لا تُضَارُّون في رؤْيَتِهِ تِلْك السَّاعَةَ. قال: ثُمّ يَتَوارَى ثم يَطّلِعُ فيُعرِّفُهُم نَفْسَهُ ثم يقول: أَنا ربُّكُم فاتّبِعُوني، فيَقومُ المُسْلِمُون ويُوضَعُ الصِّرَاطُ فيَمُرُّون عليهِ مِثلَ جِيَاد الخَيْلِ والرِّكَابِ، وقَولُهم عليه: سلِّم سلِّم، ويبقَى أَهلُ النّار فيُطْرَحُ منهُم فيهَا فَوجٌ فيُقالُ هلِ امتلأتِ؟ فتَقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ ثم يُطْرَحُ فيها فوجٌ فيُقال: هلِ امتلأتِ؟ فتقولُ هل مِن مَزيدٍ؟ حَتى إذا أوعَبُوا[1] فيهَا وضَعَ الرَّحمٰنُ تَبارك وَتعَالَى فيها قَدمَهُ فأَزْوَى[2] بَعْضَها إلَى بَعضٍ وقالت: قَطْ قطْ، فإذا أدخَل اللّهُ أهلَ الجَنّة الجَنّةَ وأهل النّارِ النّارَ أَتى بالموتِ مُلَبّباً فيُوقَفُ عَلى السُّور الّذي بَيْنَ أهلِ الجَنّةِ وأهلِ النّار، ثمَّ يُقالُ يا أهلَ الجَنّةِ فيطّلِعونَ خَائِفين، ثمَّ يُقالُ: يا أهلَ النّار فيطّلعون مُسْتَبشِرِينَ يَرجُون الشّفَاعَةَ فيُقالُ لأهلِ الجَنّةِ والنّار: هل تَعرِفُونَ هٰذا؟ فيَقُولون هٰؤُلاء وهٰؤلاءِ: قَد عرَفناهُ، هُو المَوتُ الذِي وُكلَ بنا، فيُضْجَعُ فيُذبَحُ ذبحاً عَلَى السُّور. ثمَّ يقَالُ: يا أَهْلَ الجَنّةِ خُلودٌ ولاَ مَوْتٌ، وَيا أَهْلَ النَّارِ خُلودٌ وَلاَ مَوْتٌ[3]».

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وأَصلُه في الصحيحين لكن هذا السياقُ أجمع وأخصر. وفي لفظ الترمذي: «فَلَوْ أَنّ أَحداً مَاتَ فَرَحاً لمَاتَ أَهْلُ الجَنّةِ، وَلَوْ أَنَّ أَحداً مَاتَ حُزْناً لَمَاتَ أَهْلُ النّارِ».

وفي مسند الحارث بن أبي أسامة من حديث قُرة، عن مالك عن زياد بن سعد، حدَّثنا أبو الزبير قال: سمعت جابر عن عبد الله رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذَا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جُمِعَتِ الأمَمُ وَدُعِيَ كُلُّ أُناس بإمامِهِمْ فَجِئْنَا آخِرَ النّاس فيقُولُ قائِلٌ مِنَ النّاس: مَنْ هٰذِهِ الأمةُ؟ قال: فيُشْرِفُ إلَيْنَا النّاسُ فيُقالُ: هٰذِهِ الأمّة الأمِينَةُ، هٰذِهِ أُمّةُ مُحَمَّدٍ، وَهٰذا مُحَمّدٌ في أُمتِهِ، فيُنَادِي مُنَادٍ إنكُم الآخِرُونَ الأوّلونَ، قال: فنَأْتي

---

(١) أوعبوا فيها: أدخلوا فيها ولم يبق أحد منهم خارجها.

(٢) أزوى بعضها إلى بعض: ضم بعضها إلى بعض.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة الجنة باب ٢٠.

فَنَتَخَطَّى رِقابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أَقْرَبَ النّاسِ إِلى الله تعالى مَنْزِلةً، ثمّ يُدْعى النّاسُ كلُّ أُناسٍ بإمامِهِمْ، فَيُدْعى اليَهُودُ فيُقالُ: مَنْ أنتُمْ؟ فيَقُولونَ: نحْنُ اليهودُ، فيقول: مَنْ نَبيُّكُمْ؟ فيَقُولون: نَبيُّنَا مُوسَى، فيقول: مَا كِتَابُكُمْ؟ فيقولون: كِتابُنا التَّوْراةُ، فيقول: ما تَعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُدُ عُزَيْراً ونَعْبُدُ اللّهَ، فيقول لِلْملإ حوله: اسْلُكُوا بِهِمْ في جَهَنّم. ثمّ يُدْعى النَّصارى فيقول: مَنْ أَنْتُمْ؟ فيقولون: نحْنُ النّصارى، فيقول: مَنْ نبيُّكُمْ؟ فيقولون: نبينا عِيسى، فيقول: مَا كِتَابُكُمْ؟ فيقولون: كِتابنَا الإنجيلُ، فيقول: مَا تَعْبدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُدُ عِيسى وأُمّهُ والله. فيقول للْملإ حوله: اسْلُكُوا بهؤلاءِ في جَهَنّمَ، فيُدعى عيسى فيقول لعيسى: يا عيسى ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتخِذُوني وَأُمّي إِلٰهَيْنِ مِنْ دونِ اللّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٧] إلى قوله: ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ثم يدْعى كلُّ أُناسٍ بإمَامِهِمْ وَما كانُوا يَعْبدُونَ ثمّ يَصْرُخُ الصَّارِخُ: أيُّهَا النَّاسُ مَنْ كانَ يَعْبُدُ إِلٰهاً فلْيَتّبِعْهُ، تَقْدَمُهُمْ آلِهَتُهُمْ مِنها الخَشَبُ والحِجَارةُ، ومِنهَا الشّمْسُ والقَمَرُ، ومِنها الدَّجّالُ، حَتى يَبْقَى المُسْلِمُونَ فيَقِفُ عليهم فيقول: مَنْ أَنْتُمْ؟ فيقولون: نَحنُ المُسْلمونَ، قال: خَيْرُ اسم وخَيْرُ داعِيَةٍ، فيقول: مَنْ نبيُّكُم؟ فيقولون: مُحَمّدٌ، فيقول: مَا كِتابُكم؟ فيقولون: القُرآنُ، فيقول: ما تَعبُدونَ؟ فيقولون: نَعبُدُ اللّهَ وحْدَهُ لا شرِيك لهُ، قال: سَيَنْفَعُكُمْ ذٰلِك إنْ صَدَقْتُمْ، قالوا: هٰذا يَومُنا الّذي وُعِدْنا فيقول: أتَعْرِفونَ الله إذا رأَيْتُمُوهُ؟ فيقولون: نَعَمْ، فيقول: وكَيْفَ تعْرِفونَهُ ولَم ترَوهُ؟ فيقولون: نَعْلَمُ أَنّهُ لا عِدْلَ له، قال: فَيَتجَلّى لهُمْ تَبارَكَ وتعالى فيقولون: أَنْتَ ربُّنا تَبارَكَت أَسْماؤُكَ، ويَخِرُّون لهُ سُجداً، ثمّ يَمضي النورُ بأَهْلِهِ».

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه من حديث أبي الزبير قال: سألت جابراً عن الورود فأخبرني أنه سمع رسول ﷺ يقول: «نَجيءُ يَومَ القِيامَةِ عَلَى كَومٍ[1] فَوقَ النَّاسِ، فَتُدْعَى الأُمَمُ بأَوْثانِها وما كانَتْ تَعْبُدُ، الأوّلُ فالأوّلُ، ثمّ يأتينا ربُّنا بَعْدَ ذٰلك فيقول: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ فيقولون: نَنْتَظر ربّنا، فيقول: أَنَا رَبُّكُم، فيقولون: حَتى نَنْظُرَ إِلَيكَ، فَيَتجلى لهُمْ يَضْحَكُ فيَتّبِعونَهُ»[2].

وذكر عثمان بن سعيد الدّارمي أَنّ أَبا بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري أَتى عمرَ بن عبد العزيز فقال: حدّثنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللّهُ الأُمَمَ يَومَ القيامَةِ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فإذا بَدَا لَهُ أَن يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِه مَثّلَ لِكلِّ قَوْمٍ ما كانُوا يَعْبُدون فَيَتّبِعونهُمْ حَتى يَقْحَمُوهُم[3] النّار، ثمّ يأتينا ربُّنا وَنحْنُ في مَكانٍ فيقول: مَنْ أَنْتُم؟

(١) الكوم: مكان مرتفع.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٤٥).

(٣) يقحموهم: يرموهم فيها على وجوههم.

فَنقولُ: نَحْنُ المُؤْمنونَ، فيقول: ما تَنْتَظِرُون؟ فنقول: نَنْتَظِرُ ربَّنا، فيقولُ: مِنْ أَيْنَ تعلَمون أنّهُ ربُّكُم؟ فَنقولُ: حَدَّثَتْنا الرُّسُلُ أَوْ جاءَتْنا الكُتُبُ، فيقولُ: هَلْ تعرفونه؟ فيقولونَ: نَعْلَمُ أنهُ لاَ عِدْلَ لَهُ، فَيَتَجَلَّى ضاحِكاً، ثم يقول: أَبْشِروا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ فإنهُ لَيسَ مِنكم أَحَدٌ إلاّ وقَدْ جَعلْتُ مَكانَهُ في النَّار يَهُوديًّا أَوْ نَصْرانيًّا»[1] فقال عمر لأبي بُرْدَة: آللَّهِ، لقد سمعت أبا موسى يحدّث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله الذي لا إلٰه إلاّ هو لقد سمعت أبي يذكره عن رسول الله ﷺ غيرَ مرّةٍ ولا مرّتين ولا ثلاثاً، فقال عمر بن عبد العزيز: ما سمعت في الإسلام حديثاً هو أحبُّ إليّ منه.

وفي الترمذي من حديث الأوزاعي: حدَّثني حسّان بن عطية، عن سعيد بن المسيّب أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه فقال أبو هريرة: أسأل الله تعالى أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة، فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم أخبرني رسول الله ﷺ «أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم فيُؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالى، فيبرز لهم عرشه ويتبدَّى لهم في روضةٍ من رياض الجنة، فتُوضع لهم منابرُ من نُورٍ ومَنَابِرُ من لُؤلُؤٍ ومنابرُ من ياقوتٍ ومنابرُ من زَبَرْجَدٍ ومنابرُ من ذهب ومنابرُ من فِضّةٍ، ويجلس أدناهم وما فيهم دَنيءٌ عَلَى كثبان[2] المسك والكافور ما يرون أَنَّ أَهل الكراسي أفضلُ منهم مجلساً».

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «نَعَمْ هَلْ تُمارُونَ في رُؤيَةِ الشَّمْس والقمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قلنا: لا، قال: «كَذٰلكَ لاَ تُمَارُونَ في رُؤيَةِ رَبِّكُم ولاَ يَبْقَى في ذٰلكَ المَجْلِس أَحدٌ إلاّ حَاضَرهُ اللّهُ تَعَالَى مُحَاضَرَةً حَتَّى يقولَ لِلرَّجُلِ مِنهُمْ: يَا فُلاَنُ ابن فُلاَنٍ أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا عَمِلْتَ كَذا وَكَذَا؟ فَيُذَكِّرُهُ بِبَعْضِ غَدَرَاتِهِ في الدُّنيا فَيَقُولُ: يَا ربِّ أَلَمْ تَغفِرْ لي؟ فيقولُ: بَلَى فَبِسَعَةِ مَغْفِرتي بَلَغَتَ مَنْزِلَتَكَ هٰذهِ، فَبَيْنَا هُم عَلى ذٰلك غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طيباً لَم يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِه شَيْئاً قَطُّ، ثمَّ يقُولُ: قومُوا إلى ما أعددْتُ لَكُم مِنَ الكَرَامَةِ فَخُذُوا ما اشْتَهَيْتُمْ، فَنأْتِي سُوقاً قَدْ حَفَّتْ بِهِ المَلاَئِكَةُ، فِيه ما لَمْ تَنْظُرُ العيُونُ إلى مِثْلِهِ وَلَم تَسْمَعِ الآذانُ وَلَم يَخْطُرْ عَلى القُلُوبِ فَيُحْمَلُ إلينَا ما اشْتَهيْنَا لَيس يُبَاعُ فِيهِ شَيْءٌ ولاَ يُشْتَرَى، وَفي ذٰلك السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فيقبِلُ الرَّجُلُ ذُو المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَما فِيهِم دَنِيٌّ فَيَرُوعُهُ ما يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاس فَمَا يَنقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَذٰلِك أنهُ لاَ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/٤٠٧).
(٢) جمع كثيب: تل من الرمل سمي به لأنه انكثب أي انصب في مكان فاجتمع فيه.

يَنْبَغِي لأحدٍ أنْ يَحْزَنَ فِيهَا، ثمّ ننصرفُ إلى منازلنا فتتلقانا أزْوَاجُنا فَيَقُلْنَ مَرْحَباً وَأَهْلاً لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ بِك مِن الجمالِ وَالطِّيبِ أكثرَ مِمَّا فارَقْتَنا عَلَيْهِ، فيقولُ: إنَّا جَالَسْنَا اليومَ رَبَّنَا وَيَحقنا أنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ ما انقلبنا»[1].

وقال يعقوب بن سفيان في مسنده: حدَّثنا ابن المصفَّى، حدَّثنا سُويد بن عبد العزيز، حدّثنا عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جدّه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَزورُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الرَّبَّ تَبَارَكَ وتَعَالى في كلِّ يَوْمِ جُمعَةٍ وَذَكَرَ ما يُعْطَوْنَ قال: ثم يقول اللّهُ تعالى: اكْشِفوا الحُجُبَ، فَيَكْشِفُوا حِجَاباً ثُمَّ حجَاباً حتّى يتجلّى لهم عن وجهه تبارك وتعالى وكأنهم لم يرَوْا نعمةً قبلَ ذلك، وهو قولُ الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]».

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي من حديث الحسن رضي الله عنه عن النبي ﷺ مرسَلاً أنَّه قال: «يأتينا رَبُّنا يَوْمَ القيامَةِ وَنحنُ عَلَى مَكانٍ رفِيعٍ فيتجلّى لنا ضاحكاً» (مرسَلٌ صحيح).

وقال عثمان الدَّارمي: حدَّثنا أبو موسى، حدّثنا أبو عوانة، حدثنا الأجلح حدّثنا الضحاك بن مزاحم قال: إن الله يأمر السماءَ يوم القيامة فتنشق بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر السماء الثانية حتى ذكر سبع سموات فيكونون سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس، ثم ينزل المَلِك الأعلى جلّ جلالُه في بهائه وجماله معه ما شاء من الملائكة.

وقال عثمان بن سعيد: حدَّثنا هشام بن خالد الدمشقي، وكان ثقة، حدَّثنا محمد ابن شعيب بن شاور، حدَّثنا عمر بن عبد الله مولى غفرَة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءَنِي جبْرِيلُ وَفي كَفِّهِ مرآةٌ فيها نُكْتَةٌ[2] سَوْدَاءُ، فقلت: ما هٰذه يَا جِبْرِيلُ؟ قال: هٰذِهِ الجُمْعَةُ أُرسِلَ بِهَا إِلَيْكَ رَبُّكَ فَتَكُون هُدًى لَكَ ولأُمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ، فقلت: وَمَا لنا فِيهَا؟ قال: لَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ أَنْتُم الآخِرُونَ السَّابقون يوْمَ الْقِيامَةِ وَفيها سَاعَةٌ لَا يوافِقُها عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسأَلُ اللّهَ خيراً هُو لهُ قسم إلاّ أتاهُ وَلَا خيراً لَيْسَ لَهُ بقسم إلاّ ذُخِرَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَلا يَسْتعيذُ باللّهِ مِمّا هُو مَكْتوبٌ عَلَيْهِ إلاَّ دُفِعَ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْهُ، قلت: ما هٰذِهِ النُّكْتَةُ السوداءُ؟ قال: هذه السَّاعةُ يَوْمَ القِيَامَةُ وَهُو سَيِّدُ الأيام ونَحْنُ نُسَميه عِنْدَنا يَوْمَ المَزِيدِ، قلت: وَلِمَ تُسمونهُ يومَ المَزِيدِ يا جِبْرِيلُ؟ قال: لأنّ ربَّكَ اتَّخَذَ في الجَنَّةِ وَادِياً أَفْيحَ[3] مِنْ مسْكٍ أَبيَضَ فإذا كانَ يومُ الجُمعَةِ مِنْ أيّامِ الآخرةِ هَبطَ الجَبَّارُ عَنْ عرشِهِ إلى

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة باب ١٥.

(٢) النكتة في الشيء كالنقطة وهي النقطة السوداء في الأبيض وقيل البيضاء في الأسود.

(٣) أفيح: واسع مخصب.

كُرْسِيِّهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي وقَدْ حُفَّ الكُرْسِيُّ بمنَابِرَ مِنْ نورٍ يَجْلِسُ عَلَيها الصِّدِّيقونَ والشُّهَدَاءُ يوْمَ الْقيامةِ ثمَّ يجيءُ أهلُ الْغرَفِ حَتَّى يَحُفُّوا بالكَثِيبِ، ثمَّ يَبْدُو لَهُمْ ذُو الجلاَلِ والإِكْرَام تبارَكَ وَتعالَى فَيَقُولُ: أنَا الَّذِي صَدَقْتُكم وَعْدِي وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمتي وأَحْلَلْتُكُمْ دَارَ كَرَامَتي فَسَلُوني، فيقُولُونَ بأَجْمعِهِمْ: نَسْأَلُكَ الرِّضا عَنَّا، فَنَشْهَدُ لهم علَى الرضا ثم يقولُ لهمْ: سلوني، فيسألُونهُ حتى ينْتهِي نَهْمَةُ[1] كلِّ عَبْدٍ مِنْهُمْ ثم يقول: سلوني، فيقولون: حَسبُنا ربُّنا رضينا، فَيَرْجِعُ الجبَّارُ جَلَّ جَلاَلُهُ إِلَى عَرْشِهِ فَيُفْتَحُ لهُمْ بِقَدْرِ إِشْرَاقِهِمْ مِنْ يوْمِ الجُمعةِ ما لاَ عينٌ رأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعتْ وَلا خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغرفِ إِلَى غُرَفِهِمْ وَهِي غُرْفَةٌ مِنْ لُؤلُؤةٍ بَيْضَاءَ وَياقُوتَةٍ حَمْرَاءَ وَزُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ لَيْسَ فيهَا قَصْمٌ ولاَ وَصْمٌ[2] مُطَّرِدَةٌ أنهارُها مُتَدَلِّيَةٌ فيهَا ثِمارُها، فيهَا أَزْوَاجُهَا وخَدَمُهَا وَمَسَاكِنُها فَلَيْسُوا إِلَى يَومٍ أَحْوجَ منهُمْ إلَى يَومِ الجُمعَةِ لِيَزْدَادُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ ورِضْواناً».

رواه عن أنس منهم عثمان بنُ عُمَيْر بن اليقظان[3] ومن طريقه رواه الشافعي في مسنده، وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة[4]، ومنهم أبو صالح، والزُّبير بن عديّ وعليّ بن الحكم البُنَاني، وعبد الملك بن عُمَيْر، ويزيد الرّقاشي وعبد الله بن بُرَيدة، كلُّهم عن أنس وصححه جماعة من الحفَّاظ، وزاد الشافعي في مسنده في آخره: «وهُو الْيَومُ الَّذِي اسْتَوى فيهِ ربُّكُم عَلَى العَرْشِ»وساقه عثمان بن أبي شيبة من طرُق، وقال في بعضها «ثمَّ يَتَجلَّى ربهُمْ تَبارَكَ وَتعالَى فَيَقُولُ: أنا الذِي صَدَقْتُكم وَعْدِي وَأَتمَمْتُ عليْكُم نِعْمتي وَهذَا مَحَلُّ كَرَامتي» إِلَى أن قال: «ثمَّ يَرْتَفِعُ على كُرْسِيِّهِ وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ والصدِّيقُونَ والشهَداءُ ويرْجعُ أَهلُ الغُرَفِ إلى غُرَفِهِمْ».

وروى محمد بن الزِّبرقان، عن مقاتل بن حيَّان، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أهلَ الجَنَّةِ لَيَحْتَاجُونَ إلى العُلَماءِ في الجَنَّةِ كما يَحْتَاجُونَ إلَيهِمْ في الدُّنيَا وذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَزُورُونَ رَبَّهُمْ في كلِّ جُمعَةٍ فيقول لَهُمْ: تَمَنَّوا، فَيقُولونَ: وَمَا نَتمنَّى وَقَدْ أَدْخَلْتَنَا الجَنَّةَ وقَدْ أَعْطَيْتَنَا ما أعْطَيْتَنَا، فَيُقَالُ لهُمْ: تَمَنَّوا، فيَلْتَفِتُونَ إلى العُلماءِ» وذكر الحديث في قصَّة الجمعة.

وروى ابن مَنْدَهْ من حديث الأعمش، عن أبي وائل، عن حُذيفة رضي الله عنه، عن

---

(١) النهمة: الحاجة، وبلوغ الشهوة في كل شيء.

(٢) قصمه قصماً: كسره وأبانه، وقيل كسره وإن لم يبن. ووصم الشيء وصماً: صدعه وعابه. والمعنى: ليس فيها كسر ولا عيب.

(٣) كذا.. والصواب: أبو اليقظان كما جاء في تهذيب التهذيب.

(٤) كذا.. ولعل الصواب في المسند.

النبي ﷺ قصّة الجمعة بطولها وفيها يقول: «**سَلُوني فيقولون: أَرِنَا وَجْهَكَ رَبَّ العَالَمِينَ نَنْظُرْ إِلَيْكَ، فَيَكْشِفُ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعالى تِلْكَ الحُجُبَ ويَتَجلَّى لهُمْ فَيَنْظُرُونَ إليْهِ**».

وذكر عثمان الدّارمي، عن محمد بن كعب القُرَظي، أنه حدَّث عمرَ بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أَقبل في ظُلَل من الغمام والملائكة فيسلّم على أهل الجنة في أوّل درجةٍ فيردُّون عليهِ السلام، قال القُرظي: وهذا في القرآن ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فيقولُ: سلوني، يفعل بهم ذلك في درجهم حتى يستويَ على عرشه، ثم تأتيهم التُّحَفُ من الله تحمله[١] الملائكة إليهم.

وقال عبد الواحد بن زيد، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدُّنيا. وقال هشام بن حسان عنه أنّه تبارك وتعالى يتجلّى لأهل الجنة فإذا رأَوه نَسُوا نعيم الجنة.

أَعجبُ الصبر صبرُ المحبين. قال الشاعر:

والصبرُ يُحْمَد في المواطن كُلِّها ... إلاَّ عليك فإنه لا يُحْمَدُ[٢]

وقف رجلٌ على الشبلي فقال: أي الصبر أشدُّ على الصابرين؟ قال: الصبر في الله، فقال السائل: لا، فقال: الصبر لله قال: لا، قال: فالصبر مع الله، قال: لا، قال: فما هو؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلي صرخةً كادت روحُه تَزْهَق. قال الشاعر:

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبهُ ... والصبرُ في سائر الأشياء محمود

الخوف يبعدك عن معصيته، والرجاء يخرجك إلى طاعته، والحبّ يسوقك إليه سوقاً. لما علم الله سبحانه أن قلوبَ المشتاقين إليه لا تهدأ إلاّ بلقائه ضرب لهم أَجلاً للقائه تسكيناً لقلوبهم، فقال الله تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

يا من شكى شوقَه من طول فُرقته ... اصبر لعلّك تَلْقى من تحبُّ غدا

وسِرْ إليه بنار الشوق مجتهداً ... عساك تلْقى على نار الغرام هدى

المحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه:

وأعظم ما يكون الشوقُ يوماً ... إذا دَنَت الخِيامُ من الخيامِ[٣]

---

(١) كذا.. ولعل الصواب: تحملها.

(٢) تقدم في صفحة ١٨٩ باختلاف في اللفظ.

(٣) وروي: إذا دنت الديار من الديار.

كلما وقع بصرُ المحبِّ على محبوبه أَحدثت له رؤيتُه شوقاً على شوقه:

مـا يَـرْجعُ الطَّـرْفُ عنـه حيـن يبصـره　　حتـى يعـودَ إليـه الطـرفُ مشتـاقـا

المحب الصادق إذا سافر طرفُه في الكون لم يجد له طريقاً على محبوبه، فإذا انصرف بصرُه عنه رجع إليه خاسئاً وهو حسير[١]:

ويَسْـرَحُ طـرفـي فـي الأنـام وينثنـي　　وإنسـانُ عينـي بـالـدَّمـوع غـريـق
فَيَـرجِـعُ مـردوداً إليـك ومـا لَـه　　علـى أَحـدٍ إلاَّ عليـكَ طـريـق

أَقرُّ شيءٍ لعيون المحبّ خلوتُه بسرّه مع محبوبه. حدّثني من رأى شيخَنا في عُنْفوان أمره، خرج إلى البريَّة بكرةً فلما أصحر[٢] تنفَّس الصُّعَداءَ ثم تمثل بقول الشاعر:

وأَخـرُجُ مـن بيـن البيـوت لعلّنـي　　أُحـدّث عنـك القلـب بـالسـرّ خـاليـا

الشوقُ يحمل المحبّ على العَجَلَة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفَوْر ولو كان فيها تَلَفُه: ﴿ومَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسى. قالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لتَرْضى﴾ [طه: ٨٣، ٨٤] قال بعضُهم: أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا.

ولـو قلـتِ طَـأْ فـي النـارِ أَعلـم أَنـه　　رضـاً لـكِ أو مُـدْنٍ لنـا مـن وصـالـك
لقـدّمْـت رِجلـي نحـوهـا فـوطئتُهـا　　هـدًى منـكِ لـي أو ضِلَّـةً مـن ضـلالـك
لِيَهْنِـكِ إِمسـاكـي بكفـي علـى الحشـا　　ورَقـراقُ عينـي خشيـةً مـن زِيـالِـك[٣]
وإن سـاءنـي أن نِلتِنـي بمسـاءةٍ　　لقـد سـرّنـي أنـي خطـرتُ ببـالِـك

من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يَتِمّ له سرورٌ إلاَّ بمحبوبه، وما دام غائباً عنه فعيشُه كلُّهُ مُنغَّصٌ:

نحـن فـي أكمـل السـرور ولكـن　　ليـس إلاَّ بكـم يتِـمُّ السـرورُ
عيـبُ مـا نحـن فيـه يـا أهـل ودي　　أنكـم غُيَّـبٌ ونحـن حضـور

وقال آخر:

مـن سـرّه العيـدُ الجـديـ　　ـدُ فقـد عَـدِمـتُ بـه السـرورا

---

(١) خاسئاً: ذليلاً، وحسير: كليل، ضعيف، أعياه النظر والبحث. قال تعالى: ﴿ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

(٢) أصحر الرجل: خرج إلى الصحراء.

(٣) رقرق الماء وغيره: صبه برقة، وعينه: أجرى دمعها، والرقراق من الأشياء ما تلألأ ومن الدمع ما ترقرق منه. زيالك: فراقك، وزايله مزايلة وزيالاً: فارقه.

كـــان الســــرور يَتِــــمُّ لــــي   لـــو كـــان أحبـــابـــي حضـــورا

لو قيل للمحبّ على الدّوام: ما تتمنى؟ لقال: لقاء المحبوب.

ولمـــا نـــزلنـــا منـــزلاً طَلّـــهُ النـــدى   أنيقـــاً وبستـــانـــاً مـــن النَّـــوْرِ حـــاليـــا[1]
أجـــدّ[2] لنـــا طيـــبُ المكـــان وحسنُـــه   منًـــى فتمنَّينـــا فكنـــت الأمـــانيـــا

وقال الجُنَيد: سمعت السرِيَّ يقول: الشوق أجلُّ مقامِ العارف إذا تحقق فيهِ، وإذا تحقّق بالشوق لها عن كل ما يَشْغَلُه عمن يشتاق إليه. وقيلَ: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لشبان بني إسرائيل لِمَ تَشْغَلُون نفوسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم؟ ما هذا الجفاء؟ ولو يعلم المُدْبِرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ وانقطعت أوصالهم من محبتي. هذه إرادتي للمُدْبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين عليَّ؟ وسئل الجُنَيْد من أي شيءٍ بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدَّة الشوق إليه، قال: ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما: واشوقاه وقال الآخر: واوجْداه. وكانت عجوزٌ لها غائب فقدم من السفر فأَظهر أهلُها الفرح والسرورَ به. فجعلت تبكي فقيل لها: ما هذا البكاء؟ فقالت: ذكّرني قدومُ هذا الفتى يوم القدوم على الله.

وقال بعضُ المحبين: قلوب المشتاقين منوَّرةٌ بنور الله؛ فإذا تحرك اشتياقُهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول: هؤُلاء المشتاقون إليَّ أُشهدكم أني إليهم أشوق.

فصل: قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى: سئل أبو سليمان الدّاراني رحمه الله وأنا حاضرٌ ما أقرب ما يُتَقَرّب به إلى الله عزّ وجلّ؟ فبكى ثم قال: مثلي يُسأَل عن هذا؟ أقربُ ما يُتَقَرّب به إليه أن يطّلع على قلبك وأَنت لا تريد من الدُّنيا والآخرة إلا هو[3]. وقال يحيى بن مُعاذ: النسكُ هو العناية بالسرائر وإخراج ما سوى الله من القلب. وقال سهل بن عبد الله: ما من ساعةٍ إلاّ واللّهُ سبحانه يطّلع فيها على قلوب العباد، فأَي قلبٍ رأى فيه غيرَه سَلّطَ عليه إبليس. وقال سهل بن عبد الله: من نظر إلى الله عزَّ وجل قريباً منه بَعُد عن قلبه كلُّ شيءٍ سوى الله، ومن طلب مرضاتَه أرضاه الله سبحانه وتعالى، ومن أسلم قلبه إلى الله تولّى جوارحَه. وقال سهل أيضاً: حرام عَلى قلبٍ أن يَشَمّ رائِحةَ اليقين

(١) حالياً: مزداناً.
(٢) أجد: أحدث.
(٣) كذا.. وفي حلية الأولياء: والآخرة غيره.

وفيه سكونٌ إلى غير الله، وحرامٌ عَلى قلبٍ أن يدخله النورُ وفيه شيءٌ مما يكره الله. وسئل بعضُهم عن أفضل الأعمال فقال: رعايةُ السرّ عن الالتفات إلى شيء سوى الله عزّ وجلّ. وقال مسلم[١]: تركتموه وأقبل بعضُكم عَلى بعضٍ، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب.

فصل: فإن تقاصرت[٢] همتُك الدَّنيّة عن ترك الفواحش محبةً لهذا المحبوب الأعلى ولست هناك فاتركها محبةً للنساء اللاتي وصفهن الله في كتابه، وبعث رسولَه داعياً إلى وصالهنّ في جنة المأوى. وقد تقدَّم ذكرُ بعض صفاتهنّ ولذَّة وصالهنّ، فإن تقاصرت همتُك عنهنّ ولم تكن كفؤاً لخطبتهنّ ودعتك نفسُك إلى إيثار ما هاهنا عليهنّ فكن من عقوبته العاجلة والآجلة عَلَى حذر. واعلم أن العقوبات تختلف، فتارةً تُعَجَّل وتارةً يجمع الله عَلَى العاصي بينهما. وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان، ودونها العقوبة بموت القلب ومحوِ لذَّة الذكر والقراءة والدُّعاء والمناجاة منه، وربما دبّت عقوبةُ القلب فيه دبيبَ الظلمة إلى أن يمتلئَ القلبُ بهما فتعمى البصيرة، وأهونُ العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدُّنيا، وأهونُ منها ما وقع بالمال، وربما كانت عقوبة النظر في البصيرة أو في البصر أو فيهما.

قال الفُضيل: يقول الله تعالى: ابنَ آدم إذا كنتُ أُقلّبك في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذر لئلا أصرعك بين معاصيك، ابن آدم اتَّقِني ونم حيث شئت، إنك إن ذكرتني ذكرتُك، وإن نسيتني نسيتُك، والساعة التي لا تذكرني فيها عليك لا لك.

وقال الفضيل أيضاً: ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعملٍ مقتَك عليه فأغلقَ أبوابَ المغفرة وأنت تضحك؟ وقال علقمة بن مَرْثَد: بينا رجلٌ يطوف بالبيت إذ بَرَق له ساعدُ امرأة فوضع ساعدَه عَلى ساعدها فالتذّ به فلَصِقت ساعداهما، فأَتى بعضَ أولئك الشيوخ فقال: ارجِع إلى المكان الذي فعلتَ هذا فيه فعاهد ربّ البيت أن لا تعود، ففعل فخلي عنه.

وقال ابن عباس وأَنس رضي الله عنهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وزَيْناً في الوجه، وقوّة في البدن، وسَعَةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق وإن للسيئة ظلمةً في القلب، وشَيْناً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق.

وقال الحسن: ما عصى الله عبدٌ إلاّ أذلّه الله. وقال المعتَمِرُ بن سليمان: إن الرجل

---

(١) كذا.. وفي لسان الميزان: سلم، وفي حلية الأولياء: سالم وهو ابن ميمون الخواص الزاهد.

(٢) تقاصرت: تضاءلت وعجزت.

لَيُصيب الذنبَ في السرّ فيصبح وعليه مَذَلّته. وقال الحسن: هانوا عليه فَعَصوْه ولو عزُّوا عليه لعصمهم. وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول: من سرّه أَن تدوم له العافية فليتَّقِ الله.

وقال أبو سليمان الداراني: من صفا صفا له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كُفِيَ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كُفِيَ في ليله، ومن ترك لله شهوةً من قلبه فاللّهُ أكرم أن يعذّب بها قلبَه. وكتبت عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد فإن العامل إذا عمل بمعصية الله عاد حامدُه من الناس ذامًّا.

وقال مُحَارِبُ بن دِثَار: إنّ الرجلَ لَيُذْنبُ الذنبَ فيجد له في قلبه وهناً.

وقال الحسين بن مُطَير:

ونفسَــك أَكْــرِمْ عــن أُمــورٍ كثيــرةٍ ... فمــا لــك نفــسٌ بعــدهــا تستعيــرُهــا
ولا تقــربِ الأمــر[1] الحــرامَ فــإنمــا ... حــلاوتُــه تفنــى ويبقــى مَــرِيُــرهــا

وكان سفيان الثوري يتمثّل بهذين البيتين:

تفنــى اللَّــذاذةُ ممــن ذاق[2] صفــوتَهــا ... مــن الحــرام ويبقــى الإثــم والعــارُ
تبقــى عــواقــبُ ســوءٍ فــي مَغَبَّتِهــا ... لا خيــرَ فــي لــذّةٍ مــن بعــدهــا النــارُ

فصل: واعلم أن الجزاء من جنس العمل، والقلب معلّق بالحرام كلما هم أن يفارقَه ويخرجَ منه عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا.

وفي بعض طُرُق حديث سَمُرةَ بن جُندَب الذي في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: **«رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي فانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فإذَا بَيْتٌ مَبْنِيٌّ على مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ أَعْلاهُ ضَيِّقٌ وأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يوقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ فِيهِ رِجالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ فإذا أُوقِدَتِ النَّارُ ارْتَفَعُوا حَتَّى يكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا فإذَا أُخْمِدَتْ رَجَعُوا فِيهَا فقُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ؟ قالَ: هُمُ الزُّنَاةُ»**[3]. فتأمل مطابقةَ هذا العذاب لحال قلوبهم في الدُّنيا فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنُّور الشهوة إلى فضاء التوبة أُركِسُوا[4] فيه وعادوا بعد أن يخرجون.

ولما كان الكفّار في سجن الكفر والشِّرك وضيقه وكانوا كلما هموا بالخروج منه

---

(١) تقدم البيتان في صفحة ٢٣٤ وفيها: ولا تقرب المرعى الحرام الخ.

(٢) تقدم البيتان في صفحتي ٢٣٤ و ٢٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٩٣، وأحمد في المسند (٥/ ١٤).

(٤) أركسوا فيه: ردوا إليه وأعيدوا إليه، قال تعالى ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي عادوا إليها وقلبوا فيها أقبح قلب.

إلى فضاء الإيمان وسعَتَه ورَوْحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرادوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنهَا أُعِيدُوا فِيها﴾ [السجدة: ٢٠]. وقال في موضع آخرَ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فيهَا﴾ [الحج: ٢٢] فالكفرُ والمعاصي والفسوقُ كلُّه غمومٌ، وكلما عزم العبدُ أن يخرج منه أبت عليه نفسُه وشيطانُه ومألَفُه، فلا يزال في غمّ ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدُّنيا يبقى في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمِّه وضيقِه ها هنا خرج منه هناك، فما حبسَ العبدَ عن الله في هذه الدار حَبَسه عنه بعد الموت، وكان معذَّباً به هناك كما كان قلبه معذّباً به في الدُّنيا، فليس العشاق[1] والفَجَرة والظَّلَمةُ في لذَّةٍ في هذه الدار، وإنما هم يعذَّبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم، فإذا حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون أُحْضِرَت نفوسُهم الألمَ الشديدَ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم. فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدُّود يأكل كل جسومهم.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال: حدَّثني عبد الصمد بن مَعقِل، حدَّثني وهب بن منبّه قال: كان حزقيل قائماً فأتاه ملَكٌ فذكر حديثاً طويلاً وفيه أنه مرّ بقوم أموات فقيل له: ادْعُهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال: سلهم فيمَ كنتم؟ فقالوا: لما فارقنا الحياةَ لَقِينا ملَكاً يقال له ميكائيل فقال: هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم فذلك سُنَّتُنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم، فنظروا في أعمالنا فوجدونا نعبد الأوثان، فسلّط الدُّود عَلَى أجسادنا وجعلت الأرواح تألَم، وسلّط الغمّ على أرواحنا وجعلت الأجساد تألَم، فلم نزل كذلك نعذَّب حتى دعوتنا.

(١) كذا.. ولعلها الفساق، وهي بالصواب أشبه.

فيمن ترك محبوبه حراماً فبذل له حلالاً أو أعاضه الله خيراً منه

عنوانُ هذا الباب وقاعدتُه أن من ترك الله شيئاً عوّضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصّديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجنَ عَلَى الفاحشة فعوّضه الله أَن مكّنه في الأرض يتبوأُ[1] منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرةً سائلة راغبةً في الوصل الحلال فتزوّجها، فلما دخل بها قال: هذا خيرٌ مما كنتِ تريدين. فتأَمَّلْ كيف جزاه الله سبحانه وتعالى عَلَى ضيق السجن أَن مكّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأَذلّ له العزيز وامرأَتَه، وأقرّت المرأة والنِّسوةُ ببراءته، وهذه سُنّتُه تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة. ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيلَ التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الرّيحَ يَسير عَلَى مَتْنِها[2] حيث أراد. ولما ترك المهاجرون ديارَهم وأوطَانهم التي هي أحبُّ شيءٍ إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدُّنيا وملكهم شرقَ الأرض وغربها. ولو اتقى اللّهَ السارِقُ وترك سَرِقَةَ المال المعصوم لله لآتاه الله مثلَه حلالاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فأَخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يَحِلّ له رَزَقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوبَ ذلك الفرج حراماً لله لأثابه اللّهُ بركوبه أو ركوب ما هو خيرٌ منه حلالاً.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هشيم، حدّثنا عبد الرّحمن بن إسحاق، عن مُحَارِب بن دِثار، عن صِلَة، عن حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**النَّظْرَةُ إلى المَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْليسَ مَسْمُومٌ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللّهِ أَثَابَهُ اللّهُ إيماناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ في قلبِه**».

وقال عمرُ بن شَبَّة: حدَّثنا أحمد بن يونس، حدَّثنا عَنْبَسَةُ بن عبد الرحمن، حدّثنا

(١) تبوأ منزلاً: نزله واتخذه سكناً. وبوأه منزلاً: هيأه ومكن له فيه.
(٢) المتن: الظهر.

أبو الحسن المدَني، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذٰلكَ السّهْمِ أَعْقَبَهُ اللّهُ عِبَادَةً تَسُره**».

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى: بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرةٍ فإذا حسناءُ عليها ثيابُ سوادٍ، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها:

قد كنتُ أحسبُ أَن الشمس واحدةٌ ... والبدرَ في منظرٍ بالحسن موصوفُ
حتى رأيتُكِ في أثواب ثاكلةٍ ... سُودٍ وصدغُك فوقَ الخدّ معطوفُ
فَرُحت والقلبُ مني هائمٌ دَنِفٌ ... والكِبْدُ حَرّى ودمعُ العين مَذْروفُ
رُدِّي الجوابَ ففيه الشكرُ واغتنمي ... وصلَ المحبّ الذي بالحبّ مشغوفُ

ورمى بالرقعة إليها، فلما قرأتها كتبت:

إن كنت ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسبٍ ... إن الشريفَ بغضّ الطَّرف معروفُ
إن الزُّناة أُناسٌ لا خَلاَقَ لهم ... فاعلم بأنك يومَ الدِّين موقوفُ
واقطع رَجاكَ لحاكَ الله[1] من رجلٍ ... فإن قلبي عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرُّقعة زجر نفسه وقال: أَليس امرأَةٌ تكون أشجعَ منك؟ ثم تاب ولبس مِدْرَعةً[2] من الصوف والتجأ إلى الحرم، فبينا هو في الطواف يوماً وإذا بتلك الجارية عليها دِرْعٌ من صوف فقالت له: ما أَليق هذا بالشريف، هل لك في المباح؟ فقال: قد كنت أَروم هذا قبل أن أَعرف الله وأُحبّه، والآن قد شغلني حبُّه عن حبّ غيره، فقالت له: أَحسنت، ثم طافت وهي تنشد:

فطفنا فلاحت في الطواف لوائحٌ ... غَنينَا بها عن كل مَرْأى ومَسْمَع

وقال الحسن البصري: كانت امرأَةٌ بَغِيٌّ قد فاقت أهل عصرها في الحسن لا تمكّن من نفسها إلا بمائة دينار، وإن رجلاً أَبصرها فأَعجبته. فذهب فعمِل بيديه وعالج[3] فجمع مائة دينار، فجاء فقال: إنكِ قد أَعجبتِني فانطلقت فعملت بيدي وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت: ادفعها إلى القَهْرَمان[4] حتى يَنْقُدَها ويزنها، فلما فعل قالت: ادخل، وكان لها بيتٌ مُنجّدٌ وسريرٌ من ذهب فقالت: هَلُمَّ لك، فلما جلس منها مجلس

---

(١) لحاك الله: أي قبحك ولعنك.
(٢) المدرعة: ثوب من الصوف وجبة مشقوقة المقدم.
(٣) عالج الشيء معالجة وعلاجاً: مارسه وزاوله.
(٤) القهرمان: الوكيل الخاص بتدبير خرجها ودخلها.

الخائن تذكر مقامه بين يدي الله فأخذته رِعدةٌ وطَفِئَتْ شهوتُه فقال: اتركيني لأخرج ولك المائة دينار، فقالت: ما بدا لك وقد رأيتني كما زعمت فأعجبتُك فذهبت فعالجت وكَدَحت حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت عليَّ فعلت الذي فعلت؟ فقال: ماحملني على ذلك إلا الفَرَقُ من الله، وذكرتُ مقامي بين يديه، قالت: إن كنت صادقاً فمالي زوجٌ غيرُك قال: ذَرِيني لأخرج قالت: لا إلاَّ أن تجعل لي عهداً أن تتزوّجَني فقال: حتى أخرج، قالت: عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوّجني، قال: لعلّ، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده، وارتحلت المرأة بدنياها نادمةً عَلَى ما كان منها حتى قدمت بلده، فسألت عن اسمه ومنزله فدُلَّتْ عليه، فقيل له: الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك، فلما رآها شَهِقَ شهقةً فمات، فأُسقط[1] في يدها فقالت: أمّا هذا فقد فاتني، أمَا له من قريب؟ قيل: بلى أخوه رجلٌ فقير، فقالت: إني أتزوّجك حبًّا لأخيك، قال: فتزوّجته فولدت له سبعة أبناء.

وقال يحيى بن عامر التيمي: خرج رجلٌ من الحيّ حاجًّا فورد بعض المياه ليلاً، فإذا بامرأةٍ ناشرة شعرَها، فأعرض عنها فقالت له: هلّم إليّ فلِمَ تعرض عني؟ فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين، فتجلببت[2] ثم قالت: هِبْتَ والله مُهاباً، إنَّ أوْلَى من شَركك في الهيبة لَمَنْ أراد أن يَشْرَكَك في المعصية، ثم ولَّت فتبعها، فدخلت بعض خيام الأعراب، قال: فلما أصبحتُ أتيتُ رجلاً من القوم فسألته عنها وقلت: فتاةٌ صِفتُها كذا وكذا فقال: هي والله ابنتي، فقلت: هل أنت مُزَوجي بها؟ فقال: عَلَى الأكفاء فمن أنت؟ فقلت: رجلٌ من تَيْم الله، قال: كُفوٌ كريم، فما رمْتُ حتى تزوّجتُها ودخلت بها، ثم قلت: جهِّزُوها إلى قدومي من الحجّ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة، وها هي ذي ولي منها بنون وبناتٌ، قال: فقلت لها: ويحك ما كان تعرُّضكِ لي حينئذ؟ فقالت: يا هذا ليس للنساء خيرٌ من الأزواج، فلا تعجبنّ من امرأة تقول هويت، فواللّه لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها.

وقال الحسن بن زيد: وَلِيَنَا بديار مصر رجلٌ فوجد[3] على بعض عُمَّاله فحبسه وَقيَّده، فأشرفت عليه ابنة الوالي فهَوِيَتْهُ فكتبت إليه:

أيهــــــا الـــــــرامــــــي بعينيـــــــه وفـــــي الطـــــرف الحتُـــــوفُ

---

(١) أسقط في يدها، بصيغة المجهول: تحيرت وتحسرت على ما فاتها وندمت على ما ضاع منها.

(٢) تجلببت: لبست الجلباب، والجلباب القميص والخمار وما يلبس فوق الثياب كالملحفة والملاءة تشتمل بها المرأة.

(٣) وجد عليه: غضب.

إن تُــــرِدْ وصــــلاً فقــــد أمْـ كَنَــــكَ الظبــــيُ الألـــوفُ

فأجابها الفتى:

إن تَــــرَيْنــــي زانــــيَ العَيْنَيْـ ـنِ فــــالفــــرجُ عفيــــفُ

ليــــس إلاّ النظــــر الفــــا تــــرُ والشعــــرُ الظــــريــــفُ

فأجابته:

قــــد أردنــــاك فــــألْفَيْنَـ ــــاك إنســــانــــاً عفيفــــا

فتــــأبَّيْــــت فــــلا زِلْـ ــــتَ لقيــــدَيْــــك حليفــــا

فأجابها:

مــــا تــــأبَّيْــــتُ لأنــــي كنــــت للظبــــي عَيــــوفــــا[1]

غيــــر أنــــي خِفْــــتُ ربًّــــا كــــان بــــي بَــــرًّا لطيفــــا

فذاع الشعر وبلغت القصّة الوالي فدعا به فزوّجه إياها ودفعها إليه.

وذكر أن رجلاً أَحبّ امرأةً وأَحبته، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال: إن أجلي ليس بيدي، وأجلك ليس بيدك، فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيَيْن، فقالت: صدقت، فتابا وحسُنت حالهما وتزوّجت به.

وذكر بكر بن عبد الله المُزَني أن قصّاباً وَلِعَ بجاريةٍ لبعض جيرانه، فأرسلها أهلُها إلى حاجةٍ في قريةٍ أُخرى، فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل، لأنا أشدُّ حبًّا لك مني، ولكنّي أخاف الله، قال: فأَنت تخافينه وأنا لا أَخافه؟ فرجع تائباً، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقُه، فإذا هو برسولٍ لبني إسرائيل، فسأله فقال: ما لك؟ قال: العطش، فقال: تعالَ حتى ندعو الله حتى تظلّنا سحابة حتى ندخل القرية، قال: ما لي من عمل فأدعوَهُ، قال: فأنا أَدعوه وأَمِّن أنت، فدعا وأَمَّن الرجل، فأظلتهما سحابةٌ حتى انتهيا إلى القرية، فذهب القصّاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه، فرجع إليه الرسولُ فقال: زعمت أنْ ليس لك عملٌ وأَنا الذي دعوت وأَنت أَمّنت، فأظلتنا سحابةٌ ثم تبعَتْك، ولتُخْبِرَنّي ما أَمرُك، فأخبره، فقال الرسول: إن التائب إلى الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس بمكانه.

وقال يحيى بن أيوب: كان بالمدينة فتًى يُعجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه شأنُه، فانصرف ليلةً من صلاة العشاء فتمثّلت[2] له امرأةٌ بين يديه. فعرّضت[3] له بنفسها

(١) عيوفاً: كارهاً، وعاف الشيء: تركه وزهد فيه.

(٢) تمثلت له: عرضت له بنفسها وظهرت له.

(٣) عرضت له بنفسها: تصدت له وأغرته بها.

ففُتِنَ بها ومضت، فأتبعها حتى وقف عَلَى بابها فأبصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية: ﴿إنَّ الذينَ اتَّقوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإذا هُمْ مُبْصِرُون﴾ [الأعراف: ٢٠١] فخرَّ مغشيًّا عليه، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميّت، فلم تزل هي وجاريةٌ لها يتعاونان عليه حتى ألقياه عَلى باب داره، فخرج أبوه فرآه مُلْقًى على باب الدار لما به فحمله وأدخله فأفاق، فسأله ما أصابك يا بنيّ؟ فلم يزل به حتى أخبره، فلما تلا الآية شهق شهقةً فخرجت نفسُه، فبلغَ عمرَ رضي الله عنه قصّته فقال: ألا آذنتموني بموته؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى: يا فلان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فسمع صوتاً من داخل القبر: قد أعطاني ربي يا عمر.

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضي الله عنه على وجهٍ آخر قال: كان شابٌّ على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ملازماً للمسجد والعبادة، فَهَوِيَتْهُ جاريةٌ فحدّث نفسه بها، ثم إنه تذكّر وأبصر فشهق شهقةً فغُشِيَ عليه منها، فجاء عمٌّ له فحمله إلى بيته، فلما أفاق قال: يا عمّ انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال: لك جنّتان.

وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كانَ ذو الكِفْلِ لاَ يَتوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ، فأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فأَعْطَاها سِتِّينَ دِيناراً على أن يَطَأَها، فلمَّا قَعَدَ منْها مَقْعَدَ الرّجُلِ مِن امْرَأَتِهِ أُرْعِدتْ وَبَكَتْ، فَقالَ مَا يُبْكِيكِ؟ أَأَكْرَهْتُكِ؟ قالَتْ: لا وَلكِنْ هذا عَمَلٌ لَم أَعْمَلْهُ وَإنَّما حَمَلَتْني عَلَيهِ الْحَاجةُ، قال: فَتَفْعَلِينَ هذا وَأَنْتِ لم تَفْعَلِيهِ [قَطُّ]؟ ثُمّ قال: اذْهَبِي وَالدّنانيرُ لَكِ، ثُمَّ قال: والله لاَ يَعْصِي الله ذُو الْكِفل أَبَداً، فَماتَ مِنْ لَيلَتِه فأَصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهِ: قَدْ غَفَرَ اللهُ لِذي الكِفلِ»(١). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهم: خطب رسولُ الله ﷺ قبل وفاته فقال في خطبته: «وَمَنْ قَدَرَ على امْرَأَةٍ أَوْ جَارِيَةٍ حَرَاماً فَتَرَكَها مَخَافَةً مِنَ اللهِ أَمَّنَه اللهُ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ وَحَرّمَهُ عَلى النَّارِ وأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»(٢).

وقال مالك بن دينار: جناتُ النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن فيها جَوارٍ خُلِقْنَ من ورد الجنة، يسكنها الذين همّوا بالمعاصي فلما ذكروا الله عزّ وجلّ راقبوه، فانثنت رقابهم من خشيةَ الله عزّ وجلّ.

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٤٨، وأحمد في المسند (٢/ ٢٣).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٠٤).

قال ميمون بن مهران: الذِّكرُ ذكران: فذكر الله عزّ وجلّ باللسان حسن، وأفضل منه أن تذكر الله عزّ وجلّ عندما تُشرف على معاصيه.

وقال قَتَادة رضي الله عنه: ذُكر لنا أَن نبي الله ﷺ كان يقول: «لَا يَقْدِرُ رجُلٌ عَلى حَرَامٍ ثُمّ يَدَعُهُ لَيْسَ بِهِ إلاّ مَخافَةُ اللهِ عزّ وَجلّ إلاّ أَبْدَلَهُ في عاجِلِ الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذلك».

وقال عبيد بن عُمَير: صدقُ الإيمان وبِرُّه أَن يخلوَ الرجل بالمرأَة الحسناء فيدعَها لا يدعُها إلاّ لله عزّ وجلّ.

وقال أبو عِمْران الْجَوْني: كان رجلٌ من بني إسرائيل لا يمتنع من شيء، فَجَهِدَ[1] أهل بيتٍ من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جارية منهم تسأله شيئاً فقال: لا أَوْ تمكنيني من نفسك، فخرجت فجهدوا جَهداً شديداً فرجعت إليه فقالت: أعْطنا فقال: لا أو تمكنيني من نفسك، فرجعت، فجهدوا جَهداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك، فقالت: دونك، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السَعفَةُ، قال لها: ما لك؟ قالت: إني أخاف الله ربّ العالمين، هذا شيءٌ لم أصنعه قطّ، قال: أنتِ تخافين الله ولم تصنعيه وأفعلُه؟ أُعاهد الله أني لا أَرجع إلى شيء مما كنت فيه، فأوحى الله إلى نبيّ من أنبيائهم أن فلاناً أصبح في كتب أهل الجنة.

وذُكر أن شابًّا في بني إسرائيل لم يكن فيهم شابٌّ أحسن منه كان يبيع المَكاتِل فبينا هو ذاتَ يوم يطوف بمَكاتِله إذ خرجت امرأة من دار ملِك من ملوك بني إسرائيل، فلما رأَته رجعت مبادرةً فقالت لابنة الملك: إني رأيت شاباً بالباب يبيع المكاتِلَ لم أَر شابًّا قطُّ أحسَن منه، قالت: أدخليه، فخرجت فقالت: ادخل فدخل، فأغلقت الباب دونه، ثم قالت: ادخل فدخل، فأَغلقت باباً آخرَ دونه، ثم استقبلته بنتُ الملك كاشفةً عن وجهها ونحرها، فقال لها: استتري عافاك الله، فقالت: إنا لم نَدْعُك لهذا، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه، فقال لها: اتقي الله، قالت: إنك إنْ لم تطاوعني على ما أريد أَخبرت الملك أنك إنما دخلت تكابرني[2] على نفسي، قال لها: فضعي لي وَضوءًا، فقالت: أعليَّ تتعلّل؟ يا جارية ضعي له وَضوءاً فوق الْجَوسَق[3] مكاناً لا يستطيع أن يَفِرّ منه، فلما صار في الْجَوْسَق قال: اللهمّ إني دُعيتُ إلى معصيتك وإني أختار أن أُلقي نفسي من هذا الْجَوسَق ولا أركب معصيتك، ثم قال: بسم الله وألقى نفسه من أعلاه، فأهبط الله ملكاً

(١) جهد أهل البيت: أجدبوا، وجهد العيش: ضاق واشتد.

(٢) تكابرني على نفسي: تراودني عن نفسي.

(٣) الجوسق: القصر أو الحصن.

أخذ بضَبْعَيْهِ[1] فوقع قائماً على رجليه، فلما صار في الأرض قال اللهمّ إن شئتَ رزقتني رزقاً يغنيني عن بيع هذه المَكاتِل، فأرسل الله عليه رِجْلاً[2] من جَرادٍ من ذهبٍ فأخذ منه حتى ملأ ثوبه، فلما صار في ثوبه قال: اللهمّ إن كان هذا رزقاً رزقتنيه من الدُّنيا فبارك لي فيه، وإن كان ينقصني مما لي عندك في الآخرة فلا حاجة لي فيه، فنودي إن هذا الذي أعطيناك جزءٌ من خمسة وعشرين جزءًا لصبرك على إلقائك نَفْسَكَ، فقال: اللهمّ فلا حاجة لي فيما ينقصني مما لي عندك في الآخرة، فرُجعَ الجراد.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي عن رجلٍ من بعض المياسير[3] قال: بينا أنا يوماً في منزلي إذ دخل عليّ خادمٌ لي فقال لي: رجلٌ بالباب معه كتابٌ، فقلت: أَدخله أَو خذ كتابه، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه:

تجنّبــك الــردى ولَقِيــتَ خيــراً ... وسلّمــك المليــكُ مــن الغمــوم
شكــونَ بنــات أَحشــائي إليكــم ... ومــا إن تشتكيــن إلــى ظلــوم
وسَــألتنــي الكتــابَ إليــك فيمــا ... يخــامرهــا ـ فــدَتْــك ـ مـن الهمــوم
وهــنّ يقلــن يــا ابــن الجــود إنــا ... بَــرمنــا مــن مــراعــاة النجــوم
وعنــدك لــو مَنَنْــتَ شفــاءُ سُقْــمٍ ... لأعضــاءٍ دمِيــن مــن الكلُــوم

قال: فلما قرأت الأبيات قلت: عاشق، فقلت للخادم: أدخله، فخرج فلم يَره فارتَبْتُ في أَمره، فجعل الفكر يتردد في قلبي، فدعوت جواريّ كلهن فجمعتهنّ فقلت لهن: ما قصة هذا الكتاب؟ فحلفن لي وقلن: يا سيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سبباً، فمن جاءك به؟ فقلت: قد فاتني وما أردت سؤالكنّ إلاّ إني ظننت له هَوى في بعضكنَّ، فمن عرفت منكنّ أنها صاحبته فهي له، فلتذهب إليه ولتأخذ كتابي إليه، وكتبت كتاباً أشكره على فعله وأَسأله عن حاله، ووضعت الكتاب في موضع من الدَّار، فمكث الكتاب في موضعه حيناً لا يأخذه أحد ولا أَرى الرجل، فاغتممت غمًّا شديداً. ثم قلت: لعله بعض فتياننا، ثم قلت: إن هذا الفتى قد أَخبر عن نفسه بالورع، وقد قنع ممن يحبه بالنظر، فدبرت عليه فحجبت جواريَّ عن الخروج، فما كان يومٌ وبعض الآخر إذ دخل عليّ الخادمُ ومعه كتابٌ قال: أرسل به إليك فلان، وذكر بعضَ أصدقائي ففضضته فإذا فيه مكتوبٌ:

مــاذا أردتَ إلــى روحِ معلّقــةٍ ... عند التراقي[4] وحادي الموت يَحْدُوها

---

(١) الضبع: ما بين الإبط إلى الكتف.
(٢) الرجل: طائفة عظيمة من الجراد.
(٣) جمع ميسور: ذو اليسار والغنى.
(٤) جمع ترقوة: عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق. وعند التراقي كناية عن مشارفة الموت.

حَثَّــتْ حــاديَهــا ظلمــاً فجــدَّ بهــا في السيـر حتـى تـولّـت عـن تـراقيهـا
حجبـت مَـن كـان تحيـا عنـد رؤيتهـا روحــي ومَـن كـان يشفينـي تـرائيهـا
فـالنفسُ تجنَـحُ نحـو الظلـم جـاهلـةً والقلـبُ منـي سليـمٌ مـا يـؤاتيهـا
واللهِ لـو قيـل لـي تـأتـي بفـاحشـةٍ وإن عقبـاك دنيـانـا ومـا فيهـا
لقلـت لا والـذي أخشـى عقـوبَتـه ولا بـأضعـافهـا مـا كنـتُ آتيهـا
لـولا الحيـاء لبُحْنـا بـالـذي كتمـت بنـتُ الفـؤاد وأبـدينـا تَمَنِّيهـا

قال: فبهتّ وقلت: لا أدري ما أَحتال في أمر هذا الرجل، وقلت للخادم: لا يأْتيك أَحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه حتى تدخلَه عليّ، ثم لم أعرف له خبراً بعد ذلك، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذا فتًى قد أقبل نحوي وجعل يطوف إلى جنبي ويلاحظني، وقد صار مثلَ العود، فلما قضيتُ طوافي خرجت وأتبعني فقال: يا هذا أتعرفني؟ قلت: لا أنكرك لسوء، قال: أنا صاحب الكتابين، فما تمالكت أن قبّلت رأسه وبين عينيه وقلت: بأبي أَنتَ وأمي، والله لقد شغلت قلبي وأَطلت غمّي بشدّة كتمانك لأمرك، فهل لك فيما سألت وطلبت؟ قال: بارك الله لك وأقرّ عينيك، إنما أَتيتك أَستَحِلّك[1] من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسُّنّة، والهوى داعٍ إلى كل بلاء، وأستغفر الله العظيم، فقلت: يا حبيبي أُحبُّ أن تصير معي إلى منزلي فآنَسَ بك وتجريَ الْحُرمة بيني وبينك، قال: ليس إلى ذلك سبيل، فقلت: غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار، ولك في كل سنةٍ كذا وكذا، قال: بارك الله فيها، فلولا عهودٌ عاهدت الله عليها وأشياء أكدتها عليّ لم يكن في الدُّنيا شيءٌ أَحبَّ إليّ من هذا الذي تَعْرِضه عليّ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدُّنيا منقطعة، فقلت له: فإذا أبيت أَن تقبل مني ذلك فأخبرني من هي حتى أُكرمهَا لأجلك ما بقيت، فقال: ما كنت لأذكرها لأحدٍ، ثم قام وتركني.

وذكر عبد الملك بن قُرَيب قال: هَوِيَ رجلٌ من النساءِ جاريةً فاشتدّ حبُّه لها، فبعث إليها يخطبها. فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك، فأبى وقال: لا إلاّ ما أحلّ الله، ثم إن محبّته أُلقيت في قلبها فبذلت له ما سأل، فقال: لا والله لا حاجة لي بمن دعوتها إلى الله ودعتني إلى معصيته.

وحكى المبرّدُ عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصده بعضُ أهل الذمة ليقرأ عليه «كتاب سيبويه» وبذل له مائة دينار، فامتنع وردّه، فقلت له: أَتَرُدُّ هذا القدر مع شدّة فاقتك؟ فقال إن هذا الكتاب يشتمل عَلَى ثلاثمائةٍ وكذا وكذا آيةً من كتاب الله، ولست

---

(١) استحله: سأله أن يحله له.

أرى تمكينَ هذا الذّميّ منها غيرةً عَلَى القرآن. فاتفق أن غنّت جاريةٌ بحضرة الواثق بقول العَرْجِيّ:

أَظلـــومُ إن مصـــابَكـــم رجـــلاً أَهـــدى الســـلامَ تحيَّـــةً ظلـــمُ؟

فاختلف أهل مجلسه في إعراب رجلٍ، فمنهم من قال: هو نصب وجعله اسم إن، ومنهم من رفعه عَلى أنه خبرها، والجارية أصرّت عَلَى النصب وقالت: لقّنني إياه كذلك شيخي أبو عثمان المازني، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه، قال: فلمّا مَثَلْتُ بين يديه قال: ممن الرجل؟ قلت: من بني مازن، قال: أَيُّ الموازن؟ أمازن تميم أَم مازن قيس أَم مازن ربيعة؟ قلت: من مازن ربيعة، فكلّمني بكلام قومي فقال لي: با اسمك؟ وقومي يقلبون الميم باء والباءَ ميمًا، فكرهت أَن أُواجهه بلفظة مكر فقلت: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته وأَعجب به فقال: ما تقول في قول الشاعر:

أَظلـــومُ إِن مصـــابَكـــم رجـــلاً أَهـــدى الســـلامَ تحيـــةً ظلـــمُ؟

أَترفع رجلاً أم تنصبه؟ فقلتُ: الوجهُ النصب يا أمير المؤمنين، فقال: ولِمَ ذلك؟ فقلت: لأن مصابكم مصدرٌ بمعنى إِصابتكم، فأَخذ اليزيديُّ في معارضتي، فقلت: هو بمنزلة قولك: إن ضَرْبَكَ زيداً ظلمٌ، فرجلاً مفعول مصابكم ومنصوبٌ به، والدّليل عليه أن الكلام معلّقٌ إلى أن تقول ظلمَ فَيَتِمّ، فاستحسنه الواثق وقال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين بُنَيّة، قال: فما قالت لك عند مسيرك إلينا؟ قلت: أنشدت قول الأعشى:

أَيـــا أَبتـــا لا تَـــرِمْ[1] عنـــدنـــا فـــإِنَّـــا بخيـــرٍ إذا لـــم تـــرم
تـــرانـــا إذا أَضمـــرتـــك[2] البـــلا دُ نُجْفَـــى وتُقَطّـــع مِنَّـــا الـــرَّحِـــمْ

قال: فما قلتَ لها؟ قال: قلت قولَ جرير:

ثقـــي بـــالله ليـــس لـــه شـــريـــكٌ ومِـــن عنـــد الخليفـــة بـــالنجـــاح

فقال: عليّ النجاح إن شاء الله، ثم أمر لي بأَلف دينار، وردّني إلى البصرة مُكرَماً، فقال أبو العباس المبرّد: فلما عاد إلى البصرة قال لي: كيف رأَيتَ يا أَبا العباس؟ رددنا لله مائة دينار فعوَّضَنا الله أَلفاً.

---

(١) رام مكانه: برحه وفارقه.
(٢) أضمرته البلاد: غيبته إما بسفر أو بموت.

فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذة الوصال الحرام

هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان: أحدهُما مَن تمكّن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفَوْتَيْن، واختار أسهلَ العقوبتين. والثاني رجلٌ غلب عقلُه على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العُدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى، وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسفَ الصدّيق صلوات الله وسلامُه عليه بين الأمرين، فاختار عقوبة الدُّنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأةُ: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ. قال ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليَّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تصرِفْ عَنِّي كَيدَهُنّ أصْبُ إِلَيهِنّ وأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣] فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرّأ إلى الله من حوله وقوّته، وأخبر أن ذلك ليس إلاّ بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿وإلاّ تَصرِفْ عَنّي كَيدَهُنَّ أصْبُ إِلَيْهِنّ وَأكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا يَركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفّته، ومتى ركن إلى ذلك تخلّت عنه عصمةُ الله وأحاط به الخذلان. وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبّهم إليه: ﴿وَلَولاَ أنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَد كِدْتَ تَركَنُ إِلَيْهِم شَيئاً قَليلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] ولهذا كان من دعائه: «**يا مُقلِّبَ القُلُوبِ ثبِّت قلبِي على دِينِك**»(١)، وكانت أكثر يمينه«**لاَ ومُقلِّبِ القُلُوبِ**»(٢) كيف وهو الذي أُنزل عليه: ﴿وَاعلَمُوا أن الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقد جرت سنّة الله تعالى في خلقه أن من آثر الألم العاجلَ عل الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدُّنيا المسرّةَ التامّة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله.

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر باب ٧. وابن ماجة في المقدمة باب ١٣. وأحمد في المسند (٢/ ٤، ٨، و٣/ ١١٢، ٢٥٧، و٤/ ١٨٢، و٦/ ٤٥١، ٢٩٤، ٣٠٢، ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان باب ٣، والقدر باب ١٤، والتوحيد باب ١١. والترمذي في النذور باب ١٣. والنسائي في الأيمان باب ١، ٢. وابن ماجه في الكفارات باب ١. والدارمي في النذور باب ١. ومالك في النذور حديث ١٥.

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى: بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي. وكل من خرج عن شيءٍ منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجلُّ منه، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوَّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدانَ طيرٍ خُضر جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت. وتأوي إلى قناديلَ مُعَلَّقَةٍ بالعرش(١)، ولما تركوا مساكنهم له عوَّضهم مساكن طيبةً في جنات عدن ذلك الفوز العظيم.

وقال وهب بن مُنبِّه: كان عابد من عُبّاد بني إسرائيل يتعبّد في صومعة، فجاء رجلٌ من بني إسرائيل إلى امرأةٍ بغيٍّ فبذل لها مالاً وقال: لعلك أن تفتنيه، فجاءته في ليلةٍ مَطيرةٍ فنادته فأشرف عليها، فقالت: آوِني إليك، فتركها وأقبل على صلاته، فقالت: يا عبد الله آوِني إليك، أما ترى الظلمة والمطر؟ فلم تزل به حتى آواها، فاضطجعت قريباً منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعته نفسه إليها، فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار، فتقدّم إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها، فعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعاً وهي تنظر، فَصِعقَت وماتت.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيم بن خالد، حدّثنا أمية بن شبل، عن عبد الله بن وهب قال: لا أَعلمه إلا ذكره عن أبيه أَن عابداً من بني إسرائيل كان في صومعته يتعبَّد، فإذا نفرٌ من الغُواة قالوا: لو استنزلناه بشيءٍ فذهبوا إلى امرأةٍ بَغيٍّ فقالوا لها: تعرَّضي له، فجاءته في ليلةٍ مظلمةٍ مَطيرة فقالت: يا عبد الله آوني إليك، وهو قائم يصلي ومصباحُه ثاقبٌ(٢)، فلم يلتفت إليها، فقالت: يا عبد الله الظُّلمة والغيث(٣)، آوني إليك، فلم تزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلي، فجعلت تتقلّب وتريه محاسنَ خَلقها حتى دعته نفسُه إليها. فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك عَلَى النار، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه فيه حتى احترقت، قال: ثم رجع إلى مُصَلاه، قال: فدعته نفسُه أيضاً، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضاً حتى احترقت أصابعه وهي تنظر إليه فَصَعِقَت فماتت. فلما أصبحوا غَدَوْا لينظروا ما صنعت، فإذا بها ميتة، فقالوا: يا عدوّ الله

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٢١. وأبو داود في الجهاد باب ٢٥. والترمذي في تفسير سورة ٣ باب ١٩. وابن ماجة في الجهاد باب ١٦. وأحمد في المسند (١/ ٢٦٦).

(٢) ثاقب: مضيء.

(٣) الغيث: المطر.

يا مُرائي! وقعت عليها[١] ثم قتلتها، قال: فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه، فأَمر بقتله، فقال: دعوني حتى أُصليَ ركعتين، قال: فصلى ثم دعا فقال: أي ربّ إني أعلم أنك لم تكن لتؤاخذني بما لم أَفعل، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً عَلَى القُرى بعدي، قال: فردّ الله نفسَها فقالت: انظروا إلى يده، ثم عادت ميتة.

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدّثنا شعبة، عن منصور عن إبراهيم قال: بينما رجلٌ عابدٌ عند امرأةٍ إذ عَمَد فضرب بيده عَلَى فَخِذها، فأخذ يده فوضعها في النار حتى نَشَّت[٢].

وقال حُصين بن عبد الرحمن: بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلّواتِ كلَّها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر يتفقَّده إِذا غاب، فعشقته امرأةٌ من أَهل المدينة، فذكرت ذلك لبعض نسائها، فقالت: أَنا أَحتال لك في إدخاله عليك، فقعدت له في الطريق، فلما مرّ بها قالت له: إني امرأةٌ كبيرةُ السنّ ولي شاةٌ لا أستطيع أن أحلِبَها، فلو دخلت فحلبتها لي، وكانوا أَرغبَ شيءٍ في الخير، فدخل فلم يَرَ شاةً، فقالت: اجلس حتى آتيك بها، فإذا المرأَة قد طلعت عليه، فلما رأى ذلك عَمَد إِلى محرابٍ في البيت فقعد فيه فأَرادته[٣] عن نفسه فأبى وقال: اتقي الله أيتها المرأَة، فجعلت لا تَكُفّ عنه ولا تلتفت إلى قوله، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاءوا فقالت: إن هذا دخل عليَّ يريدني عن نفسي، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه، فلما صلّى عمرُ الغداةَ فقده، فبينا هو كذلك إذ جاءُوا به في وَثاقٍ، فلما رآه عمر قال: اللهمّ لا تُخْلِف ظني به، قال: ما لكم؟ قالوا: استغاثت امرأَةٌ بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلامَ عندها فضربناه وأوثقناه، فقال عمر رضي الله عنه: اصْدُقني، فأَخبره بالقصة على وجهها، فقال له عمر رضي الله عنه: أتعرف العجوز؟ فقال: نعم إن رأيتها عرفتها، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهنَّ فجاء بهنّ فعرضهنَّ، فلم يعرفها فيهنّ، حتى مرت به العجوز فقال: هذه يا أمير المؤمنين، فرفع عمر عليها الدِّرَّةَ وقال: اصدُقيني، فقصّت عليه القصة كما قصها الفتى. فقال عمر: الحمد لله الذي جعل فينا شبيهَ يوسف.

وقال أبو الزناد: كان راهبٌ يتعبّد في صومعته فأَشرف[٤] منها فرأى امرأَةً ففتن بها، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها، فنزلت عليه العصمة فقال: رِجْلٌ خرجت من

---

(١) وقعت عليها: جامعتها.

(٢) نشت: احترقت. ونش اللحم: سمع له صوت على المقلى أو في القدر.

(٣) أرادته عن نفسه: راودته عن نفسه.

(٤) أشرف: اطلع.

الصومعة لتعصيَ الله واللهِ لا تعود معي في صومعتي فتركها معلقةً خارجَ الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت، فشكر الله ذلك من صنعه، ومدحه في بعض كتبه بذي الرِّجل.

وقال مُصْعَب بن عثمان: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأةٌ بيتَه، فسألته نفسه فامتنع عليها، فقالت: إذن أفْضَحُك، فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه.

وقال جابر بن نوح: كنت بالمدينة جالساً عند رجل في حاجةٍ، فمر بنا شيخٌ حسن الوجه حسن الثياب، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وَقال: يا أبا محمد أسأل الله أن يعظم أجرك، وأن يربُط عَلَى قلبك بالصبر، فقال الشيخ:

وكان يميني في الوغى[1] ومساعدي ... فأصبحتُ قد خانت يميني ذراعُها
وقد صِرْتُ حيراناً من الثُّكل باهتاً ... أخا كلَفٍ ضاقت عليّ رباعُها[2]

فقال له الرجل: أبشر فإن الصبر مُعَوَّل المؤمن، وإني لأرجو أن لا يَحْرِمَك الله الأجرَ عَلَى مصيبتك، فقلت له: من هذا الشيخ؟ فقال: رجلٌ منا من الأنصار، فقلت: وما قصته؟ قال: أصيب بابنه وكان به بارًّا قد كفاه جميعَ ما يَعنيه، ومَنِيَّتُه عَجَبٌ، قلت: وما كانت؟ قال: أحبته امرأةٌ فأرسلت إليه تشكو حبَّه وتسأله الزيارة، وكان لها زوج فألحِبَ عليه، فأفشى ذلك إلى صديقٍ له، فقال له: لو بعثت إليها بعضَ أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكُفّ عنك، فأمسك، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأةٍ كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب[3] في تهييجه، فعمِلت لها في ذلك، فبينا هو ذاتَ ليلةٍ مع أبيه إذ خطر ذكرُها بقلبه وهاج منه أمرٌ لم يكن يعرفه واختلط[4]، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والأمر يشتدّ، فقال: يا أبه أَدركني بقيد، فقال: يا بنيّ ما قصتك؟ فحدَّثه بالقصة، فقام وقيده وأدخله بيتاً، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ فإذا هو ميّت والدَّم يسيل من مَنْخرِه.

فصل: وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب. قال أبو إدريس الأودي: كان رجلان في بني إسرائيل عابدان، وكانت جاريةٌ جميلةٌ فأحباها وكتم كلٌّ

(١) الوغى: الجلبة والحرب لما فيها من الصوت والجلبة.
(٢) الكلف: حمرة كدرة تعلو الوجه، والبهق، والأمر يحتمل على مشقة وعسر. والرباع: المنازل والديار والأحياء.
(٣) الرغائب جمع رغبة: العطاء الكثير.
(٤) اختلط عقله: فسد.

منهما صاحبَه، واختبأ كلٌّ منهما خلف شجرة ينظر إليها، وقد أطلع[١] كلٌّ منهما سرّه إلى صاحبه، فاتفقا على أن يراوداها، فلما قرُبت منهما قالا لها: قد عرفت منزلتنا في بني إسرائيل، وإنك إن لم تؤاتينا وإلاّ قلنا إذا أصبحنا: إنا أصبنا معك رجلاً، وإنه أفلتنا، وإنا أخذناك، فقالت: ما كنت لأطيعَكما في معصية الله، فأخذاها وقالا: إنا أصبنا معها رجلاً فأُفلتنا، وأقبل نبيٌّ من أنبيائهم فوضعوا لها كرسيًّا فجلس عليه وقال: أقضي بينكم؟ فقالا: نعم اقضِ بيننا، ففرّق بين الرجلين وقال لأحدهما: خلف أي شجرةٍ رأيتها؟ قال: شجرة كذا وكذا، وقال للآخر، فقال: شجرة كذا وكذا غير التي ذكر صاحبُه، فنزلت نارٌ من السماء فأَحرقتهما وأفلتت المرأة.

وقال عبد الله بن المبارك: عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه فأرادها فقالت: إن أباك مسّني، فشغف بها وقال فيها:

أرى مـــاءً وبـــي عطـــشٌ شـــديـــدٌ ... ولكـــن لا سبيـــلَ إلـــى الـــورود[٢]

أمـــا يكفيـــكِ أنـــكِ تملكينـــي ... وأن النـــاس عنـــدي كـــالعبيـــد[٣]

وأنـــك لـــو قطعـــتِ يـــدي ورجلـــي ... لقلـــت مـــن الـــرضـــا أحسنـــت زيـــدي

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال: أوَ كلما قالت جاريةٌ شيئاً تصدّق؟ قال ابن المبارك: فلا أدري ممن أَعجب، من هارون الرشيد حيث رغب فيها، أو منها حيث رغبت عنه، أو من أبي يوسف حيث سوّغ[٤] له إتيانها.

وقال أبو عثمان التيمي: مرّ رجلٌ براهبةٍ من أجمل النساء فافتتن بها، فتلطَّف في الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت: لا تغتر بما ترى وليس وراءه شيءٌ، فأبى حتى غلبها عَلَى نفسها وكان إلى جانبها مَجْمَرة فوضعت يدها فيها حتى احترقت، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قالت: إنك لما قهرتني عَلَى نفسي خِفتُ أن أشاركك في اللذّة فأُشاركك في المعصية ففعلت ما رأيت، فقال الرجل: والله لا أعصي الله أبداً وتاب مما كان عليه.

وذكر الحسين بن محمد الدامغاني أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن أصحابه، فمر بقريةٍ فرأى امرأة جميلة فراودها عن نفسها، فقالت: إني غير طاهر فأتطهر

(١) أطلعه عليه: أظهره عليه.
(٢) إلى الورود: إلى بلوغه والدنو منه.
(٣) انظر صفحة ١٣٥ وفيها نسب هذا البيت إلى ملك مجهول.
(٤) سوغ له: جوزه.

وآتيك، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتابٍ فقالت: انظر في هذا حتى آتيَك، فنظر فيه فإذا ما أعدّ الله للزاني من العقوبة فتركها وذهب، فلما جاء زوجُها أخبرته الخبر، فكره أن يقربَها مخافةَ أن يكونَ للملك فيها حاجةٌ فاعتزلها، فاستعدى[1] عليه أهلُ الزوجة إلى الملك وقالوا إن لنا أرضاً في يد الرجل فلا هو يَعْمُرُها ولا هو يردّها علينا وقد عطّلها، فقال الملك: ما تقول؟ فقال إني رأيتُ في هذه الأرض أَسداً وأنا أتخوّف دخولَها منه، ففهم الملك القصة فقال: اعْمُرْ أرضك فإن الأسد لا يدخلها، ونعم الأرض أرضك.

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجلٍ مُوسِرٍ وكانت جميلة وكانت تُخْطَب فتأبى، فبلغ الرَّجُلَ أنها تريد الحجّ، فاشترى ثلاثمائة بعيرٍ ونادى: من أراد الحج فليَكْتَرِ من فلانٍ، فاكترت منه المرأة، فما كان في بعض الطريق جاءها فقال: إمّا أن تزوّجيني نفسَك، وإمّا غير ذلك، فقالت: ويحك اتّقِ الله! فقال: ما هو إلاّ ما تسمعين، والله ما أنا بجمَّالٍ ولا خرجت إلاّ من أجلك، فلما خافت على نفسها قالت: ويحك انظر أبقي في الرّجال عينٌ لم تنم؟ فقال: لا. ناموا كلّهم، قالت: أفنامت عين ربّ العالمين؟ ثم شهقت شهقةً خرّت ميتة، وخرّ الرجُل مَغْشِيًّا عليه، فلما أفاق قال: ويحي قتلت نفساً ولم أبلغ شهوتي.

وقال وهب بن مُنبّه: كان في بني إسرائيل رجلٌ متعبّدٌ شديدُ الاجتهاد فرأَى يوماً امرأةً فوقعت في نفسه بأَوّل نظرة، فقام مسرعاً حتى لحقها فقال: رويدك يا هذه، فوقفت وعرفته فقالت: ما حاجتك؟ قال: أذاتُ زوجٍ أنت؟ قالت: نعم فما تريد؟ قال: لو كان غير هذا لكان لنا رأْي، قالت: على ذلكَ وما هو؟ قال: عرض بقلبي من أمرك عارض[2]، قالت: وما يمنعك من إنفاذه؟ قال: وتتابعيني على ذلك؟ قالت: نعم، فخلت به في موضعٍ فلما رأته مُجِدًّا في الذي سأل قالت: رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال: لا حَرمك الله ثوابَ فعلك. ثم تنحَّى ناحية فقال لنفسه: اختاري إمّا عمى العين، وإمّا الْجَبُّ[3]، وإما السياحة مع الوحش، فاختارت السياحة مع الوحش، فكان كذلك إلى أن مات.

وأحبَّ رجل جاريةً من العرب وكانت ذاتَ عقل وأدب، فما زال يحتال في أمرها حتى اجتمع معها في ليلةٍ مظلمةٍ شديدة السواد، فحادثها ساعةً ثم دعته نفسه إليها فقال يا هذه قد طال شوقي إليك، قالت: وأنا كذلك، فقال: هذا الليل قد ذهب والصبح قد

(١) استعداه: استعانه واستنصره.

(٢) عرض بقلبي عارض: أي خطر لي خاطر.

(٣) الجب: القطع، والمجبوب الذي استؤصلت مذاكيره.

اقترب، قالت: هكذا تَفْنى الشهوات وتنقطع اللّذّات فقال لها: لو دنوت مني. فقالت: هيهات أخاف البعد من الله، قال: فما الذي دعاك إلى الحضور معي؟ قالت: شقوتي وبلائي، قال لها: فمتى أراك؟ قالت: ما أَنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون، ثم تولت. قال: فاسْتَحْيَيْتُ مما سمعت منها، وأَنشد:

تـوقّـت عـذابـاً لا يطـاق انتقـامُـه ... ولـم تـأتِ مـا تخشـى بـه أن تُعَـذّبـا
وقـالـت مقـالاً كـدتُ مـن شـدة الحيا ... أَهيـم علـى وجهـي حيـاً وتعجُّبـا
أَلا أُفّ للحـبّ الـذي يـورث العمـى ... ويـوردنـا نـاراً لا تَمَـلُّ التلهُّبـا
فـأقبـل عَـوْدي فـوق بَـدْئـي مفكـراً ... وقـد زال عـن قلبـي العمـى فتسـرّبـا

وقال ابن خلف: أخبرني أبو بكر العامري قال: عشقت عاتكة المُرِّيَّة ابن عمٍّ لها، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت:

فمـا طعـمُ مـاءٍ مـن سحـابٍ مُـرَوَّقٍ ... تحـدَّر مـن غـرٍّ طـوالِ الـذوائـب(١)
بِمُنْعَـرَجٍ(٢) أو بطـنِ وادٍ تطلعـت ... عليـه ريـاحُ الصيـف مـن كـل جـانـب
تَـرقـرق مـاءُ المُـزْنِ(٣) فيهـن والتقـت ... عليهـنّ أنفـاس الـرّيـاض الغَـرائـب
نَفَـتْ جِـرْيَـةُ المـاء القـذى عـن متـونـه(٤) ... فليـس بـه عيـبٌ تـراه لشـارب
بـأطيـبَ ممـا يقصـر الطّـرفُ دونـه ... تُقـى الله واستحيـاءُ تلـك العـواقـب

---

(١) تحدر: تنزل. والذوائب جمع ذؤابة والذؤابة من كل شيء أعلاه، وشعر مقدم الرأس.
(٢) منعرج الوادي: منعطفه يمنة ويسرة.
(٣) جمع مزنة: السحاب يحمل الماء.
(٤) القذى: ما يقع بالعين والشراب من تبنة وغيرها. والمتن الظهر، ومن الأرض: ما ارتفع وصلب منها.

في ذم الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى

وقد تقدّم ذكر الآيات في ذلك وبعض ما ورد في السنة.

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميلُ خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمَنْكَح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحثٌّ لها لما يريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذمُّ الهوى مطلقاً، ولا مدحُه مطلقاً، كما أن الغضب لا يُذَمُّ مطلقاً ولا يُحْمَد مطلقاً، وإنما يُذَمُّ المفرط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضارّ. ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أَنه لا يقف فيه على حَدِّ المنتفع به أطلق ذمّ الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر، لأنه يَنْدُرُ من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يَنْدُر في الأمزجةِ المِزاج المعتدل من كل وجه، بل لا بدّ من غلَبة أحد الأخلاط[1] والكيفيات عليه، فحِرْصُ الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجهٍ، وهذا أمرٌ يتعذر وجُودُه إلا في حقّ أفرادٍ من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلاّ ذمّه، وكذلك في السنة لم يجيء إلاّ مذموماً إلا ما جاء مُقيداً كقوله ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**»[2]. وقد قيل: الهوى كمينٌ لاَ يُؤْمنُ. قال الشَّعْبي: وسمي هوًى لأنه يهوي بصاحبه، ومُطْلَقُه يدعو إلى اللّذة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً، فللدنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صاحبَه من ملاحظتها، والمرُوءَةُ والدِّين والعقل ينهى عن لذّةٍ تعقب أَلَماً، وشهوةٍ تورث ندماً، فكلٌّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب، ألا ترى أن الطفل يُؤْثر ما يهوى وإن أدَّاه إلى التلف لضعف ناهي

(١) أخلاط الإنسان: أمزجته الأربعة.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٣) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٦٧) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠٨٤) وابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٢٨٩) والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٩).

العقل عنده، ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أدّاه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدِّين، ومن لا مُرُوءة له يُؤثر ما يهواه وإن ثَلَم[1] مُرَوءته أو عدمها لضعف ناهي المُرُوءة، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى: لو علمتُ أن الماء البارد يَثْلِم مُرُوءتي لما شربته.

ولمّا امتُحن المكلّفُ بالهوى من بين سائر البهائم وكان كلّ وقتٍ تحدُث عليه حوادثُ جُعل فيه حاكمان: حاكم العقل وحاكم الدِّين؛ وأُمر أن يَرفع حوادثَ الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرّن على دفعِ الهوى المأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه. وليعلم اللبيبُ أنّ مدمني الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذُّون بها. وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بُدّ لهم منه، ولهذا ترى مدْمن الخمر والجماع لا يلتذّ به عُشُرَ معاشر التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان، غير أن العادة مقتضيةٌ ذلك فيُلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة، ولو زال عنه رَيْن[2] الهوى لعلم أنه قد شَقِيَ من حيث قدّر السعادة، واغتمَّ من حيث ظن الفرح، وألِم من حيث أراد اللذّة. فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نَال الحَبّة ولا هو تخلص مما وقع فيه، فإن قيل: فكيف يتخلص مِنْ هذا مَنْ وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلُّص بعون الله وتوفيقه له بأُمور:

(أحدُها): عزيمة حرٍّ يغار لنفسه وعليها.

(الثاني): جرعة صبرٍ يصبر نفسه عَلى مرارتها تلك الساعة.

(الثالث): قوّة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعةُ كأنها صبر ساعة، وخير عيشٍ أدركه العبد بصبره.

(الرابع): ملاحظته حسنَ موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة.

(الخامس): ملاحظته الألم الزائد على لذّة طاعة هواه.

(السادس): إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خيرٌ وأَنفع له من لذّة موافقة الهوى.

(السابع): إيثاره لذَّةَ العفة وعزَّتها وحلاوتها على لذّة المعصية.

(الثامن): فرحه بغلَبة عدوّه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمِّه وهمِّه حيث لم ينل

---

(١) ثلم الجدار وغيره: أحدث فيه شقاً.

(٢) الرين: الغطاء والحجاب الكثيف، والصدأ يعلو الشيء الجلي، والدنس وما غطى على القلب من القسوة للذنب بعد الذنب.

منه أمنيته، والله تعالى يحبّ من عبده أن يراغم[1] عدوّه ويغيظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلاَ يَطَؤُونَ مَوطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ومَنْ يُهَاجِرْ في سَبِيلِ اللَّهِ يَجدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي مكاناً يراغم فيه أعداءَ الله. وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومُراغمتهم.

(التاسع): التفكُّر في أنه لم يُخلَقْ للهوى وإنما هُيِّىءَ لأمر عظيم لا يناله إلاَّ بمعصيته للهوى كما قيل:

قد هيّأوك لو فَطِنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[2]

(العاشر): أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أَحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضرّه وما ينفعه، فيُؤْثر النافع عَلَى الضارّ، والإنسان أُعطي العقلَ لهذا المعنى، فإذا لم يميِّز به بين ما يضرُّه وما ينفعه أَو عرف ذلك وآثر ما يضرُّه كان حال الحيوان البهيم أحسنَ منه، ويَدُلُّ على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمَشْرَب والمنكح ما لا يناله الإنسان مع عيشٍ هنيءٍ خالٍ عن الفكر والهمِّ، ولهذا تُساقُ إلى مَنْحَرِها[3] وهي منهمكةٌ عَلى شهواتها لفقدان العلم بالعواقب، والآدمي لا يناله ما يناله الحيوان لقوّة الفكر الشاغل، وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك، فلو كان نيل المشتهى فضيلةً لما بُخس منه حقُّ الآدمي الذي هو خلاصة العالم، ووفر منه حظُّ البهائم، وفي توفير حظ الآدمي من العقل والعلم والمعرفة عِوَضٌ عن ذلك.

(الحادي عشر): أن يسير بقلبه في عواقب الهوى فيتأمّل كم أفاتت معصيتُه[4] من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم من أكلةٍ منعت أكلات، وكم من لذّةٍ فوّتت لذّات، وكم من شهوة كسرت جاهاً، ونكست رأساً، وقبّحت ذكراً، وأورثت ذمّا، وأعقبت ذلاًّ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء، غير أن عينَ صاحب الهوى عمياء.

(الثاني عشر): أن يتصوّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصوّر حالَه بعد قضاء الوطر[5] وما فاته وما حصل له.

---

(١) راغم فلاناً: هجره وعاداه.

(٢) في لامية العجم للطغرائي: قد رشحوك.

(٣) المنحر: موضع النحر في الحلق، والمكان تذبح فيه الذبائح، والجمع مناحر. الهمل: المتروك بلا عناية ولا رعاية.

(٤) لعل الصواب: كم أفاتت طاعته من فضيلة لأن الظاهر أن الضمير عائد على الهوى الخ.

(٥) الوطر: الحاجة. أو حاجة لك فيها هم وعناية. والجمع أوطار.

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميز لما تجني عواقبه

(الثالث عشر): أن يتصوّر ذلك في حقِّ غيره حق التصوُّر، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

(الرابع عشر): أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأَل عنه عقله ودينَه يُخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا أعجب أحدَكم امرأة فليذكر مَنَاتِنَهَا، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين:

لو فكَّر العاشقُ في منتهى حسنِ الذيْ يسبيه[1] لم يَسْبِه

لأن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر الحال الحاضرة الملازمة، والشاعر حال على أمر متأخر.

(الخامس عشر): أن يأْنفَ لنفسه من ذلّ طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحدٌ هواه قط إلاّ وجد في نفسه ذُلاًّ، ولا يغتر بصولة[2] أتباع الهوى وكِبْرهم فهم أذلُّ الناس بواطنَ، قد جمعوا بي فصيلَتي الكبرِ والذلّ.

(السادس عشر): أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البَتَّةَ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

(السابع عشر): أن يأْنفَ لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمةٍ وهمةٍ وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد، ومتى أحسّ منه بقوّة عزمٍ وشرفِ نفسٍ وعلوِّ همةٍ لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة.

(الثامن عشر): أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلاّ أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبُه من جملة أَهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحقّ، وإن وقع في القِسْمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجَوْر، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يُوَلِّي بهواه ويعزِل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أَن تكون طاعة وقربةً، فما قارن شيئاً إلا أفسده.

(التاسع عشر): أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ عَلَى ابن آدم إلا من باب هواه،

---

(١) يسبيه: يأسره.

(٢) الصولة: السطوة أو القدرة.

فإنه يُطِيفُ به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلاّ من باب الهوى، فيسري معه سرَيان السمّ في الأعضاء.

(العشرون): أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع الوحي، وأتباع الهوى، وهذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائرِه.

(الحادي والعشرون): أن الله سبحانه وتعالى شبَّه أتباع الهوَى بأخسّ الحيوانات صورةً ومعنى، فشبّههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وبالحُمر تارةً كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١].

(الثاني والعشرون): أن متَّبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إماماً ولا متبوعاً، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته، أما عزلُه فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً. وكل من اتبع هواه فهو ظالمٌ كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩] وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨].

(الثالث والعشرون): أن الله سبحانه وتعالى جعل متّبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣، والجاثية: ٢٣] في موضعين من كتابه، قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه، وقال أيضاً: المنافق عبد هواه لايهوى شيئاً إلا فعله.

(الرابع والعشرون): أن الهوى هو حِظارُ[1] جهنم المحيطُ بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «حُفتِ الجَنَّةُ بالْمكارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ».

---

(١) الحظار: كل شيء حجز بين شيئين كحائط البستان. وحظار الأرض المحاط بها.

وفي الترمذي (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «لمَّا خَلَقَ اللّٰهُ الجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: انظر إلَيْهَا وَإِلٰى مَا أَعددْت لأَهْلِهَا فِيهَا، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلٰى مَا أَعَدَّ اللّٰهُ لأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلاّ دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالمَكَارِهِ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالمَكَارِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِك لَقَدْ خَشِيتُ أَن لا يَدخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذهَبْ إِلٰى النّارِ فانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلٰى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلٰى مَا أَعَدَ اللّٰهُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، فقالَ: وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيدْخُلَهَا، فأَمَرَ بِهَا فحُفّتْ بالشّهوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فانظُرْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فإذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بالشَّهوَاتِ، فَرَجعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزّتك لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُو مِنْها أَحَدٌ» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(الخامس والعشرون): أنه يُخاف عَلَى من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِما جِئْتُ بِهِ»(٢). وصحّ عنه أنه قال: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَواتُ الْغَيِّ في بُطُونِكُم وَفُرُوجِكُم وَمَضَلاّتُ الهَوَى»(٣).

(السادس والعشرون): أن اتباع الهوى من المهلكات قال ﷺ: «ثَلاَثٌ مُنْجِياتٌ وثَلاَثٌ مُهْلِكاتٌ: فأَمَّا المُنْجِياتُ فتَقوٰى اللّٰهِ عَزّ وجلَّ في السِّرِّ والعَلانيةِ، والقَولُ بالحَقِّ في الرِّضا والسَّخَطِ، والقَصْدُ في الغِنى والفَقْرِ. وأمّا المُهْلِكاتُ فَهوًى مُتَّبَعٌ، وشُحٌّ مُطَاعٌ، وإِعْجابُ المَرْءِ بنَفْسِهِ»(٤).

(السابع والعشرون): أن مخالفة الهوى تورث العبد قوّةً في بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: الغالبُ لهواه أشدُّ من الذي يفتح المدينة وحدَه. وفي الحديث الصحيح المرفوع: «لَيْسَ الشّديدُ بالصُّرَعَةِ ولكن الشّدِيد الّذي يَملكُ نفْسَهُ عنْدَ الغضَبِ»(٥) وكلما تمرّن على مخالفة هواه اكتسب قوّة إلى قوّته.

(الثامن والعشرون): أن أغزر الناس مُرُوءَةً أشدُّهم مخالفة لهواه. قال معاوية: المُرُوءَة ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتّباع الهوى يُزمن(٦) المُرُوءَة، ومخالفته تنعشها.

---

(١) في صفة الجنة باب ٢١.

(٢) تقدم تخريجه قبل صفحات.

(٣) تقدم هذا الحديث بسنده في صفحة ٢٨٤.

(٤) تقدم في صفحة ٢٨٥ معزواً إلى المسند وغيره.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب ١٠٢. ومسلم في البر حديث ١٠٧ و١٠٨. ومالك في حسن الخلق حديث ١٢. وأحمد في المسند (١/ ٣٨٢، و٢/ ٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧).

(٦) يزمن: يذهب ويضعف.

(التاسع والعشرون): أنه ما من يومٍ إلا والهوى والعقل يعتلجان[1] في صاحبه، فأيهما قوِيَ على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له. قال أبو الدّرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله[2]، فإن كان عمله[2] تبعاً لهواه فيومُه يوم سوء، وإن كان هواه تَبعاً لعمله[2] فيومه يوم صالح.

(الثلاثون): أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتّباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أَشكل عليك أَمران لا تدري أيها أرشد فخالف أقرَبهما من هواك، فإن أقربَ ما يكون الخطأ في متابعه الهوى.

(الحادي والثلاثون): أَن الهوى داء ودواؤه مخالفته، قال بعض العارفين: إن شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته.

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى: البلاءُ كلُّه في هواك، والشفاءُ كلُّه في مخالفتك إياه.

(الثاني والثلاثون): أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظمَ من جهاد الكفّار فليس بدونه، قال رجلٌ للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد، أيّ الجهاد أفضل؟ قال: جهادُك هواك. وسمعت شيخنا يقول: جهادُ النفس والهوى أصلُ جهاد الكفّار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى[3] يخرج إليهم.

(الثالث والثلاثون): أن الهوى تخليطٌ[4] ومخالفته حِمْيَةٌ[5]، ويخاف على من أفرط في التخليط وجانَبَ الحِمْيَة أن يصرعَه داؤه. قال عبد الملك بن قُرَيب: مررت بأعرابي بِهِ رمَدٌ شديد ودموعه تسيل على خدَّيه فقلت: أَلا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، وإذا أُمر لا يأتمر، فقلت ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: بلى ولكني أحتمي، إن أهل النار غلبت شهوتهم حِمْيَتَهُم فهلكوا.

(الرابع والثلاثون): أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج[6] بأنّ الله لو وفَّق لكان كذا وكذا، وقد سدَّ عَلى نفسه طرُق التوفيق باتباعه هواه. قال الفُضَيْل بن عياض: من استحوذ عليه الهوى واتباعُ الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق.

---

(١) يعتلجان: يصطرعان.
(٢) كذا.. ولعل الصواب: عقله.
(٣) كذا.. ولعل الصواب: ثم.
(٤) التخليط: التخبط والاضطراب.
(٥) الحمية: الامتناع مما يضر والوقاية منه.
(٦) اللهج بالشيء: الولوع به، وقد لهج به إذا أغري به فثابر عليه.

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب، والشهوة، والرغبة، والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلاً غضب فقتل أُمه، ورجلاً عشق فتنصّر. وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهـوى هـوى الـدِّيـن واللَّـذَّاتُ تُعجبنـي ... فكيـف لـي بهـوى اللـذّاتِ والـديـن

فقالت: دع أحدهما تَنَلِ الآخر.

(الخامس والثلاثون): أن من نصر هواه فسد عليه عقلَه ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانه في أمرٍ من الأمور، فإنه يفسده عليه.

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه: يا فلان إذا نُصر الهوَى ذهب الرأي. وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجلُ في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد ـ أو قال نَسِيَه ـ. فقال الشيخ: هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم.

(السادس والثلاثون): أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيّق عليها في قبره ويوم مَعاده، ومن ضيّق عليها بمخالفة الهوى وسّع عليها في قبره ومَعاده، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ [الدهر: ١٢]. فلما كان في الصبر الذي هو حبسُ النفس عن الهوى خشونةٌ وتضييقٌ، جازاهم على ذلك نعومةَ الحرير وسَعَةَ الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.

(السابع والثلاثون): أن اتّباع الهوى يصرع العبدَ عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين، كما صرع قلبَه في الدُّنيا عن مرافقتهم. قال محمد بن أبي الورد: إن الله عزَّ وجلَّ يوماً لا ينجو من شرّه منقادٌ لهواه، وإنَّ أَبطأ الصَّرْعى نهضةً يوم القيامة صريعُ شهوته، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرُها حظاً من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر. والعقلُ مَعْدِن، والفكر مُعَوَّل.

(الثامن والثلاثون): أن اتّباع الهوى يَحُلُّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدّها وتقوّيها. والعزائم هي مركبُ العبد الذي يسيرهُ إلى الله والدَّار الآخرة، فمتى تعطّل المركوبُ أوشك أن ينقطع المسافر. قيل ليحيى بن مُعاذ: مَن أصحُّ الناس عزماً؟ قال: الغالبُ لهواه. ودخل خلف بن خليفة عَلَى سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جاريةٌ يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً، فقال له سليمان: كيف ترى هذه الجارية؟ فقال: أصلح الله الأمير ما رأت عيناي أحسنَ منها قطُّ، فقال له: خذ بيدها، فقال: ما كنت

لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدّة عجبه بها، فقال: ويحك خذها عَلَى شدّة عجبي بها ليعلم هواي أني له غالب، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول:

لقـد حبـانـي وأعطـانـي وفضّلنـي ... عـن غيـر مسـألـةٍ منـه سليمـان
أعطـانـي البـدرَ خَـوْداً[1] فـي محـاسنهـا ... والبـدرُ لـم يُعْطِـه إنـسٌ ولا جـانُ
ولسـت يـومـاً بنـاسٍ فضلَـه أبـداً ... حتـى يغيّبنـي لحـدٌ وأكفـانُ

(التاسع والثلاثون): أن مثلَ راكب الهوى كمثل راكب فرسٍ حديدٍ صعب جموح لا لجام له فيوشك أن يصرعَه فرسُه في خلال جَرْيه به أو يسيرَ به إلى مَهْلِكٍ. قال بعض العارفين: أَسرعُ المطايا إلى الجنة الزهدُ في الدُّنيا، وأسرعُ المطايا إلى النار حبُّ الشهوات، ومَن استوى عَلَى متن هواه أسرع به إلى وادي الهلَكات. وقال آخر: أشرف العلماء من هرب بدينه من الدُّنيا، واستصعب قياده على الهوى. وقال عطاء: من غلب هواه عقلَه وجزعُه صبرَه افتضح.

(الأربعون): أن التوحيد واتباع الهوى متضادّان، فإن الهوى صَنَمٌ ولكل عبدٍ صَنَمٌ في قلبه بحسب هواه. وإنما بعث اللّهُ رسلَه بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مرادُ الله سبحانه كسر الأصنام المجسَّدة وتركَ الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرُها من القلب أوّلاً. قال الحسن بن علي المطّوّعي: صَنَمُ كلّ إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحقّ اسم الفُتوَّة. وتأمّل قولَ الخليل ﷺ لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلبُ ويعكفُ عليها ويعبدها من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

(الحادي والأربعون): أن مخالفةَ الهوى مَطْرَدَة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته مجلَبَةٌ لداء القلب والبدن، فأمراضُ القلب كلها من متابعة الهوى، ولو فتشت عَلى أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركُه.

(الثاني والأربعون): أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبَه وبدنَه وجوارحه فاستراح وأراح. قال أبو بكر الورّاق: إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخُلُق، وإذا ساء الخلقُ أبغضه الخلق وأبغضهم، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشرّ والعداوة وترك الحقوق وغيرها.

---

(١) الخود: الشابة الناعمة.

(الثالث والأربعون): أَن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوًى وعقلاً فأيهما ظهر توارى الآخر، كما قال أبو علي الثقفي: من غلبه هواه توارى عنه عقلُه، فانظر عاقبة من استتر عنه عقلُه وظهر عليه خلافه. وقال علي بن سهل رحمه الله: العقل والهوى يتنازعان، فالتوفيقُ قرينُ العقل، والخذلان قرينُ الهوى، والنفس واقفةٌ بينهما، فأيهما غلب كانت النفس معه.

(الرابع والأربعون): أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب مَلِكَ الجوارح، ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدَّتين؛ فالحقُّ والزهدُ والهدى سلطانٌ، وأعوانُه الملائكة وجيشُه الصدقُ والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل سلطانٌ، وأعوانُه وجنده وعُدَّته اتّباعُ الهوى، والنفسُ واقفةٌ بين الجيشين. ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوّه عليه فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوّها عُدَّةً من قِبَلها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب.

(الخامس والأربعون) أن أعدى عدوٍّ للمرء شيطانُه وهواه، وأصدق صديق له عقلُه والملك الناصح له، فإذا اتّبع هواه أعطى بيده لعدوّه واستأسر له وأشمته به وساء صديقه ووليَّه، وهذا هو بعينه هو جَهْدُ البلاء، ودَرْكُ الشقاء، وسوءُ القضاء، وشماتة الأعداء.

(السادس والأربعون) أن لكل عبدٍ بدايةً ونهايةً، فمن كانت بدايتُه اتباعَ الهوى، كانت نهايته الذلَّ والصغارَ والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يُعَذَّب به في قلبه كما قال القائل:

مـآربُ كـانـت فـي الشبـاب لأهلهـا عِـذاباً فصـارت فـي المشيـب عَـذابـا

فلو تأَملت حال كلّ ذي حال سيئة زَرِيَّة لرأيت بدايتَه الذهابَ مع هواه وإيثاره عَلَى عقله، ومن كانت بدايتُه مخالفة هواه وطاعةَ داعي رشده كانت نهايتُه العزَّ والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدَّقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته. وقيل للمهلَّب بن أبي صُفْرة: بِمَ نلتَ ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدُّنيا ونهايتها، وأما الآخرةُ فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه، والنارَ نهاية من اتبع هواه.

(السابع والأربعون): أن الهوى رِقٌّ في القلب، وغُلٌّ في العنق، وقيد في الرِّجلِ، ومُتابعه أسيرٌ لكل سيِّىء الملكة، فمن خالفه عَتَقَ من رِقِّهِ وصار حرًّا، وخلع الغُلَّ من

عنقه والقيدَ من رجله وصار بمنزلة رجلٍ سالمٍ لرجل، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون[١].

رب مستـــــور سَبَتْـــــه شهـــــوةٌ فتعـــــرى ستـــــرُه فـــــانهتكـــــا
صـــاحـــبُ الشهـــوة عبـــدٌ فـــإذا غلـــبَ الشهـــوةَ أضْحـــى مَلِكـــا

وقال ابن المبارك:

ومـــن البـــلاء وللبـــلاء عـــلامـــة أن لا يُـــرى لـــكَ عـــن هـــواك نـــزوعُ
العبـــدُ عبـــدُ النفـــس فـــي شهـــواتهـــا والحـــرُّ يشبـــع تـــارةً ويجـــوع

(الثامن والأربعون): أن مخالفَة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم عَلَى الله لأبَرَّه، فيقضي له من الحوائج أضعافَ أَضعاف ما فاته من هواه، فهو كمن رغب عن بعرةٍ فأُعْطِيَ عِوَضَها درةً. ومتبعُ الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيءِ ما لا نسبة لما ظفر له من هواه الْبَتَّة، فتأمَّل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانِه وقدمِه ونفسِه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام. وقال عبد الرحمن بن مهدي: رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمر بي إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حِسّاً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد. فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يوماً؟ قلت: إي والله، فأخذني النِّثار[٢] من كل جانب.

وقال عبد الرزاق: بعث أبو جعفر الخشَّابين حين خرج إلى مكة وقال: إن رأيتم سفيان فاصلُبوه، فجاءوا ونصبوا الخشب، وطُلبَ ورأسُه في حِجْر الفضيل فقال له أصحابه: اتقِ الله عز وجل ولا تشمت بنا الأعداء، فتقدّم إلى الأستار ثم أخذها بيده وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر، فمات قبل أن يدخل مكة، فتأمل عاقبةَ مخالفة الهوى كيف أقامه في هذا المقام.

(التاسع والأربعون): أن مخالفة الهوى توجب شرفَ الدنيا وشرف الآخرة وعزَّ الظاهر وعزَّ الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في الظاهر وفي الباطن،

(١) تشاكس القوم: تعاسروا وتخالفوا. والشكس: العسر السيّىء الخلق قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾.
(٢) النثار: ما نثر في حفلات السرور من حلوى ونقود، وبالضم ما تناثر من الشيء.

وإذا جمع الله الناس في صعيدٍ واحدٍ نادى منادٍ: ليعلمن أهلُ الجمع من أهل الكرم اليوم، لِيَقُم المتقون، فيقومون إلى محل الكرامة، وأتباع الهوى ناكسو رؤوسهم في المَوقف في حرّ الهوى وعَرَقه وألمه، وأولئك في ظل العرش.

(الخمسون): أنك إذا تأمَّلت السبعةَ الذين يظلهم الله عز وجل في ظلّ عرشِه يوم لا ظلّ إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى، فإن الإمام المسلّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشابّ المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفةُ هواه لم يقدر على ذلك، والرجلَ الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفةُ الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصّدقَ المُخفِي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعته المرأة الجميلةُ الشريفةُ فخاف الله عزَّ وجلَّ وخالف هواه، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته، إنما أوصله إلى ذلك مخالفةُ هواه، فلم يكن لحرّ الموقف وعَرَقِه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحابُ الهوى قد بلغ منهم الحَرُّ وَالْعَرَقُ كُلَّ مبْلَغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى، فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمَّارة بالسوءِ وأن يجعل هوانا تَبَعاً لما يحبُّه ويرضاه، إنه على كل شيءٍ قدير، وبالإجابة جدير.

الفهرست

مقدمة المؤلف ٣
الباب الأوّل: في أسماء المحبة ١٣
الباب الثاني: في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها ١٥
الباب الثالث: في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض ٣٩
الباب الرابع: في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجدا بالمحبة ولأجلها ٤١
الباب الخامس: في دواعي المحبة ومتعلَّقها ٤٩
الباب السادس: في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه ٦٧
الباب السابع: في ذكر مناظرة بين القلب والعين ٧٧
الباب الثامن: في ذكر الشُّبَهِ التي احتج بها من أَباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه ٨١
الباب التاسع: في الجواب عما احتجّت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج ٨٩
الباب العاشر: في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه ٩٩
الباب الحادي عشر: في العشق وهل هوا اضطراريٌّ خارجٌ عن الاختيار، أو أمرٌ اختياريٌّ، واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه ١٠٣
الباب الثاني عشر: في سكرة العشاق ١٠٧
الباب الثالث عشر: في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان ١١١
الباب الرابع عشر: فيمن مدح العشق وتمناه، وغَبَط صاحبه على ما أُوتيه من مناه . ١٢١
الباب الخامس عشر: فيمن ذمَّ العشق وتبرَّم به، وما احتجَّ به كل فريق عَلَى صحة مذهبه ١٣١
الباب السادس عشر: في الحكم بين الفريقين، وفصل النزاع بين الطائفتين ١٤٣

الباب السابع عشر: في استحباب تخيُّر الصوَر الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله ١٤٧
الباب الثامن عشر: في أن دواءَ المحبين، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين ١٥٣
الباب التاسع عشر: في ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه عَلَى كل حال ١٥٩
الباب العشرون: في علامات المحبة وشواهدها ١٨٥
الباب الحادي والعشرون: في اقتضاء المحبة إفرادَ الحبيب بالمحب، وعدمَ التشريك بينه وبين غيره فيه ٢٠٥
الباب الثاني والعشرون: في غيرة المحبين عَلَى أحبابهم ٢٠٩
الباب الثالث والعشرون: في عفاف المحبين مع أحبابهم ٢٢٥
الباب الرابع والعشرون: في ارتكاب سبل الحرام، وما يفضي إليه من المفاسد، والآلام ٢٥١
الباب الخامس والعشرون: في رحمة المحبين، والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يُبيحه الدين ٢٦٧
الباب السادس والعشرون: في ترك المحبين أدنى المحبوبَيْن رغبةً في أعلاَهما ٢٧٩
الباب السابع والعشرون: فيمن ترك محبوبه حراماً فبُذل له حلالاً، أو أعاضه الله خيراً منه ٣١٣
الباب الثامن والعشرون: فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، عَلى لذّة الوصال الحرام ٣٢٣
الباب التاسع والعشرون: في ذمّ الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى ٣٣١

وقال سفيان بن أحمد المَصِّيصِي : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سُجِّي[1] نحو القبلة ، فقامت جاريته تَغْمِز رجليه فقال : اغْمِزيهما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرامٍ قطُّ .

وقال محمد بن إسحاق : نزل السريُّ بن دينار في دَربٍ بمصر وكانت فيه امرأة جميلةٌ فتنت الناس بجمالها ، فعلمت به المرأة فقالت : لأفتننَّه ، فلما دخلت من باب الدار تكشَّفَت وأظهرت نفسها ، فقال : مالك ؟ فقالت : هل لك في فراشٍ وَطِيّ وعيشٍ رخيّ ؟ فأقبل عليها وهو يقول :

وكم ذي معَاصٍ نال منهنَّ لذَّةً ... ومات فخلَّاها وذاق الدواهيا
تَصَرَّمُ[2] لذَّاتُ المعاصي وتنقضي ... وتبقى تِبَاعاتُ[3] المعاصي كما هيا
فيا سَوْءَتا واللَّهُ راءٍ وسامعٌ ... لعبدٍ بعين الله يَغْشى المعاصيا

وقال عمر بن بكير : قال أعرابي : علقتُ امرأةً كنت آتيها فأحدّثها سنين وما جرت بيننا ريبةٌ قطّ ، إلاّ أني رأيت بياضَ كفها في ليلةٍ ظلماء فوضعت يدي عَلَى يدها ، فقالت : مَهْ[4] لا تفسد ما بيني وبينك ، فإنه ما نُكح حبٌّ قطّ إلاّ فسد . قال : فقمت وقد تصبَّبْتُ عرَقاً حياءً منها ولم أَعُدْ إلى شيء من ذلك .

وذكر أبو الفرج وغيرُه أن امرأةً جميلةً كانت بمكة ، وكان لها زوجٌ ، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها : أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتتن به ؟ قال : نعم ، قالت : مَنْ ؟ قال : عبيد بن عمير ، قالت : فائذن لي فيه فَلأفتننَّه ، قال : قد أذِنت لك ، قال : فأتته كالمستفتية ، فخلا معها في ناحيةٍ من المسجد الحرام فأسفرت عن وجهٍ مثلِ فلقة القمر ، فقال لها : يا أَمَةَ الله

---

(١) سجي الموت : مدّ عليه ثوباً وغطاه به .
(٢) تصرم : تنقضي وتذهب .
(٣) تباعات : كل ما يتبع العمل وينجم عنه من خير أو شر .
(٤) مه : اسم فعل مبني على السكون .

استتري ، فقالت : إني قد فتنت بك قال : إني سائلكِ عن شيء فإن أنت صدقتِني نظرت في أمرك قالت : لا تسألني عن شيء إلاّ صدقتك قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليَقبِض روحك أكان يسرّكِ أن أقضي لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهمّ لا ، قال : صدقت قال : فلو دخلتِ قبرك وأُجلست للمساءلة أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : فلو أن الناس أُعْطُوا كتبَهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو أردت المَمَرّ على الصراط ولا تدرين هل تَنجين أو لا تَنجين أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخفّ ميزانك أم يثقل أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : فلو وقفتِ بين يدي الله للمساءلة أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : إتّـقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك ، قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنعت ؟ قالت : أنت بطّال ونحن بطّالون ، فأقبلت علَى الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : مالي ولعبيد بن عمير أفسد عَلَيَّ امرأتي ، كانت في كل ليلةٍ عروساً فصيَّرها راهبة .

وقال سعيد بن عبداللَّه بن راشد : علقت فتاةٌ من العرب فتىً من قومها وكان عاقلاً فجعلت تكثر التردُّد إليه ، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيَّرت واحتالت في أن خلا لها وجهُه ، فتعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه فتزايد المرض حتى سقطت على الفراش ، فقالت له أُمُّهُ : إنَّ فلانة قد مرضت ولها علينا حق ، قال : فعوديها وقولي لها : يقول لك ما خبرك ؟ فسارت إليها أُمه وسألتها ما بك ؟ فقالت : وجعٌ في فؤادي هو أصل علتي ، قالت : فإن ابني يسألك عن علتك ، فتنفَّست الصُّعَدَاءَ ثم قالت :

يســائلني عن علَّتي وهــو علّتي   عجيبٌ من الأنباء جاء بـه الخبر

فانصرفت إليه أمه وأخبرته وقالت له : تريد أن تصير إليك ؟ فقال : نعم ، فذكرت أمه لها ذلك فبكت وقالت :

ويُبعدني عن قربه ولقائه فلما أذاب الجسمَ منّي تعطّفا
فلست بآتٍ موضعاً فيه قاتلي كفاني سَقاماً أن أموت تلهفا

وتزايدت بها العلّة حتى ماتت .

وأحبَّ رجلٌ من أهل الكوفة يسمى أبا الشعثاء امرأةً جميلة ، فلمّا علمت به كتبت إليه وقالت :

لأبي الشعثاء حبٌّ دائمٌ ليس فيه تهمةٌ لمُتَّهَمْ
يا فؤادي فازدجر[1] عنه ويا عَبَثَ الحبّ به فاقعد وقُمْ
جاءني منه كلامٌ صائدٌ ورسالاتُ المحبين الكلمْ
صائدٌ يأمنه غزلانُه مثل ما يأمن غزلانُ الحَرَمْ
صلْ إن أحببت أن تُعْطي المنى يا أبا الشعثاء لله وصمْ
ثم ميعادُك بعد الموت في جنة الخلد إنِ اللّهُ رَحِمْ
حيث أَلقاك غلاماً ناشئاً ناعماً قد كَمُلَت فيه النعم

وقال الأصمعي عن أبي سفيان بن العلاء قال : بَصُرت الثريّا بعمر بن أبي ربيعة وهو يطوف حول البيت ، فتنكرت وفي كفها خَلُوقٌ[2] فزَحَمَته فأثر ٱلْخَلُوق في ثوبه : فجعل الناس يقولون : يا أبا الخطاب ما هذا زِيُّ الحرم فأنشأ يقول :

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى جنةَ الخلد مَن ملاني خَلُوقا
مسحت كفها بجيب قميصي حين طُفنا بالبيت مسحاً رفيقا

فقال له عبدالله بن عمر : مثل هذا القول في هذا الموضع ؟ فقال له : يا أبا

(١) ازدجر وانزجر : بمعنى زجره أي نهاه وعنفه .
(٢) الخلوق : ضربٌ من الطيب وأكثر أجزائه من الزعفران .

عبدالرحمن قد سمعت مني ما قد سمعت فورَبّ هذه البَنِيَّةِ ما حللت إزاري عَلَى حرامٍ قطّ .

وقيل لليلى الأخيلية : هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله ؟ قالت : إذاً أكون منسلخةً من ديني إن كنت ارتكبت عظيماً ثم أُتبعه بالكذب .

وقال العُتْبي : خرجت إلى المِرْبَد فإذا بأعرابي غَزِلٍ فمِلْت إليه ذكرت النساء فتنفَّس ثم قال : يا ابن أخي إن من كلامهن لَمَا يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ . فقلت : صف لي نساءكم ، فقال : نساءَ الحي تريد ؟ قلت : نعم فأنشأ يقول :

رُجُحٌ[1] وَلَسْنَ من اللواتي بالضحى ... لِذيولهنَّ عَلَى الطريق غبار
يأنسنَ عند بعولهن إذا خَلَوْا ... وإذا هُم خرجوا فهن خِفارُ[2]

قال العتبي : فأخبرت به أبي قال : تدري من أين أُخذ قوله : وإن من كلامهن ما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ؟ قلت: لا ، قال: من قول القطامي :

يَقْتُلْنَنا بحديثٍ ليس يعلمه ... من يتّقينَ ولا مكنونُه بادي
فهنَّ يُبدين من قول يُصِبْنَ به ... مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي[3]

وهذه الطائفةُ لعفتهم أَسباب أقواها إجلال الجبَّار ، ثم الرغبةُ في الحور الحسان في دار القرار ، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرَّم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك ، قال صلى الله عليه وسلم : «مَنْ يَلْبس الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ[4] ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا

---

(١) يقال امرأة رجاح ورزان أي عجزاء .
(٢) خفار : أي شديدات الحياء .
(٣) ذو الغلة الصادي : الشديد العطش .
(٤) الحديث رواه الشيخان والنسائي وابن ماجة

فِي الآخِرَةِ »[١] . فلا يجمع الله للعبد لذّة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرَّم الله عليه من النساء والصبيان ولذَّة التمتع بذلك في الآخرة ، فليتخير العبد لنفسه إحدى اللذّتين ، ولْيَطِبْ نفساً عن إحداهما بالأخرى ؛ فلن يجعل الله من أذهب طيّباتِه في حياته الدُّنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدُّنيا إذا لقي الله . ودون ذلك مرتبةً أن يتركها خوف النار فقط ، فإن تركها رغبةً ومحبةً أفضلُ من تركها لمجرَّد خوف العقوبة .

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوفُ العار والشنار[٢] ، ومنهم من يحمله عَلَى العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال ، ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهتُه ، ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشامُ له وعظمتُه في صدره ومنهم من يحمله عليها الرّغبة في جميل الذكر وحسن الأحدوثة ، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء عَلى جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس ، ومنهم من يحمله عليها كرمُ طبعة شرفُ نفسه وعلوُّ همته ، ومنهم من يحمله عليها لذَّةُ الظفر بالعفة فإن للعفة لذَّةً أعظمَ من لذة قضاء الوطر ، لكنها لذّة يتقدمها أَلَمُ حبس النفس ثم تعقبها اللذّة ، وأما قضاء الوطر[٣] فبالضد من ذلك ، ومنهم من يحمله عليها علمُه بما تعقبه اللذَّةُ المحرَّمة من المضارّ والمفاسد ، وجمع الفجور خلال الشرّ كلها ، كما ستقف عليه في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى .

فصل

ولم يزل الناسُ يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً ، قال إبراهيم بن هَرْمة[٤] :

ولربَّ لذَّةِ ليلةٍ قد نلتها وحرامُها بحلالها مدفوعُ

(١) الحديث رواه الشيخان بنحوه وكذلك ابن ماجة .

(٢) الشنار : أقبح العيب .

(٣) قضاء الوطر : بلوغ المني ، قال تعالى : ﴿ فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها ﴾ .

(٤) إبراهيم بن هرمة : وهو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشي ، أبو إسحاق من سكان المدينة من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وتوفي سنة ١٧٦ هـ . الأغاني (٤ / ١٠١) ثم (٥ / ٤٦) ط . الساسي ، والنجوم الزاهرة (٢ / ٨٤) ، والبداية والنهاية (١٠ / ١٦٩) .

وقال غيره :

إذا ما هممنا صدّنا وازعُ التقى ... فولى عَلى أعقابه الهمُّ خاسئا

وقال آخر :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لا يُضمرُ السوءَ إن طالت إقامته ... عفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظر

وقال مسلم بن الوليد :

ألا ربّ يوم صادقِ العيش نلته ... بها ونداماي العفافةُ[1] والنُّهى[2]

وقال آخر :

إن تَرَيْني زانيَ العيـ ... ـنين فالفرجُ عفيفُ
ليس إلا النظرُ الفا ... تر والشعرُ الظريف

وقال الموسوي[3] :

بتناضجيعَين في ثوبَيْ هوىً وتُقىً ... يَلُفُّنا الشوقُ من فَرْقٍ إلى قَدم
يَشِي بنا الطيبُ أحياناً وآونةً ... يُضيئنا البرقُ مجتازاً عَلَى إضم[4]
ثم انثنينا وقد رابت[5] ظواهرنا ... وفي بواطننا بعدٌ عن التُّهَم

---

(١) العفافة : وهي العفة ، وهي الزهد والانصراف عما لا يحل .
(٢) النهي : جمع نهية وهي العقل ، وسمي بذلك لأنه ينهي عن العيب وما ينافيه .
(٣) وهو الشريف الرضى ، محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن الرضى العلوي الحسيني الموسوي أشعر الطالبيين ولد وتوفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ وله ديوان شعر في مجلدين . وفيات الأعيان (٢ / ٢) ، وتاريخ بغداد (٢ / ٢٤٦) ، والمنتظم (٧ / ٢٧٩) ، ونزهة الجليس (١ / ٣٥٩) ، والذريعة (٧ / ١٦) .
(٤) الإضم : جبل ، وهو الوادي الذي في المدينة المنورة .
(٥) رابت : من الريب والارتياب وهو الشك .

وقال نِفْطَوَيْه :

كم قد خلوتُ بمن أهوي فيمنعني ... منه الحياءُ وخوفُ الله والحذرُ
وكم ظفرت بمن أهوي فيقنعني ... منه الفُكاهة والتجميش[1] والنظر
أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرامٍ منهمُ وطر[2]
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ ... لا خيرَ في لذّةٍ من بعدها سَقَرُ[3]

وقال الشهاب محمود بن سليمان[4] صاحب ديوان الإنشاء (الحلبي) :

لله وقفة عاشقَيْن تلاقيا ... من بعد طول نَوىً وبُعْدِ مَزار
يتعاطيان من الغرام مُدامةً ... زادتهما بعداً من الأوزار
صدقا الغرامَ فلم يَمِلْ طَرْفٌ إلى ... فُحْشٍ ولا كفٌّ لحلّ إزار
فتلاقيا وتفرّقا وكلاهما ... لم يَخْشَ مَطْعَنَ عائبٍ أو زار[5]

وقيل لِبُثَيْنة : هذا جميل لما به فهل عندك من حيلةٍ تُنَفِّسين بها وجدَه ؟ فقالت ما عندي أكثر من البكاء إلى أن ألقاه في الدار الأخرى ، أو زيارته وهو ميت تحت الثرى . وقيل لعُتبة بعد موت عاشقها : ما كان يضرك لو أمتعتيه بوجهك ؟ قالت : منعني من ذلك خوفُ العار ، وشماتةُ الجار ، ومخافةُ الجبار . وإن بقلبي أضعافَ ما بقلبه غير أني أجد سَتْرَه أبقى للمودّة ، وأحمدَ للعاقبة ، وأطوعَ للربّ ، وأخفَّ للذنب .

---

(١) التجميش : التغزل بالملاعبة والقرص .
(٢) الوطر : الأرب والغاية والمطلب .
(٣) سقر : جهنم .
(٤) الشهاب محمود بن سليمان : والأصح (بن سلمان) وهو حنبلي حلبي دمشقي أبو الثناء شهاب الدين : أديب كبير ، استمر في دواوين الإنشاء في دمشق وانتقل إلى مصر فكتب بها في الديوان ثم عاد إلى دمشق ثم توفي بها سنة ٧٢٥ هـ . الدرر الكامنة (٤ / ٣٢٤) ، وفوات الوفيات (٢ / ٢٨٦) ، والبداية والنهاية (١٤ / ١٢٠) .
(٥) زري به ، وأزرى به : عابه .

وهَوِي فتى امرأةً وهَوِيته وشاع خبرهما فاجتمعا يوماً خاليَيْن فقال لها : هلمِّي نحقق ما يقال فينا فقالت : لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأُ : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ ﴾[1] . وقيل لبعضهم وقد هَوِيَ جارية فطال عشقه بها : ما أنت صانعٌ لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله ؟ قال : والله لاجعلته أهونَ الناظرين إليّ ، لا أفعل بها خالياً إلَّا ما أفعله بحضرة أهلها ، حنينٌ طويل ، ولحظٌ من بعيد ، وأترك ما يسخط الربّ ، ويفسد الحبّ .

إذا كان حظُّ المرءِ ممن يحبه حراماً فحظي ما يَحِلُّ ويَجْمُل
حديثٌ كماء المُزْن[2] بين فصوله عتابٌ به حسنُ الحديث يُفَصَّل
ولَثْمُ فَمٍ عذبِ اللِّثات كأنما جناهنّ شهدٌ فُتَّ فيه القَرَنْفَل
وما العشقُ إلاَّ عفةٌ ونزاهةٌ وأُنسُ قلوبٍ أُنسُهُنّ التغزُّل
وإني لأستحيي الحبيبَ من التي تريب وأُدْعَى للجميل فأجمل

وقال آخر :

وإني لمشتاقٌ إلى كل غايةٍ من المجد يكبو دونها المتطاول
بذولٌ لمالي حين يبخل ذو النُّهى عفيف عن الفحشاء قَرمٌ حُلاحل[3]

وما ألطفَ قوله : حين يبخل ذو النُّهى فإن ذا النُّهى لا يبخل إلا في موضع البخل ، فأخبر هذا أنه يبذل ماله حين يبخل به ربُّه[4] في موضع البخل .

---

(١) الزخرف (٤٣ / ٦٧) .
(٢) المزن : السحاب .
(٣) القرم : هو السيد الغطريف المعظم في قومه .
والحلاحل : هو السيد في عشيرته والأمير في مجلسه .
(٤) ربُّه : صاحبه ، ومنه رب الدار .

وقال عامر بن حذافة(١) : رأيت بصُحَار(٢) جاريةً قد ألصقت خدَّها بقبرٍ وهي تبكي وتقول :

خـدي يَقيك خشـونـةَ اللحـد وأقـلُّ مـالـك سيِّـدي خـدِّي
يـا ساكن التُّـرْب الـذي بـوفـاتـه عَمِيَتْ عليَّ مسـالـكُ الـرشـد
إسمـع فـديتُـك قصَّتي فلعلَّني أشـفـي بـذلـك غُـلَّةَ الـوجـد

قال : فسألتها عن صاحب القبر فقالت : فتىً رافقته في الصبا ، ثم أنشأت تقول :

كنـا كـزوج حمائمٍ في أيكـةٍ(٣) متـنـعـمـين بـصـحَّـةٍ وشـبـاب
فغـدا الـزمـان مشتِّـتـاً بفـراقـه إن الـزمـان مـفـرِّقُ الأحـبـاب

قال : فبكيت لرقة شعرها فأنشأت تقول :

تبكي عليه ولستَ تَعرف أمـرَه فـلأعـلمنـك حـالَـه بـبـيـان
مـا كان للعـافين(٤) غيرُ نـواله(٥) فـإذا استُجير ففـارس الفرسـان
لا يُتبِـعُ الجيـرانَ رفـةَ طرفـه ويـتـابـع الإحـسـان لـلجيـران
عفُّ الســريـرةِ والجَهِيـرَةُ مثلُهـا فـإذا آستُضِيم(٦) أراك فَتَىَ طعان

فقلت : أعلميني من هو؟ قالت : سنان بن وَبْرَة الذي يقول فيه الشاعر :

يـا رائـداً غيثـاً لنَجْعَـة قـومـه يكفيـك من غيثٍ نـوالُ سنـان

---

(١) عامر بن حذافة : وهو عامر بن عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي ، أبو حذافة ، أسلم قديماً لم يعرف مولده وتوفي سنة ٣٣ هـ تقريباً حسب أحد الأقوال . تهذيب التهذيب (٥ / ١٨٥) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢ / ٨٧) .
(٢) صحار : بالضم هو قصبة مما يلي الجبل بعمان .
(٣) أيكة : مفرد جمعه أيك وهو الشجر الكثير الملتف .
(٤) العافون : ويقال أيضاً العفاة طلاب المعروف .
(٥) النوال : العطاء .
(٦) استضيم : انتقص حقه ، واستضامه : ظلمه .

ثم قالت : يا هذا والله لولا أنك غريب ما متعك من حديثي . قلت : فكيف كان حبه لك ؟ قالت : ما كان يوسّدني إذا نمت إلّا يدَه ، فمكثت معه أربعة أحوال[1] ما توسدت غيرها إلا في حالٍ يمنعه مانع .

وقال سعيد بن يحيى الأموي : حدَّثني عمي محمد بن سعيد ، حدَّثنا عبدالملك بن عُمَير قال : كان أَخَوانِ من ثقيف من بني كُنَّةَ بينهما من التحاب شيءٌ لا يعلمه إلا الله ، وكلّ واحدٍ منهما أخوه عنْدَه عَدْلُ[2] نفسه ، فخرج الأكبر منهما إلى سفرٍ له وله امرأةٌ فأوصى أخاه بحاجة أهله ، فبينا المقيم في دار الظاعن إذ مرّت امرأة أخيه في دِرعٍ تجوز من بيت إلى بيت ، وكانت من أجمل البشر ، فرأى شيئاً حيره ، فلما رأته ولَّت ووضعت يدها عَلَى رأسها ودخلت بيتاً ، ووقع حبُّها في قلبه ، فجعل يذوب وينْحَلُ جسمه ويتغيَّر لونه . وقدم أخوه فقال : مالك يا أخي متغيراً ، ما وجعك ؟ قال : ما بي من وجعٍ ، فدعا له الأطباء فلم يقف أحدٌ على دائه غير الحارث بن كَلَدة وكان طبيباً فقال : أرى عينين صحيحتين وما أدري ما هذا الوجع وما أظنه إلّا عاشقاً ، فقال له أخوه : سبحان الله ، أسألك عن وجع أخي وأنت تستهزىء بي ، فقال : ما فعلت ، وسأسقيه شراباً عندي فإن كان عاشقاً فسيتبين لكم ، فأتاه بشرابٍ فجعل يسقيه قليلاً قليلاً ، فلما أخذه الشراب هاج وقال :

أَلِـمَّـا بي عـلى الأبيـا ت من خَـيفِ نَـزُرْهُـنَّهْ
غـزالٌ مـا رأيـت الـيو م فـي دُور بـنـي كُـنَّـهْ
أسيـلُ الخـدّ مـربـوب[3] وفـي مـنـطقـه غُـنَّـهْ

فقال : أنت طبيب العرب فبمن ؟ قال : سأعيد له الشراب ولعله يسمّي ،

---

(١) أحوال : جمع مفرده حول ، وهو السنة .
(٢) العدل : المثل والنظير .
(٣) مربوب : جميل القسمات .

فأعاد له الشراب فسمى المرأة ، فطلقها أخوه ليتزوجها فقال المريض : عليّ كذا وكذا إن تزوَّجتها ، فقضى ولم يتزوجها .

وقال علي بن المبارك السراج[1] : حدَّثنا أبو مسهر ، عن بكر بن عبدالله قال : عرض الحجاج بن يوسف سجنه يوماً فأُتي برجل فقال : ما كان جُرمك ؟ فقال : أصلح الله الأمير أخذني العَسَسُ[2] وأنا مخبرك بخبري ، فإن كان الكذب ينجي فالصدق أولى بالنجاة ، قال : وما قصتك ؟ قال : كنت أخاً لفلان فضرب الأمير عليه البَعْثَ إلى خراسان ، فكانت امرأته تهواني وأنا لا أشعر ، فبعثت إليّ ذات يومٍ رسولاً أن قد جاء كتابُ صاحبك فهلمَّ لتقرأه ، فمضيت إليها فجعلت تَشْغَلُني بالحديث حتى صلينا المغرب ، ثم أظهرت لي ما في نفسها مني ودعتني إلى السوء ، فأبيت ذلك فقالت : والله لئن لم تفعل لأصيحنّ ولأقولنّ إنك لص ، فخفتها والله أيها الأمير على نفسي فقلت : أمهليني حتى الليل ، فلما صليت العَتَمَةَ[3] وثقت بشدّة حَرَس الأمير فخرجت من عندها هارباً ، وكان القتلُ أيسرَ عليّ من خيانة أخي ، فلقيني عَسَسُ الأمير فأخذوني ، وقد قلت في ذلك شعراً ، قال : وما قلت ؟ فقال :

ربّ بيضاءَ آنسٍ[4] ذاتِ دَلٍّ ... قد دعتني لوصلها فأبيتُ
لم يكن شأنيَ العفاف ولكن ... كنت خِلًّا لزوجها فاستحَيْتُ

فأمر بإطلاقه .

وقال الربيع بن زياد : رأيت جاريةً عند قبرٍ وهي تقول :

بنفسي فتى أوفى البرية كلها ... وأقواهمُ في الموت صبراً على الحب

---

(١) علي بن المبارك السراج : لم أجد له ترجمة عندي .
(٢) العسس : حرس الليل ، وعسَّ : إذا طاف ليلاً .
(٣) العتمة : هي وقت صلاة العشاء .
(٤) الأنس : الفتاة الكريمة النقية محمودة النفس ، وهي من يؤتنس بها .

فقلت لها : بم صار أوفاهم وأقواهم ؟ قالت : هَوِيَني ، فكان أهلي إن جاهر بحبّي لاموه ، وإن كتمه عنفوه ، فلما أخذه الأمر قال :

يَقولون إن جاهرتُ قد عضك الهوى ... وإن لم أُبُحْ بالحبّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوي ويكتُم حبَّه ... من الأمر إلاَّ أن يموتَ فيُعذرا

ولم يزل يردد هذين البيتين حتى مات ، فوالله يا هذا لا أبرح أو يتصل قبرانا ، ثم شهقت شهقة فصاح النساء وقلن : قضت ، والذي اختار لها الوفاةَ فما رأيت أسرعَ ولا أوْحى من أمرها . قال ابن الدُّمَيْنَة :

وبتنا فُوَيْقَ الحيّ لا نحن منهمُ ... ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبات يقينا ساقطَ الطل والندى ... من الليل بُرْدا يُمْنَةٍ[1] عَطِران
نذود بذكر الله عنا غوي الصبا ... إذا كان قلبانا له يَرِدان
ونصدر[2] عن رِي العفاف وربما ... نقعنا غليل الحبّ بالرَّشفان

قال أبو الفرج : وشت جارية بُثَيْنَة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما : إن جميلاَ عندها ، فأتيا مشتملّين على سيفيهما فرأياه خالياً حُجرَةً منها يحدّثها ويشكو إليها بَثّه[3] ثم قال لها : يا بُثَيْنَةُ أرأيت ما بي من الشغف والعشق ألا تَجْزِينيه ؟ قالت له : بماذا ؟ قال : بما يكون من المتحابين ، فقالت له : يا جميل أهذا تبغي ؟ والله لقد كنتَ عندي بعيداً منه ، فإذا عاودت تعريضاً بريبةٍ لا رأيت وجهي أبداً ، فضحك وقال : والله ما قلت لكِ هذا إلاَّ لأعلم ما عندك ، ولو علمت أنك تجيبنني إليه لعلمت أنك تجيبين غيري ، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي إن طاوعتني نفسي ، أو هجرتك أبداً ، أما سمعت قولي :

---

(١) براد يمنة : من برود الشهيرة .
(٢) صدر عن الماء : رجع عنه وزوى وانصرف عنه .
(٣) البث : أشد الحزن الذي لا يصبر عليه :

وإنّي لأرضى من بُثَيْنَــة بالــذي لوَ أبصره الواشي لقرت بلابلُهْ[1]
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آملُهْ
وبالنظرة العَجْلى وبالحول تنقضي أَواخــرُه لا نــلتــقــي وأوائــلُهْ ؟

فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغي لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا الرجل من إتيانها .

(١) البلابل : الوساوس والأوهام .

الباب الرابع والعشرون

في ارتكاب سبيلي الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام

حقيقٌ بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلمَ سلامَتها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطب ، وهذان السبيلان هلاك الأوّلين والآخرين بهما ، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما ، ويُفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشرّ موارد الهلَكات ، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزِّنى شرَّ سبيل فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[1] فإذا كانت هذه سبيلَ الزنى فكيف بسبيل اللّواط التي تَعْدِلُ الفَعْلة منه في الإثم والعقوبة أضعافَها وأضعافَ أضعافها من الزنى ؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، فأما سبيل الزنى فأسوأُ سبيل ، ومَقِيلُ[2] أهلِهَا في الجحيم شرُّ مَقِيل ، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تَنُّورٍ من نارٍ يأتيهم لهبها من تحتهم ، فإذا أتاهم اللهَب ضجّوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ، ورؤيا الأنبياء وحيٌ لا شكّ فيها .

فروى البخاري في صحيحه من حديث سَمُرَةَ بن جُنْدَبُ[3] رضي الله عنه

(١) الإسراء (١٧ / ٣٢) .

(٢) المقيل : المثوى والنوم عند الظهيرة .

(٣) هو سمرة بن جندب .

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا يُكثر أن يقول لأصحابه : « هَلْ رَأى أَحَدٌ مِنْكُمْ من رُؤْيا ؟ فيُقصُّ عليه ما شاءُ الله أن يُقصَّ » ، وإنه قال لنا ذات غَدَاةٍ : إنه أتاني اللَّيلةَ آتِيَانِ وإنهما ابْتعثاني وإنهما قالا لي : انطلق ، وإني انطلقت معهما ، وإنَّا أتينا علىَ رجلٍ مُضْطَجِع وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصخرةٍ ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرةِ لرأسه فَيَثْلَغُ[(١)] رأسه فَيَتَدَهْدَهُ الحجرُ هاهنا ، فَيَتْبَعُ الحجرَ فيأخُذه فلا يَرْجِعُ إليه حتى يَصِحَّ رأسُه كما كان ، ثم يعود عليه فَيَفْعَلُ به مثلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأولى : قال : قلت لهما : سُبْحَانَ اللَّهِ ما هٰذَانِ ؟ قال : قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا عَلَى رجلٍ مُسْتَلْق لقفاه ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكَلُّوبٍ من حديدٍ ، وإذا هو يأتي أَحَدَ شِقَّيْ وجهه فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قفاه ، ومَنْخِرَهُ إلى قفاه ، وعينَه إلى قفاه ، ثم يَتَحَوَّل إلى الجانب الآخر فيَفْعل به مثل ما فَعَلَ بالجانب الأوّل ، فما يَفْرُغُ من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانبُ كما كان ، ثم يعود عليه فَيَفْعَلَ مثل ما فعل المرّة الأولى قال : قلت : سُبْحَانَ الله ما هذان ؟ قال : قالا لي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فانطلقنا فأتينا عَلَى مِثْلِ التَّنُّور ، فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ ، قال : فاطَّلَعْنَا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُرَاةٌ ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهَبُ ضَوْضَوْا قال : قلت لهما : ما هٰؤلاء ؟ قال : قالا لي : انْطَلِق انْطَلِق . فانطلقنا فأتينا على نهرٍ أحمرَ مثلِ الدَّم ، وإذا في النَّهرِ رجلٌ سابحٌ يَسْبَحُ ، وإذا عَلى شَطِّ النَّهْر رجل قد جمع عنده حجارةً كثيرةً ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جَمَع عنده الحجارةَ فَيَفْغَرُ له فاه فَيُلْقِمُهُ حَجَراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فَغَرَ لَه فاه فألقمه حجراً ، قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قال : قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا عَلَى رجلٍ كريهِ المَرْآةِ[(٢)] كأكْرَهِ ما أنت رَاءٍ رجلاً مَرْآةً ، وإذا عنده نارٌ يَحُشُّها ويسعى حولها ، قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا

---

(١) يثلغ رأسه : يخدشه .

(٢) المرآة : المنظر .

عَلَى روضةٍ مُعْتَمَّةٍ[1] فيها من كل نَوْرِ الرَّبيع ، وإذا بين ظَهْرَيِ الرَّوضة رجلٌ طويلٌ لا أكاد أرى رأْسَهُ طولاً في السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر وِلدانٍ رأيتهم قطَّ قال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟ قال : قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على دَوْحَةٍ[2] لم أر دَوْحَةً قطّ أعظمَ منها ولا أحسنَ ، قال : قالا لي : ارْقَ فيها ، فارتقينا فيها إلى مدينةٍ مَبْنِيَّةٍ بلَبِنٍ[3] ذهبٍ ولَبِن فضةٍ ، قال : فأتينا بابَ المدينة فاستفتحنا ففُتِحَ لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شَطْرٌ من خَلْقِهِم كأحسنِ ما أنت رَاءٍ ، وشَطْرٌ كأقبحِ ما أنت راءٍ قال : قلا لهم : اذهبوا فقَعُوا في ذلك النَّهر قال : وإذا نَهرٌ مُعْتَرِضٌ يجري كأنَّ ماءه الْمَحْضُ[4] في البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوءُ عنهم فصاروا في أحسنِ صورةٍ قال : قالا لي : هذه جنّة عَدْن ، وهٰذاك منزلُك قال : فسما بصري صُعُداً فإذا قصرٌ مثل الرَّبابَة[5] الْبَيْضاء قال : قالا لي : هٰذاك منزلُك قال : قلت لهما : بَارَكَ اللّٰهُ فِيكُمَا ذَرَاني فأَدْخُلَهُ قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخلُه . قال : قلت لهما : فإني قَدْ رَأَيتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً فمَا هٰذَا الَّذِي رَأيتُ ؟ قال : قالا لي : أَمَا إنا سنخبرك ، أمَّا الرجل الأوّل الذي أتيت عليه يُثْلَغُ رأسُه بالحجر فإنه الرجلُ يأخذ القرآن فيرْفُضه وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذي أتيت عليه يُشَرْشَرُ شِدْقُه إلى قفاه ومَنْخِرُه إلى قفاه وعينُه إلى قفاه فإنه الرجلُ يغدُو من بيته فيكذبُ الكَذْبَةَ تبلُغ الآفاق ، وأمَّا الرجالُ والنساءُ العُرَاةُ الذين هم في مثل بناء التَّنور فإنهم الزُّناةُ والزَّواني ، وأما الرجلَ الذي أتيت عليه يسبح في النَّهَر ويُلْقَمُ الحجَرَ فإنه آكلُ الرِّبَا ، وَأمَّا الرجلُ الكريهُ الْمَرْآةِ الذي عند النار يَحُشُّها ويسعى حولها فإنه مالكٌ خازنُ جهنم ، وأمَّا الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ، وأما الولدان حولَه فكلُّ مولودٍ مات

(١) يقال اعتم النبات أي طال واكتمل نموه .
(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة .
(٣) اللبن : جمع لبنة وهي التي يبني بها من الطين المضروب .
(٤) المحض : الخالص .
(٥) الربابة : السحابة البيضاء .

على الفِطرة ؛ قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين ، وأمَّا القومُ الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ وشَطرٌ منهم قبيحٌ فإنهم قومٌ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً تجاوز الله عنهم » .

وقال أبو مسلم الكَجّي[1] : حدَّثنا صَدَقة بن جابر ، عن سُلَيم بن عامر ، قال : حدَّثني أبو أمامة الباهلي قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « بَيْنَا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بضَبْعَيّ[2] فأخرجاني فأتيا بي جبلاً وَعْراً وقالا لي : اصْعَد فقلت : إني لا أُطيقه فقالا : سنسهله لك قال : فصَعِدت حتى إذا كنتُ في سَوَاء الجبل[3] إذا أنا بأصواتٍ مدِيدَةٍ فقلت : ما هذه الأصوات ؟ فقالا : هذا عُواء أهل النار ، ثم انطُلق بي فإذا أنا بفوجٍ أشدُّ شيء انتفاخاً ، وأنتنه ريحاً ، وأسوأه منظراً ، فقلت : من هؤلاء ؟ فقالا : هؤلاء قَتْلى الكفّار ، ثم انطُلِقَ بي فإذا بفوجٍ أشدُّ شيء انتفاخاً ، وأنتنه ريحاً ، كأنّ ريحهم المراحيضُ فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزانون والزواني »[4] .

وقال قُتَيْبَةُ بن سعيد : حدَّثنا نوح بن قيس قال : حدَّثني أبو هارون العبدي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة أُسريَ بي انْطُلِق بي إلى خَلْقٍ من خلق الله كثيرٍ ، نساء مُعَلَّقات بثُديِّهنَّ ومنهنَّ بأرجلهنَّ منكسات ، ولهنَّ صراخٌ وخُوارٌ فقلت : يا جبريلُ من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء اللواتي يَزْنِينَ ويَقْتُلْنَ أولادَهنَّ ويجعلْنَ لأزواجهنَّ وَرَثَةً من غيرهم » .

وقال أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين[5] : حدَّثنا عبدالسلام بن شدّاد ، عن

---

(١) أبو مسلم الكجي ، وهو إبراهيم بن عبدالله البصري من حفاظ الحديث نسبة إلى كج بخوزستان فارس توفي سنة ٢٩٢ هـ . راجع تذكرة الحفاظ (٢ / ١٧٦) ، وتاريخ بغداد (٦ / ١٢٠) .

(٢) الضبع : مفرد جمعه أضباع ، وهو ما بين الإبط إلى نصف العضد .

(٣) سواء الجبل : وسطه .

(٤) الحديث ذكره المنذري في الترغيب والترهيب بتمامه .

(٥) الفضل بن دكين ، وهو محدث حافظ من أهل الكوفة من شيوخ البخاري ومسلم ، توفي سنة=

غَزْوان بن جَرِير ، عن أبيه أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه الفواحشَ فقال لهم : هل تدرون أي الزنى أعظمُ ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين كله عظيم قال : ولكن سأُخبركم بأعظم الزنى عند الله ، هو أن يَزْنيَ الرجلُ بزوجة الرجل المسلم فيصير زانياً وقد أفسد على الرجل زوجتَه . ثم قال عند ذلك : إن الناس يُرْسَل عليهم يومَ القيامة ريحٌ منتنة حتى يتأذى منها كلُّ بَرٍّ وفاجرٍ ، حتى إذا بلغت منهم كلَّ مبلغٍ وألَمَّتْ(١) أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم منادٍ يُسمعهم الصوتَ ويقول لهم : هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم ؟ فيقولون : لا ندري والله إلا أنها قد بلغت منا كلّ مبلغ ، فيقال : ألا إنها ريح فروج الزُّناة الذين لَقُوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه ، ثم يصرف بهم ، فلم يذكر عند الصرف بهم جنةً ولا ناراً .

وقال الخرائطي(٢) : حدَّثنا علي بن داود القنطري ، حدَّثنا سعيد بن عفير ، حدَّثني مسلم بن علي الخشَني ، عن أبي عبدالرحمن ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حُذَيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إيَّاكُمْ وَالزِّنى فَإنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَال : ثَلاثٌ في الدُّنْيَا وَثَلاثٌ فِي الآخِرَةِ ، فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي آلدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهاءِ ، وَدَوَامُ الْفَقْرِ ، وَقِصَرُ الْعُمُرِ . وَأَمَّا آللَّوَاتِي فِي الآخِرَةِ فَسَخَطُ اللهِ ، وَسُوءُ الْحِسَابِ ، وَدُخُولُ آلنَّارِ »(٣) .

ويُذكر عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : الْمُقِيمُ على الزِّنى كعابد

= ٢١٩ هـ . الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٢١٩) ، وتاريخ بغداد (١٢ / ٣٤٦) ، ومناقب الإمام أحمد (٣٩٥) .

(١) ألَمَّ : يقال ألم به وألم بالقوم إذا نزل به أو نزل بهم .

(٢) الخرائطي : وهو محمد بن جعفر بن محمد بن سهل أبو بكر الخرائطي السامري ، من حفاظ الحديث من السامرة بفلسطين توفي بيافا سنة ٢٧٠ هـ . تقريباً . راجع شذرات الذهب (٢ / ٣٠٩) ، ودار الكتب (٧ / ٩١) ، وإرشاد الأريب (٦ / ٤٦٤) .

(٣) الحديث ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير ، وقال رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق ، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب وضعفه ، وأبو الفتح الراشدي في جزئه والرافعي . راجع هامش المطبوعة ص ٣٥٧ .

وثنٍ ، ورفعه بعضهم ، وهذا أولى أن يُشبَّه بعابد الوثن من مُدْمِن الخمر ، وفي المسند وغيره مرفوعاً : مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ . فإنَّ الزِّنى أعظمُ من شرب الخمر . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : ليس بعد قتل النفس أعظمُ من الزِّنى .

وفي الصحيحين من حديث أبي وائلٍ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسولَ الله أيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله ؟ قال : أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أَنْ تَزْنِي بِحَلِيلَةِ[1] جَارِكَ ، فأنزَلَ الله تصديق ذلك في كتابه : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴾[2] .

وقال قُتَيْبَة بن سعيد : حدَّثنا ابن لَهِيعَة ، عن ابن أَنْعُمٍ ، عن رجل ، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِ وَيقولُ له : آدْخُلِ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ » وذكر سفيان بنُ عُيَيْنَة ، عن جامع بن شدَّاد ، عن أبي وائل ، عن عبدالله قال : إذا بُخس المكيال حُبس القطر ، وإذا ظَهر الزِّنى وقع الطاعون ، وإذا كثُر الكَذبِ كثر الهَرْج .

وفي الصحيحين من حديث الأعمش ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ . وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعائِلٌ مُستكبِرٌ »[3] .

---

(١) الحليلة : الزوج .
(٢) الفرقان (٢٥ / ٦٨) .
(٣) الحديث : لم يرد في صحيح البخاري كما ذكر المؤلف لكنه في الجامع الصغير للسيوطي والترغيب والترهيب دون أن يشيرا فيه إلى رواية البخاري إنما قالا : رواه مسلم والنسائي وزاد في الزواجر =

وذكر سفيان الثوري ، عن منصور ، عن رِبْعي بن حِرَاش ، عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ ثَلاَثَةً : الشَّيْخُ الزَّانِي ، وَالْمُقِلُّ[1] الْمُخْتَال ، وَالْبَخِيل المَنَّان »[2] .

وذكر الأعمش ، عن خَيْثَمَة ، عن أبي عبدالرحمن ، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِ الْمُغِيبَةِ مَثَلُ الَّذِي يَنْهَشُهُ الأَسَاوِدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[3] . المُغِيبَةُ هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍّ أو غيرهما ، وفي النسائي وغيره من حديث بُريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حُرْمَةُ نِسَاءِ المُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ إلاَّ نُصِبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ : يَا فُلاَنُ هٰذَا فُلاَنٌ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ ، ثُمَّ الْتَفَتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال : « مَا تَرَوْنَ يَدَعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئاً » ؟ وفي لَفْظٍ : « وَإِذَا خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ فَخَانَهُ قِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا خَانَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ فَمَا ظَنُّكُمْ » ؟

ويكفي في قُبح الزِّنى أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أفحشَ القتَلات وأصعبها وأفضحها ، وأمر أن يشهدَ عبادُه المؤمنون تعذيبَ فاعِله ، ومن قبحه أن الله سبحانه فَطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقلَ له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردةٍ فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا وكنتُ فيمن رجمهما .

= أحمد . وذكر السيوطي أنه رواية مسلم والنسائي وصححه في الجامع الصغير (١ / ١٤١) .

(١) المقل : الفقير .

(٢) الحديث رواه أحمد وابن حبان والضياء المقدسي .

(٣) الحديث ، رواه الخرائطي والطبراني في الكبير في مساوىء الأخلاق .

فصل

والزنى يجمع خِلال الشرّ كلّها من قلة الدين وذهابِ الورع وفساد المُرُوءة وقلة الغيرة ، فلا تجد زانياً معه ورَع ، ولا وفاءٌ بعهدٍ ، ولا صدقٌ في حديث ، ولا محافظةٌ عَلى صديق ، ولا غيرةٌ تامّة عَلى أهله . فالغدر والكذب والخيانة وقلةُ الحياء وعدمُ المراقبة وعدمُ الأنَفَة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته .

ومن موجباته غضبُ الرَّبِّ بإفساد حرمه وعياله ، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة . ومنها سوادُ الوجه وظلمتُه وما يعلوه من الكآبة والمقْتِ الذي يبدو عليه للناظرين ، ومنها ظلمةُ القلب وطَمْسُ نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغِشْيَان الظلمة له . ومنها الفقرُ اللازم . وفي أثرٍ يقول اللَّهُ تعالى : ﴿ أَنَا اللَّهُ مُهْلِكُ الطُّغَاة ، وَمُفقرُ الزُّنَاة ﴾ . ومنها أنه يذهب حُرْمة فاعله ، ويُسقطه من عين ربه ومن أعين عباده . ومنها أنه يسلُبه أحسنَ الأسماء وهو اسمُ العِفَّةِ والبِرّ والعدالة ، ويعطيه أضدادَها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن . ومنها أنه يسلُبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ »(١) . فسلبه اسم الإيمان المطلَق وإن لم يَسلُب عنه مطلقَ الإيمان . وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخطّ دائرةً في الأرض وقال : هذه دائرة الإيمان ، ثم خطّ دائرةً أُخرى خارجةً عنها وقال : هذه دائرة الإسلام ، فإذا زنى العبد خرج من هذه ، ولم يخرج من هذه . ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمَّى مؤمناً ، كما أن الرجل يكون معه جزءٌ من العلم والفقه ولا يسمَّى به عالماً فقيهاً ، ومعه جزءٌ من الشجاعة والجود ولا يسمَّى بذلك شجاعاً ولا جواداً ، وكذلك يكون معه شيءٌ من التقوى ولا يسمَّى

---

(١) الحديث صحيح ولكن ليس معنى هذا أنه يخرج كلية من نطاق الإيمان المطلق فالنبي صلى الله عليه وسلم رجم الغامدية وماعز وصلى عليهما ، ولو خرج الزاني من الملة ما صلي عليه .

مُتَّقِياً . ونظائره . فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتَأَوَّل بما يخالف ظاهره والله أعلم . ومنها أن يعرِّض نفسه لسُكنَى التَّنُّور الذي رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيه الزُّناةَ والزواني . ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيثَ الذي وصف اللهُ به الزُّناةَ كما قال الله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُون لِلْطَّيِّباتِ ﴾[1] .

وقد حرّم الله الجنةَ على كل خبيثٍ ، بل جعلها مأوى الطيِّبين ، ولا يدخلها إلاَّ طيِّب . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ آدْخُلوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُها سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[3] . فإنما استحقوا سلاَمَ الملائكة ودخولَ الجنة بطيبهم ، والزُّناة من أخبث الخلق ، وقد جعل الله سبحانه جهنمَ دار الخبيث وأهلِهِ ، فإذا كان يوم القيامة ميَّز الخبيثَ من الطيِّب وجعل الخبيثَ بعضَه على بعضٍ ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النارَ طيِّبٌ ، ولا يدخل الجنة خبيث .

ومنها الوحشةُ التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني ، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهَه ، فالعفيف على وجهه حلاوةٌ وفي قلبه أُنس ، ومن جالسه استأنس به ، والزاني تعلو وجهَه الوحشة ومن جالسه استوحش به ، ومنها قِلَّةُ الهَيْبَة التي تُنْزَع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له ، وهو أحقر شيءٍ في نفوسهم وعيونهم ، بخلاف العفيف فإنه يُرْزَق المهابة والحلاوة . ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحدٌ على حُرْمته ولا على ولده . ومنها الرائحة التي تفوح

---

(١) النور (٢٤ / ٢٦) .

(٢) النحل (١٦ / ٣٢) ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ، ويخبرونهم أنهم مَن أصحاب النعيم ومن أصحاب اليمين » . راجع الطبري (١٤ / ١٠١) .

(٣) الزمر (٣٩ / ٧٣) ، قال البيضاوي : « وجواب « إذا » محذوف ، للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف أو البيان » (٢ / ١٤٧) .

عليه يَشمُّها كل ذي قلبٍ سليمٍ ، تفوح من فِيهِ وجسدِه ، ولولا اشتراكُ الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن كما قيل :

كُـلٌّ به مثـلُ مـا بي غيـر أنهـم مـن غيـرةٍ بعضُهم للبعض عُـذّال

ومنها ضيقة الصدر وحَرَجُه فإنَّ الزُّناة يعاملون بضدِّ قصودهم[1] ، فإن من طلب لذة العيش وطيبَه بما حرّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله لا يُنال إلاَّ بطاعته ، ولم يجعل الله معصيتَه سبباً إلى خيرٍ قطّ . ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذّةِ والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي فاته من اللذّةِ أضعافُ أضعافِ ما حصل له ، دَعْ رِبْحَ العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته .

ومنها أنه يُعَرِّض نفسه لفوات الاستمتاع بالْحُور العِينِ في المساكن الطيّبة في جنّات عدن ، وقد تقدّم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابِس الحرير في الدُّنيا بحِرْمانه لُبْسَه يوم القيامة ، وشاربَ الخمر في الدُّنيا بحرمانه إياها يوم القيامة ، فكذلك من تمتّع بالصُّوَر المحرَّمة في الدنيا ، بل كل ما ناله العبد في الدُّنيا فإن توسَّع في حلاله ضقّ من حظه يوم القيامة بقدر ما توسَّع فيه ، وإن ناله من حرامٍ فاته نظيرُه يوم القيامة .

ومنها أن الزِّنى يُجَرِّئه عَلَى قطيعة الرَّحم وعقوقِ الوالدَين وكَسْبِ الحرام وظُلْم الخلق وإضاعة أهله وعياله ، وربما قاده قسراً إلى سفك الدَّم الحرام ، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري ، فهذه المعصية لا تَتِمّ إلاَّ بأنواعٍ من المعاصي قبلَها ومعها ، ويتولَّد عنها أنواعٌ أُخَرُ من المعاصي بعدها ، فهي محفوفةٌ بجندٍ من المعاصي قبلَها وجندٍ بعدها ، وهي أجلب شيءٍ لشرّ الدُّنيا والآخرة ، وأمنعُ شيءٍ لخير الدنيا والآخرة ، وإذا عَلِقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عزّ عَلَى الناصحين استنقاذُه ، وأعيي الأطباءَ دواؤه ، فأسيرُها لا يُفدي ،

---

(١) كذا وردت ولعل الأصوب (مقصوداتهم) .

وقتيلها لا يُودى(1) ، وقد وكّلها الله سبحانه بزوال النّعم ، فإذا ابْتُلِيَ بها عبدٌ فليودّع نِعَم الله فإنها ضيفٌ سريعُ الانتقال ، وَشِيكُ الزَّوال . قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(2) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾(3) .

فصل

فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر ، وأما سبيلُ الأمة اللُّوطيّة فتلك سبيلُ الهالكين الْمُفْضِيَةُ بسالكها إلى منازل المعذَّبين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمةٍ من الأمم ، لا من تأخّر عنهم ولا من تقدّم ، وجعل ديارَهم وآثارهم عبرةً للمعتبرين ، وموعظةً للمتّقين .

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنهما أنه وجد في بعض ضواحي العَرب رجلاً يُنْكَحُ كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر رضي الله عنه لذلك ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه فاستشارهم ، فكان عليٌّ رضي الله عنه أشدَّهم قولاً فيه فقال : إن هذا لم يعمل به أُمَّةٌ من الأمم إلاّ أُمَّةٌ واحدةٌ فصنع الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن تُحرقوه بالنار ، فأَحرقوه بالنار(4) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعةٌ من الصحابة والتابعين : يُرْجَمُ بالحجارة حتى يموت أُحصِن أو لم يُحصَن ، ووافقه على ذلك الإمام أحمد

---

(1) لا يودى : ليس له دية .
(2) الأنفال (٨ / ٥٢) .
(3) الرعد (١٣ / ١١) .
(4) قال الهيثمي في الزواجر : « رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي » أ هـ .

وإسحاق ومالك ، وقال الزُّهري : يُرْجَمُ أُحصن أو لم يُحصَن ، سنةٌ ماضيةٌ ، وقال جابر بن زيد في رجل غَشِيَ رجلاً في دُبره قال : الدبرُ أعظمُ حُرمةً من الفرج ، يُرْجَم أُحصِن أو لم يُحصَن ، وقال الشَّعْبيّ : يُقْتَل أُحصِن أو لم يُحصَن .

وسئل ابن عباس عن اللوطي ما حدُّه ؟ قال : يُنْظَر أعلى بناءٍ في المدينة فيُرمَى منه مُنَكَّساً ثم يُتْبع بالحجارة . ورجم عليٌّ لوطيًا وأفتى بتحريقه . وكأنه وأي جواز هذا وهذا .

وقال إبراهيم النَّخَعي : لو كان أحدٌ ينبغي له أن يُرجَم مرّتين لكان ينبغي للُّوطي أن يرجَم مرَّتين . وذهبت طائفةٌ إلى أنه يُرجَم إن أُحصِن ويجلد إن لم يُحْصَن . وهذا قول الشافعي وأحمدَ في روايةٍ عنه ، وسعيد بن المسيَّب في روايةٍ عنه ، وعطاء بن أبي رباح .

قال عطاء : شهدت ابن الزبير أُتِيَ بسبعةٍ أُخذوا في اللِّواط : أربعةٌ منهم قد أُحصِنوا ، وثلاثة لم يُحصَنوا ، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرُجموا بالحجارة ، وأمر بالثلاثة فضُربوا الحدّ وفي المسجد ابن عمر وابن عباس . فالصحابة اتفقوا على قتل اللُّوطيِّ وإنما اختلفوا في كيفية قتله ، فظنّ بعضُ الناس أنهم متنازعون في قتله ولا نزاع بينهم فيه إلّا في إلحاقه بالزاني أو قتله مطلقاً .

وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال : أحدُها أنها أعظم من عقوبة الزِّنى كما أَن عقوبته في الآخرة أَشدّ ، الثاني أنها مثلُها ، الثالث أنها دونها ، وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبةَ الفاعل كعقوبة الزاني ، وعقوبةَ المفعول به الْجَلدُ مطلقاً بكراً كان أو ثيِّباً قال : لأنه لا يلتذّ بالفعل به بخلاف الفاعل .

وذهب بعضُ الفقهاء إلى أنه لا حدّ على واحد منهما قال : لأن الوازع عن ذلك ما في الطباع من النَّفْرة عنه واستقباحه ، وما كان ذلك لم يحتَج إلى أن يَزْجُر

الشارعُ عنه بالحدّ كأكل العَذِرَة[1] والمَيْتَة والدم وشربِ البول ، ثم قال هؤلاء : إذا أكثر منه اللُّوطيُّ فللإمام قتله تعزيراً[2] ، صرَّح بذلك أصحاب أبي حنيفة .

والصحيح أن عقوبَته أغلظ من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك ولغَلظ حُرمته وانتشار فساده ، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أُمَّةً ما عاقب اللُّوطيّة .

قال ابن أبي نُجيحٍ[3] في تفسيره عن عمرو بن دينار في قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال : ما نَـزا[4] ذكَرٌ على ذكرٍ حتى كان قومُ لوط . وقال محمد بن مَخْلَدٍ : سمعت عباساً الدُّوريَّ يقول : بلغني أن الأرض تَعُجُّ[5] إذا ركب الذَّكَرُ على الذكر . وذكر ابن أبي الدُّنيا بإسناده عن كعب قال : كان إبراهيم يُشْرِفُ على سدوم[6] فيقول : ويل لكِ سدوم يوماً مالك ، فجاءت إبراهيمَ الرُّسلُ وكلَّمهم إبراهيم في أمر قولم لوط قالوا : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ قال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾[7] فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأتُه فجاءه قومُه يُهْرَعُون إليه فقال : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[8] أُزوِّجكم بهنَّ ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾[9] ؟ وجعل لوطُ الأضياف في بيته وقعد على باب البيت وقال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أو آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[10] قال : أي عشيرةٍ تمنعني قال : ولم يُبْعث نبيٌّ بعد لوطٍ إلا في عِزٍّ من قومه ، فلما رأت الرُّسُلُ ما قد لقي لوطٌ في سببهم ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا

(١) العذرة : الغائط .
(٢) التعزير : الزجر والتأديب لما هو دون الحد .
(٣) ابن ابي نجيح: لم أقف على ترجمته.
(٤) يقال نزا الفحل ينزو أي وثب يثب .
(٥) تعج : تصرخ وتصيح .
(٦) سدوم : قرية قوم لوط .
(٧) ، (٨) ، (٩) ، (١٠) هود (١١ / ٧٧ - ٧٨ - ٨٠ - ٨١) .

يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ آمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُم الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾(١) فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربةً طَمَسَت أعينَهم قال : والطمسُ أن تذهب حتى تستوي ، واحتمل مدائنَهم حتى سمع أهلُ سماء الدنيا نَبيحَ كلابهم وأصواتَ دُيوكهم ، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجارةً من سَجِّيلٍ(٢) قال : عَلَى أهل بواديهم وعلى رُعاتهم وعلى مسافريهم ، فلم ينفلت منهم إنسان . وقال مجاهد : نزل جبريل عليه السلام فأدخل جَنَاحَهُ تحت مدائن قوم لوطٍ فرفعها حتى سمع أهل السماء نَبِيحَ الكلاب وأصواتَ الدَّجاج والدِّيَكَة ، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلَها ثم أُتبعوا بالحجارة .

وفي تفسير أبي صالحٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أغلق لوطٌ على ضيفه الباب فخلعوا الباب ودخلوا ، فَطَمَس جبريل أَعينَهم فذهبت أبصارهم فقالوا : يا لوط جئتنا بالسحرة ذ وتَوَعَّدوه ، فأوجس في نفسه خيفةً قال : يذهب هؤلاء ونُؤْذَى ، فقالوا : لا تخف إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ آلصُّبْحُ قال لوط : الساعةَ ، قال جبريل : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ قال : فرُفعت المدينة حتى سمع أهل السماء نَبيحَ الكلاب ثم أُقلِبت ورمُوا بالحجارة . وقال حُذَيفة بن اليَمَان : لما أرسلت الرسلُ إلى قوم لوطٍ لتهلكهم قيل لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ ثلاث مرّات ، وطريقهم على إبراهيم قال : فأتوْا إبراهيمَ فبشرُوه بما بشروه ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾(٣) قال : كان مجادلتُه إيَّاهُم أن قال لهم : إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم ؟ قالوا : لا ، قال : أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا : لا ، قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة ، فأتَوْا لوطاً وهو في أرض يعمل فيها فحسبهم ضيفاً ، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأتَوْا معه فالتفت إليهم فقال : أَما تَرَوْنَ ما يصنع

(١) هود (١١/٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١).
(٢) سجيل : طين مطبوخ .
(٣) هود (١١ / ٧٤) والروع : الفزع .

هٰؤلاء ؟ قالوا : وما يصنعون ؟ قال : ما من الناس أحدٌ شرٌّ منهم ، قال : فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوءُ امرأتُه فأتت قومه فقالت : لقد تضيف لوطاً الليلةَ قومٌ ما رأيت قطُّ أحسنَ وجوهاً ولا أطيبَ ريحاً منهم ، فأقبلوا يُهْرَعُونَ إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقلبوه عليهم ، فقام مَلَكٌ بجناحه فَصَفَقَه دونهم ثم أغلق الباب ثم عَلَوْا الأجاجيرَ[1] فجعل يخاطبهم فقال : ﴿ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[2] حتى بلغ ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾[3] فطمس جبريل أعينَهم فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلةَ حتى عَمِيَ قال : فباتوا بشرِّ ليلةٍ عُمْياً ينتظرون العذاب . قال : وسار بأهله واستأذن جبريلُ عليه السلام في هلاكهم فأذن له ، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فألوي[4] بها حتى سمع أهلُ السماء الدُّنيا ضُغَاءَ[5] كلابهم ، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال : فسمعت امرأتُه الوَجْبَةَ[6] وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب .

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما : جادل إبراهيمُ الملائكةَ في قوم لوط أن يُتْرَكُوا فقال : أرأيتم إن كان فيهم عشرةُ أبياتٍ من المسلمين أتتركونهم ؟ فقالت الملائكة : ليس فيها عشرةُ أبيات ولا خمسةٌ ولا أربعةٌ ولا ثلاثة ولا اثنان ، فحزن إبراهيم على لوط وأهل بيته و ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانت مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[7] فذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إبراهِيمَ لَحَلِيمٌ

---

(١) الأجاجير : جمع مفرده إجار وهو السطح .
(٢) هود (١١ / ٧٨) .
(٣) هود (١١ / ٨٠ ـ ٨١) .
(٤) ألوى بها : ذهب مصعداً بها .
(٥) الضغاء : الصياح من شدة الألم .
(٦) الوجبة : الصوت الساقط .
(٧) العنكبوت (٢٩ / ٣٢) . راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٣ / ٢٣٦) . والغابرون : الماضون الهالكون .

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾[1] فقالت الملائكة : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾[2] فبعث الله إليهم جبريل فانتسف المدينة ومن فيها بأحد جَنَاحَيه فجعل عاليَهَا سافلها وتبعتهم الحجارة بكل أرضٍ . فأهلك الله سبحانه الفاعلَ والمفعول به ، والساكت الرَّاضيَ ، والدَّالَّ المحصَنَ منهم وغيرَ المحصن ، العاشقَ والمعشوق ، وأخذهم وهم في سكرة عشقهم يَعْمَهُون .

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال : إنَّ الملائكة حين دخلوا عَلَى لوطٍ ظنَّ أنهم أضيافٌ ضافوه فاحتفل لهم وحَرَص على كرامتهم ، وخالفته امرأته إلى فسّاق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسنُ الناس وجهاً وأنضرُهم جمالاً وأطيبُهم ريحاً ، فكانت هذه خيانتَها التي ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه . وفيه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾[3] قال : واللّهِ مَا زَنَتَا وَلَا بغت ٱمْرَأةُ نبيٍّ قطّ فقيل له : فما كانت خيانة امرأةِ نوحٍ وامرأة لوطٍ ؟ فقال ، أما امرأة نوحٍ فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما امرأة لوطٍ فإنها كانت تَدُلُّ عَلَى الضَّيف .

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده ، حدَّثنا سليمان بن داود ، حدَّثنا عبدالوارث حدَّثنا القاسم بن عبدالرحمن ، حدَّثنا عبداللّٰه بن محمد بن عقيل قال : سمعت جابر بن عبداللّٰه رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي عَمَلُ قَوْمِ لوطٍ »[4] وقال هشام بن عمّار : حدَّثنا عبدالعزيز الدَّرَاوَرْدِي عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عِكْرِمَةَ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَعَنَ اللّٰهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ ، وَلَعَنَ اللّٰهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لوطٍ » (رواه الإمام

---

(١) و (٢) هود (١١ / ٧٤ ـ ٧٦) .

(٣) التحريم (٦٦ / ١٠) .

(٤) الحديث رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجة .

أحمد) وقال ٱلْقَعْنَبِي : حدَّثنا عبدالعزيز هو الدَّرَاوَرْدِي ، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبدالله بن حَنْطَب المخزومي ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوالِيهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأَرْضِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ثَلاثاً ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ »(١) . هذا الإسناد على شرط البخاري .

وقال أبو داود الطيالسي : حدَّثنا بشر بن المفضَّل ، عن خالد ٱلْحَذَّاء ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذَا بَاشَرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ » وفي لَفْظٍ : « إذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ »(٢) .

وفي المسند والسنن من حديث عِكْرِمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » وفي لفظ : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ الْمَفْعُولَ بِهِ »(٣) وإسناده على شرط البخاري .

وروى سهيلُ بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فارْجُمُوهُ أو قال : فاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » .

---

(١) الحديث رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي كما في الترهيب والترغيب . والتخوم : جمع تخم وهو الحد الفاصل بين أرضين ، وكمه الأعمى : أضله .

(٢) رواه البيهقي في السنن .

(٣) رواه أبو داود والترمذي كما قال ذلك الهيثمي في الزواجر .

وحرق اللوطيَّةَ بالنار أربعةٌ من الخلفاء : أبو بكر الصِّدِّيقُ ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ ، وعبدُاللّه بن الزُّبير ، وهشام بن عبدالملك .

وقال حمّاد بن سَلَمَةَ(١) عن قتادة ، عن خِلاس ، عن عبيداللّه بن معمر قال : يُقْتَلُ اللُّوطِيُّ . وقال سعيد بن المسيَّب : عندنا علىَ اللوطيّ الرجم أُحصن أو لم يُحْصَنْ سنّةٌ ماضية ، وهذا يدلّ على أن ذلك سنّةٌ مضى عليها العمل .

وقال الشَّعبيّ : يقْتَلُ أُحْصِن أو لم يُحْصَن . وقال الزهريّ وربيعة وابن هرمز ومالكُ بن أنس : عليه الرجم أُحْصِن أو لم يُحْصن .

وقال بعض العلماء : وإنما قال سعيد بن المسيَّب : إن ذلك سنَّةٌ ماضيةٌ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ، ولم يقل محصناً أو غيرَ مُحْصَن .

وحرقهم أبو بكرٍ رضي الله عنه بالنار بعد مشاورة الصحابة ، وأشارَ عليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بذلك ، وحرقهم عليٌّ وابن الزبير كما ذكره الآجريّ وغيرُه عن محمد بن المنكدر أن خالدَ بن الوليد كتب إلى أبي بكر أنه وجد رجلًا في بعض ضواحي العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأةُ ، فجمع أبو بكر لذلك أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنهم فقال عليٌّ : إن هذا ذنبٌ لم يعمل به إلا أُمةٌ واحدةٌ ففعل الله بهم ما قد علمتم ، أُرى أن تحرقوه بالنار ، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحْرَقَ بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق .

---

(١) حماد بن سلمة : وهو حماد بن سلمة بن دينار البصري الربعي بالولاء ، أبو سلمة مفتي البصرة وأحد رجال الحديث ورجال النحو كان حافظاً ثقة مأموناً ، ولكنه لما كبر ساء حفظه فتركه البخاري ، وأما مسلم فاجتهد وأخذ من حديثه بعض ما سمع قبل تغييره . تهذيب التهذيب (٣ / ١١) ، وميزان الاعتدال (١ / ٢٧٧) ، وحلية الأولياء (٦ / ٢٤٩) .

قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبدالملك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يُرْجَم اللوطي بكراً كان أو ثيّباً .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فاقتلوه ، ولم يفرّق أحدٌ منهم بين المحصَنِ وغيره ، وصرّح بعضُهم بعموم الحكم للمحصَن وغير المحصَن ، فلذلك قال ابن المسيّب : إن هذا سنّةٌ ماضية .

وفي مسائل إسحٰاق بن منصور الكَوْسَج قلت لأحمد : يُرْجَمُ اللُّوطِيُّ أُحصِن أو لم يُحْصَن ؟ فقال : يُرْجَمُ أُحْصِنَ أو لم يُحْصن . قال إسحاق بن راهويه : هو كما قال .

والسنّةُ في الذي يعمل عمل قوم لوطٍ أن يُرْجَمَ محصناً كان أو غيرَ محصَن لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ » رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، ثم أفتى ابن عباس بعد النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يعمل عمل قوم لوطٍ أنه يُرْجَمُ وإن كان بكراً ، فحكم في ذلك بما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك رُوي عن علي بن أبي طالب مثلُ هذا القول إن اللوطيَّ يُرْجَمُ ولم يذكر محصَناً كان أو غير محصَن ، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط ، وكذا يُرْوَى عن أبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أنه حرقهم بالنار . هذا كلام إسحاق رحمه الله .

وذكر الآجري[1] في كتاب تحريم اللواط من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً : « سَبْعَةٌ لاَ يَنْظُرُ ٱللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَيَقُول : ٱدْخُلُوا النَّارَ مَعَ

(١) الآجري : هو محمد بن الحسين بن عبدالله ، أبو بكر الآجري : فقيه شافعي محدث نسبة إلى آجر من قرى بغداد ، وتوفي سنة ٣٦٠ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٤٨٨) ، وصفة الصفة (٢ / ٢٦٥) ، وكشف الظنون (١ / ٣٧) ، والنجوم الزاهرة (٤ / ٦٠) .

الدَّاخِلِينَ : الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُول بِهِ ، وَالنَّاكِحُ يَدَهُ ، وَنَاكِحُ الْبَهِيمَةِ ، وَنَاكِحُ الْمَرْأَةِ فِي دُبُرِهَا ، وَالْجَامِعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَابْنَتِهَا ، وَالزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ ، وَالْمُؤْذِي لَجَارِهِ حَتَّى يَلْعَنَهُ » .

وذكر عن أنس مرفوعاً نحوه وقال : « آدْخُلوا النَّارَ أَوَّل الدَّاخِلِينَ إلاَّ أَنْ يَتُوبُوا ، إلاَّ أَنْ يَتوبُوا ، إلاَّ أَنْ يَتوبُوا ، فَمَنْ تَابَ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ : « النَّاكِحُ يَدَهُ ، وَالْفَاعِلُ ، وَالْمَفْعولُ بِهِ ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ ، وَالْضارِبُ أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَغِيثَا ، وَالْمُؤْذِي جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ ، وَالزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ »[١] .

وقال مجاهد : لو أن الذي يعمل ذلك العمل يعني عمل قوم لوطٍ اغتسل بكل قطرةٍ في السماء وكلُّ قطرةٍ في الأرض لم يزل نجساً ، وقد ذكر الله سبحانه عقوبةَ اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سُوَرٍ من القرآن وهي : سورة الأعراف ، وهود ، والْحِجْر ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصافات ، واقتربت الساعة ، وجمع على القوم بين عمي الأبصار وخَسْفِ الديار ، والقَذْف بالأحجار ، ودخول النار . وقال محذراً لمن عَمل عَمَلَهم ما حل بهم من العذاب الشديد : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾[٢] .

وقال بعض العلماء : إذا علا الذكَرُ الذكرَ هربت الملائكة ، وعجَّت[٣] الأرض إلى ربِّهَا ، ونزل سَخَط الجبّار جلّ جلالُه عليهم ، وغَشِيَتْهُمُ اللعنةُ ، وحفَّت بهم الشياطين ، واستأذنتِ الأرض ربَّهَا أن تَخْسِف بهم ، وثَقُلَ العرش على حَمَلَتِه ، وكبَّرَت الملائكةُ ، واستعرت[٤] الجحيم ، فإذا جاءته رُسُلُ اللَّهِ لقبض رُوحِهِ نقلوها إلى ديار إخوانهم ، وموضع عذابهم ، فكانت روحُه بين أرواحهم . وذلك أضيقُ مكاناً وأعظمُ عذاباً من تَنُّور الزُّنَاة . فلا كانت لذَّةٌ توجب هذا العذاب

(١) الحديث رواه الحسن بن عرفة في جزئه والبيهقي في شعب الإيمان .
(٢) هود (١١ / ٨٩) .
(٣) عجت : صاحت .
(٤) استعرت النار : توقدت والتهبت .

الأليم ، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم . تذهب اللَّذات ، وتُعقب الحسرات ، وتَفْنى الشهوة ، وتَبْقى الشقوة . وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يُنْشِد :

تَفْنى اللَّذَاذَةُ ممن نـال صفـوتَهـا ... من الحرام ويَبْقى الْخِزْيُ وَالْعَـارُ
تَبْقى عـواقبُ سوءٍ في مَغَبَّتِهَـا[1] ... لا خيرَ في لَذَّةٍ من بعدها النارُ

فصل

وأما إن كانت الفاحشةُ مع ذي رَحِمٍ مَحْرَمٍ فذلك الهُلكُ كلُّ الهُلك ، ويجب قتلُ الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره .

واحتجَّ أحمد بحديث عَدِيِّ بنِ ثابت عن البَرَاء بن عازِب قال : لقيت خالي ومعه الرايةُ فقلت : أين تريد ؟ قال : بعثني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى رجلٍ تزوَّج امرأة أبيه أضرب عنقه ، وآخذ ماله (رواه الإمام أحمد) واحتجَّ به .

وقال شعبة : حدَّثنا الرُّكَيْنُ بن الربيع عن عَدِيِّ بن ثابت عن البَرَاء قال : رأيت أُناساً ينطلقون فقلت : أين تذهبون ؟ قالوا : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل يأتي امرأةَ أبيه أن نقتله .

وذكر عبدالله بن صالح : حدَّثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جُرَيْجٍ ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ وَالَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ وَالَّذِي يَأْتِي كُلَّ ذَاتِ مَحْرَمٍ » وقال هشام بن عمَّار : حدَّثنا رِفْدَةُ بنُ قُضَاعة ، حدَّثنا صالح بن راشد قال : أُتِيَ الحَجَّاجُ برجلٍ قد اغتصب أُختَه عَلى نفسها فقال : احبسوه وسلوه مَن هٰهنا من أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ فسألوا عبدَالرَّحمن بن مطرف[2] فقال : سمعت رسول الله

(١) مغبة الأمر : عاقبته .

(٢) عبدالرحمن بن مطرف : هو عبدالرحمن بم مروان بن عبدالرحمن الأنصاري أبو المطرف القنازعي ، =

صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ تَخَطَّى الْحُرْمَتَيْنِ فَخُطُّوا وَسْطَهُ بِالسَّيْفِ » . وأفتى ابنُ عباس رضي الله عنهما بمثل ذلك . وقال عمر بنُ شَبَّةَ : حدَّثنا مُعاذ بن هشام ، حدَّثنا أبي عن قَتَادَةَ قال : أُتِيَ الْحَجَّاجُ برجلٍ زنى بأُخته ، فسأل عنها عبدالله فقال : يُضْرَبُ بالسيف ، فأمر به الحجَّاجُ فضرب عنقه بالسيف .

وذكر جماعةٌ عن حمّاد بن سَلَمَةَ ، عن بكر بن عبدالله المُزَنِيّ أن رجلاً تزوَّجَ خالته فرُفع إلى عبدالملك بن مروان فقال : إنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَحِلُّ لِي فقال : لا جهالة في الإسلام وأظنُّ أَنَّهُ أَمَرَ به فَقُتِلَ . وفي مسائل صالح بن أحمد قال : سألت أبي عن الرجل الذي تزوّج ذات مَحْرَم منه فقال : إن كان عمداً يُقْتَلُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ ، وإن كان لا يعلم يُفَرَّقُ بينهما ، وأستحبّ أن يكون لها ما أخذت منه ولا يَرْجِع عليها بشيء . وفي صحيفة عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جدّه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَتَى ذَاتَ مَحْرَمٍ » .

= فقيه مالكي من رجال الحديث والتفسير من أهل قرطبة توفي سنة ٤١٣ هـ . الصلة (٣١٦) والمغرب في حلي المغرب (١ / ١٦٦) ، والديباج المذهب (١٥٢) ، والإعلام للزركلي (٤ / ١١٢) .

الباب الخامس والعشرون

في رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾(١) وكلُّ من أعان غيرَهُ على أمْرٍ بقوله أو فعله فقد صار شفيعاً له ، والشفاعةُ للمشفوع له هذا أصلُهَا ، فإن الشافع يَشْفع صاحبَ الحاجة فيصير له شَفْعاً في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها ، فدخل في حكم هذه الآية كلُّ متعاونين على خيْرٍ أو شرٍّ بقولٍ أو عمل . ونظيرُها قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾(٢) . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا جاءه طالب حاجةٍ يقول : « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا أَحَبَّ »(٣) ، وفي صحيح البخاري أن بَرِيرَةَ لما عَتَقَتْ اختارت نفسَها فكان زوجُها يمشي خلفها ودموعُه تسيل على لحيته ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ » فقالت : أتأْمُرُني ؟ قال : « لَا إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » قالت : فلا حاجة لي فيه . فهذه شفاعةٌ من سيِّدِ الشُّفَعَاءِ لمحبٍّ إلى محبوبه ، وهي من أفضل الشفاعات وأَعْظَمِهَا

(١) النساء (٤ / ٨٥) .

(٢) المائدة (٥ / ٢) .

(٣) الحديث رواه الشيخان وذلك برواية « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب » وبلفظ (ما شاء) عن أبي موسى وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١ / ٤٣) .

أجْراً عند الله ، فإنها تتضمَّن اجتماع محبوبَيْنِ على ما يحبّه الله ورسوله ، ولهذا كان أحبّ ما لإبليس وجنودِه التفريق بين هذين المحبوبين . وتأمّل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة ﴿ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ﴾ وفي السيِّئةِ ﴿ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ . فإن لفظ الكِفْلِ يُشْعِرُ بالحمل والثِّقَلِ ، ولفظَ النصيب يُشْعِرُ بالحظِّ الذي يَنْصَبُ طالبُه في تحصيله ، وإن كان كلٌّ منهما يُسْتعمل في الأمرين عند الإنفراد ، ولكن لما قرن بينهما حَسُنَ اختصاصُ حظِّ الخير بالنصيب وحظِّ الشرّ بالكِفْلِ .

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلاً عَلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوَّجَ ابنةً له وكان خطبها قبل ذلك عمّ بنتها ، فبلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنها كارهةٌ هذا الذي زوّجها أبوها ، وأنه كان يعجبها أن يتزوّجها عمُّ بنتها ، فأهدر النبيّ صلى الله عليه وسلم نكاح أبيها وزوَّجها عمَّ بنتها[١] . وقد تقدَّم حديثُ عمرو بن دينار ، عن طاوُس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال : يا رسول الله ، في حِجْرِي يتيمةٌ قد خطبها رجُلٌ مُوسِرٌ ورجُلٌ مُعْدِمٌ ، فنحن نحبّ الموسِرَ وهي تحبّ المُعْدِمَ . فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكاحِ » رواه سليمان بن موسى عنه .

وقال مَخْلَد بن الحسين : حدَّثنا هشام بن حسّان ، عن محمد بن سِيرِين[٢] قال : كان عمر بن الخطاب يَعُسُّ بالليل فسمع صوتَ امرأةٍ تغنّي وتقول :

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشرَبَهَا   أم هل سبيلٌ إلى نصر بن حجّاج

فقال : أمَّا وعمر حيٌّ فلا . فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجّاج فإذا رجلٌ

---

(١) وهذه القصة ذكرها البخاري في صحيحه ، وابن ماجة في سننه بألفاظ اخرى عن خنساء بنت خذام الأنصارية .

(٢) محمد بن سيرين : البصري الأنصاري بالولاء ، أبو بكر ، إمام عصره في علوم الدين بالبصرة ، تابعي من أشراف الكتاب ، مولده ، ووفاته بالبصرة نشأ بزازاً في أذنه صمم ، وتفقه في علم الحديث ، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ، راجع ترجمته في تهذيب التهذيب (٩ / ٢١٤) ، ووفيات الأعيان (١ / ٤٥٣) ، وحلية الأولياء (٢ / ٢٦٣) ، وتاريخ بغداد (٥ / ٣٣١) .

جميلٌ فقال : اخرج فلا تساكني بالمدينة ، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مُجاشع بن مسعود ، وكانت له امرأةٌ جميلةٌ فأعجبها نصر ، فكتب لها نصر في الأرض كتاباً فقالت : وأنا ، فعلم مُجَاشعٌ أنها جواب كلام ، وكان مجاشعٌ لا يكتب والمرأة تكتب ، فدعا بإناءٍ فأكفاه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو : إني لأُحِبُّكِ حبًّا لو كان فوقكِ لأَظَلَّكِ وَلو كان تحتكِ لأقلَّكِ[1] ، وبلغ نصراً ما صنع مُجاشع فاستحيا ولَزِمَ بيته وضَنِيَ جسمُهُ حتى كان كالفرخ[2] ، فقال مجاشع لامرأته : اذهبي إليه فأسنديه إلى صدرك ، وأطعميه الطعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فأتته فأسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها ، فلما تحامل خرج من البصرة .

إنَّ الذين بخيرٍ كنتَ تذكرهم هم أهلكوك وعنهم كنتُ أنهاكا
لا تطلبنَّ شفاءً عند غيرهم فليس يُحْيِيك إلا من توفَّاكا

فإن قيل : فهل تبيح الشريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعيَّنَ طريقاً للدواء ونجاة العبد من الهَلَكةِ لم يكن بأعظمَ من مداواة المرأة للرجل الأجنبيّ ، ومداواته لها ، ونظرِ الطبيب إلى بدن المريض وَمَسِّهِ بيده لِلْحَاجَةِ . وأما التداوي بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجهٍ ما ، وأما التداوي بالضمّ والقُبلة فإن تحقّق الشفاءُ به كان نظيرَ التداوي بالخمر عند من يبيحه ، بل هذا أسهل من التداوي بالخمر فإنَّ شُرْبَهُ من الكبائر . وهذا الفعل من الصغائر[3] . والمقصود أن الشفاعة للعشّاق ، فيما يجوز من الوصال والتلاق ، سنّةٌ ماضية وسعيٌ مشكور .

وقد جاء عن غير واحدٍ من الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم أنهم شفعوا هذه الشفاعة .

---

(١) أقلّ الشيء : حمله .
(٢) الفرخ : ولد الطائر ، وكل صغير من الحيوان والنبات يقال له فرخ ، وهو أيضاً الذليل الطريد من الرجال .
(٣) وهذا الرأي نقض المؤلف رأياً آخراً له فيه سبق ص ١٣٢ وما تلاها .

فقال الخرائطي : حدَّثنا عليُّ بن الأعرابيّ ، حدَّثنا أبو غسان النَّهْدِيّ قال : مرّ أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في خِلاَفَتِهِ بطريقٍ من طُرُقِ المدينةِ فإذا جاريةٌ تطحنُ برحاها وهي تقول :

وهَـوِيتُه من قبـل قـطع تمائمي   متمـايساً(١) مثـل القضيب النـاعم
وكـأنَّ نُـورَ الْبَـدْرِ سُنَّةَ وَجْهِـهِ   يَنْمِي(٢) وَيصعد في ذُؤابة(٣) هاشم

فدقّ عليها البابَ فخرجتْ إليه فقال : ويلك أَحُرَّةٌ أنتِ أم مملوكة ؟ فقالت : بل مملوكةٌ يا خليفة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قالَ : فمن هَوِيتِ ؟ فبكت ثم قالت : بحقّ الله إلا انصرفتَ عنِّي ، قال : لا أَرِيمُ(٤) أو تعلميني فقالت :

وأنـا التي لعب الغـرامُ بقلبهـا   فبكت لحبِّ محمـد بن القـاسم

فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جَعفر بن أبي طالب وقال : هؤُلاء فِتَن الرجال ، وكم قد مات بهنَّ من كريم ، وعَطِبَ عليهنَّ من سليم .

ويُذكَر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه جاءته جاريةٌ تستعدي على رجُلٍ من الأنصار فقال لها عثمان : ما قصّتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين كَلِفْتُ بابن أخيه ، فما أَنْفَكُّ أُرَاعِيه ، فقال له عثمان : إما أن تَهَبَهَا لابن أخيك أو أُعطيَك ثمنها من مالي ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

وأُتِيَ عَلِيُّ بن أبي طالب بغلامٍ من العرب وُجد في دار قومٍ بالليل فقال له : ما قصتك ؟ فقال : لست بسارقٍ ولكنِّي أصدُقُكَ .

تعلّقتُ في دار الـربـاحيّ خَـوْدَةً   يَذِلُّ لها من حسنها الشمسُ والبدرُ

---

(١) متمايساً : من ماس أي اختال وتبختر في مشيته .
(٢) ينمي : يزيد .
(٣) الذؤابة : منبة الناصية من الرأس ، وذؤابة القوم : سيدهم والمقدم عليهم .
(٤) لا أريم : لا أبرح .

لها في بنات الرُّوم حُسْنٌ ومَنْصِبٌ إذا افتخرت بالحسن صدّقها الفخرُ
فلما طرَقتُ الدارَ من حَرّ مُهْجَةٍ أتيت وفيها من توقُّدها جمرُ
تبادر أهلُ الدار لي ثم صيّحُوا هو اللصُّ محتوماً له القتلُ والأسرُ

فلما سمع عليٌّ شعرَه رقّ له وقال للمهلّب بن رباح : اسمح له بها ونعوّضك منها ، فقال : يا أمير المؤمنين سَلْهُ مَنْ هو لنعرف نسبه ؟ فقال : النَّهّاسُ بن عُيَيْنَةَ الْعِجْلِيّ ، فقال : خذها فهي لك .

وذكر التميمي في كتابه المسمى « بامتزاج النفوس » أن معاوية بن أبي سفيان اشترى جاريةً من البحرين فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقتُه كالغصن يهتزُّ في الثرى طَرِيراً وَسِيماً بعد ما طرّ[1] شاربُه

فسألها فقالت : هو ابن عمّي ، فردّها إليه وفي قلبه منها .

وقال سالم بن عبدالله : كانت عاتكة بنت زيد تحت عبدالله بن أبي بكر لصدّيق رضي الله عنه ، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سُوقه ، فأمره أبو كر بطلاقها واحدةً ففعل ، فوَجَدَ عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة ، لما بَصُرَ بأبي بكر بكى وأنشأ يقول :

لم أَرَ مثلي طلّقَ اليومَ مثلها ولا مثلَها غي غير جُرْمٍ يطلّق
لها خُلُقٌ جَزْلٌ[2] وَحلمٌ ومَنْصِبٌ وخَلْقٌ سَوِيٌّ في الْحَيَاةِ ومَصْدَقُ

فرقّ له أبو بكر رضي الله عنه وأمره بمراجعتها ، فلما مات قالت ترثيه :

آليتُ[3] لا تنفكُّ عيني سخينةً[4] عليكَ ولا ينفكّ جلديَ أغبرا

---

(١) طر شاربه : نبت وظهر .
(٢) الخلق الجزل : الكريم الخلال ، المحمود النقيبة
(٣) كذا وردت وفي الأغاني (فأقسمت) .
(٤) عين سخينة : حزينة من الأسى .

فللّه عينـا مَن رأى مـثلَه فـتىً أعفَّ وأمضى في الهِيَاجِ وأصبرا
إذا شرَعت[1] فيه الأسنَّةُ خاضهـا إلى الموت حتى يترك الرمحَ أحمرا

فلما حلّت تزوَّجها عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ وأولم عليها ، فقال له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : أتأذن لي يا أمير المؤمنين أُدخل رأسي إلى عاتكة أكلِّمها ؟ قال : نعم ، فأدخل عليٌّ رأسه إليها وقال : يا عُدَيَّةَ نفسها .

آليت لا تنفـكُّ عـيني قـريـرةً عليـكَ ولا ينفـكُّ جلدي أصفـرا

فبَكتْ ، فقال له عمر : ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن ؟ كلُّ النساء يفعلن هذا . فلما قُتل عمر قالت ترثيه :

عين جُـودي بـعـبـرةٍ ونـحـيـبِ لا تَمَلِّي على الجـواد الـنجيب
فـجعتني المـنـون بـالـفـارس المُعْلَمِ يـوم الْـهِـيـاج والـتـثـويـب[2]
قل لأهل الضـرّاء والبؤس موتـوا قد سقته المنونُ كأسَ شَعُوب[3]

فلما حلّت تزوَّجها الزُّبير بن العوّام ، فاستأذنت ليلةً أن تخرج إلى المسجد فشقّ ذلك عليه وكرِهَ أن يمنعها لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَمْنَعوا إمَاءَ اللّهِ مَسَاجِدَ اللّهِ »[4] فأذن لها ثم انكمى[5] في موضعٍ مظلمٍ من الطريق ، فلما مرّت وضع يدَهُ عليها ، فكرّت راجعةً تسبِّحُ ، فسبقها الزبير إلى المنزل ، فلما رجعت قال لها : ما ردَّكِ عن وجهك ؟ قالت : كنَّا نخرج والناس ناس ، وأما اليوم فلا . وتركت المسجد ، فلما قُتل الزبير قالت ترثيه :

---

(١) شرعت فيه الأسنة : تسددت .
(٢) التثويب : هي قول المؤذن في أذان الفجر « الصلاة خيرٌ من النوم » .
(٣) شعوب : اسم من أسماء المنية لأنها تشعب أي تفرق .
(٤) تقدم تخريج هذا الحديث .
(٥) انكمى : استتر واختفى .

غدر ابن جُرموز بفارس بُهْمَةٍ[1]   يوم اللقاء وكان غير مُعَرِّدِ[2]
يا عمرو لو نبَّهْتَه لوجدتَه   لا طائشاً رَعِشَ السِّنَانِ وَلا اليد
ثكلتك أُمُّكَ إن ظفرت بمثله   فيما مضى حتى تروحَ وتغتدي
كم غمرةٍ[3] قد خاضها لم يَثْنِهِ   عنها طرادُك يا ابن أُمِّ الفرقد[4]
إن الزبير لذو بلاءٍ صادقٍ   سمحٌ سجيتُه كريمُ المشهد

فلما حلت خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالت : إني لأضِنّ بِكَ على القتل .

وذكر الخرائطي أن المهديّ خرجَ إلى الحجّ حتى إذا كان بزُبالة[5] جلس يتغدّى فأتى بدويٌّ فناداه : يا أميرَ المؤمنين إني عاشقٌ ، ورفع صوته ، فقال للحاجب : ويحك ما هذا ؟ قال : إنسان يصيح إني عاشق ، قال : أدخلوه ، فأدخلوه عليه فقال : مَن عشيقتُك ؟ قال : ابنةُ عمي ، قال : أوَلَهَا أبٌ ؟ قال : نعم ، قال : فما له لا يزوّجك إياها ؟ قال : ها هنا شيءٌ يا أميرَ المؤمنين ، قال : ما هو؟ قال : إني هَجِينٌ ـ والهجينُ : الذي أُمُّهُ أَمَةٌ ليست عربيةً ـ قال له المهدي : فما يكون ؟ قال : إنه عندنا عيبٌ ، فأرسل في طلب أبيها فأتِيَ به ، فقال : هذا ابن أخيك ؟ قال : نعم ، قال : فلِمَ لا تزوّجه كريمتك ؟ فقال له مثلَ مقالة ابن أخيه ، وكان من ولد العباس عنده جماعةٌ ، فقال : هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هُجُن ما الذي يضرّهم من ذلك ؟ قال : هو عندنا عيبٌ ، فقال له المهدي : زوّجه إياها عَلَى عشرين ألف درهم ،. عشرة آلافٍ للعيب ، وعشرة آلاف مَهْرُهَا ، قال : نعم ، فحمِدَ الله وأثنى عليه وزوّجه إياها ، فأتى بِبَدْرَتَيْنِ فدفعهما إليه فأنشأ الشابّ يقول :

(١) البهمة : الشجاع يستبهم على أعدائه وجه سحقه لهم .
(٢) معرِّد : هارب وناكل محجم .
(٣) الغمرة : الشدة .
(٤) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالي .
(٥) زبالة : بضم الزاي المعجمة : منزل بطريق مكة من الكوفة .

إبْتَغتُ ظَبْيَــةَ بِـالْغَـلاَءِ وإنـمـا ... يُعْـطِي الغَـلاَءَ بمثلهـا أمثـالي
وتــركت أسـواقَ القِبـاح لأهلهـا ... إن القِبـاح وإن رَخُصْنَ غـوَالي

وذكر الخرائطي من حديث الهيثم بن عَدِيّ عن عَوَانَةَ بن الحكم أن عمر بن أبي ربيعة كان قد ترك الشعر ورغب عنه ونذر على نفسه بكلّ بيتٍ يقوله هَدْيٌ[1] بَدَنَة[2] ، فمكث كذلك حيناً ثم خرج ليلةً يريد الطواف بالبيت إذ نظر إلى امرأةٍ ذات جمالٍ تطوف ، وإذا رجلٌ يتلوها ، كلما رفعت رِجْلَها وضع رِجله موضعَ رِجْلها ، فجعل ينظر إلى ذلك من أمرهما ، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هُنَيْهَةً ثم رجع ، فلما رآه عمر وثب إليه وقال : لَتُخْبِرَنِّي عن أمرك ، قال : نعم ، هذه المرأة التي رأيتَ ابنةُ عمِّي وأنا لها عاشقٌ وليس لي مال ، فخطبتها إلى عمِّي فرغب عني[3] وسألني المَهْرَ ما لا أقدر عليه ، والذي رأيتَ هو حظِّي منها ، ومالي من الدُّنيا أمنيةٌ غيرُها ، وإنما ألقاها عند الطواف وحظِّي ما رأيتَ من فعلي . فقال له عمر : ومَن عمُّك ؟ قال : فلان بن فلان ، قال : انطلق معي إليه ، فانطلقا ، فاستخرجه عمر فخرج مبادراً فقال : ما حاجتُك يا أبا الخطّاب ؟ قال : تزوّج ابنتك فلانةَ من ابن أخيك فلان ، وهذا المَهْرُ الذي تسأله يُسَاق إليك من مالي ، قال : فإني قد فعلت . قال عمر : إني أُحبُّ أن لا أبرحَ حتى يجتمعا ، قال : وذلك أيضاً ، قال : فلم يَبْرَحْ حتى جمعهما جميعاً ، وأتى منزلَه فاستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأْخذه ، وجعل جوفُه يَجِيش[4] بالشعر ، فأنكرت جاريته ذلك ، فجعلت تسأله عن أمره وتقول : ويحك ما الذي قد دهاك ؟ فلما أكثرت عليه جلس وأُنشد :

تـقــول وَلِـيــدتـي لـمّــا رأتـنـي ... طـربتُ وكنت قد أُقصرتُ حينا

---

(١) الهدي : ما يهدي إلى الحرم من النعم .
(٢) البدنة : بقرة أو ناقة تنحر بمكة وسميت بذلك لأنهم يغذونها بسخاء لأجل ذلك .
(٣) رغب عني : انصرف عني .
(٤) يجيش : يفيض ويذخر .

أراكَ اليوم قد أحدثت شوقاً وهاج لك البكا داءً دفينا[1]
بربك هل أتاك لها رسولٌ فشاقك أم رأيتَ لها خَدِينا[2]
فقلت شكا إليَّ أخٌ محبٌّ كبعض زماننا إذ تعلمينا
فعدَّ عليَّ ما يَلْقى بهندٍ فوافق بعضُ ما كنَّا لقينا
وذو القلب المصاب وإن تعزَّى يُهَيَّجُ حين يلقي العاشقينا
وكم من خُلَّةٍ[3] أعرضت عنها لغير قِلىً وكنتُ بها ضنينا[4]
رأيتُ صدودها فصددت عنها ولو هام الفؤادُ بها جنونا

وعرض خالد بنُ عبدالله القَسْريّ سجنَه يوماً وكان فيه يزيد بن فلان البجلي[5] ، فقال له خالد : في أيّ شيءٍ حُبست يا يزيد ؟ قال : في تهمة ـ أصلح الله الأمير ـ قال : أفتعود إن أطلقتك ؟ قال : نعم ، وكره أن يعرِّض بقصَّته لئلا يفضح معشوقته ، فقال خالد : أحضروا رجال الحيّ حتى نقطع يده بحضرتهم ، وكان ليزيدَ أخٌ فكتب شعراً ووجّه به إلى خالد :

أخالدُ قد أُعطيتَ في الخلق رتبةً وما العاشقُ المسكينُ فينا بسارق
أَقَرَّ بما لم يَأْتِه المرءُ إنه رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
ولولا الذي قد خِفْتُ من قطع كفِّه لأُلْفِيتُ في شأن الهوى غيرَ ناطق
إذا بدت الرايات للسبق في العُلى فأنت ابنَ عبدالله أوّلُ سابق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله : فأحضر أولياء الجارية فقال : زوّجوا يزيد فتاتَكم ، فقالوا : أمّا وقد ظهر عليه ما ظهر فلا ، فقال : لئن لم تزوّجوه طائعين لَتُزَوِّجُنَّه كارهين ، فزوَّجوه ونقد خالد المَهْرَ من عنده .

---

(١) الداء الدفين : المضمر غير الظاهر .
(٢) الخدين : الخليل والصديق وجمعه أخدان .
(٣) الخلة : الخليل يطلق للمذكر والمؤنث .
(٤) ضنين بالشيء : شحيح به حريص على اقتنائه .
(٥) كذا وردت ولعلها (العجلي) كما في ديوان للصبابة وهو تحريف .

وذكر أبو العباس المبرِّد قال : كان رجلٌ بالكوفة يدعى ليثَ بن زياد قد ربَّى جاريةً وأدَّبها فخرجت بارعةً في كل فنٍّ مع جمالٍ وافر ، فلم يزل معها مدَّةً حتى تبيّنت منه الحاجةَ فقالت : يا مولاي لو بعتَني كان أصلحَ لك مما أراك به وإن كنتُ لأظن أني لا أصبر عنك ، فقصد رجلاً من الأغنياء يعرفها ويعرف فضلَها فباعها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وجّه بها إلى مولاها وجزع عليها جزعاً شديداً ، فلما صارت الجارية إلى سيِّدها نزل بها من الوَحشة للأوّل ما لم تستطع دفعَه ولا كَتْمَه ، فباحت به وقالت :

أتاني البلاَ حقًّا فما أنا صانعٌ أمصطبرٌ[1] للبين[2] أم أنا جازعُ
كفى حَزَناً أني عَلَى مثل جمرةٍ أقاسي نجومَ الليل والقلبُ نازعُ[3]
فإن يمنعوني أن أبوح بحبه فإني قتيلٌ والعيونُ دوامع

فبلغ سيِّدَها شعرُها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له : يا سيِّدي إنك لا تنتفع بي ، قال : ولِمَ ذاك ؟ قالت : إني لما بي ، قال : وما بك ؟ صفيه لي قالت : أجد في أحشائي نيراناً تتوقَّد ، لا يقدر عَلى إطفائها أحد ، ولا تسأل عما وراء ذلك ، فَرَحِمَهَا ورقّ لها وبعث إلى مولاها فسأل عن خبره ، فوجد عنده مثلَ الذي عندها ، فأحضره فردّ الجارية عليه ، ووهب له من ثمنها خمسين ألفاً ، فلم تزل عنده مدةً طويلةً . وبلغ عبدَالله بنَ طاهرٍ خبرُهما وهو بخُراسان ، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعرِ الذي ذُكر له من قِبَل الجارية أن يشتريَها له بما ملكت يمينه ، فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب إليه عبدُالله بنُ طاهر ، فلم يجد سيِّدُها بدًّا من عَرْضها عليه وهو كارةٌ فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول :

بديعُ حسْنٍ رشيقُ قدٍّ جعلت منّي له ملاذا

(١) مصطبر : صابر .
(٢) البين : البعد .
(٣) نازع : من نزع إلى فلانة إذا اشتاق إليها وحنَّ إلى لقائها .

فأجابته الجارية :

فعاتبوه فزاد عشقاً فمات شوقاً فكان ماذا

فعلم أنها تَصْلُح له ، فاشتراها بمائتي ألف درهم ، فجهَّزها وحملها إلى عبدالله بن طاهر[١] إلى خُراسان ، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها عَلى ما أراد ، فغلبته عَلى عقله ، ويقال : إنها أمُّ محمد بن عبدالله بن طاهر ، ولم تزل أَلطافُها[٢] وجوائزها تأتي مولاها الأوّلَ حتى ماتت .

وقال عمر بن شَبَّة ، حدَّثنا أيوب بن عمر الغفاري قال : طلَّق عبدالله بن عامر امرأته ابنةَ سهل بن عمرو ، فقَدِمت المدينة ومعها ابنةٌ لها ، ومعها وديعةُ جوهر استودعها إياه ، فتزوّجها الحسنُ بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم أراد ابن عامر الحجَّ فأتى المدينةَ فلقي الحسن فقال : يا أبا محمد إن لي إلى ابنةِ سهلٍ حاجةً فأُحبّ أن تأذن لي عليها ، فقال الحسن : البَسِي ثيابَك فهذا ابن عامرٍ يستأذن عليك ، فدخل عليها فسألها وديعتَه فجاءَته بها عليها خاتمه . فقال لها : خذي ثلثَها فقالت : ما كنتُ لآخذ على أمانةٍ ائْتُمِنْتُ عليها شيئاً أبداً ، ثم أقبل عليها ابن عامر فقال : إن ابنتيْ قد بلغت فأُحبُّ أن تُخَلِّي بيني وبينها ، فبكت وبكت ابنتُها ، فرقّ ابن عامر فقال الحسن : فهل لكما ؟ فوالله ما مِنْ محلِّلٍ خيرُ مني قال : فوالله لا أُخرجها من عندك أبداً ، فكفلها حتى مات .

وذكر الزمخشري في « ربيع الأبرار » أن زُبَيْدَة بنت أبي جعفر قرأت في طريق مكة على حائطٍ :

أما في عباد الله أو في إمائه كريمٌ يُجَلِّي[٣] الهمَّ عن ذاهب العقل

(١) عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي بالولاء أبو العباس أمير خراسان في العصر العباسي وقد توفي سنة ٢٣٠ هـ . راجع ابن الأثير (٧ / ٥) ، والطبري (١١ / ١٣) ، ووفيات الأعيان (١ / ٢٦٠) .

(٢) ألطاف : جمع مفرده لطف وهي الهدايا .

(٣) يجلي : يكشف .

لـه مقلةٌ أمـا المـآقي[1] فقـرحـةٌ وأما الحشا فالنارُ منه على رِجْل[2]

فنذرت أن تحتال لقائلهما حتى تجمعَ بينه وبين من يحبه ، قالت : فإني لَبِمُزْدَلِفَةَ إذ سمعت من ينشدهما ، فاستدعيت به فزعم أنه قالهما في بنت عمٍّ له وقد حلف أهلُها أن لا يزوِّجوها منه ، فوجّهَتْ إلى الحيّ وما زالت تبذلُ لهم المالَ حتى زوّجوه . وإذا المرأة أعشقُ من الرجل ، فكانت زبَيْدَة تعدُّه في أعظم حسناتها وتقول : ما أنا بشيء أسرّ مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة .

قال الزمخشري : وَهوِيَ أحمد بن أبي عثمان الكاتبُ جاريةً لزُبَيْدَةَ اسمها « نعْم » حتى مرض وقال فيها أبياتاً منها :

وإني لَيُـرضيني المَمَـرُّ ببـابهـا وأقنـع منهـا بـالشتيمـة والـزَّجْـرِ

فوهبتها له .

وذكر الخرائطي أنه كان لبعض الخلفاء غلامٌ وجاريةٌ من غلمانه وجواريه متحابّيْن ، فكتب الغلامُ إليها يوماً يقول :

ولقـد رأيتـك في المنـام كـأنمـا عـاطَيْتني من رِيق فيـكِ البـارد
وكـأن كفـك في يـدي وكـأننـا بِتْنـا جميعـاً في فـراشٍ واحـد
فـطَفِقتُ يـومـي كلَّه متـراقـداً لأراكِ في نـومي ولستُ بـراقـد
ثم انتبهت ومِعْصمـاكِ كـلاهمـا بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي

فأجابته الجارية :

خيـراً رأيتَ وكـلُّ مـا أبصـرتَـه ستنـالُـه منّي بـرغم الحـاسـد
إني لأرجــو أن تكــون معـانقي فتبيتَ مني فـوق ثـدْيٍ نـاهـد

---

(١) المآقي : جمع مأقة وهي طرف العين مما يلي الأنف وهي مجرى الدمع . .
(٢) على رجل : على أشدها .

وأراكِ بين خلاخلي[1] ودَمالجي[2] وأراكِ بين ترائبي[3] ومَجَاسدي[4]
ونَبيتَ أَلطفَ عاشقَيْنِ تعاطيا طرف الحديث بلا مخافة راصد

فبلغ الخليفةَ خبرهُما فأنكحهما وأحسن إليهما على شدَّة غيرته .

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى : سمع المُهَلَّب فتىً يتغنّى بشعرٍ في جاريةٍ له فقال المهلَّب :

لَعَمْريَ إني للمحبِّين راحمٌ وإني بسَتْر العاشقين حقيق
سأجمع منكم شمل وُدٍّ مبدَّد وإني بما قد ترجُوَان خليق

ثم وهبها له ومعها خمسة آلاف دينار .

وقال الخرائطي : كان رجلٌ نخّاسٌ عنده جاريةٌ لم يكن له مالٌ غيرها ، وكان يَعْرِضها في المواسم فتغالى الناسُ فيها حتى بلغت مبلغاً كثيراً من المال وهو يطلب الزيادة ، فعُلُقها[5] رجلٌ فقيرٌ فكاد عقله أن يذهب ، فلما بلغه ذلك وهبها له ، فعوتب في ذلك فقال : إني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[6] أفلا أُحيي الناس جميعاً ؟

وقال علي بن قريش الجرجاني :

شكوت بلاءً لا أُطيق احتمالَه وقلبي مطيعٌ للهوى[7] غيرُ دافع

---

(١) الخلخال : الرقيق .
(٢) الدمالج : جمع دملج ، ودملوج وهو حلية تحيط بالعضد .
(٣) الترائب : جمع مفرده تريبة وهي موضع القلادة من عظام الصدر مما يلي الترقوتين .
(٤) المجاسد : جمع مجسد ، وهي الثوب الملامس للجسد . ويقال جسدية إذا لصق به .
(٥) علقها : أحبها .
(٦) المائدة (٥ / ٣٢) ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما : من قتل نفساً واحدة حرمها الله ، فهو مثل من قتل الناس جميعاً ، ومن امتنع عن قتل نفس حرمها الله ، وصان حرمتها خوفاً من الله ، فهو كمن أحيا الناس جميعاً . مختصر ابن كثير (١ / ٥٠٩) بتصرف .
(٧) مطيعٌ للهوى : منقاد له .

فأقسم ما تركي عتابَك عن قِلىً[1] ولكن لعلمي أنــه غيــرُ نــافــع
وإني متى لم أَلْزَم الصبرَ طـائعاً فـلا بدَّ منـهُ مكرَهـاً غيرَ طـائـع
إذا أنت لم يَعطفك إلا شفـاعةٌ فـلا خير في ودٍّ يكـون بشـافـع

وكان أبو السائب المخزومي أحد القرّاءِ والفقهاء ، فرؤي متعلِّقاً بأستار الكعبة وهو يقول : اللهمّ ارحم العاشقين ، واعطِف عليهم قلوبَ المعشوقين . فقيل له في ذلك فقال : الدعاء لهم أفضلُ من عُمْرَةٍ من الْجِعْرانة .

وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاماً[2] وجاريةً كانا في كُتّاب فهوِيَها الغلامُ ، فلما كان في بعض أيامه في غفلةٍ من الغلمان كتب في لوح الجارية :

مــاذا تقــولين فيمن شَفَّــه سَقَمٌ من طول حبِّك حتَّى صار حيرانا

فلما قرأته الجارية أغرورقت عيناها بالدُّموع رحمةً له وكتبت تحته :

إذا رأينــا محبًّا قــد أضـرَّ بــه طـولُ الصبابــة أَوْلَيْنَـاهُ إحســانـا

وذكر الهَيْثَمُ بن عَدِيّ ، عن محمد بن زياد أن الحارث بن السَّليل الأزدي خرج زائراً لعلقمة بن حزم[3] الطائي وكان حليفاً له ، فنظر إلى ابنة له تُدعى الربَّاب وكانت من أجمل النساءِ ، فأعجب بها وعشقها عشقاً حال بينه وبين الانصراف إلى أهله ، فقال لعلقمةَ : إني أتيتك خاطباً وقد يُنْكحُ الخاطب ، ويدرك الطالب ، ويُمْنَحُ الراغب قال : كفوٌ كريم فأقم ننظر في أمرك ، ثم انكفأ[4]

---

(١) القلي : الكراهة والبغضاء .
(٢) وهو علي بن الجهم : وهو علي بن الجهم بن بدر ، أبو الحسن من بني سامة ، من لؤي بن غالب ، شاعرَ رقيق الشعر ، أديب من أهل بغداد ، عاصر أبا تمام ، ثم غضب عليه السلطان المتوكل العباسي فنفاه إلى خراسان وتوفي سنة ٢٤٩ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٣٤٩) ، والطبري (١١ / ٨٦) ، وتاريخ بغداد (١١ / ٣٦٧) .
(٣) وهو علقمة بن خصفة ، وابنته اسمها الزباء .
(٤) انكفأ : رجع .

إلى أمّ الجارية فقال لها : إن الحارث سيِّد قومه حسباً ومَنْصِباً وبيتاً فلا ينصرفنّ من عندنا إلا بحاجته ، فشاوري ابنتَك وأديريها عما في نفسها ، فقالت لها : أي بُنَيَّة ، أيّ الرجال أعجب إليك ؟ الكَهْلُ الجحجاح[1] ، المفضّل الميّاح[2] ، أم الفتى الوَضّاح[3] ، الملول الطمّاح ؟ قالت : الفتى الوَضّاح ، فقالت : إن الفتى يُغيرك[4] ، وإن الشيخ يُميرك[5] ، وليس الكهْلُ الفاضل ، الكثير النائل[6] ، كالحديث السنّ ، الكثير المَنّ . فقالت : يا أمّاه أُحبُّ الفتى ، كحبِّ الرّعاءِ أنيق الكَلَا . قالت : يا بُنَيَّة ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب . قالت : يا أُمّاه أخشى من الشيخ أن يدنسَ ثيابي ، ويُبلىَ شَبابي ، ويشمتَ بي أُترابي . فلم تزل بها الأُمّ حتى غلبتها على رأيها فتزوّجها الحارث على خمسين ومائةٍ من الإبل وخادم وأُلف درهم ، فبنى بها وكانت عنده أحبَّ شيءٍ إليه ، فارتحل بها إلى أهله ، فإنه لجالسٌ يوماً بفِناء مِظَلّته وهي إلى جانبه إذ أقبل فِتْيَةٌ يَعْتلجون[7] الصراع فتنفّست الصُّعَداء ، ثم أرسلت عينيها بالبكاء فقال ما يبكيك ؟ فقالت : مالي وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ[8] ، فقال : ثكلتك أُمّك قد تجوع الحرَّة ولا تأكل بثدييها ، فسارت مثلاً ، أي لا تكون ظِئْراً[9] ، وكان أوّلَ من نطق بها ، ثم قال : أما وأبيك لربَّ غارةٍ شهدتها ، وسبيّةٍ أردفتها ، وخمرةٍ شربتها ، الحقي بأهلك فلا حاجة لي فيك ، ثم أنشأ يقول :

وعيَّـرَتْ أن رأتني لابسـاً كِبَـراً وغـايةُ النفس بين المـوت والكِبَر

---

(١) الجحجاح : السيد الكريم .
(٢) ماح : تبختر في مشيته .
(٣) الوضاح : الحسن الطلعة كثير الابتسام .
(٤) يغيرها : يثير عزيزة الغيرة فيها .
(٥) يميرك : يهيىء لك رغد العيش ، من الميرة وهي الطعام .
(٦) النائل : الكثير العطاء الجزيل البذل .
(٧) اعتلج القوم : إذا اصطرعوا واقتتلوا .
(٨) الفرخ : الولد الصغير للطائر والحيوان والنبات والذليل المهيض من الرجال .
(٩) الظئر : المرضع لغير ولدها .

فإن بقيتِ رأيتِ الشيبَ راغمةً[1] وفي التفرُّق ما يقضي من العِبَـر
وإن يكن قـد علا رأسي وغيَّـره صَرفُ الزمان[2] وتقتيرٌ من الشَّعَر
فقـد أروح للذّات الفتى جَذِلاً[3] وهمتي لم تُشَب[4] فاستخبري أثري

(١) راغمة : على الرغم منك .
(٢) صرف الزمان : حدثانه ونوائبه ونوازله .
(٣) جذلاً : فرحاً مسروراً .
(٤) لم تشب : لم يصبها خور أو وهن .

الباب السادس والعشرون

في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما

هذا بابٌ لا يدخل فيه إلاّ النفوسُ الفاضلة الشريفة الأبية التي لا تقنع بالدُّون ، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيعَ العاجز المغبون ، ولا يملكها لَطْخُ جمال مُغَشٍّ(١) عَلَى أنواع من القبائح ، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأةٍ مبرقَعة :

إذا بارك الله في مَلْبَسٍ فلا بارك اللَّهُ في البُرْقُعِ
يُريك عيونَ المَهَا مُسْبَلاً ويكشِفُ عن منظَرٍ في أشنعِ

وقال الآخر :

لا يغرَّنْكَ ما ترى من نقابٍ إن تحت النقاب داءً دَوِيّاً

فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون . وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعامٍ أدنى منه ، فنعى ذلك عليهم وقال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾(٢) ، وذلك دليلٌ على وضاعة النفس وقلة قيمتها .

وقال الأصمعي : خلا رجلٌ من الأعراب بامرأةٍ فهمَّ بالريبة ، فلما تمكَّن منها

(١) مغش : يخفي ما فيه من عيوب عن الناظرين .
(٢) البقرة (٢ / ٦١) .

تنحى سليماً وجعل يقول : إن امرءًا باع جنةً عرضها السمواتُ والأرضَ بفِتر[1] ما بين رجلَيكِ لقليلُ البصر بالمساحة .

وقال أبو أسماء : دخل رجلٌ غَيْضَةً[2] فقال · لو خلوتُ هاهنا بمعصيةٍ مَن كان يراني ؟ فسمع صوتاً ملأ ما بين لابَتيِ[3] الغيضة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[4] .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا هَيْثَم ـ هو ابن خارجة ـ حدَّثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبدالرحمن بن عَدِي البَهْرَاني ، عن يزيد بن مَيْسرة قال : إن الله تعالى يقول : أيها الشاب التاركُ شهوته لي ، المتبذل[5] شبابه من أجلي ، أنت عندي كبعض ملائكتي .

وذكر إبراهيم بن الجُنَيْد أن رجلاً راود امرأةً عن نفسها فقالت له : أنت قد سمعت القرآن والحديث فأنت أعلم قال : فأغلقي الأبواب فأغلقتها ، فلما دنا منها قالت : بقي بابٌ لم أغلقه قال : أيّ باب ؟ قالت : الباب الذي بينك وبين الله ، فلم يتعرَّض لها .

وذكر أيضاً عن أعرابي قال : خرجتُ في بعض ليالي الظلَم فإذا أنا بجارية كأنها عَلم[6] فأردتها عن نفسها فقالت : ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل ، إذ لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إنه والله ما يرانا إلاَّ الكواكب ، قالت : فأين مُكَوْكِبُها ؟

---

(١) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة عند فتحهما .

(٢) الغيضة : موضع يكثر فيه الشجر الكثيف الملتف .

(٣) اللابة : الحرة والموضع ، ولابتا المدينة الواردتانَ في الحديث هما حرتان تكتنفانها لقوله صلى الله عليه وسلم : « حرام ما بين لابتي المدينة » كذا قال أو بنحوه عليه الصلاة والسلام .

(٤) الملك (٦٧ / ١٤) .

(٥) المبتذل شبابه : الذي يحرم نفسه من متعه .

(٦) العلم : الجبل .

وجلس زياد مولى ابن عياش رضي الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له : يا عبدَالله ، فقال له : قل ما تشاء ، قال : ما هي إلاَّ الجنة أو النار ؟ قلت : نعم قال : وما بينهما منزلٌ ينزله العباد ؟ قلت : لا والله فقال : والله إن نفسي ، لَنَفْسٌ أضِنٌ بها على النار ، والصبرُ اليومَ عن معاصي الله خيرٌ من الصبر عَلَى الأغلال .

وقال وهب بن مُنَبِّه : قالت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام : ادخل معي القَيْطون ـ تعني السِّتر ـ قال : إن القَيْطون لا يسترني من ربِّي .

وقال اليزيديّ : دخلت عَلَى هارون الرشيد فوجدته مُكِبًّا عَلَى وَرقة ينظر فيها مكتوبةٍ بالذهب ، فلما رآني تبسَّم فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدتُ هذين البيتين في بعض خزائن بني أُميّة فاستحسنتهما ، فأضفت إليهما ثالثاً ، فقال : ثم أنشدني :

إذا سُدّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فَدَعْهُ لأخرى ينفتحْ لك بابُها
فإن قُراب البطن يكفيك مَلأُه ... ويكفيك سوْءاتِ الأمور اجتنابها
فلا تكُ مِبْذالاً لدينك واجتنب ... ركوبَ المعاصي يَجْتنِبْك عِقابُها

وقال أبو العباس الناشىء :

إذا المرء يحمي نفسه حِلَّ شهوةٍ ... لصحّة أيامٍ تبيد وتَنْفَدُ
فما بالُه لا يحتمي من حرامها ... لصحّة ما يبقى له وَيُخَلَّدُ

وقيل : إن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان ينشد هذين البيتين :

إقدع(١) النفسَ بالكَفاف وإلاَّ ... طلبتْ منك فوق ما يكفيها
إنما أنتَ طولَ عمرك ما عُمِّرْتَ في ... الساعة التي أنت فيها

---

(١) اقدع النفس : كفها وامنعها .

ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص [1] يتمثل بهما :

إذا المرءُ لم يترك طعاماً أحبُّه ... ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيث يمّما[2]
قضى وطَراً منه وغادر سُبّةً ... إذا ذُكرت أمثالُها تملأ الفما

وقال شُعْبة : عن منصور ، عن إبراهيم ، كلّم رجلٌ من العُبّاد امرأةً فلم يزل بها حتى وضع يدَه عَلَى فَخِذِها فانطلق فوضع يده عَلَى النار حتى نَشُت[3] .

وقال زيد بن أسلم عن أبيه : كان عابدٌ في صَوْمعةٍ يتعبّد فأشرف ذات يوم فرأى امرأةً ففُتن بها ، فأخرج إحدى رجليه من الصُّومعة يريد النزول إليها ، ثم فكّر وادْكر فأناب ، فأراد أن يعيد رِجْله إلى الصومعة فقال : والله لا أُدخلُ رِجْلاً خرجت تريد أن تعصي الله في صومعتي أبداً ، فتركها خارجة من الصومَعَة فأصابها الثلجُ والبرد والرياح حتى تقطّعت .

وقال بعض السلف : من كان له واعظٌ من قلبه زاده الله عزّ وجلّ عزًّا ، والذلُّ في طاعة الله أقربُ من العزّ في معصيته .

وقال أبو العتَاهِية : لَقِيت أبا نُوّاس في المسجد الجامع فعذلته[4] وقلت له : أما آن لك أن تَرْعَوي[5] وتنزجر ؟ فرفع رأسه إليّ وقال :

---

(١) عمرو بن العاص : هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، أبو عبدالله ، فاتح مصر ، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأي والحزم والمكيدة فيهم كان شديداً في الجاهلية ، وأسلم في هدنة الحديبية ، وولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمرة جيش ذات السلاسل ، وأمده بأبي بكر وعمر ، ثم استعمله على عمان ، وولاه عمر فلسطين ، ثم مصر ففتحها ، وعزله عثمان ، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان مع معاوية فولاه معاوية على مصر سنة ٣٨ هـ . وترك له خراجها ست سنوات فجمع أموالاً طائلة ، وتوفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ . وله في كتب الحديث ٣٩ حديثاً .
الاستيعاب لابن عبدالبر على هامش الإصابة (٢ / ٥٠١) ، والإصابة (ت ٥٨٨٤) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢ / ٢٣٥ ـ ٢٤٠) ، وجمهرة الأنساب (١٥٤) .

(٢) يمم : قصد .

(٣) نشت : احترقت وجفت .

(٤) عذلته : لامته .

(٥) ترعوي : تكف وتنتهي .

أتراني يا عَتَاهي[١] تاركاً تلك الملاهي
أتراني مفسداً بالنسك عِنْدَ القوم جاهي

فلما ألححت عليه في العذل أنشأ يقول :

لا ترجع الأنفسُ عن غيِّها ما لم يكن منها لها زاجرُ

فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيء قلته .

وقال ابن السماك عن امرأةٍ كانت تسكُن البادية : لو طالعتْ قلوب المؤمنين بفكرها ما ذُخر لها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة ، لم يَصْفُ لهم في الدُّنيا عيشٌ ، ولم تَقَرَّ لهم عين . وقال ضَيْغَم لرجلٍ : إن حبَّه عزّ وجلّ شغل قلوبَ محبِّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع محبته عزْ وجلّ لذةٌ تداني محبّتَه ، ولا يأمُلون في الآخرة من كرامة الثواب أكبرَ عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم[٢] ، فسقط الرجل مَغْشِيًّا عليه .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبدالرحمن بن جُبَير بن نُفَير ، عن أبيه عن النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَعَلَى جَنَبَتِي الصِّرَاطِ سُوران وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلوا الصِّراطَ وَلاَ تُعَرِّجُوا ﴾[٣] ، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ فإذا أَرَادَ أَحَدٌ فَتْحَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ[٤] ، فالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ ، وَالسُّتُورُ الْمُرْخَاةُ حُدُودُ اللَّهِ ، والأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ،

---

(١) العتاهي : ناقص العقل والأحمق المتهوك ، والعتاهية : هم ضلال الناس وفساقهم .
(٢) اللهم متعنا بلذة النظر إلى وجهك الكريم في دار الكرامة .
(٣) لا تعرجوا : لا تميلوا عنه أو تتركوه .
(٤) تلجه : من ولج أي دخل .

والدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عزّ وَجَلّ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ في قَلْبِ كلِّ مُسْلِمٍ » .

وقال خالد بن مَعْدَان : ما من عبدٍ إلاَّ وله عينان في وجهه يبصر بهما أَمْرَ الدُّنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أَمْرَ الآخرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللَّتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب ، وإذا أُراد الله به غيرَ ذلك تركه على ما هو فيه ، ثم قرأ : ﴿ أَمْ عَلَى قُلوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[1] .

وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِي »[2] .

وفي المسند من حديث فُضالة بن عُبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ ٱللَّهِ وَٱلْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى ٱللَّهِ » .

وقال الإمام أحمدُ رحمه الله تعالى : حدَّثنا عبدالرحمن بن مَهْدِي ، حدَّثنا عبدالعزيز بن مسلم ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أُبيٍّ بنْ كعب رضي الله عنه قال : « من أصبح وأكثر همه غير الله فليس من الله » .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا عبدالرحمن ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يَسَار قال : قال موسى صلى الله عليه وسلم : يا رب مَنْ أَهْلُك الذين تظلهم في ظلّ عرشك ؟ قال : هم البريئة أيديهم ، الطاهرة قلوبهم الذين يتحابُون بجلالي ، الذين إذا ذُكِرت ذُكِروا بي ، وإذا ذُكِروا بي ذُكِرت بذكرهم ، الذين يُسْبغون الوضوء في المكاره ، ويُنيبون إلى ذكرى كما تُنيب النسور

---

(١) محمد (٤٧ / ٢٤) . راجع تفسير الفخر الرازي الكبير (٢٨ / ٦٦) .

(٢) الحديث : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم في مستدركه وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٢ / ٩٨) .

إلى وُكورها ، ويَكْلَفون بحبِّي كما يَكْلف الصبيّ بحبّ الناس ، ويغضبون لمحارمي إذا استُحِلَّت كما يغضب النِّمِرُ إذا حَرِب »[1] .

وقال أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثني عبدالله بن يحيى قال : سمعت وهب بن مُنَبِّهٍ يقول : قال موسى عليه السلام : « أيْ ربّ أيُّ عبادك أحبُّ إليك ؟ قال : من أُذْكَرُ برؤ يته » .

وقال أحمد : حدَّثنا سَيّار ، حدَّثنا جعفر ، حدَّثنا هشام الدَّسْتَوائي قال : بلغني أن في حكمة عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « تعملون للدُّنيا وأنتم تُرْزَقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترْزَقون فيها إلا بالعمل ، ويْحَكم علماءَ السوء ، الأجرَ تأخذون والعملَ تُضِيعون ، توشكون أن تخرجوا من الدُّنيا إلى ظلمة القبر وضيقه ، واللَّهُ عزَّ وجلَّ نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة ، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثرُ عنده من آخرته وهو في الدنيا أعظمُ رغبةً ؟ كيف يكون من أهل العلم مَنْ مَسيرُه إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه ، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره ؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله عزَّ وجلَّ في قضائه فليس يرضىٰ شيء أصابه ؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعملَ به ؟ » .

وقال عبدالله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : أوَ للَّعب خُلِقْنا ؟

وقال أحمد : حدَّثنا أبو بكر الحنفي ، حدَّثنا عبدالحميد بن جعفر ، حدَّثني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أُمه فاطمةَ حدَّثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بالنَّعِيمِ ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَام ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلَامِ » .

(١) الحرب : بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وفتحها التسلب والطعن .

وقال أحمد : حدَّثنا أبو قَطَنٍ ، حدَّثنا شعبة ، عن أبي مَسْلَمة ، عن أبي نضرَة قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى : يا أبا موسى شوِّقنا إلى ربنا ، قال : فقرأ . فقالوا : الصلاةَ : فقال عمر : أولسنا في الصلاة ؟ .

فصل

ومِلاكُ الأمر كله الرغبةُ في الله وإرادة وجهه والتقرُّبُ إليه بأنواع الوسائل ، والشوقُ إلى الوصول إليه وإلى لقائه ، فإن لم يكن للعبد همَّةٌ إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعدَّ اللَّهُ فيها لأوليائه ، فإن لم تكن له همَّةٌ عاليةٌ تطالبه بذلك فخشية النار وما أعدَّ اللَّهُ فيها لمن عصاه ، فإن لم تطاوعه نفسه بشيءٍ من ذلك فليعلم أنه خُلق للجحيم لا للنعيم ، ولا يقدر على ذلك بعد قدَر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه ، فهذه فصول أربعة هن : ربيعُ المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه ، وهن منازُله في سيره إلى الله عزّ وجلّ ، وليس له منزلةٌ غيرها ، فأما مخالفةُ الهوى فلم يجعل اللَّهُ للجنة طريقاً غيرَ مخالفته ، ولم يجعل للنار طريقاً غير متابعته ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَى ﴾(1) وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾(2) قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ ربّه عليه في الدُّنيا ، ومقامَه بين يديه في الآخرة فيتركها لله .

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيله ، فقال الله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(3) ثم ذكر مآلَ الضالّين عن سبيله ومصيرَهم فقال :

---

(1) النازعات (٧٩ / ٣٧ - ٤١) .

(2) الرحمن (٥٥ / ٤٦) . راجع في تفسير هذه الآية تفسير الشيخ الصابوني (٢٧ / ١٤٦٢) ، والفخر الرازي الكبير (٢٩ / ١٢٣) بتصرف .

(3) ، (2) ص (٣٨ / ٢٦) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[1] وأخبر سبحانه أن باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[2] وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن العاجز هو الذي اتَّبع هواه وتمنى على الله . وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد ، عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَا تحْتَ ظِلِّ السَّماءِ إِلَهٌ يُعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوىً مُتَّبَع » .

وذكر من حديث جعفر بن حَيَّان ، عن أبي الحكم ، عن أبي بَرْزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عليكم شَهَواتُ الْغَيِّ فِي بُطونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلَّاتُ الهوَى » . وفي نسخة كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه ، عن جدّه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَىَ أُمَّتي حُكْمٌ جَائِرٌ ، وَزَلَّةُ عالمٍ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ﴾[3] .

وقيل لبعض الحكماء : أيّ الأصحاب أبرُّ ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأيُّ شيءٍ أضرّ ؟ قال : النفس والهوى . وقال بعض الحكماء : إذا اشتبه عليك أمران فانظر أقربهما من هواك فاجتنبه . وأُتِيَ بعضُ الملوك بأسيرٍ عظيم الْجُرْم فقال : لو كان هواي في العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك ، ولكن لما كان هواي في قتلك خالفته إلى العفو عنك . وقال الهيثم بن مالك الطائيّ : سمعت النُّعمان بن بشير يقول عَلَى المنبر : إن للشيطان فخوخاً ومَصَاليَ[4] وإن من مصالي

---

(١) ص (٣٨/٢٦).
(٢) محمد (٤٧ / ١٦) .
(٣) الحديث : والحكم الجائر والعالم الحائد عن الحق وقياد الهوى من المعاول الهادمة التي تصدع آصرة الأمة وتفتك ببنائها وكيانها وعن النار في الهشيم .
(٤) المصالي : الشرك وهي جمع مفرده مصلاة .

الشيطان وفخوخه البطرَ بأنعُم الله ، والفخرَ بإعطاء الله ، والكبرياءَ عَلَى عباد الله ، واتّباعَ الهوى في غير ذات الله .

وفي المسند وغيره من حديث قتادةَ ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ ، وثلاثٌ مُنْجِيَاتٌ ، فالْمُهْلِكاتُ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهوىً مُتَّبَعٌ ، وَإعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ ، وَالْمُنْجِيَاتُ : تقوَى اللّهِ تعالى في السرِّ والعلانيةِ ، والعدلُ في الغَضَبِ والرِّضى ، والقَصْدُ في الفقرِ والغِنَى »[1] .

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت عُمَيْسٍ رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يقول : « بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى ، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلى . بئسَ العبدُ عبدٌ تَخَيَّلَ واختال ، وَنَسِيَ الكبيرَ المُتَعال . بئسَ العبدُ عبدٌ سهَا ولهَا ، ونسيَ المقابرَ والبِلَى . بئسَ العبدُ عبدٌ بغَى وَعَتَا ، ونسيَ المبدأَ والمُنتهى . [بئسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بالدِّينِ] . بئسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ ، بئسَ العبدُ عبدٌ طَمَعٌ يقودُهُ . بئسَ العبدُ عبدٌ هَوىً يُضِلُّهُ . [بئسَ العبدُ عبدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ] »[2] .

وقد أقسم النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمنُ العبدُ حتى يكونَ هواه تَبَعاً لما جاء به ، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً ، فمن اتَّبَعَ هواه فهواه متبوعٌ له ، ومن خالف هواه لما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم فهواه تابعٌ له ، فالمؤمن هواه تابعٌ له ، والمنافق الفاجر هواه متبوعٌ له .

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هُدىً من الله أنه أظلم الظالمين ، فقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ

(١) الحديث : رواه السيوطي بنحوه وضعفه في الجامع الصغير (١ / ١٣٨) .
(٢) الزيادة بين المعقوفين من الترمذي وقال فيه : « ليس إسناده بالقوي » أ هـ .

ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾[1] وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبع هواه ، وجعل سبحانه وتعالى المُتعَ قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاءَ به الرسولُ صلى الله عليه وسلم . وإما الهوى . فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباعُ الآخر ، والشيطانُ يُطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقاً إلا من هواه . فلذلك كان الذي يخالف هواه يفْرَقُ[2] الشيطان من ظلّه ، وإنما تطاق مخالفةُ الهوى بالرغبة في الله وثوابه ، والخشيةِ من حجابه وعذابه . ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى ، فإن متابعتَه الداءُ الأكبر ، ومخالفتَه الشفاءُ الأعظم . وقيل لأبي القاسم الْجُنَيْدِ : متى تنال النفوسُ مُناها ؟ فقال : إذا صار داؤُها دواها ، فقيل له : ومتى يصير داؤُها ؟ فقال : إذا خالفت هواها ، ومعنى قوله : يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى ، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته . وقيل : إنما سُمِّيَ هوىً لأنه يهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين . والهوى ثلاثة أرباع الهوان ، وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفتَه شارعُ الجنة الأعظم . وقال أبو دُلَفَ العِجْلي :

واسوأتا لفتىً له أدبٌ ... يُضحي هواه قاهراً أدَبَه
يأتي الدنيَّة وهو يعرفها ... فيَشِينُ عِرْضاً صائناً أرَبَه
فإذا ٱرْعَوَى عادت بصيرتُه ... فبكى عَلَى الحين[3] الذي سُلِبَهْ

وقال ابن المرتفق الهُذَلِيّ :

أين لي ما ترى والمرءُ يأتي ... عزيمتَه ويغلِبُهُ هواه
فيعمي ما يرى فيه عليه ... ويحسب من يراه لا يراه

(١) القصص (٢٨ / ٥٠) .
(٢) يفرق : يخاف ويروع .
(٣) الحين : الوقت طال أم قصر .

فصل

وأما الرّغبةُ في الله وإرادةُ وجهه ، والشوقُ إلى لقائه فهي رأس مال العبد وملاكُ أمره وقوامُ حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقُرّة عينه ، ولذلك خُلق ، وبه أُمِرَ ، وبذلك أُرسلت الرُّسلُ ، وأُنزلت الكتب ، ولا صلاحَ للقلب ولا نعيمَ إلا بأن تكون رغبتُهُ إلى الله عزَّ وجلَّ وَحْدَه ، فيكون هو وحدَه مرغوبَه ومطلوبَه ومرادَه كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[2] .

والراغبون ثلاثة أقسام : راغِبٌ في الله ، وراغِبٌ فيما عند الله ، وراغِبٌ عن الله . فالمحبُّ راغبٌ فيه ، والعاملُ راغب فيما عنده ، والرَّاضي بالدُّنيا من الآخرة راغبٌ عنه . ومَن كانت رغبتُه في الله كفاه الله كلَّ مهمٍّ ، وتولّاه في جميع أُموره ، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعَه عن نفسه ، ووقاه وقايةَ الوليد ، وصانه من جميع الآفات . ومَن آثَر اللَّهَ عَلَى غيره آثره اللَّهُ عَلَى غيره . ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه ، ومن عرف اللَّهَ لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منه ، ولم تبقَ له رغبةٌ فيما سواه ، إلَّا فيما يُقرِّبه إليه ويعينه عَلَى سفره إليه .

ومن علامات المعرفة الهيبةُ ، فكلّما ازدادت معرفةُ العبد بربه ازدادت هيبتُه له وخشيتُه إياه كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾[3] أي

---

(١) الإنشراح (٩٤ / ٧ ـ ٨) .

(٢) التوبة (٩ / ٥٩) ، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل ، وهو كقولك للرجل : لو جئتنا . . ثم لم تذكر الجواب ، أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً . راجع الفخر الرازي الكبير (١٦ / ٩٩) .

(٣) فاطر (٣٥ / ٢٨) ، يقول الإمام ابن كثير في مختصره (٣ / ١٤٦) : « إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر » اهـ .

العلماء به . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَعْرَفُكُمْ بِٱللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »[1] ومن عرف الله صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأَنِسَ بالله ، واستوحش من الناس ، وأورثته المعرفة الحياءَ من الله ، والتعظيمَ له ، والإجلالَ والمراقبة والمحبة والتوكُّل عليه ، والإنابةَ إليه والرّضا به والتسليم لأمره . وقيل للجُنَيْد رحمه الله تعالى : إن ها هنا أقواماً يقولون : إنهم يَصِلون إلى البِرِّ بترك الحركات ، فقال : هؤلاء تكلّموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم ، والذي يزني ويسرِق أحسنُ حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أنقص من أعمال البرّ شيئاً .

وقال : لا يكون العارفُ عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البَرُّ والفاجر ، وكالمطر يسقي ما يُحب وما لا يحبّ .

وقال يحيى بن مُعاذ : يخرج العارف من الدُّنيا ولا يقضي وَطَرَه من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وشوقه إلى ربه . وقال بعضُهم : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطي ملك سليمانَ لم يَشغَلْهُ عن الله طَرْفَةَ عين . وقيل : العارف أَنِسَ بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلّ لله فأعزّه في خلقه .

وقال أبو سليمان الدّاراني : يُفْتَحُ للعارف على فراشه ما لا يُفتح له وهو قائم يصلّي .

وقال ذو النون : لكل شيء عقوبةٌ ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وبالجملة فحياةُ القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً ، ومتى واطأ[2] اللسانُ القلب في ذكره ، وواطأ القلب مرادَ حبيبه منه ، واستقلّ له الكثيرَ من قوله

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم باختلاف في اللفظ .
(٢) واطأ : طابق ووافق .

وعمله ، واستكثر له القليلَ من برّه ولطفه ، وعانق الطاعة وفارق المخالفة ، وخرج عن كلّه لمحبوبه فلم يبقَ منه شيءٌ ، وامتلأ قلبُه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه ، وعَزّ عليه الصبرُ عنه ، وعُدِم القرارَ دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه ، ولم يجد الأنس إلا بذكره ، وحفظ حدوده ، وآثره على غيره فهو المحب حقًّا .

وقال الْجُنَيْد(١) : سمعت الحارث الْمُحَاسبيَّ يقول : المحبةُ ميلكُ إلى الشيء بكلّيّتك . ثم إيثارُك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتُك له سرًّا وجهراً ، ثم علمُك بتقصيرك في حبه . وقيل : المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ما سوى مرادِ الحبيب من محبه . وقيل : بل هي بذلُ المجهود في رضا الحبيب ، ولا تَصِحُّ إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب . وفي بعض الآثار الإلٰهية : عبدي أنا وحقِّك لك محبٌّ فبحقي عليك كن لي محبًّا . وقال عبدالله بن المبارك : من أُعطي شيئاً من المحبة ولم يُعْطَ مثلَه من الخشية فهو مخدوع .

وقال يحيى بن مُعاذ : مثقال خردلةٍ من الحب أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ .

وقال أبو بكر الكَتَّاني : جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم ، فتكلّم الشيوخُ فيها ، وكان الْجُنَيْد أصغرَهم سنًّا فقالوا : هاتِ ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ودَمَعت عيناه ثم قال : عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه ، متصلٌ بذكر ربه ، قائمٌ بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أُحرق قلبَه أنوار هُوِيَّته ، وصفا شربُه من كأس ودّه ، فإن تكلّم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرّك فبأمر الله ، وإن سكت فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما عَلى هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين . وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود إني حرّمتُ عَلى القلوب أن يدخلها حبي وحبُّ غيري ، فأجمع العارفون كلُّهم أن المحبة لا تَصِحّ إلّا بالموافقة حتى قال بعضهم : حقيقة الحب موافقة المحبوب في مراضيه

---

(١) الإمام الجنيد : سبقت ترجمته .

ومساخطه ، واتفق القوم أن المحبة لا تَصِحُ إلاَّ بتوحيد المحبوب . وَيُحكي أن رجلاً ادَّعى الاستهلاك[1] في محبة شخص فقال له : كيف وهذا أخي أحسن مني وجهاً وأتمُّ جمالاً ؟ فالتفت الرجلُ إليه فدفعه الشابُّ وَقال : من يدَّعي هوانا ينظر إلى سوانا ؟ وذكرت المحبة عند ذي النون فقال : كُفُّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدَّعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخوف أولى بالمسيء إذا تألَّه والْحَزَنْ
والحبُّ يجمُل بالتَّقِيِّ وبالنقيِّ من الدَّرَنْ

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدُّنيا والآخرة . إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[2] فهم مع الله في الدنيا والآخرة . وقال يحيى بن مُعاذ : ليس بصادقٍ من ادّعى محبته ثم لم يحفظ حدودَه .

فصل

فالمحبة شجرةٌ في القلب عروقُها الذلُّ للمحبوب ، وساقها معرفتُه ، وأغصانُها خشيتُه ، وورقُها الحياء منه ، وثمرتُها طاعته ، ومادّتها التي تسقيها ذكرُه ، فمتى خلا الحبُّ عن شيءٍ من ذلك كان ناقصاً .

وقد وصف الله سبحانه نفسَه بأنه يحبّ عباده المؤمنين ، ويحبونه ، فأخبر أنهم أشدّ حبًّا لله ، ووصف نفسه بأنه الوَدود وهو الحبيب قاله البخاري . والود خالص الحب ، فهو يَوَدّ عباده المؤمنين ويودونه .

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه

---

(1) استهلك نفسه في كذا : جهد نفسه فيه .
(2) الحديث رواه الترمذي عن أنس ، وزاد « وله ما اكتسب » متفق عليه عن أنس وأبي موسى وابن مسعود رفعوه . وأورده العجلوني في كشف الخفا (٢ / ٢٨٣ - ٢٨٤) .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يَروي عن ربه عزّ وجلّ أنه قال : « مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّه ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، فَبِيَ يَسْمَعُ وَبِيَ يُبْصِرُ وَبِيَ يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ » . وفي لفظٍ في غير الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهةَ الربّ تعالى لَمساءَة عبده بالموت لمّا كره العبد مَساخطَ ربه ، وكمالَ الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقتَه في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعاذته مما استعاذ به ، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أرى رَبَّكَ إلاّ بارع في هواكَ[1] ، وقال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي ما أرى ربك إلاّ يطيعك ، فقال له : وأنْتَ يا عَمّ لَوْ أطَعْتَهُ أطَاعَك . وفي تفسير ابن أبي نُجَيح عن مجاهد في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[2] قال : حبيباً قريباً إذا سألهُ أعطاه ، وإذا دعاه أجابه . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى كن لي كما أُريد أكن لك كما تريد . وتأمل هذه الباء في قوله : فبي يسمع وبي يُبصر وبي يَبْطِش وبي يمشي كيف تجدها مبنيةً لمعنى قوله : كنت سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يُبصر به إلى آخره ، فإن سمع سمع بالله ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به . وهذا تحقيق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ ﴾[3] ، وقولِه : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[4] وقولِه : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

(١) الحديث رواه الشيخان .
(٢) النساء (٤ / ١٢٥) .
(٣) آخر سورة النحل .
(٤) آخر سورة العنكبوت .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، وقولِهِ فيما رواه عنه رسولُه من قوله : « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكت بي شفتاه » . وهذا ضدّ قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهم مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾[2] فالصحبة التي نفاها ها هنا هي التي أثبتها لأحبابه وأوليائه ، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقةً بأداء فرائضه ، وبالتقرّب إليه بالنوافل بعدها لا غير ، وفي هذا تعزيةٌ لمدَّعي محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها ، وإنما معه الأماني الباطلة والدَّعاوي الكاذبة .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحبَّ اللَّهُ العبدَ نادى جِبريلَ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبُّوهُ فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّمَاءِ ثمَّ يُوضَعُ لَهُ القبولُ في الأَرْضِ » وفي لفظٍ لمسلم : « إنَّ اللَّهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقالَ : إني أُحبُّ فلاناً فأحبَّهُ قال فيُحبُّهُ جبريلُ ثمَّ يُنَادِي في السَّماءِ فيَقولُ : إنَّ اللَّهَ يُحبُّ فُلاناً فأحِبُّوهُ فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ ، قالَ ثمّ يوضَعُ لهُ القَبولُ في الأرض ، وإذا أبْغَضَ عَبْداً دَعا جِبريلَ فيقولُ : إني أُبْغِضُ فُلاناً فأبْغِضْهُ قالَ فيُبْغِضُهُ جِبريلُ ، ثم يُنادِي في السماءِ إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فأبْغِضُوهُ ، ثمَّ يوضَعُ لهُ البغضاءُ في الأرْض » وفي لفظٍ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال : كنّا بعرَفة فمرّ عمر بن عبدالعزيز وهو عَلَى الموسم فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي : يا أَبَتِ إني أرى الله يحبُّ عمر بن عبدالعزيز ، قال : وما ذاك ؟ قلت : لما له من الحبّ في قلوب الناس ، فقال : إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الحديث . وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره فذلك قولُ الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[3] انتهى . وقال بعضُ السلف في تفسيرها : يحبّهم ويحببهم إلى عباده .

(١) الأنفال (٨ / ١٩) .
(٢) الأنبياء (٢١ / ٤٣) .
(٣) مريم (١٩ / ٦٦) .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : « وما أَعْدَدْتَ لها ؟ » قالَ لا شَيْءَ إلاَّ أني أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فقال : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس رضي الله عنه : فما فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس : فأنا أُحبّ النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعُمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إيّاهم وإن لم أعمل أعمالهم .

وفي الترمذي عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ » . وفي سنن أبي داود عنه قال : رأيت أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فرِحوا بشيءٍ لم أرَهم فرحوا بشيءٍ أشدَّ منه ، قال رجل : يا رسولَ الله الرجلُ يحبّ الرجلَ على العمل من الخير يعمَلُ به ولا يعمل بمثله . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . وهذه المحبة لله توجب المحبة في الله قطعاً ، فإن من محبة الحبيب المحبةَ فيه والبغض فيه .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي ؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي » . وفي جامع أبي عيسى الترمذي من حديث مُعاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ : المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ » . وفي لفظٍ لغيره « المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِ اللَّهِ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ » . وفي الموطّأ من حديث أبي إدريس الْخَوْلاني قال : دخلت مسجدَ دمشق فإذا فتىً برَّاقُ الثنايا والناسُ حوله فإذا اختلفوا في شيءٍ أسندوه إليه وصدَروا[1] عن رأيه ، فسألت عنه فقالوا : هذا

(١) صدروا برأيه : أخذوا به وعملوا به .

مُعاذ بن جبل ، فلما كان الغد هَجَّرت[1] إليه فوجدتُه قد سبقني بالتهجير ، ووجدته يصلي ، فانتظرتُه حتى قضى صلاتَه ، ثم جئته من قِبَلِ وجهه فسلمت عليه ثم قلت : والله إني لأُحِبُّك في الله ، فقال : آلله ؟ قلت : الله ، فقال : آلله ؟ فقلت : الله ، فأخذ بِحَبْوَةِ[2] ردائي فجبذني[3] إليه وقال : أبشر فإني سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » .

وفي سنن أبي داود من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ الأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي آللَّهِ »[4] .

وفيه أيضاً عَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ آللَّهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ » قالوا : يا رسولَ الله ، تخبرُنا من هم ؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ وَلاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ » وقرأ هذه الآية : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[5] .

وفي لفظٍ لغيره : « إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنبِيَاءُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ » قالوا : يا رسول الله صِفْهُمْ لَنَا ، حَلِّهم لنا لعلَّنا نحبّهم ؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ تَبَاذَلوهَا وَلاَ أَرْحَامٍ تَوَاصَلُوهَا هُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ وَعَلَى كَرَاسِيَ مِنْ نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا

---

(١) هجّرت إليه : بادرت وسارعت إليه ، والتهجير : السير في الهاجرة .

(٢) صبوة الرداء : ما اشتمل عليه .

(٣) جبذه : جذبه .

(٤) الحديث رواه أبو داود عن أبي ذر وسكت عليه السيوطي (١ / ٤٩) ، كذلك رواه العجلوني وسكت عليه أيضاً في كشف الخفا (١ / ١٧٧) .

(٥) يونس (١٠ / ٦٢) . راجع تفسير الإمام الطبري (١١ / ١٣٢) .

حَزِنَ النَّاسُ » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ رَجُلاً زَارَ أخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فأَرْصَدَ اللَّهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ[1] مَلَكاً فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قال : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قال : أُرِيدُ أخاً لِي فِي هٰذِهِ الْقَرْيَةِ قال : لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا[2] ؟ قال : لا غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى ، قال : فإِنِّي رسولُ اللَّهِ إِلَيْكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ » .

وقال رجلٌ لمُعاذ بن جبل : إني أُحبك في الله ، قال : أَحبَّك الذي أحببتني له .

وفي سنن أبي داود أن رجلاً كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرَّ رجلٌ فقال : يا رسول الله إني لأُحبُّ هذا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَعْلَمْتَهُ ؟ » قال : لا ، قال : « أَعْلِمْهُ » فلحقه فقال : إني أحبك في الله ، قال : أحبَّك الذي أَحببتني له .

وفيها أيضاً عن المِقْدَام بن معدي كَرِب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ »[3] .

وفي الترمذي من حديث يزيدَ بن نَعامة الضُّبِّيِّ رضي الله عنه قال : قال

---

(١) المدرجة : الطريق .
(٢) تَرُبُّها : تتعهدها ، ويقال ربَّ على فلان إذا أنعم عليه .
(٣) الحديث رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود واللفظ له ، والترمذي والنسائي وآخرون وقال الترمذي : « حسن صحيح غريب » أ هـ . راجع العجلوني (١ / ٧٩ ـ ٨٠) ، وصححه السيوطي (١ / ١٦) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا آخَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيَسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَمِمَّنْ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلُ لِلْمَوَدَّةِ »[1] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا . أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ »[2] .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا حجّاج بن محمد الترمذي ، حدَّثنا شريك ، عن أبي سنان ، عن عبدالله بن أبي الهُذيل ، عن عمّار بن ياسر أن أصحابه كانوا ينتظرونه ، فلما خرج قالوا : ما أبطأك عنّا أيها الأمير ؟ قال : أمَا إني سوف أحدِّثكم أنَّ أخاً لكم ممن كان قبلكم وهو موسى صلى الله عليه وسلم قال : يا ربِّ حدّثني بأحبِّ الناس إليك ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأحبّه بحبك إياه ، قال : عبدٌ في أقصى الأرض أو طرف الأرض سمع به عبدٌ آخرُ في أقصى أو طرف الأرض لا يعرفه ، فإن أصابته مصيبةٌ فكأنما أصابته ، وإن شاكته شوكةٌ فكأنما شاكته ، لا يحبه إلَّا لي ، فذلك أحبُّ خلقي إليَّ . قال : يا ربِّ خلقتَ خَلْقاً تدخلهم النار أو تعذّبهم ، فأوحى الله إليك كلهم خَلْقي ، ثم قال : ازرع زرعاً فزرعه ، فقال : اسْقِه فسقاه ، ثم قال : قم عليه ، فقام عليه ما شاء الله من ذلك ، فحصده ورفعه فقال : ما فعل زرعك يا موسى ؟ قال : فرغت منه ورفعته ، قال : ما تركت منه شيئاً ؟ قال : ما لا خيرَ فيه أو ما لا حاجة لي فيه ، قال : فكذلك أنا لا أُعذّب إلَّا مَن لا خير فيه .

---

(١) الحديث رواه ابن سعد والبخاري في التاريخ والترمذي عن بزيد بن نعامة الضبي ، وضعفه السيوطي (١ / ١٥) .

(٢) الحديث أورده الإمام مسلم في صحيحه .

فصل

ولو لم يكن في محبة الله إلاّ أنها تنجي محبّة من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوّض عنها بشيء أبداً . وسئل بعض العلماء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذّب حبيبه ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿ وقَالَتِ الْيَهودُ والنَّصَارٰى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وأحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُم ﴾[1] الآية .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « واللَّهِ لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ حَبِيبَهُ ولٰكِن قَدْ يَبْتَلِيه فِي الدُّنْيَا »[2] .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا سيَّار ، حدّثنا جعفر ، حدّثنا أبو غالب قال : بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « يا معشرَ الحواريّين تحبَّبوا إلى اللّهِ ببغض أهل المعاصي ، وتقرّبوا إليه بالمَقْت لهم ، والتمسوا رضاه بسخطهم » قالوا : يا نبيَّ الله فمن نجالس ؟ قال : « جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه ، ومن تذكركم بالله رؤيته ، ويزهّدكم في دنياكم علمُه » .

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أنَّ الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه ، كما أنه يُعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه ، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال : ذكر لنا أن هَرِم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبدٌ على اللّهِ بقلبه إلا أقبل الله عزّ وجلَّ بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودَّتهم ورحمتهم .

---

(١) المائدة (٥ / ١٨) .

(٢) الحديث . رواه الحاكم بنحوه وصححه السيوطي (٢ / ١٩٦) .

وقد روي هذا مرفوعاً ولفظه : « وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ على اللَّهِ بِقَلْبِهِ إِلاَّ أَقْبَلَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ عَلَيْهِ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ وَجَعَلَ قُلُوبَهُم تَفِدُ إِلَيهِ بِالْوُدِّ والرَّحمَةِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ خيرٍ إِلَيْهِ أَسرَعَ » وإذا كانت القلوبُ مجبولةً على حبِّ من أحسن إليها وكلُّ إحسان وصل إلى العبد فمن الله عزَّ وجلّ كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[1] فلا ألأمَ ممن شغل قلبَه بحبِّ غيره دونه .

قال الإمام أحمد : حدَّثنا أبو معاوية قال حدَّثني الأعمش ، عن المُنْهَال ، عن عبداللَّه بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود أحببني وحبّب عبادي إليَّ وحببني إلى عبادي ، قال : يا ربِّ هذا أنا أُحبك وأُحبّب عبادك إليك فكيف أُحبّبك إلى عبادك ؟ قال : تذكرني عندهم ، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن .

ومن أفضل ما سئل اللَّهُ عزَ وجلَ حبُّه وحبُّ من يحبّه وحبَّ عملٍ يقرب إلى حبّه ، ومن أَجمع ذلك أن يقول : « اللهمَّ إني أسألك حبّك وحبَّ من يحبُّك وحبَّ عملٍ يقرّبني إلى حبّك ، اللهمَّ ما رزقتني مما أُحبُّ فاجعله قوَّةً لي فيما تحب ، وما زَوَيْتَ[2] عني مما أُحبّ فاجعله فراغاً لي فيما تحبّ ، اللهمَ اجعل حبّك أَحبَّ إليَّ من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ ، اللهمّ حبّبني إليك وإلى ملائكتك وأَنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين ، واجعلني ممن يحبُّك ويحبُّ ملائكتك وأنبياءك ورسلك وَعبادك الصالحين ، اللهمَّ أَحي قلبي بحبّك واجعلني لك كما تحبّ ، اللهمَّ اجعلني أُحبّك بقلبي كلِّهِ ، وأرضيك بجُهدي كلِّه ، اللهمّ اجعل حبي كلَّه لك ، وسعيي كلّه في مرضاتك »[3] وهذا الدُّعاء هو فُسطاط خيمة الإسلام الذي قيامُها به ، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وَأن محمداً رسولُ

(١) النحل (١٦ / ٥٣) .
(٢) زويت عني : صرفت وصدفت عني .
(٣) الحديث : ورد في الجامع الصحيح للترمذي بنحوه .

الله ، والقائمون بحقيقة ذَلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون . والله سبحانه تعرَّف إلى عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له ، فإن القلوب مفطورةٌ عَلَى محبة الكمال ومن قام به ، والله سبحانه وتعالى له الكمالُ المطلَقُ من كل وجهٍ الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ ما ، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه بل لو كان جمالُ الخلْق كلِّهم عَلَى رجلٍ واحدٍ منهم وكانوا جميعُهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قطُّ نسبةٌ إلى جمال الله ، بل كانت النسبة أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى حِذاء جِرْم الشمس ﴿ ولِلَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَى ﴾[1] .

وقد رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ » عبدُ اللَّه بن عَمْرو بن العاص ، وأبو سعيد الْخُدْري ، وعبداللَّه بن مسعود ، وعبداللَّه بن عمر بن الخطاب ، وثابت بن قيس ، وأبو الدَّرداءِ ، وأبو هريرة ، وأبو ريحانة رضي الله عنهم .

ومن أسمائه الحسنى : الجميلُ ، ومَن أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنْعه ، فله جمالُ الذَّات ، وجمال الأوصاف ، وجمالُ الأفعال ، وجمالُ الأسماء ، فأسماؤه كلُّها حُسْنَى ، وصفاتُه كلُّها كمال ، وأفعاله كلها جميلة ، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار ، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدنٍ أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم ، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيء غيره ، ولولا حجابُ النور عَلَى وجهه لأحرقت سُبُحَاتُ[2] وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه ، كما في صحيح البخاري[3] من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إنَّ اللَّهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ[4] ويَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ

---

(١) النحل (١٦ / ٦٠) .
(٢) سبحات وجهه سبحانه وتعالى : أنواره .
(٣) كذا ورد والأصح (صحيح مسلم) .
(٤) القسط : العدل والميزان .

عمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وعمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انْتَهى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار نورُ السموات من نور وجهه ، وإن مقدار كلّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة ، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس [فتعرض عليه] أولَ النهار أو اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات ، فيطَّلع منها عَلَى بعض ما يكْره فيغضبه ذلك ، فأوّلُ من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش يجدونه يَثقُل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسُرادقات العرش والملائكةُ المقرّبون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريلُ في القَرْنِ فلا يبقى شيءٌ إلاَّ الثقلين الجنَّ والإنس ، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمةً ، فتلك ستُّ ساعاتٍ ، ثم يُؤْتى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات فيصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فتلك تسع ساعات ، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلّهم ثلاث ساعات ، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ، ثم قرأ : ﴿ كلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[1] ، ثم قال عبدالله : هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدّارمي) حدَّثنا موسى بن إسماعيل ، حدّثنا حمّاد بن سلمة ، عن الزبير بن عبدالسلام ، عن أيوب بن عبدالله الفهري[2] ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . رواه الحسن بن إدريس ، عن خالد بن الهياج ، عن أبيه ، عن عَبّاد بن كثير ، عن جعفر بن الحارث ، عن مَعْدان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليلٌ ، وإن السموات مملوءاتٌ نوراً من نور الكرسي ، وإن يوماً عند ربك اثنتا عشرة ساعةً ، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات ، فيرى

(١) الرحمن (٥٥ / ٢٩) .
(٢) وقد ورد أن حماد بن سلمة يروي عن الزبير أبي عبدالسلام عن أيوب بن عبدالله بن مكرز القرشي عن ابن مسعود . راجع تهذيب التهذيب (١ / ٤٠٧) .

فيها ما يكره فيغضبه ذلك ، وإن أوّلَ من يعلم بغضبه حَمَلَةُ العرش يرونه يَثْقُلُ عليهم فيسبّحون له ويسبح له سُرادقات العرش في ثلاث ساعات . من النهار ، حتى يمتلىء ربنا رضاً فتلك ستّ ساعات من النهار ، ثم يأمر بأرزاق الخلائق فيعطي من يشاء في ثلاث ساعاتٍ من النهار ، فتلك تسع ساعات ، ثم يرفع إليه أرحام كل دابّة فيخلق فيها ما يشاء ، ويجعل المدّة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار ، فتلك اثنتا عشرة ساعةً ، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى . وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا به يوم الطائف : « أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيا والآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَليَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا بكَ »(١) وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشْرق لنوره الأرض كلّها كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ ﴾(٢) وقولُ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : نورُ السموات والأرض من نور وجهه ، تفسيرٌ لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ والأَرْضِ ﴾(٣) .

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم قيامَ اللَّيل : « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نورُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » وفي سنن ابن ماجة وحرب السكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرّقاشي ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نورٌ فَرَفَعوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ : السَّلاَمُ عَلَيْكم يا

---

(١) الحديث : رواه الطبراني في المعجم الكبير .
(٢) الزمر (٣٩ / ٦٩) .
(٣) النور (٢٤ / ٣٥) .

أَهْلَ الْجَنَّةِ وذلِكَ قولُهُ : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾[1] فيرفعون رُؤوسَهُمْ فينظرون إليهِ وينظرُ إليهمْ ولا يَلْتَفِتونَ إلى شيءٍ مِنَ النَّعيمِ حتى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ فَيَبْقى نورُهُ وبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلى دِيارِهِمْ وَمَنَازِلِهِم » لفظ حديث حرب : « فَمَا ظَنُّ الْمُحِبِّينَ بِلذَّةِ النَّظَرِ إلى وجْهِهِ الكَرِيمِ في جنَّاتِ النَّعِيمِ ؟ » وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : « أسأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ والشَّوق إلى لِقَائِكَ » . (ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حِبَّان في صحيحه) فاسمع الآن شأنَ أوليائه وأحِبَّائه عند لقائه ثم اختر لنفسك :

أنت القتيــلُ بكــلِّ من أحببتَــه فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

قال هشام بن حسان عن الحسن : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نَسُوا نعيم الجنة . وقال هشام بن عمار : حدّثنا محمد بن سعيد بن سابور . حدّثنا عبدالرحمن بن سليمان ، حدّثنا سعيد بن عبدالله الجرشي القاضي أنه سمع أبا إسحاق الهمداني يحدّث عن الحارث الأعور ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفعه قال : « إنَّ آللهَ إذَا أَسْكَنَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ بَعَثَ إلى أَهْلِ الْجَنَّةِ الرُّوحَ[2] الأمينَ فيقولُ : يَا أهلَ الْجَنَّةِ إنَّ رَبَّكُمْ يُقْرِئُكُمُ السَّلامَ وَيأْمُرُكُمْ أَنْ تَزُورُوهُ إلى فِنَاءِ آلْجَنَّةِ وَهُوَ أَبْطَحُ[3] آلْجَنَّةِ ، تُرْبَتُهُ الْمِسْكُ وَحَصْبَاؤُهُ[4] الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَشَجَرُهُ الذَّهَبُ الرَّطْبُ وَوَرَقُهُ الزُّمُرُّد ، فَيَخْرُجُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مُسْتَبْشِرِين مَسْرُورِينَ ، فَثَمَّ يَجْمَعُهُمْ وَثَمَّ كَرَامَةُ اللَّهِ وَالنَّظَرُ إلى وَجْهِهِ ، وَهُوَ مَوْعِدُ اللَّهِ أَنْجَزَهُ لَهِمْ ، فَيأْذَنُ اللَّهُ لَهِمْ فِي السَّماعِ وَالأكلِ وَالشُّرْبِ ، وَيُكْسَوْنَ حُلَلَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَوْلِيَاءَ آللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِمَّا وَعَدَكُمُ اللَّهُ [رَبُّكُمْ] شيءٌ ؟ فيقولونَ لاَ وَقَدْ أَنْجَزَنا ما وَعَدَنَا فما بَقِيَ شَيْءٌ إلا النظرُ إلى وَجْهِهِ ، فَيَتَجلَّى لَهُمُ الرَّبُّ (تَبَارَكَ وَتَعَالى) في

---

(١) يس (٣٦ / ٥٨) .

(٢) الروح الأمين : جبريل عليه السلام .

(٣) الأبطح : هو المكان الفسيح يمر به السيل فيترك فيه الحصى والحصباء ومنه أبطح مكة .

(٤) حصباؤه : جمع مفرده حصبة ، وهي الحصى .

حُجُبٍ فيقولُ : يا جِبْرِيلُ ارْفَعْ حِجَابِي لِعِبَادِي كَيْ يَنْظُرُوا إلى وَجْهِي ، قالَ : فيَرْفَعُ الْحِجَابَ الأوَّلَ فيَنْظُرُونَ إلى نُورٍ مِنْ نُورِ الرَّبِّ فيَخِرُّونَ له سُجَّداً فيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ يَا عِبَادِي آرْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فإنَّها لَيْسَتْ بدَارِ عَمَلٍ إنما هِيَ دَارُ ثَوَابٍ ، فيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثاني فينظُرُونَ أمْراً هُوَ أعْظَمُ وَأجَلُّ فيَخِرُّونَ لِلّهِ حَامِدِينَ سَاجِدِين ، فيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ انِ آرْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ إنها لَيْسَتْ بِدَار عَمَلٍ إنَّما هِيَ دَارُ ثَوَابٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ . فيَرْفَعُ الْحِجَابُ الثَّالِثَ فعِنْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُونَ إلَى وَجْهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فيَقُولُونَ حِينَ يَنْظُرُونَ إلى وَجْهِهِ : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، فيَقُولُ كَرَامَتِي أمْكَنَتْكُمْ مِنَ النَّظَرِ إلى وَجْهِي وَأحَلَّتْكُمْ دَارِي . فيَأْذَنُ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ أنْ تَكَلَّمِي فتَقُولُ : طوبَى لِمَنْ سَكَنَنِي وطوبى لِمَنْ يَخْلُدُ فِيَّ وَطُوبَى لِمَنْ أُعْدِدْتُ لهُ . وَذَلكَ قوله تعالى : ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ »[2] .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهمَا وَحِلْيَتُهما وَمَا فيهما ، وَجنتان مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فيهمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أنْ يَنْظُرُوا إلى رَبِّهِمْ إلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ » .

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي : حدّثنا أبو الرَّبيع ، حدّثنا جرير بن عبدالحميد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبدالله بن الحارث ، عن كعب قال : ما نظر الله إلى الجنة إلا قال : طيبي لأهلك فزادت طيباً على ما كانت ، وما من يوم كان عيداً في الدُّنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة ، ويَبْرُزُ لهم الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه ، وتَسْفي[3] عليهم الريح بالطيب والمِسك فلا يسألون

---

(١) الرعد (١٣ / ٢٩) .

(٢) القيامة (٧٥ / ٢٢ ـ ٢٣) .

(٣) سفت الريح التراب : ذرته أوحملته .

ربّهم تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً .

وقال عَبْدُ بن حُمَيد ، أخبرني شبابة عن إسرائيل ، حدّثنا ثُوَيْر بن أبي فاختة سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أدنى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنظرُ إلى خَدَمِهِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرةَ ألفِ سنة ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى الله مَنْ يَنظرُ إلى وَجْهِهِ غَدْوَةً وَعَشِيَّةً ثم تلا هذه الآية : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ »[1] رواه الترمذي في جامعه عنه .

وذكر عثمان بن سعيد الدّارمي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إذَا بَلَغَ مِنْهُمُ النعِيمُ كُلَّ مَبلَغٍ وَظَنوا أَنْ لَا نَعِيمَ أَفْضَلَ مِنْهُ تَجلّى لَهُمْ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالى فَنَظَرُوا إلى وَجْهِ الرَّحْمٰنِ فَنَسُوا كلَّ نَعِيمٍ عَايَنُوهُ حِينَ نَظَرُوا إلى وَجْهِ الرَّحْمٰنِ » .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : حسّنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه ، وحَقٌّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظر إلى ربها عزّ وجلّ . قال أبو سليمان الدّاراني : لو لم يكن لأهل المحبّة ـ أو قال المعرفة ـ إلا هذه الآية : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ لاكْتَفَوْا بها .

وذكر النسائي من حديث الزُّهري ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هَلْ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ لَا غَيْمَ فِيهِ وَفِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا غَيْمَ فيهَا ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإنَّكم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم حَتّى إنَّ أَحَدَكُمْ لَيُحَاضِرُهُ[2] مُحَاضَرَةً فَيَقُولُ : عَبْدِي هلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وكذا ؟ فيقول : يا ربِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لي ؟ فيقول : بِمَغْفِرَتي صِرْتَ إلى هذا » .

---

(١) القيامة (٧٥ / ٢٢ ـ ٢٣) .

(٢) يحاضر القوم : يجالسهم ويحادثهم .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن أبي سعيد الْخدري رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تَعَالَى يَقولُ لِأهلِ الجنَّةِ : يَا أَهلَ الجنةِ ، فيقولون : لَبَّيكَ رَبَّنا وَسَعدَيكَ وَالْخَيرُ فِي يَدَيكَ فيقولُ : هلْ رَضِيتمْ ؟ فيقولون : وَمَا لَنَا لا نرضى وَقَدْ أعطيتَنا ما لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، فيقولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ ؟ فيقولون : يا رَبُّ وَأَيُّ شيءٍ أفضلُ مِنْ ذٰلِكَ ؟ فيقول : أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فلا أَسْخَطُ عَلَيكُمْ أَبداً » .

وفي الصحيح والسنن والمسانـد من حديث ثـابت البُناني ، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دَخَلَ أَهلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلْجَنَّةَ نادى منادٍ : يَا أَهلَ ٱلْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ ، فيقولون : ما هو أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَيُدْخِلْنَا ٱلْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلاَ أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ » .

وفي صحيح البخاري من حديث جرير بن عبداللَّه قال : كُنَّا جُلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إِذْ نَظَرَ إلى القمر لَيلةَ الْبدر فقالَ : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ لا تُضَامُونَ في رُؤ يَتِهِ فإن اسْتَطَعْتُمْ أنْ لاَ تُغْلَبوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْس وقَبْلَ غُرُوبِهَا فافْعَلُوا » .

وفي الصحيحين من حديث الزُّهري ، عن عطاء بن يزيد الليثي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَلْ تُضَارُّونَ(١) في الْقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ؟ » قالوا : لا يا رسول الله قال : « فَهَلْ تُضَارُّونَ في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَا سَحَابٌ ؟ » قالوا : لا

(١) لا تضارون في رؤيته : لا يضر بعضكم بعضاً وينفرد برؤيته ، فلا يقع في رؤيته بكم ضر ولا يلحقكم ضيم .

يا رسول الله ، قال : « فإنَّكُمْ تَرَوْنهُ كَذلِكَ » . وَفي لَفْظٍ : « فإنَّكُمْ لا تُضارُّونَ في رُؤيَةِ ربِّكُمْ إلاَّ كما تُضارُّونَ في رُؤيتهمَا » .

وقال الترمذي : حدَّثنا قُتَيْبَة ، حدَّثنا عبدالعزيز بن محمد ، عن العَلاء بن عبدالرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يومَ القِيامَةِ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيهِمْ ربُّ العَالمِينَ تَبَارَكَ وَتعَالى فيقولُ : لِيَتَّبعْ كلُّ إنْسَانٍ مَا كانَ يَعْبُدُ ، فيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيبُهُ ولِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ ، ولصاحِبِ النَّارِ نارُهُ فَيَتَّبِعُونَ مَا كانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْقى الْمُسْلِمُونَ فَيَطَّلِعُ عَلَيهِمْ ربُّ الْعَالمِينَ تَبارَكَ وَتَعَالى فيَقُولُ : ألاَ تَتبِعُونَ النَّاسَ ؟ فيَقُولون نَعُوذُ باللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ باللَّهِ مِنْكَ ، أللَّهُ رَبُّنا هٰذا مَكانُنَا حَتى نَرى ربَّنا ، وَهُوَ يَأمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ . ثُمَّ يَتَوارَى ثم يَطَّلِعُ عَلَيهِمْ فيقول : ألاَ تَتبِعُون النَّاسَ ؟ فيَقُولون : نَعُوذُ باللَّهِ مِنكَ نَعُوذُ باللَّهِ مِنك ، أللَّهُ ربُّنَا ، وهٰذا مَكانُنا حَتّى نَرى ربَّنا ، وهُوَ يَأمُرُهُم ويُثَبِّتُهُم . قالوا : وهَلْ نراهُ يا رسول اللَّهِ ؟ قال : وهَل تُضارُّون في رُؤيَةِ القَمَرِ ليلَةَ البَدْرِ ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : فإنّكم لا تُضَارُّون في رؤْيَتِه تِلْكَ السَّاعَةَ . قال : ثُمَّ يَتوارَى ثمَّ يَطَّلِعُ فيُعرِّفُهُم نَفْسَهُ ثم يقول : أنا ربُّكم فاتَّبِعُوني ، فيَقومُ الْمُسْلِمُون ويُوضَعُ الصِّراطُ فيَمُرُّون علَيهِ مِثلَ جِيادِ الْخَيلِ والرِّكابِ ، وقَولُهم عليه : سَلِّم سَلِّم ، ويَبقى أهلُ النَّار فيُطْرَحُ منهُم فيهَا فَوجٌ فيُقالُ هل امتَلأتِ ؟ فتَقُولُ : هل مِن مَزيدٍ ؟ ثمَّ يُطْرَحُ فيها فوجٌ فيُقالُ : هل امتَلأتِ ؟ فتَقولُ هل مِن مَزيدٍ ؟ حتى إذا أوعَبُوا[1] فيهَا وضَعَ الرَّحمٰنُ تَبارَكَ وَتَعالَى فيها قَدمَهُ فأزْوَى[2] بَعْضَهَا إلى بَعض وقالت : قَطْ قَطْ ، فإذا أدخَلَ اللَّهُ أهلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وأهلَ النَّارِ النَّارَ أُتي بالموتِ مُلَبَّباً فيُوقَفُ عَلَى السُّور الَّذي بَيْنَ أهلِ الْجَنَّةِ وأهلِ النَّار ، ثمَّ يُقالُ يا أهل الْجَنَّةِ فيَطَّلِعونَ خائِفِين ، ثمَّ يُقالُ : يا أهل النَّار فيَطَّلِعون

---

(١) أوعبوا فيها : أدخلوا جميعاً فيها .

(٢) أزوى بعضها إلى بعض : ضم بعضها إلى بعض .

مُسْتَبْشِرِينَ يَرجُون الشَّفَاعَةَ فيُقالُ لأهلِ الْجَنَّةِ والنَّارِ : هل تَعرفُونَ هٰذا ؟ فيَقُولون هٰؤُلاء وهٰؤُلاءِ : قَد عرَفناهُ ، هُو المَوتُ الذِي وُكلَ بنا ، فيُضْجَعُ فيُذبَحُ ذبْحاً عَلَى السُّور . ثمَّ يُقَالُ : يا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلودٌ ولاَ مَوْتٌ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلودٌ وَلاَ مَوْتٌ » .

قال الترمذي : هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وأصلُه في الصحيحين لكن هذا السياقُ أجمع وأخصر . وفي لفظِ الترمذي : « فَلَوْ أَنَّ أَحداً مَاتَ فَرحاً لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ حُزْناً لَمَاتَ أَهْلُ النَّار » .

وفي مسند الحارث بن أبي أُسامة من حديث قُرَّة ، عن مالك ، عن زياد بن سعد ، حدَّثنا أبو الزبير قال : سمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جُمِعَتِ الأمَمُ وَدُعِيَ كُلُّ أُناسٍ بإمامِهِمْ فَجِئْنَا آخِرَ النَّاسِ فيَقُولُ قائِلٌ مِنَ النَّاس : مَنْ هٰذِهِ الأمَّةُ ؟ قال : فيُشْرِفُ إِلَيْنَا النَّاسُ فيُقَالُ : هٰذِهِ الأمَّةُ الأمِينَةُ ، هٰذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ، وَهٰذَا مُحَمَّدٌ في أُمَّتِهِ ، فيُنَادِي مُنَادٍ إنكُم الآخِرُونَ الأوَّلونَ ، قال : فَنَأْتي فَنَتَخَطَّى رِقابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلى اللّهِ تَعَالَى مَنْزِلةً ، ثمَّ يُدْعَى النَّاسُ كلُّ أناسٍ بإمامِهِمْ ، فَيُدْعَى اليَهُودُ فيُقَالُ : مَنْ أنتُمْ ؟ فيَقُولونَ : نحْن اليهودُ ، فيقول : مَنْ نَبيُّكُمْ؟ فيَقُولون : نَبيُّنَـا مُوسىٰ ، فيقـول : مَا كِتَـابُكُمْ ؟ فيقولـون : كِتَابُنـا التَّوراةُ ، فيقول : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فيقولون : نَعْبُدُ عُزَيْراً ونَعْبُدُ اللّهَ ، فيقول لِلْملإِ حوله : اسْلُكُوا بهِمْ في جَهَنَّم . ثمَّ يُدْعَى النَّصَارى فيقول : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فيقولون : نحْنُ النَّصَـارى ، فيقول: مَنْ نبيُّكُمْ؟ فيقـولـون : نبينَـا عِيسىٰ ، فيقـول : مَـا كِتَـابُكُم؟ فيمولون: كُتابُنَا الإنجِيلُ ، فيقول: مَا تعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُـدُ عِيسىٰ وأُمَّهُ واللّهَ . فيقول لِلْملإِ حوله : اسْلُكوا بهٰؤلاءِ في جَهَنَّمَ ، فيُدْعى عيسىٰ فيقول لعيسىٰ : يا عيسىٰ ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُوني وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ ﴾(١) فيقول : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾(٢) إلى قوله : ﴿ الْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٣) ثم

---

(١) ، (٢) ، (٣) المائدة (٥ / ١١٦ - ١١٨) .

يدْعى كلُّ أناسٍ بإمَامِهِمْ وَمَا كانُوا يَعْبُدُونَ ثم يَصْرُخُ الصَّارخُ : أيُّها النَّاسُ مَنْ كانَ يَعْبُدُ إلهاً فلْيَتبِعْهُ ، تَقْدَمُهُمْ آلِهَتُهُمْ مِنها الْخَشَبُ والْحِجَارةُ ، ومِنهَا الشَّمْسُ والقَمَرُ ، ومِنها الدَّجَّالُ ، حتَّى تَبْقى المُسْلِمُونَ فَيقِفُ عليهم فيقول : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فيقولون : نَحنُ المُسْلمونَ ، قال : قال : خَيْرُ اسمٍ وخَيْرُ داعِيَةٍ ، فيقول : مَنْ نبيُّكُمْ ؟ فيقولون : مُحَمَّدٌ ، فيقول : مَا كِتابُكم ؟ فيقولون : القُرْآنُ ، فيقول : ما نعْبُدونَ ؟ فيقولون : نعْبُدُ اللَّهَ وحْدَهُ لا شرِيك لهُ ، قال : سَيَنْفَعُكم ذٰلِك إنْ صَدقْتُم ، قالوا : هٰذا يومُنا الَّذي وُعِدْنا فيقول : أتَعْرِفونَ الله إذا رأَيْتُمُوهُ ؟ فيقولون : نَعَمْ ، فيقول : وكَيْفَ تعرفونَهُ ولَم ترَوْهُ ؟ فيقولون : نَعْلَمُ أنَّهُ لا عِدْلَ لهُ ، قال : فَيَتجلَّى لهُمْ تَبارَكَ وتَعَالى فيقولون : أَنْتَ ربُّنا تبارَكْتَ أسْماؤُكَ ، ويَخِرُّون لهُ سُجَّداً ، ثمّ يَمضي النُّورُ بأهْلِهِ » .

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه من حديث أبي الزبير قال : سألت جابراً عن الورود فأخبرني أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نَجِيءُ يومَ الْقِيامَةِ عَلَى كَوم[1] فوقَ النَّاسِ ، فَتُدْعى الأمَمُ بأوْثانِها ومَا كانَتْ تَعْبُدُ ، الأوَّلُ فالأوَّلُ ، ثمّ يَأْتِينا ربُّنا بَعْدَ ذٰلِك فيقول : مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ فيقولون : نَنْتَظِرُ ربَّنا ، فيقول : أنا رَبُّكم ، فيقولون : حَتَّى نَنْظُرَ إليْكَ ، فَيَتَجلَّى لهُمْ يَضْحَكُ فَيَتَّبِعونَهُ » .

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي أن أبا بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري أتى عمرَ بن عبدالعزيز فقال : حدثنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللَّهُ الأمَم يومَ القِيامَةِ في صَعيدٍ وَاحِدٍ فإذا بَدَا لَهُ أن يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مَثُلَ لِكلِّ قَوْمٍ ما كانُوا يَعْبُدون فَيَتْبعونَهُمْ حَتَّى يَقْحَمُوهمُ[2] النَّارَ ، ثمّ يأتِينا ربُّنا ونَحْنُ في مَكانٍ فيقول : مَنْ أَنْتُم ؟ فنقولُ : نَحْنُ المُؤْمِنونَ ، فيقول : ما تَنْتَظِرُون ؟ فنقول : نَنْتَظِرُ ربَّنا ، فيقولُ : مِنْ أيْنَ تعْلَمونَ أنَّهُ ربُّكم ؟

---

(١) الكوم : التل المرتفع .

(٢) يقحموهم : يكبونهم فيها على وجوههم .

فنقولُ : حَدَّثَتْنا الرُّسُلُ أَوْ جَاءَتْنا الكُتُبُ ، فيقولُ : هَلْ تَعْرِفونهُ ؟ فيقولونَ : نَعْلَمُ أنهُ لا عِدْلَ ، فيَتَجَلَّى لنَا ضاحِكاً ، ثم يقول : أَبْشِروا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فإنهُ لَيْسَ مِنْكُم أَحَدٌ إلَّا وقَدْ جَعلْتُ مَكانَهُ في النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » فقال عمر لأبي بُرْدَة : آللَّهِ ، لقد سمعتَ أبا موسى يحدِّث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : إي والله الذي لا إله إلَّا هو لقد سمعت أبي يذكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرَ مرَّةٍ ولا مرَّتين ولا ثلاثاً ، فقال عمر بن عبدالعزيز : ما سمعت في الإسلام حديثاً هو أحبُّ إليّ منه .

وفي الترمذي من حديث الأوزاعي حدَّثني حسّان بن عطية ، عن سعيد بن المسيِّب أنه لقى أبا هريرة رضي الله عنه فقال أبو هريرة : أسأل الله تعالى أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوَ فيها سوق ؟ قال : نعم أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم فيُؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدُّنيا فيزورون الله تبارك وتعالى ، فيبرُز لهم عرشه ويتبدَّى لهم في روضةٍ من رياض الجنة ، فتُوضع لهم منابرُ من نُورٍ ومنابرُ من لُؤلُؤٍ ومنابرُ من ياقوتٍ ومنابرُ من زَبَرْجَدٍ ومنابرُ من ذهب ومنابرُ من فِضَّةٍ ، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيءٌ عَلَى كثبان[1] المسك والكافور ما يرون أَنَّ أهل الكراسي أفضلُ منهم مجلساً .

قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « نَعَمْ هَلْ تُمَارُونَ في رُؤيَةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ؟ » قلنا : لا ، قال : « كَذلِكَ لَا تُمَارُونَ في رُؤيَةِ رَبِّكُم وَلَا يَبْقى في ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إلَّا حَاضَرَهُ اللَّهُ تَعَالى مُحَاضَرَةً حَتَّى يقولَ لِلرَّجُلِ مِنهُمْ : يَا فُلَانُ ابنَ فُلَانٍ أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُذَكِّرُهُ بِبَعْضِ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنيا فيُقولُ: يا ربِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لي؟ فيَقولُ : بَلَى فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتي بَلَغَتْ مَنْزِلَتَكَ هٰذِهِ ، فَبَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِك غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ

(١) الكثيب : التل من الرمل .

فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط ، ثم يقول : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم ، فنأتي سوقاً قد حفت به الملائكة ، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب ، فيحمل إلينا ما اشتهينا ليس يباع فيه شيء ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دني فيروعه ما يرى عليه من اللباس فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا فيقلن مرحباً وأهلاً لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أكثر مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا » .

وقال يعقوب بن سفيان في مسنده : حدثنا ابن المصفى ، حدثنا سويد بن عبدالعزيز ، حدثنا عمرو بن خالد ، عن زيد بن علي ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يزور أهل الجنة الرب تبارك وتعالى في كل يوم جمعة وذكر ما يعطون » قال : ثم يقول الله تعالى : ﴿ اكشفوا الحجب ، فيكشفوا حجاباً ثم حجاباً حتى يتجلى لهم عن وجهه تبارك وتعالى وكأنهم لم يروا نعمة قبل ذلك ، وهو قول الله تعالى : ولدينا مزيد ﴾[1] .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي من حديث الحسن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً أنه قال : « يأتينا ربنا يوم القيامة ونحن على مكان رفيع فيتجلى لنا ضاحكاً » (مرسل صحيح) .

وقال عثمان الدارمي : حدثنا أبو موسى ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا الأجلح حدثنا الضحاك بن مزاحم قال : إن الله يأمر السماء يوم القيامة فتنشق بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر السماء الثانية حتى ذكر سبع سموات فيكونون

---

(١) ق (٥٠ / ٣٥) .

سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس ، ثم ينزل المَلِكُ الأعلى جلّ جلالُه في بهائه وجماله ومعه ما شاء من الملائكة .

وقال عثمان بن سعيد : حدَّثنا هشام بن خالد الدمشقي ، وكان ثقة ، حدَّثنا محمد بن شعيب بن شاور ، حدَّثنا عمر بن عبدالله مولي غفْرَة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاءَني جِبْرِيلُ وَفي كَفِّهِ مِرآةٌ فيهَا نُكْتَةٌ[١] سَوْدَاءُ ، فقلت : ما هٰذِه يَا جِبْرِيلُ ؟ قال : هٰذِهِ الْجُمُعَةُ أرسَلَ بِهَا إِلَيْكَ ربُّكَ فتَكُون هُدىً لَكَ ولأُمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ ، فقلت : وَمَا لنَا فيهَا ؟ قال : لَكُم فيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ أَنتُمْ الآخِرُونَ السَّابقون يوْمَ الْقِيامَةِ وَفيهَا ساعَةٌ لَا يُوافِقُها عَبْدٌ مؤمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللّهَ خيراً هُوَ لهُ قسم إلَّا أتاهُ وَلَا خيراً لَيْسَ لَهُ بقسم إلَّا دُخِرَ لَهُ أفْضَلُ منْهُ ، وَلَا يَسْتَعِيذُ باللّهِ مِمّا هُوَ مَكْتوبٌ عَلَيْهِ إلَّا دُفِعَ عَنْهُ أَكْثرُ منْهُ ، قلت : ما هٰذِهِ النُّكْتَةُ السَّوداءُ ؟ قال : هذه السَّاعةُ يَوْمَ تَقومُ الْقيامةُ وَهُوَ سَيِّدُ الأيامِ وَنَحْنُ نُسَمِيهِ عِنْدَنا يَوْمَ المَزِيدِ ، قلت : وَلِمَ تُسمُّونهُ يومَ المَزِيدِ يا جِبْرِيلُ ؟ قال : لأنَّ ربَّكَ اتَّخَذَ في الْجَنَةِ وَادِياً أفيحَ[٢] مِنْ مسْكٍ أبيَضَ فإذا كانَ يوْمُ الْجُمُعَةِ منْ أيَّامِ الآخرةِ هَبطَ الْجَبَّارُ عَنْ عرْشِهِ إلى كُرْسِيِّهِ إلى ذٰلِك الْوَادي وقَدْ حُفَّ الكُرْسِيُّ بِمنابِرَ منْ نُورٍ يَجْلِسُ عَلَيها الصِّدِّيقونَ والشُّهَدَاءُ يوْمَ الْقيامةِ ثمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ حَتَّى يَحُفُّوا بالْكَثِيبِ ، ثمَّ يَبْدُو لَهُمْ ذُو الْجَلَالِ والإكْرَامِ تبارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : أنَا الَّذِي صَدَقْتُكُم وَعْدِي وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمتي وأحْلَلْتُكم دَارَ كَرَامَتي فَسَلُوني ، فَيقُولُونَ بِأَجْمَعِهِمْ : نَسْأَلُك الرِّضَا عَنَّا ، فَيَشْهَدُ لهم علىَ الرضا ثم يقُولُ لهمْ : سلوني ، فَيسأَلُونهُ حَتَّى يَنْتهِيَ نَهْمَةُ[٣] كلِّ عَبْدٍ مِنْهُمْ ثمَّ يقول : سلوني ، فيقولون : حَسبُنا ربُّنا رضِينا ، فَيَرْجِعُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ إلى عَرْشِهِ فَيُفْتَحُ لهُمْ بِقَدْرِ إشْرَاقِهِمْ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ما لَا عَيْنٌ رأتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . ويَرْجِعُ أَهْلُ

---

(١) النكتة : النقطة السوداء في الأبيض او البيضاء في اسود .
(٢) أفيح : فسيح ممرع .
(٣) النهمة : الحاجة ، واشباع الشهوة في المراد .

الْغُرَفِ إلى غُرَفِهِمْ وَهي غُرْفَةٌ مِنْ لُؤلُؤةٍ بَيْضَاءَ وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ وَزُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ لَيْسَ فِيهَا قَصْمٌ[1] وَلَا وَصْمٌ[2] مُطَّرِدَةٌ أنهارُها مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا ، فيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا وَمَسَاكِنُهَا فَلَيْسُوا إلى يوم أَحْوجَ منهُمْ إلى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزْدَادُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ ورِضْواناً » .

رواه عن أنسٍ جماعةٌ منهم عثمان بنُ عُمَيْر بن اليقظان[3] ومن طريقه رواه الشافعي في مسنده ، وعبدالله بن الإمام أحمد في السنة[4] ، ومنهم أبو صالح ، والزُّبير بن عدي وعليُّ بن الحكم البُناني ، وعبدالملك بن عُمَيْر ، ويزيد الرَّقاشي وعبدالله بن بُرَيدة ، كلُّهم عن أنس وصححه جماعة من الحفَّاظ ، وزاد الشافعيُّ في مسنده في آخره : « وهُوَ الْيَومُ الَّذي اسْتَوَى فيهِ ربُّكُم عَلَى الْعَرْشِ » وساقه عثمان بن أبي شيبة من طرق ، وقال في بعضها : « ثمَّ يَتَجلَّى لهُمْ ربُّهُمْ تباركَ وَتَعالى فَيَقُولُ : أنا الذي صَدَقْتُكم وَعْدِي وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتي وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامتي » إلى أن قال : « ثمَّ يَرْتَفِعُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ والصِّدِّيقُونَ والشُّهَداءُ ويرْجِعُ أهلُ الْغُرَفِ إلى غُرَفِهِمْ » .

وروى محمد بن الزِّبرقان ، عن مقاتل بن حيَّان ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَهلَ الجَنَّةِ لَيَحْتَاجُونَ إلى الْعُلَمَاءِ فِي الْجَنَّةِ كما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَذٰلِك أَنَّهُمْ يَزُورُونَ رَبَّهُمْ في كلِّ جُمُعَةٍ فيقول لَهُمْ : تَمنَّوا ، فَيقُولونَ : وَمَا نَتَمَنَّى وَقَدْ أَدْخَلْتَنا الْجَنَّةَ وَقَدْ أَعْطَيْتَنا ما أعْطَيْتَنَا ، فَيُقَالُ لَهُمْ : تَمنَّوا ، فَيَلْتَفِتُونَ إلى الْعُلماءِ » وذكر الحديث في قصَّة الجمعة .

وروى ابن مَنْدَهْ من حديث الأعمش ، عن أبي وائل ، عن حُذيفة رضي الله

---

(١) قصمه : كسره .

(٢) الوصم : الصدع والعيب .

(٣) كذا وردت بالأصل ، والأصح أبو اليقظان .

(٤) كذا .. ولعل الأصح (في مسنده) .

عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قصَّة الجمعة بطولها وفيها يقول : « سَلُوني فيقولون : أَرِنا وَجْهَكَ رَبَّ العَالَمِينَ نَنْظُرْ إِلَيْكَ ، فَيَكْشِفُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتعالى تِلْكَ الْحُجُبَ وَيَتَجلَّى لَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ » .

وذكر عثمان الدَّارمي ، عن محمد بن كعب القُرَظي ، أنه حدَّث عمرَ بن عبدالعزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقبل في ظُلَل من الغمام والملائكة فيسلِّم على أهل الجنة في أوّل درجةٍ فيردُّون عليهِ السلام ، قال القُرظي : وهذا في القرآن ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾[1] فيقولُ : سلوني ، يفعل بهم ذلك في درجهم حتى يستويَ على عرشه ، ثم تأتيهم التُّحَفُ من الله تحمله[2] الملائكة إليهم .

وقال عبدالواحد بن زيد ، عن الحسن : لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدُّنيا . وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلّى لأهل الجنة فإذا رأوه نَسُوا نعيم الجنة .

أعجبُ الصبر صبرُ المحبين . قال الشاعر :

والصبرُ يُحْمَد في المواطن كلِّها ... إلَّا عليك فإنه لا يُحْمَدُ[3]

وقف رجلٌ على الشبلي فقال : أي الصبر أشدُّ على الصابرين ؟ قال : الصبر في الله ، فقال السائل : لا ، فقال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ، قال : لا ، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخةً كادت روحُه تَزْهَق . قال الشاعر :

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُهُ ... والصبرُ في سائر الأشياء محمود

---

(١) يس (٣٦ / ٥٨) .

(٢) كذا وردت ببعض الأصول والأصح (تحملها) .

(٣) تقدم هذا البيت .

الخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحبّ يسوقك إليه سوقاً . لما علم الله سبحانه أن قلوبَ المشتاقين إليه لا تهدأ إلاَّ بلقائه ضرب لهم أجلاً للقاء تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لآتٍ ﴾[1] .

يا من شكى شوقَه من طول فُرقته ... إصبر لعلّك تَلْقى من تحبُّ غدا
وسِرْ إليه بنار الشوق مجتهداً ... عساك تلقى على نار الغرام هدى

المحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه .

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يوماً ... إذا دَنَت الْخِيامُ من الخيامِ[2]

كلما وقع بصرُ المحبِّ على محبوبه أحدثت له رؤيتُه شوقاً على شوقه :

ما يَرْجعُ الطَّرْفُ عنه حين يبصره ... حتى يعودَ إليه الطرفُ مشتاقا

المحب الصادق إذا سافر طرفُه في الكون لم يجد له طريقاً إلاّ على محبوبه ، فإذا انصرف بصرُه عنه رجع إليه خاسئاً[3] وهو حسير[4] .

ويَسْرَحُ طرفي في الأنام ويثنني ... وإنسانُ عيني بالدُّموع غريق
فيَرْجِعُ مردوداً إليك ومالَه ... على أحدٍ إلاَّ عليكَ طريق

أقرُّ شيءٍ لعيون المحبّ خلوتُه بسرّه مع محبوبه . حدَّثني من رأى شيخَنا في عُنْفُوان أمره ، خرج إلى البريَّة بكرةً فلما أصحر[5] تنفَّس الصُّعَداء ثم تمثل بقول الشاعر :

---

(١) العنكبوت (٢٩ / ٥) .
(٢) وروي الشطر الثاني : (إذا دنت الديار من الديار) .
(٣) خاسئاً : ذليلاً .
(٤) حسير : كليل ، أعياه النظر وأضناه البحث .
(٥) أصحر : خرج إلى الصحراء .

وأخــرُجُ من بين البيــوت لعلّني أُحدّث عنك القلبَ بالسرّ خاليا(١)

الشوقُ يحمل المحبّ على العَجَلة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفَوْر ولو كان فيها تَلَفُه . ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾(٢) قال بعضُهم : أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا .

ولو قلتِ طَأْ في النـارِ أعلمُ أنه رضاً لكِ أو مُدْنٍ لنا من وصالكِ
لقـدّمْت رِجلي نحـوها فـوطِئْتُها هدىً منكِ لي أو ضِلَّةً من ضلالكِ
لِيَهْنِكِ إمساكي بكفّي على الحشا ورَقراقُ عيني خشيةً من زِيالكِ(٣)
وإن ســاءني أن نِلتِني بمســاءةٍ لقـد سرّني أني خـطرتُ ببالـكِ

من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يَتِمّ له سرورٌ إلّا بمحبوبه ، وما دام غائباً عنه فعيشُه كلُّهُ مُنَغَّصٌ .

نحن في أكمـل الســرور ولكن لـيس إلّا بكـم يَتِـمُّ الســرورُ
عيبُ ما نحن فيه يـا أهل ودي أنكـم غُيَّـبٌ ونـحـن حـضـور

وقال آخر :

من ســرّه العيــدُ الجـديـد فقـد عَـدِمتُ بـه الســرورا
كــان الســرور يَـتِـمُّ لـي لـو كان أحبـابي حضـورا

لو قيل للمحبّ على الدّوام : ما تتمنى ؟ لقال : لقاء المحبوب .

ولما نـزلنـا منزلاً طَلّهُ النـدى أنيقـاً وبستانـاً من النَّوْرِ حـاليا(٤)

---

(١) تقدم ذكر هذا البيت .
(٢) طه (٢٠ / ٨٣ ـ ٨٤) .
(٣) رقرق الماء : صبه برقة ، وزايله : فارقه .
(٤) حاليا : متحليا مزدانا .

أجدَّ[1] لنا طيبُ المكان وحسنُه منىً فتمنَّينا فكنت الأمانيا

وقال الْجُنيد : سمعت السريَّ يقول : الشوق أجلُّ مقامِ العارف إذا تحقّق فيهِ ، وإذا تحقّق بالشوق لها عن كل ما يَشْغَلُه عمن يشتاق إليه . وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، قل لشبان بني إسرائيل لِمَ تَشْغَلُون نفوسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم ؟ ما هذا الجفاء ؟ ولو يعلم المُدْبِرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ وانقطعت أوصالهم من محبتي . هذه إرادتي للمُدْبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين عليّ ؟ وسئل الْجُنَيْد من أي شيءٍ بكاء المحب إذا لقي المحبوب ؟ فقال : إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدَّة الشوق إليه ، قال : ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما : واشوقاه وقال الآخر : واوجدْاه . وكانت عجوزٌ لها غائبٌ فقدم من السفر فأظهر أهلُها الفرح والسرورَ به . فجعلت تبكي فقيل لها : ما هذا البكاء ؟ فقالت : ذكّرني قدومُ هذا الفتى يوم القدوم على الله .

وقال بعضُ المحبين : قلوبُ المشتاقين منوَّرةٌ بنور الله ، فإذا تحرَّك اشتياقُهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول : هؤُلاء المشتاقون إليّ أُشهدكم أني إليهم أشوق .

فصل

قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى : سئل أبو سليمان الدّاراني رحمه الله وأنا حاضرٌ ما أقرب ما يُتَقرّب به إلى الله عزَّ وجلّ ؟ فبكى ثم قال : مثلي يُسأل عن هذا ؟ أقربُ ما يُتَقرّب به إليه أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدُّنيا والآخرة إلا هو[2] . وقال يحيى بن مُعاذ[3] : النسكُ هو العناية بالسرائر وإخراجُ ما سوى

---

(١) أجد : أحدث جديداً .

(٢) كذا . . . ولعله (والآخرة غيره) كما في حلية الأولياء .

(٣) يحيى بن معاذ : هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، أبو زكريا ، واعظ زاهد ، لم يكن له نظير في =

الله من القلب . وقال سهل بن عبدالله : ما من ساعةٍ إلاّ واللَّهُ سبحانه يطّلع فيها على قلوب العباد ، فأي قلبٍ رأى فيه غيرَه سلّطَ عليه إبليس . وقال سهل بن عبدالله : من نظر إلى الله عزَّ وجلّ قريباً منه بَعُد عن قلبه كلُّ شيءٍ سوى الله ، ومن طلب مرضاتَه أرضاه الله سبحانه وتعالى ، ومن أسلم قلبه إلى الله تولّى الله جوارحَه . وقال سهل أيضاً : حرام عَلَى قلبٍ أن يَشَمّ رائحةَ اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله ، وحرامٌ عَلَى قلبٍ أن يدخلَه النورُ وفيه شيءٌ مما يكره الله . وسئل بعضُهم عن أفضل الأعمال فقال : رعايةُ السرّ عن الالتفات إلى شيءٍ سوى الله عزَّ وجلّ . وقال مسلم(١) : تركتموه وأقبل بعضُكم عَلَى بعضٍ ، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب .

فصل

فإن تقاصرت(٢) همتُك الدّنيّة عن ترك الفواحش محبةً لهذا المحبوب الأعلى ولست هناك فاتركها محبةً للنساء اللاّتي وصفَهن الله في كتابه ، وبعث رسولَه داعياً إلى وصالهنّ في جنة المأْوى . وقد تقدَّم ذكرُ بعض صفاتهنّ ولذَّة وصالهنَّ ، فإن تقاصرت همتُك عنهنّ ولم تكن كفؤاً لخطبتهنّ ودعتك نفسُك إلى إيثار ما هاهنا عليهنّ فكن من عقوبته العاجلة والآجلة عَلَى حذر . واعلم أن العقوبات تختلف ، فتارةً تُعَجَّل وتارةً تؤخَّر وتارةً يجمع الله عَلَى العاصي بينهما . وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان ، ودونها العقوبةُ بموت القلب ومحوِ لذَّة الذكر والقراءة والدُّعاء والمناجاة منه ، وربما دبّت عقوبةُ القلب فيه دبيبَ الظلمة إلى أن يمتلِىءَ القلبُ بهما فتعمي البصيرة ، وأهونُ العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدُّنيا ، وأهونُ منها ما وقع بالمال ، وربما كانت عقوبةُ النظر في البصيرة أو في البصر أو فيهما .

= وقته ، من أهل الري مات بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ . طبقات الصوفية (١٠٧ - ١١٤) ، وصفة الصفوة (٤ / ٧١ - ٨٠) .

(١) وفي لسان الميزان (سلم) وحلية الأولياء (سالم بن سيمون الخواص) .

(٢) تقاصرت : تضاءلت .

قال الفُضيل[1] . يقول الله تعالى : ابنَ آدم إذا كنتُ أُقلّبك في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذر لئلا أصرعك بين معاصيك ، ابن آدم اتَّقِني ونم حيث شئت ، إنك إن ذكرتني ذكرتُك ، وإن نسيتني نسيتُك ، والساعة التي لا تذكرني فيها عليك لا لك .

وقال الفضيل أيضاً : ما يؤْمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعملٍ مقتَك عليه فأغلقَ عنك أبوابَ المغفرة وأنت تضحك ؟ وقال علقمة بن مَرْثَد : بينا رجلٌ يطوف بالبيت إذ بَرَق له ساعدُ امرأةٍ فوضع ساعدَه عَلَى ساعدها فالتذّ به فلَصِقت ساعداهما ، فأتى بعضَ أولئك الشيوخ فقال : ارجِع إلى المكان الذي فعلتَ هذا فيه فعاهد ربَّ البيت أن لا تعود ، ففعل فخلى عنه .

وقال ابن عباس ، وأنس رضي الله عنهم : إن للحسنة نوراً في القلب ، وزَيْناً في الوجه ، وقوّةً في البدن ، وسَعَةً في الرزق ، ومحبةً في قلوب الخلق . وإن للسيئة ظلمةً في القلب . وشَيْناً في الوجه ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضةً في قلوب الخلق .

وقال الحسن : ما عصى اللّهَ عبدٌ إلاّ أذلّه الله . وقال المعتَمِرُ بن سليمان : إن الرجل لَيُصيب الذنبَ في السرّ فيصبح وعليه مَذَلّته . وقال الحسن : هانوا عليه فعَصَوْه ولو عزُّوا عليه لعصمهم . وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول : من سرّه أن تدوم له العافية فليتّقِ الله .

وقال أبو سليمان الدّاراني : من صفا صفا له ، ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كُفِيَ في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كُفِيَ في ليله ، ومن ترك لله شهوةً من قلبه فاللّهُ أكرمُ أن يعذّب بها قلبَه . وكتبت عائشة أُم المؤمنين رضي الله

---

(١) الفضيل : سبقت ترجمته .

عنها إلى معاوية : أما بعد فإن العامل إذا عمل بمعصية الله عاد حامدُه من الناس ذامًّا .

وقال مُحَارِبُ بن دِثَار : إنّ الرجلَ لَيُذْنِبُ الذنبَ فيجد له في قلبه وهناً .

وقال الحسين بن مُطَير :

ونفسَك أكْرِمْ عن أمورٍ كثيرةٍ فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها
ولا تقرَبِ الأمر[1] الحرامَ فإنما حلاوتُه تفنى ويبقى مَرِيُرها

وكان سفيان الثوري يتمثّل بهذين البيتين :

تفنى اللّذاذةُ ممن ذاق[2] صفوتَها من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ في مَغَبَّتِها لا خيرَ في لذّةٍ من بعدها النارُ

فصل

واعلم أن الجزاء من جنس العمل ، والقلب معلّق بالحرام كلما هم أن يفارقَه ويخرجَ منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤُه في البرزخ وفي الآخرة هكذا .

وفي بعض طُرُق حديث سَمُرَةَ بن جُنْدَبٌ الذي في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رَأَيتُ اللّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي فانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَإِذَا بَيْتٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يوقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ فَإِذَا أُوقِدَتِ النَّارُ ارْتَفَعُوا حَتَّى يَكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا أُخْمِدَتْ رَجَعُوا فِيهَا فَقُلْتُ : مَنْ هٰؤُلاءِ ؟ قالَ : هُمُ الزُّنَاةُ » . فتأمل مطابقَةَ هذا العذاب لحال قلوبهم في الدُّنيا فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنُّور الشهوة إلى فضاء التوبة أُركِسُوا[3] فيه وعادوا بعد أن كادوا يخرجون .

ولما كان الكفّار في سجن الكفر والشِّرك وضيقِه وكانوا كلما هموا بالخروج

---

(١) تقدم هذان البيتان .

(٢) تقدم هذان البيتان أيضاً .

(٣) أركسوا فيه : قلبوا فيه وعادوا إليه بقبح وتنكيل .

منه إلى فضاء الإيمان وسعَتَه ورَوْحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك ، قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾(١) . وقال في موضعٍ آخرَ : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾(٢) فالكفرُ والمعاصي والفسوقُ كلُّه غمومٌ ، وكلما عزم العبدُ أن يخرج منه أبت عليه نفسُه وشيطانُه ومألَفُه ، فلا يزال في غمّ ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدُّنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمِّه وضيقِه هاهنا خرج منه هناك ، فما حبسَ العبدَ عن الله في هذه الدّار حَبَسه عنه بعد الموت ، وكان معذَّباً به هناك كما كان قلبه معذّباً به في الدُّنيا ، فليس العشاق(٣) والفَجَرَة والظَّلَمَةُ في لذَّةٍ في هذه الدار ، وإنما هم يعذَّبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم ، فإذا حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون أُحْضِرَت نفوسُهم الألمَ الشديدَ ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم . فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى ، والدُّود يأكل جسومهم .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : حدَّثنا إسماعيل بن عبدالكريم قال : حدَّثني عبدالصمد بن مَعقِل ، حدَّثني وهب بن منَبّه قال : كان حزقيل قائماً فأتاه ملَكٌ فذكر حديثاً طويلاً وفيه أنه مرّ بقومٍ أموات فقيل له : ادْعُهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال : سلهم فيمَ كنتم ؟ فقالوا : لما فارقْنا الحياةَ لَقِينا ملَكاً يقال له ميكائيل فقال : هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم فذلك سُنَّتُنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم ، فنظروا في أعمالنا فوجدونا نعبد الأوثان ، فسلّط الدُّود عَلَى أجسادنا وجعلت الأرواح تألَم ، وسلّط الغمّ على أرواحنا وجعلت الأجساد تألَم ، فلم نزل كذلك نعذَّب حتى دعوتنا .

---

(١) السجدة (٣٢ / ٢٠) .

(٢) الحج (٢٢ / ٢٢) .

(٣) كذا وردت ببعض الأصول ولعلها (الفساق) فربما تكون تحريفاً .

الباب السابع والعشرون

فيمن ترك محبوبه حرامًا فبذل له حلالًا أو أعاضه الله خيرًا منه

عنوانُ هذا الباب وقاعدتُه أن من ترك لله شيئاً عوَّضه الله خيراً منه ، كما ترك يوسف الصِّديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجنَ عَلَى الفاحشة فعوَّضه الله أن مكَّنه في الأرض يتبوأُ(١) منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرةً سائلةً راغبةً في الوصل الحلال فتزوّجها ، فلما دخل بها قال : هذا خيرٌ مما كنتِ تريدين . فتأمَّلْ كيف جزاه الله سبحانه وتعالى عَلَى ضيق السجن أن مكّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء ، وأذلّ له العزيزَ وامرأتَه ، وأقرّت المرأة والنِّسوةُ ببراءته ، وهذه سُنَّتُه تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة . ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيلَ التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الرِّيحَ يَسير عَلَى مَتْنِها(٢) حيث أراد . ولما ترك المهاجرون ديارَهم لله وأوطانَهم التي هي أحبُّ شيءٍ إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدُّنيا وملّكهم شرقَ الأرض وغربَها . ولو اتقى اللَّهَ السارِقُ وترك سَرِقَةَ المال المعصوم لله لآتاه الله مثلَه حلالاً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

---

(١) يتبوأ منزلاً : ينزله .

(٢) متنها : ظهرها .

يَحْتَسِبُ ﴾[1] فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك ما لا يَحِلّ له رَزَقه الله من حيث لا يحتسب ، وكذلك الزاني لو ترك ركوبَ ذلك الفرج حراماً لله لأثابه اللَّهُ بركوبه أو ركوب ما هو خيرٌ منه حلالاً .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا هشيم ، حدَّثنا عبدالرَّحمن بن إسحاق ، عن مُحَارِب بن دِثار ، عن صِلَة ، عن حُذيفة بن اليَمَان رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النَّظْرَةُ إلى المَرْأةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللَّهِ أثَابَهُ اللَّهُ إيماناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ في قلبِهِ » .

وقال عمرُ بن شَبَّة : حدَّثنا أحمد بن عبداللَّه بن يونس ، حدَّثنا عَنْبَسَةُ بن عبدالرحمن ، حدَّثنا أبو الحسن المدَني ، عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مَحَاسِنِ الْمَرْأةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذٰلِكَ السَّهْمِ أعْقَبَهُ اللَّهُ عِبادَةً تَسُرُّهُ » .

وقال أبو الفرج بن الجوزي[2] رحمه الله تعالى : بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرةٍ فإذا جاريةٌ حسناءُ عليها ثيابُ سوادٍ ، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها :

قد كنتُ أحسبُ أن الشمس واحدةً
والبدرَ في منظرٍ بالحسن موصوفُ
حتى رأيتُكِ في أثواب ثاكلةٍ
سُودٍ وصدغُك فوقَ الخدّ معطوفُ

---

(١) الطلاق (٦٥ / ٢ ـ ٣) .

(٢) أبو الفرج بن الجوزي : وهو عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج عالم عصره في التاريخ والحديث ، كثير التصانيف ، مولده ووفاته ببغداد سنة ٥٩٧ هـ . راجع وفيات الأعيان (١ / ٢٧٩) ، ومفتاح السعادة (١ / ٢٠٧) ، وابن الوردي (٣ / ٩١) ، ودائرة المعارف الإسلامية (١ / ١٢٥) .

فَـرُحــت والـقــلبُ مــني هــائـمٌ دَنِـفٌ
والـكِـبْـدُ حَـرَّى ودمـعُ الـعـيــن مَـذْروفُ
رُدِّي الـجـوب فـفـيـه الـشـكـرُ واغـتـنـمـي
وصـلَ الـمـحـبِّ الـذي بـالـحـبِّ مـشـغـوفُ

ورمى بالرقعة إليها ، فلما قرأتها كتبت :

إن كـنـت ذا حـسـبٍ زاكٍ وذا نـسـبٍ
إن الـشـريـفَ بـغضِّ الـطَّرف مـعـروفُ
إن الـزُّناة أُنـاسٌ لا خَـلاقَ لهم فاعلم بأنـك يومَ الـدِّين موقـوفُ
واقطع رَجاكَ لحاكَ الله[1] من رجلٍ فإن قلبي عن الفحشاء مصـروف

فلما قرأ الرُّقعة زجر نفسه وقال : أليس امرأةٌ تكون أشجعَ منك ؟ ثم تاب ولبس مِدْرَعَةً[2] من الصوف والتجأ إلى الحرم ، فبينا هو في الطواف يوماً وإذا بتلك الجارية عليها دِرْعٌ من صوف فقالت له : ما أليق هذا بالشريف ، هل لك في المباح ؟ فقال : قد كنت أروم هذا قبل أن أعرِف الله وأحبَّه ، والآن قد شغلني حبُّه عن حبِّ غيره ، فقالت له : أحسنت ، ثم طافت وهي تنشد :

فطفنا فلاحت في الطواف لـوائحٌ غَنِينَا بها عن كل مَرْأى ومَسْمَعِ

وقال الحسن البصري : كانت امرأةٌ بَغِيٌّ قد فاقت أهل عصرها في الحسن لا تمكِّن من نفسها إلا بمائة دينار ، وإن رجلاً أبصرها فأعجبته . فذهب فعمِل بيديه وعالج[3] فجمع مائة دينار ، فجاء فقال : إنكِ قد أعجبتني فانطلقت فعمِلت بيدي وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت : ادفعها إلى القَهْرَمان[4] حتى يَنْقُدَها

(١) لحاك الله : قبحك الله ولعنك .
(٢) المدرعة : ثوب من الصوف وجبة مشقوق مقدمتها .
(٣) عالج الشيء معالجة وعلاجاً : زاوله ومارسه .
(٤) القهرمان : الوكيل القائم بتدبير شؤونها وأعمالها من صادر ووارد .

ويزنها ، فلما فعل قالت : ادخل ، وكان لها بيتٌ مُنَجَّدٌ وسريرٌ من ذهب فقالت : هلمَّ لك ، فلما جلس منها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدي الله فأَخذته رِعدةٌ وطَفِئَتْ شهوتُه فقال : أتركيني لأخرج ولك المائة دينار ، فقالت : ما بدا لك وقد رأيتني كما زعمت فأَعجبتُك فذهبت فعالجت وكَدَحت حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت عليَّ فعلت الذي فعلت ؟ فقال : ما حملني على ذلك إلا الفَرَقُ من الله ، وذكرتُ مقامي بين يديه ، قالت : إن كنت صادقاً فما لي زوجٌ غيرُك قال : ذَريني لأخرج قالت : لا إلَّا أن تجعل لي عهداً أن تتزوّجَني فقال : لا حتى أخرج ، قالت : عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوّجني ، قال : لعلَّ ، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده ، وارتحلت المرأةُ بدنياها نادمةً عَلَى ما كان منها حتى قدمت بلده ، فسألت عن اسمه ومنزله فدُلَّتْ عليه ، فقيل له : الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك ، فلما رآها شَهِقَ شَهقةً فمات ، فأُسقط[1] في يدها فقالت : أمّا هذا فقد فاتني ، أمَا له من قريب ؟ قيل : بلى أخوه رجلٌ فقيرٌ ، فقالت : إني أتزوّجك حبًّا لأخيك ، قال : فتزوّجته فولدت له سبعة أبناء .

وقال يحيى بن عامر التيمي : خرج رجلٌ من الحيّ حاجًّا فورد بعض المياه ليلًا ، فإذا هو بامرأةٍ ناشرةٍ شعرَها ، فأعرض عنها فقالت له : هلمّ إليّ فلِمَ تعرض عني ؟ فقال : إني أخاف الله ربَّ العالمين ، فتجلببت[2] ثم قالت : هِبْتَ والله مُهاباً ، إنَّ أَوْلى من شَركك في الهيبة لَمَنْ أراد أن يَشْرَكَك في المعصية ، ثم ولَّت فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحتُ أتيتُ رجلًا من القوم فسألته عنها وقلت : فتاةٌ صِفتُها كذا وكذا فقال : هي واللّه ابنتي ، فقلت : هل أنت مُزَوِّجي بها ؟ فقال : عَلَى الأكفاء فمن أنت ؟ فقلت : رجلٌ من تَيْم ِ الله ، قال : كُفؤٌ كريم ، فما رِمْتُ حتى تزوّجتُها ودخلت بها ، ثم قلت : جهّزُوها إلى

---

(١) يقال أسقط في يده أو كسر في ذرعه أي تحير وأخذته الدهشة والحيرة والندم .

(٢) تجلبت البست الجلباب وهو القميص الذي يلبس كالملاءة فوق الثياب تشتمل به المرأة .

قدومي من الحجّ ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة ، وها هي ذي ولي منها بنون وبناتٌ ، قال : فقلت لها : ويحك ما كان تعرُّضُكِ لي حينئذ ؟ فقالت : يا هذا ليس للنساء خيرٌ من الأزواج ، فلا تعجبنّ من امرأة تقول هويت ، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها .

وقال الحسن بن زيد : ولِيَنا بديار مصر رجلٌ فوجد[1] على بعض عُمَّاله فحبسه وَقيَّده ، فأشرفت عليه ابنة الوالي فهَوِيَتْهُ فكتبت إليه :

أيها الرامي بعينيه وفي الطرف الحتُوفُ
إن تُرِدْ وصلاً فقد أمْكَنَكَ الظبيُ الألوفُ

فأجابها الفتى :

إن تَرَيْني زانيَ العَيْنَيْنِ فالفرجُ عفيفْ
ليس إلاّ النظر الفاتِرُ والشعرُ الظريفُ

فأجابته :

قد أردناك فألْفَيْناك[2] إنساناً عفيفاً
فتأبَّيت فلا زِلْتَ لقيدَيْك حليفاً

فأجابها :

ما تأبَّيت لأني كنت للظبي عَيوفا[3]
غير أني خِفْتُ ربًّا كان بي بَرًّا لطيفا

فذاع الشعر وبلغت القصّة الوالي فدعا به فزوّجه إياها ودفعها إليه .

---

(١) وجد عليه : غضب عليه .
(٢) ألفيناك : وجدناك .
(٣) عيوفاً : زاهداً في الشيء كارهاً له .

وذكر أن رجلاً أحبّ امرأةً وأحبته ، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلي ليس بيدي ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجلُ قد دنا فنلقي الله عاصيَيْن ، فقالت : صدقت ، فتابا وحسُنت حالهما وتزوّجت به .

وذكر بكر بن عبدالله المُزَني أن قصّاباً وَلِعَ بجاريةٍ لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلُها إلى حاجةٍ في قريةٍ أُخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل : لأنا أشدُّ حبًّا لك مني ، ولكنّي أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أُخافه ؟ فرجع تائباً ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقُه ، فإذا هو برسولٍ لبني إسرائيل ، فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، فقال : تعالَ حتى ندعوَ الله حتى تظلّنا سحابةٌ حتى ندخل القرية ، قال : ما لي من عملٍ فأدعوَهُ ، قال : فأنا أدعوه وأمِّن أنت ، فدعا وأمَّن الرجل ، فأظلتهما سحابةٌ حتى انتهينا إلى القرية ، فذهب القصّاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسولُ فقال : زعمت أنْ ليس لك عملٌ وأنا الذي دعوت وأنت أمّنت ، فأظلتنا سحابةٌ ثم تبعَتْك ، لَتُخْبِرَنّي ما أمرُك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس بمكانه .

وقال يحى بن أيوب : كان بالمدينة فتًى يُعجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه شأنُه ، فانصرف ليلةً من صلاة العشاءِ فتمثّلت[1] له امرأةٌ بين يديه . فعرّضت[2] له بنفسها ففُتِنَ بها ومضت ، فأتبعها حتى وقف عَلَى بابها فأبصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾[3] فخرَّ مغْشِيًّا عليه ، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميّت ، فلم تزل هي وجاريةٌ لها يتعاونان عليه حتى ألقياه عَلَى باب داره ، فخرج

(١) تمثلت له : عرضت بنفسها له .
(٢) عرضت له بنفسها : اغرته بنفسها وتصدت له .
(٣) الأعراف (٧ / ٢٠١) .

أبوه فرآه مُلْقىً على باب الدار لما به فحمله وأدخله فأفاق ، فسأله ما أصابك يا بنيّ ؟ فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره ، فلما تلا الآية شهق شهقةً فخرجت نفسُه ، فبلغَ عمرَ رضي الله عنه قصّتُه فقال : ألا آذنتموني[1] بموته ؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى : يا فلان ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[2] فسمع صوتاً من داخل القبر : قد أعطاني ربي يا عمر .

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضي الله عنه على وجهٍ آخر قال : كان شابٌّ على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ملازماً للمسجد والعبادة ، فَهَوِيَتْهُ جاريةٌ فحدّث نفسه بها ، ثم إنه تذكّر وأبصر فشهق شهقةً فغُشِيَ عليه منها ، فجاء عمٌّ له فحمله إلى بيته ، فلما أفاق قال : يا عمّ انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال : لك جنّتان .

وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كانَ ذو الكِفْلِ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ ، فأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فأَعْطَاها سِتِّينَ دِيناراً عَلَى أَنْ يَطَأَها ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْها مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ أُرْعِدتْ وَبَكَتْ ، فَقَالَ مَا يُبْكِيكِ ؟ أَكْرَهْتُكِ ؟ قالَتْ : لا وَلٰكِنْ هٰذا عَمَلٌ لَم أَعْمَلْهُ وَإِنَّما حَمَلَتْني عَلَيْهِ الْحاجَةُ ، قال : فَتَفْعَلِينَ هٰذا وَأَنْتِ لَم تَفْعَلِيهِ [قَطُّ] ؟ ثُمّ قال ، اذْهَبي وَالدّنانيرُ لَكِ ، ثُمَّ قال : والله لَا يَعْصِي اللَّهَ ذُو الكِفْلِ أَبَداً ، فَمَاتَ مِنْ لَيلَتِه فأَصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِه : قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِذِي الكِفْلِ » . قال الترمذي : هذا حديث حسن .

وقال أبو هريرة ، وابن عباس رضي الله عنهم : خطب رسولُ الله صلى الله

---

(١) آذنتموني : أخبرتموني .

(٢) الرحمن (٥٥ / ٤٦) .

عليه وسلم قبل وفاته فقال في خطبته : « وَمَنْ قَدَرَ امْرَأَةٍ أَوْ جَارِيَةٍ حَراماً فَتَرَكَها مَخَافَةً مِنَ اللَّهِ أَمَنَهُ اللَّهُ يَوْمَ الفَزَعِ الأكْبَرِ وَحَرَّمَهُ عَلَى النَّارِ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » .

وقال مالك بن دينار : جناتُ النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن ، فيها جوارٍ خُلِقْنَ من ورد الجنة ، يسكنها الذين همّوا بالمعاصي فلما ذكروا الله عزَّ وجلَّ راقبوه ، فانثنت رقابهم من خشيةَ الله عزَّ وجلَّ .

قال ميمون بن مهران : الذِّكرُ ذكران : فذكرُ الله عزَّ وجلَّ باللسان حسن ، وأفضل منه أن تذكر الله عزَّ وجلَّ عند ما تُشرف[1] على معاصيه .

وقال قَتَادة رضي الله عنه : ذُكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « لَا يَقْدِرُ رجُلٌ عَلَى حرام ٍ ثُمَّ يَدَعُهُ لَيْسَ بِهِ إلاَّ مَخَافَةُ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ إلاَّ أَبْدَلَهُ فِي عاجِلِ الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذٰلك » .

وقال عبيد بن عُمَير : صدقُ الإيمان وبِرُّه أن يخلوَ الرجل بالمرأة الحسناء فيدعَها لا يدعُها إلاَّ لله عزَّ وجلَّ .

وقال أبو عِمْران الْجَوني : كان رجلٌ من بني إسرائيل لا يمتنع من شيء ، فَجَهِدَ[2] أهل بيتٍ من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جاريةً منهم تسأله شيئاً فقال : لا أوْ تمكنيني من نفسك ، فخرجت فجهدوا جهَداً شديداً فرجعت إليه فقالت : أعْطنا فقال : لا أو تمكنيني من نفسك ، فرجعت ، فجهدوا جهَداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك ، فقالت : دونك ، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السعَفَةُ ، قال لها : مالك ؟ قالت : إني أخاف الله ربَّ العالمين ، هذا شيءٌ لم أصنعه قطّ ، قال : أنتِ تخافين الله ولم تصنعيه وأفعلُه ؟ أُعاهد الله أني لا أرجع إلى شيء مما كنت فيه ، فأوحى الله إلى نبيّ من أنبيائهم أن فلاناً أصبح من كتب أهل الجنة .

(١) يشرف على المعصية : يقترب من المعصية ويصبح قاب قوسين أو أدنى منها .
(٢) جهد أهل البيت : أجدبوا .

وذُكر أن شابًا في بني إسرائيل لم يكن فيهم شابٌ أحسن منه كان يبيع المَكاتِل ، فبينا هو ذاتَ يوم يطوف بمَكاتِله إذ خرجت امرأة من دار ملِك من ملوك بني إسرائيل ، فلما رأته رجعت مبادرةً فقالت لابنة الملك : إني رأيت شاباً بالباب يبيع المكاتِلَ لم أر شابًا قطُّ أحسنَ منه ، قالت : أدخليه فخرجت فقالت : ادخل فدخل ، فأغلقت الباب دونه ، ثم قالت : ادخل فدخل ، فأغلقت باباً آخرَ دونه ، ثم استقبلته بنتُ الملك كاشفةً عن وجهها ونحرها ، فقال لها : استتري عافاك الله ، فقالت : إنا لم نَدْعُك لهذا ، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه ، فقال لها : اتقي الله ، قالت : إنك إنْ لم تطاوعني على ما أريد أُخبرت الملك أنك إنما دخلت تكابرني[1] على نفسي ، قال لها : فضعي لي وَضوءاً ، فقالت : أُعليّ تتعلّل ؟ يا جارية ضعي له وَضوءاً فوق الْجَوسَق[2] مكاناً لا يستطيع أن يَفِرّ منه ، فلما صار في الْجَوْسَق قال : اللهمّ إني دُعيتُ إلى معصيتك وإني أختار أن أُلقيَ نفسي من هذا الْجَوْسق ولا أركب معصيتك ، ثم قال : بسم الله وألقى نفسه من أعلاه ، فأهبط الله ملكاً أخذ بضبْعَيْه[3] فوقع قائماً على رجليه ، فلما صار في الأرض قال : اللهمّ إن شئتَ رزقتني رزقاً يغنيني عن بيع هذه المَكاتِل ، فأرسل الله عليه رِجْلاً[4] من جَرادٍ من ذهبٍ فأخذ منه حتى ملأ ثوبه ، فلما صار في ثوبه قال : اللهمّ إن كان هذا رزقاً رزقتَنيه من الدُّنيا فبارك لي فيه ، وإن كان ينقصني مما لي عندك في الآخرة فلا حاجة لي فيه ، فنودي إن هذا الذي أعطيناك جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً لصبرك على إلقائك نفسَك ، فقال : اللهمّ فلا حاجة لي فيما ينقصني مما لي عندك في الآخرة ، فرُجعَ الجراد .

---

(١) تكابرني عن نفسي : تراودني عنها .
(٢) الجوسق : الحصن أو القصر .
(٣) الضبع : هو ما بين الإبط إلى الكتف .
(٤) رجلا من جراد : طائفة هائلة منه .

وذكر أبو الفرج بن الجوزي عن رجلٍ من بعض المياسير[1] قال : بينا أنا يوماً في منزلي إذ دخل عليَّ خادمٌ لي فقال لي : رجلٌ بالباب معه كتابٌ ، فقلت : أدخله أو خذ كتابه ، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه :

تجنّبك الردى[2] ولَقِيتَ خيراً ... وسلّمك المليكُ من الغموم
شكونَ بنات أحشائي إليكم ... وما إن تشتكين إلى ظلوم
وسَألَتني الكتابَ إليك فيما ... يخامرها - فدَتْك - من الهموم
وهنّ يقلن يا ابن الجود إنا ... بَسرِ منا من مراعاة النجوم
وعندك لو مَنَنْتَ شفاءُ سُقْمٍ ... لأعضاءٍ دمِينَ من الكلُوم[3]

قال : فلما قرأت الأبيات قلت : عاشق ، فقلت للخادم : أدخله ، فخرج فلم يرَه فارتَبْتُ في أمره ، فجعل الفكر يتردد في قلبي ، فدعوت جواريّ كلهن فجمعتهن فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب ؟ فحلفن لي وقلن : يا سيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سبباً ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتني وما أردت سؤ الكنّ إلاّ أني ظننت له هوىً في بعضكنّ ، فمن عرفت منكنّ أنها صاحبته فهي له ، فلتذهب إليه ولتأخذ كتابي إليه ، وكتبت كتاباً أشكره على فعله وأسأله عن حاله ، ووضعت الكتاب في موضع من الدّار ، فمكث الكتاب في موضعه حيناً لا يأخذه أحد ولا أرى الرجل ، فاغتممت غمًّا شديداً . ثم قلت : لعله بعض فتياننا ، ثم قلت : إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع ، وقد قنع ممن يحبه بالنظر ، فدبرت عليه فحجبت جواريّ عن الخروج ، فما كان إلا يومٌ وبعض الآخر إذ دخل عليّ الخادمُ ومعه كتابٌ قال : أرسل به إليك فلان ، وذكر بعضَ أصدقائي ففضضته فإذا فيه مكتوبٌ :

---

(١) المياسير : جمع مفرده ميسور أي غني .
(٢) الردى : الهلاك .
(٣) الكلوم : جمع كلم وهو الجرح .

مـاذا أردتَ إلـى روحٍ معـلّقـةٍ عند التراقي[1] وحادي الموت يَحْدُوها
حَثَثْتُ حـاديَهـا ظلمـاً فجـدَّ بهـا في السير حتى تولّت عن تراقيها
حجبت مَن كان تحيا عند رؤيتها روحي ومَن كـان يشفيني ترائيهـا
فالنفسُ تجنَحُ نحو الظلم جـاهلةً والقلبُ مني سليمٌ مـا يؤاتيهـا
واللهِ لـو قيل لي تـأتي بفاحشـةٍ وإن عقبـاك دنيـانـا ومـا فيهـا
لقلت لا والـذي أخشى عقوبتَه ولا بـأضعـافهـا مـا كنتُ آتيهـا
لـولا الحياء لبُحْنـا بالـذي كتمت بنتُ الـفؤاد وأبـدينـا تَمَنّيهـا

قال : فبهتُّ وقلت : لا أدري ما أحتال في أمر هذا الرجل ، وقلت للخادم : لا يأتيك أحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه حتى تدخلَه عليّ ، ثم لم أعرف له خبراً بعد ذلك ، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذا فتىً قد أقبل نحوي ،جعل يطوف إلى جنبي ويلاحظني ، وقد صار مثلَ العود ، فلما قضيت طوافي خرجت وأتبعني فقال : يا هذا أتعرفني ؟ قلت : لا أنكرك لسوء ، قال : أنا صاحب الكتابين ، فما تمالكت أن قبّلت رأسه وبين عينيه وقلت : بأبي أنت وأمي ، والله لقد شغلت قلبي وأطلت غمّي بشدّة كتمانك لأمرك ، فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال : بارك الله لك وأقرّ عينيك ، إنما أتيتك أستَحِلّك[2] من نظرةٍ كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسُّنّة ، والهوى داعٍ إلى كل بلاء ، وأستغفر الله العظيم ، فقلت : يا حبيبي أحبُّ أن تصير معي إلى منزلي فآنسَ بك وتجريَ الْحُرمة بيني وبينك ، قال : ليس إلى ذلك سبيل ، فقلت : غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار ، ولك في كل سنةٍ كذا وكذا ، قال : بارك آلله لك فيها ، فلولا عهودٌ عاهدت الله عليها وأشياء أكدتها عليّ لم يكن في الدُّنيا شيءٌ أحبُّ إليّ من هذا الذي تَعْرِضه عليّ ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدُّنيا منقطعة ، فقلت له : فإذا أبيت أن تقبل مني ذلك

---

(١) التراقي : جمع ترقوة وهي العظمة المشرفة بين العاتق وثغرة النحر . وعند التراقي كناية عن الموت .
(٢) استحله : طلب أن يحله له .

فأخبرني من هي حتى أكرمَها لأجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لأذكرها لأحدٍ ، ثم قام وتركني .

وذكر عبدالملك بن قُرَيب قال : هَوِيَ رجلٌ من النساءِ جاريةً فاشتدّ حبُّه لها . فبعث إليها يخطبها . فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك[1] ، فأبى وقال : لا إلاَّ ما أحلّ الله ، ثم إن محبّته أُلقيت في قلبها فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله لا حاجة لي بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعتني إلى معصيته .

وحكى المبرِّدُ[2] عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصده بعضُ أهل الذمة ليقرأ عليه « كتاب سيبويه »[3] وبذل له مائة دينار ، فامتنع وردّه ، فقلت له : أَتَرُدُّ هذا القدر مع شدّة فاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل عَلَى ثلاثمائةٍ وكذا وكذا آيةً من كتاب الله ، ولست أرى تمكينَ هذا الذميَّ[4] منها غيرةً عَلَى القرآن . فاتفق أن غنّت جاريةٌ بحضرة الواثق بقول العَرْجِيّ :

أظلومُ إن مصـابَكم رجــلًا ... أهدي السلامَ تحيَّـةً ظلمُ ؟

فاختلف أهل مجلسه في إعراب رجلٍ ، فمنهم من قال : هو نصب وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه عَلَى أنه خبرها ، والجارية أصرّت عَلَى النصب وقالت : لقّنني إياه كذلك شيخي أبو عثمان المازني ، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه ، قال : فلمّا مَثَلْتُ بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أيُّ

---

(١) أي امتنعت عن الزواج وأجابت إلى غير ذلك أي إلى الوصل الحرام .

(٢) المبرِّد : هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس إمام العربية ببغداد في زمنه ، وأحد أئمة الأدب والأخبار ، ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٢٨٦ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٤٩٥) ، وتاريخ بغداد (٣ / ٣٨٠) ، وآداب اللغة (٢ / ١٨٦) ، ولسان الميزان (٥ / ٤٣٠) ، وطبقات النحويين (١٠٨ ـ ١٢٠) .

(٣) سيبويه : هو عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو بشر إمام النحاة ولد في إحدى قرى شيراز وعاش بالبصرة وتوفي شاباً سنة ١٨٠ هـ . وفيات الأعيان (١ / ٣٨٥) ، والبداية والنهاية (١٠ / ١٧٦) ، وطبقات النحويين (٦٦ / ٧٤) .

(٤) الذمي : هو المعاهد الذي أعطى عهداً يؤمن به على عرضه وماله ودينه .

الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلّمني بكلام قومي فقال لي : با اسمك ؟ وقومي يقلبون الميم باء والباءَ ميما ، فكرهت أن أُواجهه بلفظة مكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته وأعجب به فقال : ما تقول في قول الشاعر :

أظلومُ إن مصــابَكم رجــلاً   أهدى السلامَ تحيـةً ظلمُ ؟

أترفع رجلاً أم تنصبه ؟ فقلتُ : الوجهُ النصب يا أمير المؤمنين : فقال : ولِمَ ذلك ؟ فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربَك زيداً ظلمٌ ، فرجلاً مفعول مصابكم ومنصوبٌ به ، والدَّليل عليه أن الكلام معلَّقٌ إلى أن تقول ظلم فَيَتِمّ ، فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُنَيَّة ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

أيـا أبتــا لا تَــرِمْ[1] عـنـدنـا   فـإنـا بـخـيـر إذا لـم تَـرِمْ
تــرانـا إذا أضمــرتــك[2] البـلا   دُ نُجْفـى وتُقْـطَع منّـا الـرّحِمْ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قلت قولَ جرير :

ثـقي بـالله لـيس لـه شـريـكٌ   ومِن عنـد الخليفـة بـالنجـاح

فقال : عليّ النجاح إن شاء الله ، ثم أمر لي بألف دينار ، وردَّني إلى البصرة مُكرَماً ، فقال أبو العباس المبرّد : فلما عاد إلى البصرة قال لي : كيف رأيتَ يا أبا العباس ؟ رددنا لله مائة دينار فعوّضنا الله ألفاً .

---

(١) رام مكانه : فارقه وبرحه .

(٢) أضمرته البلاد : بالطرد أو بالموت .

الباب الثامن والعشرون

فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان : أحدُهما مَن تمكّن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعدّ الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه ، فآثر أدنى الفَوْتَيْن ، واختار أسهلَ العقوبتين . والثاني رجلٌ غلب عقلُه على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد ، وما في العُدول عنها من المصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى ، وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسفَ الصدّيق صلوات الله وسلامُه عليه بين الأمرين ، فاختار عقوبة الدُّنيا بالسجن على ارتكاب الحرام ، فقالت المرأةُ : ﴿ ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ . قال ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصرِفْ عَنِّي كَيدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيهِنَّ وأَكُنْ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾[(1)] فاختار السجن على الفاحشة ، ثم تبرّأ إلى الله من حوله وقوّته ، وأخبر أن ذلك ليس إلاّ بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال : ﴿ وإلاَّ تَصرِفْ عَنِّي كَيدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فلا يَركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفّته ، ومتى ركن إلى ذلك تخلّت عنه عصمةُ الله وأحاط به الخذلان . وقد قال الله تعالى لأكْرم الخلق عليه وأحبِّهم إليه : ﴿ وَلَولاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَد كِدْتَ تَركَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَليلاً ﴾[(2)] ولهذا

---

(١) يوسف (١٢ / ٣٢ ـ ٣٣) .

(٢) الإسراء (١٧ / ٧٤) .

كان من دعائه : « يا مُقلِّبَ القُلُوبِ ثبِّت قلبِي على دِينِك »[1] ، وكانت أكثر يمينه « لاَ ومُقلِّبِ القُلُوبِ »[2] كيف وهو الذي أُنزل عليه : ﴿ وَٱعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَينَ الْمَرءِ وَقَلبِهِ ﴾[3] وقد جرت سنَّة الله تعالى في خلقه أن من آثر الألم العاجلَ على الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدُّنيا المسرّةَ التامَّة ، وإن هلك فالفوز العظيم ، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله .

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى : بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي . وكل من خرج عن شيءٍ منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجلُّ منه ، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون ، وعوَّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدانَ طيرٍ خُضر جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت . وتأوى إلى قناديلَ مُعلَّقةٍ بالعرش[4] ، ولما تركوا مساكنهم له عوَّضهم مساكنَ طيبةً في جنات عدن ذلك الفوز العظيم .

وقال وهب بن مُنبِّه : كان عابد من عُبّاد بني إسرائيل يتعبّد في صومعة ، فجاء رجلٌ من بني إسرائيل إلى امرأةٍ بغيٍّ فبذل لها مالاً وقال : لعلك أن تقتنيه ، فجاءته في ليلةٍ مَطيرةٍ فنادته فأشرف عليها ، فقالت : آوِني إليك ، فتركها وأقبل على صلاته ، فقالت : يا عبدالله آوِني إليك ، أما ترى الظلمة والمطر ؟ فلم تزل به حتى آواها ، فاضطجعت قريباً منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعته نفسه إليها ، فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فتقدّم إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها ، فعاود

---

(١) الحديث : رواه الترمذي وحسنه عن أنس والحاكم وصححه عن جابر بزيادة « قالوا : وتخاف يا رسول الله ؟ قال وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبه كيف يشاء » وعند البخاري عن ابن عمر : لا ومقلب القلوب . كشف الخفا (٢ / ٥٤٥ ـ ٥٤٦) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه .

(٣) الأنفال (٨ / ٢٤) ، يقول الإمام الألوسي : يحول الله بين المرء وقلبه أي يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان . روح المعاني (٩ / ١٩١) .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت ، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعاً وهي تنظر ، فَصَعِقَت وماتت .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا إبراهيم بن خالد ، حدَّثنا أمية بن شبل ، عن عبداللَّه بن وهب قال : لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابداً من بني إسرائيل كان في صومعته يتعبَّد ، فإذا نفرٌ من الغُواة قالوا : لو استنزلناه بشيءٍ فذهبوا إلى امرأةٍ بَغِيٍّ فقالوا لها : تعرَّضي له ، فجاءته في ليلةٍ مظلمةٍ مَطيرة فقالت : يا عبداللَّه آوِني إليك ، وهو قائم يصلي ومصباحُه ثاقبٌ[1] ، فلم يلتفت إليها ، فقالت : يا عبداللَّه الظُّلمة والغيث[2] ، آوني إليك ، فلم تزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلي ، فجعلت تتقلَّب وتريه محاسنَ خَلقها حتى دعته نفسُه إليها . فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك عَلَى النار ، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه فيه حتى احترقت ، قال : ثم رجع إلى مُصلَّاه ، قال : فدعته نفسُه أيضاً ، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضاً حتى احترقت أصابعه وهي تنظر إليه فَصَعِقَت فماتت . فلما أصبحوا غَدَوْا لينظروا ما صنعت ، فإذا بها ميتة ، فقالوا : يا عدوّ الله يا مُرائي ! وقعت عليها[3] ثم قتلتها ، قال : فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه ، فأمر بقتله ، فقال : دعوني حتى أُصليَ ركعتين ، قال : فصلى ثم دعا فقال : أي ربِّ إني أعلم أنك لم تكن لتؤاخذني بما لم أفعل ، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً عَلَى القُرى بعدي ، قال : فردّ الله نفسَها فقالت : أنظروا إلى يده ، ثم عادت ميتة .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدَّثنا محمد بن جعفر ، حدَّثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : بينما رجلٌ عابدٌ عند امرأةٍ إذ عَمَد فضرب بيده عَلَى فَخِذها ، فأخذ يده فوضعها في النار حتى نَشَّت[4] .

---

(١) ثاقب : مضيء .

(٢) الغيث : المطر .

(٣) وقع عليها : تغشاها وجامعها .

(٤) نشت : احترقت ، ونش اللحم : سمع صوت قليه على المقلي .

وقال حُصَين بن عبدالرحمن : بلغني أن فتىً من أهل المدينة كان يشهد الصَّلواتِ كلَّها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان عمر يتفقَّده إذا غاب ، فعشقته امرأةٌ من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نسائها ، فقالت : أنا أُحتال لك في إدخاله عليك ، فقعدت له في الطريق ، فلما مرّ بها قالت له : إني امرأةٌ كبيرةُ السنّ ولي شاةٌ لا أستطيع أن أحلِبَها ، فلو دخلت فحلبتها لي ، وكانوا أرغبَ شيءٍ في الخير ، فدخل فلم يَرَ شاةً ، فقالت : اجلس حتى آتيَك بها ، فإذا المرأة قد طلعت عليه ، فلما رأى ذلك عَمَد إلى محرابٍ في البيت فقعد فيه فأرادته[1] عن نفسه فأبى وقال : اتقي الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تَكُفّ عنه ولا تلتفت إلى قوله : فلما أبى عليها صاحت عليه فجاؤوا فقالت : إن هذا دخل عليَّ يريدني عن نفسي ، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه ، فلما صلّى عمرُ الغداةَ فقده ، فبينا هو كذلك إذ جاؤوا به في وَثاقٍ ، فلما رآه عمر قال : اللهمّ لا تُخلِف ظني به ، قال : ما لكم ؟ قالوا : استغاثت امرأةٌ بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلامَ عندها فضربناه وأوثقناه ، فقال عمر رضي الله عنه : اصْدُقني ، فأخبره بالقصة على وجهها ، فقال له عمر رضي الله عنه : أتعرف العجوز ؟ فقال : نعم إن رأيتها عرفتها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهنَّ فجاء بهنَّ فعرضهنَّ ، فلم يعرفها فيهنّ ، حتى مرت به العجوز فقال : هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدِّرَّةَ وقال : أصدُقيني ، فقصّت عليه القصة كما قصها الفتى . فقال عمر : الحمد لله الذي جعل فينا شبيهَ يوسف .

وقال أبو الزناد : كان راهبٌ يتعبَّد في صومعته فأشرف[2] منها فرأى امرأةً ففتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فنزلت عليه العصمة فقال : رِجْلٌ خرجت من الصومعة لتعصيَ اللَّهَ واللَّهِ لا تعود معي في صومعتي ، فتركها

---

(١) أرادته عن نفسه : راودته عنها .

(٢) أشرف : اطلع .

معلقةً خارجَ الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت ، فشكر اللَّهُ ذلك من صنعه ، ومدحه في بعض كتبه بذي الرِّجل .

وقال مُصْعَب بن عثمان : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأةٌ بيتَه ، فسألته نفسه فامتنع عليها ، فقالت : إذن أفْضَحُك ، فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه .

وقال جابر بن نوح : كنت بالمدينة جالساً عند رجل في حاجةٍ ، فمرّ بنا شيخٌ حسن الوجه حسن الثياب ، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وَقال : يا أبا محمد أسأل الله أن يعْظم أجرك ، وأن يربُط عَلَى قلبك بالصبر ، فقال الشيخ :

وكان يميني في الوغي(١) ومساعدي فأصبحتُ قد خانت يميني ذراعُها
وقد صِرْتُ حيراناً من الثُّكل باهتاً أخا كلَفٍ ضاقت(٢) عليّ رباعُها(٣)

فقال له الرجل : أبشر فإن الصبر مُعَوَّل المؤمن ، وإني لأرجو أن لا يَحْرِمَك الله الأجرَ عَلَى مصيبتك ، فقلت له : من هذا الشيخ ؟ فقال : رجلٌ منا من الأنصار ، فقلت : وما قصته ؟ قال : أصيب بابنه وكان به بارًّا قد كفاه جميعَ ما يَعنيه ، ومَنِيَّتُه عَجَبٌ ، قلت : وما كانت ؟ قال أحبته امرأةٌ فأرسلت إليه تشكوا حبَّه وتسأله الزيارة ، وكان لها زوج فألحت عليه ، فأفشى ذلك إلى صديقٍ له ، فقال له : لو بعثت إليها بعضَ أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكُفّ عنك ، فأمسك ، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى ، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأةٍ كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب(٤) في تهييجه ، فعمِلت لها في ذلك ، فبينا هو ذاتَ ليلةٍ مع أبيه إذ خطر ذكرُها بقلبه وهاج منه أمرٌ لم يكن يعرفه

(١) الوغي : الحرب لما فيها من جلبة وصخب .
(٢) الكلف : هو حمرة كدرة تعرو الوجه .
(٣) الرباع : جمع ربع وهو الدار والمنزل والحي ويجمع الربع على رباع وأربع .
(٤) الرغائب : جمع رغبة ورغيبة وهي العطاء الجزل .

واختلط[1] ، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والأمر يشتدّ ، فقال : يا أبه أدركني بقيد ، فقال : يا بنيّ ما قصتك ؟ فحدَّثه بالقصة ، فقام وقيّده وأدخله بيتاً ، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ، ثم هدأ فإذا هو ميّت والدَّم يسيل من مَنْخرِه .

فصل

وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب . قال أبو إدريس الأودي : كان رجلان في بني إسرائيل عابدان ، وكانت جاريةٌ جميلةٌ فأحباها وكتم كلُّ منهما صاحبَه ، واختبأ كلُّ منهما خلف شجرة ينظر إليها ، فَبَصُر[2] كلُّ منهما سرّه إلى صاحبه ، فاتفقا على أن يراوداها ، فلما قُربت منهما قالا لها : قد عرفت منزلتنا في بني إسرائيل ، وإنك إن لم تؤاتينا وإلَّا قلنا إذا أصبحنا : إنا أصبنا معك رجلًا ، وإنه أفلتنا ، وإنا أخذناك ، فقالت : ما كنت لأطيعَكما في معصية الله ، فأخذاها وقالا : إنا أصبنا معها رجلًا فأُفلتنا ، وأقبل نبيٌّ من أنبيائهم فوضعوا له كرسيًّا فجلس عليه وقال : أقضي بينكم ؟ فقالا : نعمْ اقضِ بيننا ، ففرّق بين الرجلين وقال لأحدهما : خلف أي شجرةٍ رأيتها ؟ قال : شجرة كذا وكذا ، وقال للآخر ، فقال : شجرة كذا وكذا غير التي ذكر صاحبُه ، ونزلت نارٌ من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة .

وقال عبدالله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه فأرادها فقالت : إن أباك مسّني ، فشغف بها وقال فيها :

أرى ماءً وبي عطشٌ شديدٌ ... ولكن لا سبيلَ إلى الورود[3]
أما يكفيكِ أنكِ تملكيني ... وأن الناس عندي كالعبيد
وأنك لو قطعتِ يدي ورِجلي ... لقلت من الرضا أحسنت زيدي

---

(١) اختلط عقله وخولط فيه : فسد .
(٢) أطلعه عليه : أظهره عليه .
(٣) إلى الورود : إلى بلوغه والقرب منه .

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال : أوَ كلما قالت جارية شيئاً تصدّق ؟ قال ابن المبارك : فلا أدري ممن أعجب ، من هارون الرشيد حيث رغب فيها ، أو منها حيث رغبت عنه ، أو من أبي يوسف حيث سوّغ(١) له إتيانها .

وقال أبو عثمان التيمي : مرّ رجلٌ براهبةٍ من أجمل النساء فافتتن بها ، فتلطّف في الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت : لا تغترّ بما ترى وليس وراءه شيءٌ ، فأبى حتى غلبها عَلَى نفسها وكان إلى جانبها مَجْمَرة فوضعت يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قالت : إنك لما قهرتني عَلَى نفسي خِفتُ أن أشاركك في اللذّة فأشاركك في المعصية ففعلت ما رأيت ، فقال الرجل : والله لا أعصى الله أبداً وتاب مما كان عليه .

وذكر الحسين بن محمد الدامغاني أن بعض الملوك خرج يتصيّد وانفرد عن أصحابه ، فمر بقريةٍ فرأى امرأةً جميلةً فراودها عن نفسها ، فقالت : إني غير طاهر فأتطهر وآتيك ، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتابٍ فقالت : انظر في هذا حتى آتيَك ، فنظر فيه فإذا فيه ما أعدّ الله للزاني من العقوبة فتركها وذهب ، فلما جاء زوجُها أخبرته الخبر ، فكره أن يقربَها مخافةَ أن يكونَ للملك فيها حاجةٌ فاعتزلها ، فاستعدى(٢) عليه أهلُ الزوجة إلى الملك وقالوا : إن لنا أرضاً في يد الرجل فلا هو يَعْمُرُها ولا هو يردّها علينا وقد عطّلها ، فقال الملك : ما تقول ؟ فقال : إني رأيتُ في هذه الأرض أسداً وأنا أتخوّف دخولهَا منه ، ففهم الملك القصة فقال : اعْمُرْ أرضك فإن الأسد لا يدخلها ، ونعم الأرض أرضك .

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجلٍ مُوسِرٍ وكانت جميلة وكانت تُخْطَب فتأبى ، فبلغ الرَّجُلَ أنها تريد الحجّ ، فاشترى ثلاثمائة بعيرٍ ونادى :

---

(١) سوّغ له : جوّزه .

(٢) استعداه : استنصره واستعانه .

من أراد الحج فليَكْتَرِ من فلانٍ ، فاكترت منه المرأة ، فلما كان في بعض الطريق جاءها فقال : إمّا أن تزوّجيني نفسَك ، وإمّا غير ذلك ، فقالت : ويحك اتّقِ الله ! فقال : ما هو إلّا ما تسمعين ، والله ما أنا بجمّالٍ ولا خرجت إلّا من أجلك ، فلما خافت على نفسها قالت : ويحك انظر أبقىَ في الرّجال عينٌ لم تنم ؟ فقال : لا . ناموا كلّهم ، قالت : أفنامت عين ربّ العالمين ؟ ثم شهقت شهقةً خرّت ميتة ، وخرّ الرجُل مَغْشِيًّا عليه، فلما أفاق قال : ويحي قتلت نفساً ولم أبلغ شهوتي .

وقال وهب بن مُنبّه : كان في بني إسرائيل رجلٌ متعبّدٌ شديدُ الاجتهاد فرأى يوماً امرأةً فوقعت في نفسه بأوّل نظرة ، فقام مسرعاً حتى لحقها فقال : رويدك يا هذه ، فوقفت وعرفته فقالت : ما حاجتك ؟ قال : أذاتُ زوجٍ أنت ؟ قالت : نعم فما تريد ؟ قال : لو كان غير هذا لكان لنا رأي ، قالت : على ذلك وما هو ؟ قال : عرض بقلبي من أمرك عارض[1] ، قالت : وما يمنعك من إنفاذه ؟ قال : وتتابعيني على ذلك ؟ قالت : نعم ، فحلت به في موضعٍ فلما رأته مُجِدًّا في الذي سأل قالت : رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده ، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال : لا حَرَمكِ اللّهُ ثوابَ فعلك . ثم تنحّى ناحية فقال لنفسه : اختاري إمّا عمى العين ، وإمّا الْجَبُّ[2] ، وإمّا السياحة مع الوحوش ، فاختارت السياحةَ مع الوحوش ، فكان كذلك إلى أن مات .

وأحبَّ رجلٌ جاريةً من العرب وكانت ذاتَ عقل وأدب ، فما زال يحتال في أمرها حتى اجتمع معها في ليلةٍ مظلمةٍ شديدة السواد ، فحادثها ساعةً ثم دعته نفسه إليها فقال : يا هذه قد طال شوقي إليك ، قالت : وأنا كذلك ، فقال : هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب ، قالت : هكذا تَفْنى الشهوات وتنقطع اللّذّات فقال لها : لو دنوت مني . فقالت : هيهات أخاف البعد من الله ، قال : فما الذي دعاك

---

(١) عرض بالقلب عارض : خطر بالنفس خاطر .

(٢) الجب : المقطوع والمبتوت ، والمجبوب : من استؤصلت مذاكيره .

إلى الحصور معي ؟ قالت : شقوتي وبلائي ، قال لها : فمتى أراك ؟ قالت : ما أنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ، ثم تولت . قال : فاستحيَيْتُ مما سمعت منها ، وأنشد :

توقّت عذاباً لا يطاق انتقامُه ولم تأتِ ما تخى به أن تُعَذَّبا
وقالت مقالاً كدتُ من شدة الحيا أهيم على وجهي حيـاً وتعجُّبـا
ألا أفّ للحبّ الذي يورث العمى ويُـورد نـاراً لا تَمَـلُّ التلهُّبـا
فأقبل عَـوْدي فوق بَـدْئي مفكـراً وقد زال عن قلبي العمى فتسرّبا

وقال ابن خلف : أخبرني أبو بكر العامري قال : عشقت عاتكة المُرِّيَّة ابن عمٍّ لها ، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت :

فما طعمُ ماءٍ من سحابٍ مُرَوَّقٍ تحدَّر من غرٍّ طوالِ الذوائب[1]
بمُنْعَرِجٍ[2] أو بطنِ وادٍ تطلعت عليه رياحُ الصيف من كل جانب
تَرقرق ماءُ المُزْنِ[3] فيهن والتقت عليهنّ أنفاس الرِّياض الغَرائب
نَفَتْ جِرْيَةُ الماء القذى[4] عن متونه[5] فليس بـه عيبٌ تـراه لشـارب
بأطيبَ مما يقصر الطَّرفُ دونه تُقى الله واستحياءُ تلك العواقب

---

(١) تحدَّر : تنزل .
(٢) المنعرج : المنعطف للوادي .
(٣) المزن : جمع مزنة وهي السحابة تحمل الماء .
(٤) القذى : ما يقع بالعين فيؤثر على الرؤية بها .
(٥) المتون : جمع متن وهو الظهر ، والمتن للأرض : ما ارتفع منها وغلظ .

الباب التاسع والعشرون

في ذم الهوى
وما في مخالفته من نيل المنى

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، وهذا الميلُ خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمَنْكَح ما أكل ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحثٌّ لها لما يريده ، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه ، فلا ينبغي ذمُّ الهوى مطلقاً ، ولا مدحُه مطلقاً ، كما أن الغضب لا يُذَمُّ مطلقاً ولا يُحْمَد مطلقاً ، وإنما يُذَمُّ المفرط من النوعين ، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضارّ ، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حدّ المنتفع به أطلق ذمّ الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر ، لأنه يَنْدُر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده ، كما أنه يَنْدُر في الأمزجة المِزاج المعتدل من كل وجه ، بل لا بدّ من غلَبة أحد الأخلاط[١] والكيفيات عليه ، فحِرْصُ الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجهٍ ، وهذا أمرٌ يتعذر وجُودُه إلا في حقّ أفرادٍ من العالم ، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلَّا ذمّه ، وكذلك في السنة لم يجيء إلَّا مذموماً إلا ما جاء منه مُقَيَّداً كقوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »[٢] . وقد قيل : الهوى كَمِينٌ لاَ يُؤْمَنُ . قال

(١) أخلاط الإنسان : أمزجته الأربعة التي قال بها القدماء وهي الماء ، والنار والهواء والتراب .
(٢) تقدم هذا الحديث .

الشَّعْبي : وسمي هوىً لأنه يهوي بصاحبه ، ومُطْلقُه يدعو إلى اللَّذة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً ، فللدنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة ، والهوى يُعمى صاحبَه من ملاحظتها ، والمرُوءَةُ والدِّين والعقل ينهي عن لذَّةٍ تعقب أَلماً ، وشهوةٍ تورث ندماً ، فكلٌّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك : لا تفعلي ، والطاعة لمن غلب ، ألا ترى أن الطفل يُؤْثر ما يهوي وإن أدّاه إلى التلَف لضعف ناهي العقل عنده ، ومن لا دين له يُؤْثر ما يهواه وإن أدّاه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدِّين ، ومن لا مُرُوءَةَ له يُؤْثر ما يهواه وإن ثَلَم[1] مُرُوءته أو عدمها لضعف ناهي المُرُوءة ، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لو علمتُ أن الماء البارد يَثْلِم مُرُوءتي لما شربته .

ولمّا امتُحن المكلّفُ بالهوى من بين سائر البهائم وكان كلّ وقتٍ تحدُث عليه حوادثُ جُعل فيه حاكمان : حاكم العقل وحاكم الدِّين ؛ وأُمر أن يَرفع حوادثَ الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما ، وينبغي أن يتمرّن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرَّن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه . وليعلم اللبيبُ أن مُدْمني الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذُّون بها . وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بُدّ لهم منه ، ولهذا ترى مدْمن الخمر والجماع لا يلتذّ به عُشْرَ معشار التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان ، غير أن العادة مقتضيةٌ ذلك فيُلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة ، ولو زال عنه رَيْن[2] الهوى لعلم أنه قد شَقِيَ من حيث قدّر السعادة ، واغتمَّ من حيث ظنَّ الفرح ، وأَلِم من حيث أراد اللذّة . فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح ، لا هو نَال الْحَبَّة ولا هو تخلص مما وقع فيه ، فإن قيل : فكيف يتخلص مِنْ هذا مَنْ قد وقع فيه ؟ قيل : يمكنه التخلُّص بعون الله وتوفيقه له بأُمور :

---

(١) ثلم الجدار وثلم القدح : أحدث فيه شقاً .

(٢) الرين : الحجاب الكثيف ، والمانع السميك .

(أحدُها) : عزيمة حرٍّ يغار لنفسه وعليها .

(الثاني) : جرعة صبرٍ يصبر نفسه عَلى مرارتها تلك الساعة .

(الثالث) : قوَّة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعةُ كلُّها صبر ساعة ، وخير عيشٍ أُدركه العبد بصبره .

(الرابع) : ملاحظته حسنَ موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة .

(الخامس) : ملاحظته الألم الزائد على لذّة طاعة هواه .

(السادس) : إبقاؤُه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده ، وهو خيرٌ وأنفع له من لذَّة موافقة الهوى .

(السابع) : إيثاره لذَّة العفة وعزَّتها وحلاوتها على لذَّة المعصية .

(الثامن) : فرحه بغلَبة عدوّه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمِّه وهمِّه حيث لم ينل منه أُمْنِيَّتَه ، والله تعالى يحبّ من عبده أن يراغم[1] عدوّه ويغيظهَ كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾[2] وقال : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾[4] أي مكاناً يراغم فيه أعداءَ الله . وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومُراغمتهم .

(التاسع) : التفكُّر في أنه لم يُلْقَ للهوى وإنما هُيِّءَ لأمر عظيم لا يناله إلَّا بمعصيته للهوى كما قيل :

---

(١) يراغم عدوه : يهجره ويعاديه .

(٢) التوبة (٩ / ١٢٠) .

(٣) آخر سورة الفتح .

(٤) النساء (٤ / ١٠٠) ، والمراغم : الملجأ والمهرب والحصن .

قد هيَّأوك[١] لأمرٍ لو فَطِنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمَل

(العاشر) : أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسن حالاً منه ، فإن الحيوان يميِّز بطبعه بين مواقع ما يضرّه وما ينفعه ، فيُؤْثر النافع عَلَى الضارّ ، والإنسان أُعطي العقلَ لهذا المعنى ، فإذا لم يميِّز به بين ما يضرُّه وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضرُّه كان حال الحيوان البهيم أحسنَ منه ، ويَدُلُّ على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمَشْرَب والمنكح ما لا يناله الإنسان مع عيشٍ هنيءٍ خالٍ عن الفكر والهمِّ ، ولهذا تُساقُ إلى مَنْحَرِها[٢] وهي منهمكةٌ عَلَى شهواتها لفقدان العلم بالعواقب ، والآدمي لا يناله ما يناله الحيوان لقوّة الفكر الشاغل ، وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك ، فلو كان نيل المشتهى فضيلةً لما بُخس منه حقُّ الآدمي الذي هو خلاصة العالم ، ووفر منه حظُّ البهائم ، وفي توفير حظ الآدمي من العقل والعلم والمعرفة عِوَضٌ عن ذلك .

(الحادي عشر) : أن يسير بقلبه في عواقب الهوى فيتأمل كم أفاتت معصيتُه[٣] من فضيلة ، وكم أوقعت في رذيلة ، وكم أكلةٍ منعت أكلات ، وكم من لذّةٍ فوَّتت لذّات ، وكم من شهوةٍ كسرت جاهاً ، ونكست رأساً ، وقبَّحت ذكراً ، وأورثت ذمًّا ، وأعقبت ذلًّا ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء ، غير أن عينَ صاحب الهوى عمياء .

(الثاني عشر) : أن يتصوّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصوّر حالَه بعد قضاءِ الوطر[٤] وما فاته وما حصل له .

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً   حتى يميـز لما تجنى عـواقبه

(١) وفي لامية الطغرائي (قد رشحوك) ، والهمل : المهمل .
(٢) المنحر : موضع النحر في الحلق ، ومكان الذبح في البهائم .
(٣) لعل الأصوب : (كم أفات طاعته من فضيلة) .
(٤) الوطر : الحاجة وجمعها أوطار .

(الثالث عشر) : أن يتصوّر ذلك في حقِّ غيره حق التصوُّر ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ، فحكم الشيء حكم نظيره .

(الرابع عشر) : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله ودينَه يُخبرانه بأنه ليس بشيء . قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : إذا أعجب أحدَكم امرأةٌ فليذكر مَنَاتِنَهَا ، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين :

لــو فكَّــر العــاشقُ في منتهى حسنِ الـذي يسبيـه[1] لم يَسْبِـه

لأن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر الحال الحاضرة الملازمة ، والشاعر حال على أمر متأخر .

(الخامس عشر) : أن يأْنفَ لنفسه من ذلّ طاعة الهوى ، فإنه ما أطاع أحدٌ هواه قط إلّا وجد في نفسه ذُلّاً ، ولا يغترّ بصولة[2] أتباع الهوى وكِبْرهم فهم أذلُّ الناس بواطنَ ، قد جمعوا بين فصيلتَي الكبرِ والذلُّ .

(السادس عشر) : أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يحد بينهما نسبة البَتَّة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

(السابع عشر) : أن يأْنفَ لنفسه أن يكون تحت قهر عدوّه ، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمةٍ وهمةٍ وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحسّ منه بقوّة عزمٍ وشرفِ نفسٍ وعلوِّ همةٍ لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة .

(الثامن عشر) : أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلّا أفسده ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبُه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع

---

(١) يسبيه : يأسره من السبي وهو الأسر .
(٢) الصولة : السطوة والمقدرة

في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحقّ ، وإن وقع في القِسْمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الْجَوْر ، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يُوَلِّي بهواه ويعزِل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعةً وقربةً ، فما قارن شيئاً إلا أفسده .

(التاسع عشر) : أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ عَلَى ابن آدم إلا من باب هواه ، فإنه يُطِيفُ به من أين يدخل عليه حتى يفسدَ عليه قلبه وأعماله ، فلا يجد مدخلاً إلاّ من باب الهوى ، فيسري معه سرَيان السمّ في الأعضاء .

(العشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله ، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله ، وقسم الناس إلى قسمين : أتباعِ الوحي ، وأتباع الهوى ، وهذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[2] ونظائرِه .

(الحادي والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى شبَّه أتباع الهوى بأخسّ الحيوانات صورةً ومعنى ، فشبّههم بالكلب تارة كقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُه كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾[3] وبالحُمر تارةً كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾[4] وقلب صُوَرَهم إلى صورة القِرَدَةِ والخنازير تارة .

---

(١) القصص (٢٨ / ٥٠) .
(٢) البقرة (٢ / ١٢٠) .
(٣) الأعراف (٧ / ١٧٦) .
(٤) المدثر (٧٤ / ٥٠ ـ ٥١) ، والحمر المستنفرة : المتوحشة . والقسورة : الأسد

(الثاني والعشرون) : أن متَّبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إماماً ولا متبوعاً ، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته ، أما عزلُه فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[1] أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً . وكل من اتبع هواه فهو ظالمٌ كما قال الله تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2] وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾[3] .

(الثالث والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل متّبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾[4] في موضعين من كتابه ، قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، وقال أيضاً : المنافق عبد هواه لا يهوى شيئاً إلا فعله .

(الرابع والعشرون) : أن الهوى هو حِظارُ[5] جهنم المحيطُ بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بالْمَكارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ » .

وفي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه : « لمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ ،

---

(١) البقرة (٢ / ١٢٤) .

(٢) الروم (٣٠ / ٢٩) .

(٣) الكهف (١٨ / ٢٨) ، وفرطاً : إسرافاً .

(٤) الفرقان (٢٥ / ٤٣) .

(٥) حظار : هو كل شيء حصر بين شيئين مثل جدار البستان

قَالَ : اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، فقالَ : وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا ، فَأَمَرَ بها فحُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ ، فقَالَ : ارْجِعْ فانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قد حُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ ، فَرجعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَنْجُو مِنْها أَحَدٌ » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(الخامس والعشرون) : أنه يُخاف عَلَى من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِما جِئْتُ بِهِ »(١) . وصحّ عنه أنه قال : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَواتُ الْغَيِّ في بُطُونِكُم وَفُرُوجِكُم وَمَضَلَّاتُ الْهَوَى »(٢) .

(السادس والعشرون) : أن اتّباع الهوى من المهلكات . قال صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ مُنْجِياتٌ وثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : فأمّا الْمُنْجِياتُ فَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في السِّرِّ والعَلَانِيَةِ ، والقولُ بالْحَقِّ في الرِّضا والسَّخطِ ، والقَصْدُ في الغِنَى والفَقْرِ ، وَأَمَّا المُهْلِكَاتُ فَهوىً مُتَّبَعٌ ، وشُحٌّ مُطَاعٌ ، وإعْجَابُ المَرْءِ بنَفْسِهِ »(٣) .

(السابع والعشرون) : أن مخالفة الهوى تورث العبد قوَّةً في بدنه وقلبه ولسانه ، قال بعض السلف : الغالبُ لهواه أشدُّ من الذي يفتح المدينة وحدَه . وفي الحديث الصحيح المرفوع : « لَيْسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ ولكن الشَّدِيد الَّذي يَملكُ نَفْسَهُ عنْدَ الغضَبِ »(٤) وكلما تمرّن على مخالفة هواه اكتسب قوّةً إلى قوّته .

(الثامن والعشرون) : أن أغزر الناس مُرُوءَةً أشدُّهم مخالفةً لهواه . قال

(١) تقدم تخريج الحديث .
(٢) تقدم هذا الحديث .
(٣) تقدم هذا الحديث .
(٤) رواه الشيخان وغيرهما .

معاوية : المُرُوءَة ترك الشهوات وعصيان الهوى ، فاتّباع الهوى يُزمن[1] المُرُوءَة ، ومخالفته تنعُشها .

(التاسع والعشرون) : أنه ما من يومٍ إلا والهوى والعقل يعتلجان[2] في صاحبه ، فأيها قوِيَ على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له . قال أبو الدّرداء : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله[3] ، فإن كان عمله[4] تبعاً لهواه فيومُه يوم سوء ، وإن كان هواه تَبعاً لعمله[5] فيومه يوم صالح .

(الثلاثون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتّباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين ، كما قال بعض السلف : إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد فخالف أقربهما من هواك ، فإن أقربَ ما يكون الخطأ في متابعة الهوى .

(الحادي والثلاثون) : أن الهوى داء ودواؤه مخالفته ، قال بعض العارفين : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك ومخالفتُه .

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى : البلاء كلُّه في هواك ، والشفاءُ كلُّه في مخالفتك إياه .

(الثاني والثلاثون) : أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظمَ من جهاد الكفّار فليس بدونه ، قال رجلٌ للحسن البصري رحمه الله تعالى : يا أبا سعيد ، أيّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادُك هواك . وسمعت شيخنا يقول : جهادُ النفس والهوى

---

(١) يزمن : يذهب ويضعف .
(٢) يعتلجان : يصطرعان .
(٣) (٤) و (٥) لعل الصواب (عقله) .

أصلُ جهاد الكفّار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى[1] يخرج إليهم .

(الثالث والثلاثون) : أن الهوى تخليطٌ[2] ومخالفته حِمْيَةٌ[3] ، ويُخاف على من أفرط في التخليط وجانَبَ الْحِمْيَة أن يصرعَه داؤه . قال عبدالملك بن قُرَيب : مررت بأعرابي بِهِ رَمَدٌ شديد ودموعه تسيل على خدَّيه فقلت : ألاَ تمسح عينيك ؟ قال : نهاني الطبيب عن ذلك ، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر ، وإذا أُمر لا يأتمر ، فقلت : ألا تشتهي شيئاً ؟ فقال : بلى ولكني أحتمي ، إن أهل النار غلبت شهوتهم حِمْيَهُم فهلكوا .

(الرابع والثلاثون) : أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان ، فتراه يلهج[4] بأنّ الله لو وفّق لكان كذا وكذا ، وقد سدَّ عَلَى نفسه طرُق التوفيق باتباعه هواه . قال الفُضَيْل بن عياض : من استحوذ عليه الهوى واتباعُ الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق .

وقال بعض العلماء : الكفر في أربعة أشياء : في الغضب ، والشهوة ، والرغبة ، والرهبة ، ثم قال : رأيت منهن اثنتين : رجلاً غضب فقتل أُمه ، ورجلاً عشق فتنصّر . وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأةٍ جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدِّين واللذّاتُ تُعجبني
فكيف لي بهوى اللذّاتِ والدين

فقالت : دع أحدهما تَنَلْ الآخر .

(١) كذا وردت وربما يكون الصواب (ثم) .
(٢) التخليط : الاضطراب .
(٣) الحمية : الامتناع عن الضار .
(٤) لهج بالشيء : ولع به واغرى به وثابر عليه .

(الخامس والثلاثون) : أن من نصر هواه فسد عليه عقلُه ورأيه ، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنُه سبحانه وتعالى في كل من خانه في أمرٍ من الأمور ، فإنه يفسده عليه .

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه : يا فلان إذا نُصر اله لاً يقول لشيخنا : إذا خان الرجلُ في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد ـ أو قال نَسِيَه ـ ، فقال الشيخ : هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم .

(السادس والثلاثون) : أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيِّق عليها في قبره ويوم مَعاده ، ومن ضيَّق عليها بمخالفة الهوى وسّع عليها في قبره ومعاده وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ وجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾[1] . فلما كان في الصبر الذي هو حبسُ النفس عن الهوى خشونة وتضييقٌ ، جازاهم على ذلك نعومةَ الحرير وسعة الجنة . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في هذه الآية : جزاهم بما صبروا عن الشهوات .

(السابع والثلاثون) : أن اتّباع الهوى يصرع العبدَ عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين ، كما صرع قلبَه في الدُّنيا عن مرافقتهم . قال محمد بن أبي الورد : إن لله عزَّ وجلَّ يوماً لا ينجو من شرّه منقادٌ لهواه ، وإن أبطأ الصَّرْعى نهضةً يوم القيامة صريعُ شهوته ، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرُها حظاً من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر . والعقلُ مَعْدِن ، والفكر مُعَوَّل .

(الثامن والثلاثون) : أن اتباع الهوى يَحُلُّ العزائم ويوهنها ، ومخالفته تشدّها وتقوّيها . والعزائم هي مركبُ العبد الذي يسيّرهُ إلى الله والدَّار الآخرة ، فمتى تعطّل المركوبُ أوشك أن ينقطع المسافر . قيل ليحيى بن مُعاذ : مَن أصحُّ الناس عزماً ؟ قال : الغالبُ لهواه . ودخل خلف بن خليفة عَلَى سليمان بن

---

(١) الإنسان (٧٦ / ١٢) .

حبيب بن المهلب وعنده جاريةٌ يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً ، فقال له سليمان : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال : أصلح الله الأمير ما رأت عيناي أحسنَ منها قطُّ ، فقال له : خذ بيدها ، فقال : ما كنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدّة عجبه بها ، فقال : ويحكَ خذها عَلَى شدّة عجبي بها ليعلم هواي أني له غالب ، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حباني وأعطاني وفضّلني ... عن غير مسألةٍ منه سليمانُ
أعطاني البدرَ خَوْدَاً[1] في محاسنها ... والبدرُ لم يُعْطه إنسٌ ولا جانُ
ولست يوماً بناسٍ فضلَه أبداً ... حتى يغيِّبني لحدٌ وأكفانُ

(التاسع والثلاثون) : أن مثلَ راكب الهوى كمثل راكب فرسٍ حديدٍ صعبٍ جموح لا لجام له فيوشك أن يصرعَه فرسُه في خلال جَرْيه به أو يسيرَ به إلى مَهْلِكٍ . قال بعض العارفين : أسرعُ المطايا إلى الجنة الزهدُ في الدُّنيا ، وأسرعُ المطايا إلى النار حبُّ الشهوات ، و عَلَى متن هواه أسرع به إلى وادي الهلَكات . وقال آخر : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدُّنيا ، واستصعب قياده على الهوى . وقال عطاء : من غلب هواه عقلَه وجزعُه صبرَه افتضح .

(الأربعون) : أن التوحيد واتباع الهوى متضادّان ، فإن الهوى صنم ولكل عبدٍ صنمٌ في قلبه بحسب هواه . وإنما بعث اللّهُ رسلَه بكسر الأصنام وعبادته وحدَه لا شريك له ، وليس مرادُ الله سبحانه كسرَ الأصنام المجسَّدة وتركَ الأصنام التي في القلب ، بل المراد كسرُها من القلب أوَّلاً . قال الحسن بن علي المطَّوِّعي : صنمُ كلِّ إنسان هواه ، فمن كسره بالمخالفة استحقّ اسمَ الفُتُوَّة . وتأمَّل قول الخليل صلى الله عليه وسلم لقومه : « مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أنتمْ لهَا عَاكِفُونَ »[2] كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلبُ ويعكِفُ عليها ويعبدُها من دون

(١) الخود : الشابة اللدنة الناعمة الملساء .
(٢) الأنبياء (٢١ / ٥٢) .

الله ، قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[1]

(الحادي والأربعون) : أن مخالفةَ الهوى طْرَدَة للداء عن القلب والبدن ، ومتابعتَه لَبَةٌ لداء القلب والبدن ، فأمراضُ القلب كلها من متابعة الهوى ، ولو فتشت عَلى أمراض البدن لرأيت غالبَها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركهُ .

(الثاني والأربعون) : أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى ، فمن خالف هواه أراح قلبَه وبدنَه وجوارحَه فاستراح وأراح . قال أبو بكر الورّاق : إذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخُلُق ، وإذا ساء الخلقُ أبغضه الخلق وأبغضهم ، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشرّ والعداوة وترك الحقوق وغيرها .

(الثالث والأربعون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوىً وعقلاً فأيهما ظهر توارى الآخر . كما قال أبو علي الثقفي : من غلبه هواه توارى عنه عقلُه ، فانظر عاقبة من استتر عنه عقلُه وظهر عليه خلافه . وقال علي بن سهل رحمه الله : العقل والهوى يتنازعان ، فالتوفيقُ قرينُ العقل ، والخذلان قرينُ الهوى ، والنفس واقفةٌ بينهما ، فأيهما غلب كانت النفس سعه .

(الرابع والأربعون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب مَلِكَ الجوارح ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته ، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدَّتين فالحقُّ والزهدُ والهدى سلطانٌ ، وأعوانُه الملائكة وجيشُه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى ، والباطل سلطانٌ ، وأعوانُه الشياطين وجنده وعُدَّته اتّباعُ الهوى ، والنفسُ واقفةٌ بين الجيشين . ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها ، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوّه عليه فتكون الدائرة عليه ، فهي التي تعطي

---

(١)) الفرقان (٢٥ / ٤٣ - ٤٤) .

عدوّها عُدَّةً من قِبَلها ، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب .

(الخامس والأربعون) : أن أعدى عدوٍّ للمرء شيطانُه وهواه ، وأصدق صديق له عقلُه والملك الناصح له ، فإذا اتّبع هواه أعطى بيده لعدوّه واستأسر له وأشمته به وساء صديقه ووليّه ، وهذا هو بعينه هو جَهْدُ البلاء ، ودَرْكُ الشقاء ، وسوءُ القضاء ، وشماتة الأعداء .

(السادس والأربعون) : أن لكل عبدٍ بدايةً ونهايةً ، فمن كانت بدايتُه اتباعَ الهوى ، كانت نهايته الذلَّ والصغارَ والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتّبع من هواه ، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يُعَذَّب به في قلبه كما قال القائل :

مآربُ كانت في الشباب لأهلها عِذاباً فصارت في المشيب عذابا

فلو تأمّلت حال كلّ ذي حال سيئة زَرِيَّة لرأيت بدايتَه الذهابَ مع هواه وإيثاره عَلَى عقله ، ومن كانت بدايتُه مخالفة هواه وطاعةَ داعي رشده كانت نهايتُه العزَّ والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس . قال أبو علي الدَّقاق : من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته . وقيل للمهلَّب بن أبي صُفْرة : بمَ نلتَ ما نلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى ، فهذا في بداية الدُّنيا ونهايتها ، وأما الآخرةُ فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه ، والنارَ نهاية من اتبع هواه .

(السابع والأربعون) : أن الهوى رِقٌّ في القلب ، وغُلٌّ في العنق ، وقيد في الرِّجلِ ، ومُتابعه أسيرٌ لكل سيّء الملكة ، فمن خالفه عَتَقَ من رِقه وصار حرًّا ، وخلع الغُلَّ من عنقه والقيدَ من رِجله وصار بمنزلة رَجُلٍ سالمٍ لرجل ، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون[1] .

(١) متشاكسون : متعاسرون مختلفون .

رُبَّ مستورٍ سَبَتْه شهوةٌ فتعري سترُه فانهتكا
صاحبُ الشهوة عبدٌ فإذا غلبَ الشهوةَ أضحى مَلِكا

وقال ابن المبارك :

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ أن لا يُرى لك عن هواك نزوعُ
العبدُ عبدُ النفس في شهواتها والحرُّ يشبع تارةً ويجوع

(الثامن والأربعون) : أن مخالفةَ الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم عَلَى الله لأبَرّه ، فيقضي له من الحوائج أضعافَ أُضعاف ما فاته من هواه ، فهو كمن رغب عن بعرةٍ فأُعطيَ عِوَضَها درةً . ومتبعُ الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والأجلة والعيش الهنيءِ ما لا نسبة لما ظفر به من هواه الْبَتَّةَ ، فتأمَّل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانِه وقدمِه ونفسِه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام .

وقال عبدالرحمن بن مهدي(1) : رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى ، فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمر بي إلى الجنة ، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حِساً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول : سفيان بن سعيد ، فقلت : سفيان بن سعيد ، فقال : تحفظ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يوماً ؟ قلت : إي والله ، فأخذني النِّثار(2) من كل جانب .

وقال عبدالرزاق : بعث أبو جعفر الخشَّابين حين خرج إلى مكة وقال : إن

---

(1) عبدالرحمن بن مهدي : هو عبدالرحمن بن مهدي بن حسان البصري اللؤلؤي ، أبو سعيد من كبار حفاظ الحديث ، وله فيه تصانيف عديدة حدّث ببغداد ، ومولده ووفاته بالبصرة قال عنه الإمام الشافعي : « لا أعرف له نظيراً في الدنيا » أهـ . تهذيب التهذيب (٦ / ٢٧٩) ، وحلية الأولياء (٩ / ٣) ، وتاريخ بغداد (١٠ / ٢٤٠) ، واللباب (٣ / ٧٢) .
(2) النثار : ما ينثر في حفلات السرور من حلوى ونقود .

رأيتم سفيان فاصلُبوه ، فجاؤوا ونصبوا الخشب ، وطُلبَ ورأسُه في حِجْر الفضيل فقال له أصحابه : اتقِ الله عز وجلّ ولا تشمت بنا الأعداء ، فتقدّم إلى الأستار ثم أخذها بيده وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات قبل أن يدخل مكة ، فتأمل عاقبةَ مخالفة الهوى كيف أقامه في هذا المقام .

(التاسع والأربعون) : أن مخالفة الهوى توجب شرفَ الدنيا وشرف الآخرة ، وعزُّ الظاهر وعزُّ الباطن ، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في الظاهر وفي الباطن ، وإذا جمع الله الناس في صعيدٍ واحدٍ نادى منادٍ : ليعلمن أهلُ الجمع من أهل الكرم اليوم ، ألا لِيُقِم المتقون ، فيقومون إلى محل الكرامة ، وأتباع الهوى ناكسو رؤوسهم في الموقف في حرّ الهوى وعَرَقه وألمه ، وأولئك في ظل العرش .

(الخمسون) : أنك إذا تأمّلت السبعةَ الذين يظلهم الله عز وجل في ظلّ عرشهِ يوم لا ظلّ إلا ظله[1] ، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى ، فإن الإمام المسلّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه ، والشابُّ المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفةُ هواه لم يقدر على ذلك ، والرجلَ الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفةُ الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات ، والمتصدّقَ المُخْفِيَ لصدقته عن شماله لولا قهرُه لهواه لم يقدر على ذلك ، والذي دعته المرأة الجميلةُ الشريفةُ فخاف الله عزَّ وجلَّ وخالف هواه ، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته ، إنما أوصله إلى ذلك مخالفةُ هواه ، فلم يكن لحرِّ الموقف وعَرَقِه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة ، وأصحابُ الهوى قد بلغ منهم الْحَرُّ وَالْعَرَقُ كُلُّ مَبْلَغٍ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى ، فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواءِ نفوسنا الأمّارة بالسوءِ وأن يجعل هوانا تَبَعاً لما يحبُّه ويرضاه ، إنه على كل شيءٍ قدير ، وبالإجابة جدير .

---

(١) تقدم هذا الحديث .

المراجع

القرآن الكريم :

١ ـ أحكام القرآن للجصاص المتوفي سنة ٣٧٠ هـ .

٢ ـ أحكام القرآن لابن العربي الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

٣ ـ آداب الزفاف في السنة المطهرة لمحمد ناصر الدين الألباني مؤسسة المصري للكتاب . ط . ثالثة سنة ١٣٨٨ هـ .

٤ ـ إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود) المتوفى سنة ٩٥٢ هـ .

٥ ـ أساس البلاغة للزمخشري ط . الشعب بمصر سنة ١٩٦٠ م .

٦ ـ إعلام الموقعين لابن القيم .

٧ ـ الإعلام للزركلي ط . العربية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .

٨ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ط . دار الكتب المصرية .

٩ ـ الإفصاح في فقه اللغة لحسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي ط . دار الفكر العربي سنة ١٩٦٤ م .

١٠ ـ أمالي المرتضى للشريف العلوي بمصر سنة ١٩٥٤ م . ط . ثانية .

١١ ـ أنوار التنزيل للبيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥ هـ .

١٢ ـ البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر لمحمود فهمي المهندس ط . بولاق سنة ١٣١٣ هـ .

١٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير ط . مصر سنة ١٣٥٨ هـ .

١٤ ـ البدر الطالع للشوكاني ط . مصر سنة ١٣٤٨ هـ .

١٥ ـ البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق عبدالسلام هارون ط . لجنة التأليف سنة ١٣٦٩ هـ .

١٦ ـ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ط . مصر سنة ١٢٨٢ هـ.

١٧ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان مصر .

١٨ ـ تاريخ الطبري .

١٩ ـ تفسير ابن كثير ومختصر ابن كثير .

٢٠ ـ تهذيب ابن عساكر ط . دمشق سنة ١٣٥١ هـ .

٢١ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ط . حيدرآباد الدكن سنة ١٣٢٧ هـ .

٢٢ ـ جامع البيان للطبري دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨ م .

٢٣ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط . دار الكتب المصرية ط . سنة ١٩٥٢ م .

٢٤ ـ الجامع الصغير للسيوطي ط . العلمية سنة ١٩٥٤ م .

٢٥ ـ جمهرة أشعار العرب لابن أبي الخطاب ط . مصر سنة ١٣٠٨ هـ .

٢٦ ـ جمهرة رسائل العرب لزكي صفوت .

٢٧ ـ الحب وأخلاقيات الجنس في الإسلام للسيد الجميلي ط . دار المسلم بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

٢٨ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم ط . مصر سنه ١٣٥١ هـ .

٢٩ ـ خزانة الأدب للبغدادي ط . مصر سنة ١٢٩٩ هـ .

٣٠ ـ ديوان حافظ إبراهيم ط . دار المعارف سنة ١٩٣٧ م .

٣١ ـ ديوان الشوقيات لأحمد شوقي ط . دار الكتاب العربي .
٣٢ ـ ديوان المتنبي بشرح العكبري بتحقيق مصطفى السقا والإبياري وشلبي ط . دار المعرفة سنة ١٩٧٨ م .
٣٣ ـ زاد المعاد لابن القيم مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١ م .
٣٤ ـ زهرة الآداب وثمرة الألباب للحصري ط . مصر سنة ١٩٥٣ م .
٣٥ ـ صبح الأعشى للقلقشندي ط . مصر سنة ١٣٣٨ هـ .
٣٦ ـ صفوة التفاسير للصابوني .
٣٧ ـ طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ط . ليدن سنة ١٩١٣ م .
٣٨ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز ط . مصر سنة ١٩٥٦ م .
٣٩ ـ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي شرحه محمود محمد شاكر ط . مصر سنة ١٩٥٢ م .
٤٠ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ط . دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٢ م .
٤١ ـ العمدة لابن رشيق القيرواني ط . مصر سنة ١٩٠٧ م .
٤٢ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ط . مصر سنة ١٢٩٩ هـ .
٤٣ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي ط . مصر سنة ١٣٣٠ هـ .
٤٤ ـ الكامل للمبرد في اللغة والأدب ط . مصر سنة ١٣٢٣ هـ .
٤٥ ـ كشف الخفا للعجلوني ط . دار التراث بمصر بدون تاريخ
٤٦ ـ كشاف الزمخشري في تفسير القرآن الكريم .
٤٧ ـ كشف الظنون ط . استنبول سنة ١٩٤١ م .
٤٨ ـ لسان العرب لابن منظور ط . بولاق سنة ١٣٠٨ هـ .
٤٩ ـ مجالس ثعلب بتحقيق عبدالسلام هارون ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م . ط . ثالثة .

٥٠ ـ مختار الصحاح للرازي بتحقيق محمود خاطر ط . وزارة المعارف العمومية سنة ١٩١٦ .

٥١ ـ مروج الذهب للمسعودي ط . باريس سنة ١٩٣٠ م .

٥٢ ـ المستطرف في كل من مستظرف للأبشيهي .

٥٣ ـ معجم الشعراء للمرزباني ط . مصر سنة ١٣٥٤ هـ .

٥٤ ـ المنتخب من أدب العرب ط . دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٠ ، ١٩٥٤ م .

٥٥ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري ط . مصر سنة ١٢٩٤ هـ .

٥٦ ـ الوافي بالوفيات للصفدي ط . استنبول سنة ١٩٣١ م .

٥٧ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ط . مصر سنة ١٣١٠ هـ .

الفهرس

إهداء وتحية ٥
المقدمة ٧
بين يدي الكتاب ١١
الإمام ابن قيم الجوزية ١٣
رب يسر ولا تعسر ١٧
روضة المحبين ونزهة المشتاقين ٢٨
الباب الأول : في أسماء المحبة ٣١
الباب الثاني : في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها ٣٣
الباب الثالث : في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين ٧١
الباب الرابع : في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب ٧٣
الباب الخامس : في دواعي المحبة ومتعلقها ٨٣
الباب السادس : في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه ١٠٩
الباب السابع : في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما ١٢٣
الباب الثامن : في ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له

الاستمتاع وأباح عشقه ١٢٩
الباب التاسع : في الجواب عما احتجت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في
هذا الاحتجاج ١٣٩
الباب العاشر : في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه ١٥٣
الباب الحادي عشر : في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار أو أمر
اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه ١٥٩
الباب الثاني عشر : في سكرة العشاق ١٦٥
الباب الثالث عشر : في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان ١٧١
الباب الرابع عشر : فيمن مدح العشق وتمناه وغبط صاحبه على ما أوتيه في مناه ١٨٣
الباب الخامس عشر : فيمن ذم العشق وتبرم به وما احتج به كل فريق على
صحة مذهبه ١٩٥
الباب السادس عشر : في الحكم بين الفريقين وفصل النزاع بين الطائفتين .. ٢١١
الباب السابع عشر : في استحباب تغير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله
ورسوله ٢١٥
الباب الثامن عشر : في أن دواء المحبين في كمال الوصال الذي أباحه رب
العالمين ٢٢٣
الباب التاسع عشر : في ذكر فضيلة الجمال وميل النفوس إليه على كل حال ٢٣١
من قصيدة للمؤلف في وصف الحور ٢٦١
الباب العشرون : في علامات المحبة وشواهدها ٢٦٧
الباب الحادي والعشرون : في أقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم
التشريك بينه وبين غيره فيه ٢٩٥
الباب الثاني والعشرون : في غيرة المحبين على أحبابهم ٣٠١
الباب الثالث والعشرون : في عفاف المحبين مع أحبابهم ٣٢٣
الباب الرابع والعشرون : في ارتكاب سبيلي الحرام وما يقضي إليه في المفاسد
والآلام ٣٥٩
الباب الخامس والعشرون : في رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبابهم في
الوصال الذي يبيحه الدين ٣٨١
الباب السادس والعشرون : في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في

إعلامهما ٣٩٧
الباب السابع والعشرون : فمن ترك محبوبه حراماً فبذل له حلالاً أو أعاضه الله
خيراً منه ٤٤٣
الباب الثامن والعشرون : فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال
الحرام ٤٥٧
الباب التاسع والعشرون : في ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المنى ٤٦٧
المراجع ٤٨٣